النبي موسى
وآخر أيام تل العمارنة

الجزء الثاني

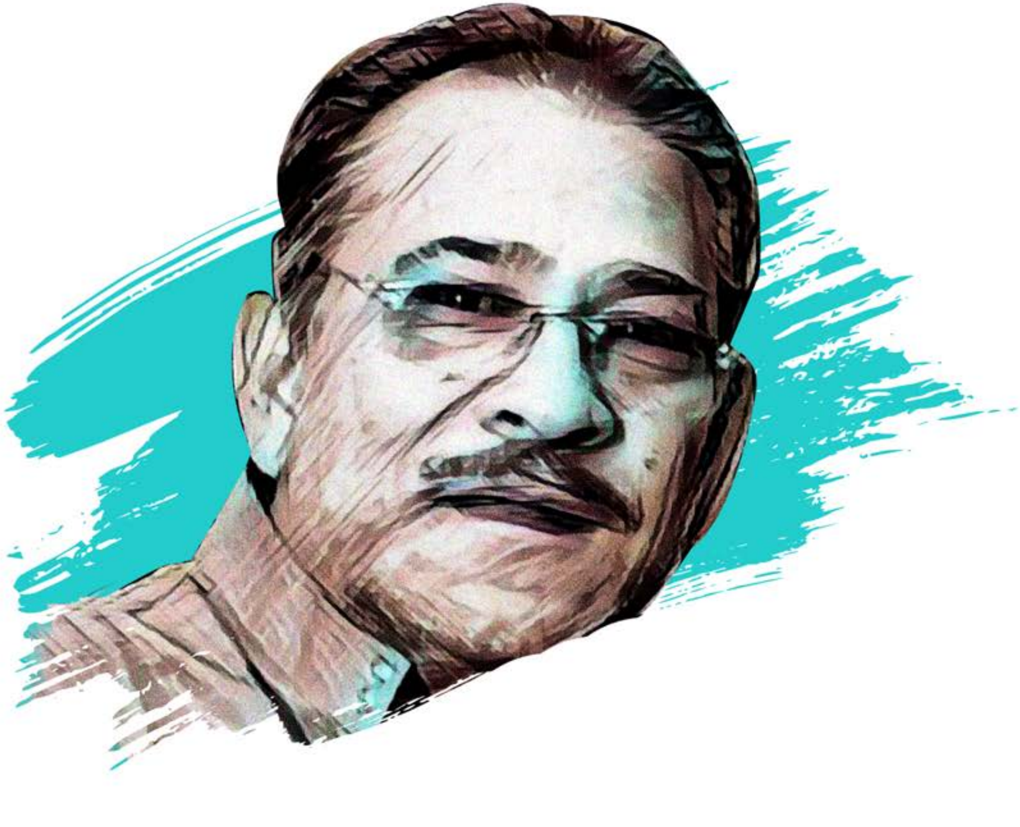

سيد القمني

النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة (الجزء الثاني)

موسوعة تاريخية جغرافية إثنية دينية

تأليف
سيد القمني

هنداوي

النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة (الجزء الثاني)

سيد القمني

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٩ ٢٩٥٣ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٩٩.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الدكتور سيد القمني.

المحتويات

الباب الأول: ألغاز تاريخية ٧
١- لغز بلاد بونت ٩
٢- سالع/البتراء ... ونظرية جديدة ٤٥
٣- حملة تحتمس الثالث على بلاد الفينيق ٧٩
٤- لغز بلاد موصرى (؟!) ١٠١

الباب الثاني: أحلاف سيناء ١٣١
١- العمالقة ١٣٣
٢- سر الملكة السوداء ١٦٣
٣- الرب الأحمر ٢٠٩
٤- معان المصرية ٢٤١
٥- أين تقع حَويلَة التوراتية ٢٥٧
٦- بعل صفون: لغز آخر! ٢٦٩
٧- لغز أرام النحاسية ٢٨٧

الباب الثالث: من الألغاز إلى الحلول ٣١١
١- العامو أو العموريون: اسم الأحلاف الجامع ٣١٣
٢- الشاسو والكاشو والحاثو ٣٢٥
٣- عاد وثمود ٣٥٩
٤- إسحاق و«الإله الضحاك» ٤١٥
٥- تجليات الرب السينائي ٤٣٣

٦- لغز البلست ٤٥٥
٧- حل لغز الخابيرو ٤٧٣
٨- إسرائيل ويهوذا العبري أو إسرائيل والهكسوسي الخبري ٥٠٩
٩- قاطعو الرقاب ٥٤٣

الباب الأول

ألغاز تاريخية

الفصل الأول

لغز بلاد بونت

يتكرر ذكر بلاد «بونت» أو «أرض الإله» في النصوص المصرية القديمة بشكلٍ متواتر، كما في نصوص أمنمحات الأول 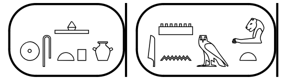 مؤسس الأسرة الثانية عشرة بالدولة الوسطى، الذي حكم حوالي ٢٠٠٠–١٩٧٠ق.م. حيث يُذكر أنه أرسل ثلاثة آلاف جندي برئاسة القائد «حنو»؛ لإحضار المر (البخور) من بلاد بونت، وإحضار «الأحجار» من هناك.[١] وبالنظر إلى الحرف المرسوم الأول في هيئةِ ثلاث هِضاب، فقد احتسب معظم المؤرخين بلاد بونت بلادًا أجنبية، حيث اعتيد الإشارةُ لبلاد الأجانب بجبل مثلث القِمم. لكن نظرية هذا الكتاب تقوم على أن الحرفَ هنا يقصد الإشارة لمنطقةٍ جبليَّة فقط، ولا تعني أنها كانت بلادًا أجنبيَّة بالنسبة لمصر.

وقد تكرَّر إرسال البعثات إلى بلاد بونت، في عهد «أمنحمات الثاني 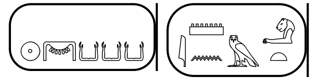 ١٩٣٨–١٩٠٣ق.م.»، حيث أكدت لوحة نصر تخصه «أن جلالة الفرعون قد قام بتوطيد سلطانه، في أرض الإله في بونت».[٢] كما وصلتْ إلينا قصائدُ غزليَّة مصرية قديمة، منها قصيدة رائعة في ستة مقاطع، تتضمن مجموعةً من بلاغيَّات التشبيه الجماليَّة، تَليق بمفاهيم الجمال في ذلك الزَّمان، حيث نجد الحبيب يُشبه حبيبته بجواد الفرعون، الذي تم اختياره من بين ألف حصانٍ أصيل، كما يشبِّهُها بالطيور

١ آلن جاردنر، مصر الفراعنة ... سبق ذكره، ص١٤٥.

٢ نفسه، ص١٥٩.

المهاجرة إلى مصر، قادمةً من بلاد «بونت».[٣] لذلك سجل الفرعون المقاتل «رمسيس الثالث» 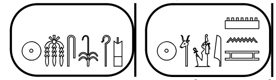 الذي حكَم حوالي ١١٨٢–١١٥١ق.م. خلال الأسرة العشرين، أنه قد أرسل سُفنَه في حملةٍ بحرية وبريَّة إلى أرض الإله، المعروفة لدى المصريين باسم بلاد «بونت»، لإحضار المر لمحرقات الإله.[٤]

أما أشهر الرِّحلات المصرية إلى بلاد «بونت/أرض الإله»، على الإطلاق، فقد كانت البعثة المصرية السلمية إلى «بونت»، زمن الفرعونة «حتشبسوت»، 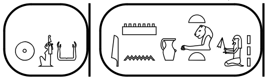 التي حكمت حوالي ١٤٩٠–١٤٦٨ق.م. خلال الأسرة الثامنة عشرة من الدولة الحديثة، المعروفة بدولة الإمبراطورية. وهي الرحلة التي سُجِّلت تفاصيلها على جدران معبد روعة الروائع، المُقام بالدير البحري بالأقصر، والذي أمرت الفرعونة ببنائه خصِّيصًا؛ لتسجل عليه تقريرَيْن بأهم حدثَيْن في حياة الفرعونة. وكان الحدث الأول هو اصطفاء الإله «آمون»، رب الدولة المركزية المصرية لها؛ لتكون حاكمًا مطلقًا للبلاد. أما الحدث الثاني فكان بعثتها السِّلمية إلى أرض الإله، بلاد «بونت».

وقد تمَّ تدوين أمر تلك الرحلة الكبرى بكثيرٍ من التفاصيل الدقيقة، مما سَمَح للمؤرخين بوضع مجموعة فروض؛ لتحديد «أين تقع بلاد بونت» في ضوء تلك التفصيلات. ومع ذلك فقد جاءت هذه الفروضُ شديدةَ التباعد عميقةَ التنافر، فهناك مَن افترض أنها تقع في قارَّة أفريقيا؛ استنادًا إلى ما جاء ذكرُه مكتوبًا، أو مرسومًا بالنقش عن مُنتجات بلاد «بونت»، خاصة بعض الحيوانات المُستقدَمة من بونت، والتي توجد بإفريقية وحدَها. ولما كانت الرحلة قد خرجت من العاصمة طيبة/مدينة الأقصر، واتجهت إلى «قفط» إلى الشمال منها مباشرة، ومنها أخذَتْ طريقَها بريًّا عبر الصحراء الشرقية، حتى ميناء القصير على ساحل البحر الأحمر. ومن هناك انطلقت السُّفن إلى بلاد «بونت». فقد ذهب الفرضُ إلى أن الرحلة قد أبحرت من ميناء القصير في البحر الأحمر جنوبًا، إلى بلاد الصومال ملتزمةً السَّاحل الإفريقي، أو ربما إلى بلاد أثيوبيا. وهو ما سنرى نموذجَه عند المصرولوجيست «جاردنر» وآخرين.

---

٣ سامي سعيد الأحمد، الرعامسة، سبق ذكره.

٤ نفسه، ص١٦١.

وقد ارتسم هذا الفريق الخطوط الرئيسية التي وضعها المصرولوجست «ماريت Mariette»، صاحب الفضل الأول في كشف لوحات بونت على جُدران معبد «روعة الروائع» بالدير البحري عام ١٨٧٧م، حيث أكد «ماريت» أنَّ الرسوم جميعًا تُشير إلى أن بلاد بونت تقع على الساحل الأفريقي الشرقي شماليَّ الصومال. وقد اعتمد في ذلك على تحليلِ نقوشِ رحلة حتشبسوت، من حيث شكلُ المساكن، وصِفات الملكة التي تشير ملامحُها إلى عنصرها الإفريقي، وتحلِّيها بخلاخيل المعدن أسفل السِّيقان. وهي عادة أفريقية مستمرة حتى الآن، إضافةً إلى علامةٍ لا تجعل بونت خارجَ أفريقيا على الإطلاق، وهي وجود حيوان «الزراف» ضمن المنتجات التي أحضرَتْها البعثةُ من بلاد بونت. و«الزراف» حيوان أفريقي قُح، مع أشجار البخور، وهي أشجار تنمو على ساحل الصومال حتى الآن.[٥]

ورغم تركز معظم الفُروض على الساحل الإفريقي الشرقي؛ فقد أعمق بعضها داخل القارة، مثل «هيرتسوج Herzog»، الذي أكد وقوع بونت في المنطقة الحدودية الواقعة بين السودان والحبشة الآن، وبين النِّيلَيْن الأزرق والأبيض، وأن رحلة حتشبسوت وصلتْ هناك بالإبحار في النيل، وليس بالإبحار في البحر الأحمر.[٦] وقد رد عليه «كيتشن Kitchen» مؤكدًا أن بونت هي المنطقة الممتدة من بور سودان حتى شماليِّ أريتريا، على الساحل الصومالي.[٧] وحول ذات الجهات، ذهب «كرال Krall»، الذي وضع بونت في المنطقة الممتدَّة من سواكن وحتى مصوع، باعتبارها مناطق منتجة للصمغ العربي، وهو ما كان يستخدم كبخور مثل المر.[٨] وضمن هذا الفريق يأتي عبد المنعم عبد الحليم الذي لا تعود أهميته إلا لصُراخه المتواصل ضد كتابي هذا، وهو مدرس بجامعة الإسكندرية، ويرى أن بونت بلا جدال هي الساحل الصومالي تحديدًا.[٩]

---

٥ Ariette. A, Deir el Bahri, Leipzig, 1977, p. 63–82.

٦ Herzog, PUNT in Abhand Lungen des Deutschen Archiologischen in Stitutes Kairo 6, 1968, p. 29.

٧ Kitchen, Punt and How to out there in Orientalia 40, 1971, p. 188.

٨ Krall, studien zur Gesehichte des Alten Aegyptien IV “Das Land punit wien, 1890”.

٩ عبد المنعم عبد الحليم، محاولة لتحديد موقع بونت، مطبوعات جمعية الآثار بالإسكندرية، دراسات أثرية وتاريخية، العدد الخامس، ١٩٧٤م، ص١٨، ١٩، ٢٠، ٢٩.

ولم يزلِ الخلاف قائمًا حول النخيل المرسوم في لوحات حتشبسوت؛ هل كان نخيل أشجار الدوم كما ذهب هيرتسوج وكتشن، أم هو نخيل البلح كما يعتقد «عبد المنعم عبد الحليم» في رسالتيه الماجستير والدكتوراه؟

وقد أضاف لرصيد الذاهبين ببلادِ بونت إلى الصومال، أن التقرير المصري صوَّر لنا أربعين نوعًا من الأسماك والكائنات البحرية، بينها خمس سمَكات، واضح أنَّها نهرية وليست بحرية. وهو ما يشير إلى أن الميناءَ البونتي، الذي رسَتْ فيه سفن حتشبسوت، كان يقع عند مصبِّ نهرٍ صغير. وفي الصومال نجد لدينا نهرًا كان يُعرف باسم نهر الفيل، ويعرف الآن باسم نهر جلوين.[١٠]

واتجهت فرضيات أخرى إلى أن أرض الإله «بونت»، كانت تقع على الساحل الغربي لجزيرة العرب في منطقة جبال عسير، كما نجد عند «الصليبي» و«زياد منى»، مع اتجاهاتٍ أُخرى نزعت إلى الفانتازي، كالقول إن تلك الرحلة كانت نحو الأمريكتَيْن، وأن المصريين هم من اكتشف أمريكا قبل الجميع، وأنها هي التي دُوِّنَت في مدونات مصر القديمة باسم بلاد بونت. وبسبيل ذلك تمَّ إجراء مقارنات لبعض المفردات المصرية بلغاتِ الهنود الحمر، وموروث حضارات المايا والأنكا.[١١]

هذا بينما افترض آخرون أنَّ بلاد بونت المذكورة في الوثائق المصرية هي ذات بلاد «أوفير» التي جاء ذكرُها بالكتاب المقدس، وكانت محلًّا لبعثاتٍ متشابهة أرسلها الملك الإسرائيلي سليمان بن داود أشهر مُلوك إسرائيل الموحدة. إلا أن «أوفير» نفسَها وجدت في تحديد موضعها تضاربًا في الفروض، أشدَّ اتساعًا من التضارُب حول موضع بلاد بونت. ولم تزل حتى اليوم بلدًا مجهولًا بدَوْرها.

ولحل الإشكال تم اللجوء إلى حلٍّ وسطي أو تلفيقي، يلخص الأمر في إنهاءٍ يائس للإشكال، يقول: إن المصريين قد استخدموا اسم بونت بمعنيَيْن؛ الأول: معنى عامٌّ يشير إلى أي موقع جغرافيٍّ يزرع اللبان/المر/البخور. ومعنى خاصٌّ قصدوا به سواحلَ إفريقيا من الصومال جنوبًا حتى السودان شمالًا.

[١٠] Neville, E, Le commerce de L'Ancienne Egypte avec Les Nations voisnne, Geneve, 1911, p. 67.

[١١] انظر: محمد نجيب البهبيتي، المعلقة العربية الأولى أو عند جذور التاريخ، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب في ١٩٨١م، مجلدان.

ورغم أن حلَّ لغز بلاد بونت يُمكن أن يؤدِّي إلى حلولٍ تسلسلية لمجموعة من المتشابكات التاريخية المُلغزة، كما يمكن أن يفصح عن تدقيقاتٍ هامَّة لتحديد ملامح العالم القديم، مع فرزٍ واضح للأجناس والهجرات، فقد ظلَّت جميع الفروض ناقصةَ التمام والإقناع، وظلت أرض الإله بونت لغزًا يبحث عن حل.

وعلى مُتون صروح معبد روعة الروائع بالدير البحري، نقَشَ الفنان المصري القديم صورًا وكتابات جدارية، تصف أهم حدثَيْن في حياة الفرعونة حتشبسوت. الحدث الأول: هو قصة ميلادها الإلهي من أبيها الإله آمون نفسه، إضافةً إلى الحدث الثاني، والأهم تاريخيًّا، وهو مجموعة جداريات بونت التي تصِفُ رحلتَها إلى أرض الإله.

وتصور اللوحات الرائعة طريق الرحلة البري من «قفط» حتى «القصير»، مع رسوم للسفن البحرية الضخمة المجهَّزة بصفوف المجاديف أدوارًا، مما يشير إلى كونها سفنًا بحرية بل محيطيَّة. وخلفها تظهر لوحة بلاد بونت، في هيئة تلالٍ كثيرة جميلة تزينها النباتات. ثم نشاهد ثلاثة أجناس من البشر بخلاف المصريين، يحدِّدهم لنا «عبد المنعم عبد الحليم» نفسه، فيقول: «إن سكانها خليطٌ من عدَّة سُلالات: (أ) السلالة التي تنتمي إليها الطبقة الحاكمة، أي: البونتيون أنفسهم، ويشبهون المصريين. (ب) السلالة الزنجية. (ج) سلالة ثالثة، لعلها المسماة إرم، وهي قريبة الشبه بالبونتيين.»[١٢] هذا إضافة إلى تصوير اللوحة لمجموعةٍ متنوعة من الحيوانات منها القردة، مع صور واضحة لجلودِ فهودٍ أو نمور، وكثيرٍ من الأشجار والنباتات، التي تشبه إلى حدٍّ بعيد نباتات الساحل اليمني.

وقد عادت البعثة بكثيرٍ من تلك الأشجار بجُذورها، وهو ما يعني أن هناك أشجارًا بعينها قد استُجْلبت من بلاد بونت؛ لتُستزرع في أرض مصر، مع كميَّات من خشب الأبنوس والعاج، إضافةً إلى معادن تتضح فيها الفضة، ومعدن آخر ربما كان ذهبًا، مع أحجارٍ كريمة. ويحيطنا «فليكوفسكي» علمًا بأن الفنان المصري، وهو ينقش بإزميله اسم بونت في مواضعَ متعددةٍ، لم يضع فوق الاسم تلك العلامةَ الهيروغليفية، التي كان المصريون القُدماء يضعونها فوقَ أسماء البلاد الأجنبية.[١٣] مما أوعز بشدَّةٍ إلى أن المصريين القدماء كانوا يرون أن هناك رباطًا من نوعٍ ما بين بلاد بونت وبين مصر، وأنها ربما كانتْ تابعة لمصر، أو أن المصريين كانوا يعتقدون أنها جزءٌ من مصر، ناهيك عن تقديسها

[١٢] عبد المنعم عبد الحليم، موجز رسالتَيْه للماجستير والدكتوراه، جامعة الإسكندرية، ص١٧.

[١٣] فليكوفسكي، عصور في فوضى، ترجمة رفعت السيد، دار سينا، القاهرة، ١٩٩٥م، ص١٤٢.

بحسبانها أرض الإله. لكنَّ النصوص المصرية لم تسمِّ لنا هذا الإلهَ، أو تقدم له أيَّ تعريف ولا مرة واحدة.

وفي الجزء الأسفل من جدارياتِ بونت في معبد روعة الروائع، يمكنك أن تشاهد مرسًى بحريًّا، رُسمتْ تحته الأسماك في المياه للتوضيح. وعلى يمين المرسى يقف الملك البونتي، الذي دُوِّن بالاسم «بارح» أو «فارح» أو «فرح» أو «باروخ» مع اللقب «عظيم عظماء إرم». أما الملكة فكانت ضخمةَ الجثة، ورسمها الفنان بواقعيةٍ شديدة، أراد بها أن يُبرز ما يكتب باعتباره تقريرًا تسجيليًّا.

ويصف لنا المصرولوجيست الأشهر «السير آلن هنري جاردنر» معبدَ روعة الروائع بقوله: «إن المعبد الجنازي لحتشبسوت في الدير البحري، يقع داخل نصف دائرة من القمم العالية، وهو يدين بكثيرٍ من وحيِه إلى أثر منتوحتب الأول الأكثر بساطة، والواقع على الخط نفسه جنوبًا. ولم يبقَ سوى آثار الممر الصاعد في رفقٍ إلى الأسوار التي يؤدي مدخلها إلى بهوٍ واسع، يرى فيه الزائر في مواجهته رواقًا بالأعمدة فوق رواق بالأعمدة، لكنها تصعد من المنحدر الرئيسي إلى المستوى العلوي. ويكشف صف من أعمدة الحجر الجيري بشمال البهو عن جمال المبنى، قبل أن يحوِّله الزمن والتدمير البشري إلى حالته الراهنة. ومع ذلك فليس في مصر اليوم عمارة في مثل هذا السموِّ يمكن رؤيتها. أما الرواق التالي إلى أعلى ففيه منظر أكثر تشويقًا. فعلى الجانب الجنوبي منه مُثلت الرحلةُ إلى بونت، في السنة التاسعة لحكم حتشبسوت. كما مُثل على الجانب الشمالي حمل أمِّ الملكة بها عن طريق معجزة ثم ولادتها. وتصور المجموعة السابقة من الصور سفن الملكة حتشبسوت وهي تبدو في هذه المرحلة، كملكةٍ تصل إلى هدفها عند باب المندب» (ملاحظة للمؤلف: ليس في اللوحات أيةُ إشارات أو كتابات تُوعز إلى باب المندب، وكانت تلك إضافة من جاردنر لاعتقاده أن الرحلة قد اتجهت جنوبًا عبر البحر الأحمر إلى الصومال، التي يعتقدها جاردنر ذات بلاد بونت). ويتابع جاردنر وصفه: «ثم يتقدمُ رئيس ملتحٍ وزوجته المشوهة تشويهًا فظيعًا. وهناك عدد من الرؤساء أقل أهمية، يَخِرُّون على وجوههم أمام شعار الملكة يتحدثون. إنهم يلتسمون السلامَ من جلالتها بقولهم: المجد لك يا فرعون مصر، أيتها الشمس الملكية التي تضيءُ كقرص الشمس. ويعيش الأهلون وسط أشجار النخيل، وفي أكواخٍ ذات قِبابٍ مستديرة، يمكن الوصول إلى أبوابها عن طريق سلالم نقَّالة. وقد أقام الرسول المصري خيمته في ناحيةٍ قريبة، ثم قدم الهدايا من الجعة والنبيذ واللحوم والفواكه كأمر حتشبسوت. لكن الواضح أن جيوشَها أفادت أكثرَ من عملية

التبادل، فهناك صورٌ متقنة لكل الأشياء الثمينة، التي حُملت من هناك إلى السفن. ومن بين هذه المنتجات: أشجار المر والأبنوس، ثم العاج، والذهب، والقرود، وجلود الفهود. ويُرى الأسطول في الصف العلوي من اللوحة، وهو يبدأ طريق العودة إلى الوطَن، وقد تجاهل الرسام أمرَ الانتقال من الصحراء إلى النيل.»[١٤]

والواضح تمامًا أن حتشبسوت كانت ترى في تلك الرحلة أهمَّ إنجازاتها على الإطلاق، وهو الأمر الذي تشِي به ببساطة ووضوح روايتُها المدونة، ناهيك عن تكريسها كل هذا البناء الهائل؛ لتسجِّل عليه ذلك التقرير عن بَعثة بونت. كما تتضح الأهمية في أن الفرعونة قد أولت عظيمَ اهتمامها إلى الجانب المعرفي العِلمي، فأرفقت برحلتها خبراءَ يقومون بدور الصحفيين الذين كتبوا بالفعل ريبورتاجًا مصورًا علميًّا دقيقًا رائعًا، وصفوا فيه أرضَ الإله وصفًا طبيعيًّا وبيئيًّا، وراعوا الجغرافية البشرية لبيان الأجناس التي تسكن تلك البلاد. كما أولوا عنايتهم لبيان عادات وتقاليد أهلِها، مع دراسةٍ علمية مُمتعة لمختلف أنواع الأسماك والحيوانات البحرية، إضافةً إلى مسحٍ تفصيلي لمنتجات بلاد بونت، من أخشاب ثمينة وجلد الفهد، وسبائك الذهب والفضة، مع أحمال البخور والعطور والتوابل، والأعشاب التي ربما كانتْ للكيمياء العلاجية. ولم ينسَ التقرير أن يوضح أهمية أشجار بلاد بونت، التي دفعت البعثة المصرية إلى الإتيان بها بجذورها إلى مصر، مما يعني أنها أشجارٌ لا تنمو في مصر، وأنها نوعٌ خاص ببلاد بونت. حتى التفاصيل الصغيرة لم تَفُت عين الصحفي المدققة، مثل إحضار البعثة لكُحل العيون (الإثمد)، مع تصويرٍ واضح لأنواع الحيوانات المستجلبة من هناك. فترى كلابًا أشبه بالكلاب السلوقية الموجودة اليوم، مع القردة التي تعلقتْ بصواري السفن، لتضيف إلى اللوحة بهجةً تستدعي الابتسامة، مع الزراف وتنويعاتٍ أخرى، قُصد بها أن يكون التقرير مشوقًا، إلى جانب كونه مستوفيًا.

وقد سجلت الموسوعة الأثرية العالمية، تحت مادة «بونت» الآتي:

> PUNT: بلاد تقع جنوبيَّ بلاد مصر. كان الوصول إليها عن طريق البحر الأحمر. وقد صور الناس يعيشون في بيوتٍ تشبه خلايا النحل، وصورت الملكة التي كانت تحكمُهم بدينة جدًّا. ومن بونت كان يأتي الذهب والبخور، ومختلف أنواع السلع لأغراضٍ دينية. وموقع بونت غير مؤكد، لكن حسبما يتضح من منتجاتها، لا بدَّ أنها كانت تقع في مكانٍ ما بالقرب من الصومال.

[١٤] جاردنر، سبق ذكره، ص٢٠٨، ٢٠٩.

أما «حتشبسوت» نفسها؛ فقد سجلت:

لقد منحتُهم الذهب،
فتلقيتُ منهم الذهب الأخضر،
من بلاد الآمو،
وأشجارًا يانعة من المر بأعدادٍ كبيرة،
من عجائب أرض بونت.
ولم يحدثْ ذلك من قبل في عهد أي إله،
منذ خلق العالم.
لقد أحضرت إحدى وثلاثين شجرة،
من خشَب البخور،
لم يُعرف لها مثيلٌ منذ فجر الخليقة.[١٥]

وهنا ملاحظة لا تفوت مدققًا، نضعها في الاعتبار حتى يأتي حِينُ معالجتها. وتتمثل في السؤال: ما معنى أن تهدي الملكة ذهبًا لتتلقى ذهبًا، في رحلة قُصد منها تبادل منتجات مع منتجات بونت؟ فهل كان ذهب بونت يختلفُ عن ذهب مصر؟ يبدو ذلك؛ لأن النص قد ميَّز ذهب «بونت» بأنه ذهب أخضر. فماذا كانت تَعني بالذهب الأخضر؟ أما الملحوظة الثانية التي ننبه إلى وجوب تذكُّرها، فهي القول: إن هذا الذهب من بلاد الآمو. والآمو أو العامو هي الكلمة التي استخدمَها المصريون القدماء؛ للدلالة على بدو آسيا الساميين عمومًا، وعلى الهكسوس — خصوصًا — الذين سبق واحتلوا بلادَهم في نهاية الدولة الوسطى. وقد طُردوا منها زمنَ «أحمس» مؤسس الأسرة الثامنة عشرة، وحكم حواليَ ١٥٧٥–١٥٥٠ق.م. أي قبل زمن حتشبسوت بحوالي ستِّين عامًا، أو تزيد قليلًا.

ولا يصح أن نتغافل عن عبارتها «منذ فجر الخليقة» وتكرارها. وهو ما يؤكد على أهمية تلك الرحلة للملكة، ولتقديرها الأمور. أما الغريب حقًّا فكان مسألة تجاهل الفنان لطريق العودة من البحر الأحمر، من ميناء القصير حتى قفط على النيل شماليَّ الأقصر، في رحلة عودة برية عبر الصحراء الشرقية، الممتدة ما بين البحر الأحمر وبين النيل. فعاد بالسفُن فورًا من «بونت» إلى الأقصر عبر النيل، دون المرور بالطريق البريِّ، رغم أنه فصَّل

[١٥] فليكوفسكي، عصور في فوضى ... سبق ذكره، ص١٤٨، ١٤٩.

ذلك بوضوحٍ في رحلة الذهاب. فهل تجاهل الفنان الدقيق الدؤُوب الفاحص المدقِّق الطريقَ البري، أم أنه كان لم يزل يقدِّم لنا تقريرًا دقيقًا وعلميًّا وحقيقيًّا؟ وإذا كان كذلك فإن لغز «بونت» يكون قد ازداد تعقيدًا. فكيف وصلت السفن إلى طيبة/الأقصر، دون المرور بالطريق البريِّ من ساحل البحر الأحمر إلى النيل في الوادي؟

ونظرًا لأن التحف التي جلبتها «حتشبسوت» من بلاد «بونت»، تتشابه إلى حدٍّ بعيد مع التحف التي ذكرها الكتاب المقدس، والتي أحضرَتْها بعثة الملك الإسرائيلي «سليمان» إلى بلاد باسم «أوفير»، فقد ذهب الباحثون إلى احتساب «بونت» هي ذات بلاد «أوفير» المجهولة. وتحت مادة «أوفير» بموسوعة تاريخ العالم، نقرأ تلك الفقرة الموجزة:

> أوفير OPHIR: موقع أوفير التوراتية التي كان الملك سليمان يحصل منها على سفنٍ محمَّلة بالذهب والأحجار الكريمة (سفر ملوك أول، ١٠: ١١) موضع اختلاف كبير دون الوصول إلى حلٍّ مقبول. والتخمينات تمتدُّ من الساحل العربي، حتى سيلان أو ساحل مالا بار.

هذا بينما سجَّل «زينون كاسيدوفسكي» إشكالية «بونت/أوفير» في قوله: «لا يزال الباحثون حتى الآن يختلفون. بعضهم يقول: إن أوفير التوراتية هي الهند. وبعضُهم الآخر يعتقد أنها الجزيرة العربية. وفريقٌ ثالث يؤكد أنها مدغشقر. أما المستشرق الأمريكي أولبرايت فيعتقد أنها الصومال. بينما يلفت فريقٌ آخر من العلماء الانتباهَ إلى اللوحات الجدارية، التي اكتُشفت في معابد طيبة؛ حيث وجدوا هناك رسمًا لملكة سوداء من بلاد تُدعى «بونت»، ويفيد النص المثبت أسفل اللوحة أن السفن المصرية كانت تحمل من تلك البلاد الذهبَ والفضة، والأخشابَ السوداء والحمراء، وجلد النمر، والسَّعادين (القردة) الحية، والعبيد السود. وقد أدَّى ذلك إلى نشوء افتراضٍ مؤدَّاه: أن بونت هي أوفير التوراتية.»[١٦]

إلا أن المشكلة الحقيقية والمستعصية أمامَ كل تلك الفروض، هي تكرار القول في النُّصوص المصرية: «حينما أوجه وَجهي إلى مشرق الشمس، فإني أولِّي وجهي إلى

[١٦] زينون كاسيدوفسكي، الواقع والأسطورة في التوراة، ترجمة حسان ميخائيل، أبجدية للنشر، دمشق، ١٩٩٠م، ص٤٢٩، ٤٣٠.

بلاد بونت.»[١٧] وهو ما دفع باحثين آخرين إلى افتراض مواضع أخرى لبلاد بونت، تتفق وهذه الإشارة. وذلك مثل د. عاطف عوض، الذي افترض لبلاد بونت بلاد الساحل العماني الحالي، حتى إن سلطنة عمان رأتْ في نظريته أمرًا يستحق الاحتفاء به. فتم تحديد زمن افتراضي لوصول سُفُن الفرعونة إلى عمان. أقيم بهذه المناسبة احتفال كرنفالي شعبي تمثيلي، يصوِّر وصول البعثة المصرية إلى بلاد عمان. وما زالت هذه النظرية قائمة هناك، كأمرٍ مفروغ من صِحته. هذا بينما ذهب د. رمضان عبده علي إلى وقوع بونت في بلاد اليمن. وقد اعتبرت صحيفة الأهرام القاهرية ذلك كشفًا جديدًا يستحقُّ التسجيل والإعلان (وهو ما فضلنا نقله من الصحيفة بالتصوير كما في الشكل رقم ٣٦). وإن تكرار الإشارة إلى وقوع بونت جهة مشرق الشمس بالنسبة لمصر، أمرٌ لا يجعل بونت تقع أبدًا جنوبيَّ مصر. فهي بهذا المعنى يجب أن تقع في منطقةٍ ما شماليَّ بلاد الحجاز الحالية، أو في سيناء، أو شرقيَّ سيناء. وهو الأمر الذي يؤكده تقرير مسئولٍ حكومي اسمه «خنوم حتب»، عاش خلال الأسرة السادسة الفرعونية يقول إنه قد زار بيبلوس (جبيل الآن جنوبي بيروت بلبنان) وبونت، إحدى عشرةَ مرة، وذلك بصحبة سيده «خوي» مرة، وبصحبة سيده «تتي» مرة أخرى.[١٨] وهو الأمر الذي ما كان ممكنًا حدوثُه في حياة فردٍ واحد في ذلك الزمان، لو كانت بونت هي الصومال أو اليمن أو الهند، ناهيكَ عما يُوحي به التقرير أن زيارة بيبلوس وبونت كانت تتمُّ في رحلةٍ واحدة، مما يعني وجوبَ وقوع بونت على الطريق ما بين مصر وبين بيبلوس بلبنان. وهكذا تكتمل دائرة الالتباسِ، ويستغلق اللغز تمامًا، إلى حد عدم إمكان تصوُّر واضح يحلُّ مشكلةَ موقع بلاد بونت.

(لوحات تتعلق بالملكة حتشبسوت ورحلتها السِّلمية إلى بلاد بونت.)

(انظر الأشكال رقم «٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥».)

ولغز بلاد الحور

والألغاز غير المحلولة في التاريخ كثيرة وحاشدة، ونموذجًا لتلك الألغاز (لغز بلاد الحور)، وبلاد الحور تلك التي يخبرنا علم التاريخ أنه قد قامت فيها دولة باسم الدولة الحورية،

---

[١٧] فليكوفسكي، عصور ... سبق ذكره، ص٣٥.

[١٨] K. Sethe, U. R. K, pp. 140–141. انظر أيضًا Breasted, Ancient Records, VOL, Sec 892.

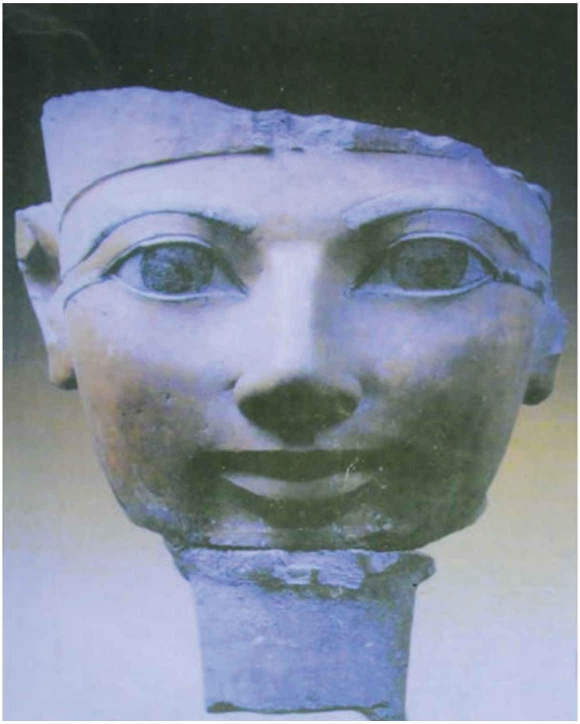

شكل رقم «٣٢»: رأس حتشبسوت — أسرة ١٨ — المتحف المصري.

عاصرتْ زمن الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية. وجاء اسم هذه الدولة في نصوص مصر تحت اسم «دولة ميتان» أو «ميتاني»، وأنه في «ميتاني» قد سكن الشعب الحوري. وكان لتلك الدولة تسمية أخرى ترد في النصوص، على التبادل مع تسميةِ «ميتاني» هي التسمية: «نهارين». ولنطالع ما سجلته موسوعة تاريخ العالم عن بلاد «ميتاني»، تحت مادة «ميتاني»:

> أعالي ما بين النهرين «ميتاني»: ربما كان موطن الحوريِّين في بلاد «النايري»، وهو الاسم الذي أطلقه الآشوريون على الإقليم الواقع إلى الشمال والشرق من بحيرة «فان». تحرك الحوريون من هناك جنوبًا في أوائل القرن السابعَ عشر ق.م. إلى شرق آشور وغربها، وأسسوا عددًا من الإمارات اتَّحدت بعد ذلك تحت

شكل رقم «٣٣»: الدير البحري/معبد حتشبسوت.

حكم ملوك «ميتاني». امتدت مملكة «ميتاني» من قرقميش على الفرات حتى قُرب نهر دجلة الأعلى، مشتملة على وديان البلخ والخابور ومقاطعة نصيبين. وفي شرقيِّ دجلة تشتمل أيضًا على مِنطقة «أرابخا/كركوك الحالية»، التي كانت قبل ذلك مملكة حورية منفصلة. وليس من المعروف إذا كانت قد شملت إربيل أيضًا. انتشر الحوريون كذلك في أجزاء من آسيا الصغرى، وسورية وفلسطين، دون أن ينظموا ممالك دائمة. ثبت وجودهم حوالي منتصف الألف الثاني في بوغاز كوي عاصمة الحيثيين (الأناضول)، وفي رأس شمرا (أوغاريت على الساحل السوري قُربَ اللاذقية)، وفي أورشليم وطناخ، وفي بلاد آدم (الحور). وربما اشتملت جموع من الهكسوس على فئات من الحوريين.

موقع بلاد الحوريين إذن غير مؤكد «ربما كان موطن الحوريين في بلاد النايري إلى الشمال والشرق من بحيرة فان»، «وليس من المعروف» إن كان قد شمل مساحات بعينِها من الأراضي. لكن دلائل وجودهم تتناثرُ في «أجزاء من آسيا الصغرى وسورية وفلسطين»، و«في بوغاز كوي، وفي رأس شمرا، وفي أورشليم، وفي بلاد آدم». وقد وصفت الموسوعة بلاد

شكل رقم «٣٤»: ملك وملكة بونت في لوحات حتشبسوت.

«آدم» تحديدًا بأنها بلاد «الحور». ثم «ربما اشتملت جموع من الهكسوس على فئات من الحوريين». إذن ليس هناك شعب في المنطقة أثبت وجودَه على تلك المساحة الواسعة. وفي الوقت ذاته ليسَ من المؤكد، بل وليس من المعروف عنه أشياء كثيرة. و«ربما» التي تتكرر لتؤكِّد عجزًا واضحًا عن تحديد موطن واضح لدولة واضحة، اسمها دولة «الحوريين» الميتانية، وهو الموقف من بلاد «بونت» وبلاد «أوفير». ويضيف المؤرخ العراقي «طه باقر»، متحدثًا عن بلاد «ميتاني» باسمها الذي يرد معها على التبادل بلاد «نهارين»، فيقول: «من الدويلات الآرامية آرام النهرين، ويعني اسم هذه الدولة: آرام ما بين النهرين، أي الفرات والخابور. وورد ذكرُها في المصادر المسمارية باسم «نهارينا». ويبدو أنها اختفَتْ من الوجود في حدود القرن التاسع ق.م. عندما قضى الآشوريون على جميع الدُّوَيلات الآرامية تقريبًا في تلك المنطقة.[١٩] ويؤكد لنا ذلك المؤرخ الرصين أن في تلك المنطقة الآرامية عاش

[١٩] طه باقر، الوجيز في تاريخ حضارة وادي الرافدين، دار الشئون الثقافية العامة بوزارة الثقافة والإعلام، بغداد في ١٩٨٦م، ص٤٩٥.

شكل رقم «٣٥»: حاملو الهدايا من أهل بونت (شعب إرم).

ذلك الشعب المعروف بالشعب الحوري، وذلك استنادًا إلى نص الملك الآشوري «شلمناصر الأول»، الذي حكم في العصر الآشوري الوسيط حوالي ١٢٧٤–١٢٤٥ق.م. والنص يتحدث عن حملاتِ ذلك الملك العسكرية إلى بلاد «أرمينيا» وأرارات، في أقصى شمال العراق، داخل حدود «أرمينيا» الحالية شرقيَّ تركيا، وأنه في طريقه إلى هناك قد غزا موطنَ الحوريين، الذي لا بدَّ أن يقع في تلك الحال في طريقه إلى «أرمينيا»، ما بين النهرين الأعلى، وأنه قد ورَدَ ذكر إحدى القبائل الآرامية الكبرى هناك، باسم «أحلامو» أو «أخلامو»، ومعناها الأحلاف.[٢٠]

أما المصرولوجست «جاردنر»، فيؤكد ذات المذهب، فيقول: «إن الحوريين قد جاءوا إلى منطقتنا قادمين من عند إقليم «بحر قزوين»، وإنهم هم الذين مهَّدوا الطريق للحيثيين،

[٢٠] نفسه، ص٤٩٠.

بلاد «بونت» ليست فى الصومال!

بلاد «بونت» تقع فى جنوب اليمن . وليست فى الصومال كما هو شائع!

هذه الحقيقة العلمية المهمة كشف النقاب عنها عالم المصريات الدكتور رمضان عبده على رئيس قسم الآثار بآداب المنيا من خلال اشارة مهمة وردت عن بلاد «بونت» فى نص جاء على لوحة للملك امنحتب الثالث من الاسرة الثامنة عشرة (نحو عام ١٤٠٨ قبل الميلاد) ، وهى محفوظة بالمتحف المصرى تحت رقم (٣٤٠٢٥) ، ويفهم من قراءة نصها ان المعبود امون رع يتحدث إلى الملك ، ويعدد له ماتحقق من معجزات على يديه ، وان المعبود اتجه بوجهه إلى الجهات الاصلية الأربع : الجنوب ، والشمال ، والغرب ، والشرق لتحقيق معجزة مجئ سكان هذه المناطق البعيدة محملين بهداياهم ٣٠ – ٣١ :

واتجهت بوجهى نحو الشروق (اى الشرق) ، كانت معجزتى لك الا وهى اننى سببت ان يأتى إليك (سكان) المناطق الجبلية لبلاد بونت محملين بكل النباتات ذات الروائح الطيبة (اى البخور) الخاصة بمناطقهم الجبلية».

ويفهم من هذا النص المهم ان بلاد بونت تقع فى اتجاه الشرق ، وان بيئتها بها مناطق جبلية ، وان اشجار البخور او الكندر تأتى من مدرجات هذه المناطق . أضف إلى ذلك ان مخصص كلمة «بونت» فى هذا النص هو مخصص يمثل «سلسلة من الجبال» ، مما يدعونا إلى افتراض وجود بلاد بونت فى منطقة ما جنوب اليمن ،كما اننا نعلم انه كان يوجد باليمن «مدرجات الكندر» التى تنبت خير انواعه .

وقال العالم المصرى – فى ندوة «الحدود المصرية السودانية عبر التاريخ» التى عقدها المجلس الاعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الافريقية بجامعة القاهرة مؤخرا – اذا رجعنا إلى المصادر المصرية نقول ان علاقات مصر التجارية والاقتصادية مع بلاد بونت بدأت مع الملك «ساحورع» ثانى ملوك الأسرة الخامسة (نحو عام ٢٤٥٨ قبل الميلاد) ، الذى ارسل بعثة إلى تلك البلاد وعادت ومعها مقادير كبيرة من البخور ، والذهب ، والابنوس . وفى عصر الملك «جدكارع سيسى» خامس ملوك هذه الاسرة (نحو عام ٢٣٦٩ قبل الميلاد) نجد انه ارسل حملة تجارية إلى بلاد بونت يقودها القائد «باورجدت» وقد كافأه الملك كثيرا على إنجاز هذه المهمة بنجاح ، وذلك لما احضرته البعثة من بخور وادوات ثمينة من العصى من الابنوس ، وبعض الاخشاب الثمينة ، والصمغ ، والجلود . واستمرت تلك البعثات فى عهد الملك «بيبى الثانى» خامس ملوك الأسرة السادسة (نحو عام ٢٢٤٦ قبل الميلاد).

وفى عهد الدولة الوسطى ، ارسل الملك «منتوحتب الثالث» سادس ملوك الاسرة الحادية عشره (نحو عام ١٩٩٨ قبل الميلاد) حملة إلى بلاد بونت عن طريق البحر الأحمر ، وعادت محملة بكميات هائلة من البخور والعطور . كما ارسل الملك «امنمحات الثانى» ثالث ملوك الاسرة الثانية عشرة (١٩٢٩ قبل الميلاد) بحارا بسفينته ومعه ١٢٠ من زملائه فى بعثه تجارية إلى بلاد بونت لاحضار البخور ، ولكن سفينتهم تعرضت لريح عاصفة هلك بسببها جميع بحارتها ، ولم ينج منهم إلا هو! .

وفى منتصف الاسرة الثامنة عشرة ارسلت الملكة حتشبسوت (نحو عام ١٤٩٦ قبل الميلاد) فى العام التاسع من حكمها بعثتها الشهيرة إلى بلاد بونت لاحضار منتجات هذه البلاد ، وسجلت تفاصيل هذه البعثة فى نقوش معبدها بالدير البحرى . وهذه هى المرة الاولى التى يصور فيها الفنان المصرى القديم بالنقش والتلوين مناظر تمثل بيئة بلاد بونت بسكانها الذين يعيشون وسط اشجار النخيل والدوم فى اكواخ مستديرة الشكل يصل إليها الساكن عن طريق سلم خشبى . وصور وصول المبعوث المصرى وخروج زعيم بلاد بونت ومعه زوجته لاستقباله ، مما يدل على ان هذه البعثات كانت نوعا من العلاقات التجارية وعلاقات الود بين هذه المناطق وملوك مصر القديمة وقد عادت هذه البعثة فى نهاية العام التاسع حاملة معها بالاضافة إلى كميات البخور المتنوعة – شتلات من اشجار البخور التى زرعتها الملكة امام معبدها بالدير البحرى . كما احضرت البعثة كميات من جلود الفهود ،وريش النعام ، والعاج ، والابنوس والاخشاب الثمينة ، والكحل ، والذهب ، والفضة ، والاحجار نصف الكريمة ، والعديد من انواع الحيوانات الحية مثل الزراف والفهود ، وانواع خاصة من القردة!.

عبد المعطى احمد

شكل رقم «٣٦»: الأهرام ٢٧ / ٢ / ١٩٩٧م.

الذين وفَدوا بعدهم إلى منطقتنا قادمين من الأناضول في نهاية عام ١٦٠٠ق.م. وأن سقوط دولة الحوريين «ميتان» كان على يد الملك الحيثي «شوبيللوليوماش». والمعلوم أن دولة ذلك الملك، قد قامت في تركيا الحالية.»[٢١]

[٢١] جاردنر، سبق ذكره، ص١٧٩، ٢٥٨، ٢٥٩.

ويذهب الأركيولوجست «جارستانج» ذات المذهب، بحثًا عن الموطن الأصلي للحوريين، فيؤكد أنهم قَدِموا إلى منطقتنا من أرمينيا كموطن أول لهجرتهم، وأنهم قد انحدروا من هناك إلى الفرات الأعلى بينه وبين الخابور؛ ليؤسِّسوا مملكة ميتاني، التي ورد ذكرُها في نصوص مصر والرافدين، وهي مملكة آرية. ولا تنتمي في رأيه إلى مجموعة الشعوب السامية المُتاخمة لها، وأن تلك المملكة قد سقَطَت فريسةً للغزو الحيثي، عندما تخلَّتْ مصر عن مساعدتها، زمن الفرعون «آمنحتب الرابع/إخناتون»، لتنتهي دولة «ميتاني» من التاريخ وإلى الأبد.[٢٢]

وقد خرج «جاردنر» من قراءَته لوثائق مصر القديمة، بأن «ميتاني» منذ بداية ظهورها كدولة، قد وقعتْ تحت الهيمنة المصرية، حيث ترافَقَ ظهورها مع خروج مصر خارج حدودها، وتأسيسها للإمبراطورية المصرية، وحيث أرادت مصر بتلك الهيمنة إيقافَ زحف الحيثيين، الذين بدءُوا يهاجمون بلاد الشام الواقعة تحت النفوذ المصري، وذلك بغرض تأمينِ الحدود الشمالية للولايات المصرية في الشام. لكن الحيثيين تمكنوا زمن الفرعون «إخناتون» من القضاء على الدولة الميتانية، وتوسيعِ حُدودهم جنوبًا في بلاد الشام، على حساب الإمبراطورية المصرية، التي بدأت تخسر بعضَ نفوذها هناك، نتيجةً لانغماس الفرعون «إخناتون» في فلسفته الدينية، وإهماله للشئون العسكرية والسياسة الخارجية.[٢٣]

ونعود لموسوعة تاريخ العالم نتابع سردها الرصين والموضوعي، الذي يسوق المعلومةَ غير المؤكدة في صيغة الاحتمال والظن، لنستمع إليها وهي تقول: «تعرف اللغة الحورية معرفة غير تامة من خطاب دوشراتا ملك الميتانيين، إلى آمنحتب الثالث الملك المصري والد إخناتون، ومن بضع نصوص من مكتبة بوغاز كوي (عاصمة الحيثيين شمالي الأناضول)، ومن بضع كلمات ذُكرت هنا وهناك على اللوحات المسمارية، التي وجدت في نوزي وبالقُرب من كركوك. وربما كانت هذه اللغة قريبةً من اللغة الفانية والعيلامية، غير أنه لا يمكن إدماجُها في أية فصيلة لغوية معروفة. أما صلات الجنس الحوري بأجناسٍ أخرى، فهي غير معروفة. والأسرات الملكية والأمراء الميتانيون من أصلٍ هندوآري؛ إذ كانوا يحلفون بآلهةٍ هندوآرية؛ مثل أندرا وميترا وفارونا وناستيا. وكان أعظم عمل للحوريين، أو على الأصح لقادَتِهم من الهندوآريين، هو إدخال العربة ذات العجلتين التي

[٢٢] جار ستانج، سبق ذكره، ص٢٤–٢٦.

[٢٣] جاردنر، سبق ذكره، ص٢٥٨، ٢٥٩.

تجرها الخيل إلى مصر وغرب آسيا، حيث أصبحت معروفة. وربما كانت النحوت الغائرة المعروفة بالحيثية، التي اكتُشفت في شمال سوريا: قرقميش، سنجرلي، تل أحمر، وفي أعالي ما بين النهرين: تل حلف، والتي يرجع تاريخُها من منتصف الألف الثاني إلى القرن التاسع ق.م. ربما كانت هذه النحوت حورية في أسلوبها إن لم تكن في أصلها، كما يتضح من مقارنتها بالأختام الحورية. أما أهم آلهة الحورين فهي: تيشوب إله الزوابع، هيبات إلهة الشمس، ولا يُعرف عن آلهة أخرى عديدة سوى أسمائها.» وتتابع الموسوعة القول: «إن عاصمة مملكة «ميتاني» قد حملت اسم «واشوكاني»، وأنه في زمن الملك الميتاني أرتاتاما حوالي ١٤٤٠ق.م. زمن الفرعونة حتشبسوت، سادتْ علاقات ودية مع مصر، وأنه قد ازدادت عُرى الصداقة مع مصر زمن الملك الميتاني التالي «شورتانا» حوالي ١٤٣٠ق.م. حيث تزوَّجَ الفرعون المصري «آمنحتب الثالث» 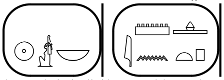 ابنةَ «شورتانا»، وكانت تحمل اسم «جيلوخيبا». لكن لتتحول العلاقات إلى حالة عَدَاء واضحة زمن الملك الميتاني «توعي»، ثم يخلُفه «دوشراتا» ليعيد التحالف مع «آمنحتب الثالث» ملك مصر. ولا يطول الأمر حتى يلهو «إخناتون» ابن «آمنحتب الثالث» بفلسفته الدينية، ويترك حليفته «ميتاني» تسقط فريسة الغزو الآشوري، زمن «شلمناصر الأول» حوالي ١٢٧٥ق.م. ليزيلها تمامًا من على صفحات التاريخ.

أي هذه التزمينات لسقوط دولة «ميتاني/نهارين» نصدق؟! هل سقطت على يد الآشوريين في القرن التاسع/٩٠٠ق.م. قبل الميلاد، كما أفادنا طه باقر المؤرِّخ والعراقي الرصين المعروف، والمعتبر بين طبقات المؤرخين المحدثين؟ أم أنها سقطت على يَدِ الآشوريين بالفعل، لكن زمن شلمناصر الأول الآشوري حوالي ١٢٧٥ق.م. كما قررت موسوعة تاريخ العالم، التي شارك فيها جِلَّة من المتخصصين كما ينبغي أن يكون التخصص؟ أم أنها لم تسقط على يد الآشوريين، بل على يد سكَّان تركيا القدماء المعروفين «بالحيثيين»، زمنَ الفرعون المصري إخناتون، أي حوالي ١٣٤٠ق.م. فيما يؤكِّده المؤرخ الشهير جارستانج؟ أم أنها سقطت على يد الملك الحيثي شوبيللو ليوماش حوالي ١٣٩٠ق.م. فيما يصر عليه جاردنر المؤرخ العالي الذكر؟! وهكذا يصبح بيدِنا أربعة تزمينات بينها فروقٌ زمنية فادحة، لدينا «٩٠٠ق.م.، و١٢٧٥ق.م.، و١٣٤٠ق.م.، و١٣٩٠ق.م.»! وهذا فقط ما وقع بأيدينا ناهيك عما لم يصِلْنا.

وحتى الآن نجد كل ما جاءنا عن «ميتاني»، جاء مدونًا في عددٍ من السِّجلات، ولم يعثر على تلك السجلات أبدًا في الموقع الذي حدَّده المؤرخون لها بين الفُرات والخابور في

الفرات الأعلى. وكل معلوماتنا عن «ميتاني» قد جاءت من تلك السجلات التي عُثر عليها في مصر، أو آشور، أو أوغاريت، أو العاصمة الحيثية بشمال تركيا، دونما أثر أركيولوجي حقيقي في موطنها، الذي تمَّ التواضع عليه. ذلك الموطن الدولة الذي تمَّ تحديدُه في ضوء السجلات غير الميتانية، وفق فروض مُعقَّدة تمَّ فيها تتبع خط سير الحملات المصرية نحو «ميتاني»، وعبورًا على أيةِ مواضع؟ مع دراسة الإشارات التي وردت في الرسائل الميتانية إلى فراعنة مصر، ولم يُعثر أبدًا على الخطابات المماثلة في موقع أعالي النَّهرين، مع دراساتٍ مطولة معقدة، انتهت إلى فرضٍ يضع تلك المملكة في الرَّافدين الأعلى، مع حيرةٍ غير خافيةٍ حول ذلك الانتشار والتشظِّي الواسع للشعب الحوري، بطول المنطقة وعَرضِها في الأناضول، وفي جميع بوادي الشام، وفي داخل فلسطين. وأما الأشد أهمية فهو التواجد الذي أشار إليه الجميع، وأهمله الجميع، في بلادٍ باسم آدم حملت أيضًا اسم بلاد الحور، وهو الأمر الذي نراه أمرًا.

آدم أم آدوم؟

«اللغة الكارية» وردت إليها إشارات عدَّة في المصادر القديمة. وربما كانت أقدم تلك الإشارات إشارة «استرابون» المؤرخ الكلاسيكي اليوناني إلى اللغة الكارية، بوصفها لغة لمن يُسميهم «سكان الكهوف». كذلك وردت إشاراتٌ بالكتاب المقدس إلى قومٍ يَسكنون الكهوف، لكن على مستوى التاريخ كعِلم، ظلَّتِ اللغة الكارية لغة مجهولة لشعبٍ مجهول، يسكن كُهوفًا مجهولة في بلادٍ مجهولة.

ومع علوم التاريخ الحديثة التي فكَّت رموز كثيرٍ من اللُّغات القَديمة، يعود الحديث عن اللغة الكارية إلى الظهور، بعد أن تمَّ إسقاطها من حسابات البحث العلمي منذ زمنٍ بعيد. فقد بدأت نصوص الحضارات القديمة تُفصح عن إشاراتٍ إلى اللغة الكارية، فنجد النصوص الأكادية بالرافدين تحدِّثُنا عن لغةٍ باسم «اللغة الحورية»، التي يتحدث بها شعبٌ يعيش في بلادٍ تحمل اسم أصحابِ تلك اللغة، أي الشعب الخوري الذي يعيش في بلاد الخور. ووردت تلك البلاد باسم «بلاد الخور»، كذلك وردت إشارات متكرِّرة في النصوص المصرية القديمة إلى لغةٍ باسم «لغة خارو». وعند فك رموز الهيروغليفية الحيثية بتركيا القديمة، وُجدت إشارات عديدةٌ إلى اللغة الحورية، بل وتم العثور على ألواحٍ مكتوبة بتلكَ اللُّغة. وهو الكشف الذي ترافق مع اكتشاف سجلَّات تل العمارنة بمصر، لنَجِدَ بالعمارنة

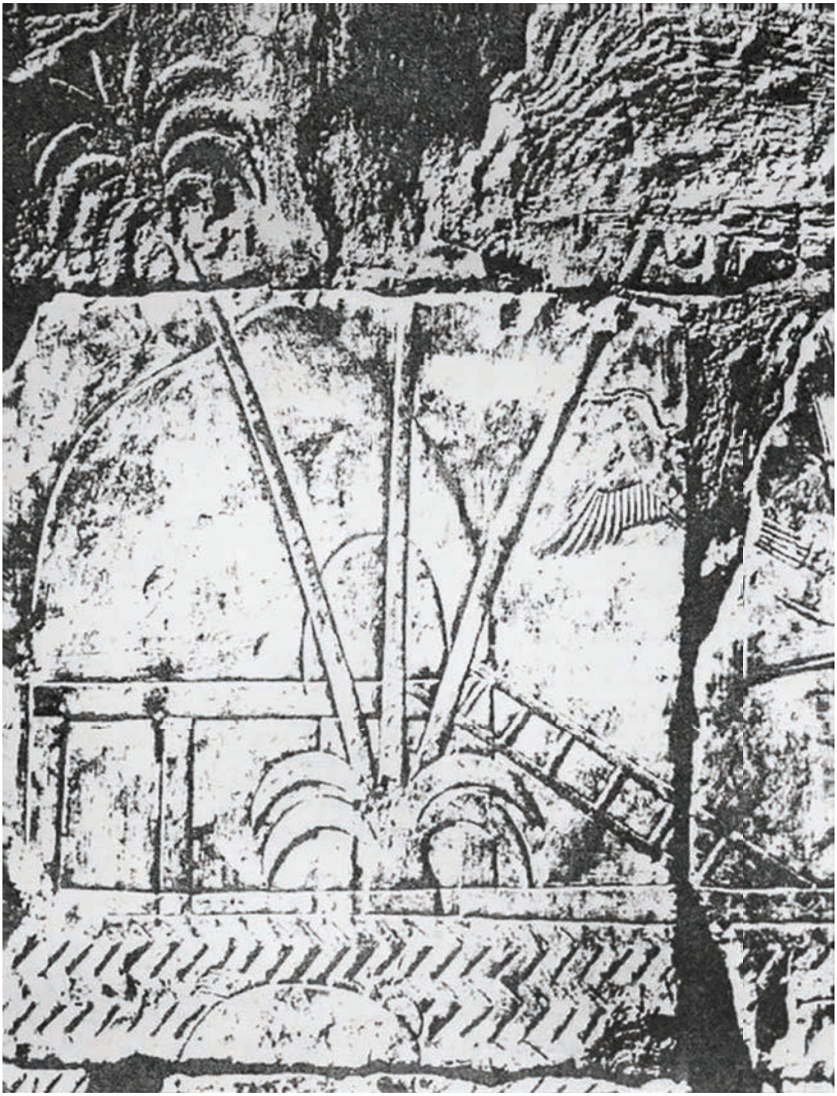

شكل رقم «٣٧»: مساكن بلاد بونت كما صورتها لوحات حتشبسوت.

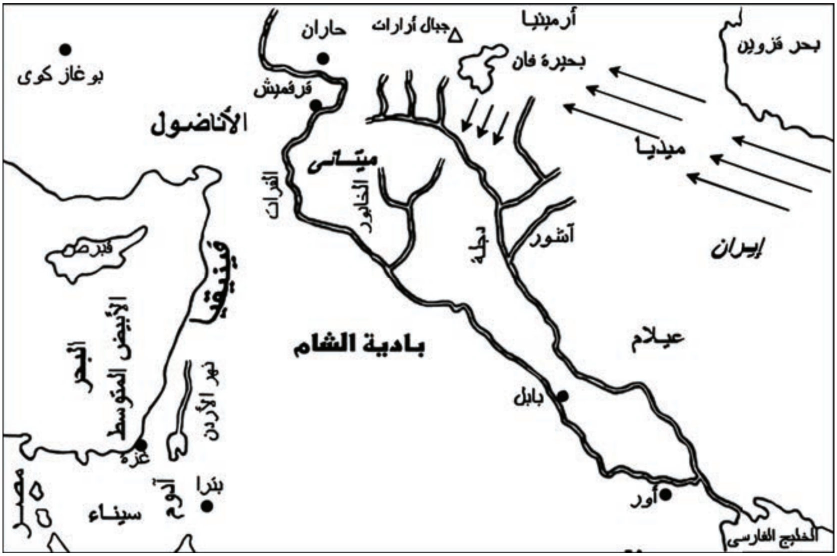

شكل رقم «٣٨»: الموضع المفترض لبلاد «ميتاني» بأعالي الرافدين. الأسهم تشير إلى هجراتٍ قادمة من وسط آسيا.

رسالةً تتكون من ستمائة سطر، مكتوبة بتلك اللغة، موجهة من ملك باسم «دوشراتا» يحكم في بلاد باسم «ميتاني». والرسالة موجَّهة إلى الفرعون آمنحتب الثالث. وهو الأمر الذي أدَّى إلى إلقاء اللُّغَتين أو بالأحرى اللغة الوحدة (الحورية/الخورية) في رحم اللغة الكارية؛ إذ سنكتشف بعد قليل أنها جميعًا ليست سوى لغةٍ واحدة، والربط بينها وبين البلاد التي ذُكرت في تلك الرسائل باسم بلاد ميتاني، واعتبار سكان تلك البلاد هم أصحاب تلك اللغة. ومرة أخرى يعود الاعتبار إلى كلام استرابون والكتاب المقدس، حول اللغة الكارية لغة سكان الكهوف. ذلك الكلام الذي جاء في شكل ومضاتٍ سريعة، تشير إلى شعبٍ يسكن الكهوف ويتكلم الكارية، واحتسب لوقتٍ طويل من خيالاتِ استرابون، ومبالغات المحرر التوراتي.

وبمرور الوقت تزايد الكشف عن تواجد تلك اللغة وانتشارها، في ألواحٍ عُثر عليها في تلِّ تعنك، وفي وادي جرزيل بفلسطين. ثم كانت المفاجأة، وهي أن تلك اللغة لم تكن مجردَ لغة بدائية مجهولة لشعبٍ مجهول. حيث تم العثور على الأقلِّ على مدينة واحدة من مُدن شرقيِّ

المتوسط، كان أهلها خليطًا من عدَّة أجناس، ويتحدثون عدةَ لغات بينها اللغة الحورية، بل وضح أنهم كانوا يستخدمونها في المكاتبات الرَّسْمِية. وكانت تلك المدينة هي «أوغاريت» على الساحل السوري قرب اللاذقية، وتحمل الآن اسم «تل شمرا». ثم كان من بين الإشارات التي وردت في أوغاريت، على ساحل المتوسط الشرقي وتل العمارنة بمصر، إشارة أخرى تقول: إن البلاد التي سكَنَها الشعب الحوري الذي تكلم اللغة الحورية، كانت تعرف أيضًا باسم بلاد «آدم»، والتي أطلقت عليها نصوص تلِّ العمارنة اسم بلاد «ميتاني»، وأيضًا «نهارين». وهو الاسم الذي اعتادته المصادر الآشورية في الإشارة إلى بلاد الحور.

ووفق الإشارات التي وردت عن بلاد «ميتاني» في نصوص أكاد ومصر وبلاد الحيثيين، وتفسير تلك الإشارات لدى المؤرخين، فقد انتهى هؤلاء إلى وجوب وقوعها بين الفرات والخابور بالفرات الأعلى. ورغم ذلك فإنه أبدًا لم يعثر هناك حتى الآن على دلائل واضحة، تشير إلى دولة بذلك الاسم «بلاد ميتاني» أو «بلاد آدم». وليست هناك أية كهوف سكنية تشير إلى أصحابها. فقط عثرنا على مخلفات مدينة تُدعى «نوزي»، ربما كانت بعض سجلاتها باللغة الحورية، أو على التدقيق كما ذكرت موسوعة تاريخ العالم «بضع كلمات»، وتلك الكلمات البضع أبدًا لم تتحدَّث عن نفسها، باعتبار أن اللغة المدونة بها هي لغة نوزي، كما لم تفصح لنا عن اسم شعبها، أو دَولتها أو هويتها.

وهكذا تم وضع اللغة الحورية وشعبها الحوري شعب آدم الميتاني ساكن الكهوف، في ملفٍّ صغير يؤكِّدُ أن بلاد الميتاني تقع أعالي الفرات. وربما كانوا هُم، احتمالًا، أولئك الذين حملوا اسم بلاد آدم الحورية، وتكلموا اللغة الحورية، لكن الملفَّ وُضع مرةً أخرى بين عددٍ من الملفات المسجلة، تحت عنوان «غير مؤكد وأقرب للمجهول».

وهنا نمسك من كلِّ ذلك الشتات بطرَف خيطٍ، يتمثل في واحدٍ من الأسماء المتعددة لذلك الشعب، الاسم الذي فضَّل أن يُطلقه على نفسه، «شعب آدم»، الذي ورد له مثيلٌ بالكتاب المقدس لكن باسم «آدوم». وسنحاول الآن تحديد موقع «آدوم التوراتي» الجغرافي؛ للتأكد من مدى التقائِه من عدمه، مع شعب آدم الحوري الميتاني (التاريخي). وهذا التحديد سيعتمد بالضرورة على ما جاء بالكتاب المقدس عن الشعب الذي سكن بلاد آدوم، إضافةً إلى ما يمكن أن نعثر عليه في نصوص المنطقة إن وجدنا. ثم علينا محاولة التأكد والتيقُّن إن كان شعب «آدوم» التوراتي فعلًا هو المذكور في المدوَّنات التاريخية باسم «آدم/الحور/الميتاني/نهارين»؟ وفي حال الوصول إلى إجابةٍ، سنحاول تقديم القرائن والأدلة الممكنة.

يمكن التعرف على موضع بلاد «آدوم»، التي جاء ذكرها بالكتاب المقدَّس من عدة مواضع ومتكررات بهذا الكتاب، أبرزها النص الذي يحدِّثنا عن حدود دولة إسرائيل جغرافيًّا، وكيف تتماسُّ حدودها الجنوبية مع دولةٍ تجاورها من جنوبها. ويصف موقع تلك الدولة بقوله:

تخم آدوم:[٢٤] برية صين نحو الجنوب، أقصى التيمن.
أقصى بحر الملح من اللسان المتوجِّه نحو الجنوب.

(يشوع، ١٥: ١-٢)

وهو ما يعني أن الحدود الجنوبية للدولة اليهوذية — حسب سياق النصِّ الذي ورَدَ به الاقتباس — كانت على خطٍّ حُدودي مع بلاد تسمى آدوم، وأن على تلك التخوم (الحدود) تقع برية باسم برية «صين». ومن جانبنا جهدنا بحثًا على تلك الحدود في خريطة المنطقة الحالية، حتى وجَدْنا برية تحمل اليوم اسم برية «تسين»، دون تغيير لساني يُذكر عن برية «صين»، وتقع في ذات الموضع الذي حدَّدَتْه التوراة لبرية صين. ثم إن هذه التخوم تقع عند أقصى بحر الملح جنوبًا. و«بحر الملح» هو الاسم التوراتي للبحر الميِّت، وإن تخوم «حدود» آدوم هذه تبدَأُ عندما ينتهي لسانُ البحر الميت الممتدِّ جنوبًا.

وتقول التوراة: إن سكان تلك المنطقة سُموا آدوميين؛ لأسبابٍ صاغتها التوراة على طريقتها. وأهم تلك الأسباب: أن جد الآدوميين البعيد كان يُدعى آدوم، وأن آدوم هذا كان شقيقًا توءَمًا ليعقوب بن إسحاق بن إبراهيم المعروف باسم إسرائيل. لقد كان المحرر التوراتي يعلم أن هناك لونًا من القَرابة القبلية، بين سكان بلاد آدوم، وبين الشعب الإسرائيلي، فجعل الآباء الأسطوريين للشعبين أشقَّاءَ، بل وتوائم.

ومع استمرار القراءة نفهم أن آدوم لم يكن الاسم الأصلي الأصيل لجد الآدوميين؛ لأنه كان يحمل اسمًا أولًا هو «عيسو»، ثم بعد زمن وبعد أن كبر وأصبح شابًّا يافعًا، اكتسب اسم «آدوم». ومرة أخرى تشرح لنا التوراةُ على طريقتها لماذا حمل عيسو عندما يفع شابًّا اسم «آدوم»؟ لتفسر لنا صفةً أخرى لهذا الشعب الآدومي، تضيف لمعلوماتنا

[٢٤] كلمة «تخم» تعني: حدود.

عنه مزيدًا من الرَّصيد. وفي هذا التَّفسير يقدِّم لنا الكتابُ المقدس قصة، تتضمن معلومةً كان يعرفها المحرر التوراتي عن يَقين، تحكي أن عيسو كان ذات يومٍ جائعًا، فلجأ لأخيه التوءَم يعقوب ليطعمه، وكان يعقوب قد طبَخَ عدسًا. ويقول النص في ذلك:

> فقال عيسو ليعقوب: أطعمني من هذا الأحمر؛ لأني قد أعييت؛ لذلك دُعي اسمه آدوم. فباع بكوريته ليعقوب، فأعطى يعقوب عيسو خبزًا، وطبيخ عدس.
>
> (تكوين، ٢٥: ٣٠–٣٤)

النص يقول: إن عيسو عندما أكل العدس «الأحمر»، حمل بعدها اسم آدوم. فماذا يعني هذا الكلام الساذج؟ يمكننا أن نجد مزيدًا من التوضيح في نصٍّ آخر، يحكي لنا قصة ميلاد السلفَيْن الأسطوريين للشعبين الإسرائيلي والآدومي، حيث يقول عن رفقة زوجةِ إسحاق، وحملها للتوءَمين:

> فلما أكملت أيامها لتلد؛ إذا في بطنها توءَمان. فخرج الأول أحمر كله كفَروةِ شعر، فدعوا اسمه عيسو. وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو، فدعي اسمه يعقوب.
>
> (تكوين، ٢٥: ٢٤–٢٦)

مرة أخرى تفسر لنا القصة ذلك الأمرَ الذي كان يعرفه المحرِّر التوراتي، وهو أن الشعب الآدومي كان «شعبًا أحمر» كما هي عادة التوراة في وضعِ معانٍ لأسماء الأعلام، مثل بنيامين أي: ابن اليمين. ويعقوب سُمي كذلك؛ لأنه كان يمسك بعقب أخيه التوءَم عيسو عند ولادته. كذلك سُمي عيسو بهذا الاسم؛ لأن اسم عيسو يعني الأحمر، واسمه الثاني آدوم يعني أيضًا الأحمر. وكان الترميز إلى اللون الأحمر في الاسم عيسو «فروة شعر»، والترميز إلى اللون الأحمر في الاسم آدوم «طبيخ عدس». أما معنى كلمة «آدوم» في اللغتين العبرية والعربية، فهو الصخر أو التراب «الأحمر». والمقصود هو اللون الأشقر الضارب إلى حمرة، أو الأحمر الضارب إلى غُبرة. وهو الأمر الذي يرجح استنتاجاتِ المؤرخين أن الشعبَ الميتاني — حسب موسوعة تاريخ العالم — من الجنس الهندوآري. وعادةً ما يحمل هذا الجنس صفة الشقرة الضاربة إلى حمرة. وهذا أول القطر في محاولة التيقُّنِ من تطابق القصة التاريخية، عن شعب آدوم الحوري الميتاني التاريخي، مع الشعب الذي ذكره الكتاب المقدس باسم شعب آدوم.

ومع محاولة البحث عن تطابق، نحاول أيضًا تدقيق الموقع الجغرافي لبلاد آدوم التي سكَنَها الشعب الحوري صاحب اللغة الحورية الكارية. نمسك بتلابيب «آدم» التي رأيناها ذات «آدوم»، لنطالع خريطة المكان الذي حدثنا عنه الكتاب المقدس جنوبيَّ البحر الميت. فنجده امتدادًا طوليًّا على الجهتين الأصليتين الشمال والجنوب، يسير مع امتداد «جبال الشراة أو السراة»، التي تطلق عليها التوراة اسم جبال «سعير»، التي يوازيها من الغرب وادٍ عظيم، يمتد بنفس الطول يسمى «وادي عربة».

لكن المصادر التاريخية وصفت شعب «آدم/التاريخي» بأنه شعب «حوري»، فهل نجد أية إشارة بالكتاب المقدس تشير إلى أن شعب «آدوم/التوراتي»، بدوره كان يحمل تلك الصفة «حوري»؟ هنا تقفزُ بين أيدينا نصوصٌ واضحة، ونحن نقلب دفتي المقدس تقول:

> وفي سعير سكن قبلًا «الحوريون»، فطردهم بنو عيسو، وأبادوهم من قدامهم، وسكنوا مكانهم.
>
> (تثنية، ٢: ١٢)

ها قد بدأت الأمور تنجلي بين أيدينا. ولدينا الآن قرينة جديدة، تتمثل في أن شعب «آدم» المزعوم أنه سكن أعالي الفرات، كان يحمل الصفة «حوري»، وهي ذات الصفة التي أكد المقدس على أنها كانت صفةَ شعب «آدوم»، الواقع على امتداد جبال السراة (سعير)، ووادي عربة جنوبي البحر الميت.

لكن النص هنا حاول القول إن «آدوم» أُناس و«الحور» أناس أُخر. لكن الحدث حدَثَ في ذات المكان، حيث أباد الآدوميون (بنو عيسو) الحوريين واستوطنوا بلادهم. ونظن أن ذلك يعود إلى سببٍ تأسيسي. فلما كان الحوريُّون أشقاء للإسرائيليين، وكان معلومًا أنهم هندوآريون وليسوا ساميين. وحتى لا تلحق الهندوآرية بإسرائيل؛ فقد تمت الصياغة بهذا الشكل، لكنها لم تلحق باستنتاجنا أي خلل؛ فنحن ما زلنا في ذات المكان الذي حددته التوراة. وما يشغلنا الآن هو أن ذلك الموضعَ كان سكنًا لشعب الحور الذي نعتقد الآن، أنه ذات شعب آدوم (وهو ما سنقدم عليه قرائن كافية). شعب آدوم الذي سكن جبال عسير/السراة ووادي عربة ذلك الوادي الذي كان سببًا في إطلاق اسم العرب أولًا على سكان آدم وسيناء وبعض بوادي الشام القريبة. ولم يتمَّ تعميم اسم عرب على سكان المحيط الأوسع في بوادي الشام وجزيرة العرب، إلا بعد ذلك بزمنٍ طويل. فظل العرب هم سكان عرابة/عربة ومحطيها في النصوص الرافدية، التي بدأتْ ذكرهم حوالي

٨ق.م. أو قبله بقليل، حتى زمن المؤرِّخين الكلاسيك قبل القرن الميلادي الأول، الذين أخذوا يتحدثون عن عرب جزيرة العرب المعروفة الآن. وهو أمر سيأتي تفصيل بيانه في مكانِه من هذا العمل.

ونعود نمسك بأول القرائن الدالة والشاهدة «آدم = آدوم = بلاد الحور»، نحاول العثور على مزيدٍ من التحديد الدقيق خاصةً الجغرافي. وليس في أيدينا عن البلاد الذي ذكرَها علم التاريخ باسم «آدوم» سوى شذراتٍ يسيرة تمامًا، إضافةً إلى ما ورد عنها بالكتاب المقدس. وإن نصًّا بالمقدس أو نصَّيْن كما أوردنا، لا يؤكدان شيئًا ولا ينفيان شيئًا، إزاء قضية كبرى كتلك التي بين أيدينا، نحاول فيها تحديد موضع مخالف تمامًا لما تعارف عليه رجال التاريخ، كموطنٍ ومستَقَرٍّ للشعب الحوري الميتاني في منطقة المتوسط الشرقي، الذي أسكنوه أعالي الفرات، دونما دلائل وبيئات حاسمة واضحة كافية مؤكدة، أو حتى شبه مؤكدة.

وعليه نعود للوثيقة التاريخية الكبرى المتاحة، الكتاب المقدس، ننقِّب فيها بحثًا عن مزيدٍ من التأكيد، على أن بلاد «آدم» التاريخية في موقع «بلاد آدوم» التوراتية، وأن ذلك الموقع يتموضَعُ في المساحة الواقعة بطول وادي عربة شرقيَّ سيناء. ونقرأ قصة عن يعقوب بن إسحاق، الذي سبق وذهب في رحلةٍ طويلة إلى الشمال السُّوري، ثم عاد يريد دخول فلسطين مع أنعامِه وعبيده، بالعُبور من جنوبي البحر الميت. لكن هذا العبور كان يعني اختراقَ منطقة شعب أخيه عيسو/آدوم. وهنا نجد يعقوب يضطر إلى دفع رسوم عبور عالية؛ ليتمكَّن من العبور عبر آدوم، إلى النقب جنوبيَّ فلسطين. وهو ما نفهمه من النص:

> وأرسل يعقوب رسلًا قدَّامه إلى عيسو أخيه، إلى أرض سعير بلاد آدوم. وأخذ مما أتَى بيده هدية لعيسو أخيه، مائتي عنزة وعشرين تيسًا ومائتي نعجة، وعشرين كبشًا، وثلاثين ناقة مرضعة، وأولادها.
>
> (تكوين، ٣٢: ٣، ١٣، ١٤)

ومثل تلك الهدية أو ضَريبة العبور، تعني أنه كان مع يعقوب مثلها عشرَ مرات على الأقل، لو افترضنا أنه دفع العشر ضريبة العبور المتوافق عليها في الزمن القديم. وهو ما يفسِّر لنا عدم تمكُّنِه من عبور نهر الأردن مباشرة إلى فلسطين، واضطراره للدوران من جنوبِ البحر الميت، بما معه من سوائم؛ لأن عددَها سيصل على الأقل إلى ألفَي عنزة ومائتي تيس وألفي نعجة، ومائتي كبش وثلاثمائة ناقة وأولادها، وعبوره بذلك كله على بلاد

آدوم، التي وضح موضعها الجغرافي هنا كحاجزٍ كبير يفصل شرقيَّ المنطقة في البوادي الشامية شماليَّ جزيرة العرب، عن غربيِّها شبهِ جزيرة سيناء، بحيث لم يكن بإمكان يعقوب أن يجد أيَّ منفذ للعبور، مما يعني أن سيطرة آدوم قد امتدَّتْ من جنوبيِّ البحر الميت حتى خليج العقبة، لتغلق المنطقة تمامًا على أيِّ عبور، وأن تلك البلاد كانت قبائل أو عصابات تقطعُ الطريق، أو دولة قوية مقتدرة تأخذ رسومها ممن يعبرون أرضها، أو تستولي على ممتلكاتهم.

وهكذا كان المحرِّر التوراتي يعرف بصلةٍ قوية بين القبائل الآدومية والقبائل الإسرائيلية. وكان يعلم بالتحديد وبالقطع وباليقين، الموضع الدقيق لبلاد آدوم ومساحة سيطرتها، وأن آدوم قد سكنوا جبال سراة سعير، ووادي عربة جميعًا، «فسكن عيسو في جبل سعير وعيسو هو آدوم (تكوين، ٣٦: ٨)». أما بلاد سعير نفسها فقد اكتسبت اسمَها، حسب التخريج التوراتي، من اسم ساكنيها الأوائل «بنو سعير الحوري» (تكوين، ٣٦: ٢٠).

ما زلنا ندعم موقعَنا الجغرافي لبلاد «آدم الحورية التاريخية» في بلاد «آدوم الحورية التوراتية» لمزيدٍ من اليقين. ونعمد إلى الكتاب المقدس لنؤكد أن محرِّري التوراة كانوا يعلمون يقينًا معلومة معروفة لديهم، بشكلٍ واضح تمامًا لا تقبل الالتباس، يعودون إليها كل مرة دون خطإٍ واحد، مما يشير إلى أنهم بين الأساطير والترميزات كان لديهم طوال الوقت، خريطةٌ واضحة تتأكد دومًا. ونموذجًا لذلك حكايةٌ جاءتْ ضمن حكايا التوراة عن خروج بني إسرائيل من مصر عبورًا على سيناء، في عَددٍ هائل من البشر تحت قيادة النبي موسى. وتقول الرواية إن النبي موسى بعد أن وصل مع أتباعه حدودَ فلسطين الجنوبية، كان بالإمكان أن يتعرض من سكَّانها لرد فعل عسكري قوي، ففضل مفاجأتها بعبور الأردن من شرقيِّه إلى غربيِّه، والهبوط الصاعق على أريحا. لكن ذلك كان يعني أولًا عبورَ وادي عربة وجبال سعير؛ كي يصبح في الموضع المطلوب حسب خطته. وبالفعل تم العبور وفق التخطيط المُعد له، ولم يخبرنا المقدس إن كان موسى قد دَفَع رسومَ عبورٍ أم لا. لكن الصورة التي تَحكيها التوراة تصوِّر ذلك العبور تسلُّلًا هادئًا ساكنًا مرتعبًا، رافقته أوامر إلهية بعدَم التحرش أبدًا بسكان بلاد آدوم، وهو ما جاء في شكل أوامر من يهوه إلى نبيه موسى، قائلًا:

> أوصِ الشعبَ قائلًا: أنتم الآن مارون بتحكم إخوتكم بني عيسو الساكنين في سعير، فيخافون منكم فاحترزوا جدًّا. لا تهجموا عليهم؛ لأني لا أعطيكم أرضَهم

ولا وطأةَ قدم؛ لأني لعيسو أعطيت جبلَ سعير ميراثًا. فعبرنا عن إخواننا بني عيسو الساكنين في سعير على طريق العربة (أي وادي عربة [المؤلف]) وعلى أيلة (حاليًّا ميناء إيلات [المؤلف]) وعلى عصيون جابر (في الجوار الغربي منه [المؤلف]). ثم تحولنا ومررنا في طريق برية موآب.

(تثنية، ٢: ٨، ٥، ٤)

مرة أخرى يسجل المحرر التوراتي، بشديد الدقة، ذكرياته عن بلاد آدوم، فهي بلاد عيسو السَّاكِنِين في سَعير، وأن بلادَهم تقع في جِبال تُعرف باسمهم، فهي جبال سعير ووادي عربة. ومن موانيها المشهورة: ميناء أيلة، وكلها تقع في المساحة الواقعة بين البحر الميت وخليج العقبة. ويؤكِّد هذه الموضعة الجغرافية أن النص يقول إنه بعبور وادي عربة وجبل سعير من غربه إلى شرقه، يصلون إلى طريق برية موآب. وموآب دولة تاريخية معلومة تقع إلى الشرق من البحر الميت في قسمه الجنوبيِّ، أي تلاصق بلاد آدوم المفترضة في هذا الموضع من الشرق، والشمال الشرقي، وهو الأمر الذي يفيد بمدى وضوح الجغرافيا ودقَّتِها عند المحرر التوراتي.

والآن هل نجد في وثائق التاريخ كعلم ما يؤيد ما ذهَبْنا إليه؟ وهل ثمة إشارة إلى بلاد «آدم» كما نقصدها نحن «آدوم سعير»، في أي مدونات أو وثائق في علم التاريخ؟ وهل نجدُ في هذه الوثائق أية إفادات، تدعم الموقع الجغرافي الذي حدَّدَتْه التوراة لبلاد آدوم؟

نظن أننا عثرنا على أول تلك الإشارات، وأننا أول من عثَر عليها في أكثر من وثيقةٍ حقيقية، أولها ملحمة «كارت ملك صيدون». وتروي تلك الملحمة قصة حملة عسكرية كبرى، يقوم بها (كارت ملك صيدا على الساحل الجنوبي)، على بلاد حددت الملحمة موقعَها إلى الجنوب من بلاد صيدا، وليس إلى الشمال منها بين الفُرات والخابور. وكان هدف الحملة بلدًا يحمل اسم «آدوم الكبرى».[٢٥] وهو الاصطلاح الذي لا يُشير لآدوم كمجرد دولة جنوبية، إنما دولة تستحق أن تُوصف بأنها كُبرى.

وتحكي الملحمة، بالأسلوب الرمزي الغنائي الملحمي، قصةَ تحرُّكِ جيوش عظيمة من صيدا، تحت قيادة ملكها الذي حمل اسم كارت، ليتزوج ابنة ملك آدوم. فيما يبدو أنه كان فرضًا لاتحادٍ بالقوة، حيث كان الزواج هو عقدَ الوحدة والأحلاف بين الأُسر الملكية.

---

[٢٥] أنيس فريحة، ملاحم وأساطير من الأدب السامي، دار النهار، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م، ص٨٩.

ولا يفوتنا التنبيه إلى أن اسم «كارت» نفسه يلتقي مع اللغة «الكارية»، ومع اسم مدينة «أوغاريت» التي عُثر فيها على تلك الملحمة. فهي مدينة «أو كارت»، وورد اسمها في سجلات العمارنة، بإسقاط الراء المعترضة «أوكات». فالاسم كارت يعني إذن: الكاري، أو الحوري.

ومع البحث نمسك بوثيقةٍ أخرى، تؤكد صدق ما نفترضُه هنا، فنقرأ عن حملة قام بها الفرعون «رمسيس الثالث»، اتجهت إلى بلادٍ يَسكنها شعب يسمى بالسعيريين، وجاء النص على لسان الفرعون وهو يقول:

> لقد قضيت على «السعيريين» من قبائل «شاسو».[٢٦]

ونحن نعلم أن السعيريين تعني سكانَ جبال سعير، لكن النص هنا لا يحدد لنا مكانًا. فقط يقول: «السعيريين من قبائل شاسو». والكلمة «شاسو» كانت تعبيرًا مصريًّا شائعًا، يشير إلى بدوِ شبهِ جزيرة سيناء، مع اصطلاحاتٍ أخرى مثل «عامو» و«ستيو»، التي تطلق على الآسيويين عمومًا، وعلى الهكسوس خصوصًا.

لكن، ألم يكن المصريون القدماء يعلمون ما عرفناه في بحثنا هنا، وهو أن شاسو (سعير) هم الآدوميون؟ وإذا كانوا قد عرفوا ذلك، فهل يمكننا أن نجد نصًّا مصريًّا قديمًا يفيدُ ذلك؟ نعم هناك نص آخر عثرنا عليه، وقد جاءَ في تقريرٍ رسمي لموظف من عهد الفرعون مرنبتاح 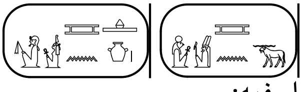 من الأسرة التاسعة عشرة، حوالي ١٢٢٤–١٢١٤ق.م. يقول فيه:

> انتهينا من السماح لقبائل «الشاسو الآدومية» بتخطي قلعة مرنبتاح التي في زيكو، ليظلوا هم وقُطعانهم أحياء بفضل إحسان فرعون.[٢٧]

هكذا وصف النص قبائل الشاسو بأنهم من الآدوميين. والنص الأسبق يتحدَّث عن الشاسو بوصفهم من جبال سعير. وهكذا أصبح لدينا قرائن كافية على معرفة المصري القديم أن الشاسو هم الآدوميون الذين يسكنون جبال سعير، مما يدعم رؤيتنا التي

---

[٢٦] جاردنر، مصر الفراعنة ... سبق ذكره، ص٣١٧. انظر أيضًا: سامي سعيد، الرعامسة، سبق ذكره، ص١٦٠.

[٢٧] جاردنر، مصر الفراعنة ... سبق ذكره، ص٣٠٢.

تموضع مركز دولة «آدم» الحورية الرئيسي في بلاد آدوم، في وادي عربة وسراة سعير؛ لأنها هي فقط التي تحمل اسم «سعير»، وليس أي مكان آخر. ولكنا نطمح إلى المزيد من القرائن التي يمكن أن ترقى بفرضنا، من مستوى الفرض المحتمل إلى مستوى النظرية، التي تحمل أدلة كافية على صدقها.

وبسبيل ذلك نتذكر النصَّ التوراتي السالف إيراده. ويحدثنا عن ميناء باسم «عصيون جابر»، يقع إلى الجوار من ميناءٍ يُدعى «إيله»، وأن كِلا الميناءَين يقع في بلاد آدوم، حيث عبر موسى برجاله. وإن ما يؤكد لنا أن كلًّا من الميناءين كان يقع على خليج العقبة، وأن «إيلات» الحالية هي بالفعل ميناء يقعُ بجوار إيلات. والعقبة الحالية هو أن محرري التوراة كانوا يُطلقون على البحر الأحمر اسم بحر «سوف»، والشديد الدلالة هنا هو أن محرري التوراة رغم اختلافِهم مشربًا وزمنًا بتعدد الأسفار، فإن الجغرافيا كانت واضحة لديهم؛ لأنها معالم مستقرة وثابتة. وليس هناك أية حاجة واضحة للَّعبِ بها لصالح أسطورة الشعب المختار، كما هو دأب الكتاب المقدس. فيقول لنا سفر ملوك أول: «وعمل الملك سليمان سُفنًا في عصيون جابر، التي بجانب أيلة في أرض آدوم» (ملوك أول، ٩: ٢٦). والنص هنا يُشير إلى اتساع ملك سليمان — حقيقة أو مبالغة من المحرر التوراتي — على حساب دولة آدوم، حتى إنه اتخذ من الميناء الآدومي «عصيون جابر» ميناءً له على البحر الأحمر.

وللمزيد نبحث عن أسماء مواضع وردت في التاريخ ضمنَ بلاد آدم، وعن أسماء مواضع وردت في الكتاب المقدَّس، تقَعُ ضمن بلاد آدوم، لنحاول مطابقتها معًا، ومع واقع الجغرافيا. لذلك نسير مع الأسفار شوطًا بعيدًا، إلى ما بعد قيام مملكة إسرائيل الموحدة زمن شاول وداود وسليمان، وانقسامها بموت سُليمان إلى إسرائيل في الشمال ويهوذا في الجنوب، لنستمع إلى حديثٍ عن حرب وقعت بين المملكة الجنوبية يهوذا، زمن مُلكها المعروف باسم «أمصيا بن يوآش»، وبين مملكة آدوم. يقول ذلك الحديث: «هو (أي أمصيا [المؤلف]) قتل من «آدوم» في وادي الملح عشرة آلاف وأخذ «سالع» بالحرب» (ملوك ثاني ١٤: ٧). والمعنى أن الملك الإسرائيلي أمصيا احتلَّ بلاد آدوم بمجازر، واستولى على عاصمتها سالع. و«سالع» كلمة عبرية كنعانية تعني «الصخرة»، وظلت سالع تعرف بهذا الاسم حتى زمن اليونان الذين أطلقوا عليها اسمًا جديدًا. لكنه يحمل ذات المعنى الذي كان يحمله اسم سالع، فأسموها «بترا» أي الصخرة باليونانية. واستمر ذلك الاسم بعد ذلك زمن الرومان، وحتى الأزمنة الحديثة والمعاصرة، فهي لم تزل تحمل اسم البتراء.

ثم نعلم أنه في زمن الرومان كانت بترا هي عاصمة البلاد الواقعة بين البحر الميت وخليج العقبة. وهكذا تكون سالع التي ذكرتها التوراة تقع في الموقع ذاته. وهو ما يؤكد لنا طول الوقت أين تقع بلاد آدوم، التي افترضنا أنها بلاد آدم الحورية (ميتاني) التاريخية، التي مَوْضَعَها المؤرخون بالفرات الأعلى بين الفرات والخابور.

ويستمر بحثنا على دأبه؛ لتأكيد موقع بلاد آدوم، بين العقبة والبحر الميت، فنجد سفر إشعيا يقول: «وحي من جهة «دومة» صرخ إليَّ صارخ (من سعير)» (إشعيا، ٢١: ١١).

وعندما كانت التوراة تغضب على شعب؛ لأنه عادى شعب الرب، فإنها كانت تستنزل عليه اللعناتِ المرتجاةَ في قابل الأيام. وهو ما حدث في مراحلَ متأخرة من التاريخ الإسرائيلي، حيث قلَّبَت الأيام العلاقات، وتحولت القرابات والود إلى معاركَ دموية. ويبدو أن بلاد آدوم كانت صُلبة في صراعها مع الإسرائيليين، إلى الحد الذي دفع إشعيا ليجأر بنبوءاته تستنزل على الدمار الإلهي على آدوم:

> هوذا على آدوم ينزل، وعلى شعب حرمته للدينونة للرب ذبيحة في بُصرة، وذبحًا عظيمًا في أرض آدوم، وتتحول أنهارها زفتًا وترابها كبريتًا، وتصير أرضها زفتًا مشتعلًا ليلًا ونهارًا لا تنطفئ.
>
> (إشعيا، ٣٤: ٥–١٠)

كما هو واضح، إشعيا الأريب يلحظ الأرض البركانية في المنطقة، فيتنبأ بأن فناء آدوم سيكون بالزفت المشتعل والكبريت. وطوال الوقت نجد آدوم بلادًا لا تقع عند الفرات الأعلى. فالنص يذكر من مدن آدوم مدينة باسم «بُصرة». وليس في أعالي الرافدين أي «بُصرة»، لكنا نجد حتى الآن بُصرى شمالي البتراء في سراة سعير. ثم لا يفوت المدقق أن نص إشعيا يشير إلى أن بلاد آدوم كان بها حتى زمنه أنهارٌ تسقيها، تلك التي يتنبأ أن مياهها ستتحول إلى كبريت.

ومثل النص السالف نجد نصًّا آخر، يقول بلسان الرب في نُبوءة النبي الإسرائيلي حزقيال:

> وأمد يدي على آدوم، وأقطع منها الإنسان والحيوان، وأصيرها خرابًا من التيمن إلى ددان، وأجعل نقمتي في آدوم بيد شعبي إسرائيل.
>
> (حزقيال، ٢٥: ١٣، ١٤)

ويضيف النص هُنا إلى معلوماتنا الجغرافية، كي نرسم خريطة واضحة لبلاد آدوم، فيقول: إن من مدن بلاد آدوم إضافةً إلى «بُصرى» مدينتين أخريين، هما «التيمن» و«ددان». وتقع «التيمن» في شرقيِّ جبال سعير شمالي جزيرة العرب. كذلك «ددان» هو الاسم الثابت تاريخيًّا لبلدة العلا الحالية شمالي السعودية، مما يشير إلى توسعٍ جغرافي نحو الشرق يتبع دولة آدوم، قد يصل بنا إلى تيماء ومدينة العلا، وجميعها كما نرى لا تقع في الرافدين الأعلى. فليس هناك أي موضع باسم «التيمن» ولا باسم «ددان».

وفي الروايات التاريخية نلمس صلاتٍ وطيدة بين مصر وبين بلاد آدم الحورية. فنسمع من علم التاريخ عن زيجات تمت بين البلاط المصري وبلاط بلاد آدم الميتاني. وهي ذات الصلات التي نلمسها في روايات الكتاب المقدس عن علاقة آدوم بمصر، وذلك في روايةٍ يرويها محرر الكتاب المقدس حول الصراع الذي دار بين ملك الدولة الإسرائيلية الموحدة: سليمان، وبين جيرانه الآدوميين. فيروي لنا أن الملك داود ومن بعده سليمان قاما بحروب احتلَّا بها بلاد آدوم، فهرب رجال القصر الآدومي الحاكم بولي العهد الصغير إلى مصر. وكان اسمه «هداد» أو «حداد». ويقول النص:

> إن هدد هرب هو ورجال آدوميون من عبيد أبيه معه ليأتوا إلى مصر، وكان هدد غلامًا صغيرًا. وقاموا من مديان وأتوا إلى فاران، وأخذوا معهم رجالًا من فاران إلى مصر إلى فرعون مصر. فأعطاه بيتًا، وعين له طعامًا وأعطاه أرضًا. فوجد هدد نعمة في عيني فرعون جدًّا وزوجه أخت امرأته، أخت تحفنيس الملكة. فولدت له أخت تحفنيس جنوبث ابنه، وفطمته تحفنيس في وسط بيت فرعون. وكان جنوبث في بيت فرعون بين بني فرعون.
>
> (ملوك أول، ١١: ١٧–٢٠)

وتلك الرواية تَشِي بأكثر من سر؛ فهناك صلة حارة بين ملوك آدوم وبين الفراعنة. وهي الصلة الحارة التي حدثتنا عنها وثائق تل العمارنة، بين الفراعنة وبين الميتانيين في بلاد آدم الحوري. لكن الملحوظة الهامَّة هي أن التقليد المصري كان يسمح للمصري بالزواج من أجنبية، لكنه لم يكن يحقُّ للمصرية إطلاقًا أن تتزوج من غير مصري، فما بالُنا والنص هنا يقول إن المصرية التي تزوجت الأجنبي الآدومي كانت أميرة من البيت المالك، بما لها من قداسةٍ دينية وقانونية. إنه أمرٌ لا يجبُ أن يمر بسرعة نضيفه إلى

رصيدنا نحو الكشف المأمول، حيث لم يصلنا من علم التاريخ في الوثائق المصرية، أن هناك أميرة مصرية تزوجت أجنبيًّا سوى في حالة «ميتاني» فقط. وهو ما تؤكد التوراة أنه قد حدَث مع ملك آدوم. أفلا يعني ذلك أن «ميتاني» هي ذات عين آدوم؟

وربَّما حدَث مرةً أخرى في حالة زواج سليمان من بنت الفرعون، الذي لم تذكر التوراة اسمه. وربما كان هذا الفرعون هو شيشنق؛ لأن شيشنق هجم على دولة سليمان بعد موت سليمان مباشرة، على أن نقبل رواية التوراة عن هذا الزواج، بتحوطٍ وتحرز، وربما بشكٍّ عظيم، فقد تكون كاذبة تمامًا. أو ربما نصدقها إذا نظرنا إلى زمن شيشنق كبداية لانحطاط القوة المصرية الصلفة، ناهيك عن كون هذا الزمن زمن حكم الشناشقة لم يكن زمنَ حكم مصري؛ لأن الشناشقة وشيشنق هذا لم يكونوا مصريين بل ليبيون؛ لأن شيشنق الأول هو مؤسس لأسرةٍ ليبية حكمت عرش مصر. ومن هُنا يمكن أن نفهم عدم حرصِهم على التقاليد المصرية المقدسة.

ونعاود البحثَ وراء وثائق التاريخ، نبحث عما يؤيِّدنا، فنجد نصًّا يمكن أن يعطينا دليلًا جديدًا، هو نص آمنحتب الثاني 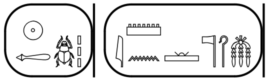 ١٤٣٦–١٤١٣ق.م. يسوقه لنا جاردنر مع تعقيباته قائلًا: «نفهم من النص أن الفرعون المصري كان في مجلس شراب، فانطلق لسانه بالاحتقار لأعدائه الأجانب، بمن فيهم العجوز رباح وقوم نخسى الذين لا جدوى منهم، وأنه بعد أن عاد جلالته من رتنو العليا، وبعد أن قهر أولئك الذين لم يستشعر حبهم له، وبعد أن مد حدود مصر في حملة النصر الأولى له، عاد جلالته فرح القلب إلى أبيه آمون، ووضعهم مقلوبين على مقدم سفينة جلالته التي كان اسمها: عا خبرع مثبت الأرضين. وقد علق ستة من هؤلاء الأعداء على واجهة سور طيبة، أما السابع فقد أرسل بسفينةٍ إلى النوبة. وهناك علق على جدار سور نبتة ليكون عبرة. ونخسى لا تبعد كثيرًا عن قادش على نهر الأورنت، وهي الحملة نفسها التي جاء ذكرها على تمثال لأمنمحات عُثر عليه في مدامود، يشير فيه أنه شهد جرأة وإقدام مولاه آمنحتب الثاني، حيث غزا ثلاثين مدينة في ناحية نخسى. ونلتقي بفقرة تصف تدمير مكان يُدعى «شمس آدوم»، لا يبعد أكثر من مسيرة يوم عن قطنا. وهي مدينة هامة على بعد أحد عشر ميلًا إلى شمال شرقي حمص.»[٢٨]

[٢٨] نفسه، ص٢٢٢، ٢٢٥.

وحتى يمكن فهم النص الذي قدمه جاردنر مصحوبًا بوجهة نظره الشخصية، فإن بلاد رتنو العليا اصطلاح مصري يشير إلى بلاد سورية ولبنان الحالية. بينما كان يعبر عن فلسطين ومحيطها الجنوبي باسم رتنو السفلى. ويبدو لنا أن الاسم «رتنو» من «ردن»، ومنه الكلمة «أردن». وهكذا يكون هناك أردن أعلى يقصد به نهر العاصي، الذي يحمل اسم «أورنت»، ويلتقي تمامًا مع كلمة «أردن» بظاهرة القلب،[٢٩] ويكون هناك رتنو سُفلَى يقصد به نهر الأردن الحالي ومحيطه.

وحول قراءة أسماء الأعلام في اللغات القديمة، يُبدي الباحثون قلقهم «من صعوبات البحث في التاريخ القديم عمومًا؛ إذ إن كتابة الأسماء القديمة لا تخضع لأية قواعد مُتعارف عليها. فإذا أخذنا أسماء باللغات التي لها قرابة عائلية مع اللغة العربية، مثل: الأوغاريتية والآرامية والعبرية والأكادية وغيرها، نجد اختلافًا في تهجئةِ أسماء العلم، قد يؤدي إلى فوضى في هوية الأسماء الشخصية وأسماء الأماكن.»[٣٠]

ونعود إلى قصة حملة آمنحتب الثاني، الذي اضطر عند عودته من بلاد رتنو إلى تدمير موضع باسم «شمس آدوم». وليس في المناطق الشمالية بين الفرات والخابور، أي آدوم. وليس هناك موضعٌ باسم شمس آدوم. فقط لدينا آدوم التي نتحدث عنها، الواقعة في البلاد في البلاد الصخرية، في محيط جبال سراة ووادي عربة. ومن هنا يجب استبعاد ملاحظة جاردنر التوضيحية، التي ليست بالنص المصري، والتي تقول: إن شمس آدوم تبعد عن «قطنا/حمص» مسيرة يوم. ويجب في ظلِّ ما جمعناه حتى الآن، أن نفهم أن حملة آمنحتب الثاني عند عودتها إلى مصر، هبطت إلى بلاد سعير الحوري في حملةٍ تأديبية، اضطرَّ معها إلى تدمير شمس آدوم، أو عاصمة آدوم. ويدعمنا في ذلك التفسير أنه قد ترافَقَ في النص مع اسم شمس آدوم، اسم لموضعٍ آخر باسم قادش. فبماذا تفيدنا قادش هنا؟

إنَّ الدارس للجغرافيا القديمة للمنطقة، سيكتشف أنه كان هناك أكثر من «قادش». فالكلمة تعني الحرم والمقدس والقدس والقديس (قديش بالعبرية). فهناك واحدة من تلك القوادش في الشمال السُّوري على نهر العاصي، ثم هناك أخرى في الجليل الفلسطيني تعرف في التوراة باسم قادش نفتالي، ثم لدينا أهم القوادش قادش أورشليم التي استقرَّ

[٢٩] أي تغيير مواضع الحروف للكلمة، مع الحفاظ على المعنى.

[٣٠] حسني حداد، ود. سليم مجاعص، بعل هداد، دار أمواج، بيروت، ١٩٩٣م، المقدمة، ص/ط.

اسمها في العربية «القدس». ثم نعلم من التوراة بوجود قادش أخرى تقع في سيناء وجنوبي فلسطين، وردت مُعرَّفة مرتين: مرة باسم «قادش برنيع»، ومرة أخرى باسم «قادش عين مشفاط». وورد ذكر قادش سيناء هذه أكثر من مرة في قصة البطرك إبراهيم، وفي قصة الخروج الإسرائيلي من مصر، حيث كانت محطة كبرى للخارجين من مصر عند آخر حُدود سيناء الشرقية. وقد استقروا فيها ثمانيةً وثلاثين عامًا بعد رحيل في سيناء استمر سنتين، وهو ما جعل رحلة التيه تستغرق أربعين عامًا.

ووفق الإحداثيات المعطاة لنا بالتوراة حول قادش سيناء، فإنَّها لا بد أن تكون قد قامتْ على الحدود الغربية لبلاد آدوم الجنوبية لبلاد فلسطين الشرقية لشبه جزيرة سيناء. ونظنها هي بالتحديد المقصودة قادش الواردة في نص آمنحتب الثاني؛ لترافقها مع شمس آدوم.

وللتبسيط السريع نقتطع بعض الإحداثيات التي أعطانا إياها الكتابُ المقدس، وتتعلق بالموضع «قادش» لتأكيد ارتباطها بشمس آدوم، وبلاد آدوم فيما نزعم.

في قصة ميلاد إسماعيل بن إبراهيم يتم طرده هو وأمه هاجر، فيذهبان ليستوطنا في بادية تحمل اسم «برية فاران» (تكوين، ٢١: ٢١). وفي موضعٍ آخر بالتوراة نجد قادش سيناء تقع في محيط بريتين، الأولى باسم «برية فاران» (عدد، ٣: ٢٦). والثانية باسم «برية صين» (عدد، ٢٠: ١). وبالبحث علمنا أن برية فاران هي برية «باران» الحالية. التي تقع على حدود سيناء الشرقية، وتتاخم من الغرب بلاد آدوم الحورية. وإلى الشمال من «باران» عند لسان البحر الميت الجنوبي غربًا، نجد برية باسم «برية تسين»، وهي ما يُطابق «صين» التوراتية. وقد أكد الإصحاح العشرون من سفر العدد أن قادش، كانت تقع في طرف تخوم آدوم الغربية، وبذلك تقع جنوبي فلسطين. ويؤكد ذلك بشكلٍ آخر سفر يشوع، ضمن المدن الواقعة على الحدود الجنوبية لفلسطين:

> وكانت المدن القصوى التي لسبط يهوذا إلى تخم آدوم جنوبًا: قبصئيل، وعيدر، وياجور وقينة، وديمونة، وعدعدة، وقادش، وحاصور، ويثنان.
>
> (يشوع، ١٥: ٢١، ٢٢، ٢٣)

وفي تحديده لأرض يهوذا بفلسطين، أوضح الكتاب المقدس أن حدودها الجنوبية «جانب الجنوب يمينًا، من تامارا إلى مياه مريبوت قادش النهر إلى البحر الكبير»

شكل رقم «٣٩»: خريطة تبين موقع بلاد آدوم.

(حزقيال، ٤٧: ١٩).[٣١] بل إن المسافة بين قادش النهر هذه وبين جبال سعير بآدوم، قد تم تحديدها في قول المقدس: «أحد عشر يومًا من حوريب على طريق جبل سعير إلى قادش برنيع» (تثنية، ١: ٢).

[٣١] يقصد بالبحر الكبير: البحر الأبيض المتوسط.

وإعمالًا لهذه المعطيات الإحداثية تم تحديد قادش سيناء عند الأركيولوجي «ترامبول»، بموضع «عين قديس» الآن شرقي سيناء. وكان معنى أن يسكنها عدد هائل من البشر الخارجين من مصر تحت قيادة موسى لمدة ثمان وثلاثين سنة، أنها كانت عامرة ومؤهلة طبيعيًّا بكميات من المياه؛ لإيواء هذا العدد من البشر. وتتكرر إشارة الكتاب المقدس مرة أخرى إلى أنهار بالمنطقة، كانت تجري في هذه المنطقة زمن الأحداث، فهي «قادش النهر» (حزقيال: ٤٧).

وهكذا نرى أن قادش سيناء هي المقصودة في حملة آمنحتب الثاني، حيث يقول بعد تدميره شمس آدوم إنه «عاد» إلى قادش فقدموا له الولاء، وعاد إلى مصر بعددٍ كبير من الأسرى يصل إلى ١٥٠٧٠ من النجاسو.[٣٢] ولا نعرف الآن — ومؤقتًا — ماذا تعني كلمة النجاسو، مع ملحوظة لها أهميتها وردت في نص الجملة، وإن كانت غير مقروءة بوضوحٍ تشير إلى «العابيرو»، وهي الكلمة التي كانت تفسر كلما وردت بأنها تعني العبرانيين.[٣٣]

وفوق كل ما سلف، فإنك تلمس في قراءتك للمقدس التوراتي إشارات واضحة، إلى أن شعب آدوم لم يكن شعبًا عاديًّا في المنطقة، بل كان شعبًا من الكبار الأذكياء الحكماء، وهي صفات تشير إلى كيانٍ هام بالمنطقة، يردد عنه الكتاب المقدس الذكريات بلسان الرب الإسرائيلي مهددًا:

> ألا أبيد في ذلك اليوم — يقول الرب — الحكماء من آدوم، والفهم من جبل عيسو؟ فيرتاع أبطالك ياتيمان؛ لكي ينقرض كل واحد من جبل عيسو بالقتل، من أجل ظلمك لأخيك يعقوب، يغشاك الخزي وتنقرض للأبد.
>
> (عوبيديا، ١: ٨، ١٠، ٩)

٣٢ جاردنر، مصر الفراعنة … سبق ذكره، ص٢٢٤، ٢٢٥.

٣٣ نفسه، ص٢٨.

الفصل الثاني

سالع/البتراء ... ونظرية جديدة

كانت مدينة البتراء الواقعة تقريبًا في منتصف المسافة ما بين البحر الميت وبين خليج العقبة، آخر عاصمة لآخر دولة كبرى قامت في تلك البلاد، تلك الدولة التي عُرفت باسم دولة الأنباط. وجاءنا ذكر البتراء مع الشعب الذي عاشَ في تلك المنطقة، زمن الإمبراطورية الرومانية باسم شعب الأنباط. وهي مدينة لا مثيلَ لها ولا شبيه في العالم أجمع، وتقع على بعد ستين ميلًا شمالي العقبة، على تقاطع خط طول ٣٥,٢٦ شرقًا مع خط عرض ٣٠,٢٠ شمالًا، إلى الغرب مباشرة من معان. وهي معان التاريخية التي كانت محطة ترانزيت كبرى باسم «معان مصران» أي معان المصرية. وترتفع البتراء بحوالي ٢٧٠٠ قدم عن سطح البحر، وتحيط بها سلسلتان من المرتفعات، يفصل بينهما مقدار مِيل.

وتقع مدينة البتراء وسط مجموعة جبال هضبية، بعضها أقماع صخرية هائلة، يغلب على صخرها اللون الأحمر، الموشى بكل ألوان قوس قزح، مع الدرجات اللونية الانتقالية بين الألوان الفصيحة.

وتبعد البتراء عن عمان العاصمة الأردنية بحوالي ٢٦٢كم إلى الجنوب منها. وتحدها من الشمال قرية وادي موسى ذات الينابيع الشهيرة بمياهها المعدنية المتميزة، والتي كانت لا شك أشد تدفقًا من الآن في القرون البعيدة الخوالي. وإلى الغرب من «البتراء»، وعلى الحدود مع شبه جزيرة سيناء، يقع وادي عربة بجماله الجليل. وفيه يقع الجبل المعروف باسم هارون، والذي يقول الكتاب المقدس إن اسمه كان أيضًا «جبل موسير»، وتزعم أنه حمل اسم «هارون»؛ لأن هارون مات ودفن فيه. لكن رواية المقدس ذاته تقول: إنه كان يحمل اسم جبل هارون، قبل أن يعرفه هارون شقيق موسى. أما إلى جنوبي البتراء، فيقع وادي صبرة وجبل تمناع، الذي تكتبه التوراة جبل «تمنه»، حيث توجد هناك بقايا مناجم النحاس، وأفران قديمة لتصنيعه. وقد سيقت بشأن تلك المناجم والأفران فروض

كثيرة، لتحديد زمن إقامتها هناك، فنسبها البعض إلى المصريين، وهناك من نسبها إلى الملك الإسرائيلي سليمان. أما شمال البتراء فهو الامتداد الطبيعي لوادي موسى والبيضا.

وعند زيارتك للبتراء ستكتشف أنك أمام موقع من أشد المواقع المحصنة تحصينًا طبيعيًّا في العالم. في جبالها تتناثر «الكهوف» التي تكشف كل يوم عن آثارٍ تركها لنا أهلوها. لكن ما يعلمه التاريخ الآن عنها بثقة لا يبعد أكثر من القرن الثالث قبل الميلاد، حيث قامت في تلك البوادي مع اتصالها ببادية الشام، دولة كبرى وَسِعت حدودها جنوبًا، حتى بلغت وادي القرى شمالي جزيرة العرب، وشمالًا حتى دمشق، وغربًا كل سيناء حتى السويس بمصر. ووصلت إلى مجدها القصي في القرن الأول الميلادي، فأصبحت في زمنها دولة تجارية كبرى في العالم آنذاك، وساعدها مركزها الاستراتيجي جغرافيًّا على الإمساك بعنان تجارة العالم حينها. فما كان ممكنًا أن تمر تجارة عبر أي خط من خُطوط الجهات الأصلية للعالم القديم، دون المرور على دولة الأنباط. وقد أمسى واضحًا أن توسع تلك الدولة حتى دمشق شمالًا، كان القصد منه الإحاطة بمساحة الخطوط التجارية جميعًا، بين الشرق والغرب والشمال والجنوب، فتحكَّمَت تمامًا في طرق التجارة، ووقفت تضغط بمُكوسها وجُباتها الجمركية الباهظة على عصب حياة الدول المحيطة بها جميعًا، فاكتسبت عداءها جميعًا.

وكانت منتجات العالم القديم من بخورٍ وعطور ومواد طبية ومنسوجات وحرائر، تجد طريقها أولًا — عند العبور — إلى مخازن مدينة البتراء. ومن ثم وجدت روما أن دولة الأنباط قد توسَّعت على حسابها أكثر مما ينبغي، وحققت ثراءً فاحشًا قد يُغريها بمزيدٍ من الأطماع التوسعية. فدخلت صراعًا مريرًا مع البتراء، ووقفت فيه البتراء ندًّا شديد المراس. ولم يجد الرومان من سبيل سوى خطة طويلة النفس، بدأت بإيجاد طرق أخرى فرعية بديلة لطرق التجارة التي تمرُّ ببلاد الأنباط لضربها اقتصاديًّا. وما إن بدأت بوادر الضعف تظهر على دولة التجار، حتى حان وقت الضربة القاضية، فوجهت روما نحوها حملتها الكبرى، لتحتلها عام ١٠٦ ميلادية، وتحولها إلى ولايةٍ رومانية تابعة، ثم عاملتها بإهمالٍ شديد نكاية في مقاومتها السالفة. ولم يأتِ القرن السابع الميلادي، حتى كان آخر ضوء خافت للبتراء يضيع باهتًا في الألوان البارزة لأفق التاريخ. وضاعت معالمها من ذاكرة الإنسانية تمامًا، وظلت في عزلتها الصخرية، حتى أعاد اكتشافها وتذكير العالم بها، الرحالة السويسري «بوركها ردت».

وإلى الشمال الغربي من عاصمة الأنباط تقع برية «باران» (التي نراها تلك المذكورة في الكتاب المقدس باسم «فاران»). وهي البرية التي تقول الأسطورة: إن هاجر محظية

إبراهيم، قد أخذت إليها ولدها إسماعيل، بعدما طردها سيدها إبراهيم هي وولدها بأوامر من زوجته سارة، بدوافع الغيرة والصراع على الميراث، حسبما جاء بالمقدس التوراتي. ونعلم من سلسال النسب التوراتي أن «إسماعيل»، نشأ ورُبي يافعًا في برية «باران/فاران»، وتزوج من العماليق، مما يعني أن العماليق كانوا من سكَّان تلك المواضع، وأنجب أولادًا كان أشهرهم ذلك الذي حمل في التوراة الاسم «نبايوت». وهو بلا شك ذلك الذي ذكره التأريخ الإسلامي باسم «نابت» ابن اسماعيل. وهنا لا بد أن تبرق في الذهن علاقة نابت الذي سكن غربي البتراء في فاران، والشعب الذي جاءنا ذكره قاطنًا للمنطقة ذاتها، باسم «الأنباط» جمع «نابط» أو «نابت»، بالبلاد التي أطلق عليها المصريون اسم «بنط» أو بنت. بالطبع لن تكفينا هنا المطابقات الفونيطيقية وحدها ولا تسعفنا. فقط أردنا التمهيد لغرضنا مؤقتًا بهذه الإشارة: هل كانت بلاد بونت هي المملكة الآدومية القديمة، وأنها نفس المكان الذي قامت من بعدها بزمان، مملكة الأنباط المعاصرة للزمن الروماني؟

وكي تدخل مدينة الصخر، فعليك في حال قدومك من الشمال، أن تمر عبر ممر طبيعي شديد الضيق، ينتهي بك مباشرة إلى قلب العاصمة، يطلق عليه سكان المنطقة الآن اسم «السيق». ويبدو أن الاسم تلوين لهجوي على كلمة الشق، فهو بالفعل شق — يثير الرهبة العظيمة — في جبلٍ هائل. ويبلغ عرض السيق في أغلب المناطق مترين، ويتسع في بعضها إلى عشرة أمتار تقريبًا. أما بعض مناطقه فربما لا يمكنك أن تدور فيها بحصانك.

ويعتمد الأهلون هناك الآن في معاشهم على السياحة، وأهمها تأجير الخيول للسائحين لعبور السيق. وهو العبور الذي يستغرق حوالي نصف ساعة رهابية، بين حائطين جبليين عظيمين يكادان ينطبقان، ويكادان يخفيان ضوء النهار في ذلك الشق الأخدودي، الذي ترتفع حوائطه الجبلية حوالي مائة متر أو يزيد، حسب تقديراتي الشخصية.

وبعبور السيق تخرج إلى ضوء النهار الفسيح الفصيح مرة أخرى، لتجد في مواجهتك مباشرة ذلك الأثر الهائل الذي يخطفُ بصرك وعقلك وقلبك معًا، ذلك الجمال الأخَّاذ في تفرده المبهر إلى حد الصدمة. ويطلق عليه أهالي المنطقة اسم الخزنة أو خزنة فرعون. وهو حفرٌ عظيم ونحت هائل في صخور الجبل المواجه لمخرج السيق، يشهد لبُناته بالعظمة القادرة، ويعد من بين أروع آثار الدنيا، وأعجب فنون النحت في تاريخ العالم، في صخرٍ ملون يقع في النفس موقع الجليل، لا تملك معه النفس، من الرهبة، سوى أن تسري برجفتها في الجسد تواضعًا أمامه.

وعند دخولك الخزنة ستجدُ نفسك في غرفةٍ كبرى، مساحتها حوالي أربعين قدمًا مربعًا، غير مزخرفة، تفضي بالداخل إلى غرفٍ كثيرة صغيرة، منها غرفتان كثيفتا الزخرف. وعندما

يهدأ روعك وتبدأ في متابعة دليلك، ستذهب معه إلى مدرج المسرح الكبير، الذي نُحت بدوره في الصخر نحتًا. كل شيء هنا منحوت في الصخر، حتى مقاعد المتفرجين الأربعة آلاف قد حُفرت على هيئة مدرجات في الصخر، مكونة من ثلاثة وثلاثين صفًّا من المقاعد المنحوتة. كذلك ضريح الجرة، وهو حفر عميق في الصخر، صنع من المكان قاعة شبه مربعة، يبلغ طول الضلع فيها حوالي عشرين مترًا. ولا تملك سوى الانبهار بكم العروق الملونة في الصخر والحجر، الأبيض والأسود والأحمر والأخضر، وما بينهما من درجاتٍ لونية. أحجار ليست ككل الأحجار، فهي إعجاز فني، لكنه من فنون الطبيعة البكر.

وبعد المسرح بمسافة قصيرة تصل إلى وادي بترا، وكله معالم آثارية نُحتت على الجانبين. فعلى يمينك جدار الخبتة الكثيف، وعلى يسارك سلسلة جبل العطوف. وهناك ممر رملي يستدير حول العطوف متجهًا نحو الغرب، حتى يصل إلى بداية الشارع المسقوف. وهناك منحدران: الأول يستمر قدمًا حتى يصل إلى مسافةٍ أبعد نحو الشمال الشرقي، حيث يوقفك في مواجهة قصر «بنت فرعون» أو قصر «البنت»، كما يسميه السكان الآن هناك. وكان فيما يبدو قصر الحكم ومركز الإدارة، أو أن تختار المنحدر الثاني عن يمينك، فيصل بك إلى ما يسمى القبور الملكية. وعند الاقتراب من الشارع المسقوف، لا بد أنك ستصاب بدهشةٍ بالغة، عندما تجد بقايا نافورة عامة كبرى، تقع عند ملتقى وادي موسى بوادي متاهة، وهو الأمر الذي يشير إلى وفرةٍ عظيمة في الماء في ذلك الزمان، وهو ما يعني أيضًا وفرة أعظم زمن الدولة الآدومية القديمة.

وبالعودة إلى الطريق الرئيسي الذي ينفتح على الجبال المحيطة بالمدينة، ستجد مساحةً واسعة كانت فيما يبدو سوق المدينة في عصور ازدهارها. وينتهي ميدان السوق بشارع تم تمهيده بالصخر وتزيينه بقوس نصر، وعلى يساره يقع قصر الـ «بنت» الذي يرتفع سامقًا عشرين مترًا أو يزيد. أما الأكثر دلالة فهو أن أهل المنطقة يطلقون عليه تبادليًّا مع اسمه «قصر البنت» اسمًا آخر هو «قصر الفرعون» ثم اسمًا ثالثًا هو «قصر بنت فرعون». لكن الصيغة المتواترة عند سكان المنطقة هي فقط «قصر البنت»، ولا يفسر علاقة فرعون وابنته بهذا الموضع، في الذاكرة والموروث الشفاهي حتى اليوم، سوى الروايات القديمة عن زواج الملك الآدومي بشقيقة الملكة المصرية تحنفيس.

وإضافةً إلى ظاهرة النحت تترافق ظاهرة إقامة المباني عالية فوق أعمدةٍ منحوتة من الصخر. ونموذجًا لها قصر البنت هذا، كذلك المبنى المسمى بالدير، وعدد آخر من البيوت المقامة فوق أعمدة، لا تفسير لرفعها هذا عن الأرض، سوى تعرض تلك الأراضي في بعض

فترات العام إلى الغمر بمياه السيول المتدفقة من الوديان إلى البتراء، وأن هذه الأعمدة الحجرية كانت التطور الطبيعي للبُيوت الكوخية، المرفوعة على أعمدةٍ خشبية زمن دولة آدوم القديمة.

وقد بُني قصر «بنت» على مرتفعٍ عظيم من الحجر الملون، مزخرف من الداخل بالجِص، ويقف على منصةٍ عالية من أفاريز الأعمدة. ومن هنا يمكنك أن ترى، غير بعيد منك، صخرةَ الحيس المسماة بالقلعة، والتي لم يتبقَّ من آثارٍ فوقها سوى كسر فخار وبعض الخَرائب. وعلى الجانب الشرقي لصخرة الحيس يمكنك الاستمتاع بزيارة معبد قوس قزح، الذي يطابق مسماه واقعه، فهو قطعة فريدة من الجمال اللوني المتمازج.

وفي الجوار قمة شاهقة منيعة، تسمى الآن أم البيارة، اكتشفت عليها كسر خزفية قديمة من زمن الآدوميين، وبقايا قلعة آدومية. وقد ذهب البعض إلى أن أم البيارة، كانت هي عاصمة بلاد آدوم الواردة في التوراة باسم «سالع». وترتفع أم البيارة من زاويتها الشمالية الغربية، نحو ٣٧٧٢ قدمًا فوق سطح البحر، ومن هنا يمكنك أن تعد حولك على مدى بصرك، ثلاثة عشر مبنًى تطل جميعًا على العاصمة. ومن حواليك فوق صخرة الحيس ستجد أحواضًا ضخمة عميقة، كانت فيما يبدو مخازن للمياه زمن مجد البتراء. ويمكنك ببعض الجهد أن تصل إلى القنوات التي حفرت في الصخر لتجري المياه من خلالها.

ويعد المبنى الذي يُطلق عليه الآن اسم الدير، أضخم آثار مملكة الأنباط. ويقع على قمة جبل (إنهم شعب يسكن دومًا المرتفعات والعليات)، ويرتفع هذا الجبل حوالي نصف كيلو متر، تصلك به من السفح سلالم صخرية تم نحتها في ذلك الجبل تدرجًا نحو القمة. أما الدير نفسه فترتفع مبانيه حوالي خمسة وأربعين مترًا، ولا تقل واجهته بحال عن سبعين متر طولًا، وهي الواجهة التي تقف بدورها على أعمدةٍ تعلوها التيجان، ومن فوقها الشرفات المنحوتة تذكرنا بنموذج الدير البحري، الذي أقامته حتشبسوت بعد بعثتها إلى بلاد بونت. (انظر الشكل رقم «٤٠».)

أما بقايا آثار الحياة القديمة، التي كانت تضج بها عاصمة الأنباط، فتظهر واضحة في القنوات الجافة المحفورة صناعيًّا في الصخور، وتمتد حتى وادي موسى، عندما كانت مياه العيون في عنفوان تدفقها تروي جنة البتراء. وحتى الآن تتناثر في المنطقة شجيرات برية، تكاد تكون خاصة بهذه المنطقة، وزهورٌ برية تُضفي على المكان مزيدًا من الجلال، وحتى الآن لا تزال قرية وادي موسى، تزرع على مياه الينابيع، التي أخذت في الخفوت بعد مرور عشرات القرون، القمح والشعير والبقوليات، مع مزارع كروم ورمان وتفاح و«تين».

شكل رقم «٤٠»: الدير البحري.

ورغم أن زمن الأنباط كان آخر أضواء المنطقة، مما يشير إلى ذبولٍ مماثل قد حدث على الترافق للينابيع المتدفِّقة هناك، فإن «ديودور الصقلي» قد سجَّل في القرن الأول الميلادي، أن الأنباط كانوا أغنى أهل زمانهم، وأن ثروتهم الرئيسية جاءتهم من التجارة التي كانوا يحملونها من الجنوب إلى الشمال، وإلى بلاد مصر والشام وإمبراطورية الروم، وأنهم كانوا يتجارون بكل شيءٍ يقع تحت أيديهم، حتى الزفت والقار الطافح على سطح البحر الميت، كانوا يحملونه إلى مصر، باعتباره من مواد التحنيط الرئيسية.

وهنا يتساءل المؤرخون: «كيف تأتى لهم أن يصبحوا أمةً زراعية، تُعنى بأدق طرق الري ووسائله؟ ومتى أحرزوا تلك القدرة على الفن المعماري؟ ومتى قيض لهم أن يتفوقوا في فن النحت؟ ومن أين ومتى اقتبسوا ذلك النظام الإداري الدقيق، وتلك الديمقراطية الفذة؟ أسئلة كثيرة لا نملك إجابة لها سوى أنها امتداد لحضارةٍ سابقة سامقة، عرفت فنون الزراعة وأتقنتها. ولكن الحقيقة تقف أمامنا ساطعة، وهي أننا إزاء تطور خطير جريء. ويشهد استرابو أن بلادهم كانت غنية بالفواكه، وأن مدينتهم نفسها كانت تشتمل

على حدائق. حتى ليقول استرابو: إنهم جد شغوفين بالاحتياز والملك. وأصبحت بترا ملتقى الناس من شتى الأمم، وأصبحت قاعات المحاكم فيها تغوص بالغرباء.»[١]

وإذا كان الدلفين من الآلهة الهامة المعبودة في ذلك المكان الصخري، حسب التماثيل الكثيرة التي وجدت هناك للحوت من نوع الدلفين، فهو يشير إلى علاقةٍ واضحة بالبحر، وأن النشاط التجاري هناك لم يقتصر على الرحلات البرية وحدها.

أما الأشد إبهارًا، فهو أن تجول عيناك في الجبال حولك، لتُطالع تلك الأبنية المقامة على الأعمدة، والتي تتوازى مع فوهات الكهوف التي حفروها في الجبال حفرًا، على مدرجات الصخور. وهي الكهوف التي لا شك كانت مساكن لا قبورًا كما يقال الآن. مساكن فريدة تتناثر في صفحات واجهة الجبال في الأعالي، كما لو كانت أعشاشًا للنحل لمن يراها من بعيد، يصلون إليها بمدرجاتٍ صخرية، ثم سلالم خشبية. بينما تنتشرُ الدرجات الصخرية المؤدية إليها في منحنيات السفوح لتصلك بأعاليها. لكنك دومًا، وفي أي موقع، بحاجةٍ إلى سُلَّم خشبي نقَّال، يضعك في مواجهة فتحة غائرة لكهف من كهوف بيوت الصخر.

والآن يمكننا القول: إن كل هذا العرض لم يكن فقط لمجرد التعرف على المنطقة، التي سبق وقامت فيها حضارة آدوم القديمة، وعاصمتها «سالع»، بل بغرض أشمل من ذلك وأكبر؛ حيث تقوم فرضيتنا الأساسية في هذا الجزء من العمل، على أن بلاد بونت التي جاء ذكرها متكررًا في النصوص المصرية. وما جاء بشأن تفاصيلها الدقيقة في لوحات حتشبسوت بالدير البحري، والتي عرفت باسم «أرض الإله»، وكانت بلادًا تستحق تجريد الحملات عليها بين حينٍ وآخر، كما تستحق الزيارات الودية للتبادل التجاري في أحيانٍ أخرى، وباعتبارها مع ذلك بلادًا ذات صلات حميمة بمصر، للحد الذي لم يرسم فيه المخصص الهيروغليفي للبلاد الأجنبية، عند ورود اسم بونت في المدونات المصرية. إن بونت هذه إطلاقًا لم تكن تقع في إفريقيا، ولا على سواحل عمان، ولا في اليمن، ولا على سواحل عسير بجزيرة العرب الغربية، ولا هي فلسطين زمن سليمان كما ذهب «فليكوفسكي»، حيث ارتحل «فليكوفسكي» ذات الرحلة بالحملة من مصر إلى العقبة. لكن كي تزور حتشبسوت الملك سليمان الإسرائيلي في أورشليم بحسبانها هي ملكة سبأ فيما يزعم، ولا هي في بلاد الهند أو أمريكا، إنما هي على وجه التحديد حسبما جمعنا من مادةٍ علمية هائلة كمًّا وكيفًا، وما حشدنا من قرائنَ وبراهين وأدلة ستتتالى في مواضعها من هذا

---

[١] إحسان عباس، تاريخ دولة الأنباط، دار الشروق، عمان، ١٩٨٧م، ص٣٥، ٣٦.

العمل، هي تلك البلاد التي ذكرتها نصوص مصر باسمٍ آخر هو بلاد «ميتاني». وحسب نظريتنا لا تقع «ميتان» بعاصمتها الكبرى في أعالي الرافدين بين الخابور والفرات. إنما تقع تمامًا في المساحة التي ذكرها الكتاب المقدس باسم آدوم، على الحدود الشرقية لسيناء، حيث عاش الشعب الحوري الغامض، بلغته الغامضة، وتاريخه الغامض، ذلك الشعب الموصوف بأنه شعبٌ أحمر. وفي هذه الحال يكون الميناء الذي استقبل سفن حتشبسوت في بلاد بونت، هو أحد الموانئ القديمة الواقعة على رأس خليج العقبة.

وإذا كانت عاصمة تلك البلاد زمن الآدوميين القديم، قد حملت اسم «سالع»، فإننا نجد لهذا الاسم مطابقًا مدهشًا في نصوص حتشبسوت التي تحدثت عن مدينةٍ كبرى في بلاد بونت تحمل اسم «أوزالت»[٢] أو «أوسالعت»، الذي يتطابق مع اسم سالع تمامًا. وهي المدينة التي حملت اسم البتراء مع آخر ضوءٍ باهت لها زمن الأنباط. والحقيقة أن كليهما (سالع، والبتراء) يعنيان معنى واحدًا يدل على طبيعة المكان ومناعته، فالمعنى هو كما سلف «الصخرة».

وفي قاموس الكتاب المقدس نقرأ تحت مادة «سالع»:

> اسم عبراني معناه: «صخرة»، وهي أمنع موقع في أرض آدوم، كان يهرع إليها الآدوميون كقلعةٍ حصينة لا تقهر وقت الحصار الحربي؛ لأنها تقع على قمة جبل. وقد أقام سكانها في الأعالي في شقوق الصخر في القرن الرابع قبل الميلاد انتقلت بترا من الآدوميين إلى العرب النبطيين، الذين جعلوها أفضل البقاع الزراعية، بفضل نظام الري الرائع وخزانات المياه، فعمروا الصحراء، كما استخدموا أفضل الأساليب الحربية المعروفة وقتئذٍ، وأدخلوا عليها التحسينات. وكانت بلادهم مركز التجارة القادمة من الشمال والجنوب والشرق والغرب، وكانت الأسرة الحاكمة تضمُّ عددًا من الملوك باسم الحارث. وقد ورد ذكرهم في: (٢ كورنثوس ١١: ٣٢).
>
> انتهت مملكة النبطيين سنة ١٠٥ بعد المسيح، عندما هاجمها الإمبراطور الروماني تراجان، وصارت مدينة الصحراء العربية الجميلة مقاطعة رومانية. وقد كشف مكانها المستكشف والرائد المشهور بركهاردت عام ١٨١٢م، بعد أن

[٢] عبد المنعم عبد الحليم، موجز رسالتيه للماجستير والدكتوراه، «كراسة على الآلة الكاتبة» ص٢٦.

أُخربت في عام ٦٢٩م، فتمت فيها نبوءة إرميا (٤٩: ١٦، ١٧). ويزور سالع اليوم سياحٌ كثيرون، ويمكن الوصول إليها من جهة الشرق عن طريق جسرٍ اسمه السيق، ويبلغ طوله ميلًا واحدًا. وهو مُحاط من جميع نواحيه بصخورٍ ذات ألوان طبيعية رائعة، تختلف من فعل الماء. ويسمى هذا الجسر أيضًا بوادي موسى. ويزعم الأعراب الساكنون هناك، أنه تخلف عندما ضرب موسى الصخر بعصاه. ويخترق الواديَ طولًا نهرٌ صغير اسمه عين موسى. وجدران الوادي من صخورٍ رملية منضَّدة بألوان قرمزية ونيلية وصفراء وأرجوانية، واسم قلعة سالع اليوم: أم البيارة.

والتعبير «أم البيارة» يشير مرةً أخرى إلى تلك الأزمنة الخوالي، عندما كانت العيون المتدفقة بأنهارها تروي جنات آدوم؛ لأن البيارة هي البقعة الخصيبة، فما بالنا وهي «أم البيارة»؟ وبالكتاب المقدس سفر باسم «عوبيديا» كرس نفسه، وقصرها على صب اللعنات على بلاد آدوم. تقول بعض مقاطعه:

> رؤيا عوبيديا: هكذا قال السيد الرب عن آدوم: إني قد جعلتك صغيرًا بين الأمم. أنت محتقر جدًّا، تكبُّرُ قلبك قد خدعك أيها الساكن في محاجئ الصخر، رفعه مقعده القائل في قلبه: من يحدرني إلى الأرض؟ إن كنت ترتفع كالنسر، وإن كان عشك موضوعًا بين النجوم، فمن هناك أحدرك، يقول الرب.
>
> (عوبيديا: ١–٤)

أما أن ذلك الموضع الفريد، كان من بين أغنى المواضع الخصيبة المزروعة بالمنطقة، فهو ما يمكن استنتاجه من قصة لوط بالتوراة، وهو يرحل بأهل بيته وممتلكاته، ميمِّمًا إلى المنطقة الواقعة شمالي آدوم المعروفة بدائرة الأردن، عند جنوبي البحر الميت، ليقيم هناك، شارحًا سبب هذا الاختيار في قول النص:

> ... فرفع لوط عينيه ورأى كل دائرة الأردن، أن جميعها سقى الرب قبلما أخرب سدوم وعمورة، كجنَّة الرب كأرض مصر، حين تجيء إلى صوغر.
>
> (تكوين، ١٣: ١٠)

ولم تزل صوغر حتى الآن قائمة باسمها القديم التاريخي جنوبي البحر الميت في بلاد آدوم. أما قول التوراة إنها كانت جنة قبل أن يخربها الإله، فهو ما يستدعي ذكريات قديمة دوَّنها المؤرخ «أورسيوس/هروشيوش» في قوله:

> وقد وصف الفلاسفة في كتبهم بلدًا كان يقع في أفنية العرب، يُدعى في ذلك الزمان «بنطابلس» سكنه قوم من بني كنعان، أحرقته نار نزلت عليه من السماء.[٣]

والتعبير «بنطابلس» تعبير يوناني يعني المدن الخمس أو الخماسية، لكنه أيضًا «بنط – بوليس» الذي يعني أيضًا «بلاد بونت». وسنرى أن تلك المنطقة قد اشتملت دومًا على بلادٍ سميت بالأرقام، فأصحابها كان لهم اهتمام خاص بالأرقام؛ لأنهم تجار، مثل مدينة «أربع» وهي حبرون (الخليل حاليًّا)، ومثل مدينة السبعة أو «بير سبع» ... إلخ. والمعلوم أن المنطقة الخماسية كانت هي بلاد آدوم تحديدًا؛ لاشتمالها على خمس مدن ممالك متحالفة، سيأتي تفصيل ذكرها في حينه.

ومثلما كانت بلاد بونت لغزًا غير محلول، فإن اسمها نفسه لم يجد حلًّا، ولم يزل يحير العلماء حتى الآن. وهل كان اسمًا له معنى؟ وهنا نسوق اجتهادات افتراضية، ربما تكون مُصيبة وربما تكون خاطئة، فربما كانت تعني ما تعنيه في اليونانية «البلاد الخماسية». ثم هناك افتراضات أخرى نؤجلها لموضعها من البحث، ونطرح الثاني، وهو أن بونت مؤنث «بون»، والبون هو الحجر القمعي المخروطي. وهو ما تجده في تسمية الحجر الهرمي المقدس في مصر القديمة المسمى «بن – بن»، كما لو كان تيمنًا بأرضٍ مقدسة تأخذ هذا الشكل المخروطي (جبال موسى وكاترين كلها أقماع مخروطية)، وعادة ما كانت قمة المسلة ترمز إلى ذلك الحجر. والمقصود أن «بونت» تحمل بذلك شرحًا لمعنًى وصورة جغرافية صادقة لجبال البتراء الحورية، أي إن «بونت» بدورها ربما — وإلى حدٍّ مقبول — كانت تعني الصخرة، واسمها يلتقي مع الأنباط، أي سكان الصخر أو الصخريين، وهم من قلنا إنهم ينتسبون باسمهم إلى نابت أو «نبت» ابن إسماعيل بن إبراهيم، واسمه بالقبل «بنت». وإذا كانت البتراء هي بلاد بونت كما نزعم، فإن ذلك يفسر لنا الحكمة في رحلة حتشبسوت إلى بونت، ومن قبلها فيالق القائد العسكري «حنو»،

---

[٣] أورسيوس، تاريخ العالم ... سبق ذكره، ص٩٤.

وكلاهما كانا أهم ما سعى لجلبه من هناك إضافة إلى البخور، أحجار بلاد بونت. وما كان ممكنًا إدراك الحكمة في بعثةٍ تسافر عبر المياه وعبر اليابس؛ لتحضر أحجارًا، لولا أن أحجار البتراء تحديدًا ليست ككل الأحجار؛ لأنها كانت إعجازًا طبيعيًّا فنيًّا حقيقيًّا.

لكن التفسير المعتاد لبيوت بلاد بونت في لوحات حتشبسوت، يقول: إن تلك البيوت أكواخٌ من القش، بُنيت فوق أعمدة، وتناثرت في وسط غابات أشجار اللبان. ولأنها أكواخ فقد تطابقت لدى الباحثين مع الأكواخ الأفريقية بالصومال. وحتى لو افترضنا أنها أكواخ، فربما كانت تصويرًا لمساكن أحد موانئ العقبة الذي نظنه عصيون جابر الميناء القديم. فلم يزل الأهلون في هذه المناطق يبنون بيوتهم (ويسمونها: عشش) فوق أربعة أعمدة من فلوق النخل غالبًا، ويصعدون إليها بالسلم النقال الذي يتم رفعه ليلًا؛ تحاشيًا لضواري الصحراء وواغشها، وهو الموجود أيضًا في محيط نويبع وطوبية والترابين الآن. وربما كان ذلك النوع من السكن هو الأصل الآدومي القديم لبيوت الأعمدة الحجرة في حضارة الأنباط، من بعد أن نضيف توضيحًا شارحًا للوحاتِ بيوت بلاد بونت في جداريات حتشبسوت، يمكن أن يحيلها إلى البتراء نفسها. وإن عناصر اللوحات جمعت بين الميناء والعاصمة، حيث نجد في اللوحات متكررات مع اسم الزعيم البونتي، للمخصص الهيروغليفي لعلامة الجبال يتكرر عدة مرات. ومن هنا نفترض أن الجبال كانت هي خلفية اللوحات التي نُقشت عليها بقية التفاصيل.

ولعل تلك الصورة القديمة لبيوت بونت في لوحات حتشبسوت، هي الأصل القديم الابتدائي للنماذج الفنية الراقية، التي تطورت بعد ذلك حتى بلغت غايتها زمن الأنباط، بتأثير الفنون المصرية والرومانية، لتدخل على الأعمدة القديمة الزخرفة والتيجان. وبالمقارنة بين مشهدٍ مثل مشهد الخزنة في البتراء، وبين مشهدٍ لبيت بونتي في لوحات حتشبسوت، يكشف لنا أن بيوت بونت كانت الخطوط الرئيسية الأولى القديمة لمساكن الآدوميين الحور، والتي ظلت فكرتها قائمة حتى زمن الرومان في النحوت الحالية هناك.

ومن جانبه يفيدنا علم النبات أن اللبان يحتاج في زراعته إلى مواضع جبلية مرتفعة، بحيث يحيطه مناخ ملبد بالسحب والغيوم، مع جفافٍ نسبي، وهي جميعًا الأمور التي تجد نموذجها المثالي في البتراء ومحيطها. وقد اختلف الباحثون حول نوع البخور المستقدم من بونت إلى مصر؛ لذلك سنستخدم كلمة اللبان بشكلٍ عام كلما وردت الإشارة إلى بخور بونت. ويكون تحديدنا بلاد آدوم بأنها هي ذات بلاد بونت، حلًّا لمشاكل كثيرة غير محلولة، فالآن يمكننا أن نفهم لماذا لم يضع المصريون علامة البلاد الأجنبية على بلاد بونت؛ لأنها

كانت آخر الحدود المصرية الشرقية. ثم نفهم لماذا سمح الفرعون بتزويج أميرة من البيت المصري المالك (للملك آدومي اللاجئ إلى مصر)، رغم أن القانون المصري كان لا يسمح بزواج المصرية من أجنبي. فقد كان الملك الآدومي في عرف الاستراتيجية المصرية مصريًّا يحكم في مقاطعةٍ مصرية. ثم نفهم أيضًا لماذا سجل الفنان المصري رحلة الذهاب أولًا عبر الصحراء الشرقية المصرية من قفط إلى القصير على البحر الأحمر، ثم سجل الرحلة البحرية من ميناء القصير إلى بلاد بونت، ثم عودته بالرحلة مباشرة بالسفن إلى (طيبة/الأقصر) عاصمة الإمبراطورية المصرية. وقد كان هذا مثار حيرة الباحثين طويلًا. أولئك الباحثون الذين ذهبوا بالرحلة عبر البحر الأحمر جنوبًا، إلى الصومال وأريتريا واليمن، حيث كان لا بدَّ عند العودة بمر البحر الأحمر، ثم النزول في ميناء القصير مرة أخرى، ثم اتخاذ الطريق البري عبر الصحراء إلى النيل عند بلدة قفط شمالي طيبة مباشرة، وهو ما لم يسجله الفنان المصري. وهنا قيل إن الفنان قد أغفل ذكر الطريق البري في العودة، وهو الأمر غير المقنع إطلاقًا مع ذلك التقرير الدقيق الشامل. وظل التساؤل: كيف عادت السفن مباشرة بالنيل إلى طيبة دون المرور بطريقٍ بري؟ وهو ما سبق إلى اكتشافه فليكوفسكي. لكنه قال إن الرحلة كانت لزيارة الملكة حتشبسوت لملكة سليمان اليهودية. وهو أيضًا الأمر الذي دعا الباحث «هيرتزوج Hrzog» إلى القول إن الرحلة كانت إلى الصومال، بالإبحار في النيل نفسه إلى السودان وليس عبر البحر الأحمر. المهم أن تجاهل الفنان العودة بطريق البر بعد الوصول إلى ميناء القصير على البحر الأحمر ظل لغزًا يبحث عن حل. لكن في ضوء احتسابنا لبلاد آدوم بكونها بلاد بونت لن تكون هناك أية مشاكل في العودة بالسفن مباشرة إلى طيبة. فهذه السفن سبق وبنيت في ميناء القصير على البحر الأحمر لرحلة الذهاب البحرية، وانطلقت من القصير إلى بلاد آدوم عند خليج العقبة، ثم عادت بالالتفاف حول مثلث شبه جزيرة سيناء لتدخل خليج السويس. وتستلم أول أطراف النيل الشرقية عبر القناة الفرعونية المشهورة باسم قناة سيزوستريس، التي كانت تربط السويس بالفرع البوبابسطي للنيل، وهو الأمر الذي ناقشناه تفصيلًا؛ للتأكيد على وجود قناة سيزوستريس في ذلك الزمن، وأن الفنان المصري لم يتجاهل أمر العودة البرية، بل كان يقدِّم تقريرًا مفصلًا وافيًا ودقيقًا.

ويمكننا الآن أن نفهم السر وراء ذلك التنوع الهائل في المنتجات، التي جاءت بها بعثة حتشبسوت من بلاد بونت؛ فبلاد يقوم اقتصادها على التجارة العالمية، كان هو الممكن الوحيد لتفسير كل هذا التنوع المتضارب، من أشجار لبان البخور المختلفة الأنواع،

والأشجار العطرية كالصندل إلى التوابل الهندية، والعطور اليمنية إلى العاج الأفريقي إلى القردة الجبلية، إلى جلود الفهود إلى الزراف إلى الجنس الأحمر من الناس. نحن الآن مع الكاريين الذين كانوا حتى الآن شعبًا مجهولًا على أرفف مكتبة التاريخ تحت عنوان مجهول.

(معالم البتراء.)

(انظر الأشكال رقم «٤١-٥٢».)

شكل رقم «٤١»: السيق من الداخل.

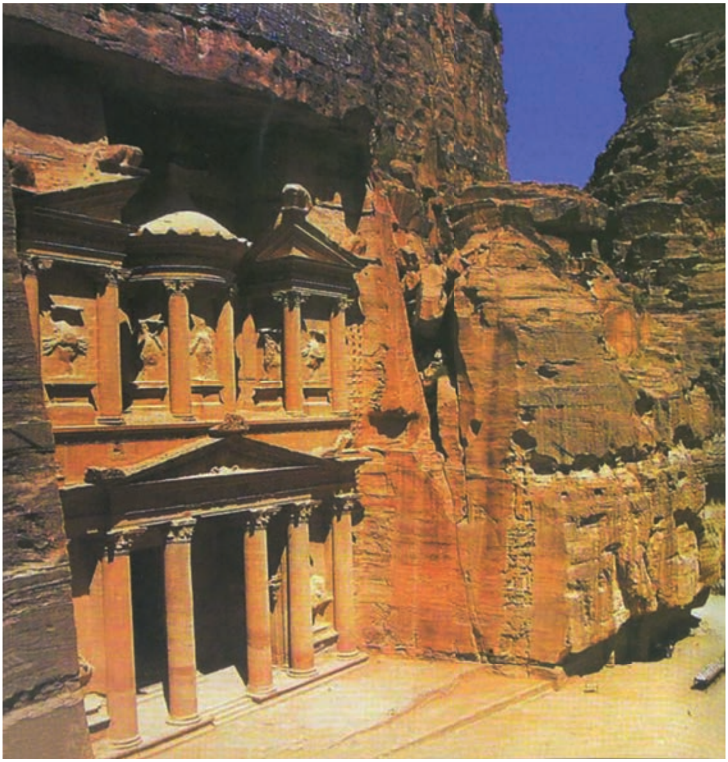

شكل رقم «٤٢»: بانوراما الخزنة.

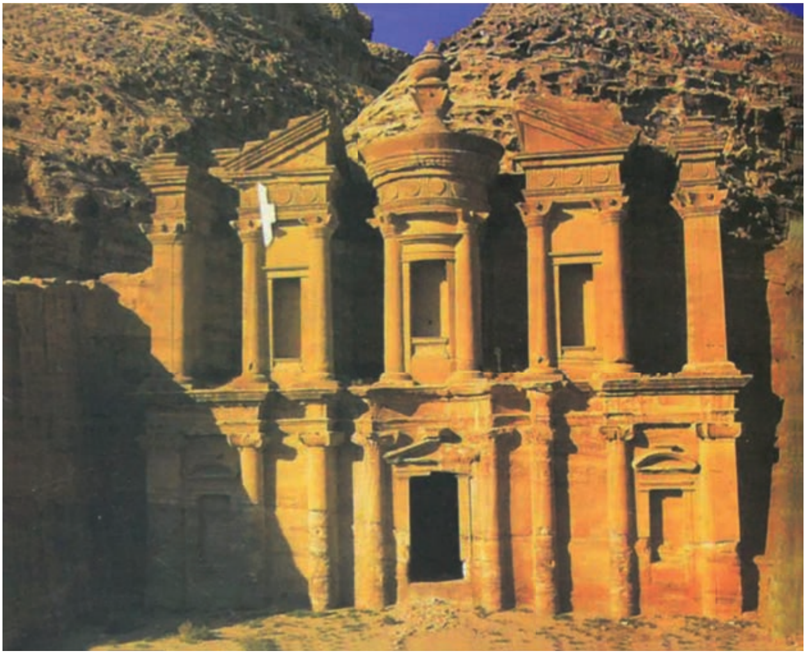

شكل رقم «٤٣»: الخزنة صورة للواجهة.

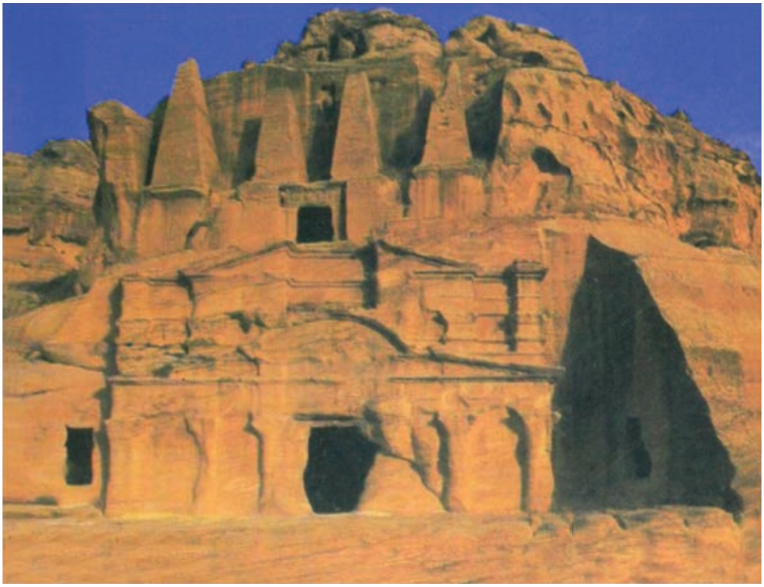

شكل رقم «٤٤»: مساكن آدوم الكهفية.

شكل رقم «٤٥»: صورة عن بعدٍ للمساكن الكهفية.

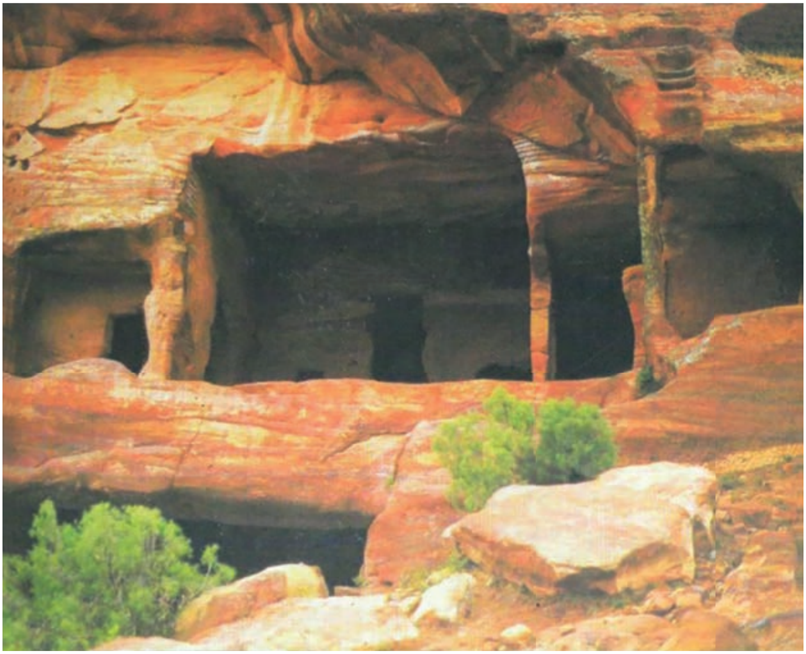

شكل رقم «٤٦»: صورة عن قربٍ للمساكن الكهفية.

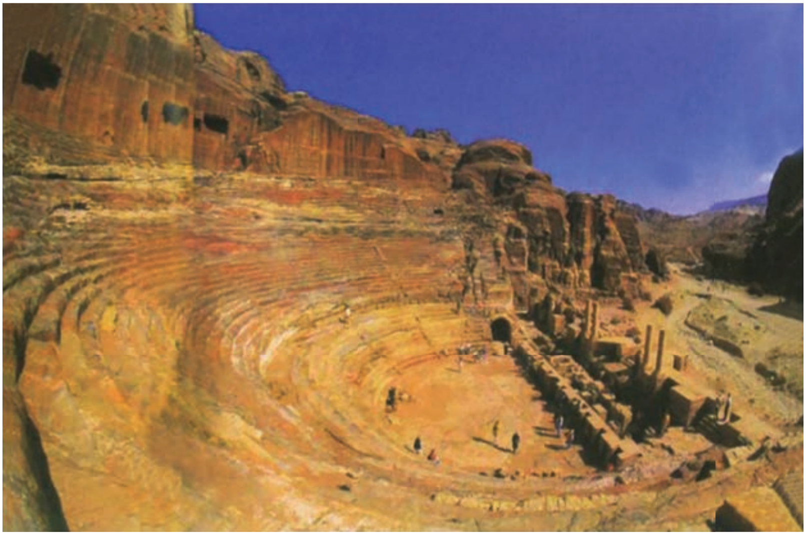

شكل رقم «٤٧»: المسرح من عهد تراجان.

شكل رقم «٤٨»: قاعة المحكمة.

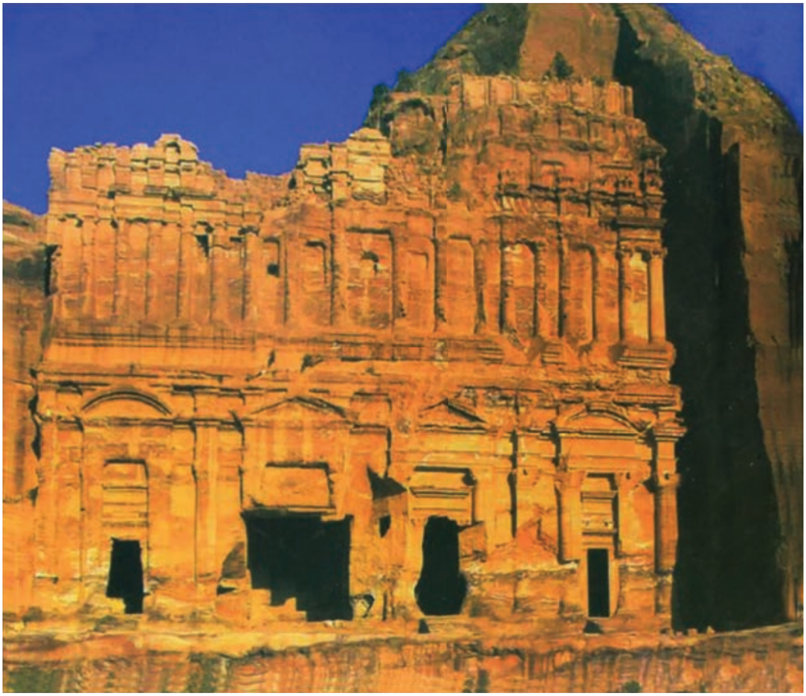

شكل رقم «٤٩»: قبر القصر.

شكل رقم «٥٠»: بقايا قصر البنت.

شكل رقم «٥١»: الجمال اللوني بأحجار البتراء.

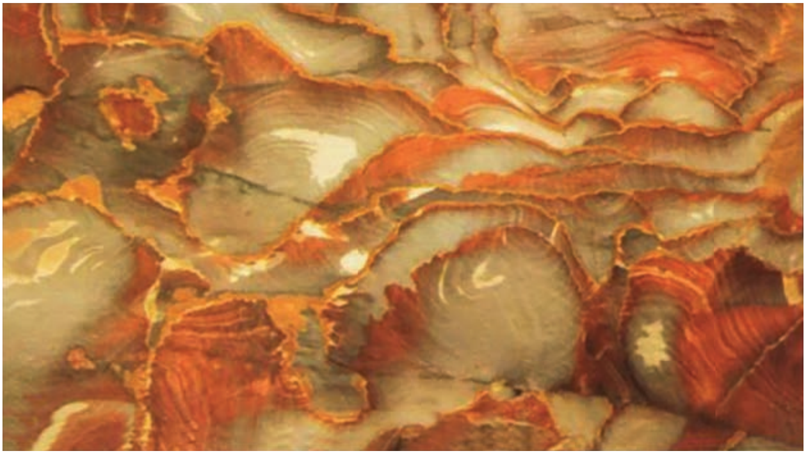

شكل رقم «٥٢»: أحجار البتراء أحجار كريمة.

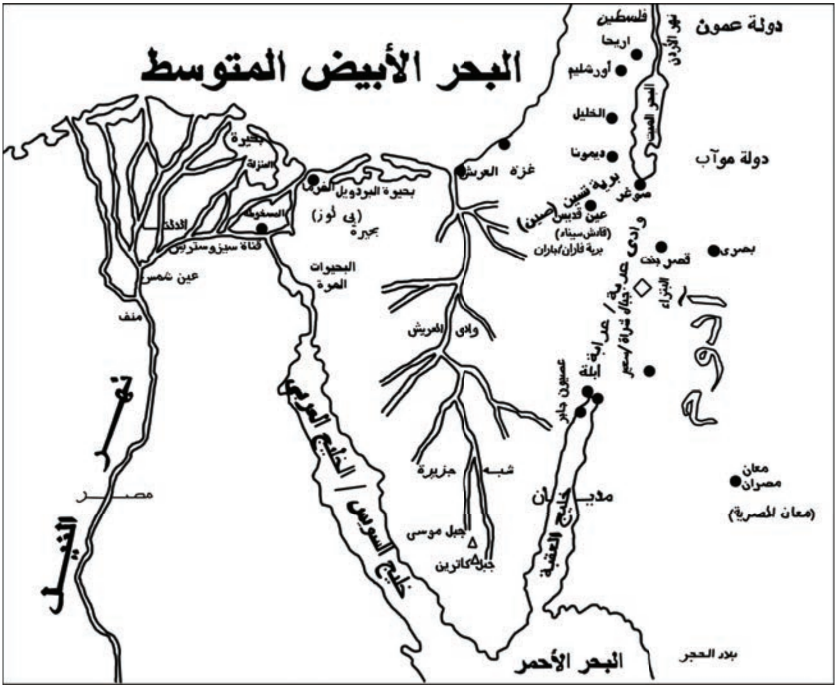

شكل رقم «٥٣»: جغرافية حقل الأحداث (من وضع المؤلف وتخريجه).

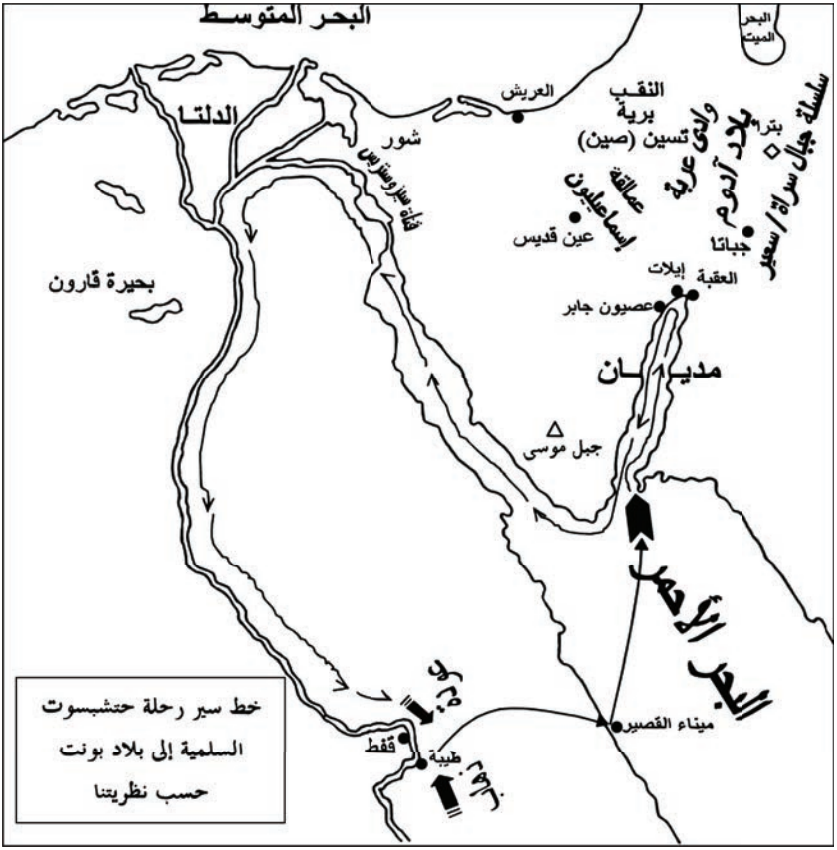

شكل رقم «٥٤»: خط سير رحلة حتشبسوت السلمية إلى بلاد بونت، حسب نظريتنا.

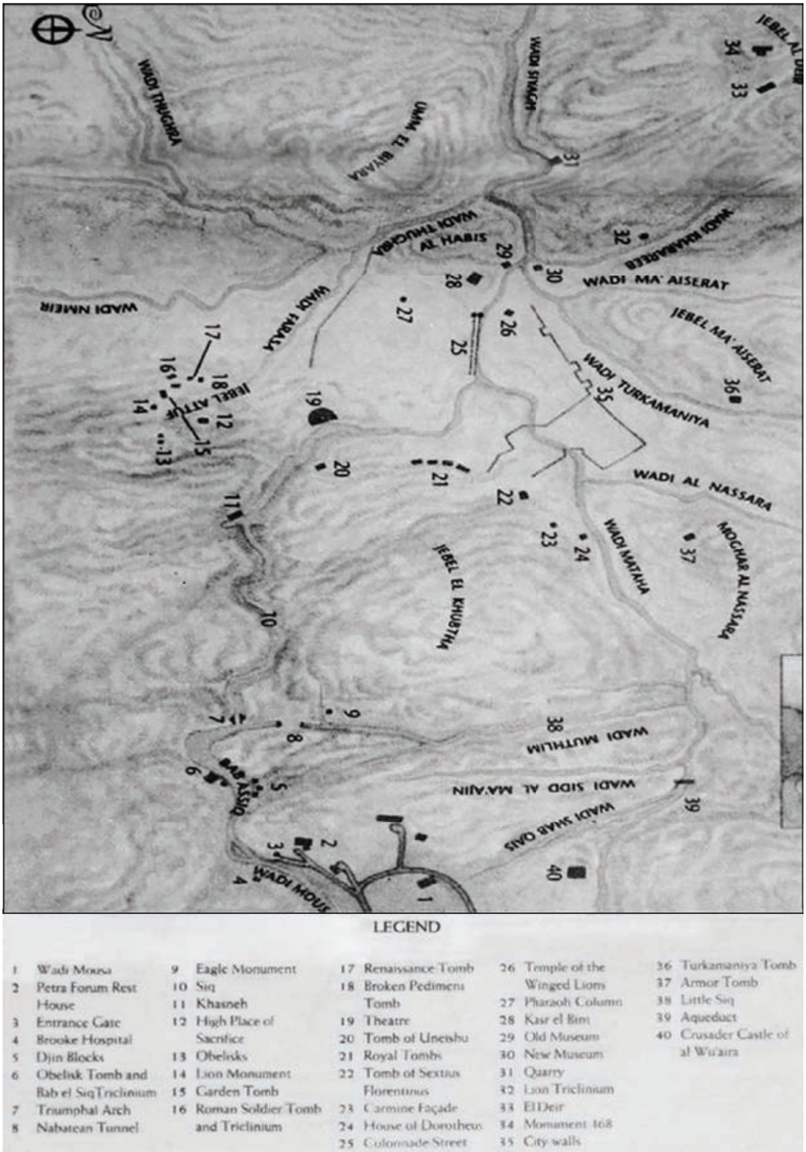

شكل رقم «٥٥»: مخطط البتراء.

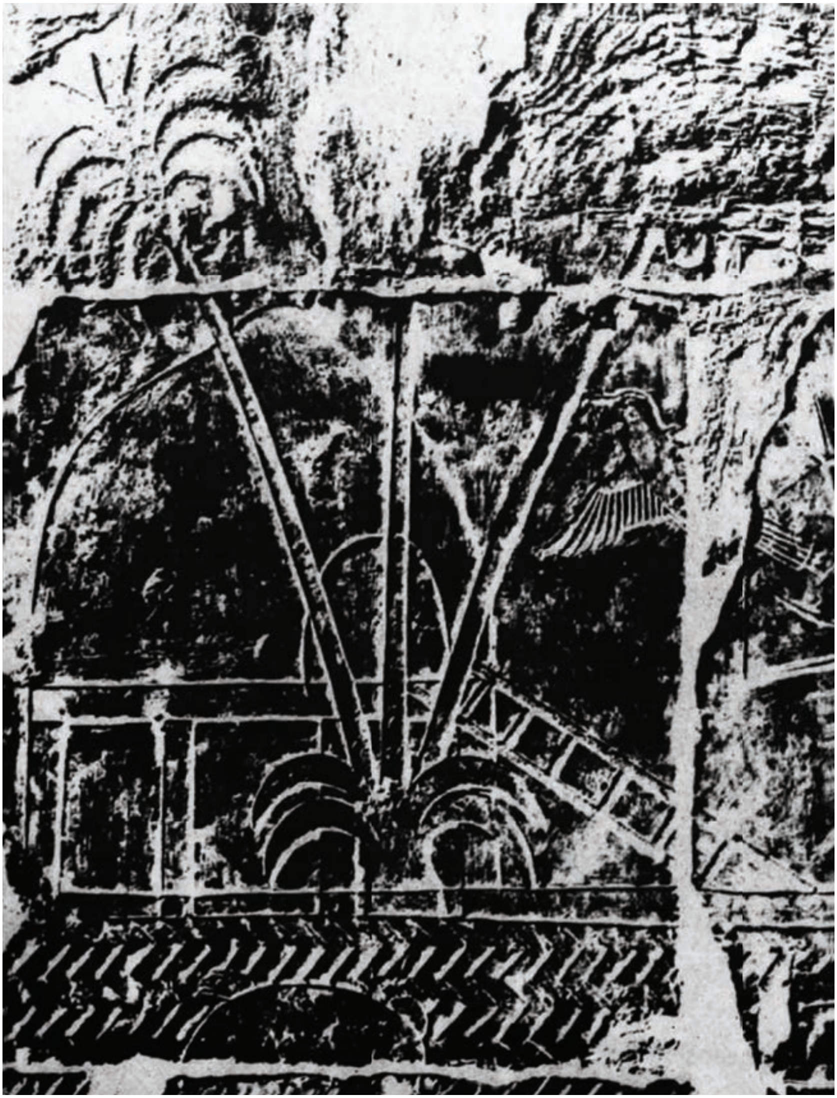

شكل رقم «٥٦»: نخيل بنت في لوحات حتشبسوت.

شكل رقم «٥٧»: نخيل الدوم في العقبة حتى اليوم، يقارن بنخيل بونت في الشكل المجاور، مع ملاحظة تطابق اسم نخيل الدوم مع بلاد آدوم. ويبدو أنه أخذ اسمه منها.

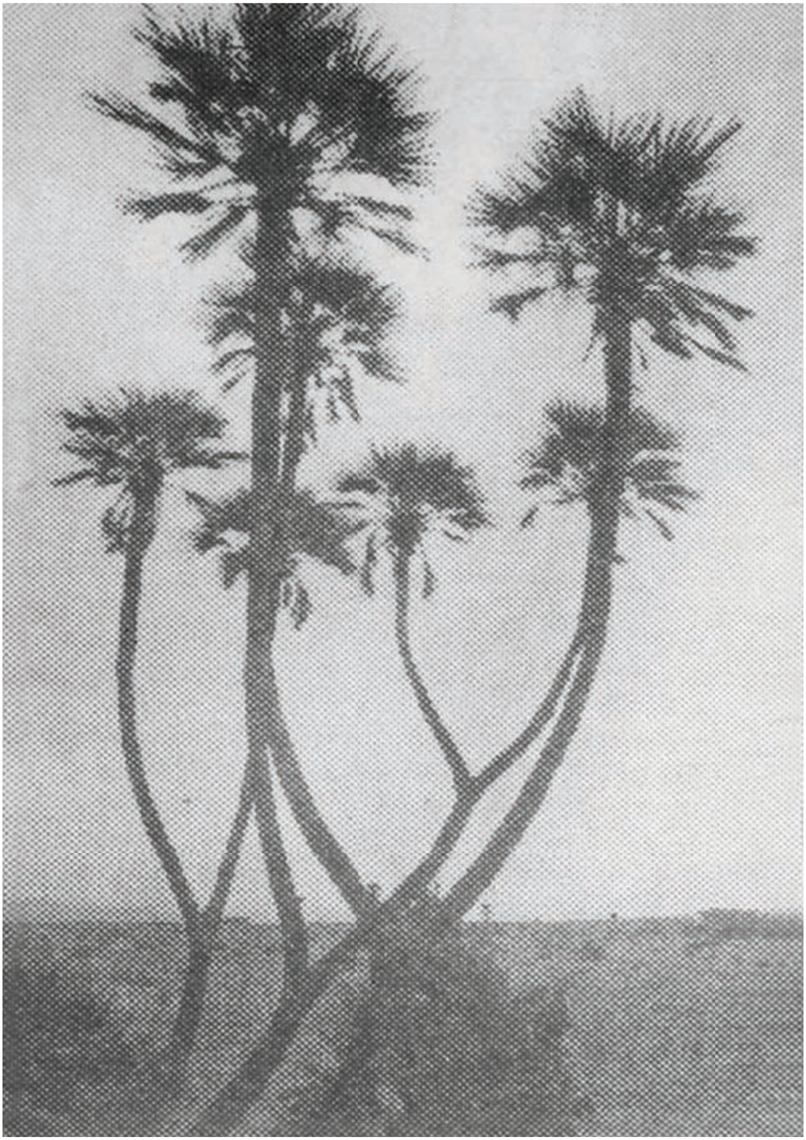

شكل رقم «٥٧»: نخيل الدوم في العقبة حتى اليوم، يقارن بنخيل بونت في الشكل المجاور، مع ملاحظة تطابق اسم نخيل الدوم مع بلاد آدوم. ويبدو أنه أخذ اسمه منها.

شكل رقم «٥٨»: الكلب سلوقي الأصل للفصيلة السلوقية. والصورة عن وادي رم، وهو ما سجلته رسوم لوحات حتشبسوت.

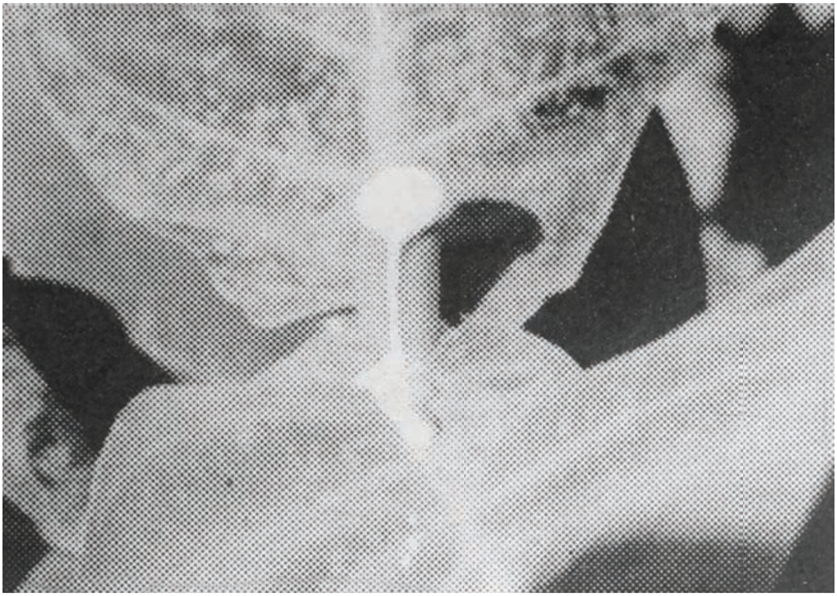

شكل رقم «٥٩»: البلسم من أشجار التين (الفيكس).

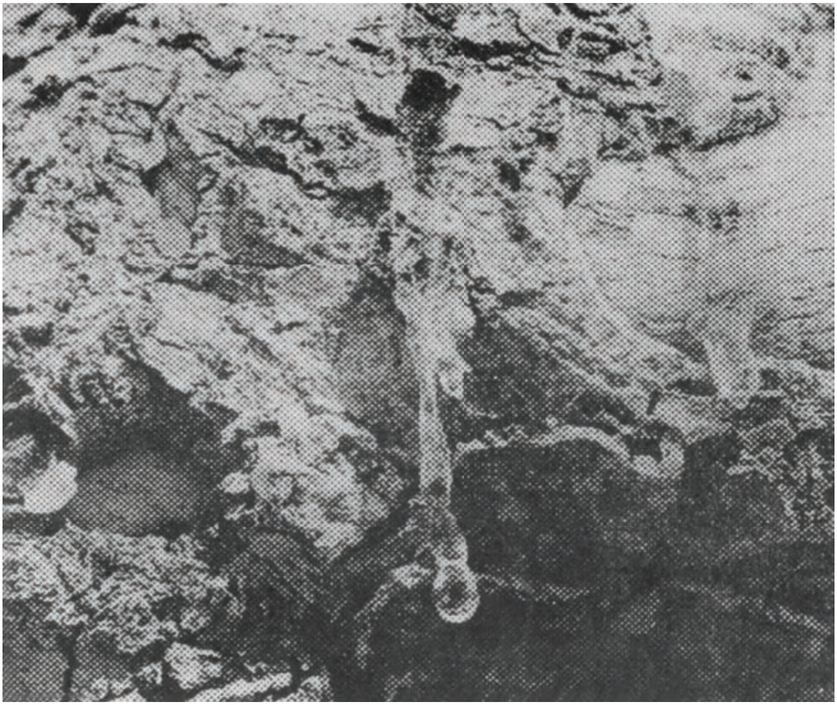

شكل رقم «٦٠»: صمغ شجر البطم النبطي، من أغلى سوائل التبخير وأجودها.

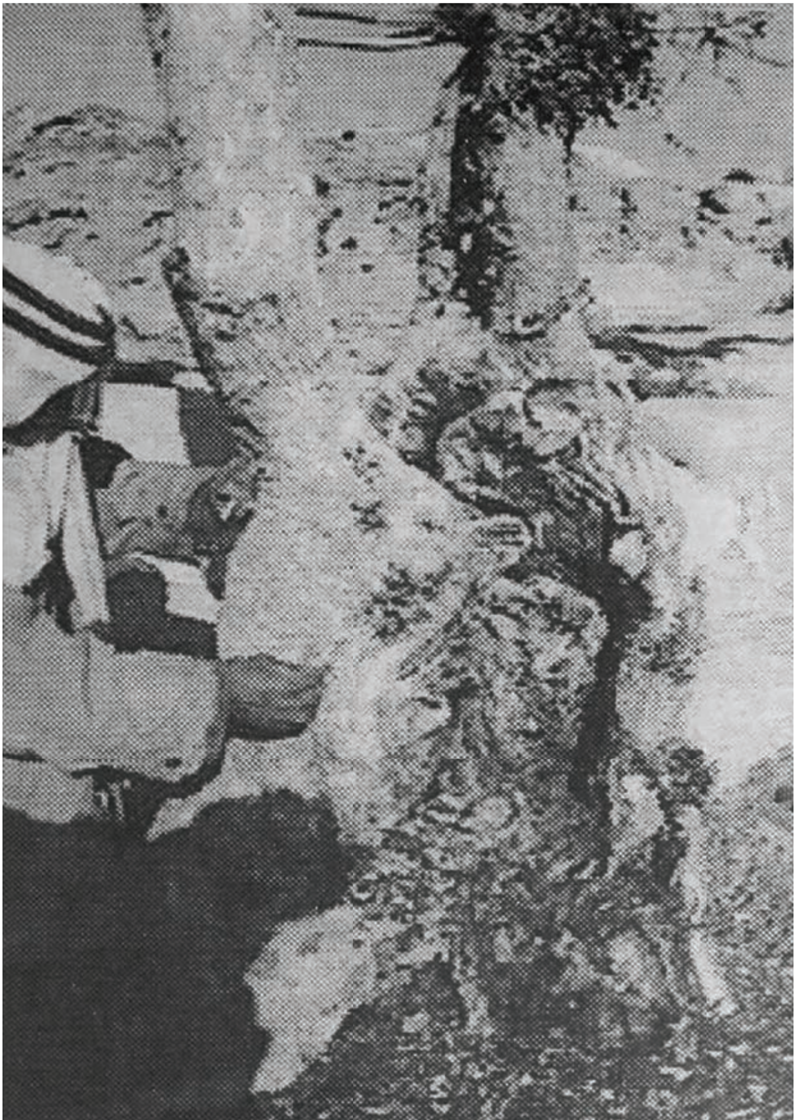

شكل رقم «٦١»: صمغ «بخور» شجر نبطي لشجرةٍ باقية من الأشجار المهدَّدة بالانقراض.

شكل رقم «٦٢»: شجرة بلسم البحر الميت.

شكل رقم «٦٢»: شجرة بلسم البحر الميت.

الفصل الثالث

حملة تحتمس الثالث على بلاد الفينيق

طائر الفينيق PHOENIX

في القصيدة الغزلية السالفة الإشارة إليها، يشبه الحبيب حبيبته بجواد الملك، الذي تم اختياره من بين ألف حصانٍ أصيل، كما يشبهها بالطيور المهاجرة من بلاد «بونت». فأي طيور تلك التي عرفها المصري القديم تأتي مصر مهاجرة قادمة من بلاد «بونت»؟

يقول المؤرخ اليوناني «هيرودوت» وهو يتحدَّث عن مصر:

> فأما عقوبة الموت فلا مفرَّ منها لمن يقتل أبا منجل أو باشقًا، سواء ارتكب القتل عمدًا أو دون عمد. وهناك طائرٌ آخر مقدس يسمى «الفوينكس»، لم أره إلا مصورًا؛ إذ إنه يزور البلاد فيما ندر، يزورها كل خمسمائة عام على حد قول أهل هليوبوليس (عين شمس). بعض ريش جناحيه ذهبي وبعضه أحمر. وهو قريب الشبه جدًّا من النسر في هيئته وحجمه. ويروون أن هذا الطائر يغادر بلاد العرب، حاملًا أباه إلى معبد الشمس ليدفنه بهذا المعبد.[١]

وهنا نقف في هذا القص الأسطوري مع اسم الطائر القادم من بلاد العرب، بلغة هيرودوت اليونانية «فونكس». وبحذف التصريف الاسمي يصبح الاسم السليم «فون». ومع اختلاط الفاء بالباء بين اللهجات واللغات، فكلاهما حرف شفاتي، فيجب قراءته في أصله الصادق: طائر «بون». ويؤكد ذلك الذي نسوقه أن المصري القديم قد دونه منطوقًا باسم طائر «ب. ن. و B. N. W»، فهو الطائر البوني. وهنا يضيف هيرودوت: «يقطع هذا

[١] هيرودوت يتحدث ... سبق ذكره، ص١٦٩، ١٧٨.

الطائر المسافة كلها من بلاد العرب إلى مصر، طائلًا حاملًا أباه داخل قالب من المر».[٢] وبلاد العرب ليست في أفريقيا إنَّما في وادي عربة وسيناء. والمر كما نعلم هو صنف من اللبان. إن رموز الأسطورة تفصح عن معارف زمنها ومعانيها.

والطائر البوني لم يكن طائرًا عاديًّا، بل طائرًا مقدسًا، طائرًا إلهيًّا؛ فقد خلق نفسه بنفسه من رماد شجرة تحترق، جاء اسمُها باليونانية شجرة البيرسيا المقدسة. والاسم يشير إلى معنى الكلمة؛ لأن بيرسيا تعني الفارسية، وهي شجرة التين. ويقول معجم أوكسفورد: «البيرسيا شجرة مقدسة في مصر وفي فارس.»

وهنا نتذكر أن الجنس الحوري سكن بلاد آدوم، وكان من الجنس الآري أي الفارسي الأصل (وسط آسيا عمومًا آريون). ثم نقرأ بلوتارك؛ إذ يقول: «من بين جميع نبات مصر تُقدس شجرة البيرسيا على وجهٍ خاص للإلهة إيزيس؛ لأن ثمرتها تشبه القلب وورقتها اللسان»؟[٣] والبيرسيا أو الفيرسيا أو الفارسية أو التين نبات سيناوي مشهور. وأقسم به القرآن وربطه بطور سيناء وقصة موسى، ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ﴾. ولو أراد استرابون بها شجرة الجميز، لقال ذلك بوضوح، حيث ذهب البعض إلى أن البيرسيا هي شجرة الجميز، حيث يقول استرابون في موضعٍ آخر مفرقًا بين الشجرتين: «والسيكامينوس شجرة الجميز، تخرج الثمار المسماة سيكومورس؛ لأنها تشبه السيكوم/التين.»[٤]

ثم نستدعي هنا ما كتبه «سليم حسن»؛ إذ يقول في معرض سرده لقصة بعثة حتشبسوت إلى بلاد بونت إنها أحضرت من أرض الإله أشجارًا بجذورها، وأعادت استزراعها أمام معبد روعة الروائع بالدير البحري. والتي يقول الجميع إنها أشجار الكندر أو اللبان، هكذا دون أي تدقيق. يقول سليم حسن المدقق الفاحص: «وتدل الكشوف الحديثة على أن الأشجار العطرية، التي أتي بها من بلاد بونت، قد غرست فعلًا في حفر نقرت في الصخر أمام المعبد، وملئت بالطين الخصيب. وقد عثر على هذه الحفر الحفارون المحدثون في الردهة التي أمام المعبد. وقد وجدوا أن بعضها كان لا يزال محفوظًا فيه جذوع الأشجار الجافة، غير أن هذه الأشجار ظهر أنها أشجار بيرسيا.»[٥]

---

[٢] أ. ج. إيفانز، هيرودوت، ترجمة أمين سلامة، الدار القومية، القاهرة، د. ت، ص٨٦.

[٣] استرابون، استرابون في مصر، ترجمة وهيب كامل، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٣م، ص١٠٠.

[٤] نفسه، ص١٢٨.

[٥] سليم حسن، مصر القديمة، سبق ذكره، ج٤، ص٣٣٣.

ومن هنا نفهم أن بعثة حتشبسوت قد جاءت بأشجار التين المقدسة؛ لأن علماء الحملة لا شك كانوا يعلمون باستحالة نمو الكندر أو اللبان الذكر (المر)، على أنواعه في طيبة؛ حيث معبد روعة الروائع. وفي هذا تحديدًا علامةٌ واضحة على أن بلاد بونت إطلاقًا لم تكن الصومال، كما يصر بعض أساتذة التاريخ المصري القديم، حيث تنمو أشجار (الكندر/اللبان/المر)، بل لم تكن في أفريقيا جميعًا.

والكلمة «فونيكس» تنسب الطائر إلى موطنه، فهو الفوني أو البوني كما أسلفنا، منسوبًا إلى تلك البلاد الموصوفة بكونها «بلاد العرب»، وأن تلك البلاد العربية هي موطنٌ مقدس، يأتي منه طائرٌ مقدس.

والنصوص المصرية القديمة تشير دومًا إلى بلاد بونت بأنها أرض الإله. ومعلومٌ أيضًا أن الكلمة المصرية القديمة المدونة بالشكل «ب. ن. و»، كانت تُطلق عمومًا على فصائل الطير المعروف في مصر الآن باسم «أبي قردان»، وعلى جميع أقاربه من ذات الفصيلة على مختلف الألوان والأحجام. فمنه الكبير الضخم الذي يزور مصر في هجراتٍ فصلية، يتواجد فيها قرب الشهرين، وهو في حجم النسر الضخم فعلًا. وينقل معجم أوكسفورد ذات الأسطورة فيقول: «هو في الأسطورة طائرٌ فريد من نوعه، يحرق نفسه بعد أن يحيا خمسة أو ستة قرون في صحراء العرب، ثم ينتفض من الرماد بشبابٍ متجدد، ليعيش دورةً أخرى من الزمان. وقد جاء اسمه من اليونانية PHOENIX، التي تعني: فينيقي وأرجواني. والأرجوان هو اللون الأحمر وهو ما يطير بنا إلى بلاد الصخر الأحمر وأصحابها الحمر، بلاد آدوم أو الصخر الأحمر، بلاد الصخر سالع، البتراء، بونت. أما العربية فقد أطلقت على هذا الطائر اسم «العنقاء» (المصريون أطلقوا عليه أيضًا: عنقت). والصفة PHOINOS بوني، كلمة يونانية تعني «الأحمر». ويذهب «إيفارلسنر» إلى أن الاسم قد أطلق فيما يبدو على أناسٍ ذوي بشرة حمراء.[٦] والمعروف أن تلك البلاد جميعًا حتى الساحل اللبناني، كان يطلق على شمالها بلاد فينيقيا، وعلى جنوبها بلاد كنعان. والجذر «ك ن ع» بدوره يحمل معنيين: الوديان أو الأرض المنخفضة، واللون الأحمر الأرجواني.[٧]

---

[٦] إيفارلسنر، الماضي الحي، ترجمة شاكر إبراهيم سعيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨١م، ص١٠٤.

[٧] عز الدين الخير، أضواء عربية في الأسطورة الإغريقية، مجلة المعرفة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، عدد ١٩٧، تموز ١٩٨٧م، ص١٣٢.

وعن أصول الجنس الكنعاني، يروي لنا «هيرودوت» في الفقرة الأولى من الكتاب الأول:

> إن هؤلاء القوم جاءوا من سواحل بحر أريترية (الأحمر [المؤلف]) إلى شاطئ بحرنا. سافروا في البحر مدة طويلة، وحالَما استقروا في البلاد التي اتخذوها موطنًا لهم الآن، طفقوا يتاجرون بالبضائع المصرية والآشورية، بأن ينقلوها إلى عدة أماكن منها.

وفي الفقرة التاسعة والثمانين من الكتاب السابع، يعود «هيرودوت» إلى الفينيقيين فيقول:

> والفينيقيون كانوا يسكنون سواحل بحر أريترية (الأحمر [المؤلف])، كما يقولون هم أنفسهم، وعندما اجتازوا من هناك إلى سواحل سوريا قطنوها. وهذا القسم من سورية مع كل البلاد التي تمتد إلى تُخوم مصر، «يسمى فلسطين».

وبحر «أريترية» زمن هيرودوت كان اسمًا يطلق على البحر «الأحمر» الآن (لاحظ الأحمر مرة أخرى). والمدهش أن كلمة أريترية نفسها كلمة يونانية تعني «الحمراء!»؛ لذلك حمل البحر الأريتري بعد ذلك اسم البحر الأحمر. أما صنعة هؤلاء الحمر المهاجرين من الأحمر، فكانت التجارة العالمية. وقد عثر في بيروت على قطعة نقد هللينية، تؤكد أن الجنس الفينيقي هو ذات عين الجنس الكنعاني. فعلى أحد وجهيها توصف مدينة بيروت، بأنها تقع في كنعان، باللغة الفينيقية. وعلى وجهها الآخر توصف مدينة بيروت في أنها تقع في فينيقيا.[٨] ولو حاولنا هنا العثور على مؤيد، فإن الحفر اللغوي يجعلنا نعثر على مُشابه شديد الشبه لتلك القطعة الهللينية من النقد. فالكلمة «فينيكيان/فينيقي» هي بالضبط «بني كنعان»؛ لاختلاط الفاء الأولى في فينيقي، بالباء في كلمة «بني». ومعلوم أن النصوص المصرية كانت تسميها «باكنعان».[٩] وعليه فهي:

با	ك ن ع ا ن	«با كنعان» بالمصرية
ب ن ي	ك ن ع ا ن	«بني كنعان» بالسامية
ف ن ي	ك ي ا ن	«فينيقيان» باليونانية

[٨] Zallig, S. Harris, A grannar of Phoenician Language, New Haven, Comn, 1936, p. 7 note 29.

[٩] سليم حسن، مصر القديمة، سبق ذكره، ج٦، ص٣٨.

أما الكتاب المقدس فكان ما زال يصر على تذكيرنا بصفة الأحمر، فيقول: «من ذا الآتي من آدوم بثيابٍ حمر؟» (إشعيا، ٦٣: ١)، بينما كانت النبية «دبورة» ترنم أنشودتها:

يا رب بخروجك من سعير،
بصعودك من صحراء آدوم،
الأرض ارتعدت.

(قضاة، ٥: ٤)

فالرب هنا في صحراء آدوم، إنها صحراءٌ مقدسة، إنها أرض الإله؟ إله عرفه المصريون كإله للمصريين، ثم عبده الإسرائيليون من بعد. ويحمل ذلك المكان المقدس اسم سعير، والسعير هو اللهب الأحمر. أما الاسم آدوم نفسه فهو ما يعني الصخر الأحمر. أما الحمرة واللون الأحمر فهو لون اللهيب.

والعنقاء أو الطائر البوني أو البونتي، ينتفض حيًّا من لهيب شجرة تحترق. وقد لاحظ العلماء أن طير الغراب وطيور النحام والبشروش تلجأ إلى دخانِ ما تجده من بقايا نيران؛ لتفرش أجنحتها للدخان، لطرد الطفيليات والحشرات منها. وتكفي هذه اللوحة في نظر البدائي؛ ليبني عليها أسطورة مثل العنقاء، التي تنتفض حية بريشها من بين النيران. وقد ذهب المصرولوجي «بدج» إلى أن شجرة البيرسيا يقصد بها شجرةً ضخمة، تُعرف في الإنجليزية باسم SYCAMOR TREE (الجميزة)، وهو شجر معمر يعيش قرونًا. ولا شك أن «بدج» هنا قد أخطأ المراد، فهي شجرة التين تحديدًا البيرسيا. ويرى «بدج» أن مقابلها الهيروغليفي هو «ن ع ر – ت» أو «ناره»، الذي نطق في القبطية NIR وفي اليونانية NERION. والغريب أن ذات الشجرة تسمى في العربية «ناريون»، والجذر لجميعها من «نور» و«نار». وقد أطلق المؤرخون على بلاد «ميتاني» المزعوم أنها تقع في أعالي الفرات: بلاد «النايري». وهو الاسم الذي أطلقه الآشوريون على ذات الدولة التي ذكرتها نصوص مصر باسم «ميتاني» أو «نهارين» أو «نارين» أي بلاد شجر النايري، بإسقاط الهاء بالتخفيف أو تحويلها إلى ألف، كما في هريق الماء وأريق الماء.[١٠]

ويبدو أنه كانت هناك شجرة مقدسة في بلاد «بونت»، تعيش عليها طيور مقدسة، وأن هذه الشجرة كانت تسمى الشجرة الحمراء أو النارية. ولا شك لدينا أن «ن هـ ر ن»

---

[١٠] جاردنر، مصر الفراعنة ... سبق ذكره، ص٢٢٠.

أو «ن – ح ر ن» المصرية تتصل في الجذر مع كلمة حوري وحوريين. والحوري أيضًا هو الأحمر. أما أشجار الحور فهي الشجرة المعروفة بزهورها الحمراء القرمزية. ويقول المؤرخ «أحمد بدوي»: «إن طائر الفونيكس PHOENIX هو العنقاء بالعربية. أما اسمه المصري فهو BNW من الفعل المصري WBN، بمعنى أشرق ولمع، فهو البراق أو اللماع؟ لذلك يتصل بالحجر الهرمي BNBN، الذي يرمز به للتلِّ العتيق الذي برز بدوره من الماء الأزلي نون. والطائر يتلألأ فوقه فيملأ «نوره» الكون، ويكون صوته أول دوي في الوجود. وكان كهنة هليوبوليس ينتظرون عودة ذلك الطائر في شوق.»[١١]

وتقول القصص التوراتية: إن النبي موسى عندما هرب من مصر، بعدما قتل مصريًّا ظلمًا، ذهب إلى بلادٍ تدعى مديان، وتزوج هناك من صفورة ابنة كاهن مديان المدعو باسمين: «رعوئيل/يثرون». والقصص الإسلامي يسمي ذلك الكاهن «شعيب» ويعتبره نبيًّا. وتقول تلك القَصص إنهم كانوا يعبدون شجرة مقدسة سميت «الأيكة»، وأطلقت على السكان هناك اسم «شعب الأيكة»، وتقول إن الله قد أهلك شعب الأيكة؛ لأنهم كانوا تجارًا جشعين يطففون في الموازين، كما كانوا قطاع طرق وقراصنة محترفين.

ونعود إلى الطائر البوني الذي يسمي المصريون نوعه الصغير الآن بأبي قردان، لنجد أحد تنويعاته في ذلك الطائر المعروف باسم الفلمنجو. وهو طائر طويل العنق فيه ريشات سوداء، ويغلب عليه اللون الأحمر القرمزي، واسمه الإنجليزي FLAMINGO أي الملتهب «بحمرة»، من FLAME أي لهب، وهو الفصيلة المعروفة باسم البشروش أو النحام. ويكنى عنه عند العرب «بأبي لهب»، وهو تحديدًا الذي لم يزل يزور مصر للآن في هجرته الفصلية.

ويساعد الحفر اللغوي هنا على إلقاء الضوء على موطن هذا الطائر الجغرافي بالنسبة لمصر. فالكلمة الكنعانية التي تعني «أحمر» تكتب «شرق»، أي إن الكلمة الكنعانية «شرق» تعني أحمر. وفي العربية: شرق الشيء شرقًا فهو شرق، أي اشتدت حمرته بدم، ومقلوبها بالميتانيز: قشر. والأقشر هو شديد الحمرة. وفي لسان العرب لابن منظور نقرأ: «الشرق طائر، وجمعه شروق. والشرقراق طائر يكون في أرض الحرم في منابت النخيل بقدر الهدهد (وكثيرًا ما يترافق طائر بهذا الشبه مع وصول هجرة البشروش إلى مصر حتى

[١١] أحمد بدوي، حاشية شارحة بكتاب هيرودوت، يتحدث عن مصر، سبق ذكره ص١٧٨.

اليوم [المؤلف]) مرقط بحمرة.» ومادة شرق والنحام في مادة نحم النحام طائر أحمر على خلقة الإوز، يقال له بالفارسية سرخ آوى، وآوى كلمة فارسية تعني طائر. أما سرخ فهي «الأحمر». ولنا أن نلحظ أن سرخ أيضًا تشير إلى معنى الشرق.

هو إذن بالنسبة لمصر: الطائر الشرقي الأحمر. وبلاد «بونت» أو آدوم أو البتراء تقع إلى الشرق من مصر. أما ترنيمة المصري فكانت: «عندما أوجه وجهي نحو الشرق، فإني أولي وجهي إلى بلاد «بونت»، أرض الإله.»

حملة تحتمس الثالث

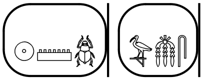

يقول سليم حسن المؤرخ والمصرولوجست: «إن الرأي السائد الآن، هو أن تحتمس الأول 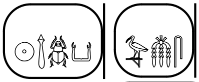 قد أعقبه على عرش مصر ابنه تحتمس الثاني 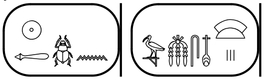 ، الذي تزوَّج من أخته من أبيه المسماة «حتشبسوت». وبعد وفاته خلَفه ابنه تحتمس الثالث، الذي رُزقه من زوجةٍ ثانوية تدعى إيزيس. وقد أصبح ملك مصر رسميًّا، وهو لا يزال طفلًا لم يبلغ الحلم بعد، وقد نُصبت حتشبسوت، وعندما قبض على مقاليد الأمور أخذ ينكل بأعدائه، وهم أولئك الذين كانوا في ركاب حتشبسوت أو عاملين في بلاطها، ثم أخذ بعد ذلك في القضاء على كل آثارها بصورةٍ مروعة، يشهد بشناعتها وعُنفها ما أحدثه من التدمير والتهشيم في الدير البحري.»[١٢]

ويتابع «سليم حسن» تحت عنوان: «تحتمس الثالث يعلن الحرب على بقايا الهكسوس في آسيا» قوله: «إن بقايا الهكسوس بعد طردهم من مصر، انتشروا في البراري الشرقية للمتوسط». ولما تولت حتشبسوت اتخذوا — على ما يظهر — من هذا الحادث ذريعة لإعلان الثورة، ليتحرروا من ربقة الاستعمار المصري. وقد أعلنت سوريا كلها العصيان على مصر، حتى أصبح لزامًا على الفتى الجسور أن يقابل حلفًا قويًّا مؤلفًا من قبائل

[١٢] سليم حسن، مصر القديمة، سبق ذكره، ج٤، ص٣٨٨، ٣٩٠.

آسيا. والولايات التي وطدت العزم على خلع النير المصري، الذي أثقل على عاتقهم به تحتمس الأول، وسلفاه من قبله، منذ خمسين سنة مضت، كان كل أولئك قد ألَّفُوا حلفًا بقيادة ملك قادش، وهي بلدة على نهر الأورنت (نهر العاصي حاليًّا)، على مسيرة مائة ميل تقريبًا شمالي دمشق وسوريا وقتئذٍ لم تكن مملكة واحدة متحدة الكلمة بطبيعتها، بل كانت مقسمة ولايات صغيرة، يحكم كلًّا منها أميرٌ أو ملك، وأغناها ملك قادش. وقد أفلح ملكها مؤقتًا في أن يضمَّ الولايات الأخرى تحت قيادته.

وتعد موقعة مجدو التي قابل فيها تحتمس الثالث جيوش الحلف السوري، بإمرة حاكم قادش، أول معركة حربية في تاريخ العالم القديم، قد بقي عنها تفصيلات تُذكر. ويرجع الفضل في ذلك إلى اليوميات التي خلفها تحتمس على أحد جدران معبد الكرنك، وقد سار بجَيْشه من قلعة سيلة، وهي القنطرة الحالية، في اليوم الخامس والعشرين من الشهر الرابع، في فصل الشتاء في السنة الثانية والعشرين من حكمه. وهذا التاريخ حسب قول «نلسن» يوافق ١٩ إبريل سنة ١٤٧٩ق.م. مخترقًا الصحراء التي تقع على الحدود الشرقية لسيناء، والحدود الجنوبية لفلسطين. فوصل غزة بعد مسيرة عشرة أيام، قطع فيها نحو مائة وخمسةً وعشرين ميلًا، ولم يمكث تحتمس في غزة إلا سواد ليلة. وفي الصباح المبكر سار على رأس جيشه ميمِّمًا شطر يحم (يحتمل أن تكون يما الحالية)، وتقع على مسافة ثمانين ميلًا من غزة.»

ونطالع الآن معًا ما دونه المؤرخ المصري على جدار الكرنك، فنسمعه يطرق بإزميله القصة التالية: «السنة الثالثة والعشرون، الشهر الأول من فصل الصيف، اليوم السادس عشر في بلدة يحم. لقد أمر جلالته أن يُعقد مجلس حربيٌّ ليتشاور فيه مع رجال جيشه قائلًا: إن ذلكم العدو الخاسئ صاحب قادش، قد جاء بجيشه ونصب خيامه فيها، وهو مقيم بها في تلك الآونة، وقد ضم إليه كل أمراء الأقاليم الذين كانوا يدينون بخضوعهم لمصر حتى نهر الفرات، ومعه السوريون وقوم قود، بخيلهم وجنودهم وعشيرتهم، وأنه يقول حسبما وصل إلى مسامعنا: سأقف هنا لمحاربة جلالته في بلدة مجدو. فحدثوني بما يدور بخلَدكم في هذا الخطب. فأجابوا جلالته قائلين: كيف يتسنى للمرء أن يسير في هذا المضيق؟ وقد وصلتنا الأخبار بأن العدو على تمام الاستعداد هناك في خارج المدينة، وأن عددهم قد أمسى هائلًا، وهل يكون السير مستطاعًا إلا إذا سار الجواد إثر الجواد، والجندي إثر الجندي أيضًا؟ وهلا ستكون مقدمة الجيش — بهذه الطريقة — في ساحة القتال، في حين أن المؤخرة لا تزال واقفة هنا في عارونا عاجزة عن محاربة العدو؟ على أنه يوجد

طريقان أخريان: واحدة ما تؤدي إلى «تاعناخ/أو طناخ». والأخرى تقع في الجهة الشمالية من بلدة زفتى مؤدية إلى شمال مجدو، وبذلك لا نضطر إلى سلوك هذا المضيق الوعر.»[١٣]

وهكذا فضل القواد أحد الطريقين: الطريق المؤدِّي إلى «تاعناخ»، والطريق الواقع شمال «زفتى»، ويؤدي إلى شمال بلدة «مجدو». واستبعدوا في الوقت نفسه الطريق الثالث؛ لأنه كان طريقًا شديد الضيق، محصورًا بحيث لا يستطيع الجيش عبورَه إلا إذا سار الحصان خلف الحصان، والجندي خلف الجندي. وهو ما قد يؤدي إلى كارثةٍ عسكرية، حيث سيظهر جيش مصر لأعدائِه فرادى، بينما بقية الجيش ستكون قد تكوَّمَت عند الطرف الخلفي للطريق في عارونا، تنتظر دورها في عبور ذلك المضيق.

وهنا نستكمل المشهد من الراوي المصري على جدار الكرنك، لنستمع إلى الفرعون الشاب وهو يقول:

«إني ما دمت حيًّا، وما دام الإله رع يحبني، وما دام والدي الإله آمون يرعاني، وما دام نفس الحياة ينعشني بالحياة والقوة؛ فلن أسلك إلا هذه الطريق المؤدية إلى عارونا/هارونه. وليذهب منكم من يشاء في إحدى هاتين الطريقتين الأخريين اللتين تحدثتم عنهما، وليتبعني منكم مَن يريد أن يسلك الطريق التي سيتخذها جلالتي؛ لأن الأعداء الذين يمقتهم رع سيقولون: هل سلك جلالته طريقًا آخر؛ لأنه خاف بأسنا وبطشنا؟ وعندئذٍ أجابوا جلالته قائلين: ليت الإله آمون والدك رب تيجان الأرض ومساكن الكرنك، يرعى شعبك ويتعهده! تأمل: إننا سنكون في ركاب جلالتك حيثما توجهت؛ لأنه من واجب الخادم أن يتبع سيده دائمًا. وعندئذٍ أمر جلالته بإصدار منشور لكل الجيش جاء فيه: إن سيدكم المظفر سيكون في طليعتكم لاقتحام ذلك المسلك الوعر الضيق. تأملوا: لقد أقسم جلالته يمينًا قائلًا: لن أسمح لجيشي المظفر أن يشق طريقه إلا في هذا المكان؛ لأن جلالته عزم على أن يتقدم طليعة جيشه بنفسه. وقد وزعت التعليمات على كل جندي بالأمر بالزحف، على أن يكون الجواد في إثر الجواد، في حين أن جلالته كان يسير في مقدمة جيشه.

وفي السنة الثالثة والعشرين من الشهر الأول من فصل الصيف، اليوم التاسع عشر، استيقظ الفرعون في السرادق الملكي، الذي كان قد ضرب له في «بلدة عارونا» ثم سار جلالته في رعاية الإله آمون رب تيجان الأرضين ليفتح الطريق أمامه. وكان الإله آمون يشد ساعد جلالته. وزحف جلالته على رأس جيشه المنظم فرقًا، ولم يجد للعدو أثرًا، بل

[١٣] نفسه، ج٤، ص٣٩٥، ك٣٩٨.

كان قد عسكر بجناحه الأيسر عند بلدة «تاعناخ»، في الوقت الذي كان جناحه الأيمن قد ضرب خيامه، في المنحنى الجنوبي من وادي قنا.

وقد نادى جلالته: أن سيروا في هذا الطريق. فالتقى بالعدو فكسره، وولى العدو الخاسئ الأدبار. فيا أيها الجند مجدوا المليك، وتغنوا بشجاعة جلالته؛ لأن ساعده أشد بأسًا من أي ملك. وقد كانت مؤخرة جيش جلالته المظفر لا تزال في بلدة عارونا، في حين كانت مقدمته قد برزت في وادي مجرى قنا، حتى مَلئُوا فم هذا الوادي.

وبعد ذلك انطلق جلالته في عربته المصنوعة من الذهب النضار، مدججًا بدرعه وزرده مثل الإله حور القوي الساعد رب البأس، ومثل الإله منتو إله طيبة، وكذلك كان والده آمون يشد ساعده. وكان جناح جيش جلالته الأيسر يقف على ربوة جنوبي قنا. أما الجناح الأيمن فكان معسكرًا في الشمال الغربي من مجدو. وكان جلالته في وسطها يحميه الإله آمون في حومة الوغى، وكانت قوة بأس الإله ست تدب في أعضائه، ففاز جلالته فوزًا مبينًا، وهو على رأس جيشه. وقد رأى الأعداء جلالته والنصر حليفه؛ لذلك ولوا الأدبار نحو مجدو، بوجوهٍ يغمرها الذعر، تاركين خيلهم وعرباتهم المصنوعة من الذهب والفضة، وتسلقوا أسوار هذه المدينة باستعمال ملابسهم؛ لأن أهل المدينة قد أغلقوا أبوابها. لكنهم دلوا ملابسهم ليجروهم بها إلى داخل المدينة. ولو أن جنود جلالته لم يتهالكوا على نهب متاع العدو، لكان في استطاعتهم الاستيلاء على مجدو وقتئذ، عندما كان عدو قادش الخاسئ وعدو هذه المدينة يجرون متسلقين الأسوار ليدخلوا المدينة هربًا؛ لأن الخوف من جلالته كان قد سرى في أجسادهم، وضعفت أسلحتهم؛ لأن الثعبان الذي على جبينه قد طغى عليهم وهزمهم. واستولى جلالته على خيلهم وعرباتهم المصنوعة من الذهب والفضة، غنيمة سهلة. أما صفوف جنودهم فكانوا قد طرحوا أرضًا مثل السمك في حبائل شبكة جيش جلالته المنتصر. وقد أخذ كل الجيش بأسباب الفرح، مقدمًا الثناء لآمون لما وهبه من نصرٍ لابنه في هذا اليوم، وكذلك قدموا الشكر لجلالته مادحين انتصاره، ثم أحضروا الغنيمة التي استولوا عليها.»[١٤]

وينهي الكاتب المصري نقشه بقصة حصار مجدو التي انتهت بسقوطها ثم عودة الملوك المتآمرين إلى بلادهم خاضعين، ونوابًا عن فرعون في حكم بلادهم.[١٥]

---

[١٤] نفسه، ج٤، ص٣٩٨–٤٠١.

[١٥] Breasted, J. H, Ancient Egyptian Records, Vo 12, P 554.

عندما قفزت الفكرة إلى ذهني، أخذت أبحث عن مؤيدات فروضي، فأعدت قراءة ذلك المدون الجداري «لتحتمس الثالث» عدة مرات، مما أوقفني على عدة أمور؛ فربما تحيل الحملة جميعًا إلى شرقي سيناء، حيث بلاد آدوم الحورية. وقام افتراضي على أن دويلات بلاد الشام وممالكه الصغيرة، التي تنوف على الثلاثمائة مملكة، قد تحالفت جميعًا للقيام بحملةٍ على مصر، شبيهة بحملة الهكسوس، أو أنهم تحالفوا بعدما رنا إلى علمهم ما ينتويه «تحتمس الثالث» فقرروا استباقه. وانتقوا أشد المواقع تحصينًا طبيعيًّا للقاء الجيوش المصرية على حدود مصر الشرقية. وهو ما يعني وفق هذا التصور الجامح أن المعركة لم تقع عند مجدو (تل المتسلم حاليًّا) شمال غربي فلسطين، إنما وقعت في محيط البتراء عاصمة وشمس آدوم، وأن ما حدث كان محاولة من تحتمس الثالث لإجبار تلك الدويلات على الخضوع صاغرة، مع رفضه لأسلوب حتشبسوت السلمي الذي اتبعته برحلتها إلى بونت، والذي أدى إلى تمرد ملوك تلك الدويلات، بعدما لمسوه من تراخي القبضة المصرية زمن حتشبسوت.

وربما وجدت وجهة نظري هنا مؤيدًا قويًّا من المصرولوجي «زيته»، الذي وجد في مقدمة تاريخ تحتمس الثالث المهشَّم ما يَعتبره إشارة إلى استقرار حامية هكسوسية، بعد طردهم من مصر في شاروحين جنوبي فلسطين. وترجمة الأستاذ زيته لهذه الفقرة جاءت كالتالي:

> السنة الثانية والعشرون، الشهر الرابع من فصل الشتاء، اليوم الخامس والعشرون. مرَّ جلالته بقلعة ثارو أول قلعة مظفرة، ليطرد الذين هاجموا حدود مصر، بشجاعةٍ ونصر وقوة وفوز. وقد مرت مدة طويلة من السنين كان فيها الآسيويون يحكمون البلاد اغتصابًا، والكل يخدمون أمام ... (المكان تالف) وقد ... (تالف) في أزمانٍ أخرى ... (تالف) أن الحامية التي كانت هناك كانت في مدينة (شاروحين)، وهم الآن من يرد حتى نهاية الأرض، في استعدادٍ للثورة على جلالته.[١٦]

وقد دفعنا إلى هذا الافتراض دفعًا عدد من العناصر، أهمُّها ما سبق وحددناه كموقع لقادش سيناء غربي البتراء، على تخوم دولة آدوم مباشرة، في الموضع الذي قدر المكتشف

[١٦] سليم حسن، مصر القديمة، سبق ذكره، ج٤، ص١٤٨، ١٤٩.

«رولاند» عام ١٨٤٢م، أنه عين قديس الوارد في التوراة باسم «قادش برنيع» «وقادش عين مشفاط»، وأيَّده فيه بعد حوالي أربعين عامًا المكتشف «ترامبول». وعين قديس هو المقابل العربي رسمًا ومعنًى للاسم قادش. وقد علمنا أن زعيم الأحلاف المعادية لمصر كان ملكًا على قادش، التي تم افتراض أنها تلك الواقعة على نهر العاص بسوريا. أما من جانبنا فقد فضَّلنا للموضع المقصود في حملة تحتمس الثالث قادش سيناء أو «عين قديس» الحالية.

أما القرينة الثانية فتتضح في إجابة مجلس أركان حرب الفرعون، حول طرحه الاستشاري للطريق الواجب اتباعه للهبوط على العدو. وحيث تخير الفرعون ذلك الطريق الذي يختبر القوة والبأس، الطريق الخطر الضيق، الموصوف بأن عبوره سيكون فردًا فردًا. وهو ما يعني ضرورة وجود شخص قوي أو مجموعة أشخاص فدائيين، يخرجون من الممر الضيق لمصاولة العدو وتحجيم هجمته، حتى يسمح بخروج بقية الجند فُرادَى للمشاركة في المعركة. ويفيد النص بأن الفرعون نفسه هو من أخذ على عاتقه تلك المهمة بمساعدة قواده الذين قرروا اتباعه حتى لو خاض بهم لجاج الموت. والأمر الثالث، أنه إذا كانت «مجدو» قد طوبقت تاريخيًّا مع تل المتسلم الحالية شمالي فلسطين، فإنه لم يتم العثور هناك حتى تاريخ كتابة هذه السطور على مثل ذلك الطريق، الذي وصفته نقوش النصر المدونة على جدران الأقصر. فقط يمكن أن يكون السيق المؤدي إلى ساحة البتراء العظمى، هو الطريق الأوحد النموذجي المطابق للرواية المصرية.

هذا ناهيك عن تطابق أسماء بعض المواضع، وتطابق مواقعها في محيط بلاد آدوم، ومع أسماء تلك المواقع التي سجَّلها تقرير تحتمس الثالث لوقعة مجدو. فإضافة إلى قادش، هناك «عارونا» (هارونه) وهو الاسم الذي يلتقي تمامًا مع جبل «هارون» الموجود الآن إلى الغرب مباشرة من البتراء، ويقع في منطقة وسطى بينهما وبين «قادش» (عين قديس). كذلك يلتقي وادي «قنا» مع الموقع الذي حددته التوراة للحدود الجنوبية لفلسطين، ضمن عدد من المواقع هي آخر البلاد الجنوبية لسبط يهوذا، وذلك باسم «قينة»، في النص:

> وكانت المدن القصوى لسبط يهوذا إلى تخم آدوم جنوبًا: قبصئيل وعيدر وياجور وقينة وديمونة وعدعدة وقادش وحاصور ويثنان.
>
> (يشوع، ١٥: ٢٣، ٢٢، ٢١)

كما ورد لدى المؤرخ «اسطفانس» البيزنطي، لدى حديثه عن الحملة الثانية التي قام بها «أنطيوخس الثاني عشر» ضد العرب الأنباط، حوالي ٨٨ق.م. زمن الملك النبطي «رب إيل الأول ابن حارثة الثاني»، حديثًا عن انتصار الأنباط على جيوش الرومان، حيث تم قتل «أنطيوخس» وفر جيشه إلى قانا، التي لم يتعرف الدارسون على موقعها حتى الآن، وهلك معظمهم جوعًا.[١٧]

كما يلتقي وادي قنا مع ذكريات تاريخية دوَّنَها المقدس عن المديانيين، الذين سكنوا في محيط المنطقة حول خليج العقبة، حيث كان المديانيون يدعون أيضًا بالقينيين. والقيني هو صانع المعادن أو السباك صانع السبائك، فهو الحداد أو السباك أو النحاس. ويضيف إلى صدق ذلك مزيدًا من الدعم، مناجم ومشاغل تصنيع النحاس التي عُثر عليها جنوبي البتراء، عند جبل تمناع المذكور في التوراة باسم «تمنة». ولم تزل هناك علامات اسمية شاهدة على تواجد القينيين بهذا المحيط الجغرافي حتى اليوم. ففي جنوب سيناء وعلى خليج العقبة نجد مدينة «قنى». أما وادي قنا فينطلق من عند جبال كاترين تقريبًا، ليصب في خليج العقبة قرب مدينة «قنى».

وتبقى المشكلة التي تقف في وجه هذه القرينة — لتأييد فرضنا — لا تتزحزح، وبدون حلها تسقط هذه القرينة تمامًا. والمشكلة تتحدد في اسم «مجدو» المدينة التي تجمعت عندها الأحلاف السورية. فهل حدث خطأ ما من الكاتب المصري؟ أو من الآثاري الذي قرأ النصوص، فقرأ مدينة الأحلاف باسم «مجدو»، بينما كان يجب قراءتها على نحوٍ آخر؟ هذا وقد عقب «فليكوفسكي» على استغاثات نائب الفرعون «آمنحتب الثالث»، على مجدو الواردة في رسائل تل العمارنة بقوله: «إن الاختلاف البسيط في هجاء الأسماء يعود ليس فقط إلى أسماء الأشخاص وحدها، إنما أيضًا لأسماء الأماكن الجغرافية، التي كانت تُنطق بطرقٍ عديدة مختلفة. وعلى سبيل المثال: فإن بريديا — وفي إحدى الرسائل كتب اسمه بحيث يقرأ بريدي — أعلن للفرعون أنه يحمي مكيدا أو يدافع عنها، وفي مرة أخرى ذكر أنه يدافع عن ماجيدا، وهناك أمثلة كثيرة أخرى في الرسائل.»[١٨]

في هذه النقطة ربما كان مفيدًا العودة إلى نص لرمسيس الثالث، حيث سجلت النقوش أنه قاد حملة تجارية إلى بلاد «بونت» أرض الإله المقدسة؛ لاستجلاب منتجاتها

---

[١٧] إحسان عباس، تاريخ دولة الأنباط ... سبق ذكره، ص٤١.

[١٨] فليكوفسكي، عصور في فوضى ... سبق ذكره، ص٣٣٤.

التجارية، بالمبادلة مع المنتجات المصرية. وتذكر النصوص أنه قد أبحر من، أو إلى مكان يقع قرب بحر أو نهر، وأن هذا المكان يحمل اسم «موقيدع» أو «موقيده». وقد ذهب المؤرخون به مذاهب شتى، وصلت في فروضها إلى الخليج العربي ونهر الفرات. كما تذكر نصوص الفرعون «رمسيس الثالث» أنه عندما وصل هناك، أرسل رسله إلى «إقليم «عتيقة ATIKE» للحصول على النحاس».[١٩] والكشوف الحديثة قد قدمت لنا اكتشافها لمناجم ومصانع النحاس عند جبل (تمناع/تمنة) في بلاد آدوم، ومن ثم لا بد أن «موقيده» تقع في ذات الجوار. فهل كان يجب أن تقرأ كلمة «مجدو» في نصوص «تحتمس الثالث» بالرسم «موقيدة»؟ وهي ما يتطبق فونيطيقيًّا مع «مجدو»، ويتطابق جغرافيًّا مع بلاد آدوم الحورية؟

مجرد احتمالات لا نصر على احتسابها أحد قرائن دعم فروضنا، إنما نسوقها كقرينة تحتمل الخطأ الشديد، لكنها أيضًا ربما تحتمل الصدق.

أما ما لا يجب أن ننساه فهو قول «تحتمس الثالث» مبررًا إصراره على حصار «مجدو» حتى سقوطها: «إن الاستيلاء عليها يساوي الاستيلاء على ألف مدينة.»[٢٠] وهو الإصرار الذي أراد به الفخار، لمعرفة عالم ذلك الزمان لمعنى كلامه الذي يجب أن نستعيده في صورةٍ سردها لنا قاموس الكتاب المقدس، وهو يقول: «سالع اسم عبراني معناه صخرة، وهي أمنع موقع في أرض آدوم، كان يهرع إليها الآدوميون كقلعة حصينة لا تقهر، وقت الحصار الخارجي؛ لأنها تقع على قمة جبل.»[٢١]

ولكن مع احتمال الخطأ في تفسيرنا لحملة «تحتمس الثالث» على مجدو، ومع ما بذلنا فيها من جهد، نروح عن النفس بتذكر كلام الإله أمون للملكة حتشبسوت، المدون على جدران معبد روعة الروائع؛ إذ يقول لها:

> سأجعل جنودك تطأ «بنت» لأني أقودهم بحرًا وبرًّا، وجاعلهم يخترقون مضايق عالية لا يمكن اختراقها. وقد جعلناهم يصلون إلى خمائل البخور وأرض الإله.[٢٢]

---

[١٩] سامي سعيد، الرعامسة، سبق ذكره، ص١٦١.

[٢٠] فليكوفسكي، عصور، سبق ذكره.

[٢١] قاموس الكتاب المقدس: مادة سالع.

[٢٢] سليم حسن، مصر القديمة، سبق ذكره، ج٤، ص٣٣٢.

ويزيد في الاطمئنان أن نعلم أن فرض «تل المتسلم»، كموضع مفترض لمدينة مجدو، إطلاقًا لم تقم عليه البيئة الأركيولوجية، حتى قال كمال الصليبي: «إن مجدو التوراتية لم يعثر عليها إطلاقًا في فلسطين بهذا الاسم.»[٢٣]
(انظر أشكال شارحة وتوضيحية رقم «٦٣، ٦٤».)

شكل رقم «٦٣»: البنو/طائر الفينيق، كما صوره المصري القديم على بردية آني بالمتحف المصري.

[٢٣] كمال الصليبى، التوراة جاءت من جزيرة العرب، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العلمية، بيروت، ط٢، ص١١٩.

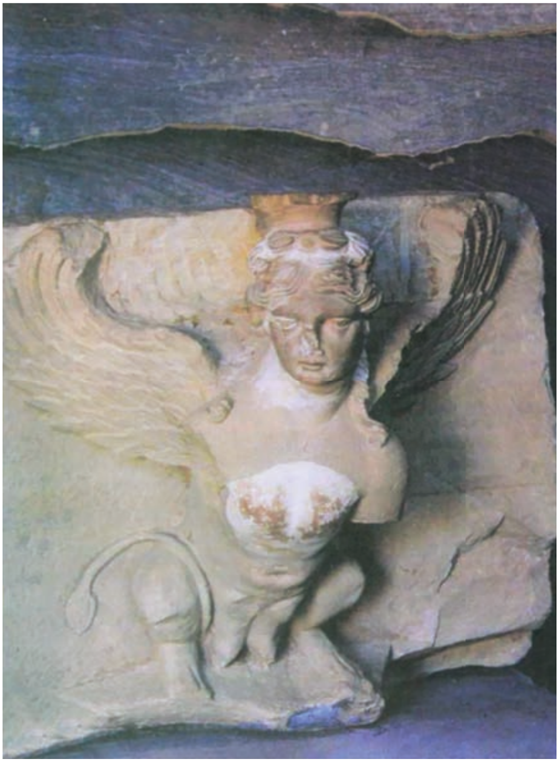

شكل رقم «٦٤»: العنقاء/الفينكس/من معبد الأسد المجنح/البتراء.

الخريطة رقم «٦٥»: البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء بالقمر الصناعي.

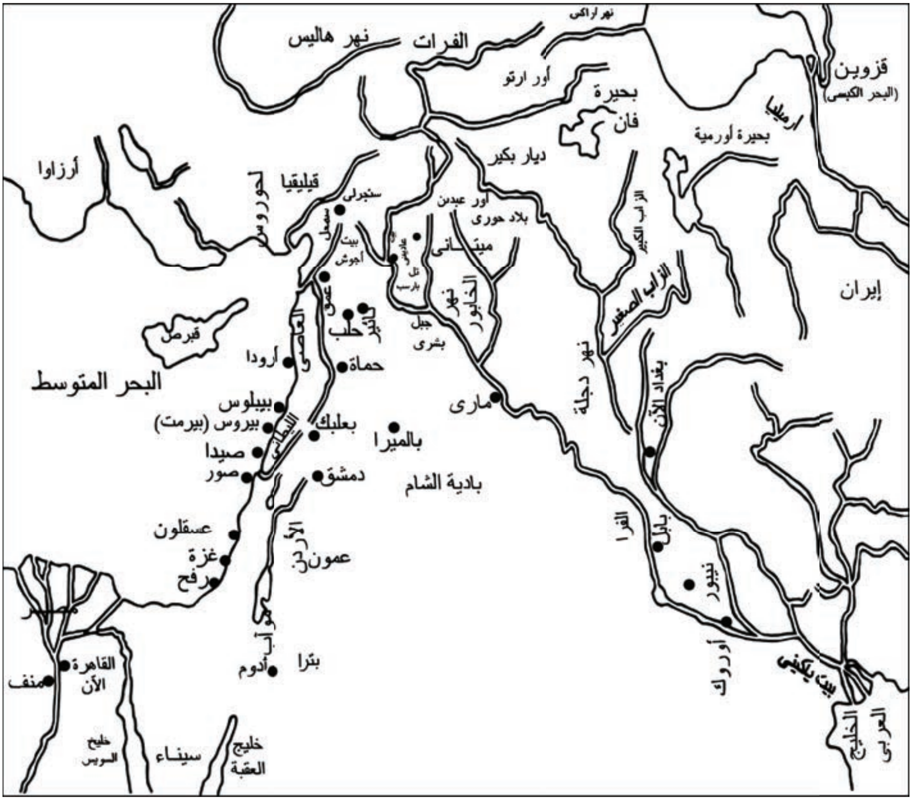

شكل رقم «٦٦»: شرقي المتوسط زمن الأحداث.

شكل رقم «٦٧»: الفرعون تحتمس الثالث.

شكل رقم «٦٨»: طائر الفينيق، وكاهن متبتل.

شكل رقم «٦٩»: العنقاء تخرج من بيضتها، تصوير فني معاصر.

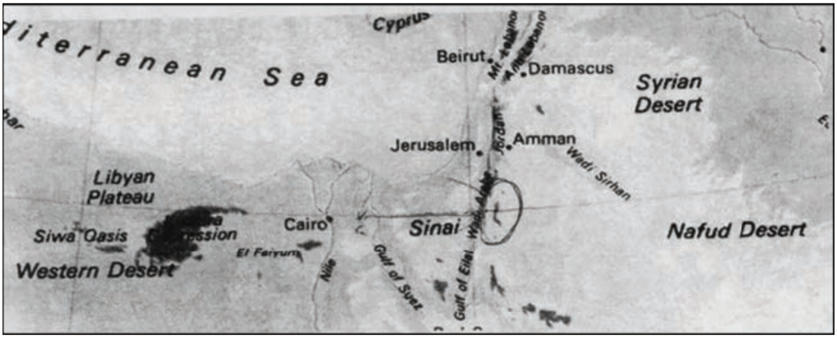

شكل رقم «٧٠»: خط العرض ٣٠ والذي يمر بمنطقة الهرم، ومع نفس اتجاه وجه أبو الهول، والخط كذلك يمر بوادي عربة ومنطقة آدوم، حيث خط أرض الإله.

الفصل الرابع

لغز بلاد موصرى (؟!)

في منطقة شرقي المتوسط في بوادي الشام والهلال الخصيب، تناثرت جماعات عرقية باسم الحوريين، في شكل مدنٍ ودول. وقد أكد لنا علم التاريخ أن هؤلاء الحوريين قد عرفوا باسم شعب آدم، وأنهم أقاموا لأنفسهم دولة قوية مركزية باسم دولة «ميتاني» وباسم نهارين، وأن الموضع المحتمل لدولة نهارين الميتانية، دولة شعب آدم الحورية، يقع بين الفرات والخابور في أعالي الفرات.

وقد خالفنا ذلك التحديد الجغرافي لدولة الحوريين المركزية، وأكدنا من جانبنا أن «ميتان» وفي المأثور التوراتي أبدًا لم تقم بين الفرات والخابور، إنما قامت في الأرض التي جاء اسمها التاريخي «مديان» و«مدين» كما في المأثور الإسلامي العربي، وأنها تموضعت في شبه جزيرة سيناء وسيناء الشرقية، حيث البلاد التي ذكرها لنا الكتاب المقدس باسم آدوم، وأن ميتان هي بالقلب اللغوي مديان، وأنها فيما نرى قد تمركزت في محيط جبال السراة/سعير، ووادي عربة. وقد ذهب فرضنا إلى أن تلك البلاد التي تأخذ هضابها شكل الأقماع، وقد أعطت لعاصمتها اسمًا من صفتها الجغرافية، فسميت بالصخرة. فهي «سالع» بالعبرية وتعني الصخرة، وهي «بترا» زمن اليونان ثم الرومان، وتعني أيضًا الصخرة. وقد ذهبنا إلى ما هو أبعد من ذلك، فاحتسبنا بلاد مديان الحورية هي تلك البلاد، التي كانت تذكرها النصوص المصرية بأنها «أرض الإله/بونت»، وأن اسم بونت بدوره كان يعني الصخرة حسب تخريجنا. وإليها ينسب حجر «بن بن» المقدس في مصر، كما يعني الحمراء أيضًا؛ لأن البوني هو الفوني أو الفينيقي التي تعني بدورها «أحمر»، كما يعني البلاد الخماسية.

وهنا نتابع البحث عما يمكن أن يدعم فرضنا. ويضيف إلى رصيد ما قدمنا من شواهد وقرائن، وبين رتل أكوام المادة العلمية التي جمعناها لعملنا هذا خلال السنوات السوالف، وجدنا في نص الفرعون مرنبتاح (لوح الانتصارات) أو (لوح إسرائيل)، ما يدعم فرضنا، فاللوح يذكر بلسان الفرعون أنه قد احتلَّ بلادًا باسم بلاد الحور، ووضعها تحت السيطرة المصرية، أو بنصه جعلها «أرملة لتوميري» (توميري هي مصر). وبمتابعة النص يمكنك أن تجد ما وجدناه، وأن تفهم من النص ما فهمناه. وهو أن بلاد الحور الواردة في لوح مرنبتاح، هي بالضبط بلاد الحوريين التي حددناها في شرقي سيناء حيث مديان/آدوم، وأن بلاد الحور تقع عند وادي عربة، وفي محيط خليج العقبة.

لدينا هنا إذن قرينة جديدة على صدق فروضنا، تتمثل في قصيدةٍ طويلة يعدد فيها الفرعون مرنبتاح بن رمسيس الثاني الذي حكم ١٢٢٤–١٢١٤ق.م. انتصاراته، كما يعدد أهم الشعوب التي انتصر عليها والبلاد التي أخضعها، ويعنينا من تلك القصيدة المطولة فقراتها الختامية التي يقول فيها الفرعون:

> يقول الملوك وهم ينطرحون أرضًا: السلام. ولم يعد أحد من الأقواس التسعة يرفع رأسه (الأقواس التسعة تعني بلاد البدو [المؤلف]) والتحنو (ليبيا [المؤلف]) قد خربت، وبلاد خاتي (دولة الحيثيين بالأناضول [المؤلف]) أصبحت مسالمة.
>
> وكنعان (القسم الشرقي من فلسطين [المؤلف]) قد أُسرت مع كل خبيث. وأزيلت عسقلان، وجازر (مدينة فلسطينية قرب الساحل [المؤلف]) قُبض عليها، وينوعام أو (ينو آم وهي مدينة مجهولة [المؤلف]) أصبحت لا شيء، وإسرائيل خربت وليس لها بذر، وحور أصبحت أرملة لتوميري.

الملك المظفر يعدِّد هنا الشعوب التي أخضعها. ملوك جميع البلاد يسجدون على الأرض يطلبون السلام من جلالته، وجميع البدو المحيطين بمصر لم يعد بإمكانهم أن يرفعوا رءوسهم، فقد تم دحر الليبيين الذين هاجموا مصر. وهو ما نعلمه من نصوص أخرى لذات الزمن والأحداث. ثم ينتقل النص بعد ذلك جغرافيًّا نحو الشرق إلى دول شرقي المتوسط، بادئًا ببلاد (خاتي/دولة الحيثيين) بتركيا القديمة في أقصى الشمال، ويؤكد أن الحيثيين قد أصبحوا مسالمين. ونحن نعلم أن ذلك حدث بعد موقعة قادش الكبرى على نهر العاصي، التي خاضها أبوه رمسيس الثاني ضد الحيثيين، وانتهت بترسيم حدود

الولايات بين المصريين والحيثيين، في معاهدة صلح عثر على نسختيها المصرية والحيثية. وقد عثر على النسختين كاملتين موثقتين في مصر وفي حاتوس عاصمة الحيثيين القديمة المعروفة موضعها الآن باسم بوغاز كوي.

ثم نلاحظ أن خط حملة النصر يهبط بنا من تركيا جنوبًا نحو كنعان، ثم يتخذ الفرعون طريق الساحل وهو لم يزَل ييمم جنوبًا، فيدمر على التوالي مدينة عسقلان ثم جازر إلى الجنوب منها، ثم ينحدر شرقًا ليهزم إسرائيل ومدنها، ويستمر في مسيرِه نحو الجنوب حتى يصل إلى مدينة باسم «ينوام». وقد عدت ينوام مدينة مجهولة طوال الوقت؛ لأنهم كانوا يبحثون عنها شمالًا، بينما نظن من جانبنا أنها مدينة كانت معلومة في ذلك الزمان، وأنها كانت تقع أقصى جنوبي فلسطين بالنقب على الحدود السينائية، حسب قراءتنا لخط سير حملة مرنبتاح وتفسيره. ونظننا قد عثرنا عليها مع تحديد موقعِها في نص بالكتاب المقدس، يعدد أسماء المدن المنتشرة جنوبي دولة يهوذا المتاخمة بحدودها الجنوبية لحدود سيناء وآدوم، فيقول: إن تلك المدن هي:

> ينوم وبيت تفوح وأفيقة وحمطة وقرية أربع وهي حبرون وصيعور. تسع مدن مع ضياعها.
>
> (يشوع، ١٥: ٥٤، ٥٣)

لقد كان تفسير خط سير الحملة يذهب بها إلى فلسطين الشمالية وبلاد الشام، ومع سيره المستمر يصل إلى بلاد باسم «حور» و«خارو»، تم افتراض أنها بلاد الحوريين الميتانية، المزعوم أنها تقع بين الفرات والخابور، حيث يفترض أن تقع «ينو عام»، ثم تمَّت إعادة النظر مرة أخرى حيث تضارب ذلك مع خط السير الواضح بلوح مرنبتاح، ومع معطياتٍ أخرى أسقطت ذلك الاتجاه الشمالي، وأخذت بخط السير من الشمال نحو الجنوب. وحينئذٍ أصبحت بلاد حور مشكلة تم الانتهاء منها بالقول: إن المصريين منذ زمن مرنبتاح والأسرة التاسعة عشرة، صاروا يطلقون على بلاد فلسطين اسم بلاد حور أو خارو أو حوري (؟!)، وهي آخر خط حملة الانتصارات ليعود إلى مصر بعدها. هذا بينما يوضح فرضنا التأسيسي أن بلادًا تقع جنوبي فلسطين، وجنوبي مدينة ينوم التي تقع جنوبي يهوذا، تحمل اسم بلاد مديان وآدوم، هي البلاد الحورية المقصودة في نص مرنبتاح. وإن فرضنا يجعل تفسير لوح مرنبتاح مستقيمًا ومقبولًا في حال بدئه من الشمال واتجاهه جنوبًا، ليتناغم لوح مرنبتاح مع منظومتنا تناغمًا واضحًا، ويتحول إلى

دليل وقرينة تضاف إلى رصيدنا؛ لأن البلاد الواقعة جنوبًا بعد ينوم ستكون خارج دائرة فلسطين، وليس بعدها جنوبًا سوى بلاد آدوم/آدوم الحورية. ولم يزل الوادي الواقع جنوبي وادي موسى عند البتراء، يحمل حتى اليوم اسم وادي حور. ويقول الفرعون في نهاية نصه حيث وصل نهاية حملته: «وحور أصبحت أرملة لتوميري.»

وهنا نتذكر شكل مساكن بلاد بونت الكهفية، ثم كهوف سالع البتراء المحفورة في الصخر، في تلك البلاد الحمراء، ثم نقف مع كلمة «حور» نبحث عنها في العبرية القاموسية، فنجدها تبلغنا شديد تأييدها لفروضنا، حيث تحمل الكلمة معنيين: الأول هو «أحمر». أما الثاني فهو «كهف»، فيما يسجل قاموس الكتاب المقدس. وهكذا حفظت لنا اللغة تحديدًا واضحًا للمكان، بل وصفة هذا المكان القديمة، فهم الجنس الأحمر الذي سكن الكهوف في بلاد آدوم.

ثم ندفع الآن بقرينةٍ أخرى أكثر وضوحًا وأشد قوة، تشهد على مدى توفيقنا فيما ذهبنا إليه، نأخذها بدورها من التاريخ المصري القديم، من زمن الفرعون شيشنق من الأسرة الثانية والعشرين، الذي حكم حوالي ٩٤٥–٩٢٤ق.م. ومعه نستعيد ذكريات تعيد أمجاد الفراعين العسكرية؛ فقد قام شيشنق الأول بحملةٍ كبرى على دويلات شرقي المتوسط، وضمن جدوله الكبير ... بالكرنك نجد ضالتنا؛ إذ يبدأ مقدمة الجدول بغارته الكبرى، التي شنَّها على ما أسماه الإقليم الآدومي.»[١] وهي المقدمة التي تقول إنه في الآن ذاته قد أخضع جيوش ميتاني، وهو الأمر الذي يعني أن الفرعون كان يتحدث، عن غارةٍ بعينها على موضعٍ واحد، اعتبره الموضع الأجدر بالتسجيل في مقدمة جدوله الكبير، وأن هذا الموضع كان «الإقليم الآدومي»، وأن هذا الإقليم تُعرف جيوشه باسم «جيوش ميتاني».[٢] وبعد ذلك يتابع حملاته نحو الشمال.

لكن المؤرخين لهذه المنطقة من العالم، وحسب تقديراتهم لتآريخ وتزمينات قيام وانهيار دول المنطقة، قد أكَّدوا أن بلاد «ميتاني» التي كانت تقع — في زعمهم — كمملكة بالفرات الأعلى، وقد بلغت قمة ازدهارها إبان القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وأن تلك المملكة قد زالت تمامًا من الوجود خلال القرن الرابع عشر في أحد التخمينات، أو أن

[١] جاردنر، مصر الفراعنة ... سبق ذكره، ص٣٦١.

[٢] وليم لانجر، موسوعة تاريخ العالم، مادة ميتاني، انظر النص في سليم حسن: مصر القديمة، ج٩، ص١٢٤–١٣١.

شلمناصر الأول الآشوري أزالها حوالي عام ١٢٧٥ق.م. أو اختفت على يد الآشوريين في ق ٩ق.م. حسبما يفيدنا طه باقر.[٣] وهكذا نجدنا إزاء لغز غريب، فمعنى ذلك أن شيشنق كان يتحدث عن غارةٍ على بلادٍ، زالت قبل زمنه بحوالي خمسة قرون كاملة، أو ثلاثة قرون أو بقرنٍ واحد (لاحظ مدى التضارب).

وكان الحل السهل والبسيط هو القول بأن شيشنق الأول، كان يفاخر كل هذا الفخر بضرب جيوش «ميتاني»، فخرًا كاذبًا من باب تضخيم حجم آلته العسكرية ومجده الملكي؛ حيث إن مملكة الميتاني حسب وضعها بين الفرات والخابور زمن شيشنق، قد زالت من الوجود، وحلت محلها الدولة الآشورية بالقطع واليقين. والمظنون لديهم أن الآشوريين قد ضمُّوها إلى مملكتهم الكبرى قبل زمن شيشنق بقرون، أو أن الحيثيين هم من قضوا عليها في قولٍ آخر. ويلخص لنا «فراس السواح» ما جاء بشأن «ميتاني» وشيشنق لدى المؤرخين في قوله: «نعترف بوجود نص واحد غامض هو سجل حملة الفرعون شيشنق الأول ٩٤٥–٩٤٢ق.م. ومعظمها (يقصد معظم البلاد التي ذكر أنه استولى عليها [المؤلف])، لم يمكن التعرف عليه إلا بشكلٍ تقريبي. يضاف إلى ذلك تناقض معلومات النص مع بعض الحقائق التاريخية؛ فمملكة «ميتاني» التي كان يتباهى الفرعون بإخضاعها، لم تكن قائمة في زمنه.»[٤]

وهكذا يوقفنا هذا التفسير دهِشِين من أمر فرعون عظيم وفاتح كبير، يفاخر أهل زمانه أنه قد أخضع دولة زالت قبل زمانه بزمان كان كفيلًا بنسيان «ميتاني» واسمها زمن شيشنق. ولا شك أن أهل زمانه إما كانوا لا يعرفون ما هي «ميتاني» أو كانوا يعرفونها، ويعلمون يقينًا أنها زالت من صفحة التاريخ منذ قرون. أما الأغرب فهو أن يفاخر الفرعون كاذبًا، وهو منتصر انتصارًا عظيمًا أعاد لمصر أمجاد فتوحات التحامسة والرعامسة. لكن لن تكون هناك أية غرابة لو كان فرضنا المؤسس لهذا العمل صحيحًا، ذلك الفرض الذي يقول إن بلاد «ميتاني» لم تقع دولتها المركزية على الفرات الأعلى، الذي نعرف أنه كان ذلك الوقت بلادًا آشورية بلا منازع، وتحت سيطرة آشور من فجر مطلعها، إنما كانت هي بالتحديد بلاد مديان الحورية الآدومية الواقعة في سيناء الشرقية ووادي عربة وسراة سعير، وأنها هي بلاد بونت (الصخرة/سالع/البتراء)، التي ظلت

---

[٣] طه باقر، الوجيز ... سبق ذكره، ص٤٩٥.

[٤] فراس السواح، الحدث التوراتي ... سبق ذكره، ص٧٣.

قائمة حتى زمن الرومان. ولم يكن شيشنق يفاخر كاذبًا، بل هاجم بلادًا كانت قائمة بالفعل في زمانه، هي بلاد آدوم نهارين، كما ذكر اسمها في مقدمة جدوله الكبير بالكرنك.

أليست تلك بقرينة مبينة؟ لكنا نعلم أننا نقول كلامًا جديدًا وشديد المخالفة، ولكل جديد دهشة، وما أكثر التقليديين الذين سيرفضون أمرنا هنا! لهذا يستحق فرضنا مزيدًا من البحث عن قرائن وبراهين تدعم خراسانته. وإعمالًا لذلك نتابع التنقيب في مدونات المنطقة القديمة؛ لنقرأ بين ما عثرنا عليه نصوصًا للملك الآشوري «تجلاتبليزر الأول»، فنجد بينها نصًّا يحدثنا عن فتوحاتٍ واسعة، قادها ذلك العاهل الكبير، حتى وصل إلى بلاد «نهارينا» وفتح إقليمًا باسم «مصرى» في ذات النص، وأنه في إقليم «مصري» هذا دحر القبائل الآرامية؟![5]

ومع الوضع المزعوم لبلاد «ميتاني» (نهارين أو نهارينا بالفرات الأعلى)، كان لا بد أن يقف المؤرخون جميعًا يتساءلون ذلك السؤال الغريب المستغرب، عن بلاد «مصرى» التي تقع بالفرات الأعلى. وهو ذات السؤال العجيب المستعجب الذي أورده المؤرخ طه باقر، وهو يقرأ لنا نصوص الملك الآشوري «تجلاتبليزر الأولى»، بينما كان الباحث فراس السواح يلخص لنا ما انتهى إليه علماء التاريخ بشأن إقليم مصري أو موصرى بقوله: «إن موصرى هي مملكة مجهولة حتى الآن.»[6]

وهكذا كان لاقتران إقليم «مصرى» مع بلاد «نهارينا» بفتوحات في الرافدين الأعلى، مدعاة لافتراض إقليم «مصرى» إقليمًا ميتانيًّا، أي أحد الأقاليم التابعة لبلاد «ميتاني» نهارينا، الواقعة زعمًا بين الفرات والخابور، لكنه الآن مجهول تمامًا مثله مثل «ميتاني»، ولا توجد عليه قرينة أركيولوجية واحدة. لكن إطلاقًا لم يكن إقليم «مصرى/موصرى» هذا وهمًا، ولا قراءة ملتبسة ننتظر صلاح الحال لنطقها الصحيح؛ لأنه تكرر في نصوصٍ رافدية أخرى، حدثتنا مرات عديدة وفي إشارات متباينة عن إقليم مصرى، ونتيجة التباين في الإشارات التي أحدثت التباسات في تحديده الجغرافي، فمرةً يمكن تفسير النصوص بأنه يقع في منطقة ما جنوبًا، ومرة شمالًا.

وإعمالًا لهذا اقترح الباحثون أحد موضعين لا ثالث لهما لإقليم مصرى، وما أبعدهما عن بعضهما: الموضع الأول في الفرات الأعلى، حيث الموضع المزعوم لبلاد (ميتاني/نهارينا).

---

[5] طه باقر، الوجيز ... سبق ذكره، ص٤٩٢.

[6] فراس السواح، الحدث التوراتي ... سبق ذكره، ص٩٨.

أما الموضع الثاني وهو الذي يعنينا بشدة، فهو احتمال وقوع إقليم مصرى — حسب قراءات أخرى لنصوص أخرى — في المنطقة المحيطة بخليج العقبة وبعض شبه جزيرة سيناء، ربما نصفها الشرقي كاملًا يقسمها وادي العريش العظيم.

وإطلاقًا لا يصح احتساب أن إقليم مصرى هذا، كان يعني مصر الدولة العظمى آنذاك؛ لسبب بسيط، وهو: أن نصوص العمارنة المصرية قد حدثتنا بدورها عن ذات الإقليم «مصرى» في صيغٍ متعددة، وإشارات تضعه في مكان ما شرقيَّ مصر. وتراوحت تنغيمات نطقه ما بين: مصرى، موصرى، موصر، مسري، مصر، مصارى، مشرى.[٧]

والمعلوم تاريخيًّا والمؤكد يقينًا أن المصريين أنفسهم لم يعرفوا بلادهم في ذلك الزمان باسم مصر، بعد أن ثبت أن تسمية مصر النيل باسم مصر تسمية متأخرة، فقد أطلق المصريون على بلادهم عدة أسماء، ليس من بينها اسم مصر. ومن تلك الأسماء المعلومة الآن بشكلٍ يقيني الاسم «كيمت KEM-T» أي الأرض السوداء BLAC LAND؛ ليقابلوا بها ما هو عكس واديهم الخصيب من صحراوات وجبال وقفار وبراري، أسموها دوشراتا أو «د. ش. رت»، التي تترجم إلى الأرض الحمراء RED-LAND؛ أي الصحارى.

ومن الأسماء الأخرى التي أحب المصريون إطلاقها على بلادهم: الاسم المعروف توميري أو «تء. م ر ى TA. MERE»، ونطقها الإغريق تيموريس؛ أي: أرض الحقل والفلاحة والحرث، أو الارض الخصيبة. وفي تاريخ مانيتون MANITHON المصري، الذي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد، نجد لمصر أسماء ثلاثة هي: آيريا AERIA ومسترايا MESTRAIA وباللاتينية آيجبتون AIGYBTON. والمعروف أن الاسم الأخير كان أكثرها انتشارًا، وأصبح الكلمة الدالة على مصر في كل اللغات ذات الأصول اللاتينية، وهو فيما يذهب جلة من الباحثين تحريف للاسم المصري الأصلي للكلمة وهو «حت. ك ء. ب ت ح»، أي بيت عز بتاح، أو بيت مجد الإله بتاح، وهو إله منف منذ أقدم العصور. إلا أن بعض المجتهدين رأى أن اسم «ايجبت» مأخوذ من كلمة «قبط»، التي أطلقها العرب على بلاد مصر، وأن السبب في إطلاق العرب على مصر هذا الاسم، هو أن عرب الجزيرة كانوا يعبرون من جزيرتهم البحر الأحمر إلى مصر، فينزلون أول ما ينزلون عند مدينة عامرة هي «قفط». ومعلوم أن حرفي «ف» و«ب» يتبادلان؛ لذلك تنطق «قبط» أيضًا.

---

[٧] عبد المجيد عابدين، لمحات من تاريخ الحياة الفكرية المصرية قبل الفتح العربي وبعده، مطبعة الشبكشي بالأزهر، القاهرة، ١٩٦٤م، ص٥.

لكنا هنا نضع احتمالًا ثالثًا يذهب إلى مدينة «جباتا» الواقعة عند خليج العقبة في بلاد آدوم القديمة، كمعبر أول على الطريق السينائي الذي يصب عند دلتا النيل، فتكون جباتا أول مدينة في طريق مصر السينائي، ويحتمل أنه قد اشتق منها «قبط» ثم «إيجبت» بحسبان عبور عرب الجزيرة للبحر الأحمر؛ للوصول إلى قفط في عمق الصعيد المصري، أمرًا مستبعدًا في ذلك الزمان.

ثم أخيرًا اشتهر من أسماء مصر الاسم «نيلوس NELOS»، الذي أطلقه على نهرها لأول مرة الكاتب اليوناني الملحمي «هزيود» في القرن الثامن قبل الميلاد. وتعود الكلمة إلى الأصل NEL بعد حذف التصريف الاسمي، والكلمة NEL تعود بدورها إلى الكلمة NEHL، التي هي في الساميات نهر NEHR ينطق فيها حرف الراء لامًا «نهر ← نهل» ثم أسقطت الهاء بالتخفيف فأصبحت «نيل NEL»، وأضيف إليها التصريف الاسمي اليوناني؛ لتنطق «نيلوس NELOS»، وهكذا فإن اسم النيل هو اسم سامي الأصل من الكلمة «نهر»، أُعيد تصديره عبر اليونان فأصبح نيل، ليدل زمنًا على مصر، ليقتصر بعد ذلك على نهرها العظيم. وقارئ الكتاب المقدس سيجده إطلاقًا لا يذكر نهر مصر باسم النيل إلا في أسفاره المتأخرة الخاتمة التي دونت بعد هزيود اليوناني، لكنه كان طوال أسفاره السابقة يطلق على نيل مصر فقط لفظة «النهر» غُفلًا من أي تسمية مميزة.

لكن لدينا رأي آخر يقول إن الاسم المتأخر الذي أطلق على مصر: «مصر» رغم وضوح تنغيمه السامي، إلا أنه يعود بدوره إلى أصلٍ مصري من اللفظ الهيروغليفي «مجر»، الذي يعني الحصن أو السور العظيم، أو الحد الفاصل بين دولتين أي الحدود الدولية.[٨]

وهنا نعود إلى الإقليم «مصرى/موصرى» نطرح الحل البسيط والسهل: إذا كان المؤرخون قد وضعوا لإقليمٍ مصري احتمالين جغرافيين، أحدهما يقع في بلاد آدوم وسيناء، وإذا كانت الكلمة المصرية «مجر» تعني الحدود الدولية، فلا شكَّ أن «مجر» أو «مصرى» لم تكن تعني مصر بلاد النيل، إنما تعني منطقة حدود مصر الدولية، أي إنها كانت بلاد آدوم بالتحديد والتدقيق المبين، ويكون العاهل الآشوري «تجلاتبليزر الأول» قد هاجم بلاد آدوم، عندما قال إنه هاجم بلاد موصرى. ولأنه كان يتحدث عن إقليم موصرى، ضمن هجوم أشمل على بلاد نهارينا، فإن بلاد نهارينا المقصودة لن تكون بالفرات الأعلى

---

[٨] عبد الحميد زايد، أسماء مصر، مجلة كلية التربية، جامعة الكويت، العدد ٢، ١٩٧٢م، ص٣٣.

إنما بلاد آدوم. وتصبح الألفاظ الواردة بنصوص تل العمارنة بمصر عن «مشرى، مصر، موصرى، مسرى ... إلخ» تشير إلى حدود مصر الدولية عند بلاد آدوم التي حملت اسم «مصر»، قبل أن تحمله مصر المعروفة الآن. فهي الحد الفاصل بين مصر وبين بادية الشام والبوادي العربية، وهي سور عظيم فعلًا؛ لأنها سلسلة جبال منيعة طبيعيًّا. وهو الأمر الذي يفسر لنا لماذا لم يضع المصريون على لفظة بلاد بونت العلامة الهيروغليفية الدالة على البلاد الأجنبية. وفيما سلف عرضنا فرضنا في أن بلاد بونت هي الاسم المصري الأشهر لبلاد آدوم المديانية، وهو ما يوعز أن المصريين كانوا يعتبرون بلاد «آدوم/بونت» حدًّا شرقيًّا فاصلًا للحدود المصرية مع البلاد الأجنبية.

وهناك تفاسير أخرى لاسم بونت تناسب هذا المقام أوردها «عبد المنعم عبد الحليم»، لكن دون أن يقصد مقصدنا، فهي ربما تكون الباب، وهو ما يشير إلى الحدود الدولية، بدوره في معنى الباب أو الحد الدولي. وفسرها آخرون بأنها تعني الحصن،[٩] وهو ما لا يخرج بدوره عن المعنى الذي طرحناه، فالحصون تكون عادةً على الحدود.

وإن كان التاريخ يشي دومًا باستقلالٍ واضح لتلك البلاد، عن الوطن الأم في فتراتٍ تاريخية متعددة، وأن وجهة نظر المصريين لم تفرض على بلاد آدوم الأمر الواقع بالتبعية، وهو ما كان يستدعي حملات تأديب مصرية متتابعة، يتم تجريدها على سيناء وآدوم، كلما ارتكبت آدوم ما يعتبره الفرعون بحاجةٍ للتأديب والتهذيب. وعليه فإن لفظة مصر بدأ إطلاقها على بلاد آدوم جميعًا من جانب سكان المتوسط الشرقي ولسانهم السامي، الذي غلب على المنطقة بعد ذلك، بينما ظلَّ لفظ «قبط» ثابتًا في اللسان اللاتيني «إيجبت».

وتضيف اللغة مزيدًا من القرائن لنظريتنا التأسيسية؛ لأن الكلمة «مجر» المصرية القديمة المنطوقة في اللسان السامي «مصر»، على اختلاف تنغيماته «مشر، مشارى، مصر، مسرى، مصرى، موسير ... إلخ»، تعني دومًا في الساميات معنًى واحدًا هو: «الحمراء». ونتذكر ما سلف بيانه أن بلاد آدوم وصفت بأنها بلاد حمراء، وأن عيسو آدوم سمي كذلك؛ لأنه كان أحمر اللون، حسبما ورد بالكتاب المقدس. لقد كانت مصر هي بلاد سيناء، في امتدادها حتى آدوم، في زمن كانت فيه مصر المعروفة تحمل أسماء أخرى معلومة هي: كيمت، توميري، آيريا، مسترايا، نيلوس، ولم تكن حمراء بل سوداء.

[٩] عبد المنعم عبد الحليم، موجز رسالتيه ... سبق ذكره، ص١٩.

وإن كنَّا اليوم لا نجد في بلاد آدوم علمًا يحمل اسم مصر، فقد حملت واحدة من مدنها اسم «جباتا» ومنه «قبط»، ثم إن الكتاب المقدس يورد لنا اسمًا قديمًا علمًا في بلاد آدوم؛ إذ يحكي قصة موت هارون شقيق موسى ودفنه على حدود آدوم السينائية، يقول النص:

مات هارون ودفن في جبل موسير.

(تثنية، ١٠: ٦)

و«موسير» تلوين لهجوي آخر لاسم مصر. أما أن يطلق الرافديون على بلاد «ميتاني» اسم بلاد النايري أو نهارينا. ويطلق المصريون عليها اسم «ن هـ ر ي ن NHRN»، ويعطون الفرد من الشعب الحوري صفة «ن هـ ر ي NHRY»، نسبة إلى «ن هـ ر ي ن» بمعنى «رجل من بلاد ن هـ ر»، والتي خففت فيها الهاء في النطق الآشوري، فلفظت «ن ي ر ي/نايري». فهو ما أدى إلى التباساتٍ وغموض في أبحاث الباحثين، خاصة أن اللفظ يشير إلى نهر أكدوا أنه الفرات الأعلى. فإننا من جانبنا نرى اللفظ يشير إلى نهرٍ آخر — إذا كان يعني النهر فعلًا — وهو ما عثرنا عليه في تعبير التوراة عن قادش سيناء على حدود آدوم الغربية: «قادش النهر». وهو التعبير الذي يتطابق معناه مع جغرافية وادي العريش، الذي يتحول في الشتاء إلى نهرٍ عاصف جبار أطلقت عليه التوراة اسم «نهر مصر» (تكوين، ١٥: ١٨). وأكدت أنه كان في محيط هذا النهر كان يعيش الحدادون النحاسون، أو كما أسمتهم التوراة القينيين في (سفر التكوين، ١٥: ١٩). ثم يلتقي الاسم نايري من جانب آخر إضافة للنهر مع النار. ومعلومٌ أن بلاد آدوم التي حملت اسم سعير كانت بلادًا للسعير والنار، حيث تفصح الأرض هناك عن نشاط بركاني عظيم قد خمد الآن. ولا ننسى الحمراء صفة تلك البلاد، وشجرة النايري الحمراء التي اشتهروا بها، حتى أسمتهم العربية «شعب الأيكة»، أو شعب الشجرة.

ميتاني ومدياني

حتى زمن ظهور الدعوة الإسلامية في بلاد الحجاز، كان محيط خليج العقبة جميعًا يحمل اسم بلاد مديان أو مدين. ويقول «ابن هشام» في السيرة النبوية: إن النبي محمد ﷺ قد أرسل مولاه زيد بن حارثة في سريةٍ مقاتلة مفاجئة على بلادٍ باسم مدين فيما

نصه: «إن رسول الله ﷺ بعث زيدًا بن حارثة نحو مدين، فأصاب سبيًا من أهالي «ميناء» وهي السواحل، وفيها جماع من الناس.»[١٠]

ورغم أن التوراة قد اصطلحت على تسمية تلك المنطقة ببلاد «عيسو/آدوم»، إلا أن هناك إشارات أخرى عديدة بها، تؤكد أنها قد عرفت ذات الموضع باسم بلاد مديان، نسبة إلى قبيلة كبرى قطنت هناك بهذا الاسم. فنجد في (سفر إرميا، ٢٥: ٢٠) أن بلاد مديان تقع بين مصر وفلسطين (أي شبه جزيرة سيناء). وفي ذات السفر يذكر النبي إرميا بلاد مديان، بحسبانها تقع في طريق المسافر من مصر إلى بابل، بل وبموضعها في بلاد آدوم (إرميا، ٤٦: ١). وهو الموضع الذي افترضناه موضعًا لبلاد بونت، التي عرفت في سجلات المنطقة التاريخية باسم بلاد «ميتاني/نهارين، الحور». وهو ما يجد له صدًى بالكتاب المقدس، الذي أكد لنا أن سكان النصف الشرقي لسيناء، قد حمل بعضهم اسم المديانيين؛ ولذلك كانت تطلق على تلك البلاد مجموعة مسميات على التبادل: مديان نسبة لقبائل مديان/ سعير نسبة لجبال سراة سعير/ وهي الحدود التي سميت موصرى/ آدوم نسبة للآدوميين الأوائل/ بلاد الحور، وهو الاسم الثاني للآدوميين/ سالع بالعبرية أي الصخرة، وهو اسم العاصمة/ بترا اليونانية، ويعني الصخرة أيضًا/ بونت أي الخماسية باليونانية.

ولمزيدٍ من تدقيق موقع مديان فيما ورد بالكتاب المقدس، نقرأ قصة صراع الملك الإسرائيلي سليمان ومن قبله أبيه داود مع دولة آدوم الجنوبية. وهو الصراع الذي أدى إلى فرار الوريث الملكي الآدومي، بعد هزيمة بلاده إلى مصر. وفي مصر عاش عيشة الأمراء في البلاط الملكي، بل وتزوج أميرة فرعونية، ثم ساعده بعد ذلك الفرعون في استعادة عرشه. وتقول القصة:

> وأقام الرب خصمًا لسليمان هدد الآدومي، كان من نسل الملك في آدوم. وحدث لما كان داود في آدوم عند صعود يوآب رئيس الجيش لدفن القتلى، وضرب كل ذكر في آدوم؛ لأن يوآب وكل إسرائيل أقاموا هناك ستة أشهر، حتى أفنوا كل ذكر في آدوم. إن هدد هرب هو ورجال آدوميون من عبيد أبيه معه؛ ليأتوا مصر. وكان هدد غلامًا صغيرًا، وقاموا من مديان وأتوا إلى فاران. وأخذوا معهم رجالًا

---

[١٠] السهيلي، الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، دار المعرفة، بيروت، في ١٩٧٨م، ج٤، ص٢٤٤.

> من فاران، وأتوا إلى مصر إلى فرعون ملك مصر، فأعطاه بيتًا وعيَّن له طعامًا وأعطاه أرضًا. فوجد هدد نعمة في عيني فرعون جدًّا وزوجه أخت امرأته، أخت تحفنيس الملكة، فولدت له أخت تحفنيس جنوبث ابنه، وفطمته تحفنيس في وسط بيت فرعون. وكان جنوبث في بيت فرعون بين بني فرعون. فسمع هدد في مصر بأن داود قد اضطجع مع آبائه (أي مات [المؤلف])، وبأن يوآب رئيس الجيش قد مات، فقال هدد لفرعون: أطلقني إلى أرضي.
>
> (ملوك أول، ١١: ١٤–٢١)

وهذا إنما يعني أن منطلق الرحلة كان من مديان «وقاموا من مديان»، وأن مملكة هدد الآدومي كانت هي مملكة مديان. وخط هروب الوريث الآدومي يحدد لنا بدقة أين تقع مديان، فالنص يقول: «وقاموا من مديان وأتوا إلى فاران». وبالبحث سبق ووجدنا برية باسم «باران» قائمة باسمها حتى الآن، تقع إلى الغرب مباشرة من بلاد آدوم، التي حددنا موقعها بين خليج العقبة والبحر الميت. و«باران» بالضبط هي «فاران»، فحرف الباء والفاء يتبادلان. ثم إن «باران» أو «فاران» محطة واضحة على خريطة سيناء، للمتَّجِه غربًا من آدوم نحو مصر. وإذا كان هدد الملك الآدومي قد أخذ معه رجالًا من فاران كأتباعٍ له، فهو ما يعني أن سلطان آدوم كان يصل تقريبًا إلى «نهر مصر» وادي العريش الآن. إن النص يؤكد بلا لَبْس أن بلاد آدوم هي التي حملت أيضًا الاسم التاريخ مديان اسم كبرى القبائل الآدومية.

ثم لمزيدٍ من التأكيد نتابع البحث في نصوص الكتاب المقدَّس، فنقرأ قصة هروب النبي موسى من مصر، بعد قتله المصري ظلمًا وعتوًّا إلى بلاد باسم مديان، وأنه عاش هناك زمنًا هاربًا من قوانين العدل المصرية، وتزوج هناك من صفورة بنت كاهن مديان، الذي كان يحمل اسمين يردان في المقدس التوراتي على التبادل هما: رعوئيل، ويثرون. ويحدد لنا المؤرخ «فيليب حتى» الموقع الجغرافي لتلك البلاد التي فرَّ إليها موسى بأنها:

> مدين التي تضم جنوبي سيناء، والأرض الواقعة إلى الشرق منها. واتخذ موسى لنفسه امرأة غريبة، وهي ابنة كاهن مدين، وأبوها مؤمن بديانة يهوه، فتعلم منه موسى أسرار العبادة الجديدة.[١١]

---

[١١] فيليب حتى، تاريخ العرب، دار الكشاف، بيروت، ١٩٦٥م، ج١، ص٥١.

ومن جانبهم يفترض المؤرخون الإسلاميون أن «يثرون» هذا هو الذي ورد في القرآن باسمِ شعيب صاحب شعب الأيكة. والأيكة هي الشجرة الضخمة المعمرة أو الغابة، والأيك هو «العيك» بتبادل الهمزة مع العين في «الساميات». وهو ما يذكرنا بأتيكا أو عتيقة، التي وردت في نصوص مصر بحسبانها موقعًا في بلاد آدوم، كما أسلفنا.

ويقول أصحاب قصص الأنبياء عن مدين:

> مدين: قيل اسم البلد. وقيل إنه اسم القبيلة؛ بسبب أنهم أولاد مدين ابن إبراهيم. وشعيب قد اختلف في نسبه، وكان أهل مدين قومًا عربًا يسكنون مدينتهم مدين القريبة من أرض معان من أطراف الشام (لنتذكر أنها معان مصران أو معان المصرية على التخوم الشرقية الجنوبية لآدوم [المؤلف]) وكانوا بعدهم بمدةٍ قريبة. وكانوا كفارًا يقطعون السبيل، ويخيفون المارة ويعبدون الأيكة، وهي شكرة من الأيك حولها غيضة ملتفَّة بها، وكانوا من أسوأ الناس معاملة، يبخسون المكيال ويطفِّفون فيها.[١٢]

وكلام المأثور الإسلامي هنا عن المكيال والميزان، يعبر بوضوحٍ عن صدق فروضنا، التي قلنا فيها إن سكان تلك المنطقة كانوا من طبقة من التجار العسكريين، تمركزوا على عصب طريق قوافل تجارة العالم، في هذه المنطقة الحساسة من العالم المعروف آنذاك.

ويقص علينا الكتاب المقدس في «سفر الخروج»، أن النبي موسى عندما خرج من مصر مع أتباعه، ميممًا نحو فلسطين عبر سيناء، اتجه من فوره إلى بلاد مديان، التي سبق وعاش فيها، عندما هرب من جريمة قتله المصري، وارتبط بأهلها بأواصر النسب والسنين، حيث التقى هناك بحماه «يثرون/رعوئيل»، واتخذ من شقيق زوجته حباب المدياني دليلًا له في دروب سيناء الشرقية. إلا أن هذا الود لم يبقَ على حاله الصافي، فلم تلبث التناقضات أن ظهرت بين الفريقين؛ فريق موسى وأتباعه الخارجين من مصر، وفريق المديانيين، لتتصاعد تلك التناقُضات إلى صراعٍ دموي، انتهى بأمرٍ إلهي جاء في النص التوراتي يقول:

> وكلم الرب موسى قائلًا: انتقم نقمة لبني إسرائيل من مديان، فتجندوا على مديان كما أمرهم الرب، واقتلوا كل ذكر، وملوك مديان اقتلوهم فوق

[١٢] محمد الفقي، قصص الأنبياء والمرسلين، أحداثها وعبرها، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٧٩م، ص١١٩–١٢١.

قتلاهم: آوى وراقم وصور وحور ورابع، خمسة ملوك مديان، وأحرقوا جميع مدنهم ومساكنهم وجميع حصونهم بالنار وأتوا إلى المحلة إلى عربات موآب.

(عدد، ٣١: ١٢، ١٠، ٨، ٧، ٢، ١)

النص هنا يعطينا مزيدًا من التأكيد لموقع بلاد مديان، حيث دارت الموقعة العسكرية بين الإسرائيليين والمديانيين، فهو إلى الجوار من «عربات موآب» أي الجزء القريب من دولة موآب من وادي عربة. كما يوضح لنا أن منطقة آدوم المديانية كانت تتقاسمها خمسة ممالك متحدة (بنط بوليس = البلد الخماسية)، وبين أسماء ملوك تلك الممالك، يحتفظ لنا المقدس باسم الملك المدياني «حور»، الذي لم يزل اسمه علمًا هناك حتى اليوم على وادي حور، في محيط البتراء الجنوبي. وفي موضعٍ آخر بالكتاب المقدس، نجد حديثًا عن إبراهيم الخليل وابن أخيه لوط، وحديث عن خمس مدائن كبرى تقع في بلاد آدوم، جاءت أسماؤها على الترتيب، بأسماء ملوكها، في زمن أقدم من زمن موسى كالآتي:

با – رع ملك سدوم، وبر – شاع ملك عمورة، وشن – آب ملك آدمة، وشم – إير ملك صبوييم، وملك بالع التي هي صوغر.

(تكوين، ١٤: ٢)

وواضحٌ في تلك الأسماء النغمات المصرية «با – رع»، والنغمات السامية العربية «شم – إير» الذي هو «شمر». وما زالت قبائل عربية كبيرة تحمل هذا الاسم حتى الآن في تلك المناطق تحديدًا (الشمريين)، إضافة إلى العموريين أو الأموريين (ولدينا في التوراة مدينة عمورة في بلاد آدوم) والآدوميين أدمة بالتوراة. وبمقارنتنا للوديان المنزرعة التي تتخلل المنطقة الصخرية لبلاد آدوم، والتي تصلح لقيام دول مدن بها، سنجدها الآن وديانًا خمسةً تلتقي مع المدن الخمس، التي أوردها الكتاب المقدس. وهي بأسمائها الحالية: وادي موسى، ووادي جلواخ، ووادي الصدر، ووادي المقر، ووادي الزرابة، وهي بالتحديد المبين كل وديان المنطقة دون زيادة أو نقصان، وديان خمسة تطابق مدنًا خمسة، وهي التي أطلق عليها المؤرخون القدامى مثل هروشيوش «بونتابوليس» (بنط – بوليس) أي البلاد الخماسية.

ولمزيدٍ من التعرف على مديان ومدى مطابقتها لبلاد آدوم، نقرأ في موقعٍ آخر بالكتاب المقدس زمن القضاة ما بين الخروج وبين قيام مملكة داود، عن استمرارٍ الصراع بين

الإسرائيليين والمديانيين، وأن الكفة مالت لصالح المديانيين، حتى أخضعوا الإسرائيليين سبع سنوات، وهو ما يعبر عنه نص المقدس بقوله:

> وعمل بنو إسرائيل الشر في عيني الرب، فدفعهم الرب ليد مديان سبع سنين، فاعتزت يد مديان على إسرائيل، بسبب المديانيين عمل بنو إسرائيل لأنفسهم الكهوف التي في الجبال، والمغاوير والحصون. وإذا زرع إسرائيل كان يصعد المديانيون والعمالقة وبنو المشرق، يصعدون عليهم وينزلون عليهم، ويتلفون غلة الأرض إلى مجيئك إلى غزة، ولا يتركون لإسرائيل قوت الحياة، ولا غنمًا ولا بقرًا ولا حميرًا؛ لأنهم كانوا يصعدون بمواشيهم وخيامهم، ويجيئون كالجراد في الكثرة، وليس لهم ولجمالهم عدد، ودخلوا الأرض لكي يخربوها.

ويفهم من النص أن المديانيين كانوا يشكلون حلفًا قويًّا مع العمالقة، والعمالقة شعب مجهول إلى حدٍّ بعيد. لكن شجرة الأنساب التوراتية تعيد العمالقة إلى أبٍ أسطوري بعيد اسمه «عماليق»، وتقول: إن عماليق هذا من نسب آدومي، فهو حفيد عيسو آدوم، الجد الأسطوري البعيد لشعب آدوم» (انظر: سفر التكوين، ٣٦: ١٢). وهو ما يفسر لنا وجود العماليق في بلاد آدوم.

وفي التوراة نصوص عديدة يُفهم منها أن العمالقة أو العماليق كانوا ينتشرون في سيناء وآدوم، والنقب، والمناطق الجنوبية من فلسطين. أما بنو المشرق فهو اصطلاحٌ معلوم بالكتاب المقدس، يشير إلى القبائل الآرامية. والنص السالف يشير إلى كثرة عددية هائلة في جيوش هذا الحلف «كالجراد في الكثرة»، لكنه يشير إلى أن المديانيين قد دفعوا الإسرائيليين لحفر الكهوف التي في الجبال. وهو كلام ملتبس؛ إذ يبدو لنا أن كاتب هذا الجزء من التوراة، كان قد عرف مساكن بونت آدوم الكهفية المحفورة في الصخور، ورأى عظمتها وعاينها، فنسب فعلها إلى الإسرائيليين. وهو دأب توراتي يعلمه المعتاد على التعامل مع الكتاب المقدس، حيث يحاول المحرر التوراتي دومًا أن ينسب الأعمال الكبرى لبني إسرائيل.

ومن إشاراتٍ أخرى بالكتاب المقدس، نفهم أن هؤلاء المديانيين قد عرفهم الناس كصُنَّاع مَهَرة للمعادن، فهم قينيون حسبما أطلق عليهم المقدس، أي حدادون. وكان الحداد في ذلك الزمن هو مؤسسة المصانع الحربية. ويقول لنا قاموس الكتاب المقدس تحت مادة قيني:

> قينيون: اسم سامي معناه حداد، والقين باللغة العربية معناه الحداد، وبنو القين قبيلة من قبائل العرب والنسبة إليها قيني. ومن (سفر التكوين، ١٥: ١٩)

نرى أن القينيين كانوا أمة مجاورة للقدمونيين والقنزيين الساكنين في آدوم، وقد تطلع بلعام من مرتفعات بعل موآب، فرأى القينين وشبه موضعهم بالعش في صخرة (سفر العدد ٢٢: ٤١ و٢٤: ٢١، ٢٢) ليكن مسكنك متينًا، وعشك موضوعًا في صخرة.

وهنا نتذكر أن بيوت بلاد بونت قد صُوِّرت كأعشاش النحل في الصخور، وأنها ذات عين مساكن الحوريين في بلاد آدوم. وسفر القضاة يقدم لنا تقريرًا واضحًا، يؤكِّد أن القينيين هم ذات المديانيين، وأن القيني صفة للمدياني، وذلك في قوله: وبنو القيني حمو موسى (قضاة، ١: ١٦)، ونحن نعلم أن حمى موسى «يثرون/رعوئيل»، كان مديانيًّا.

وللمزيد من التأكد من القينيين، وأنهم كانوا ذات عين المديانيين حلفاء العمالقة وبني المشرق، نرحل إلى زمن أول ملوك إسرائيل المعروف باسم شاول، عندما قام بحملةٍ عسكرية على عاصمة العماليق. وطلب من القينيين أن يفكُّوا حلفهم مع العمالقة؛ كي لا يبيدهم معهم، وأن يهجروا مواطنهم التي سكنوها معهم، أو بالنص:

> اذهبوا وحيدوا وانزلوا من وسط العمالقة؛ لئلا أهلككم معهم، وأنتم قد فعلتم معروفًا مع جميع بني إسرائيل عند صعودهم من مصر، فحاد القيني من وسط عماليق.
>
> (سفر صموئيل أول، ١٥: ٦)

وهو ما يعني أن القيني كان هو المدياني حليف العمالقة وبني المشرق. وعلى مستوى علم التاريخ يحيطنا المؤرخ سليم حسن علمًا بقوله: «نعلم من الفخار الذي جمعه جلويك من مناجم النحاس في عرابة أنه كانت تقوم هناك أعمال عظيمة في عصر الحديد المبكر، بيدَ أنه لا يمكن تحديد تاريخ بعينه لذلك. ولما كان إقليم مدين الواقع في الجنوب والجنوب الشرقي في العقبة أغنى بكثيرٍ في النحاس؛ فإنه لا يبعد أن يكون أهل موسى قد بدءُوا تثميرها، وبخاصة أنه كان بالقرب منهم عملاء ممتازون. ولشراء هذا المعدن، وأعني بذلك «مصر» وكنعان وكانت عشيرة مدين فضلًا عن ذلك تُنعَت بلفظة القينيين أي النحاسين.»[١٣] ومن جانبه يحيطنا الكتاب المقدس علمًا أن القيني هو ذلك الصانع الضارب

[١٣] سليم حسن، مصر القديمة، سبق ذكره، ج٧، ص١٣١، ١٣٢.

على آلات الحديد والنحاس بتعبير (سفر التكوين، ٤: ٢٢). وكان «نيلسون جلويك» الذي أشار إليه سليم حسن من هنيهة، قد اكتشف عام ١٩٣٧م منجم نحاس هائلًا محفورًا في الصخر في جنوبي وادي عربة، لكنه ذهب إلى أنه كان منجمًا للملك سليمان. كما اكتشف جلويك في وقتٍ سابق أنقاض ميناء بلاد آدوم على خليج العقبة، واحتسبه ميناء عصيون جابر الوارد بالتوراة، كميناء لآدوم على خليج العقبة، وذلك تحت طبقة من الرماد على مساحةٍ واسعة من الأرض محاطة بسورٍ حصين، وبداخلها مجموعات ضخمة من أفران صهر النحاس.[١٤]

ومن جانبٍ آخر عثر علماء الدولة الإسرائيلية أثناء وقوع سيناء المصرية تحت الاحتلال بعد هزيمة ١٩٦٧م، على بقايا ميناء في جزيرة فرعون المصرية المقابلة لميناء إيلات. فذهبوا إلى أن هناك كان موقع ميناء عصيون جابر، الذي استخدمه الملك سليمان قاعدة لأسطوله إبَّان توسعه على حساب آدوم.

وبعد تحرير سيناء توجهت بعثة من المجلس الأعلى للآثار المصرية؛ للتحقُّق من صدق ما وصل إليه علماء إسرائيل، حيث عثروا على تحصيناتٍ حربية ترجع إلى عهد صلاح الدين الأيوبي. كما عثروا على فرنٍ يُستخدَم في إسالة المعادن بغرض التصنيع الحربي، مبني من الطوب الحراري، إضافة إلى بعض أبراج المراقبة وخزانات المياه، وأبراج حمام زاجل كانت تستخدم في عمليات الاتصال العسكري والمراسلة. وعندئذٍ صرح المشرف على البعثة المصرية، أن أهمية كشف تلك المنشآت التي تعود لزمن صلاح الدين الأيوبي، تكمن في دحضه لمزاعم الآثاريين الإسرائيليين. وكان الإسرائيليون قد عثروا على بقايا معدن الحديد المنصهر. ولما كان عصر الحديد في المنطقة قد تم تزمين بدايته بحوالي عام ١٠٠٠ق.م. فقد تم ربط المكتشفات بزمن سليمان الذي حكم حوالي ذلك الزمن. لكن رئيس البعثة المصرية نفى أن يكون لهذا الحديد علاقة بزمن سليمان، إنما يعود إلى فترة حكم الأيوبيين.

(انظر شكل رقم «٧١».)

وقد عقب على الأمر الباحث أحمد عثمان بقوله: «إن رئيس البعثة المصرية وجد أن أفضل الطرق لدحض المزاعم الإسرائيلية، بخصوص تبعية عصيون جابر للملك سليمان،

[١٤] كاسيدوفسكي، الواقع والأسطورة … سبق ذكره، ص٢٣٠.

شكل رقم «٧١»: قلعة صلاح الدين بجزيرة فرعون.

أن ينفي وجود هذا الميناء كليًّا، خلال ثلاثين قرنًا من الزمان، ويرجع نشأته إلى عصر صلاح الدين الأيوبي في الأزمنة الحديثة. وقد أظهرت الحفريات الأثرية التي تمت في أواخر الستينات (يقصد الحفريات الإسرائيلية) أن أقوام سيناء المديانية المصرية كانت أول من قام ببناء هذا الميناء، في العصور القديمة في جزيرة فرعون الواقعة في خليج العقبة، على بعد ١٢كم جنوبي ميناء إيلات الحالي، قبل زمن سليمان في القرن العاشر ق.م. بخمسة قرون. بل تبين وجود علاقة قوية بين جزيرة فرعون وميناء عصيون جابر، وبين مواقع المناجم في وادي عربة الممتد جنوب فلسطين إلى البحر الميت. وعند وادي «متانية/تمنا» على بعد عشرين كيلو مترًا شمال إيلات، عثر الأثريون على بقايا أدوات صهر النحاس وتشكيله، ترجع إلى عهد الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة ... وتم الكشف عن معبدٍ وسط تلك المناجم لمعبودة سيناء حات حور.»[١٥]

وإذا كنا من جانبنا نزعم أن بلاد بونت التي أوفدت إليها الفرعونة حتشبسوت بعثتها هي ذات بلاد آدوم عند العقبة، فإننا لم نجد في نصوص حتشبسوت أي ذكر لا

---

[١٥] أحمد عثمان، صحيفة الحياة، العدد الصادر في ١٨/ ١٠/ ٩٦، ص١٢.

للحديد ولا للنحاس في منتجات بونت. لكن ما لا يصح التغافل عنه ذلك النص الذي تقول فيه الفرعونة: «لقد منحتهم الذهب، فتلقيت منهم الذهب الأخضر من بلاد الأمو». وإذا أخذنا العبارة بظاهرها، فلن يكون مفهومًا أن تهدي الفرعونة ذهبًا لتتلقى ذهبًا، خاصةً وأن مصر كانت غنية بالذهب، الذي يأتي من مناجم النوبة بوفرةٍ عظيمة؛ إلا أن الكلمة الإلحاقية التوضيحية بالنص «الذهب الأخضر»، تعطينا معنًى يطابق النحاس والحديد مطابقة مدهشة، فكلاهما يأخذ اللون الأخضر مع التأكسد، وأن يُقال عن تلك المعادن إنها نوع من الذهب. فلكون الحديد ثم النحاس الممزوج بالقصدير الذي يُعطي سبيكة البرونز، كان فاتحة عصر جديد في أساليب الحروب وأسلحتها، فكان أثمن من الذهب في ذلك الزمن.

أما الإشارة في نصوص حتشبسوت إلى أن تلك البلاد، التي كانت تصنع هذا الذهب الأخضر في بلاد بونت هي بلاد الآمو؛ فهو باب آخر يفتحه النص أمام بحثنا هنا؛ لأن كلمة آمو أو عامو هي الاصطلاح المصري المعلوم الذي أطلقه المصريون على غزاة بلادهم باسم الهكسوس، الذين احتلوا مصر في زمنٍ سابق حوالي ١٧٨٨–١٥٧٥ق.م. وهو الأمر الذي سنُتِمُّ معالجته تفصيلًا مع السير في العمل بهذا البحث. لكن ما نوضحه هنا في إشارة سريعة، هو أن بلاد بونت وفق هذا المعنى التي هي بلاد العامو كانت موطنًا للهكسوس. وإذا كان الهكسوس العامو حسب نص حتشبسوت هم سكان بلاد بونت، فمن المستحيل أن تقع بونت في الصومال أو أثيوبيا أو سواحل اليمن، إنما يجب أن تقع في الشرق من حيث جاء الهكسوس. هذا ناهيك عن كون كثير من المدارس، يرجح أن يكون الهكسوس من شعبٍ قديم عُرف باسم العمالقة. وهنا نتذكر فورًا نص الكتاب المقدس السالف الذي أحاطنا علمًا، في قصة حملة الملك الإسرائيلي شاول على العمالقة، بأن المديانيين أو القينيين كانوا يعيشون مع العمالقة بذات المواضع الجغرافية.

وكما سلف في النص المذكور يأمر النبي موسى بقتل ملوك مديان وبينهم ملك باسم «رابع»، وفي موضعٍ آخر بالكتاب المقدس نعلم أن اسم «رابع» هذا اسم كنعاني يعني العدد أربعة، وذكر في مواضع أخرى باسم «أربع» صريحة، مع وصفه بأنه كان أعظم ملوك العماليق. وهنا نتساءل: هل كان رابح ملك بلاد بونت في لوحات حتشبسوت هو رابع هذا؟ كان رابع فيما يبدو اسمًا متواترًا لملوك مديان منذ بارح أو رباح أو رابح في نصوص حتشبسوت، وأنه كان أيضًا بارح أو رابح في زمن آمنحتب الثاني، الذي كان

يحلو له — كما أسلفنا — التحدث باحتقارٍ عن رابح وقوم نخسى! والمقدس التوراتي يذكر للعماليق اسمًا آخر يأتي على التبادل مع «عمالقة»، هو الاسم «عناقين» و«بني عناق». وقد سميت مدينة الخليل باسم كنعاني هو «أربع» زعيم العمالقة، قبل أن يتغير اسمها إلى حبرون ثم إلى الخليل انظر: (سفر يشوع، ١٤: ١٥، و١٥: ١٣). وهو ما يؤكد صدق تحديدنا للمواطن التي اخترناها للمديانايين والعمالقة.

وقد سبق وأشرنا إلى أن لوحات بونت في معبد الدير البحري، قد أشارت إلى اسمين لموضعين أو لمدينتين، يعطيان رؤيتنا هنا مزيدًا من الدعم والتأييد. الاسم الأول هو «أو سالعت» أو «أوزلت». ويذهب الباحث عبد المنعم عبد الحليم إلى موضعتها عند ميناء «زيلع» الحالي بجنوبي الصومال، حسب رأيه في وقوع بنط على شواطئ الصومال بأفريقيا.[١٦] بينما نجد «أو سالعت» من وجهة نظرنا تحيل فورًا إلى اسم «سالع» عاصمة آدوم، وليس إلى «زيلع» على ساحل الصومال.

أما الاسم الثاني فهو يبدو كما لو كان وصفًا للمكان الذي التقى فيه مصريو بعثة حتشبسوت بالبونتيين، بميناء علي سواحل بلاد بونت، والصيغة كما جاءت هي «حرجسوى واج ور»، وتعني أن المقابلة قد تمت على شاطئ البحر. وهو برأينا تسمية لواقع حال المكان، كعادة المصريين والشعوب القديمة عمومًا في التسمية على واقع الحال وشكل البيئة. ونعتقد أن «على شاطئ البحر» هو اسم المدينة لوصفها بكونها ميناء، فهي باختصار تعني «الميناء»، التي تلتقي مع ذات التسمية التي أطلقها المأثور الإسلامي في غزوة زيد بن حارثة، زمن الدعوة الإسلامية على بلاد مدين، على المكان الواقع عند العقبة باسم «ميناء»، في النص السالف «إن رسول الله ﷺ بعث زيدًا بن حارثة نحو مدين ... فأصبا سبيًا من أهالي ميناء»، لقد كانت كلمة ميناء المعنى الذي أصبح اسمًا من كلمة «حرجسوي واج ور»، للميناء الذي استقبل سفن الفرعونة حتشبسوت باسم «ميناء».

ونميل هنا بشدة إلى الاعتقاد أن جزيرة فرعون، هي بالتحديد ذلك الميناء القديم «حرجسوي واج ور»، رغم أنها كجزيرة تبعد الآن عن يابس خليج العقبة باثني عشر كيلو مترًا، وهو الأمر الذي يمكننا تفسيره بربطه بما جاء عند جمال حمدان، في قوله بارتفاع مياه البحر في أكثر من منطقة، وأنه قد أدى إلى انفصال مماثل في مدن الساحل المصري الشمالي، وأغرق كثيرًا من المدائن الرائعة، كما في آثار كوم الشقافة، وأصبح مكان

[١٦] عبد المنعم عبد الحليم، موجز رسالتيه ... سبق ذكره، ص٢٦.

الفنار القديم على الشاطئ، يقبع الآن بعيدًا داخل البحر، كما طغت مياه البحر على دلتا النيل، وأدت إلى توسعة البحيرات الشمالية، مثل بحيرة المنزلة والبرلس وغيرهما، وقد أورد جمال حمدان شهادات قديمة حفظت الحدث، كما جاء في رواية المخزومي عن نشأة بحيرات الدلتا بواسطة طغيان البحر، وكان ذلك عام ٩٦١ ميلادية،[١٧] ونظنه ذات الأمر الذي قضى على آثار عصيون جابر القديمة، التي لا يزال البحث جاريًا عنها حتى اليوم، مع احتمالات أنها ربما تكون إيلات وربما تكون العقبة، فالاسم «حرجسوي واج ور»، يتطابق تمامًا مع محاولة نطق اللسان العبري للاسم المصري «حرجسوي واج ور»، ممثلًا في النطق العبري «عصيون جابر».

ويشير جمال حمدان إلى تطابق حديث المخزومي، مع ما جاء عند جرا سبان الأب، عن ارتفاع مستوى سطح البحر منذ القرن الثاني للميلاد، ودلل على ذلك بالأطلال والبقايا الغارقة، التي وجدها في بحيرة البرلس.[١٨]

ويبدو أن ذات الحدث الكوني هو الذي أدَّى إلى ضياع مدينة تنيس العظيمة، واختفائِها من على صفحة التاريخ، فيقول المسعودي والمقريزي من بعده إن المنزلة كانت جزءًا من نطاقٍ بري عظيم، لا يضارع أو يناظر في مصر، ظل كذلك إلى ما قبل الفتح الإسلامي لمصر، ونقرأ في مروج الذهب: «إن تنيس كانت أرضًا لم يكن بمصر مثلها استواء وطيبة، وكانت نخلًا وشجرًا ومزارع، وكانت فيها مجاري ماء على ارتفاعٍ من الأرض، ولم ير الناس بلدًا أحسنَ من هذه الأرض، ولا أحسن اتصالًا من جناتها وكرمها، ولم يكن بمصر كورة يُقال إنها تشبهها إلا الفيوم ... لكن البحر اخترق خط التلال الرملية، التي كانت تعمل كمتاريس طبيعة، وسنة بعد أخرى زحفت مياهه وتوغلت، إلى أن اكتسحت كل الأراضي المنخفضة الوطيئة ببلدانها وقراها، تاركة فقط عدة «جزر عالية» بما فيه الكفاية لتنجو من الخراب.»[١٩]

وربما نبالغ لو استعنَّا بالمسعودي في روايةٍ أخرى تبدو خيالية، لكنَّها ترصد لنا مناطق قد غطاها البحر، ولم تكن كذلك فهو يقول: «وكان فيما بين العريش وقبرس

[١٧] جمال حمدان، شخصية مصر ... سبق ذكره، ج١، ص٢١٦.

[١٨] الموضع نفسه.

[١٩] نفسه، ج١، ص٢١٦، ٢١٧.

طريق مسلوكة إلى قبرس، تسلكه الدواب يبسًا، ولم يكن فيما بين العريش وجزيرة قبرس إلا مخاضة.»[٢٠]

ويبدو أن ذلك قد ترافق مع ارتفاعٍ تدريجي عبر القرون لدرجة الحرارة عما كان معتادًا، مما أدَّى إلى ذوبان الجليد القطبي الذي أدى بدوره إلى ارتفاع مستوى البحار، حيث وجدنا ما يدعم ذلك عند هروشيوش المؤرخ لتاريخ العالم، إذ يقول: «وفي ذلك الزمان ذكر الفلاسفة في كتبهم، أن الشمس خرجت عن طريقها في أيام القبط، حتى جاوزتْ حد الإحراق في جميع الدنيا، وكادت أرض الحبشة لا يبقى بها إنسان ولا بهيمة، وقد اعتلَّ بذلك بعض كتاب المجوس الجاحدين لقدرة الله، بأن أنزلوا ذلك من قبل الكوكب الأحمر»،[٢١] والكوكب الأحمر هو كوكب الزهرة عند العرب.

ومن ثم لا شك أنه قد ضاعت بهذا الفعل الطبيعي معالم كثيرة، كان يمكن أن توفر كثيرًا من العناء لحلِّ ألغاز التاريخ، وضمن ذلك لا شك مساكن ومزارع وحياة كاملة، لم يبق منها إلا آثار صهر النحاس في جزيرة فرعون، وبعض المباني التي تشير إلى ضجيجٍ قديم كان يملأ المكان. أما باقي تلك المساكن كالأكواخ التي تقوم على أعمدة، فلا زالت تتناثر في سيناء بمحيط الترابين ونويبع ومواضع أخرى. أكواخ تحملها قوائم يصعد إليها الأهلون هناك بسلالم خشبية، وهو ما يلقي بنا في مرآة زمان بعثة حتشبسوت إلى بلاد بونت، فلم يزل أهل تلك المناطق يستخدمون الأسلوب القديم في بناء المساكن كما هو، وبذات الأسلوب البنائي البدائي.

وهكذا فإن «بلاد بونت/بلاد الصخر» قد عاش فيها شعب يسمى الشعب الحوري، منسوبًا إلى جد أسطوري باسم سعير الحوري، حتى جاء الآدوميون «أبناء عيسو/آدوم» فاقتحموا المكان واستوطنوه. وفي ذات المكان استوطن فرعًا قبليًّا من فروعهم، هو الفرع المدياني الذي اشتغل بالحدادة والنحاسة فسمي القيني. وفي ذات المكان وعلى امتداد نحو الشمال الفلسطيني، استوطن بطن نسيب آخر هو الفرع العماليقي أو العناقي، وامتدت المساحة التي شغلتها تلك الممالك أو البطون القبلية المتحالفة، من جبال سراة سعير (موصرى) ووادي عربة حتى عمق سيناء غربًا، ربما إلى وادي العريش، مع جزءٍ واسع

[٢٠] المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد عبد الحميد، المكتبة الإسلامية، بيروت، د. ت، ج١، ص٣٤٨.

[٢١] أورسيوس، تاريخ العالم ... سبق ذكره، ص١٠٤، ١٠٥.

من بادية شمال جزيرة العرب شرقًا، وجنوبًا على الساحل الشرقي لخليج العقبة، وإلى الشرق منه، حيث مدن ددان «العلا» ومدائن صالح وتيماء ... (المدن التجارية الواقعة على خط التجارة من الجنوب للشمال، والتي يبدو أنها ذُكرت في النصوص المصرية القديمة باسم بونت)، وجمع الحلف والمكان بين ثلاثة عناصر بشرية متمايزة بوضوح: «العنصر الحامي الزنجي الأسود، والعنصر الأحمر الذي نظنه هندوآرى، والعنصر القادم من جنوب جزيرة العرب، ويمكن الاصطلاح على تسميته هنا (الجنوب جزيري)».

وقد رأت التوراة من جانبها أن تجد علاقة بين تلك القبائل الممالك، فوضعت لها شجرة أنساب جعلت فيها اسم القبيلة اسمًا لسلفها البعيد، وقالت إن بين هؤلاء الأسلاف كانت روابط دم وعلاقات رحم. ومن هؤلاء الأسلاف الأسطوريين السلف الأول لشعوب المنطقة «نوح»، الذي أنجب أبناء ثلاثة هم: «سام أبو الساميين، وحام أبو الحاميين أو الكوشيين الزنج، ويافث أبو الهندوآريين»، وأنه من حام جاء أخلاف هم المصري والكوشي أشقاء، والكوشي هو الزنجي، وأنجب الكوشي سبأ وحويلة وددان. أما الابن الآخر لنوح وكان يحمل اسم سام، فقد أنجب أرام أبو «يقطان/قحطان» وحضرموت وأوفير، ومن نسله جاء البطريرك إبراهيم الخليل، وأنجب إبراهيم عددًا من الأولاد منهم إسماعيل، ومن أبناء إسماعيل كان نبايوت «نابت» وقيدار ودوما وتيما، «وكان لإسماعيل أخ يعنينا اسمه هو «مديان»، ثم كان له شقيق آخر هو إسحاق الذي أنجب «عيسو/آدوم»، و«يعقوب/إسرائيل»، ومن عيسو جاء نسل الإخوة تيمان ورعوئيل وعماليق».

ولأن المقدس التوراتي قد رأى أن الكوشي/الزنجي شقيق المصري، فلا شك أنه كان يردد ذكريات ذلك الترابط، مع ربط آخر للمصري بأهل سبأ وددان وحويلة. وقد سبق وعلمنا أن ددان هو الاسمُ القديم لمدينة العلا الحالية شمالي السعودية، ودادان أو ديدون أو دودون اسم أشهر آلهة النوبة المصرية،[٢٢] وسبأ تروي حولها أساطير كثيرة سنتناولها لاحقًا، أما حويلة فقد انتهينا في الجزء الأول من هذا العمل، إلى أنها هي حواريس، عاصمة الهكسوس المصرية التي أصبحت فيما بعد رعمسيس.

المهم أن ذكريات الكتاب المقدس لديها علم بصلةٍ قديمة قوية، بين منطقة سيناء وآدوم وشمالي الجزيرة وبين بلاد مصر النيل، وهو ما يلتقي مع اعتبار المصريين لتلك المنطقة كحدٍّ شرقي مصري لبلادهم. كما أن تلك الذكريات كانت تعلم أن هناك صلة

[٢٢] سليم حسن، مصر القديمة، ج٤، ص٥٠٠، ١٦٦، ٣٠٩.

وثيقة بين عيسو (آدوم الحوري) وبين المدياني، فجعل المحرر التوراتي عيسو ينجب رعوئيل، الذي عرفناه حَمًى للنبي موسى، ونعلم أنه كان مديانيًّا قينيًّا، كما تجد الابن الثاني لعيسو المسمى تيمان، ذات صلة وثيقة لغويًّا وجغرافيًّا بكلمة ميتان أو ميديان! كما ربطت شجرة الأنساب التوراتية تلك بين عيسو/آدوم وبين العمالقة، فجعلت جد العمالقة «عمليق» حفيدًا لعيسو/آدوم، ثم أعادت تلك القرابات جميعًا إلى إسماعيل بن إبراهيم تارة، وإلى إبراهيم نفسه تارة أخرى، في محاولة لتفسير التحالف السياسي بين مجموع تلك الممالك الصغيرة بأعدادها الكبيرة معًا؛ ربما لأن لغتهم كانت متقاربة، وربما لأن ثقافتهم توحدت بحلفهم، ناهيك عن التطابق المُدهش بين ذكريات المحرر التوراتي، وبين نصوص الفرعونة حتشبسوت عن بلاد بونت؛ إذ كان العنصر الزنجي في لوحات حتشبسوت مدعاة طوال الوقت عند المؤرخ التقليدي للذهاب بموقع بلاد بونت إلى أفريقيا، وذكريات التوراة تقول إن الكوشي (الزنجي) كان شقيقًا للمصري. لكن نفس الذكريات كانت تقول كلامًا شديد الغرابة، وهو أن أبناء كوش كانوا يعيشون في منطقة شرقي مصر وليس جنوبها، وشرقي مصر في سيناء وآدوم، في آسيا وليس في إفريقيا، وأن واحدًا من أبناء كوش (الزنجي) نحن على يقين من موضعه الجغرافي، وهو ددان (العلا حاليًّا) جنوب شرقي آدوم. وسيتضح لنا فيما بعد مدى مصداقية ذلك القول التوراتي العجيب، بشأن وضع الكوشي الزنجي في آدوم ومحيطها وليس في أفريقيا.

وابتداءً يمكن القول بهذا الشأن: إن العلاقات التجارية بين آدوم وبين اليمن والساحل الإفريقي الملاصق عبر مضيق المندب، قد استدعت اختلاطًا للعناصر، وانتقالًا وهجراتٍ، الأمر الذي سمح بوجود العنصر الزنجي في بلاد بونت (آدوم)، أما الذي نعتز بالكشف عنه، فهو أن البلاد التي كانت النصوص المصرية تطلق عليها اسم ميتان (ن ح ر ن) أو بلاد الحوريين، هي ذات بلاد مديان (آدم، النايري، أو النهرية، أو النارية، أو ذات النهارين)، هي ذات بلاد موصرى (مديان) الواقعة في وادي عربة وجبال سراة سعير في حضن الصخور، وأن العاصمة كانت هي الصخرة الكبرى (آدوم الكبرى، شمس آدوم، بونت، سالع، البتراء)، وكلها تعني معنى واحدًا هو الصخرة.

وقد سبق وعلمنا أن علماء المصريات قد عثروا ضمن ما عثروا عليه من آثارٍ مكتوبة، تعود إلى دولة «ميتاني» (المزعوم أنها تقع أعالي الفرات) على خطاب ضمن مكتبة تل العمارنة بمصر، مُرسل من قبل الملك الميتاني «دوشراتا» إلى صديقه الفرعون «آمنحتب الثالث»، ومع اسم «دوشراتا» هذا نقف هنيهة.

لو افترضنا وجوب البحث عن معنى كلمة دوشراتا في المصرية القديمة فسيكون — كما سلف بيانه — أرض الصحراء، أو الجبال أو الصخور. فهذا الاسم كان الاصطلاح الذي يطلقه المصريون على الصحارى «دشرت»، وكذلك على اللون الأحمر الأمغر، وهو لون صحارى سيناء وآدوم. ولو افترضنا وجوب البحث عن معنى الاسم في الساميات، فيجب قراءة الكلمة «ذو الشرى» الذي ربما كان معناه «صاحب السراة»، ونحن قد وضعنا الملك ومملكته في جبال سراة سعير. وليس في الموضع المزعوم لميتاني بأعالي الرافدين، فهل نجد في بلاد آدوم أي دليل أو أية إفادة بشأن هذا الملك واسمه؟ إن ما نعلمه يقينًا أنه «من بين أبرز آلهة آدوم، كان إلهًا يحمل اسم «ذو الشرى»، ظل يُعبد هناك حتى ظهور الإسلام»، وفي الحديث عن نبي الإسلام ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تصطك أليات عذارى دوس على ذي الشرى.»[٢٣]

ولمزيدٍ من المعرفة بشأن ذي الشرى أو دوشراتا، نجد حكاية لدى المؤرخ «هيروشيوش» عن الزمن الذي مات فيه «إسرائيل» (يعقوب) تقول: «وفي ذلك الزمن مات «شرايس أمير مصر»، الذي زعموا أنه صار من الأوثان»،[٢٤] وهو ما يشير إلى ملك باسم شرايس، حكم مصر، وبعد موته تحول إلى إلهٍ معبود، لكنا أبدًا لم نجد في قوائم ملوك مصر جميعًا فرعونًا حكمها باسم «شرايس». ولما كان هرشيوش قد كتب تاريخه باليونانية، فعلينا هنا أن نحذف التصريف الاسمي اليوناني فيصبح «شرى»، أما أين تقع مصر هذه التي كان أميرها يُدعى «شرى»، وتم تقديسه وعبادته بعد موته، فهو ما يأتي واضحًا في حديث هروشيوش:

> وأما «مصر الأقصى» فإنه بلد ممتد إلى ناحية المشرق، وحده في الجوف (الجنوب [المؤلف]) خليج العرب (يقصد خليج السويس [المؤلف]) وفي القبلة (الشمال [المؤلف]) البحر المحيط، وفي الغرب مبتدأ من مصر الأدنى ... وفيه من الأجناس «ثمانية وعشرون جنسًا».[٢٥]

إنها إذن شبه جزيرة سيناء في امتدادها من خليج السويس «خليج العرب» نحو المشرق، وقد سبق وعلمنا كيف أن صفة خليج العرب، قد أصبحت تطلق على خليج

[٢٣] د. إحسان عباس، تاريخ دولة ... سبق ذكره، ص٣٦.

[٢٤] أورسيوس، تاريخ العالم ... سبق ذكره، ص٩٧.

[٢٥] نفسه، ص٦٢.

«السويس»، منذ زمنٍ سابق على المؤرخين الكلاسيك. ومصر الأقصى عند هروشيوش تبدأ في غربها من مصر الأدنى «السفلي/الدلتا»، وهو الموقع الذي يتطابق مع تفسيرات المؤرخين للموطن مصرى، الذي ورد في الكتابات الرافدية وكتابات العمارنة، وقلنا إنه هو سيناء وآدوم وجزء من شمالي جزيرة العرب.

والطريف أن ملوك تلك العهود في منطقة الشرق الأوسط، كانوا يعلمون أن تلك المنطقة رغم استقلالها النسبي، كانت تابعة لسلطان الفراعين، فنجد رسائل ملوك بابل وآشور بمكتبة العمارنة بمصر، تخاطب الفرعون عندما تتعرَّض قوافلهم التجارية في آدوم بقولهم: «إن قومك قد تعرضوا لقوافلنا ونهبوها.»[٢٦]

وإذا كانت منطقة وادي عربة هي الأصل الأول والأصيل للعرب والعربية، وإن أصول اللغة العربية وخطها قد أطلقت من عند أنباط وادي عربة، فإن ما يجب ألا يفوتنا هو أن علوم اللغات قد توصلت الآن إلى حقيقةٍ مبهرة، تؤكد تبعية تلك البلاد لمصر حتى في ثقافتها؛ إذ أمسى معلومًا أن «اللغة المصرية القديمة كانت أصلًا مؤسسًا في اللغات السامية وبخاصة العبرية والعربية، بعد أن تمَّ تحقيق أكثر من ثلاثة آلاف كلمة مشتركة بين الهيروغليفية وبين العربية القاموسية مبنًى ومعنًى، وإن هذا العدد بذاته يعد لغة كاملة بالنسبة لذلك الزمان،[٢٧] وهو الأمر الذي سيثبته نشاطنا الباحث بين اللسانين بطول هذا الكتاب.

أما القاطع في علاقة مديان (آدوم الحورية) بالوطن الأم مصر، فهو ما جاء في رواية المصرولوجيست «نافيل» عن الأساطير المصرية، التي تتناول أصول العنصر المصري، وتؤكد أن المصريين قد جاءوا من بلاد النوبة السوداء إلى مصر، وأنهم انتشروا من هناك حتى وصلوا «إلى مناطق بعيدة شرقي الفرع البيلوزي للنيل». والمناطق البعيدة شرقي الفرع البيلوزي ليست شيئًا سوى سيناء وآدوم؛ لأن الفرع البيلوزي كان آخر فروع الدلتا شرقًا في التحامها مع البوادي السينائية. وتختم الأسطورة سطورها بقولها إن المصريين كانوا يعبدون من زمنٍ سحيق الإله الصقر حور أو حورس، «وقد أقام رجال حورس (الحوريين [المؤلف]) هناك، وكانوا يسمون الحدادين.»[٢٨]

---

[٢٦] عز الدين الخير، أضواء عربية ... سبق ذكره، ص٣٤.

[٢٧] مرعي عبد الرحمن، الإمبريالية اليهودية، المطابع الموحدة، ١٩٨٧م، ص١٣.

[٢٨] شيخ أنتا ديوب، الأصول الزنجية للحضارة المصرية، ترجمة حليم طوسون، دار العالم الثالث، القاهرة ١٩٩٥م، ص١١٧.

أليست تلك بقرينةٍ شديدة الوضوح والدلالة على صدق كل ما وصلنا إليه حتى الآن؟

ومن المفيد هنا أن نستمع إلى الدكتور عبد المنعم عبد الحليم، وهو يسلم بمسلمةٍ منتهية، رغم تناقضه في أبحاثه مع الحقائق، وهي أن «الإله حور والإله مين والإلهة حتحور، هي مجموعة آلهة ترتبط ببلاد بونت». ورغم أنه من أتباع المدرسة التقليدية التي تذهب ببلاد بونت إلى الصومال، إلا أنه في الوقت ذاته يعيد تلك الآلهة إلى أصولٍ عراقية رافدية قديمة (؟!) وأنها قدمت من الرافدين لتُعبد في مصر، منذ زمنٍ مبكر «عبر الطرق الصحراوية الشرقية»، ونحن نعلم أن حتحور ظلت طوال تاريخ مصرَ القديمة ربة سيناء العظمى، ثم يقول: «إن خط انتقال هذه المؤثرات كان يمر عبر مناطق أفريقية وآسيوية، وعلى هذا فمن المرجح أن انتقال هذه المؤثرات إلى مصر قد تم بواسطة شعب «أو جماعات، كانت تسكن مناطق متوسطة بين مصر والعراق»، وتقوم بدور الوسيط في الاتصالات بين الطرفين، وربما كان هذا الشعب أو الجماعات نوعًا من «الوسطاء التجاريين»، ولعلهم كانوا الوسطاء الذين يشتغلون بتجارة البخور الرائجة على السواحل الإفريقية والآسيوية للبحر الأحمر منذ العصور المبكرة، كما يشير إلى ذلك نص من عصر حتشبسوت فيما بعد.

لكن لأن الدكتور عبد الحليم يرى أن بلاد بونت لا بدَّ أن تقع على الساحل الصومالي حيث الكندر أو لبان الدكر، الذي يزعم أنه هو الذي استجلبته بعثة حتشبسوت من الصومال، وأعادت استزراعه أمام ساحة معبدها بالدير البحري، وليس ما ثبت الآن أنه شجر برسيا (التين)، فقد استطرد يقول: دون أن يشعر بأي تناقض «وربما كان الوسطاء من سكان الساحل الإفريقي للبحر الأحمر «بونت»، هم الذين نقلوها مباشرة إلى مصر حيث استقرت في مراكز عبادة الآلهة التي ارتبطت ببونت»،[٢٩] هكذا (؟!)، لقد قام الصوماليون بالسفر من سواحل إفريقيا الشرقية إلى العراق، وعادوا عبر البوادي الشرقية لمصر بهذه الآلهة، هذا ما يقوله عبد الحليم (؟!).

وبالنسبة للتأثير العراقي فإنه سيتضح في الفصول القادمة، أما أن يكون الإله حور قادمًا من بلاد «الحوريين»، الذين حددنا موضعهم في بلاد آدوم، فهي قرينة أخرى نضعها ضمن رصيدنا الذي تكاثف، وتحول إلى دلائل وبراهين.

وإذا كانت الكلمة «كيميت» في المصرية القديمة تعني مصر، فإنها تعني أيضًا: «حامي، أسود، زنجي، أبنوس»،[٣٠] وهو خشب أسود نادر. وفي تاريخ هيرودوت معلومة

[٢٩] عبد المنعم عبد الحليم، موجز رسالتيه … سبق ذكره، ص٣٥.

[٣٠] شيخ أنتا ديوب، الأصول … سبق ذكره، ص٢٦.

حول الأثيوبيين تعنينا هنا، فهو يقول إنهم كانوا «يسمون المعمرين»، وإن أثيوبيا كانت مصدرًا لرجال يتفوقون على بقية الجنس البشري «بارتفاع قاماتهم»،[٣١] وهو ما يطابق صفات نعلمها في شعب سكن بلاد آدوم، أطلقت عليه العربية والعبرية اسم العماليق (العناقين)، وهو موضوع آخر يحتاج إلى جهدٍ آخر.
(انظر تمثال الإله: ذي الشرى من البتراء: شكل رقم «٧٢».)

شكل رقم «٧٢»: تمثال نبطي للمعبود القديم ذي الشرى.

[٣١] نفسه، ص٨٠.

شكل رقم «٧٣»: نموذج للمناجم القديمة العديدة في آدوم، فوهة منجم قديم بوادي فنان.

الباب الثاني

أحلاف سيناء

الفصل الأول

العمالقة

يفيدنا المؤرخ «هروشيوش» أن المنطقة السينائية الواقعة بين ذراعي البحر الأحمر، أو كما أسماه اليونان البحر الأريتري، أو بحر «سوف» كما أسمته التوراة، مع امتداد هذه البوادي السينائية شرقًا إلى شمالي الحجاز، قد سكنها ثمانية وعشرون جنسًا، وهي في رأينا بطون وأفخاذ وفروع وأسباط لعددٍ من الأجناس البشرية الرئيسية، ساعدت ظروف تاريخية على التقائها في هذه المساحة من العالم القديم. وهو الأمر الذي سيتم بحثه تفصيلًا في مواضعه من هذا البحث. لكنا حتى الآن قد أمسكنا على الأقل بشعبين منهم، يجمعان بين عدة أسماء نطقته ألسن مختلفة، للدلالة على المكان أحيانًا، وللدلالة على الشعب نفسه حينًا، وللدلالة على صنعة هذا الشعب طورًا، أو صفاته الجسدية طورًا آخر، ذلك الشعب الذي حمل اسم «الشعب الحوري» (الآدومي، الأحمر، والشعب المدياني، القيني) الذي يعيش في سراة سعير حول وادي عربة.

والشعب المدياني واحد من أوائل الشعوب، تلك التي سكنت تلك المواضع القديمة، وذكره الكتاب المقدس تفصيلًا، وهو ما نقابله أول ما نقابله في قصة السبط يوسف وإخوته الأحد عشر أبناء البطرك يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. وتحكي الأقصوصة أن الأسباط المكرمين قد أرادوا التخلص من أخيهم المتميز فتاك الجمال يوسف، فأخذوه بحجة قضاء يوم مرح في البراري وقد أضمروا له السوء، وتخلَّصوا منه بأن ألقوه في بئر، وهنا تقول التوراة:

> جلسوا ليأكلوا طعامًا فرفعوا عيونهم ونظروا، وإذا قافلة إسماعيليين مقبلة من جلعاد، وجمالهم حاملة كثيراء وبلسانا ولادنا، ذاهبين لينزلوا بها إلى مصر. فقال يهوذا لإخوته: ما الفائدة أن نقتل أخانا ونخفي دمه؟ تعالوا فنبيعه

للإسماعيليين، ولا تكن أيدينا عليه؛ لأنه أخونا ولحمنا، فسمع له إخوته. واجتاز رجال مديانيون تجار، فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر.

(تكوين، ٣٧: ٢٥، ٢٨)

النص واضح وبسيط ومباشر، فالإخوة الكرام من أسباط النبوة، فكروا في التخلص من أخيهم الحالم الحلوم المختال بنفسه، مع تحقيق فوائد إضافية ببيعه لقافلة من قبائل التجار الإسماعيليين، لكن فجأة يختلط الأمر بالنص، فيخبرنا أن قافلة من القبائل المديانية، شاهدت يوسف بالبئر الجاف فسحبوه منه، لكن ليعود الكتاب المقدس، ويقول:

إن إخوته باعوا يوسف للإسماعيليين، فأتوا بيوسف إلى مصر.

(تكوين، ٣٧: ٢٨)

ثم لمزيدٍ من إرباك المؤمن والباحث معًا وتعميقًا للالتباس، تعود قصة التوراة إلى المديانيين فتقول:

وأما المديانيون؛ فباعوه في مصر لفوطيفار رئيس الشُّرط.

(تكوين، ٣٧: ٣٦)

وتكرر التوراة ذهابها ومجيئها بين الإسماعيليين والمديانيين، لتعود فتقول:

وأما يوسف فأنزل به إلى مصر، واشتراه فوطيفار، خصي فرعون رئيس الشرط، رجل مصري من يد «الإسماعيليين».

(تكوين، ٣٩: ١)

فهل كان الكاتب التوراتي يحمل هذا الكم من الإرباك والارتباك في نصٍّ واحد صغير بالكتاب المقدس؟ الواضح لنا أن المحرر التوراتي لم يكن يشعر بأي تناقض، وهو يروي تلك الرواية؛ لأنه كان يعلم أن الإسماعيليين هم ذاتهم المديانيون، خاصة إذا تذكرنا أن البرية التي سكنت فيها هاجر مع ولدها إسماعيل في قصة طرد إبراهيم لهما، كانت تحمل اسم برية فاران، والتي حددنا نحن موقعها بشرقي سيناء عند وادي باران، إلى الغرب مباشرة من البتراء حيث سكن المديانيون. أما الصفة اللاصقة بالإسماعيلي والمدياني فكانت التجارة، وضمنها تجارة العبيد، بحسبان بيعهم يوسف في مصر.

ولمزيدٍ من التأكيد من صحة زعمنا أن المدياني كان هو ذات عين الإسماعيلي، وأن محرر التوراة كان يعلم ذلك يقينًا، نتصفح الكتاب المقدس على أناةٍ، لنجد كثيرًا من الشواهد الواضحة التي تؤيِّد زعمنا هذا، ففي الحروب التي حدثت زمن قضاة إسرائيل، وقفت إسرائيل ضد مديان في معركة شرسة، كان قائد الإسرائيليين فيها يحمل اسم جدعون، وهنا يقول الكتاب المقدس:

> فقام جدعون وقتل زُبح وصلمناع، وأخذ «الأهِلَّة» التي في أعناق جمالهم. وقال رجال إسرائيليون لجدعون: تسلط علينا أنت وابنك وابن ابنك لأنك خلصتنا من يد مديان ... فقال لهم جدعون: أطلب منكم طلبة، أن تعطوني كل واحد أقراط غنيمته؛ لأنه كان لهم أقراط من ذهب لأنهم إسماعيليون.
>
> (قضاة، ٨: ٢٤، ٢٢، ٢١)

النص هنا يعطينا كثيرًا من المعلومات التاريخية القديمة، التي حفظتها لنا ذاكرة المحررين التوراتيين، فنفهم أن القبائل الإسماعيلية كان رجالها يتزينون بأقراطٍ ذهبية، مصنوعة على هيئة الهلال، ويزينون جمالهم بها، وهو ما يشير إلى اليسار المادي كما يشير إلى قدسية الهلال. ومعلوم أن الهلال كان دومًا كبير أرباب البوادي والبراري، ولم تزل الأهلة (جمع هلال) الذهبية في بلادنا، هي الزينة المستحبة لدى نساء العربان المتبدين على حافة الوادي. وكان شرط جدعون كي يستمر في قيادة الإسرائيليين ضد المديانيين، أن يأخذ مكافأته ونصيبه من الغنيمة، ذلك الذهب المصنوع في شكل أهلة. ثم يوضح النص أن لبس الأهلَّة كان خاصية إسماعيلية؛ فلماذا يلبسه المديانيون؟ هو ما يجيب عليه النص بوضوحٍ كاشف: «لأنهم إسماعيليون». مرةً أخرى نؤكد أن المحرر التوراتي كان يعلم أن كليهما كان واحدًا، أو أن المدياني كان بطنًا إسماعيليًّا، وأنهم كانوا معًا يتوطَّنون ذات المنطقة في جبال سراة سعير ووادي عربة.

وعادة ما يلمح الكتاب المقدس إلى حلفٍ كبير، كان يربط بين مجموعة القبائل التي استوطنت جنوبي فلسطين في العربة. وأهم تلك التلميحات المتكررة ما جاء يربط بين المديانيين أو الإسماعيليين، وبين قبائل عاشت في ذات الموطن حملت اسم العمالقة. وقد ذكر العمالقة كجنس باعتبارهم نسلًا لآدوم (عيسو الحوري)، فهم آدوميون حوريون بدورهم، وأنهم كثرة عددية هائلة كالرمل الذي على شاطئ البحر أو كالجراد، وأن جِمالهم لا عدد لها ولا تحصى. وقد أورد المقدس تكوين هذا الحلف أكثر من مرة، بحسبانه يتكون

من المديانيين والعمالقة وبني المشرق. و«بنو المشرق» هو الاصطلاح التوراتي الذي يأتي على التبادل مع اصطلاح «الآرامي»، والآرامي نسبة إلى آرام وإرم، والإرم هو في اللغات السامية كومة من الأحجار المرتفعة، أو هرم، أو هضبة، أو جبل، أو صخرة. وبالطبع يعنينا هنا معنى الصخرة التي نحيلها فورًا إلى سالع (البتراء، الصخرة، بونت).

وهنا فقط يمكن أن نلمس امتدادًا لهؤلاء في عدد من الممالك المتناثرة بالفرات الأعلى، حيث أنشأ الآراميون في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد عددًا من الممالك هناك، يغلب على ظني أنها مما أوعز للمؤرخين بوضع بلاد آدم في ميتاني بأعالي الفرات، لعل أشهرها مملكة بيت جباري التي سميت أيضًا «سمعل» و«مملكة بيت أديني»،[١] ومملكة بيت أديني هي مملكة بيت آدون أو عدن أو آتن على مختلف التنغميات، وأديني تعني سيدي أو ربي، أما «سمعل» فكما هو واضح تحيل إلى الاسم «إسماعيل»، وإسماعيل حسب تقسيم الأجناس على الشجرة التوراتية فرع إبراهيمي، شقيق للفرع الإسرائيلي.

والمدهش حقًّا أنه ما إن يظهر الآراميون «على صفحة التاريخ، حتى يبدأ ذكر القبائل الإسرائيلية على الترافق، مع ذكر لقبائل تحمل اسم العابيرو(الخابيرو، الأبيرو، العبري)» في نصوص المنطقة، والأكثر انسجامًا هو إصرار الكتاب المقدس على تذكير الآباء التوراتيين بأصلهم الجنسي، فيشير دومًا إلى ذلك الجنس أو الأب البعيد، والجد السالف بقوله:

آراميًّا تائهًا كان أبي.

(تثنية، ٢٦: ٥)

والمقدس يسفر عن صلات نسب وقربى وأصل واحد بين البيت الإسرائيلي، عبر الفرع الآدومي وبين البيت الإسماعيلي، وأن تلك الصلات الحميمة تمثلت في زيجاتٍ متبادلة كما حدث في زواج عيسو آدوم من بنت إسماعيل:

فذهب عيسو إلى إسماعيل، وأخذ محلة بنت إسماعيل بن إبراهيم أخت نبايوت زوجة له على نسائه.

(تكوين، ٢٨: ٩)

[١] أ. ر. جرني، الحيثيون، ترجمة د. محمد عبد القادر، مطبوعات البلاغ، القاهرة، ١٩٦٣م، ص٦٣–٦٥.

كما تزوج موسى وهو إسرائيلي من مديانية، هي صفورة بنت رعوئيل (يثرون) وهو مدياني، ورغم ذلك فقد بدأت العداوات بين الإسرائيليين والمديانيين مبكِّرًا، كذلك حدث صراع اشتد أوراه زمن قيام مملكة بني إسرائيل في فلسطين، فدخل الإسرائيليون غمار حروب عدة مع أسلافهم الآراميين، الذي انتشروا في المنطقة جميعًا، وأسسوا عددًا من الممالك في سوريا على تخوم إسرائيل الشمالية، وكانوا دومًا شوكة في حلق الإسرائيليين. وفيما يبدو أن عداء الأقارب الإسرائيليين والأراميين كان عريقًا، فماذا يقول علم التاريخ عن الآراميين؟

يمثِّل الآراميون واحدة من بين آخر الموجات المهاجرة، التي تدفقت على منطقة بلاد الشام، ويميل بعض المؤرخين إلى تزمين ظهورهم في التاريخ لأول مرة بحوالي عام ١١٠٠ق.م.،[٢] وبعضهم يبعد بالآراميين إلى الوراء قليلًا، فيحدد ظهورهم بما بين عامي ١٤٠٠ و١٢٠٠ق.م.[٣] لكن ليس قبل ذلك إطلاقًا، ويبدو أن أصل الآراميين ظل مثار تخمينات عديدة، ولم يستقر علم التاريخ على المنطلق الأصلي والوطن الأول لهم، فهم يظهرون فجأة كعنصر جديد في المنطقة، يتدفقون على بوادي الشام ويزيحون منها الأموريين والحيثيين في وادي العاصي ويحتلونه جميعه، ثم يستوطنون الفرات الأعلى، ويقيمون عددًا من الممالك، في المواضع المفترض زعمًا أنها كانت من قبل ذلك مملكة «ميتاني» الحورية في أعالي الفرات. على أنهم أخفقوا في إقامة وحدة سياسية تجمع شتات ممالكهم الصغيرة، ورغم إخفاقهم السياسي فقد انتشر تراثهم اللغوي والثقافي لينتشر في المنطقة، وتصبح لغتهم لغة رئيسية ولغة للحوار الدبلوماسي بين دول المنطقة، وقد حدث ذلك فيما يقول المؤرخون بعد أن أخذوا الحروف الهجائية الفينيقية، وعن الآراميين أخذ الإسرائيليون خطهم المربع في القرن السادس قبل الميلاد،[٤] وتحيطنا المراجع العراقية القديمة علمًا أن أشهر القبائل الآرامية الأولى، التي ظهرت في المنطقة قد دونت باسم «قبائل الأخلامو» التي تترجم إلى «الأحلاف»، وكان ذكرهم قد جاء في مدونات حداد نيراري الأول الآشوري عام ١٣٠٠ق.م. حيث سجلت نصوصه أن والده قد حارب قبائل الأخلامو.[٥]

---

[٢] موسوعة تاريخ العالم، ج١، ص٧٨.

[٣] طه باقر، الوجيز ... سبق ذكره، ص٤٩٤.

[٤] نفسه، ص٤٩٧، ٤٩٨.

[٥] نفسه، ص٤٩٤.

ومن الممالك التي أسسها الآراميون في بلاد الشام، وتذكرها لنا موسوعة تاريخ العالم ممالك: قرقميش وأرباد وحلب وإنطاكية وقادش العاصي وحماه وتدمر ودمشق، وترى الموسوعة أن هجرتهم التي أدت إلى ظهورهم المفاجئ هذا، ربما كان «نتيجة لطرد الهكسوس من مصر حوالي ١٥٨٠ق.م.»،[٦] وهو ظن يفترض ضمنًا أنهم كانوا غزاة مصر الهكسوس.

وهكذا، ورغم اتفاق المؤرخين على عام ١٤٠٠ق.م. كأبعد زمن يمكن تحديده لظهور الآراميين في المنطقة، فإن هناك ما يشير إلى تواجدهم فيها منذ زمن أبعد مما تواضع عليه المؤرخون، فتقول الموسوعة ذاتها: «إن «نرام سين» شن حملات عسكرية على أرام»، وتعقب الموسوعة «والإشارة إلى أرام في نقوش نرام سين تدعو إلى الحيرة.»[٧]

أما المؤرخ العراقي طه باقر فيستند إلى رأي يحل المشكلة حلًّا سهلًا فهو يقول: «من المُستبعد أن يكون الموضع الوارد بهيئة أرامي ARAMI وأسماء بعض الأعلام مثل أرامو ARAMU في نصوص العصر الأكدي وسلالة أور الثالثة، لها صلة بالآراميين بالنظر إلى قدم العهد؛ ولذلك فيرجح أن يكون ذلك مجرد تشابه لفظي، ولا يُعرف بالتأكيد معنى كلمة آرامي هنا.»[٨]

هذا ما كان من شأن الآراميين، فهم شعب مجهول الموطن والأصل، «اسمهم يعني الصخرة» أو بالأحرى الصخريين، ظهروا فجأة في انتشارٍ سريع وكثيف في بلاد الشام «بعد طرد الهكسوس من مصر»، لكنْ هناك نصوص ربما تشير إلى وجودهم قبل ذلك، أربكت المؤرخين، حتى إن تلك النصوص تعود إلى حوالي ٢٤٥٠–٢٣٥٠ق.م. أي قبل أبعد زمن مفترض لوجود الآراميين بالمنطقة بأكثر من ألف عام إلى الوراء، «ثم إن نصوص حتشبسوت قد حدثتنا عن عنصر قائد سيادي في بلاد بونت، وأسمته «إرم» منذ ذلك الزمن القديم؟!»

هذا ما علمناه «أن الآراميين كانوا أصلًا لعددٍ من الشعوب، فكان منهم الأب إبراهيم وبالتبعية الإسماعيليون المديانيون والآدميون والإسرائيليون»، فماذا عن العمالقة؟ وأين استوطنوا؟ التوراة تدخل العمالقة في ذات البطون النسبية، فهم نسل عمليق حفيد

---

[٦] موسوعة تاريخ العالم، ج١، ص٧٨.

[٧] نفسه، ج١، ص٧٩.

[٨] طه باقر، الوجيز ... سبق ذكره، ص٤٩٣.

عيسو/آدوم. وهم بهذا المعنى كانوا عضوًا ضمن أعضاء حلف الأخلامو أو الأحلاف، فأين عاش العمالقة؟ سؤال تأتي عليه إجابة أولى: أنهم قد استوطنوا بلاد آدوم لا شك، بحسبانهم أحفاد الجد الأسطوري البعيد عيسو آدوم. لكن التوراة تعطينا إفادات أخرى، حيث نجدهم ينتشرون في شبه جزيرة سيناء، حيث التقى بهم الإسرائيليون عند خروجهم من مصر في منطقة باسم رفيديم، قرب الجبل المقدس جبل الله حوريب/ جبل موسى وكاترين الآن، وأنه قد دارت بينهم موقعة حربية يشرحها نص الكتاب المقدس؛ إذ يقول:

> وأتى عماليق وحارب إسرائيل في رفيديم ... فقال الرب لموسى: اكتب هذا تذكارًا في الكتاب، وضعه تحت مسامع يشوع، فإني سوف أمحو ذكر عماليق من تحت السماء ... وقال: إن اليد على كرسي الرب، للرب حرب مع عماليق من دورٍ إلى دور (أي من جيلٍ إلى جيل [المؤلف]).
>
> (خروج، ١٧: ١٦، ١٤، ٨)

كما نجدهم — حسب ذات المقدس — في مدينة حبرون (الخليل الحالية) جنوبي فلسطين في التحامها مع امتداد سيناء الشرقي. وتبدو حبرون في القصص التوراتي أحد المعاقل الكبرى للعمالقة، ويحيطنا قاموس الكتاب المقدس علمًا بشأن حبرون، فيقول تحت مادة «حبرون»:

> «حبرون» اسم عبري معناه: عصبة، صحبة، رباط، اتحاد ... مدينة في أرض يهوذا الجبلية (يشوع، ١٥: ٤٨، ٥٤)، ودُعيت أصلًا مدينة أربع ... (تكوين، ٢٣: ٢؛ ويشوع، ٢٠: ٧) ... وقد بُنيت سبع سنين قبل صوعن في مصر (عدد، ١٣: ٢٢)، وكانت موجودة من وقتٍ مبكر في أيام إبراهيم الذي سكَن بعض الزمن في جوارها تحت بلوطات، أو بطمات ممرا (تكوين، ٣: ١٨؛ ٣٥: ٢٧)، وماتت سارة هناك فاشترى إبراهيم مغارة المكفيلة لتكون قبرًا، وقد اشتراها من الحيثيين الذين كانوا يملكون المدينة حينئذٍ (تكوين، ٢٣: ٢–٢٠) ... وزارها جواسيس موسى، ووجدوا العناقين ساكنين فيها (عدد، ١٣: ٢٢)، وكان ملكها هوهام، أحد أربعة ملوك تحالفوا مع أدوني صادق ضد يشوع ... وعندما احتل الآدوميون جنوب يهوذا، وقعت حبرون ضمن أماكن أخرى في أيديهم ... وحبرون الآن هي مدينة الخليل ... وحبرون واقعة في الوادي وعلى

منحدر وتعلو ٣٠٤٠ قدمًا فوق سطح البحر، وعلى بعد ثلاثة عشر ميلًا إلى الجنوب الغربي من أورشليم.

كما انتشر العمالقة الذين يحلمون أيضًا اسم بني عناق أو العناقين في النقب، الذي تشير إليه التوراة باسم الجنوب، وهو ما جاء على لسان جواسيس موسى قائلين:

> رأينا بني عناق هناك العمالقة، ساكنون في أرض الجنوب ... هناك الجبابرة من بني عناق من الجبابرة.
>
> (عدد، ١٣: ٣٣، ٢٩، ٢٨)

وعند موقع من المواقع المتطرفة في رحلة الخروج على الخط الشرقي لشبه جزيرة سيناء، جاءنا اسمه في التوراة «حرمة»، دارت معركة كبرى بين الإسرائيليين وبين العمالقة، وهو الموضع الذي كان أصلًا، فيما يبدو، باسم حمرة أو الحمراء:

> فنزل العمالقة والكنعانيون الساكنون في ذلك الجبل وضربوهم وكسروهم إلى حرمة.
>
> (عدد، ١٤: ٤٥)

وموقع حرمة هنا تم تحديده بإحداثيات، تؤكد أنه قرب جبال سعير، فيما بين قادش سيناء (عين قديس حاليًّا)، وبين عصيون جابر على خليج العقبة، وأنه كان على الحد الغربي لبلاد آدوم بالتدقيق والتحديد. وربما كان في الموقع المعروف الآن باسم وادي حور. ثم لدينا نص آخر يحدد بدقة موقع معركة حرمة على لسان موسى، وهو يخطب في شعبه:

> فكلمتكم ولم تسمعوا، بل عصيتم قول الرب، وطغيتم وصعدتم إلى الجبل، فخرج الأموريون الساكنون في ذلك الجبل للقائكم، وطردوكم كما يفعل النحل، وكسروكم في سعير إلى حرمة، فرجعتم ... وقعدتم في قادش أيامًا كثيرة.
>
> (تثنية، ١: ٤٣، ٤٦، ٤٥، ٤٤)

والمعلوم أن هذه الرواية كانت تتحدث عن محاولة اختراق الركب الخارج من مصر مع موسى لبلاد آدوم، متحركًا من مستقره السينائي قادش.

ثم نفهم من المقدس أن العمالقة كانوا ينتشرون داخل فلسطين ذاتها، حيث يقول سفر التثنية لشعب إسرائيل، عند عبوره الأردن إلى فلسطين:

> اسمع يا إسرائيل: أنت اليوم عابر الأردن؛ لكي تدخل وتمتلك شعوبًا أكبر وأعظم منك، ومدنًا عظيمة ومحصنة إلى السماء، قومًا عظامًا وطوالًا، بني عناق الذين عرفتهم وسمعت. من يقف في وجه بني عناق؟ فاعلم اليوم أن الرب إلهك هو العابر أمامك نارًا آكله، وهو يبيدهم ويذلهم أمامك فتطردهم وتهلكهم سريعًا.
>
> (تثنية، ٩: ١–٣)

وكانت وصية الرب لإسرائيل شعبه:

> اذكر ما فعله بك عماليق في الطريق عند خروجك من مصر، كيف لاقاك في الطريق، وقطع من مؤخرك كل المستضعفين وراءك، وأنت كليل متعب، ولم يخف الله. فمتى أراحك الرب إلهك من جميع أعدائك حولك، في الأرض التي يعطيك الرب إلهك نصيبًا لكي تمتلكها، تمحو ذكر عماليق من تحت السماء، لا تنسى.
>
> (تثنية، ٢٥: ١٧–١٩)

وقد حرص يشوع الذي قاد رحلة الخروج بعد موت موسى على تعميق العداء للعماليق العناقين، وهو ما يقوله النص:

> وجاء يشوع في ذلك الوقت، وقرض العناقين من الجبل؛ من حبرون، ومن دبير، ومن عناب، ومن جميع جبل يهوذا.
>
> (يشوع، ١١: ٢١)

وقد سبق وأشرنا إلى أن حبرون التي تعني «الحلف»، كانت مقر الملك الأعظم للعمالقة، وكان يُدعى أربع وسميت باسمه، وكانت قبل ذلك تدعى ممرًّا، وهو ما دونه نص التوراة:

> واسم حبرون قبلًا قرية أربع، الرجل الأعظم في العناقيين.
>
> (يشوع، ١٤: ١٥)

وهكذا يبدو واضحًا أن العماليق كانوا البطن الأقوى بين بطون الأحلاف أو الأخلامو، وكانوا ينتشرون انتشارًا واسعًا في سيناء وسعير وفلسطين الجنوبية؛ لذلك نجدهم بحاجةٍ لمزيد من البحث وراءهم؛ لتحديد هويتهم، ودورهم في الأحداث بشكلٍ أكثر تفصيلًا.

ويفيدنا الكتاب المقدس أن الإسرائيليين بعد خروجهم من مصر، وغزوهم لبلاد كنعان الفلسطينية، عاشوا حوالي أربعة قرون في ظل نظام بدوي ابتدائي، يُعرف بنظام القضاة، حيث يحتكمون في شئونهم إلى قاضٍ أعلى، عادةً ما يكون هو الكاهن في الوقت ذاته، ويمثل شئون التقديس والسلطة العليا في المجتمع.

وبعدها تحولوا إلى النظام الملكي، وكان أول ملوكهم الذي حمل اسم شاءُول أو شاول، الذي قضى حياةً نشطة حافلة بالأحداث، وأهم هذه الأحداث صدامه مع العماليق في معركة كبرى، حدثت فيما يقول الكتاب المقدس بأمرٍ من «يهوه» الرب نفسه، وهو ما يرويه الكتاب المقدس في قوله:

> هكذا يقول رب الجنود: إني افتقدت ما عمل عماليق بإسرائيل، حين وقف له في الطريق، عند صعوده من مصر، فالآن اذهب واضرب عماليق، وحرموا (أي: أبيدوا) كل ما له، ولا تعفُ عنهم، بل اقتل رجلًا وامرأة، طفلًا ورضيعًا، بقرًا وغنمًا، جملًا وحمارًا، فاستحضر شاول الشعب وعدَّه في طلايم، مائتي ألف راجل، وعشرة آلاف رجل من يهوذا، ثم جاء شاول إلى مدينة عماليق، وكمن في الوادي، وقال شاول للقينيين: اذهبوا وحيدوا وانزلوا من وسط العمالقة؛ لئلا أهلككم معهم، وأنتم قد فعلتم معروفًا مع جميع بني إسرائيل عند صعودهم من مصر، فحاد القيني من وسط عماليق، وضرب شاول عماليق من حويلة حتى مجيئك إلى شور التي مقابل مصر.
>
> (صموئيل أول، ١٥: ٢–٧)

ورغم أنه لم يتم تحديد موضع حويلة، إلا أن المظنون أنها كانت تقع على أطراف سيناء الشرقية، وهو ما يعني أن شاول خاض معركةً كبرى في مدينة العمالقة المجهولة بدورها، انتهت بضعفهم تمامًا، وكانوا حسب النص ينتشرون من حويلة حتى حدود الدلتا، حيث «شور التي مقابل مصر». ويبدو أن هذا الضعف الذي أصاب العماليق قد سمح لسبط إسرائيلي، كان يسكن جنوبي فلسطين هو سبط شمعون، لكي يغزو العماليق في مركزهم الرئيسي، الذي هو جبل سعير في النص التالي:

> ومنهم من بني شمعون ذهب إلى جبل سعير خمسمائة رجل، وضربوا بقية المنفلتين من عماليق، وسكنوا هناك إلى هذا اليوم.
>
> (أخبار أيام أول، ٤: ٤٢، ٤٣)

وإذا كان العماليق قد سكنوا في المساحة الواقعة من حويلة حتى شور على حدود دلتا مصر الشرقية، حسب المتكررات التوراتية، فهو ذات الأمر الذي تقوله التوراة عن الإسماعيليين:

> وهذه سنو حياة إسماعيل، مائة وسبع وثلاثون سنة، وأسلم روحه ومات وانضمَّ إلى قومه، وسكنوا من حويلة إلى شور التي أمام مصر.
>
> (تكوين، ٢٥: ١٧، ١٨)

ويحيطنا المقدس التوراتي علمًا أن ذلك المكان الذي عاش فيه العماليق كان موضعًا مقدسًا، أو أشبه ما يكون بأرض إله، وذلك في نصٍّ مغرق في الأسطورة والبدائية الفكرية، يحدثنا عن فجر الخليقة وسكن الأرض بالشعوب، فيقول:

> وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض، وولد لهم بنات: أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهم حسناوات، فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا … كان في الأرض طغاة في تلك الأيام، وبعد ذلك أيضًا؛ إذ دخل بنو الله على بنات الله، وولدن لهم أولادًا، هؤلاء هم الجبابرة، الذين منذ الدهر ذووا اسم.
>
> (تكوين، ٦: ١، ٢، ٤)

ولما كنا نعلم أن التوراة تستخدم ثلاث مترادفات على التبادل؛ للدلالة على شعبٍ واحد هي: العمالقة، العناقين، الجبابرة؛ فإن المعنى أن أناسَ ذلك الزمان قد اعتقدوا أن العمالقة صنف من الناس نصف إلهي ونصف إنساني. أما الموسوعة العربية الميسرة تحت مادة «عمالقة»، تشير بإيجازٍ إلى وجهة النظر التي تتبناها الكتابات العربية بشأن العمالقة، فتقول:

> عمالقة: قدماء العرب، خاصة شمالي الحجاز، مما يلي شبه جزيرة سيناء، فتحوا مصر باسم الشاسو، ويسميهم اليونان هيكسوس، وأصل لفظة العمالقة

مجهول، والغالب أنه منحوت من اسم قبيلة عربية، كانت مواطنها بجهات العقبة أو شمالها. كان البابليون يطلقون عليها اسم «ماليق» أو «مالوق»، وأضاف اليهود إليها لفظ «عم» بمعنى شعب، فقالوا: «عم ماليق» أو «عم مالوق»، فقال العرب: «عماليق» أو «عمالقة»، ثم أطلقوه على طائفةٍ كبيرة من العرب القدماء.

كان العمالقة على علاقةٍ بالكنعانيين والآموريين والإسرائيليين، وعلى الرغم من أن علم الإثنولوجيا اليهودي يجعلهم فرعًا من الآدوميين، ويربطهم بقبيلة إفرايم، فإنه يصورهم باعتبارهم أعداءً للإسرائيليين، نهب العمالقة الشعب اليهودي في أثناء هروبه من مصر، واندمجوا بينه وهاجموه، ولكنه انتصر عليهم بزعامة يشوع، وكان العمالقة جزءًا من الجيش الذي جرده أجلون (صحها: عجلون [المؤلف]) ملك موآب لمضايقة إسرائيل.[٩]

وفي لسان العرب:

العَمْليق: الجور والظلم. وعملق ماؤهم: قلَّ، والعملاق: الطويل، والجمع: عماليق، وعمالقة. والعمالقة من عاد، وهم بنو عملاق. قال الأزهري: عملاق: أبو العمالقة، وهم الجبابرة الذين بالشام على عهد موسى عليه السلام. قال ابن الأثير: العمالقة: الجبابرة الذين كانوا بالشام، من بقية قوم عام. قال: ويقال لمن يخدع الناس ويخلبهم: عملاق. قال الجوهري: العماليق والعمالقة: قوم من ولد عمليق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح، وهم أمم تفرقوا في البلاد.

وفي المرادف التبادلي لكلمة عمالقة بالتوراة، «عناقين»، نبحث في لسان العرب، فيطالعنا تحت مادة «عنق»:

العَنَق: طول العنق وغلِظُه، والأنثى عنقاء. وهضبة معنَّقة وعنقاء: مرتفعة طويلة. والأعناق الرؤساء. والعنق: الجماعة الكثيرة من الناس. وجاء القوم عنقًا عنقًا، أي طوائف. قال الأزهري: إذا جاءوا فرقًا، كل جماعة منهم عنق. ويقال: جاء القوم عنقًا عنقًا، أي رسلًا رسلًا، وقطعًا قطعًا. وقيل: الأعناق: الرؤساء

---

[٩] الموسوعة العربية الميسرة، مادة «عمالقة».

الكبار. والمعنق: ما صلُب وارتفع من الأرض وحوله سهل. وقال الأزهري: العناق: الأنثى من أولاد المعزى إذا أتت عليها سنة.

والعناق: شيء من دواب الأرض كالفهد، وقيل: عناق الأرض: دويبة أصغر من الفهد طويلة الظهر، تصيد كل شيء حتى الطير. قال الأزهري: عناق الأرض: دابة فوق الكلب الصيني، يصيد كما يصيد الفهد، ويأكل اللحم وهو من السباع. يقال: إنه ليس شيء من الدواب يؤبر أي يُخفي أثره إذا عدا غيره، وغير الأرنب، وجمعه عنوق، والفرس تسمية سياه كوش. قال: وقد رأيته بالبادية وهو أسود الرأس أبيض سائره. والعنقاء طائر ضخم ليس بالعقاب، وقيل: العنقاء المُغرب: كلمة لا أصل لها، يقال إنها طائر عظيم لا ترى إلا في الدهور. وقيل: سميت عنقاء؛ لأنه كان في عنقها بياض كالطوق. قال ابن الكلبي: كان لأهل الرسّ نبي يقال له حنظلة بن صفوان، وكان بأرضهم جبل يقال له دمخ، مصعده في السماء ميل، فكان ينتابه طائرة كأعظم ما يكون، لها عنق طويل من أحسن الطير، فيها من كل لون، وكانت تقع منقضة، فكانت تنقض على الطير فتأكلها، فجاعت وانقضت على صبي فذهبت به فسميت عنقاء مغربًا؛ لأنها تغرب بكل ما أخذته. فشكوا ذلك إلى نبيِّهم فدعا عليها، فسلط الله عليها آفة فهلكت، فضربتها العرب مثلًا في أشعارها. ويقال: ألوت به العنقاء المُغرب، وطارت به العنقاء والعقاب، وقيل: طائر لم يبقَ في أيدي الناس من صفتها غير اسمها، والعنقاء اسم ملك. والأعنق: فحل من خيل العرب معروف، إليه تنسب بنات أعنق من الخيل.

أما مختصر كتاب البلدان للهمداني فيقول:

كانت منازل العماليق في موضع صنعاء اليوم (وهو ما يذكرنا بقول التاريخ الفينيقي بقدومهم من بحر أريتريا).

ثم خرجوا فنزلوا مكة، ولحقت منهم طائفة بالشام ومصر، وتفرقت طائفة في جزيرة العرب والعراق، ويقال إن فراعنة مصر كانوا من العماليق.[١٠]

---

١٠ الهمداني، مختصر كتاب البلدان، اقتبسه غطاس الخشبة في كتابه (رحلة)، سبق ذكره، ص١٣٠.

ومع المرادف التبادلي لكلمة عمالقة «عناقين» من «عنق» و«عنك»، نستقرئ المتشابهات بلسان العرب، فيخبرنا واضحًا فصيحًا، يقول تحت مادة «عنك» باستبدال القاف كافًا:

> عنك: وعناك بالنون: الرمل، والعانك الأحمر، يقال دم عانك، وعرق عانك: إذا كان في لونه صفرة. والعانك من الرمل في لونه حمرة. والعيك الشجرة المتلف، لغة في الأيك، واحدته عيكة.

وتنويعات على ذات المادة «علك» تحتها، يقول لسان العرب: «والعلك ضرب من صمغ الشجر كاللبان»، و«علق» وفيها يقول:

> علق: العلوق ماء الفحل؛ لأن الإبل إذا علقت وعقدت على الماء انقلبت ألوانها حمراء، والعلقى: شجرة تدوم خضرتها في القيظ، ولها أفنان طوال، والعوالق: الغول، وقيل الكلبة الحريصة.
>
> وقولهم «طويل العوالق»؛ أي: طويل الذنب. والعليق نبات معروف يتعلق بالشجر ويلتوي عليه. وزعموا أنها الشجرة التي أنس موسى عندها النار. وقيل العلق القامة، والمعلاق اللسان البليغ. والعلق: الدم، وهو ما اشتدت حمرته.

والغريب في بابه، بل والمدهش، أن نجد مقابل «عنق» العربية كلمة «عنخ» في المصرية القديمة، وتُرسم هيرغليفيًّا بالعلامة الدالة على مفتاح الحياة، تعني أيضًا إكليلًا من الزهور، وعادةً ما كان المصريون يضعون الأكاليل حول العنق، كما كانوا يعلقون بالرقبة «العنخ» نفسه مفتاح الحياة، وهو على هيئة الصليب. وهنا يحكي لنا الأركيولوجست «شيفمان» الباحث في أركيولوجيا أوغاريت (رأس شمراء قرب اللاذقية على الساحل السوري): «تُبين المواد الأركيولوجية، التي وجدت في أوغاريت، أنه كان يعيش على تخوم الألف الثالث، الثانية قبل الميلاد، وفي القرن الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، شعب أطلق عليه في الأدبيات التاريخية «ذوو الأطواق»، أما الأصل الذي انحدر منه هذا الشعب فغير معروف، وبظهوره يرتبط عصر ازدهار تصنيع البرونز، وظهور ضروب جديدة من الأسلحة، رماح ذات نهايات مسكوبة، الخنجر الثلاثي ذو القبضة، وفئوس ذات شفرة لها ثقبان، ويرتبط بهذا الشعب التمثالان الفضيان ذوا الطوقين الذهبيين، للإله والإلهة اللذين وُجِدوا إلى

الغرب من معبد بعل في أصٍّ محاط بالحجارة، ويلفت النظر «شكل الصليب» الموجود على صدر الإله والإلهة، فهو يحمل طابعًا مقدسًا واضحًا، لم يتسنَّ فك رموزه حتى الآن.»[١١]

لكن الخط السليم لسير التاريخ لا يَني يدعمنا بالشرح والتفصيل، فيعيد الأمور إلى نصابها والأطواق إلى مكانها، فيعلمنا إحسان عباس، وهو يتحدث عن البتراء، أن الإله الآدومي «ذو الشرى»، كان ذا علامة مميزة واضحة تخصه، وهي أنه «كثيرًا ما يظهر هذا الإله لابسًا أطواقًا».[١٢]

ومعنا تلتقي كلمة «عنخ» المصرية مع كلمة عنق العربية، وبني عناق العمالقة أو العناقين، ومؤنثها المصري القديم هو «عنخت»، وتشير في مدلولٍ آخر «إلى أنثى الماعز»، وهو ذات المعنى الذي يورده لسان العرب عن الأزهري، وهو يقول: «العناق: الأنثى من أولاد المعزى.» و«عنخت» إلهة مصرية هي زوجة الإله المترجم عن الهيروغليفية إلى الأحرف اللاتينية «خنوم»، الإله الكبش صانع البشر من صلصال كالفخار، والواجب نطقها نطقًا صحيحًا تمامًا الإله (خنوف/خروف/«غنم»). والكلمة «غنم» دالة على الخراف والماعز كليهما، ونحن نعلم من قواعد الهيروغليفية أن هناك إبدالًا جائزًا بين الخاء والزاي، فتصبح عنخ هي عنز، كما يتم ذات الإبدال بين الخاء والقاف، فتصبح عنخ هي عنق.[١٣]

ومن جانبه يحيطنا إريك هورننج علمًا أن الإلهة المصرية عنقت Anukis، أو عنقة، كانت تُعبَد في مصر في هيئةٍ بشرية؛ تلبس تاجًا من الريش، والريش على الرءوس في نقوش مصر القديمة يشير إلى البدو الرعاة، ويزيدنا علمًا أنها كونت ثالوثًا في جزيرة الفنتين هو «عنقت Anukis + خنوم أو خنوف أو الخروف Khnum + سيت Satis»، والمعلوم أن الفنتين كانت مقرَّ جالية يهودية، عاشت هناك ردحًا طويلًا من الزمان كما سيأتي بيانه،

---

[١١] أ. ش. شيفمان، ثقافة أوغاريت، ترجمة د. حسان ميخائيل إسحاق، الأبجدية للنشر، دمشق ١٩٨٨م، ص١٢٥. عنق = عنخ = مفتاح الحياة، حيث انسداد العنق أو الضغط عليه من الخارج، يؤدي إلى إزهاق الروح، وبالتالي الحياة، إذن هو مفتاح الحياة.

[١٢] إحسان عباس، تاريخ دولة … سبق ذكره، ص١٢٩.

[١٣] د. علي فهمي خشيم، آلهة مصر العربية، دار الآفاق الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٠م (ج١، ص٤٨٠–٤٨٢).

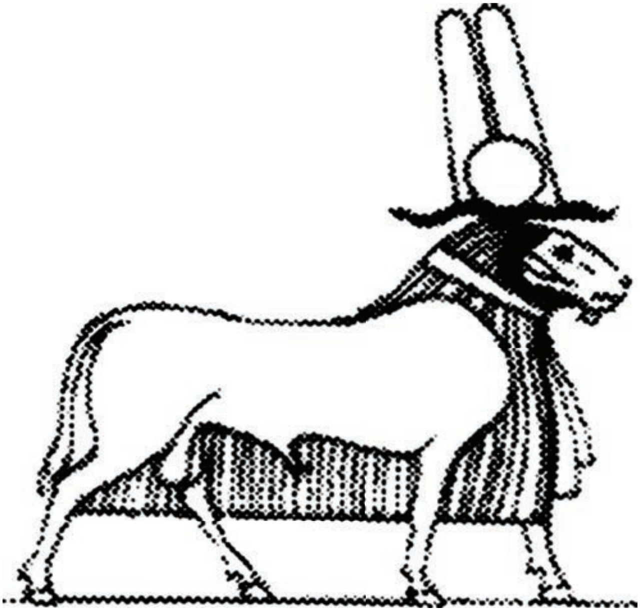

شكل رقم «٧٤»: خنوم/خروف/خنوف/المعبود المصري بتاج الألوهية.

أما الأكثر دلالة فهو أن الحيوان الرمزي هذه الإلهة عنقة، أو عنقت Anukis العنقاء، فكان العنز أو المعز.[١٤]

ومما هو جدير بالذكر أن Aegyptus اليونانية التي تطلق على مصر Egypt، المأخوذة من جباتا الواقعة في بلاد آدوم على حدود سيناء الشرقية كما أسلفنا الاجتهاد، تعني أيضًا في اليونانية «عنز متسلق». ويرى الباحثون أن مادة عنز من الأصل «عز»، العنز في الأوغاريتية عز والأكادية Azzatu وبالسريانية عيزا وبالعبرية عز، ومن هذا الفعل جاء معنى العزة والقوة،[١٥] ومنها أيضًا العزيز.

[١٤] إريك هورنونج، ديانة مصر الفرعونية، الوحدانية والتعدد، ترجمة محمود طه. ومصطفى أبو الخير، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٥م، ص٢٧٥.

[١٥] علي الشوك، جولة في أقاليم اللغة والأسطورة، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ١٩٩٤م، ص٤٨.

شكل رقم «٧٥»: حتى اليوم خاروف (قائد قطيع) توضع على رأسه زينة لدى بدو البتراء، ذكرى بتاج خنوف المصري.

ويقول «علي الشوك» عن المواضع التي حددناها لمجيء هجرات الأحلاف نحو سيناء وآدوم: إنها كانت مواطن العنز، فالعنز أبدًا لم يكن حيوانًا منتشرًا في بقاع الأرض، فقد «أظهرت الحفريات الآثارية أن موطن الماعز، هو جنوب غربي آسيا، وبالتحديد غربي إيران وشمال العراق وجنوب تركيا. والماعز كان معروفًا في البيضا جنوبي البحر الميت، والماعز مع الخراف أو بدونها، تم رعيها بمراحلَ تدريجية عبر سيناء، التي لم تكن صحراء قاحلة بالتأكيد كما هي عليه الآن، بل ليست تلك الصحراء التي يتصورها البعض.»[١٦]

وقد استخدم المصريون للدلالة على بدو آسيا ثلاثة أسماء على التبادل هي: «ستيو»، واتُّفِق على أنها تعني الآسيويين، وهذا فيما نرى خطأ شائع؛ لأن الأصل في نسبتهم — حسبما نرى — إلى رب البوادي والصحارى الإله «سيت»، رمز الشر في مصر القديمة، وتعني ستيو أيضًا الجنوبيين بالنسبة لمصر، وربما في عصورٍ لاحقة بعد الدولة القديمة، أخذت كلمة ستيو منحاها للدلالة على عبادة الإله سيت، فصبغت البدو الشرقيين باسمه فأصبحوا السيتين/ستيو، وهو ما يعني أن آسيا اكتسبت اسمها من المصطلح المصري الدال على أتباع الإله سيت.

والاسم الثاني الذي أُطلق على بدو آسيا، وهو «شاسو»، فيعني الدائب الحركة دون توقف «خُلِقت قدماه للارتحال/حسب نصائح مري كارع»، فهي تشير عندنا إلى البدو الرحل، وعادة ما كانت تطلق «شاسو» على بدو سيناء تحديدًا. وأخيرًا لدينا «عامو» أو «آمو» وكانت الأكثر استخدامًا للدلالة على غُزاة مصر المعروفين بالهكسوس، والكلمة المصرية «ع م و» جمع بالواو لكلمة «عم»، وفي لسان العرب:

> العرب تقول للرجل إذا سود: قد عُمم، وكانوا إذا سودوا رجلًا عمموه عمامةً حمراء. والعميم: الطويل من الرجال والنبات، ومنه حديث الرؤيا: فأتينا على روضةٍ معتمَّة أي وافية النبات طويلة، وكل ما اجتمع وكثر فهو عميم. ويقال: اعتمَّ النبت اعتمامًا إذا التف وطال. ونخلة عميمة: طويلة. والعمم: عظم الخلق في الناس وغيرهم، فالعمى العام والقصرى الخاص. وعمعم الرجل إذا كثر جيشه بعد قلة. والعم الجماعة، والعماعم الجماعات المتفرقون.

---

[١٦] نفسه، ص٩٣، ٩٤.

> وعم في الثلاثي عنم هي:
> العنم: أغصان تنبت في سوق العضاه، رطبة لا تشبه سائر أغصانها، حمر اللون، وقيل: هو ضرب من الشجر له نور أحمر، تشبه به الأصابع المخضوبة. قال ابن الأعرابي: العنم الشجر الأحمر، والعنمي الحسن الوجه المشرب بحمرة. وقال بعضهم: العندم دم الغزال بلحاء الأرطى، يُطحنان جميعًا حتى ينعقدا، فتختضب به الجواري.

ومن تلك المعطيات نجد العمالقة يحملون لقب الجبابرة، وأنهم كانوا طغاة وهو ما يعني أنهم كانوا حكامًا، والمحتمل وفق معطيات الموسوعة العربية الميسرة، أن يكونوا من عرفهم اليونان باسم الهكسوس غزاة مصر، وأنهم كانوا يسكنون العقبة وشمالها، وربما كانوا من العرب القدماء، وهم فرع من الآدوميين، أما لسان العرب فيقول إنهم من قوم عاد، وينتسبون إلى الشخص الأسطوري المعروف باسم إرم ابن سام، الأمر الذي يذكرنا بآيات القرآن عن عاد ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۞ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾.

وإذا أخذنا بالاسم المرادف «عناقين» جمع عناق، فهو أيضًا يحمل معنى العملقة، فالهضبة المعنقة هي المرتفعة الطويلة، ويحمل أيضًا معلومة حفظها لنا اللسان في كلمة الأعناق وهي: الأعناق أي الرؤساء، إضافة إلى كون الكلمة تحمل معنى الكثرة الشديدة، مما يشير إلى كونهم كانوا شعبًا غفير العدد، ناهيك عن كونهم كانوا طوائف، أي مجموعة بشرية، متحدة أحيانًا متحالفة أحيانًا أخرى، وهو ما يذكرنا بالتعبير الآشوري «أخلامو» أو أحلاف، وأنهم كانوا أصحاب «ماعز»، وفي بلادهم كان يعيش حيوان مفترس في هيئة الكلب الطويل الشبيه بالسلوقي، وتُحكى عنهم أساطير؛ فكان يعيش في بلادهم طائر ضخم باسم العنقاء، الذي سبق وعرفناه باسم الفوينيكس أو الطائر البونتي، وتكرر الأسطورة العربية الأسطورتين المصرية واليونانية، فهو يظهر كل دهر وبعد زمان بعيد من ظهوره الأول «طائر عظيم لا يُرى إلا في الدهور»، ونسب العرب إلى العناقين الجياد العنقاء، أي الفحول الأصيلة منها، ثم إن منهم كان بعض فراعين مصر، وعلم التاريخ يؤكد لنا أن مصر لم تعرف الخيول طوال تاريخها إلا مع غزو الهكسوس، فالآثار المصرية والنصوص القديمة قبل الغزو الهكسوسي، تخلو تمامًا من أي ذكر للحصان أو العربة، كما لم توجد أي دفنة لحصان واحد، أو حتى لعظام من حصان في أي من المقابر أو الدفنات أو الطبقات الأركيولوجية قبل الغزو الهكسوسي. كذلك تخلو النقوش والرسوم المصرية قبل الغزو الهكسوسي خلوًّا تامًّا من صورة الحصان، رغم أن المصريين قد سجلوا ورسموا صورًا لكل حيوانات البيئة المصرية وطيورها ونباتها بشكل إحصائي دقيق، وهو

ما يعني أن المصري حتى غزو الهكسوس كان يجهل تمامًا، أن هناك كائنًا من هذا النوع يوجد في العالم.[١٧]

ومن جانبٍ آخر إذا أخذنا بالتسمية المصرية لغزاة بلادهم الهكسوس «عامو»، فيظهر أن لهم علاقة وطيدة باللون الأحمر، وأنهم كانوا قومًا عظام الطول، ضخام الجسد. ويفرق لسان العرب بين التسمية المصرية رجل من العامو «رجل عمي»، أي مبتدي صحراوي بدائي، وبين أهل المدر والحضر والخصب، الذين هم سكان القصور «رجل قصري». ويعود اللسان لتذكيرنا أن «عم» هو الجماعة المتشظية، وباسمهم هناك شجرة حمراء لها نور أحمر، وهي شجرة طويلة عظيمة، تستحق اسم «الأيكة».

وهنا نستمع إلى «جاردنر» وهو يحدثنا عن حجر القاهرة المعروف باسم «حجر باليرمو»، وفيه إشارة إلى ما حدث في عهد الملك الثاني من ملوك الأسرة الأولى التأسيسية، وفي هذا الزمن المبكر زمن الملك المدعو «جر»، إشارة إلى ضرب الملك لمناطق «ستية».[١٨]

ثم بعده نقرأ عن ملكٍ باسم «عنخاب»، أنه قد ضرب شعب «الأيونتيو» أو «عنتيو»، والعنتيو هو البخور الأبيض في اللسان المصري القديم، ويعني أيضًا عند جاردنر وعبد العزيز صالح «أصحاب العمد»، ومع تعقيب يقول: «وهذا اصطلاح مبهم ربما يشير إلى شعوب قطنت شمال شرقي الدلتا، أو بدو الصحراء الشرقية وسيناء وما وراءهما»،[١٩] هذا بينما كان عبد المنعم عبد الحليم لم يزل يصر على أن شعب العنتيو/أي اللبان الدكر هم سكان الصومال؟!

(انظر أعمدة البتراء (إرم ذات العماد؟!) الشكل رقم «٧٦، ٧٧».)

ويضيف نجيب ميخائيل على ذات النصوص شارحًا مَن هم العنتيو أصحاب العمد بقوله: «وقد أطلق عليهم سترابو اسم سكان الكهوف، الذين كانوا يعيشون على النهب والسلب والتجارة في قوافل تقطع صحراء العرب»،[٢٠] لقد كان العنتيو هم العماليق ضمن سكان بلاد آدوم ومحيطها، أصحاب البخور، أم يا ترى عنتيو أو أنيتو هي مقلوب «تينو/تين»، تلك الثمرة المقدسة التي أتت بها بعثة حتشبسوت، لتستزرعها أمام معبدها

---

[١٧] Syve Soder berg, J. E. A, 37, p. 213.

[١٨] Gardiner, Egypt of the Pharaohs, 1964, p 44.

[١٩] Op, Cit, p. 414.

[٢٠] نجيب مخيائيل، مصر والشرق ... سبق ذكره، ج١، ص١٤٢.

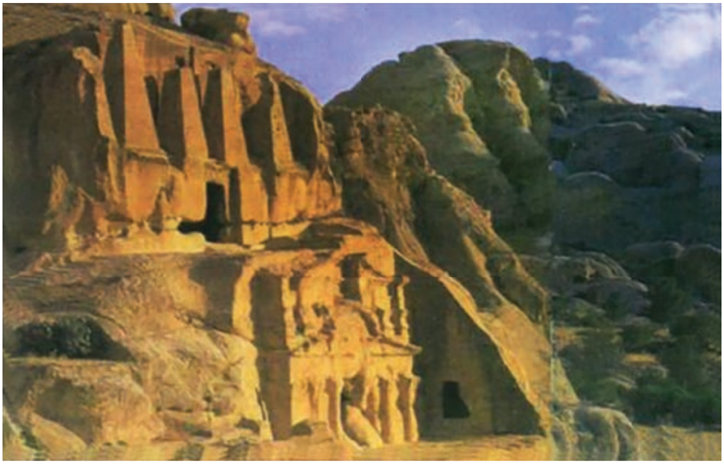

شكل رقم «٧٦»: مسلات أو أعمدة البتراء.

«شجرة البيرسيا المقدسة»؟ ربما! وتشترك «عنتيو» في جذرها الثلاثي مع «عتي» و«عاتي» و«عتو» من القوة والشدة والعملقة. وهنا نقف نستمع إلى ديودور الصقلي يروي قائلًا: «بعد أن جعل الملوك في الإسكندرية طريق البحر ميسرة لإبحار تجارتهم، لم يكتف هؤلاء العرب بمهاجمة من تحطمت بهم سفنهم، بل أنزلوا إلى الماء سفن قرصنة تطارد التجار والمسافرين، محاكين بتلك الأعمال الوحشية الجامحة للطائوريين من أهل بنطس.»[٢١]

وهو ما يعني أن عرب وادي عرابة يشبهون في لصوصيتهم سكان بلاد بنطس شرقي البحر الأسود بأرمينيا. لقد أدرك ديودور التشابه لكنه لم يدرك أن من سكان عرابة جنسًا قادمًا من أرمينيا من منطقة بنطس «بنط»، حيث كان يقوم ميناء بونت على البحر الأسود ولم يزل، وإن هؤلاء المهاجرين قد منحوا موطنهم الجديد في عرابة اسم موطنهم القديم «بونت».

ثم يدخل هيرودوت ليعطينا دعمًا قويًّا لنظريتنا، فيقول عن حدود مصر الشرقية، حيث المواطن التي عرَفها هيرودف ورفاقه من مؤرخين بأنها البلاد العربية.

---

[٢١] إحسان عباس، تاريخ دولة ... سبق ذكره، ص٣٤.

شكل رقم «٧٧»: أنشأها أصحاب العمد.

وتضيق مصر ابتداء من مدينة هيروبوليس جنوبًا، فعلى أحد جانبيها تمتد سلسلة الجبال العربية (الهضبة الشرقية الآن [المؤلف]) من الشمال إلى الجنوب ... ويستمر امتدادها حتى البحر المسمى بحر إروتري (هنا يشرح د. أحمد بدوي في الهامش أن بحر إروتري هو البحر الأحمر، وبالتحديد الخليج العربي منه، وهو خليج السويس حاليًّا)، وهنا توجد مقالع الأحجار (وقد وجدت بالفعل هناك مقالع الأحجار، وبخاصة الفيروز [المؤلف]) ... وأقصى اتساع مسيرة شهرين ... وحدودها الشرقية تنتج البخور.[٢٢]

(هيرودوت، ٧٧-٧٨)

[٢٢] هيرودوت يتحدث عن مصر، سبق ذكره، ص٧٧، ٧٨.

إن هيرودوت هنا يحدثنا عن المسافة بين الخليج العربي (السويس) وبين خليج العقبة عبر سيناء، حيث الوصول عبر سيناء يستغرق مسيرة شهرين، وهناك عند خليج العقبة، أو الحدود الشرقية لمصر، منطقة تنتج البخور أو بتعبيره «وحدودها الشرقية تنتج البخور»، ولأنه يريد بالضبط المسافة بين السويس والعقبة، يستمر شارحًا اتجاهًا آخر من خليج السويس، «أو خليج العرب» نحو الجنوب في عمق البحر الأحمر المتَّجه نحو المندب فيقول:

> ويوجد في بلاد العرب غير بعيد عن مصر، خليج يوغل في الداخل من البحر، الذي يسمى ببحر أروتري، وهو خليج طويل وضيق جدًّا كما سأوضح، إذا بدأ المسافر من جوف الخليج وضرب في عرض البحر، فإنه يستغرق في عبوره طولًا أربعين يومًا مع استخدام المجاديف.

هنا لا يقول هيرودوت إن المسافة مسيرة، إنما إبحار بالمجاديف يستغرق أربعين يومًا، ثم يحدثنا عن عبور الخليج العربي عرضًا في أوسع أجزائه بقوله: «في حين أن اجتيازه عرضًا في أوسع أجزائه يستغرق إبحار نصف يوم، وبه يحدث مد وجذر كل يوم.»

ولمزيدٍ من تحديد المكان الذي يتحدث عنه يقول: «فمناطق الساحل العربية مأهولة بالسوريين»،[٢٣] وكلمة السوريين للتعبير عن البدو الآسيويين لدى هيرودوت.

لقد عمدنا إلى تفصيل رواية هيرودوت، حتى لا يكون هناك أي لبس بين الإبحار من خليج السويس جنوبًا، وبين الاتجاه من خليج السويس شرقًا بالسير البري، وهناك، كما قال في أقصى الحدود الشرقية، سنجد الخليج الثاني (العقبة)، حيث أكد هيرودوت أن البلاد كانت هناك «تنتج البخور» أو العنتى.

(انظر مفتاح الحياة المصري «العنخ» ولوحة لبدوٍ ساميين من مصر القديمة.)
(الشكل رقم «٧٨، ٧٩».)

[٢٣] محمد رمزي، القاموس الجغرافي للبلدان المصرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، قسم البلدان المندرسة، ص٨٥.

شكل رقم «٧٨»: مفتاح الحياة المصري «عنخ».

شكل رقم «٧٩»: بدو ساميون في لوحاتٍ مصرية من العصر الإهناسي يزورون مصر، بصحبتهم العنز والحمار من ضريح «خنوم حتب». الشخصان في مقدمة الصورة العلوية مصري.

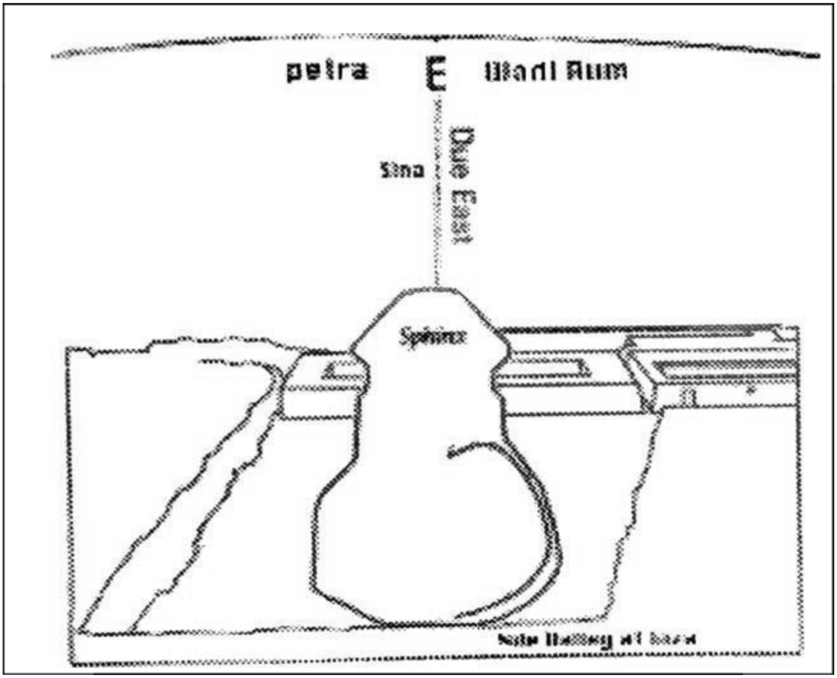

شكل رقم (٨٠): عندما أوجه وجهي نحو الشرق، فإني أولي وجهي إلى بلاد «بونت» أرض الإله.

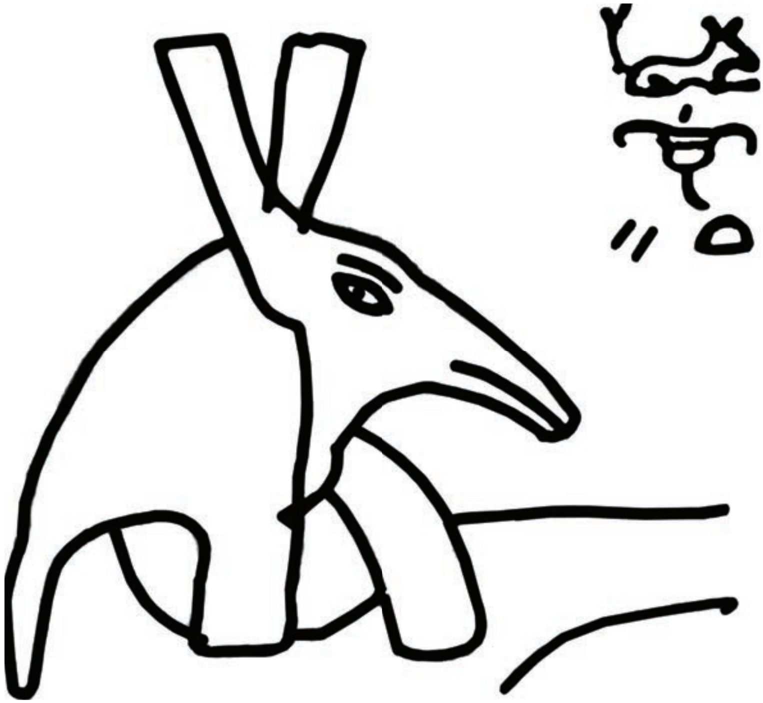

شكل رقم «٨١»: سيت، تفصيل علوي.

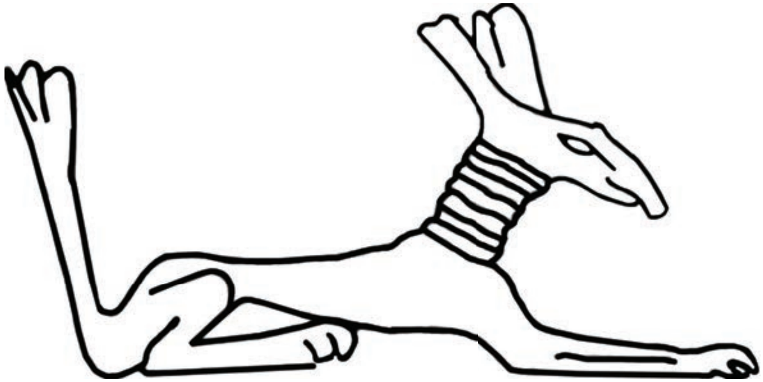

شكل رقم «٨٢»: لم نتمكن من العثور على لوحة الإله المدياني يلبس أطواقًا، لكن لدينا الإله ست المصري يلبس أطواقًا، ويطابق بذلك ذي الشرا أو «شرا»، وتشترك «شرا» في جذرها مع فعل الـ «شر» صفة ست.

شكل رقم «٨٣»: رسوم العنز القديم في صخورٍ ثمودية في سيق الخزعلي بوادي «رم».

شكل رقم «٨٤»: ماعز، عنز بري، سيناء ووادي عربة.

شكل رقم «٨٥»: عنز مدجن.

الفصل الثاني

سر الملكة السوداء

على جداريات معبد روعة الروائع بالدير البحري بالأقصر، نقش الفنان المصري ضمن تقريره الدقيق رسمًا لملكة بلاد بونت: سوداء شديدة الامتلاء، ومعها عنصر بشري يبدو أنه ينتمي إلى ذات جنس الملكة: أسود تبدو في ملامحه إفريقية واضحة، كذلك العنصر الأحمر المشار إليه باسم إرم مع عنصر ثالث يشبه المصريين، وتتضح عليه السمات السامية.

ويحدثنا الكتاب المقدس زمن حكم الملك سليمان، المؤسس الحقيقي لمملكة بني إسرائيل في فلسطين، عن زيارة ملكة لم يذكر لنا الكتاب المقدس اسمها، وعرفها فقط بأنها «ملكة سبأ»، في رواية أراد بها الكاتب التوراتي الإشادة بعظمة الملك سليمان، الذي يزعم ذلك المقدس أن حكمته وشهرته قد طبقت الآفاق، وأن ملوك الارض قد سعوا إليه يطلبون مودته، ومع ذلك لا نسمع أية رواية في ذلك المقدس عن زيارةٍ ملكية، حدثت لبلاد سليمان سوى زيارة «ملكة سبأ»، وتقول الرواية:

> وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان لمجد الرب، فأتت لتمتحنه بمسائل، فأتت إلى أورشليم بموكبٍ عظيم جدًّا، بجمال حاملة أطيابًا وذهبًا كثيرًا جدًّا وحجارة كريمة، وأتت إلى سليمان وكلمته بكل ما كان بقلبها ... وأعطت الملك مائة وعشرين وزنه ذهبًا، وأطيابًا كثيرة جدًّا وحجارة كريمة، لم يأتِ بعد ذلك مثل ذلك الطيب في الكثرة، الذي أعطته ملكة سبأ للملك سليمان، فعمل سليمان خشب الصندل درابزينًا لبيت الرب، وبيت الملك، وأعوادًا وربابًا للمغنين، لم يأتِ ولم يرَ مثل خشب الصندل ذلك إلى اليوم.

> (ملوك أول، ١٠: ١٢، ١٠، ٢، ١)

ولنلحظ أن خشب الصندل لا يأتي إلا من جنوب شرقي آسيا وجنوب الهند (وخاصةً مع القول: أنه لم يعرف مثل هذا الخشب من قبل)، وفي سفر أيوب، ذلك العبراني الذي كان يعيش على حدود فلسطين الجنوبية في جوار آدوم، نجد ذكرًا متكررًا لشعب باسم سبأ والسبئِيِّين، ومثال ذلك:

نظرت قوافل تيماء، سيارة سبأ رجوها.

(أيوب، ٦: ١٩)

وتيماء في الجوار الشرقي لبلاد آدوم، لكن النص قد يفهم منه خاصة من كلمة «سيارة سبأ» بلاد اليمن، حسبما اعتدنا من معلوماتٍ متواترة، تحدثنا عن كون ملكة سبأ عاشت في اليمن، خاصة أنهم في هذا النص التوراتي يظهرون جماعات تاريخية متحركة (سيارة)، وهو ما يذهب بنا فورًا إلى اليمن، مع ما نعلمه من التاريخ المتواتر عن مملكة سبأ اليمنية، لكن المشكلة هنا أن الكتاب المقدس لم يذكر لنا إطلاقًا أن ملكة سبأ كانت ملكة يمنية، أما اللغز فهو أن إشارات الكتاب المقدس يفهم منها تارة أن سبأ كانت بلادًا بعيدة عن فلسطين، وتارة أخرى لا يمكن أن نفهم إلا أن السبئيين كانوا جيرانًا مباشرين، بل وملاصقين لجنوب مملكة سليمان في فلسطين، فهناك نص يشير إلى أن السبئيين من ديارٍ بعيدة، ويمثل ذلك في القول:

وأبيع بنيكم وبناتكم بيد بني يهوذا، ليبيعوهم للسبئيين، لأمة بعيدة، لأن الرب قد تكلم.

(يوئيل، ٣: ٨)

بينما هناك نصوص أخرى تؤدي معنى مخالفًا تمامًا، كما في رواية أيوب الذي يحكي كيف هبط عليه مهاجمون استولوا على ثروته، ويقول:

البقر كانت تحرث، والأُتن ترعى بجانبها، فسقط عليها السبئيون وأخذوها، وضربوا الغلمان بحد السيف.

(أيوب، ١: ١٤، ١٥)

وتعبير «سقط» هنا يشير إلى قرب شديد لموقع السبئيين من فلسطين الجنوبية، ويدعمه أن الكتاب القدس كان يربط دومًا بين عددٍ من الشعوب، يعتبرها من نسبٍ واحد وجنس واحد، ونموذجًا لذلك قوله:

وبنو حام: كوش ومصرايم وفوط وكنعان، وبنو كوش سبأ وحويلة وسبتة ورعمة وسبتكا، وبنو رعمة شبا وددان.

(تكوين، ١٠: ٦، ٧)

ويتكرر ذات النسب في موضعٍ آخر يقول:

وبنو كوش: سبأ وحويلة وسبتا ورعما وسبتكا، وبنو رعمة شبا وددان.

(أخبار أيام أول، ١: ٩)

ولنلحظ هنا أولًا ذلك الربط بين المصريين والسبئيين، فالمصري «مصرايم» حامي من بني حام، و«كوش» ويقصد به الجنس الزنجي، وهو أيضًا حامي من بني حام، فهما إذن شقيقان، ومن أبناء «كوش» بنو رعمة، ومن أبناء رعمة «شبا» الذي يأتي مقترنًا باسم «ددان»، ويتكرر ذلك الاقتران مما يشير إلى تجاورٍ جغرافي، و«ددان» هي «العلا» شرقي «آدوم» الآن.

ويكرر الكتاب المقدس ربطه المستمر بين الجنس الزنجي «الكوشي» وبين السبئيين، فعدا كونه قد اعتبر سبأ ابنًا من أبناء كوش، فقد كان الكوشي والسبئي حليفين، كما في النص:

هكذا قال الرب: تعب مصر وتجارة كوش والسبئيون ذوو القامة، إليك يعبرون ولك يكونون، خلفك يمشون، بالقيود يمرون، لك يسجدون، إليك يتضرعون قائلين: فيك وحدك الله وليس آخر إله.

(إشعيا، ٤٥: ١٤)

ولمزيدٍ من التحديد وراء اتساق ذلك المبعثر، نقرأ بالكتاب المقدس:

بكران مديان وعيفة كلها تأتي من شبا، تحمل ذهبًا ولبانًا وتبشر بتسابيح الرب.

(إشعيا، ٦٠: ٦)

فهذه جمال مديان بلاد التجار الآدومية، تحمل منتجات نعرف نوعها ومصادرها، منها: الذهب واللبان (البخور)، وربما يكون المقصود أن تجار مديان يأتون بمنتجات سبأ من بلادها البعيدة، أو أن يكون المقصود أن مواطن مديان هي ذات مواطن سبأ (؟!).

وحتى لا يتصور القارئ أن بنا جموحًا، لا يستند إلى مقوماتٍ تدعمه لمزيدٍ من تأييد مذهبنا، في موطن التجار الميتانيين أصحاب بلاد نهرين الحورية، فإننا لا بد أن نقر بصدق ما وصلنا إليه من كشوفٍ في بلاد اليمن، أكدت قيام مملكة كبرى باسم سبأ في تلك البلاد حوالي عام ٩٠٠ق.م. وأن تلك الكشوف تملأ المنطقة ولا ينكرها عاقل، ومن ثم سنحاول الإمساك بطرف الخيط للوصول إلى الغرض من أقصر السبل، فنبدأ بقول العالم الأركيولوجي في حضارات الجنوب العربي «فرتزهومل»: «إن الأماكن التي عثر فيها على آثارٍ عربية جنوبية خارج حدودها، وجدت في أقصى الشمال الغربي، أي بلاد مدين القديمة»،[1] أي إنه قد عثر على آثارٍ عربية جنوبية في بلاد مدين القديمة بشرقي سيناء حول العقبة، بعيدة عن بلاد العرب الجنوبية، أصحاب تلك الآثار بمسافاتٍ شاسعة من الصحارى الكبرى، ومن ثم يطرح «هومل» سؤالًا غريبًا مستغربًا يستريب في أي المكانين كان هو الموطن الأصلي للحضارات التي اصطلح على تسميتها حضارات الجنوب العربي؟! وكانت تلك الحضارات تتمثل في أربع ممالك هي: قتبان وحضرموت ومعان وسبأ، ثم يخص سبأ بالذكر، فيتساءل عن حضارتها التي قامت في بلد اليمن ويقول: «هل هذه الحضارة قد بلغت هذه الدرجة من النمو والاكتمال في البلاد ذاتها، أو أنها جاءت إلى البلاد من الخارج كاملة ناضجة؟».[2]

ثم يجيب على السؤال الذي طرحه باكتشاف جديد تمامًا، وهو أن الشعب الذي ظهر في بلاد العرب الجنوبية حوالي عام ٨٠٠ق.م. أو ٩٠٠ق.م. كان يعيش في منطقة أخرى قبل ذلك بأزمان، وأنه كان له في تلك الفترة تاريخ هام، وأن تلك المنطقة الأخرى كانت بداية التاريخ الحقيقي للسبئيين، وأن هذا الوطن الأول أو الخارجي كان يقع في شمالي بلاد العرب.

ثم استنتج «هومل» أنهم عاشوا في الإقليم العربي الشمالي، الذي كان يطلق عليه الآشوريون: بلاد «عريبي»، وأن لدينا معلومات أخرى عن ذلك الإقليم، من المأثور الآشوري،

---

[1] فرتز هومل، التاريخ العام لبلاد العرب الجنوبية، بحث ضمن كتاب التاريخ العربي القديمة، ترجمة د. فؤاد حسنين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٥م، ص٥٦.

[2] الموضع نفسه.

فالكتابات الآشورية تذكر هذا الإقليم، مع عدد من الملكات على التوالي، منهن الملكة زبيبي ملكة بلاد عريبي، ومنهن الملكة سمسي حوالي ٧٣٨ق.م. وذكر لملكة أخرى باسم يتعي أيام الملك سنحاريب الآشوري، وملكة رابعة زمن الملك آسر حدون الآشوري باسم «تبوءه».

وهنا ننقل عن «هومل» نصيًّا قوله:

> ورد مرة لفظ سبأ في نقش معيني، وكان هذا النص يشير إلى أن هذا اللفظ يدل على قبيلة بدوية، كانت تسطو على الطريق التجاري، الممتد بين بلاد العرب الجنوبية، وبين معان الواقعة في شمال بلاد العرب، وكانت تسطو أيضًا على القوافل المعينية القادمة إلى مصر، ثم نقرأ القصة التي تحدثنا عن زيارة ملكة سبأ لسليمان، فهذه القصة لا يمكن فهمها جيدًا إلا إذا قدرنا أن السبئيين كانوا يقطنون في شمال بلاد العرب، وليس الإنسان في حاجةٍ هنا إلى تأويل، ونستطيع أن نعتقد أن هناك نواة تاريخية لهذه القصة، كذلك مما يؤيد وجود وطن للسبئيين أصلي في شمال بلاد العرب، وورد لفظ سبأ مصحوبًا بلفظ ددان في العهد القديم. كذلك من العبارات التي تذكر وطن السبئيين في شمال بلاد العرب، ما جاء في النقوش السبئية ذاتها، حيث نجد سبأ ويهبليج، وكذلك سبأ وبيشان، وما إليها، ولا نجد لفظ سبأ مستقلًّا؛ وذلك لأن يهبليج هي دقلة في بلاد الجوف في شمال بلاد العرب، وبيشان هو وادي الدواسر.[٣]

وهكذا وجد هومل إشارات أركيولوجية ونصوصية قديمة، استنتج منها أن السبئيين كانوا خارج بلاد اليمن، في شمالي بلاد العرب، قبل أن يهبطوا جنوبًا إلى اليمن، ليبدءُوا هناك حضارة جديدة حوالي عام ٩٠٠ق.م. وأن موطنهم الشمالي الأول هذا، هو المكان الذي أطلقت عليهم نصوص الرافدين «بلاد عريبي» أي «العربية» أو «العربة»، وأن تلك المملكة اشتهرت بحكم النساء لها، ومنهن ملكات شهيرات، وهو الأمر الذي يلتقي مع ما ورد بالكتاب المقدس، عن ملكة سبأ التي زارت سليمان، على أن «فرتز هومل» أبدًا لم يحدد لنا مساحة بعينها أو موقع معلوم بعينه، أو تسمية أخرى قديمة لتلك الأرض التي قامت فيها مملكة سبأ الأولى، ولا حدود تلك الأرض.

---

[٣] نفسه، ص٦٣، ٦٤.

لكن في نصٍّ آخر لعالمٍ آخر متخصص في جنوب الجزيرة، لا يقل شأنًا هو «رينيه ديسو»، نفهم أن هناك قبائل عاشت شمال بلاد العرب، جاءت إليها من الجنوب اليمني، وهو ما يقوله نصًّا: «ومن المحقق أن السكان الذين أقاموا في اللجة ببادية الشام في قرية باسم نجران، قد أتوا من جنوب الجزيرة العربية؛ لأن اسم هذه القرية يذكرنا باسم المدينة المشهورة في جزيرة العرب، أما قرية بوريكة Bourke التي توجد أيضًا في اللجة، فقد كان الرومان يطلقون عليها اسم βορελα θξα∂αυ أي بوريكة السبئيين».[٤]

وهذا يعني أن السبئيين جاءوا من الجنوب إلى الشمال من زمنٍ بعيد، وأقاموا لهم ممالك في الشمال إذا أخذنا بالقولين، ثم جدَّتْ أحداث اضطرتهم إلى العودة مرة أخرى إلى مواطنهم الأولى في اليمن، حوالي عام ٩٠٠ق.م.

ثم تستوقفنا لفظة «بوريكه» أو «بوليكة» لنجد لها صدى في لسان العرب؛ إذ يقول تحت مادة أيك:

> في التهذيب: في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾، وقرئ أصحاب ليكة، وجاء التفسير أن اسم مدينتهم كان ليكة.

ولو صرفنا الاسم «بو – ليكة» بإضافة US، فستصبح «بوليكيس» أو «بلقيس»، ذلك الاسم الذي تواتر في المأثور الإخباري العربي بحسبانه اسم ملكة سبأ زمن الملك سليمان.

وهنا نقف مع «هومل» نتأمل:

البلاد باسم بلاد عريبي، والوادي الممتد بين العقبة والبحر الميت منذ وصلنا اسمه مدونًا، يحمل اسم وادي عربة، ويقع في شمالي غربي جزيرة العرب، وهومل يقول: إن بلاد عريبي لا شك تقع شمالي جزيرة العرب.

فهل نجازف ونقول: إن الموقع الذي اخترناه للأحداث منذ بداية هذا البحث، هو الموقع الذي كان لا بدَّ أن يبحث عنه هومل؛ حتى يجد بلاد عريبي، حيث قامت سبأ الشمالية بعيدًا عن اليمن؟ ثم نرجح مع المرجحين الآن أن الملكة العربية، التي ذكرتها أخبار العرب وأشعارهم وأساطيرهم باسم الزباء، ليست زنوبيا ملكة تدمر زمن الرومان، خاصة أن هومل نفسه يقول إنه جاءنا اسم لملكة من ملكات بلاد عريبي باسم زبيبي في

---

[٤] رينيه ديسو، العرب في سوريا قبل الإسلام، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٥٩م، ص١٠.

نصوصٍ رافدية حوالي عام ٧٣٨ق.م. وهو تاريخ قريب من تاريخ قيام دولة سبأ اليمنية من بعده، وربما كان هناك خطأ بسيط في الحسابات التاريخية، فإذا كان ذلك كذلك، فإن الملكة زبيبي كانت ضمن الخط الأخير لملكات سبأ الشمالية، وربما كان اسم زبيبي اسمًا متواترًا في مسميات ملكات سبأ الشمالية، ويبدو أن واحدة من سلسلة الملكات «الزباء»، قد اكتسبت شهرةً لأسبابٍ لم تزل مجهولة لدينا، فذكرتها أساطير العرب وأخبارهم.

ولنلاحظ أن اسم «الزباء» أو «زباء» العربي، يتطابق لسانيًّا مع اسم المملكة والشعب المعروف باسم «سبأ»، وهو الأمر الذي يعني أن المجد الذي حققته الملكة الزباء، جعل الإشارة بعد ذلك إلى بلادها باسمها وإلى شعبها منسوبًا إليها، بلاد الزباء أو بلاد الملكة سبأ.

وربما كانت «زباء» التي قيل إنها من ملكات سبأ، كانت هي ملكة سبأ التي زارت سليمان، وأغفل الكتاب المقدس ذكر اسمها دون سبب واضح، اللهم إلا إذا كانت الترجمة قد حولتها من «الملكة زباء» إلى «ملكة سبأ»، وهو الفرض الذي يجد تأييده في فراسة «فليكوفسكي»، الذي قضى شطرًا من عمره يدرس التلمود، ليخرج ضمن ما خرج به بالقول: «إن الراي الواضح في التلمود كله، أن سبأ في تسمية ملكة سبأ، ليست تسمية جغرافية تعود إلى مكانٍ معين، بل إنه اسم شخص، حتى المخطوطات العديدة عن جنوب شبه الجزيرة العربية، أًغفلت أي ذكر لملكة سبأ هذه، عدا الكثيرين من الرحالة والباحثين، الذي قلبوا كل حجر في جنوب شبه الجزيرة، بأمل العثور على أي دليل، ولكن بلا أدنى أي نجاح يذكر في الكشف عن هذا اللغز.»[٥]

أما أصحاب الأخبار العرب، فقد رووا نتفًا عارضة عن الزباء، فهي عند ابن قتيبة ابنة ملك الجزيرة، وأنها قتلت زوجها جذيمة الأبرش.[٦]

وإن ذهبت الأغلبية منهم إلى أن الزباء من العمالقة، ويلخصه القول إن: «العمالقة من ملوك حمير كانوا بالشام، ومنهم الزباء قاتلة جذيمة الأبرش الملك الأزدي، وهم من ولد عمليق بن السميدع بن الصوار بن عبد شمس، والعماليق من ولد عملاق بن لاوذ بن سام، منهم الفراعنة ملوك مصر.»[٧]

---

[٥] فليكوفسكي، عصور ... سبق ذكره، ص١٣٢.

[٦] ابن قتيبة، المعارف، تحقيق د. ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٨١م، ص٦٤٥.

[٧] حسين الويسي، اليمن الكبرى، النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٣م، ص١٧٤.

أما المؤرخ «ابن العبري» فيقدم لنا تعريفًا بالملكة، التي زارت سليمان بقوله: «وأتته ملكة التيمن، وقدمت له مائة وعشرين قنطارًا من الذهب، وطيبًا وجواهر ثمينة»،[8] والتيمن ليس اليمن إنما هو واحدة من كور بلاد آدوم، وقبل «الملكة سبأ» ومملكة سبأ، نجد ذكرًا لحضارة جنوبية تجارية كبرى باسم معين، وأنها أقامت لها محطات تجارية كبرى، وأنها قامت في الجنوب، وامتدت حتى حدود الجزيرة الشمالية عند معان المصرية، والظن أن معان المصرية اكتسبت اسمها من كونها أصلًا محطة معينية، ثم نعتت بموضعها في جوار مصر الأقصى «آدوم وسيناء»، فسميت معان المصرية «معان مصران»، أما النص المعيني أو المعاني الذي جاء به «هومل» من بلاد اليمن، واكتفى بترجمته، دون أن يخبرنا بدلالته، فهو القائل: إن القوافل التجارية المعينية كانت تذهب بتجارتها إلى غزة ومصر (بالنص) وذلك:

عبر نهران وآدوم؟!

إن وصول التجارة المعينية إلى مصر المعروفة، كان يمر أولًا مخترقًا منطقة تحمل اسم نهران، وما زلنا نذكر نهارين/ميتاني/مديان، ثم منطقة آدوم في الجوار، وفي النقش رقم «٥٣٥» الذي جاء به من الزمن الأركيولوجي «هليفي»، نجد حديثًا يُترجم بلا معنًى بدوره، يتكلم عن علاقات تجارية لمعين اليمنية مع مصر وآشور، وأن الطريق التجاري كان يمر:

عبر نهران.

التي يترجمها:

أرض النهر.

ويضيف: لا بد أنها غزة (؟!) ثم لا يُعطينا تفسير لماذا غزة؟! أما الأغرب فإنه ضمن نقوش «هليفي»، وبالتحديد في النقش رقم «٥٠١»، نجد في بلاد مدين عند العقبة ملكًا معينيًّا، والمفترض أن معين باليمن (؟!)، وأن هذا الملك يحمل اسم «وقهي إيل نبط»،[9]

---

[8] غرغوريوس الملطي المعروف بابن العبري، تاريخ مختصر الدول، د. ن، د. ت، ص٣٢.

[9] فرتز هومل، التاريخ العام لبلاد ... سبق ذكره، ص٦٨، ٦٩، ٧١، ٧٢.

وهو ما يذكرنا باسم تلك البلاد الذي افترضناه بلاد «بونت»، التي عُرفت بعد ذلك باسم «النبط» أو «الأنباط»، ثم نجد المؤرخين المسلمين من الإخباريين القدامى، يذكرون لنا «يثرون» كاهن مديان نسيب موسى باسم «شعيب»، وأن «شعيب النبي من حمير».[١٠]

أليست تلك بقرائن مبينة؟ وأن زمان المعينيين كان يعرف بلاد «آدوم/مدين» بأنها «نهرن» أو «أرض النهر»، وأن العلاقات بين الشمال والجنوب وصلت حد الالتحام، حتى حكم بلاد «مديان/آدوم» ملكٌ معينيٌّ؟ وعاش فيها «شعيب» الحميري، وشعيب مدياني كما نعلم، مما يعني أن بعض سكان مدين كانوا من اليمن، ونتذكر أن هيرودوت جاء بالكنعانيين الفينيقيين من جنوب البحر الأحمر.

ومما يثري رصيدنا هنا ذلك النص الآشوري، الذي وردنا من زمن الملك «سنحاريب»، ويذكر فيه الجزية التي دفعها له ملك سبأ «كرب إيلو»، وهي الجزية التي تتكون من منتجات العطور والأحجار، كانت تليق ببناء مُطعم بالذهب والفضة والأحجار النادرة، فقد كانت لبيت الإله أكيتو في بلاد آشور، أو كما يقول النص مؤكدًا على أن الأحجار، تلك الأحجار التي لا شك لم تكن ككل الأحجار، لكنها أحجار تليق ببلاد آدوم:

> عند وضع الأساس لبيت أكيتو، قدمت الهدية التي أمر ملك سبأ بإحضارها، وهي عبارة عن أحجارٍ كريمة وروائح وأحجار، ومن هذه الهدية وضعت أنا الأحجار والروائح في بيت أكيتو ... فضةً وذهبًا، وحجر أوكنو، وحجر ساندو، وحجر خلالو، وحجر مشجر، وحجر أورس، وحجر أودشش، وسكبت ماء النهر.[١١]

ويعنينا هنا أن نورد مقطعًا من المؤرخ اليمني محمد عبد القادر بافقيه، يشير فيه إلى أن الدكتور فرتز هومل يقول:

> إن الفترة السابقة لتاريخ سبأ الحقيقي، بدأت خارج اليمن، ويرجح أن هذا الوطن الخارجي كان في الأصل شمال بلاد العرب، ومثل هذا سبق أن أوصى به سترابو، حين ربط بين الأنباط والسبئيين؛ لكونهم أول من سكن العربية

---

[١٠] الويسي، اليمن ... سبق ذكره، ص١٧٤.

[١١] هومل، التاريخ العام لبلاد ... سبق ذكره، ص٧٦، ٧٧.

السعيدة، وتمشيًا مع هذا الرأي اقترح الأستاذ و. ف. ألبرايت، تاريخًا لهجرتهم من الشمال إلى الجنوب اليمني حوالي ١٢٠٠ق.م. ذاهبًا في نفس الوقت إلى أن هجرتهم تلك، تأتي بعد هجرة القبائل الأخرى «معين وحضرموت وقتبان»، والتي حدثت في تقديره حوالي ١٥٠٠ق.م. ولكننا لا نستطيع أن نقطع برأي في هذه القضية الشائكة، التي يكتنفها الظلام من كل جانب.

وقد ورد اسم سبأ بكثيرٍ من التفخيم في الكتابات الكلاسيكية ومنهم بليني، بأنهم أشهر من عُرف من قبائل البلاد العربية، وأفرد لهم سترابو فقرةً مطولة نقلًا عن أرتميدوس، وصف فيها بلادهم، وذكر فيها أنهم شعبٌ كبير التعداد، وأن بلادهم شديدة الخصوبة، تنبت المر واللبان، وأنواعًا أخرى من الأعشاب الذكية الرائحة، وزعم أن لها أفاعي حمراء داكنة، طول الواحدة منها شبر، تقفز إلى خصر الإنسان، وأنها إذا لدغت فإن لدغتها غير قابلة للشفاء.[١٢]

أما الكتاب المقدس؛ فكان يذكر على الدوام الكوشيين بالترافق مع السبئيين، والكوشيون هم الجنس الزنجي الأسود، أما الغريب حقًّا ويلتقي مع أطروحتنا التقاءً مدهشًا، فهو أن سفر التكوين بالكتاب المقدس يجعل الكوشي أخًا للمصري وللكنعاني. لقد كان الكوشي أو السبئي يعيش على الحدود المصرية في بلاد آدوم، وعلى حدود فلسطين «بلاد كنعان» الجنوبية، وقد وجدت لغة الكتاب المقدس تعبيرها عن تلك العلاقة الجغرافية، بقولها إن الكوشي أخو المصري والكنعاني ساكن فلسطين، خاصةً إذا لم ننسَ أن على تلك الحدود كانت تقع مصر الأقصى، حسبما أخبرنا هروشيوش، ويصبح مفهومًا لنا نص التوراة، الذي كان شديد الغموض يقول:

بكران مديان وعيفة كلها تأتي من شبا.

(إشعيا، ٦٠: ٦)

وهل التواصل الغريب بين الجنوب والشمال لجزيرة العرب، يمكن ملاحظته في تشابه أسماء الأعلام؟ وما يعنينا منها ذلك الاسم الذي تم العثور عليه في حفائر بابل، وذلك في

[١٢] محمد عبد القادر بافقيه، تاريخ اليمن القديم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٥م، ص٥١، ٥٣.

قبرٍ لعربي جنوبي يمني، كان يُدعى «هنتشر بن عيسو»،[13] وعيسو كما عرفنا هو «آدوم الحوري» في الشمال.

وفي نصوص تجلات بلاسر الثالث الآشوري، نقع على جدول بالجزية التي وصلت عاصمته، والبلاد التي أرسلتها وأسماء ملوكها، وفي آخر ذلك الجدول نقرأ بترتيبٍ جغرافي الجِزَى التي وصلته من ملوكٍ متجاورين كالآتي:

> سابينو بعل ملك بيت عمون، وسلمانو ملك موآب، وميتني ملك عسقلان، وأحاز ملك يهوذا، وكوش ماليكو ملك أيدوم، وملك غزة.[14]

وكلها في ذات الموقع؛ لأن عمون وموآب تلاصقان شرقيَّ البحر الميت وعسقلان على الساحل الفلسطيني، ويهوذا جنوبي فلسطين ملاصقة لآدوم، ثم آدوم الممتدة من البحر الميت إلى خليج العقبة، وملكها اسمه الأسود أو الزنجي «كوش»، وغزة على المتوسط في ذات الجوار.

وفي زمن آسر حادون ابن سمحاريب الآشوري ٦٨٠–٦٦٩ق.م. تجري حرب مع عدد من الملوك منهم «كوس جبري ملك إيدوم».[15]

ولعله من الواضح هنا أن بعض ملوك آدوم، حتى هذا الزمن المتأخر كانوا يحملون صفة «كوش»، وفي النص الأول يمكن أن نرى فيه صيغة «الملك الكوشي»، وفي الثاني صيغة من معنى جبار وجبروت «كوش جبري»، فهو الكوشي الجبار، أو جبري الكوشي.

والنصان يرددان نظريتنا المتواضعة بكل فصاحة بشأن العمالقة، فقد قلنا إن من ألقابهم الجبابرة، وعم لاق أو عملاك، وهنا يأتي كوشي الزنجي مرةً بكونه «ماليكو»، وهي بزيادة عم تصبح «عملاقي»، ثم مرة بكونه «جبري» أو جبار.

والكتاب المقدس، وهو يسجل قرابات الشعوب وأصولها، يجعل الكوشي أخًا للمصري، يسكن إلى جواره، ونسل ذلك الكوشي الذي سُميت بأسمائهم مواضع جغرافية، يمكنك أن تجده جميعًا في حدود سيناء الشرقية، مثل سبأ وددان وحويلة حسب شجرة الأنساب التوراتية، وأنهم كانوا أبناء عمومة للكنعانيين بمُدنهم الواردة بأسماء أشخاص كأبناء

---

[13] الموضع نفسه.

[14] فراس السواح، الحدث ... سبق ذكره، ص١٠٦.

[15] نفسه، ص١١٨.

لكنعان بن حام، مثل صيدون (صيدا) ويبوس (أورشليم)، والأموريين الذين عاشوا في بلاد الشام ... إلخ.

ويفرق الكتاب المقدس بين جنسين من الشعوب، هما الجنس السامي والجنس الحامي، لكنه يجعلهما أخوين، ثم يذهب بنسل سام جميعه، مع خلطٍ شديد إلى فلسطين وجنوبها، وإلى جنوب جزيرة العرب في الوقت ذاته، وكل هؤلاء الساميين عنده إخوة لأبٍ واحد أو فروع لجنسٍ واحد، فمن نسل سام جاء عابر، الذي أنجب يقطان (قحطان)، ومنه جاء حضرموت ودقله وأوفير وشبا، وكلها أسماء لمواضع تقع جنوبي الجزيرة،[١٦] ومن عابر أيضًا جاء إبراهيم ونسله الإسرائيلي والآدومي والإسماعيلي، وكلها أسماء لمواضع تقع شمال غربي الجزيرة على الحدود السينائية.

ومع تذكرنا لما ورد في تاريخ «هيرودوت»، عن قدوم العنصر الفينيقي الكنعاني من البحر الأريتري، إلى المواضع التي استقر فيها على سواحل المتوسط الشرقية، نجد أنفسنا في حيرةٍ والتباس، لا يحله إلا افتراض أن المملكة التجارية التي قامت في بلاد آدوم، كانت على تواصلٍ مع منابع تجارتها في الجنوب اليمني والإفريقي طوال الوقت، الأمر الذي أدى إلى هجراتٍ وتداخل بين شعوب المنطقة، وكان طبيعيًّا تمامًا أن نجد العنصر الزنجي الأسود، حيث العاج والذهب والقردة وجلد الفهود، أحد العناصر الأساسية للشعوب التي وصلت بلاد آدوم شمالًا عند العقبة واستوطنتها، وربما من ذلك العنصر كانت «الملكة زباء» أو الملكة «سبأ». ولا يفوتنا الإشارة هنا أنه لا يوجد مسمى لتلك الملكة بالاسم الشائع «بلقيس» داخل المقدس التوراتي أو القرآني، إنما ورد هذا الاسم في رواياتٍ شارحة لحقت بالنصوص المقدسة، أما الثابت فهو أن «حبشتان» بلغة الجنوب العربي، وتعني «الأحباش»، كانوا يسكنون حسبما ذكر «أورانيوس» على شاطئ البخور،[١٧] وأن أول ملك لسبأ اليمنية حسبما يخبرنا به نقش «جلازر» رقم «١٤٤٧»، كان يحمل اسم «سمو هو عليا» أو «شوموهو عليا» كما كتبه هومل،[١٨] ويترجمه المؤرخ فؤاد حسنين «سمه علي»

[١٦] ما عدا شبا التي تأتي في العهد القديمة مقترنة مع «ددان/العلا»، مما يشير إلى تجاورٍ جغرافي، وربما هي ضبا الحالية على الساحل الشرقي للبحر الأحمر مقابل الغردقة المصرية، والملحوظة لصديقي الدكتور محمد سميح.

[١٧] فرتز هومل، التاريخ العام ... سبق ذكره، ص٩٣.

[١٨] نفسه، ص٧٧، ٧٨.

الذي يتحدث عن نفس النقش، ويقول: «إن سمه علي يتحدث فيه عن تقديمه البخور والمر إلى الإله السبئي القومي المقه، باسمه ونيابه عن قبيلته التي قادها في الفيافي والقفار إلى الأرض السعيدة، التي تفيض لبنًا وعسلًا.»[١٩]

وهنا يجب ألا يفوتنا أن «سمه علي» هو بالنطق الصحيح دون أية تجاوزات لغوية، يمكن نطقه «سماعيل» أو«إسماعيل». ويستمر فؤاد حسنين ليذهب أبعد من «هومل»، فيرى أن كل حضارات الجنوب، قتبان ومعين وحضرموت وسبأ، إنما قدمت إلى الجنوب مع أهلها، في هجرةٍ قادمة من الشمال، وذلك في قوله: «إن هجرة القبائل السينية — التي تمتاز باستخدام السين في صيغة السببية وضمير الغائب، وهي القتبانية والمعينية والحضرمية — من الشمال إلى مواطنها التاريخية قبل عام ١٥٠٠ق.م. أما هجرة القبائل الهائية، وتمتاز لهجتها باستخدام الهاء في صيغة السببية وضمير الغائب، وهي السبئية، من الشمال قبل عام ١٢٠٠ق.م. ...»[٢٠]

وعليه فإذا تحدثنا عن سبأ، فإنه يمكن نطقها «هبا» أو سبا فكلاهما صحيح، وكانت «هبات»، كما سبق وأسلفنا، إلهة ميتانية معبودة، واعتبر المؤرخون أن مقر عبادتهما كان بالرافدين الأعلى، حيث بلاد ميتاني المزعومة، و«هبات» هي مؤنث «هبا» أو «سبا»، وإلى «هبا» هذا انتسبت الأميرة الميتانية «جيلوهبا»، التي يكتبها البعض «جيلوخيبا» والبعض «جيلوهيبا» والبعض «يلوكابا»، وهي التي تزوجها الملك المصري «آمنحتب الثالث» عاقدًا بها صداقته الحميمة، مع سكان البلاد التي عُرفت باسم ميتان، التي تصورها المؤرخون واقعة في الرافدين الأعلى باسم «ميتاني»، ولا ننسى أن زوجة عمران العبراني والد النبي «موسى» وأم هذا النبي، كان اسمها «يوكابد» أو «يوكابا» حسبما جاء بالتوراة.

وقد لاحظ «لويس عوض» أن حرف السين يتم تبادله مع حرف «ه» ما بين اللغتين السامية والحامية، فالعربي يقول مثلًا: سأذهب، سأعمل. والمصري يقولها نفسها: هأذهب، هأعمل.[٢١]

وهنا يفيدنا «فرتز هومل» أن سكان سبأ في الجنوب العربي مع انتشارهم الواسع، كانوا ينقسمون إلى طبقاتٍ حسب وظائفهم، ومن هذه الطوائف تلك الطائفة التي حملت

---

[١٩] فؤاد حسنين، تعقيبات على ترجمته لكتاب التاريخ العربي القديم بعنوان استكمال ... سبق ذكره، ص٢٧٩.

[٢٠] نفسه، ص٢٨٣.

[٢١] لويس عوض، مقدمة في فقه اللغة، دار سينا، القاهرة، ١٩٩٣م، ص١١١.

اسم «ا. د. و. م. ت»،[٢٢] فهل كانت «أدومت» طائفة وظيفية كما قال؟ أم أنها يجب أن تحيلنا إلى بلاد «آدوم»؟ والأكثر غرابة أنه قد وجد لقب «قين»، ينتشر في بلاد سبأ الجنوبية، واعتبره أيضًا لقبًا لطائفةٍ وظيفية (؟!)[٢٣] ونحن نعلم مما سبق أن القيني هو المدياني، صانع الحديد والنحاس، كما يضيف لقبًا آخر يعتبره لقب الشيوخ الكهنوتيين، هو «خليل»،[٢٤] ويقول إنه اقتصر على أحد أفخاذ سبأ، و«خليل» هو لقب البطرق «إبراهيم» كما نعلم، خاصة وأنه يقول: إن ذلك الفخذ كان من أسرة قرأ اسمها في النقوش «حذفر»،[٢٥] وهو في رأينا ما يلتقي مع الاسم «آذر» أبي إبراهيم كما ورد بالقرآن الكريم.

وبدون أن يقيم «هومل» أية علاقة مما نجازف نحن به هنا، أراد التأكيد على تواصل الجنوب بالشمال، عند مدين تحديدًا زمن الدولة المعينية، فقال: «وفي تلك البلاد ظهر موسى واحتضنته بلاد مدين المعينية.»[٢٦]

وبين قوائم الملوك المكاربة لسبأ، ممن حكموا باليمن من حوالي ٨١٥ق.م. حتى ٥١٠ق.م. نقف مع أسماءٍ لا يصح إغفالها، وهي أسماء مركبة، من قبيل أسماء الملوك «أنمارم يهو أمين» و«نشمي كرب يهو أمين» و«كرب إيل وتريهونعم»،[٢٧] ولنا هنا أن نرتاح لاستنتاج «هومل»، وهو يقول إن الاسم «يهو» الوارد في تركيب تلك الأسماء، يشير إلى الإله الإسرائيلي «يهوه»، ونحن نعلم أن يهوه كان إلهًا سينائيًّا مديانيًّا قابله موسى في عليقة مشتعلة بسيناء، أما الطريف حقًّا، فهو أن بين الأسماء التي عددها لنا «ديتلف نيلسن» لآلهة الجنوب اليمني، يطالعنا منتصبًا ذلك الإله الذي تكرره ذكره في النصوص باسم «ذو شرى».[٢٨]

وهكذا يمكننا أن نستنتج أن السبئيين قد هاجروا إلى الشمال عند آدوم في زمنٍ قديم، ثم عادوا جنوبًا حوالي عام ٩٠٠ق.م. إلى مواطنهم الأصلية، ولم يأتوا اليمن مهاجرين

[٢٢] هومل، التاريخ العام ... سبق ذكره، ص١٣٠.

[٢٣] نفسه، ص١٣٩.

[٢٤] نفسه، ص١٤١.

[٢٥] الموضع نفسه.

[٢٦] نفسه، ص١٠٧.

[٢٧] نفسه، ص٨٩.

[٢٨] نيلسن، الديانة العربية ... سبق ذكره، ص١٩٠.

من أصولٍ جنسية بعيدة، إنما كانوا فيها وعادوا إليها، وقد ترافق تاريخ قيام دولتهم في الجنوب قبل ظهور مملكة سليمان في فلسطين، مما يعني أنهم كانوا موجودين في بلاد آدوم، منذ زمنٍ طويل قبل قيام مملكة سليمان، وأنهم كانوا متواجدين في آدوم زمن الأحداث الكبرى، التي ترويها التوراة عند دخول بني إسرائيل إلى مصر وخروجهم منها، وأنهم كانوا يعبدون إله مديان «يهوه»، الذي اكتشفه موسى في نبات مضيء في بلاد مديان السينائية، وكذلك الإله ذو الشرى. أما أسباب ذلك الرحيل جنوبًا للسبئيين، فيجد صداه في تل المعارك التي دارت بين الأقارب في شرقي سيناء، مع التفكك الذي أصاب الأحلاف، عند خروج الهكسوس ثم الإسرائيليين من مصر، وازداد أُواره عند قيام مملكة إسرائيل على يد منشئها الأول شاول، الذي تركها لداود وولده سليمان، وفي زمن شاول نقرأ بالكتاب المقدس:

> وقال صموئيل لشاول: إياي أرسل الرب لمسحك ملكًا على شعبه إسرائيل، والآن فاسمع صوت كلام الرب، هكذا يقول رب الجنود: إني قد افتقدت ما عمل عماليق بإسرائيل، حين وقف له في الطريق عند صعوده من مصر، فالآن اذهب واضرب عماليق، وحرموا كل ماله، ولا تعف عنهم بل اقتل رجلًا وامرأة، طفلًا ورضيعًا، بقرًا وغنمًا، جملًا وحمارًا، فاستحضر شاول الشعب وعده في طلايم مائتي ألف رجل، وعشرة آلاف رجل من يهوذا، ثم جاء شاول إلى مدينة عماليق وكمن في الوادي، وقال شاول للقينيين: اذهبوا حيدوا، وانزلوا من وسط العمالقة، لئلا أهلككم معهم، وأنتم قد فعلتم معروفًا مع جميع بني إسرائيل عند صعودهم من مصر، فحاد القيني من وسط عماليق، وضرب شاول عماليق من حويلة، حتى مجيئك إلى شور التي مقابل مصر.
>
> (صموئيل أول، ١٥: ١–٧)

وإذا كان الكتاب المقدس قد وصف العمالقة، بأنهم جبابرة طوال القامة، فإنه هو نفسه يصف السبئيين بقوله: «السبئيون ذوو القامة» (إشعيا، ٤٥: ١٤)، كما أن قاموس الكتاب المقدس يقول لنا تحت مادة سبئيون: «أهل سبأ وهم المذكورون في سفر (أيوب، ١: ٥) وهم شعب طويل القامة، وكانوا يغيرون على البلاد، ويسلبون ساكنيها كما فعلوا مع أيوب، وهم يتنقلون من بلدٍ إلى بلد (أيوب، ٦: ١٩)، وكانوا يتاجرون في العبيد

(يوئيل، ٣: ٨). ويعتقد دلمان أنهم فرعٌ من الكوشيين، وكانوا أهل حضارة، ويشتغلون بالتجارة، فتاجروا في الذهب والعطور، ولم تقتصر تجارتهم على حاصلاتهم المحلية، بل امتدت إلى حاصلات الهند والحبشة، وانتشر أهل سبأ في الأراضي، حتى وصلوا إلى شمال غربي بلاد العرب، ووصلوا إلى شمال الصحراء مع النبطيين، كما امتزجوا بالقبائل الأخرى عن طريق الزواج والارتباطات السياسية، وكان من تأثير ذلك أن اختلطت سلاسل أنسابهم». ويضيف تحت مادة «شبا» أنهم كانوا مشهورين بأنهم تجار ذهب وتوابل وأحجار كريمة، وهم أيضًا تجار رقيق (يوئيل، ٣: ٨)، ورغم أن الكتاب المقدس لم يقل أبدًا بمملكة سبئية شمالية جوار فلسطين، فإن قاموس الكتاب المقدس قد لاحظ أن السبئيين كانوا «حراس صحراء» (أيوب، ١: ١٥ و٦: ١٩)، وأيوب كان يعيش جنوبي فلسطين في النقب، على حدود بلاد آدوم، مما يعني أن السبئيين كانوا في ذات الجوار.

وفي الحديث النبوي أن رسول الله محمد ﷺ قد سأل عن سبأ، فأجابه رجل من نسابة العرب بقوله إنه كان رجلًا «أولد عشرًا، تيامن منهم ستة (أي سكنوا اليمن [المؤلف])، هم حمير وكندة وهمدان ومذحج والأشاعر وأنمار، وتشاءم منهم أربعة (أي سكنوا الشام [المؤلف])، هم جذام ولخم وعاملة والأزد.»[٢٩]

وهنا لا تفوت العين المدققة أن النبي موسى كان قد تزوج «صفورة» بنت الكاهن المدياني «يثرون» أو «رعوئيل»، ولا نعلم عنها أكثر من ذلك، حتى يفاجئنا الكتاب المقدس، دون أي تفسير، أن تلك الزوجة كانت سوداء زنجية «كوشية»، وهو ما يعني أن المديانيين كانوا جنسًا أسود، وهو ما تفيدنا به قصة الخلاف بين الأشقاء هارون ومريم في جانب، وموسى في جانب آخر:

> وتكلمت مريم وهارون على موسى بسبب المرأة الكوشية التي اتخذها؛ لأنه كان قد اتخذ امرأة كوشية.
>
> (عدد، ١٢: ١)

ويبقى السؤال: هل عرَفت نصوص مصر سكانًا قطنوا شرقي سيناء باسم سبأ؟ الحقيقة أننا لم نعثر على ذلك الاسم دالًّا على شعب ما، لكنا وجدنا الاسم بذات الرسم

---

[٢٩] الويسي، اليمن ... سبق ذكره، ص١٦٥.

مكتوبًا «س ب ء» 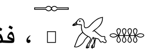 ، فتقول نصوص الأهرام: «إن الأفعى في السماء «س ب ء»، «ح و ر» على الأرض»،[٣٠] فماذا تعني «سبأحور»؟

يمكن الاستنتاج أن سبأحور إشارة إلى «سبأ»، التي عاشت في وادي حور في بلاد آدوم الحورية، على أن النص هنا يتحدث عن ثعبانٍ باسم «سبأ»، يعبد في عين شمس كتعويذة ضمن الحيوانات الضارة وأعداء الأرباب، وأُلحقت عبادته بمقابر الموتى، واعتبر أحد تجليات أوزيريس إله الموتى، وهو عين الأمر الذي يحيطنا به علمًا «بدج» في معجمه؛ حيث يقول إن «س. ب SP»، تعني دودة كما تعني أفعى، و«س ب ء» الإله الأفعى رئيس الأرواح السبعة، التي تحرس أوزيريس، و«س ب ء – و ر» اسم الإله و«س ب ء – ح ر» معبود قبيح الوجه، ويمكن أن نلمس في الاسم «س ب ء – و ر» تشابهًا يكاد يصل حد التطابق مع اسم زوجة موسى المديانية «صفورة».

س ب ء   و ر

س ف   و ر هـ

وإذا رجعنا إلى العربية وجدناه في صيغة «سف»، وإن كان لسان العرب قد خصصها في مادة سفف بنوعٍ من الحيات في قوله:

«السف حية تطير في الهواء»، وأنشد الليث:

وحتى لوَ ان السف ذا الريش عضني   لما ضرني من فيه ناب ولا ثعر

و«الثعر» هو السم، أما «صفورة» زوجة موسى؛ فقد كتبتها اللغة العربية «صفية»، التي يجب أن تقارن مع «سف»، والغريب في بابه أن هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد أثناء حديثه عن بلاد العرب وبخورها العطري، يقول في الكتاب الثالث فقرة (١٠٧–١١٣): «وهم لكي يجمعوا اللبان يحرقون تحت أشجاره نوعًا من الصمغ، يُدعى

[٣٠] فهمي خشيم، آلهة مصر ... سبق ذكره، ص٤٢٦.

ستيراكس Styrax أي الميعة؛ لكي يطردوا أسرابًا كثيرة من الحيات الطائرة المختلفة الأنواع، التي تحرس أشجار اللبان، فتتجه تلك الحيات بمجموعها شطر مصر.»[٣١]

وفي تاريخ هيرودوت يسجل عن زيارته لشرقي دلتا مصر على الحدود السينائية، أن هناك تبدأ بلاد العرب، ثم يردف: «ويوجد في بلاد العرب مكان يقع تقريبًا تجاه مدينة بوطو، وقد ذهبت إلى هذا المكان في أثناء بحثي عن الحيات ذات الأجنحة، ولما وصلت رأيت كميات تفوق الوصف من عظام الحيات ومن أعمدتها الفقرية.» ثم يشرح لنا شكل ذلك المكان بقوله: «وهو عبارة عن ممرٍّ ضيق بين الجبال، ينتهي بسهلٍ فسيح، ذلك السهل يتاخم حدود مصر، ويقال إن الحيات ذات الأجنحة تطير عند بدء الربيع من بلاد العرب إلى مصر، وأن أبا منجل يتصدى للقائها عند مدخل هذا الممر، ولا يسمح لها بدخول مصر، بل يهلكها ... أما الحيات ذات الأجنحة؛ فتشبه في شكلها حيات الماء، أجنحتها بغير ريش، تشبه على وجه التقريب أجنحة الخفافيش.»[٣٢]

لقد كانت الحية المعروفة باسم «سفا» أو «سبأ»، أحد أنواع الحيات الطائرة، وهو النوع الذي يطير كالسهم ليرشق بجسد فريسته، ويفلطح جلد بطنه ليتحول إلى ما يشبه الأجنحة التي تساعد على الطيران. وكان محل تواجدها بلاد العرب عند وادٍ ضيق بين جبال، يفضي إلى وادٍ فسيح، وأن في هذا المكان مدينة تدعى «بوطو»، التي عرفناها في الجزء الأول من هذا العمل مدينة «بو تو» أو «بي توم» أو «فيثوم» شرقي الدلتا المصرية.

ثم نتابع هيرودوت؛ إذ يقول: إنه كان هناك طائر من نوع أبي منجل، يتصدى للحيات الطائرة السبئية على حدود مصر، ليمنعها من الدخول، وأبو منجل طائر يقع ضمن فصيلة طيور، سبق وعرفناها باسم طائر الفينيق، أو الطائر البوني أو البونتي.

ويسوق لنا «بلوتارك» معلومةً، كانت تتواتر عند شعوب زمانه وما قبل زمانه، عن طائر عدو للحيات القاتلة، وأنه قد تم تقديسه لهذا السبب تحديدًا، في أكثر من موطن وفي أكثر من بلد، يقول بلوتارك: «إن الطائر أبو منجل هو الذي يقضي على الزواحف الخطيرة.»[٣٣] لهذا «يكرم أهل تساليا اللقلق؛ لأن هذا الطائر يظهر عندما تخرج الأرض من جوفها أسرابًا من الثعابين، فيبيدها عن بكرة أبيها، ومن أجل ذلك سنوا قانونًا يحكم

[٣١] نفسه، ج١، ص٤٢٦، ٤٢٧.

[٣٢] هيرودوت يتحدث ... سبق ذكره، ص١٨٠، ١٨١.

[٣٣] بلوتارك، إيزيس وإيزوريس، ترجمة حسن بكري ومحمد خفاجي، دار القلم، القاهرة، د. ت، ص١٠٨.

على كل من يقتل لقلقًا بالنفي من البلاد.» بينما سبق المصريون إلى سن قانون بقتل من يقتل طائر أبي قردان «بنو».[٣٤]

وتأكيدًا لرأينا في العلاقة الوطيدة الرابطة بين موطن طائر الفونيكس وبين البونتيين/ الفينيقيين/الكنعانيين/شرقي مصر، نقرأ عند «عبد المنعم عبد الحليم» قوله عن نفسه أنه قد «بدأ بدراسة النشاط البونتي وعلاقته بمصر، وناقش الآراء التي تربط الفينيقيين والبونتيين، وتنسبهما إلى مناطق البحر الأحمر، وأنه درس الأسماء المصرية والإغريقية للبونتيين والفينيقيين واشتقاقاتها ومعانيها، وخاصة المعاني المختلفة للاسم الإغريقي Phoenix والاسم المصري «بنو»، والمسميات الأخرى التي تشير إلى اللون الأحمر، أو تشير إلى المناطق الصحراوية، وقد لاحظ الباحث (أي عبد المنعم بعد الحليم) أن الاسم «بنو»، وهو الاسم المصري للطائر الخرافي المسمى في الإغريقية Phoenix، يطلق على المقاطعات المصرية الواقعة شرقي النيل، التي تنتهي عندها الطرق الصحراوية القادمة من البحر الأحمر والصحراء الشرقية، وبمقارنة هذا الاسم بالكلمة المصرية «وبن» بمعنى يشرق، رجح الباحث (أي عبد المنعم عبد الحليم) أن المصريين ربما أطلقوا الاسم «بنو»، أو اسمًا مشتقًا منه، على الجماعات التي كانت تفد إلى مصر من المناطق الشرقية ومنهم البونتيين، وأنهم ربما أطلقوا هذا الاسم على سائر المناطق الواقعة إلى الشرق من مصر ومن بينها بلاد العرب، وأن هذا الاسم قد تحول في العصر البطلمي إلى كلمةٍ تعني «رجلًا من بلاد البخور»، وأن هذه التسمية ربما كانت الأصل في الرواية، التي رددها هيرودوت بشأن العلاقة بين طائر الفنكس، وهو طائر البنو في المصرية، وبين بلاد العرب.»[٣٥]

ولكن لأن «عبد المنعم عبد الحليم» من أنصار النظرية التي تضع بونت على الساحل الصومالي، فإنه أبدًا لم ينتبه إلى كل الشواهد المتراكمة المتزاحمة، التي أوردها بقلمه في هذا النص الصغير، والتي لو دقق النظر فيها لذهبت به إلى اكتشاف بلاد بونت في بلاد العرب في وادي عربة. وحيث كان اصطلاح العرب آنذاك قاصرًا على وادي عربة وسيناء وبعض شمالي الجزيرة الحالية فقط. المهم أنه يتابع فيقول: «وبالنسبة للتشابه الملفت للنظر بين نشاط البونتيين ونشاط الفينيقيين في البحر الأحمر، والآراء التي تعتبر الفينيقيين أحفادًا أو حلفاء للبونتيين، وكذلك الروايات الكلاسيكية التي تنسب الفينيقيين

---

[٣٤] نفسه، ص١٠٧.

[٣٥] عبد المنعم عبد الحليم، موجز رسالتيه ... سبق ذكره، ص٣١، ٣٢.

إلى البحر الأريتري، الذي كان يشمل البحر الأحمر مثل رواية هيرودوت، فإن الباحث (أي: عبد المنعم عبد الحليم) يرى أن الشواهد الكثيرة ترجح ذلك، لكن نتيجة عدم وجود أدلة حاسمة حتى الآن على هذه الصلة، فإنه من الممكن افتراض أن الفينيقيين بوصفهم إحدى الجماعات التي خرجت مع الهجرة الكنعانية من شبه الجزيرة العربية، عندما لاحظوا أوجهًا كثيرة للتشابه بينهم وبين البونتيين، الذين يرجعون في أصولهم البعيدة إلى الجزيرة العربية أيضًا، فربما دفعتهم حاستهم التجارية إلى الاستفادة من ذلك التشابه، فنسبوا أنفسهم إلى البحر الأريتري كما جاء في رواية هيرودوت، حتى يكتسبوا حقوقًا في استغلال تجارته الرائجة إزاء الشعوب الأخرى، التي كانت تنافسهم في هذا الاستغلال.»[٣٦]

وهكذا، وبسبيل تمسكه برأيه، يلقي عبد الحليم في المهملات كل ما لاحظه من تشابهٍ بين البونتي والفينيقي، ويضع تخريجًا لطيفًا سريعًا على عادة مؤرخينا، يقول إن الفينيقيين أرادوا الشهرة التجارية، فنسبوا أنفسهم إلى التجار القدماء المشهورين بالبونتيين؟ هكذا بكل بساطة؟! هذا بينما نرى نحن بعد كل ما قدمنا، ومع كل المقبل في بحثنا هذا، أن الفينيقيين الذين ظهروا متأخرين على الساحل السوري اللبناني، هم أحفاد البونتيين الذين سكنوا وادي عربة، وكانوا ضمن الهكسوس الذين شتتهم ملوك التحرير المصريون، وذهبت بطون أخرى جنوبًا مثل سبأ، وأنهم أبدًا لم يظهروا على الساحل السوري، إلا بعد طرد الهكسوس من مصر، وما أجراه ملوك التحرير من عمليات قمع منظَّم على بلاد التجار في وادي عربة، وأدى إلى تفكك وضح للأحلاف أو «الأخلامو»، فذهب بعضهم جنوبًا نحو اليمن، وبضعهم شمالًا نحو الساحل السوري.

ونعود للكاتب التوراتي، وطيد الصلة بالمنطقة الآدومية السينائية، لنجده يحدثنا عن ذكريات شعوب المنطقة القديمة، حول الكثير من دواب سيناء والنقب وآدوم فيقول:

> وحي من جهة بهائم الجنوب:
>
> في أرضٍ شديدة وضيقة، منها اللبؤة والأسد، الأفعى والثعبان السام الطيار، يحملون على أكتاف الحمير ثروتهم، وعلى أسنمة الجمال كنوزهم، إلى شعبٍ لا ينفع، فإن مصر تعين باطلًا وعبثًا؛ لذلك دعوتها رهب الجلوس.
>
> (إشعيا، ٣٠: ٦، ٧)

---

[٣٦] نفسه، ص٣٢.

لقد كانت تلك الأحداث تجري في بلاد آدم وبلاد الحيات، التي عرفها المصري القديم باسم حيات سبأ، حيث تقع البلاد التي حددناها باعتبارها تلك التي عرفها المصريون باسم بونت، أرض الإله والعطور والبخور والتين والمواد العلاجية، وكان محررو التوراة يعلمون بصلةٍ قوية بين تلك البلاد ومصر، وأن مصر تعينهم وتساعدهم، فهل يا ترى قد عرف العرب بلادهم القديمة آدوم باسم: بونت؟ على اختلاف نطقها؟ فهي تُنطق عند جاردنر عن الهيروغليفية «بويني» وعند إرمان «بونة»؟ مثلًا.

يقول ابن منظور في لسان العرب تحت مادة بون:

> البون موضع. قال الجوهري: ألبان ضرب من الشجر، واحدتها بانة، وشعب بوان من أطيب بقاع الأرض وأحسن أماكنها، وإياه عنى أبو الطيب المتنبي بقوله:
>
> يقول بشعب بوان حصاني أعن هذا يسار إلى الطعان؟
> أبوكم آدم سن المعاصي وعلمكم مفارقة الجنان
>
> والبونة هي البنت الصغيرة.

وشجر البان اسمه باللاتينية Tamarisk Orientals أي الطرفاء الشرقية، ويؤخذ من حبه دهن طيب الرائحة، ومن أسمائه العربية البر واليسار والشوع والسياع.[٣٧]

ويقول لسان العرب تحت مادة «بين»، ومادة «لبن»:

> غراب البين هو الأحمر المنقار والرجلين، والبائن: المفرط طولًا، الذي بعد عن قَدِّ الرجال الطوال، ونخلة بائنة: فاتت كبائسها الكوافير، وامتدت عراجينها وطالت. قال الجوهري: أبين اسم رجل ينسب إليه عدن، يقال: رجل أبين، والبان شجر يسمو ويطول في استواء، مثل نبات الأثل، وورقه أيضًا هدب كهدب الأثل، وليس لخشبه صلابة، شديد الخضرة، وينبت في الهضب، وثمرته تشبه قرون اللوبياء؛ إلا أن خضرتها شديدة، ولها حب، ومن ذلك الحب يستخرج دهن اللبان، وفي التهذيب: البانة شجرة لها ثمرة تربرب بأفاوية

[٣٧] علي الشوك، جولة ... سبق ذكره، ص٥٨.

> الطيب، ثم يعتصر دهنها طيبًا، وجمعها ألبان، ولاستواء نبتها ونبات أفنانها بها وطولها ونعمتها، شبه الشعراء الجارية الناعمة ذات الشطاط بها، فقيل كأنها بانة، وكأنها غصن بان، ولبيني اسم ابنة إبليس، واسم ابنة لقيس.

وهكذا احتفظ اللسان العربي بأصل كلمة «لبان»، منسوبة إلى بوان أو بونت، تلك الشجرة العملاقة ذات الأهداب التي لا تنبت إلا في الهضاب؛ ولأن «اللبان» هو ذات عين «المر»، نجد لسان العرب يقول تحت مادة «مرر»:

> المرمر هو الرخام، وأبو مرة كنية إبليس. قال المدائني: بلغنا أن أول من كتب بالعربية مرامر بن مروة من أهل الحيرة. وقال سمرة بن جندب: نظرت في كتاب العربية فإذا هو قد مر بالأنبار، قبل أن يمر بالحيرة، ويقال: سئل المهاجرون: من أين تعلمتم الخط، فقالوا: من الحيرة.

والحيرة — كما هو معلوم — هي الإمارة التي قامت قبل الإسلام إلى الشرق من ذلك المكان، الذي قامت فيه من قبل دولة الأنباط في بلاد بونت، ونحن نعلم وكما سيأتي بيانه، أن اللغة العربية والخط العربي قد تطوَّرا أصلًا عن الخط النبطي، وهو ما يتفق مع ذكريات اللسان العربي عن «مرامر»، الذي من الحيرة أول من كتب. ولا يفوتنا أنه من بلاد المر أو اللبان يأتي اسم الحجر الجميل المعروف بالرخام، لكن تحت اسم المرمر، منسوبًا إلى بلاد المر، بلاد شجر اللبان الضخم الكثيف، بلاد الأيك، التي يشرح لسان العرب بشأنها، فيقول تحت مادة «أيك»:

> الأيكة: الشجر الكثيف الملتف. وقيل: الأيكة جماعة الآراك، على أن الأصل: الأيكة، فألقيت الهمزة فقيل اليكة، ثم حُذفت الألف، فقيل: ليكه. قال الجوهري: من قرأ: كذب أصحاب الأيكة المرسلين، فهي الغيضة، ومن قرأ ليكه؛ فهي اسم القرية.

وفي العبرية مجموعة الأشجار هي أيلون Ailon، وعادةً ما تخص البلوط، ومن البلوط تُستخرج مواد عطرية علاجية، أهمها زيت التربنتين، وهو أحد أشهر العلاجات القديمة. ومعلوم أن البلوط كان أهم أشجار منطقة النقب في محيط آدوم، ويقول علي الشوك بصدد تلك الأشجار (إيلون): «وإيلون اسم مدينة فلسطينية قديمًا، واسم رجل أيضًا، وهناك مدينة إيلات على خليج العقبة الشرقي، وهي مدينة آدومية، يعتقد أن

اسمها مشتق من أيلون وتعني: أشجار، أيكة، وقد سماها بطلميوس إيلانا، كما سماها يوسفيوس المؤرخ اليهودي إيلانه، واسمها عند العرب آيلة.»[٣٨] فهلا يثبت لنا ذلك أن الموضع الذي اخترناه، كان يغص بغاباتٍ من أنواع مواد التبخير لبانًا وبلسانًا ومرًّا، إضافةً إلى أشجار التين/البيرسيا؟

ومع الزمن الطويل الذي قضيناه في بحثنا، كنا نعثر طوال الوقت على علاماتٍ مضيئة وكاشفة، مثل تلك التي وردت في العقائد الأوغاريتية (رأس شمرا قرب اللاذقية) عن اعتقادٍ في إلهة عظمى مبجلة هي الشجرة العالمية المقدسة، بيد أن الباحث «شيفمان» يعتبر عقيدة الشجرة العالمية أصلًا لجميع العبادات، التي انتشرت في حوض المتوسط الشرقي، وكانت تقام لها طقوس عبادة عند الأشجار، التي تنبت على الجبال العالية، وسُميت مقارُّ تلك العبادة «المرتفعات» و«العُليات» المقدسة،[٣٩] وقد مارس الإسرائيليون هذه العبادة، وأشار إليها الكتاب المقدس مئات المرات، كما لا تفوتنا المتكررات الدائمة في بلاد الرافدين، التي تشير إلى شجرةٍ عالمية مقدسة، وهو ذات الاعتقاد الذي نجده في عقائد مصر القديمة.

هنا لا بد من تلامسٍ سريع مع موسى وربه (نار العليقة)، وقديمًا لاحظ الفيلسوف اليوناني «أرسطو»، أن بعض جذوع النبات تصدر ضوءًا،[٤٠] أما شجر المانجروف وشجر اللبان، فكان كثيرًا ما يجذب مخلوقات متألقة تعرف باسم Luminescen، أشهرها الخنافس/الحباحب المعروفة باسم fireflies أي الفراشات النارية، وعلى التخصيص إناثها المعروفة باسم Photoris أي الوهاجة، ومثل تلك الكائنات المضيئة المتعددة، نشأ بخصوصها علم خاص باسم علم Luminosity أي علم السطوع، بينما الظاهرة نفسها أصبحت معروفة تمامًا لعلماء الطبيعة تحت اسم «ظاهرة التألق الحيوي Bioluminescence»، وتحيط إناث الخنافس أو الأيك بهالةٍ ضوئية، هي إشارات لجذب الذكور إلى الشجرة.

ويشرح البروفيسور «جون بوك»، من المعهد الأمريكي القومي للصحة، ميكانيزم الضوء الحيوي الذي تصدره مثل تلك الكائنات، بأن الجزيء يندفع إلى مستوى طاقة

---

[٣٨] نفسه، ص٦٦.

[٣٩] شيفمان، ثقافة أوغاريت ... سبق ذكره، ص١١٧.

[٤٠] إبراهيم عبد الله العلو، كائنات وضاءة، مجلة العربي، الكويت، عدد يناير ١٩٩٥م، ص١٤٠.

أعلى، وغير مستقرة في آنٍ واحد، وعندما يعود إلى وضعه الطبيعي يصدر فوتونًا أي جسيمًا ضوئيًّا، وأن ذلك يحدث بوسائل كيميائية وفيزيائية معقدة، ليس هنا مجال تفصيلها لشدة تخصصها. وقد أطلق العلماء على الجزيء الكيميائي الذي يقوم بهذا الدور اسم Luciferin أي حامل الضوء، وعندما يتحد اللوسفرين مع الأوكسجين، بوجود إنزيم يُعرف باسم لوسيفريز Luciferase وجزيئات أخرى تختلف تبعًا للنوع المشمول، ينتج عن الاتحاد جزئ يحمل طاقةً أعلى تكفي لإصدار الضوء.[٤١]

وهنا نقف دهشين من قدرة اللغة على حمل كل هذه المعاني، وكل تلك الذكريات القديمة؛ لأن لوسيفر Lucifer حامل الضياء، كان لقب الملاك الذي عصى الله، وكان يسمى لوسيفر لقربه من الله، إلى الحد الذي كان يعكس ضياء الله على وجهه، وهو الذي تحول بعد الغضب الإلهي عليه لعصيانه، إلى شيطان باسم إبليس.[٤٢]

وهنا لا بد أن تتداعى مضامين لسان العرب، وهو يتحدث عن أيك اللبان أو المر، إذ يقول: «ولبيني اسم ابنة إبليس»، ثم يقول عن اللبان باسم المر: «وأبو مرة هو كنية إبليس»، أما الحباحب الضوئية فكانت تحيل أيكة اللبان إلى شجرةٍ مضيئة متوجهة، كما لو كانت تشتعل، ولو لم تمسسها نار، وهو الأمر الذي كان كفيلًا لدى إنسان تلك العصور الخوالي، بإحاطتها بالأساطير والتبجيل والعبادة، ناهيك عن كون عصارتها تستخدم في أجل الشئون، فكانت تُحرق ليتصاعد دخانها العطري إلى أنوف الآلهة، فقد كانت بخور المعابد وهياكل الآلهة. ولم يزل تبخيرها حتى اليوم يطرد الأرواح الشريرة، ويفتح أبواب الرزق في المعتقدات الشعبية، أما الأهم فهو أنها كانت المادة العلاجية الطبية الأولى في ذلك الزمان، وعندما نربط بين شجر اللبان «الأيك» وبين الحيات التي تعيش في غياضه، تلوح فورًا صورة الكيمياء العلاجية «الصيدلة»، ورمزها الذي يتمثل في حية تلتف حول كأس الدواء.

أما الخنفساء السوداء الأنثى المضيئة، فتعرف باسم «الملكة السوداء» لأنها تفعل فعل أنثى العنكبوت، فتبدأ في التهام الذكر وهو منهمك في تلقيحها، ثم تأتي عليه بعد أن ينهي مهمته، وهو عاجز عن الدفاع عن نفسه.

[٤١] نفسه، ص١٣٩: ١٤١.

[٤٢] سيد القمني، الأسطورة والتراث، سبق ذكره، انظر ص٢٩–٥٣. انظر هناك عددًا من المصادر.

ويبدو أن تلك البلاد الآدومية التي تموج وتزخر بثراءٍ هائل للشعوب والسلع كانت مصدرًا لأشياء مضيئة متنوعة، وربما كان ذلك هو السر وراء الانبهار بها وتقديسها كأرض للآلهة، ناهيك عن جمال طبيعتها المبهر، ويضيء ذلك أمامنا نصًّا في تقرير بعثة حتشبسوت إلى بلاد بونت، كان مستعصيًا على الفهم تمامًا، وهو النص الذي يقول: إن حتشبسوت قد استوردت من هناك مادة اسمها «السام»، وأن تلك المادة تضيء بنفسها كما لو كانت نوعًا من الفوسفور، وأن الملكة قد دهنت أو رصعت جسدها جميعه بتلك المادة، فأضاءت، والنص هو:

> وكانت جلالتها تعمل بيديها، فوضعت أحسن العطور على أعضائها، حتى إن عبيرها كان كالأنفاس القدسية، وانتشر شذاها حتى اختلط بشذى أرض بونت، وكان جسمها مرصعًا بالسام، يسطع كالنجوم في قبة السماء، على مرأى من كل الأرض.[٤٣]

ويتكرر ذكر مادة «السام» في متونٍ مصرية أخرى كما في النص «وأن كل الأواني التي أعدت لها، كانت من السام والذهب وكل حجر ثمين»،[٤٤] ولم يلتفت سادتنا المؤرخون إلى نصٍّ آخر، يأتي بمادة السام من بلاد سوريا، وليس من بلاد الصومال (والمقصود بسوريا كل الشرق السامي بدءًا من سيناء)، وهو الذي يعدد أشكال الجزية القادمة من سوريا، وأهمها مادة «السام».[٤٥]

أما شعر المتنبي الذي أورده لسان العرب، فيبدو لنا أنه كان يدور حول بلاد بونت في مغرب أيامها، فالأبيات تقول:

يقول: بشعب «بوان» حصاني   أعن هذا يُسار إلى الطعان
أبوكم آدم سن «المعاصي»   وعلمكمُ «مفارقة الجنان»

---

[٤٣] سليم حسن، مصر القديمة، سبق ذكره، ج٤، ص٣٣٢، وفي الصفحة التالية ص٣٣٣: في السنة التاسعة ظهرت فيها الملكة متوجة بتاج «آتن» على العرش العظيم المصنوع من السام.

[٤٤] سليم حسن، مصر القديمة، ج٤، ص٤١٣، «وأن كل الأواني التي أعدت لها بناء محاريب جديدة في الكرنك»، كانت من السام الذهب وكل حجر ثمين من الأسلاب التي غنمها جلالته في حملته الأولى.

[٤٥] نفسه، ص٤١٤، وخمس عربات مغطاة بالسام.

فالرجل هنا يستحضر ذكريات قوم أصحاب خيول، عاشوا في مضيقٍ أو شعب باسم «بوان»، ارتكبوا المعصية، فكُتب عليهم مفارقة بلادهم التي كانت جنات، وهي عين الذكريات التي تجد صداها في القرآن الكريم بعد ذلك، حيث يقول واضحًا فصيحًا بليغًا، مسجلًا تلك الذكريات الخوالي، التي تلتقي التقاء مدهشًا، وتنضبط مع ما قدمناه في عملنا هذا:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ * وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ * فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (سبأ: ١٥–٢٠).

ولا شك أن السؤال الذي بات يلح الآن: أي إله تقصد النصوص المصرية القديمة، عندما كانت تصف بلاد بونت بأنها أرض الإله؟ ولماذا لم تُسمِّ تلك النصوص ذلك الإله باسمه الواضح؟ وما علاقته بالشيطان إبليس ذلك المتكرر دومًا والمصاحب دومًا لبلاد الأيك؟

إذا كانت فروضنا حتى الآن صحيحة، وإذا كانت بلاد بونت هي بلاد آدوم، الواقعة شرقي مصر على امتداد الحد الشرقي لسيناء ما بين البحر الميت شمالًا وخليج العقبة جنوبًا، حيث البوادي والجبال الشاهقة، والصخور الملونة، وأشجار الأيك المضيئة، والثعابين الطائرة، وطائر الفينيق. فعلينا إذن العودة إلى نصوص مصر القديمة، نستنطقها سر إله اعتقد فيه المصريون القدماء، وكان على علاقة بشرقي مصر وبالصحارى، وبالجبال وباللون الأحمر رمز الشر المستطير.

(لوحات من البتراء كشواهد وأدلة على نظريتنا، وأشكال أخرى داعمة لنا.)

(انظر الأشكال رقم «٨٦–٩٦».)

شكل رقم «٨٦»: دير كاترين (صورة من الفضاء).

شكل رقم «٨٧»: أحجار بلاد بونت أو بلاد آدوم، من البتراء، توضح قيمتها وندرتها وبهاءَها اللوني، وتستحق التصنيف إلى حجر أوكنو وحجر ساندو وحجر خلالو وحجر مشجر وحجر أوراس ... إلخ.

شكل رقم «٨٨»: التداخلات اللونية من كل لون في أحجار آدوم.

شكل رقم «٨٩»: هكذا أحجار البتراء.

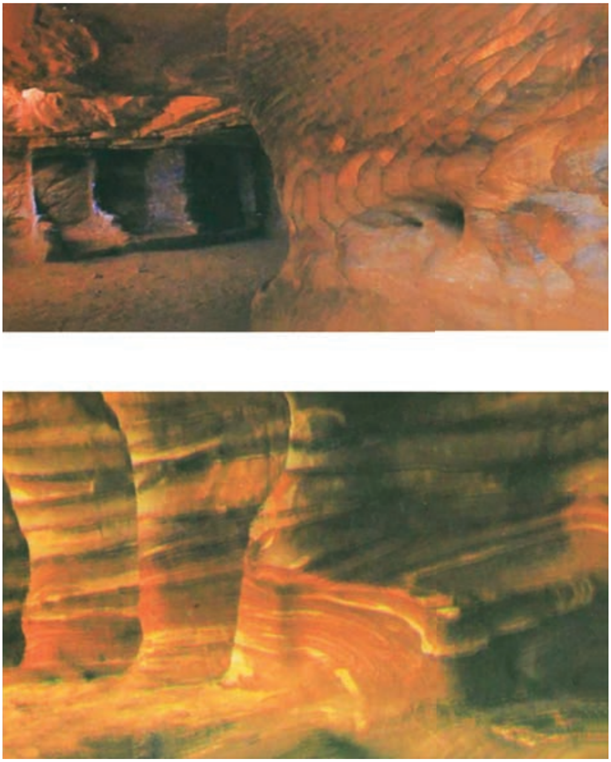

شكل رقم «٩٠»: من كل ألوان الطيف (أحجار بلاد الكهوف).

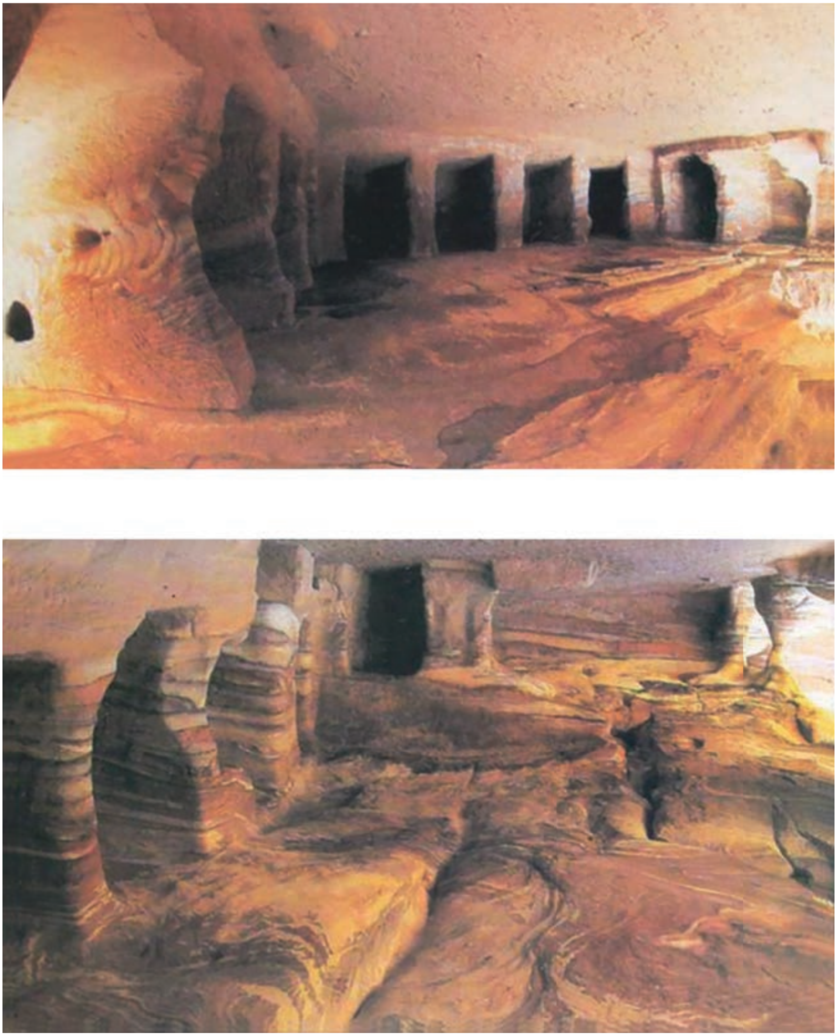

شكل رقم «٩١»: بين كل هذا البهاء سكن الآدوميون.

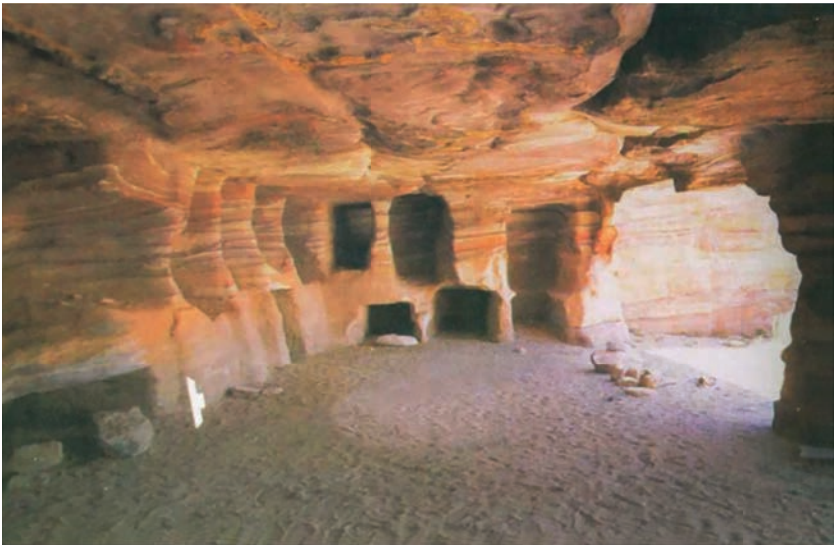

شكل رقم «٩٢»: الكهوف بكل الألوان.

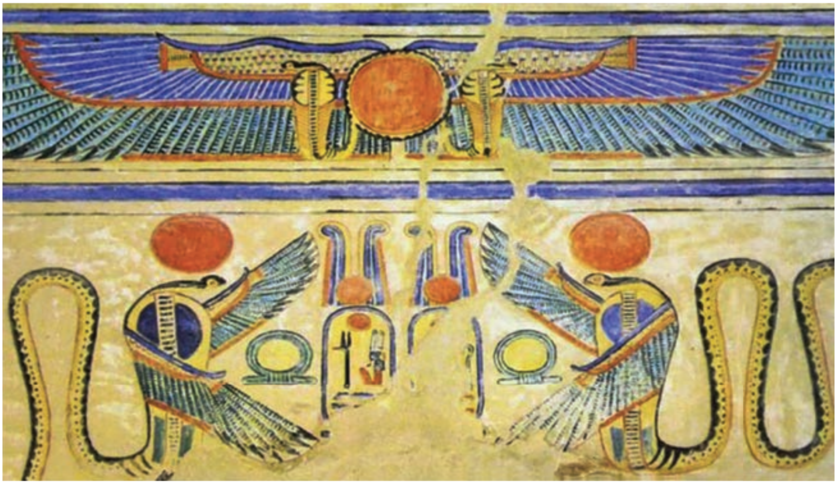

شكل رقم «٩٣»: التصور المصري للحيات الطائرة.

شكل رقم «٩٤»: صمغ/بخور البطم في وادي عربة.

شكل رقم «٩٥»: الشجرة الإلهية المقدسة في مصر القديمة، وهي كما هو واضح شجرة تين.

شكل رقم «٩٦»: الربة الشجرة مرسومة على عمودٍ في غرفة الدفن بمقبرة تحتمس الثالث، وهي تقدم ثديها للملك المتوفى، ونقرأ العلامة الهيروغليفية من خبر رع اسم العرش لتحتمس الثالث.

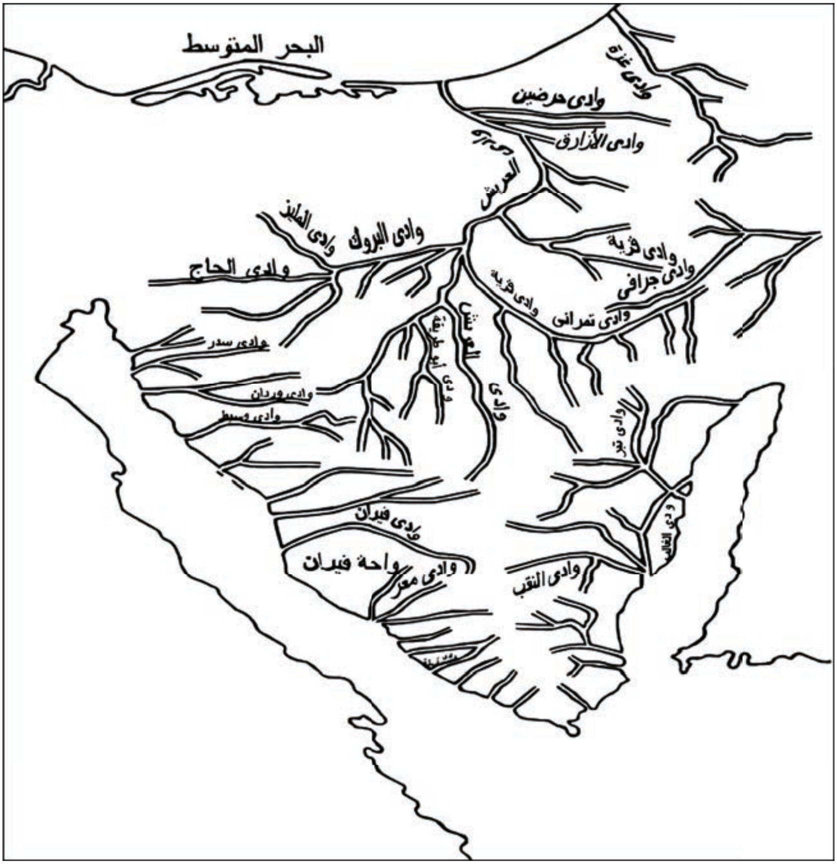

شكل رقم «٩٧»: وديان سيناء.

شكل رقم «٩٨»: وادي فيران، من وديان سيناء.

شكل رقم «٩٩»: تمثال عُثر عليه في المعبد اللحياني، العلا.

شكل رقم «١٠٠»: تمثال للمقارنة، الكاهن الأعلى الأسرة الخامسة، مصر القديمة.

شكل رقم «١٠١»: شجر البان (البلسم) لم تزل حتى الآن على شاطئ البحر الميت.

شكل رقم «١٠٢»: ثمرة شجر البان تشبه قرون اللوبيا، ولها حب يُستخرج منه دهن اللبان، ويعتق دهنها طيبًا، من وادي موسى.

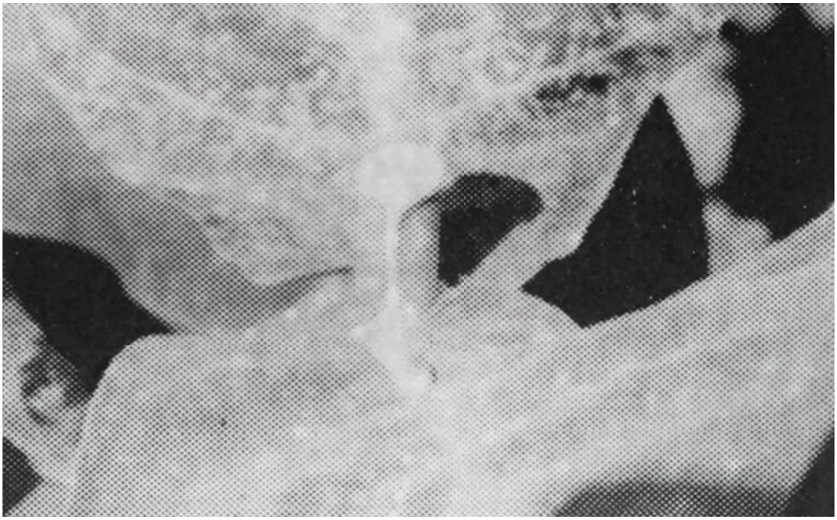

شكل رقم «١٠٣»: عصارة شجر البلسم للعلاج والتبخير، من وادي عربة.

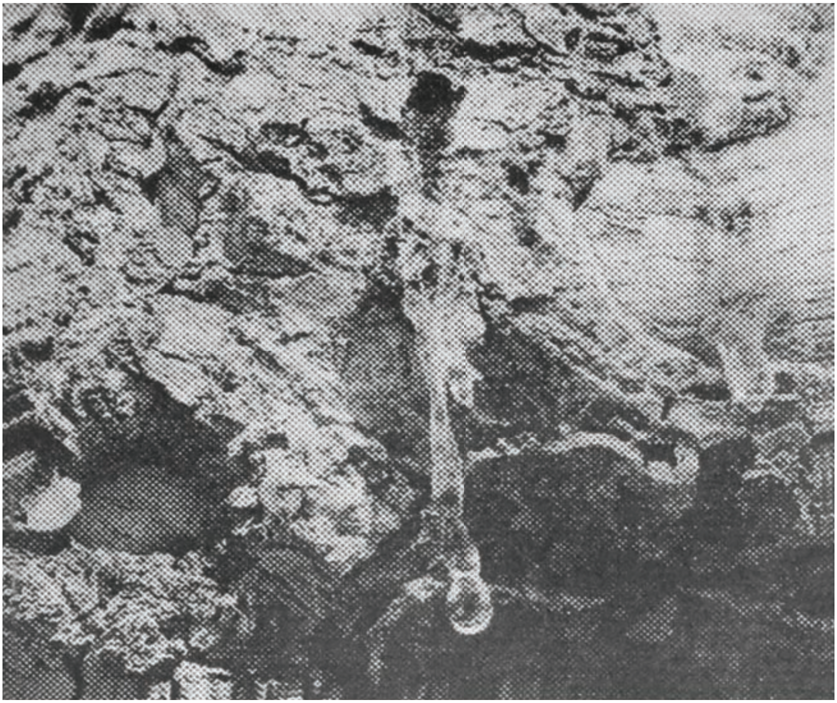

شكل رقم «١٠٤»: صمغ/بخور البطم في وادي عربة.

الفصل الثالث

الرب الأحمر

نحن نبحث إذن عن إله بلاد بونت الذي قدسه المصريون، وحتى نصل إلى ذلك لا بد من هذا السرد الذي سيُلقي بنا في النهاية بحرم ذلك الإله.

في مصر القديمة أسطورة من أشهر وأهم الأساطير العالمية في التاريخ الديني، هي تلك المعروفة بأسطورة «أوزير/أوزيريس» رب الزرع والخضرة والخصب والنماء والخير والضياء، الذي يمثل أرض النيل الخصيبة، ويرمز للخير في الأسطورة، وحتى يتم تفسير دورة فصلي الخصب والجدب، الصيف والشتاء، قالت الأسطورة: إنه كان لأوزير أخ شرير اسمه «سيت»، وإن هذا الشرير كان يغار من حب الناس لأخيه الطيب، حتى دفعه شره إلى مؤامرة انتهت بقتل «أوزير»، وتمزيق جسده قِطعًا دفنت في مواطن متفرقة من أرض مصر، لكن لتعلن الأسطورة من بعد عن قيامة الحياة الخصيبة من الأرض بعد انتهاء فصل الجدب، ذلك الفصل الذي حدث بموت أوزير رب الزرع على يد أخيه الشرير، رمز الشر والموت والفقر والجوع والصحراء.

ومن هنا كان موت رب الخير موتًا مؤقتًا؛ لأن الخير وإن تراجع أو اختفى فهو قائم كائن عائد؛ لأنه مثلما تُدفن الحبوب في أرض موات، فإنها تعود إلى الحياة بالقيام من الموت في حياةٍ جديدة زاهية خضراء، كذلك الشهيد «أوزير» قام من بين الأموات جسدًا حيًّا في قيامةٍ مجيدة، بعد موته بأيامٍ ثلاثة، مما استدعى في مصر عيدًا سنويًّا كرنفاليًّا احتفالًا بتلك العودة، وهو العيد الذي ترسمت خطاه طقوسًا من بعدُ العقيدة المسيحية في احتفالها الكرنفالي بعيد القيامة المجيد.

ومن ثم كان احتفال المصريين بقيامة أوزير فرحًا رسميًّا وشعبيًّا، يعبر عن الإيمان بعودة الخير رغم الشرور، والقيامة من الموت رغم أنف رب الموت الشرير سيت، فتعم الفرحة البلاد يوم المنقلب الربيعي للشمس، إيذانًا بعودة الحياة الخضراء إلى الأرض،

ومن هنا جاء اعتقاد المصريين أنهم من الموت سيقومون كما قام «أوزير»، وأنهم من بعد الموت لن يذهبوا إلى فناء، لكن إلى حياة متجددة تحت الأرض، حيث يعيشون هناك تحت رعاية رب الخير «أوزير».

ومن هنا أمسى الإله «سيت» رمزًا لكل ما هو قبيح سيئ شرير، ورمزًا للجدب والفناء والموت، رمزًا للصحارى والجفاف، وفي الوقت ذاته فإن سيت هو الإله الوحيد في الأسطورة، الذي يتسم بغموضٍ شديد، فطَوْرًا نفهم أنه كان إلهًا لجنوب مصر «العليا»، قبل اندماج مصر شمالًا وجنوبًا في دولةٍ مركزية متحدة، وكان المصريون يطلقون على جنوب مصر «ط ء. س ت ي» أي الأرض «ط ء» الستية «س ت ي»، نسبة إلى الإله «سيت»، وطورًا آخر نجده إلهًا للصحارى، وبخاصة الصحراء الشرقية السينائية؛ إذ يبدو هنا ربًّا للبدو والقفار، وقد تم تعليل ذلك بحسبان الإله «سيت» ربًّا لكل ما هو قاحل وغير خصيب، وكان جنوب مصر يحوز أقل المساحات الزراعية بالنسبة إلى الشمال المصري، وكانت تلك المساحات لا تقارن بأراضي الوجه البحري والدلتا الخصيبة ولم تزل، نتيجة لضيق وادي النيل جنوبًا، واقتراب الهضبتين الصحراويتين الشرقية والغربية من بعضهما، إلى الحد الذي لا يسمح بزراعة سوى شريط ضيق على ضفتي النهر، ولا يسمح بأي توسع زراعي كما في الشمال.

ويقول المصرلوجست «ياروسلاف»: «أما الرمز الحيواني للمعبود سيت Setekh فكان يمثل حيوانًا يشبه الحمار، ويبدو أن المصريين الأوائل حوروا ذلك الرمز من الدولة القديمة على الأقل، إلى شكل حيواني غريب، أقرب إلى كلبٍ رابض، بعنقٍ طويل وآذان مربعة، ومقدمة وجه طويلة مقوسة وذيل قائم. ولم يكن من المستغرب أنٍ فشلت جهود علماء المصريات في تمييز أصله.»[1]

ويلخص لنا الباحث «سامي سعيد» أمر الإله «سيت» في قوله: «الإله ستخ أو سيت أو سيثوس، هو أخو الإله أوزيريس والإلهة إيزيس، وطابقه اليونانيون مع الإله اليوناني تيفون، واعتقد المصريون أن الخنزير والحمار وفرس الماء وغزلان المها في الصحراء، هي حيوانات ستخ، وقد صوروه بشكلٍ رشيق فهو بجسم إنسان ورأس كلب سلوقي، وذيل ملتوٍ وأذنين طويلتين، وجعلوا اللون الأحمر خاصًّا به، وقرنوه بالعاصفة والعنف والشر،

[1] باروسلاف تشيرني، الديانة المصرية القديمة، ترجمة أحمد قدري، هيئة الآثار المصرية، القاهرة، ١٩٨٧م، ص١٦١.

وجعلوه قاتل أخيه أوزيريس، والذي انتقم له حورس فأخصى ستخ، واعتقدوا أنه طعن الوحش أبوفيس برُمحه؛ لتخليص الشمس من شره، وطابقه الهكسوس في خلال مدة احتلالهم مصر، مع الإله السامي بعل، وكان رمسيس الثاني من أنصاره.»[٢]

أما العالم الكبير «علي فهمي خشيم»؛ فقد أوضح موقف العلماء من سيت في قوله: «إن المصريين القدماء، قد مثلوا سيت بحيوان حارت البرية فيه، وداخ علماء المصريات في رمز سيت الحيواني، فقال جاردنر: هو حيوان لعله نوع من الخنازير، وقال شورتر: هو حيوان غير محقق النوع قد يماثل الكلب بشكلٍ ما، ذو فرطوسة طويلة وأذنين منتصبتين، وقد يشبه الخنزير. واحتار بدج، حتى قال: إنه يشبه الجمل، أو لعله حيوان انقرض لكثرة ما صيد؛ لكونه رمز سيت المكروه، فقضى عليه قضاء مبرمًا، أما لوركر؛ فعنده أنه كلب أو وعل أو لعله حمار، ثم جعله حيوانًا يُدعى أرفاك. وجعله مرة أخرى يشبه حيوانًا يسمى الأوكابي. فكأن المصريين تخيلوا حيوانًا غير موجود أصلًا؛ للدلالة على الشيطان.»[٣]

وللمزيد حول الإله «سيت»، نستمع للمصرولوجست «سليم حسن» وهو يقول: «لقد برهن الأستاذ يونكر JANKER على أن الإله سيت، كان الإله المحلي لبلدة سيترت STRT، وهي ستيرويت SETHROITE في العهد الإغريقي، الواقعة في الشمال الشرقي من الدلتا، كما يعتقد يونكر، وأن سيت كان هو المعبود المحلي للبقعة، التي أقام فيها الهكسوس تحصينات عاصمتهم العظيمة، التي اتخذوها بمثابة نقطة الاتصال بين أجزاء دولتهم الضخمة. وهي التي كانت تضم بين جوانبها مصر وفلسطين وسوريا، وأن الهكسوس على ما يظهر كانوا خليطًا من أجناسٍ متباينة. ونعلم أن كلًّا من الإلهين بعل وتشوب قد وحَّدا بالإله سيت.»[٤]

ويؤكد ذات المعاني «محمد بيومي مهران» وهو يقول: «حين أراد الهكسوس إقامة ديانة رسمية على طراز الديانة المصرية، اختاروا معبودًا ذا مظهر غريب، لا يشير إلى أي حيوان موجود، ترجع عبادته في شرقي الدلتا إلى أقدم العصور. وربما بدأت هناك في مكانٍ يقال له سزرت منذ أيام الأسرة الرابعة. أما ترجمة الهكسوس لمنطوق الكلمة ست

[٢] سامي سعيد، الرعامسة، سبق ذكره، ١٣٢.

[٣] فهمي خشيم، آلهة ... سبق ذكره، ج١، ص٤٣٩.

[٤] سليم حسن، مصر القديمة، سبق ذكره، ج٤، ص٦٥، ٦٦.

التي تُكتب بالبابلية وكأنما تنطق سوتخ، فكانت من غير شكٍّ آسيوية في مظهرها».[٥] ويضيف هيس تأكيده أن مظهر سيت كان واضحًا في جعران هكسوسي على هيئةٍ آسيوية بلا لبس.[٦] وأدلة ذلك رداؤه ورأسه التي تجعله مشابهًا للإله بعل السامي، وتشوب الحيثي.

إلا أن المشكلة التي واجهت الجميع لتضيف مزيدًا من الغموض على الإله «سيت»، هي أن مقاطعة «سيترويت» المنسوبة إلى سيت أو «الستية»، والتي يُعتقد أنها كانت مقر عاصمة زمن الهكسوس، لم يتم التعرف على موقعها حتى تاريخنا هذا. كل ما في الأمر أنها لا بد كانت على الأطراف الشرقية للدلتا، في اتصالها مع الصحراء السينائية.

وفي مؤلفٍ آخر يضيف «سليم حسن»: «وكان سيت في عهد الرعامسة، أو بعبارةٍ أخرى: في عهد الدولة الحديثة، يعتبر إله الحرب والقوة. وقد تبدَّدت بمُضي الزمن شهرته السيئة الماضية، وكان كذلك يعتبر إله البلاد الأجنبية؛ ولذلك أوصت الإلهة نيت بأن يزوج من الإلهتين الساميتين: عنات وعشتار، وهما إلهتان آسيويتان. ونرى في آخر الأمر أن رع إله الشمس، رغب في أن يتخذه ابنًا، يعيش معه، ويكون إله الرعد في السماء. وفي ذلك ما يشير إلى أن رع قد انحاز إلى جانب سيت في النهاية، حتى بعد أن غُلب على أمره؛ لأنه كان عدو أوزيريس، الذي كانت له السيادة والكلمة العليا في ذلك الوقت. وبذلك أصبح سيت يسكن مع رع في السماء، وتركا العالم السفلي لأوزير، يحكم فيه كيف شاء.»[٧] ويكون المعنى أن سيت كان إلهًا لعالم الموت السفلي التحت أرضي، ثم تركه وصعد؛ ليعيش مع الإله الأكبر «رع» في السماء.

وهكذا فنحن هنا مع إله شديد الالتباس، بدأ إلهًا للموت، ثم صعد إلى السماء تاركًا مملكة الموت لأوزيريس، الذي أصبح إلهًا للحساب من بعد الموت. وبدأت تجليات سيت المصورة في هيئة الحمار، ثم دخلت عليه تعديلات جعلته أشبه بالكلب، لكنه ليس بكلب؛ لأن رسومه التي وصلتنا في النقوش صُورته في هيئةٍ حيوانية غير معروفة لدينا الآن، مما أدى إلى حيرةٍ واضحة في تحديد أمره لدى علماء المصريات، فانقسموا حوله شتى. ورآه اليونانيون صورة من إلههم «تيفون» أو «طيفون» الوحش الأسطوري الضخم،

---

[٥] بيومي مهران، دراسات ... سبق ذكره، ص١٥٢.

[٦] Hayes, Egypt From The Ammenemes II, p 17.

[٧] سليم حسن، الأدب المصري ... سبق ذكره، ج١، ص١٤٦.

شكل رقم «١٠٥»: سيث.

الذي حدثنا عنه المؤرخ «بلوتارك» فقال: إن تيفون قد تمرَّد على كبير آلهة اليونان «زيوس»، ودخل معه في صراعٍ انتهى بأن هزمه زيوس ودفنه تحت جبل أتنا بصقلية. وجاءت الأسطورة بذلك؛ لتفسر سر دمدمات بركان جبل أتنا وانفجاراته، التي لم تكن سوى صوت الإله تيفون الحبيس الغاضب.[٨] وكان تيفون ربًّا للرعد والأعاصير والزلازل والكسوف والخسوف، وكل مظاهر الاضطراب في الطبيعة، وكل مسببات الموت والهلاك.[٩]

ونستمر في البحث وراء «سيت»، لنقرأ ما كتبه «عبد المجيد عابدين» شارحًا: «إن المصريين قد كرهوا الأرض الحمراء أي الصحراء، واعتبروا سيت رمزًا لها، وتصوروا فيه القسوة والغلظة، وأن له صيحات منكرة هي الرعد، وهو الذي يهز الأرض بالزلازل، وتصدر عنه أعمال كريهة حمراء، وله بشرة ذات لون أحمر أمغر.»

[٨] شفيق مقار، قراءة سياسية للتوراة، رياض الريس للكتب والنشر، قبرص ولندن، ص٢٤١.

[٩] فهمي خشيم، آلهة ... سبق ذكره، ج١، ص٤٣٠.

ويواصل «عابدين» قائلًا:

> ولم يقف المصريون عند تصوره كسبب للجدب والفناء والعواصف، بل عدُّوه حاميًا للأعداء ووليًّا للقبائل الآسيوية. وفي بعض جوانب الأسطورة القديمة نجده خصمًا للشمس، وممثلًا للظلام، وشيطانًا بين الآلهة. ثم انتهى الأمر بإخراجه من بين المعبودات المصرية، فبطلت عبادته ومُحي اسمه وصورته أنَّى وجد. ولما وقف الإغريق الأقدمون على قصته، قرنوه بإله الشر عندهم: تيفون، العدو الخرافي لزيوس.[١٠]

ولما كانت صورته الأولى هي صورة الحمار، فيبدو أن المصريين قد رأوا بينهما صفات مشتركة، كالشهوة وغلظ الحس وفجاجة الصوت وحمرة اللون. وكان اللون الأحمر هو الشائع لهذا الحيوان في بلاد الشرق القديم، وقلما عرف أهلها الحمير السود أو البيض.

ولفظ «حمار» في الساميات، له صلة اشتقاق باللون الأحمر. ويقال في لغة العرب: الجأب: الحمار الغليظ، والجأب أيضًا: المغرة أو الطين الأحمر. ومن هنا كره المصريون كل ذوي البشرة الغراء أو الحمراء من الناس، ولم يحبوا الاختلاط بهم. وأفادنا «بلوتارك» أن المصريين كانوا يحاولون تهدئة شرِّه واستدرار عطفه بتقديم الضحايا. وتارةً أخرى كانوا يسبونه في احتفالاتٍ بعينها، ويضطهدون ذوي البشرة الحمراء، ويدهورون حمارًا من قمة جبل، وهو ما كان يفعله أهل قفط. أما أهل بوزيريس ولوكوبوليس فكانوا يحرمون استخدام البوق؛ لأنه يصدر صوتًا شبهها بصوت الحمار، ومن ثم اعتقدوا أن الحمار حيوان دنِس. أما قرابينه فكانت من العجول المغر، الحمراء في صفرة، بشرط ألا توجد أي شية بها، أي يجب أن تكون مغراء أو صفراء فاقعًا لونها تسر الناظرين.[١١]

وقد عثر الأركيولوجست إتيين دريتون على دفناتٍ للحمير المعبودة في مدينة إنشاص.[١٢] وإنشاص كلمة من أصل هيروغليفي هو «عا إن شاسو»؛ أي مكان عبادة الشاسو للحمار، والشاسو هم بدو سيناء. ولم يزل الفلاح المصري حتى اليوم يزجر

---

[١٠] عبد المجيد عابدين، لمحات ... سبق ذكره، ص٢، ٣.

[١١] بلوتارك، إيزيس وأوزيريس، سبق ذكره، ص٥١، ٥٢.

[١٢] د. محمد حماد، كامس، دار الجيل للقاهرة، ١٩٧٠م، ص٤٢.

حماره بنداءٍ يطابق «عا إن شاسو» فهو «حا – شي». و«عا» أو «حا» = «الحمار»، و«شي» من «شاسو» في فعل الأمر «إمشي» أي: إمشي يا حمار. والشاسو في المصرية القديمة هم المشاءُون أو الجوابون دومًا أو البدو.

وفي اشتقاقات اللسان العربي، نجد الصحراء في أصله لفظًا يدل على الصحرة، والصحرة هي الحمرة التي تضرب إلى غبرة. فيقال: رجل أصحر وامرأة صحراء في لونها. والأصحر الذي في رأسه شقرة. وأصحر النبات أخذت فيه حمرة ليست بخالصة، ثم هاج فاصفرَّ. ويقال: حمار أصحر اللون، والصحير هو النهيق هو صوت الحمير. وقد فعلت اللغة العربية فعل المصرية، فقسمت الناس إلى جنسين: الجنس الأحمر والجنس الأسود، واشتقت اسم الصحراء من الصحرة أي اللون الأشقر. وأطلقت لفظ السواد على الخضرة والعمران. فالسواد جماعة من الشجر والنخل، وفي حديث النبي محمد ﷺ: «بُعثت إلى الأحمر والأسود من الناس.»

ويقول العالم الكوفي «ثعلب»: «إن العرب لا تقول رجل أبيض من بياض اللون؛ لأن الأبيض هو الطاهر النقي من العيوب، فإذا أرادوا الأبيض من اللون قالوا: أحمر.» وكما ارتبطت الحمرة في المصرية القديمة بالجفاف والفناء، كذلك كانت في العربية، أي إن من أراد الحسن صبر على أشياء يكرهها. وسمي الرجل الذي عقر ناقة صالح، فأهلك الله فعله ثمود: «أحمر ثمود». وضرب المثل بشؤمه فقيل: أشأم من أحمر ثمود. وسجلت الروايات العربية في أساطيرها ما جاء ذكره عند الجاحظ في قوله: ومن لا علم عنده، يروي أن إبليس قد دخل جوف الحمار مرة. وذلك أن نوحًا لما دخل السفينة، تمنَّع الحمار بعسره ونكده، وكان إبليس قد أخذ بذيله. وقال آخرون: بل كان في جوفه. فلما قال نوح للحمار: ادخل يا ملعون، دخل الحمار ودخل إبليس معه؛ إذ كان في جوفه. ومنها ما روي في شرح هذه الأمثال: «أكفر من حمار»، «تركه جوف حمار»، «أخرب من جوف حمار»، «أخلى من جوف حمار».»[١٣]

أما الطريف حقًّا فهو أن صحارى شرقي مصر، تقع جميعها في محيط البحر الأحمر، الذي حمل ذات المعنى في اسمه اليوناني «البحر الأريتري»، نسبةً إلى أريتريا. وأريتريا اسم له معنًى، فهي الحمراء. أما الشعب الذي سكن جنوبي الجزيرة، على ساحل البحر الأحمر، وأقام هناك حضارات متعددة امتدت شمالًا حتى وادي عربة، على

[١٣] عبد المجيد عابدين، لمحات ... سبق ذكره، ص١٦، ١٧.

تنوع دوله؛ فقد أطلقت عليه الكتابات التأريخية العربية اسمًا عامًّا شاملًا هو: حضارة حمير. أما أهلها فكانوا الحميريين.

ونعود نسعى وراء أخبار الإله «سيت»، فنجده يكتب مصريًّا «س. ت SET»، ثم يكتب زمن الهكسوس مع تصريفه اسميًّا، فيأتي هكذا: SETESH وSUTEKH، وذلك في وقت أصبح فيه سيدًا لجميع الأرباب، بحكم سيادة أتباعه الحكام الهكسوس.

وبعد طرد الهكسوس من مصر، زمن الأسرة الثامنة عشرة المصرية، احتفظ الإله سيت بمكانته. وعندما جاءت الأسرة التاسعة عشرة، وهي أسرة محاربة، تم تكريس «سيت» كإله من الآلهة الكبرى، بحسبانه إله حرب ودمار. ويبدو أن «سيت» كان في البداية إلهًا محبوبًا ضمن آلهة مصر القديمة، حتى نشِب الخلاف بينه وبين «أوزير» في الأسطورة المعروفة. فتحول «سيت» إلى رمزٍ لكل قوى الشر ضد قوى الخير، وإلهًا للظلام والنار والطوفان والريح الحارق العقيم وللصحارى ولليل المخيف وسيِّدًا لعالم الشرور جميعًا، إلهًا أحمر ملتهبًا، ينفث دخانه الناري وينشر الموت في كل مكان. أما الواضح لدينا هو أن كل تلك الصفات قد لحقته بعد غزو الهكسوس لمصر، وتكريسهم للإله «سيت» كإله رسمي لحكومتهم، فاقترن بهم في نظر المصريين، ولحقته كراهيتهم للهكسوس، فأصبح رمزًا لكل ما هو شرير وضار.

وقد لاحظ «علي فهمي خشيم» أن تلك الرحلة التطورية التي مر بها الإله «سيت»، تطابق ما وصلَنا عن أسطورة الشيطان الذي كان ملاكًا ثم صار راعيًا للشرور. ويقول: إن ذات الواقعة نجدها في جميع الديانات، وتتحدث عن التحول من النورانية إلى النارية. ولنتذكر هنا لقب إبليس في لسان العرب «أبو مرة»، وأنه يرتبط بشجرة اللبان/المر، لنجد أشهر ألقاب «سيت» في مصر القديمة هو «مر MR»، وتعني الملعون حسب ترجمة معجم بدج،[١٤] أما مقابلة اليوناني «تيفون»؛ فترجع إليه كلمات مثل Typhoid أي الحمى المعوية (التيفود) المحرقة. ولو رجعنا إلى اللسان العربي لوجدنا لطيفون معاني عديدة في مادة «طوف»، أهمها: المرض المهلك، الحمى، الإغراق، الموت.

وفي المصرية القديمة نجد من أسماء «سيت» الاسم «جب». وفي القرآن يتردد اسم غريب ليدلل على الشيطان، وهو ما يرد باسم «الجبت والطاغوت».

---

[١٤] معجم بدج ٣١٤، عن خشيم.

وفي القرآن عدد من الآيات تتعلق بالطوف (ولا ننسى طيفون) كما في النماذج:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ﴾ (الأعراف: ١٣٣).
﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ (القلم: ١٩).

والآية الأولى تحديدًا تحدثنا عن قدرات رب إسرائيل زمن موسى النبي، وتذكر بما قاله سفر الخروج بالكتاب المقدس، حول قرار الرب تأديب المصريين بضرباتٍ متلاحقة، فأرسل على مصر الجراد والقمل والضفادع. لكن قصة التوراة لم تقل أبدًا إنه أرسل عليهم الطوفان، لكن في المقابل نجد تفسير الطوفان في تأكيد التوراة أن الرب قد قرر قتْل كل بِكر من أبكار المصريين ليلة الخروج الإسرائيلي من مصر، بيَد ما سُمي في التوراة باسم «المهلك». وعلى هذا النحو يلتقي الطوفان كما في الآيات، أو طيفون، مع المهلك التوراتي الذي طاف على أبكار المصريين وهم نائمون. ثم تأتي الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ (الأعراف: ٢٠١)، ليطلب منا «خشيم» ملاحظة ربط الآية بين «طائف» وبين «الشيطان». و«طائف» تأتي من مادة: طيف، وخيال، وشبح.[١٥]

وكما أسلفنا فقد ذهب «بدج» في حديثه عن «سيت»، إلى أنه كان رب الجنوب المصري. والجنوب بالمصرية القديمة هو «س و ت SUT»، ومنها في رأيه جاء اسم الإله «سيت»، وفي الهيروغليفية تُسمى بلاد «الكوشيين» بلاد السوت أو بلاد السود جنوبيَّ مصر عند النوبة: «ط ء. س ت ى TA-STY» أي أرض الجنوب. ويسمى أهلها «س ت ي و» أي الجنوبيون. وهو ما نراه أصلًا لكلمة السود واللون الأسود، والجنوب هو البلاد الحارة، وللحَر في اللغة العربية تسميات من الجذر الثنائي «شط» هي: «ست» شاط، شوط، شيط، شياط، شواط، يشوط، تشويطًا، شوظ، شواظ.[١٦] وفي القرآن: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ (الرحمن: ٣٥).

وفي معجم فولكنر نجد معاني «س و ت SWT» المصرية: قوة الريح Force of Wind.[١٧] وهنا نجد المقابل العربي سوط: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾

---

[١٥] فهمي خشيم، آلهة ... سبق ذكره، ج١، ص٤٢٨، ٤٣٠.
[١٦] نفسه، ص٤٣٢، ٤٣٣.
[١٧] معجم فولكنر، ٢١٥، عن خشيم.

(الفجر: ١٣). وفي آياتٍ أخرى كان سوط العذاب هو ريح عظيم تخرج من تحت الأرض. ومقلوبها سطو وسطوة، وهو ما يفيد السلطان والقوة والملك. أما المدهش فهو أن كلمة «س و ت SWT» «س ت ت STT»، فتعني ملك وملكي، وفي السبئية فإن «و ص ت WST» تعني حرق، وإحراق. أما في المصرية فتتعدد كلمة «س ت» فهي:

- س ت ي STI أوقد النار، أشعل، شيط.
- س ت ى STY حدق، برق، نظر بحرارة أو غيظ.
- س ت ء STA حرارة، شياط، شوظ.
- س ت ء ت STAT مصباح، موقد نار، سطح.[١٨]

أما كلمة شيطان، فهي في لسان العرب: «الشيطان حية له عرف، والشاطن الخبيث.» وهي من شاط أي احترق. ومنها جاءت عبارة «استشاط غضبًا»، ومادة شيط تقلب شوط، منها مشتقات تدور جميعًا حول النار والحرق، والهلاك وسفك الدماء والذبح، وأمراض الحمى وغبار الصحارى. وتعود جميعًا إلى الجذر الثنائي «شط»، الذي هو ببساطة «شيت أو سيت»، الإله المصري الشرير نصير الهكسوس وربهم المبرز.

ويفصل لنا «خشيم» الأمر فيقول: إن اسم سيت يُكتب في الهيروغليفية محددًا بصورة إوزة، ويُقرأ ذلك الرمز أي الإوزة ST وZT وZA وتعني «ابن»، وتدخل تلك الصورة باعتبارها محددًا في كلمات مثل «ح ت م HTM»، وتقابلها في العربية «حطم»، وفي كلمة «س ن ح م SNHM» أي جراد، وهو ما يؤكد صلتها بمعنى الدمار والهلاك، وحسب التصور العربي فقد خرج إبليس من بيضة. والمدهش أن الخط المصري الهيروغليفي، عندما تطور نحو مزيدٍ من التجريد إلى خط هيراطيقي، اختزل صورة الإوزة في جسدها البيضاوي فقط، دون بقية الأطراف. وهو ما نجده في دلالة المصرية ZA التي تعادلها في العربية «زأأ»، وفيها معاني الخوف والغرق، وهي مقلوب «أزز» ومنه الأزيز، الغليان، الالتهاب، الرعد، الهياج. وهي صفات سيت التي تلتقي مع الشيطان في القرآن حيث تقول الآيات: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ﴾ (مريم: ٨٣).

ومن الثنائي «ست» نجد في اللسان الثلاثي «سنت»، مادة دون تحتها: «أسنت فهو مسنت إذا أجدب. ويقال: تسنت فلان كريمة آل فلان إذا تزوجها سنة القحط ... والسنتة

---

[١٨] فهمي خشيم، آلهة ... سبق ذكره، ج١، ص٤٣٥.

والمسنتة: الأرض التي لم يصبها مطر فلم تنبت ... ورجل سنوت: سيئ الخلق». وفي مادة الثلاثي «شأت»: «شأت شئيت استشت وتشتت إذا انتشر ... وقيل يجمع ناسًا ليسوا من قبيلةٍ واحدة ... والشت هو المتفرق.» وفي مادة الثلاثي «شرت»: «شرت، الشرنتي طائر.» وفي مادة الثلاثي «شيت»: «الشيتان من الجراد.» وكلها تشمل معاني تشير إلى قبائل متفرقة من أماكن صحراوية مجدِبة، قد تعاقدت وتحالفت في مكانٍ واحد، مع معاني الشر والهلاك في نفس الآن.»[١٩]

تحول إذن إله الشر المصري «سيت» عن رمز الحمار إلى رمزٍ تصويري مُحير، فقيل إنه ربما كان ذئبًا أو كلبًا، وربما غير موجود الآن، بعدما انقرض لكثرة ما صاده المصريون القدماء كراهيةً له باعتباره رمزًا للشر؛ ولأنهم اعتقدوا أنه كان رب الموت بذاته، وهو بذلك يختلف عن أوزير إله الموتى في العالم الآخر؛ لأن «سيت» بدأ أشبه بما نعرفه اليوم عن ملاك الموت، فأوزير رب حياة؛ لأنه يحيي الموتى ويحاسبهم على أعمالهم، أما «سيت» فكان ملك الموتى وراعي المرض والهلاك. وقد جعل المصريون للموت عددًا من الرموز الحيوانية، كلها من فصيلة ابن آوى، الذي كان ينتشر في مصر القديمة ولم يزل. وهو حيوان معروف باغتذائه على الجُثث والجِيَف، فهو من الحيوانات المعروفة بالحيوانات الرمامة، فهو لا يأنف الموت، ويسير في جماعاتٍ يقودها زعيم يتشمم المواضع، لينادي رفاقه لدى شعوره برائحة الموت؛ ولأنه كان ينبش القبور بحثًا عن غذائه الجديد، فكان طبيعيًّا أن يتكاثر في الجبَّانات، ليلحظه المصريون هناك دومًا، فيحتسبونه رب الموت ذاته.

وقد أطلق المصريون على ابن آوى ملك الموت اسم «أنوبيس» الذي يلحد الموتى، وتم تصويره في جسدٍ آدمي برأس ابن آوى، وأحيانًا بشكل ابن آوى الحيواني كاملًا. وبالرجوع إلى كتاب مفتاح اللغة المصرية القديمة، وجدنا أن الياء والسين في اسم «أنوبيس» تصريفًا اسميًّا يونانيًّا، أما اسمه المصري فهو «أنبو»،[٢٠] الذي ربما كان يحمل في طيات حروفه تعبير الـ «بوني» نسبة إلى «بونت»، ومثله كان رب الجبانات الملقب بفاتح الطريق «و ب و ا ت»، ويُنطق أيضًا «و ف و ا ت»، وهو ما يعادل في العربية

[١٩] نفسه، ج١، ص٤٤٠، ٤٤١.

[٢٠] أنطون ذكري، مفتاح اللغة المصرية القديمة وأنواعها وخطوطها وأهم إشاراتها، القاهرة، د. ت، ص١٠٩.

كلمة «وفاة» أي موت. وهو من فصيل الذئاب بدوره. والمعلوم أو الشائع أن مصر لم تعرف الذئاب الكبيرة، لكن مرحت في أحراشها وحقولها وبواديها، كل أنواع الذئاب الصغيرة من فصيلة ابن آوى، ومنها كان الفصيل الذي دوَّن المصري القديم اسمه «آش» أيضًا، ويحيطنا فهمي خشيم علمًا أن آش ASH كان يُقرن عادة بالإله سيت، وكان آش أحد رموز الموت، وارتبط بالصحراء والجدب مثل سيت، ويعلمنا إريك هورنونج علمًا أن آش كان يُرسم عادةً برأس الحيوان الخاص بالإله سيت،[٢١] ويعد آش ربًّا للرماد وبقايا النيران، ونظنه رماد البخور تحديدًا، الذي كان يُحرق للموتى عند المقابر وفي المعابد والتبخير البيتي، لطرد إله الموت الشرير.

ويقول ابن منظور في لسان العرب: إن الآس هو بقية الرماد في الأثافي. بينما يحيطنا المصرولوجست بدج علمًا أن سيت كان نوعًا من الذئاب، انقرض لكثرة ما صاده المصريون. وعند ابن منظور ثروة أخرى، فهو يقول: إن الأوس هو الذئب ومُصغَّره أويس، وكذلك آس هو القبر. وفي الإنجليزية آش ASH تعني رمادًا،[٢٢] كما تعني أيضًا: قبرًا، شجرة دائمة الخضرة هي النورية أو «ناريون»،[٢٣] أو كما عرفناها نحن في نظريتنا المطروحة بهذا البحث، بأنها شجرة نهارين: أيكة مديان. والجميل في شأن حفظ اللغة لمحتواها عبر الأزمان، أن نجد الآس أيضًا اسمًا لشجرة؟! شجرة الآس التي يعالج بزيتها، وربما اشتقت منها كلمة النتاسي أو النطاسي في الساميات، وفي العربية أي الطبيب المداوي (نطاسي = نيتر + آسي = إله معالج (طبيب)، أي الرب الشافي)، وفيما بعد أصبحت الطبيبَ الروحاني، أو النبي الذي يصلح علل النفوس، ثم أصبحت تطلق على الطبيب الماهر، ويبدو أن لها علاقة بالكلمة السومرية التي تطلق على الطبيب وهي A-ZU، ولكن معناها الحرفي هي: خبير بالزيت (كانت الزيوت مواد علاجية)، وتعني أيضًا نبي، والزيت المقصود هو زيت النباتات العطرية والطبية.

وفي دراسته للموسيقى يقول الباحث «علي الشوك»: «إن أقدم رمز استعمله السومريون للدلالة على الموسيقى هو رأس ابن آوى … واسم هذا الحيوان — ابن آوى — واحد في كل اللغات السامية، فهو في العبرية إى وهي ترخيم لكلمة إوى من الجذر آوى،

[٢١] إريك هورنونج، ديانة مصر … سبق ذكره، ص٢٦٧.

[٢٢] فهمي خشيم، آلهة … سبق ذكره، ج١، ص٢٩٥–٢٩٧.

[٢٣] نفسه، ج١، ص٣٠.

وكلمة عوى الآرامية تعني يعوي ويصرخ، ويقال بالعربية: ما سمعت إلا وعوعة الذئاب ووأوأة الكلاب، ووأوأ هي عوى، ووهو وهوه في صوته: ردده حزنًا وجزعًا، والمناحة بالعبرية يقال لها: أوى، وهي تذكرنا بصوت ابن آوى أيضًا، ويعتقد أن هذا الحيوان سمي كذلك من صراخه في الليل الذي يشبه عويل أو صراخ طفل الإنسان، وإذا علمنا أن موسيقى وادي الرافدين القديمة والحديثة مغرقة في نكهتها الحزينة ... أدركنا لماذا استعار السومريون رأس ابن آوى لهذا الفن.»[٢٤]

وهنا لا يفوت لبيب أن ابن آوى ذلك الفصيل الذئبي، كان يصدر صوتًا هو الـ «وهوه»، وهو ما يستدعي على الفور اسم الرب الإسرائيلي «يهوه»، ثم نستحضر بقوة ما سبق وأوردناه عن لسان ابن منظور تحت مادة «عناق»، إبان حديثنا عن العناقين العمالقة حيث يقول:

> «والعناق: شيء من دواب الأرض كالفهد، وقيل عناق الأرض: دويبة أصغر من الفهد طويلة الظهر، تصيد كل شيء حتى الطير. قال الأزهري: عناق الأرض دابة فوق الكلب الصيني، يصيد كما يصيد الفهد ويأكل اللحم.»

لقد كان «سيت» رب الشر المصري، الذي أصبح رب الهكسوس الأعظم، يصور في هيئة حيوان من فصيلة الذئاب، لكن شكله حير العلماء طويلًا، ولم يُتَح للعلماء التعرف عليه بين حيوانات البيئة المصرية المعروفة، ولا نظنه إلا العناق البونتي الآدومي، الذي عاش في الصحارى الشرقية وسيناء وبلاد آدوم، ويبدو أنه كان أكثر انتشارًا في آدوم البلاد الحمراء النارية، يعيش في أحراش المر وأيك اللبان، وكان ربًّا للصحارى كما كان ربًّا للهكسوس، وهو ما جاء مرسومًا في نقوش رحلة حتشبسوت إلى بلاد بونت، على جداريات معبد روعة الروائع بالدير البحري. لكن قيل في تفسيرها أنها كانت كلابًا سلوقية؛ لأنها أطول فصائل الكلاب عنقًا فهي كلاب معنقة، وكان لذلك الإله علاقة بالموت والموتى والدمار والهلاك والنار الجهنمية ورماد البخور، كما كان له علاقة بالإله الذي التقى بموسى في شجرةٍ نارية لا تحترق ببلاد مديان/آدوم، المعروف باسم «يهوه».

وأتذكر هنا إبان تلمذتي صغيرًا في مسقط رأسي مدينة الواسطى من أعمال محافظة بني سويف أول محافظات صعيد مصر — وكان ذلك حوالي عام ١٩٦١م ولي من

[٢٤] علي الشوك، بين الخطاب الموسيقي والخطابل اللغوي، مجلة النهج، دمشق، عدد ٤، ١٩٩٥م، ص١٣٩.

العمر أربعة عشر عامًا — أن شاعت في البلدة قصة عن حيوانٍ مفترس نزل البلدة من مكانٍ مجهول، وأنه يهاجم الإنسان كما يهاجم الحيوان، وسريع سرعة مذهلة. وكانت تلك شهادة الشباب الذين وجدوا في مطاردة الوحش متعة ومغامرة، تكسر رتابة البلدة الريفية ومللَها، وأجمعوا على رؤيته مراتٍ عدة، كما أجمعوا على أنه يقفز قفزات هائلة سريعة متتابعة، يختفي بها على الفور عن الأنظار، وبالغ بعضهم، فقال: إنه يطير، ثم هذَى بعضهم، فأقسم أنه قد رأى له أجنحة، فقد رآه يقفز طائرًا وراء حمامة ليقتنصها. ولا أعلم لماذا أطلق الناس عليه حينذاك اسم «السلعوة». كما أذكر أن صحيفة الأخبار القاهرية قد نزلت البلدة ممثلة في اثنين من الصحافيين، وسجلت الحدث وسعت مع المطاردات، لكن لم يظفروا بشيءٍ سوى الحالات التي كانت تظهر بين يومٍ وآخر، لأناسٍ هاجمتهم السلعوة، وكانت البلدة جميعًا تبيت ساهرةَ الجفون، بعد أن تغلق أبوابها قبل مغرب الشمس، ولا يدور في شوارعها إلا رجال البوليس وطلاب المغامرة والقنص، ولم تطمئن البلدة ويهدأ روعها، إلا بعد أن تم وضع السم في تيسٍ مذبوح، وتُرك في الشوارع، وبعدها تم العثور على حيوانٍ ميت قيل إنه السلعوة، وأثبت طبيب البلدة البيطري، والذي لم يعد يحمل من علم الجامعة غير الذكرى، أنه نوعٌ غريب من الذئاب طويلة العنق، وانتهى الأمر ونامت البلدة، ومر الحدث بليدًا على علمائنا الطيبين.

وقد عُدت إلى الإضافة لهذا الفصل مجددًا، بعد أن طالعتنا مجلة روز اليوسف القاهرية إبان كتابتي لهذا الفصل من العمل، بتحقيق صحفي جديد تحت عنوان: «الوحش المجهول الذي يهدد الصعايدة.»، وقد كُتب الموضوع تحت عناوين أساسية ذات دلالة وإيحاءات فهي:

- أرجله الخلفية أطول، وقفزته عشرة أمتار، ويتمتع بصفات الثعلب والكلب.
- الفيضان ودق الطرق وتفجيرات الجبال دفعته للهروب للقُرى.
- ظهر في الستينات في طرة والمقطم.

ومن التحقيق نقتطع بعض الفقرات، التي تعين على تحديد مواصفات «السلعوة»، كما في قوله: «يظل هذا الحيوان الغريب مهددًا لعددٍ هائل من المواطنين، فرض عليهم حظر التجول الإرادي ليلًا؛ خشية التعرض لهجومٍ من سلعوة، والتفسير القاهري للاسم الغريب هو أن هذا الاسم أُطلق على الحيوانات الشرسة البرية منذ الستينات في منطقة

جبال المقطم وطُرة، بعد ظهورها وتعديها على الأطفال والمواطنين في تلك المناطق، التي كانت تضم معسكرات للجيش هُجرت، فانتشرت هذه الحيوانات ولم يستطِعْ أحد اصطيادها أو السيطرة عليه، واستمرت الظاهرة وقتها أكثر من أربعة أشهر، ثم اختفت بعدها نهائيًّا ...»

ثم في موضعٍ آخر يقول التحقيق: «المفاجأة العلمية الثانية بعد العودة إلى قنا كانت على لسان الدكتور، مدير عام الحياة البرية في مصر، الذي قال إنه لا يستطيع أن يحدد اسم هذا الحيوان أو فصيلته إلا بعد دراسةٍ شاملة له. وقال: إن هذه النتائج سوف تظهر عقب عودة البعثة من قنا.»

وفي موضعٍ ثالث نقرأ: «تسبب السلعوة في مقتل أربعة أشخاص هم ... (يسميهم) فضلًا عن إصابة ٢٦ شخصًا بجروحٍ وأمراض خطيرة، وتكمن المشكلة في أن البعض أصيب منذ أكثر من ٤٠ يومًا وما زال في حالةٍ خطرة، ولم تستطع الأمصال المضادة لسعار الكلب شفاءه من مرضه، بالإضافة إلى نفوق ٢٨ رأسًا من الماشية نتيجة إصابتها بهجوم الحيوان المفترس عليها، بل إن كلاب الحراسة التي كانت تحمي الحقول، قُتل عدد كبير منها بهجومٍ من هذا الحيوان المخيف، الذي أطلق عليه الأهالي اسم سلعوة.»

ويقابل الصحفي أهالي القرية بعد مقتل واحد من تلك السلعوات، ويستمع من بينهم لأحد كبار السن يقول: «إن اسم السلعوة يعود لاسمٍ فرعوني قديم، تخيله المصريون القدماء كشيء لا يطيقه الإنسان، ولا يستطيع أن يتغلب عليه، ثم صار لقبًا يُخيف أي شخص، دون أن يدري أية معلومة عن صاحبه، ورآه الحاج ويقول عنه: بعد صيده وجدت شكله يختلف عن الكلب وعن الذئب، فهو حيوان ساقاه الخلفيتان أعلى وأطول من الأماميتين، سريع في قفزاته، لا يستطيع أحد اللحاق به.»[٢٥]

ونستعيد ما قال ابن منظور عن عناق الأرض، الذي يصيد كل شيء حتى الطير، لنتابع الاستماع إليه يقول:

> «إنه ليس شيئًا من الدواب يؤبر — أي يخفي أثره — إذا عدا، غيره وغير الأرنب.»

[٢٥] عصام عبد الجواد، الوحش المجهول الذي يهدد الصعايدة، مجلة روز اليوسف، عدد السابع من أكتوبر ١٩٩٦م، ص٧٩–٨١.

وفي ضوء تلك المعلومات ألا يكون محتملًا أن السلعوة هي البقية النادرة لذلك الحيوان القديم عناق/سيت؟ ثم نتذكر أن عاصمة بلاد آدوم كان اسمها سالع، ونتساءل في دهشة: هل اسم السلعوة هذا بقية مأثورة لذكرياتٍ غامضة، كانت تنسب هذا الحيوان لموطنه الأشهر سالع/سالعوة/سلعوة؟

وعن معبودات مصر القديمة يحدثنا فرانسوا دوماس عن بعض الآلهة غير محدودة المعالم، منها مثَلان: «نون» المحيط الأزلي الأول الذي كان موجودًا قبل خلق العالم، و«ماعت» ربة العدالة والصدق وكل المعاني الرفيعة. و«سيا» الذي هو مجرد تصور عقلي، أي هو رب الأفكار؛ لذلك هو فكرة بدوره، واسمه يعني التصور الذهني المطلق والمجرد للإله. ثم يعبُر دوماس عبر كتابه المحتشد بمئات الآلهة في سطرٍ واحد على إله كان يحمل اسم «هو Hou»،[٢٦] وهو ما يستدعي على الفور «هبا» زوج «هبات» أو «هفا» أو «هوى». كذلك جاء ذكر هذا الإله باسم «هو» عند ياروسلاف،[٢٧] بنفس الإشارة السريعة التي توعز بعدم وجود معلومات كافية عنه.

ويشرح إريك هورنونج عن «هو» قائلًا إنه: «تجسيد للنطق الخلاق الذي دعا به الإله الخالق كل الأشياء إلى الوجود، وهو أحد القوى الخلاقة الثلاثة مع حكا Hike وسيا Sia التي تصاحب إله الشمس دائمًا، والإله «هو» ليس له عبادة في المعبد»،[٢٨] وهو الأمر الغريب والمدهش إذا علمنا أن «يهوه» رب الإسرائيليين، كان الإله الوحيد، على تعدد أديان المنطقة، الذي كان إلهًا بريًّا ليس له معبد، ولم يقم له المعبد بعد ذلك إلا على يد الملك داود ثم سليمان، لأسبابٍ سياسية لتدعيم المركزية الحاكمة.

ومعنى أن يكون «هو» عند المصري القديم إلهًا يرمز إلى النطق الذي دعا به الإله الخالق الأشياء للوجود، فهو ما يستدعي فكرة الخلق بالكلمة «كن – فيكون»، فالإله «هو» يُنطق مثل ما فعل الكينونة TO BE، وسنرى كيف أن الإله العبري يهوه كان بدوره فعل كينونة «يكون».

وفي نصوص مصر القديمة نجد حكاية بعنوان قصة الرياح الأربع، عبر فيها المصري عن اسم أحد آلهته، نظنه الإله «هو» تحديدًا، بنقش كريش وعصافير تطير، تؤدي

---

[٢٦] فرانسوا دوماس، آلهة مصر، ترجمة زكي سوس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦م.

[٢٧] ياروسلاف تشيرني، الديانة ... سبق ذكره، ص٦٥.

[٢٨] إريك هورنونج، ديانة مصر ... سبق ذكره، ص٢٨٨.

كلها المؤدى الصوتي ي هـ و ى IAUEE، وتم تصوير الحرف الأخير من تلك الكتابة التصويرية في شكل مروحتين من ريش، متعارضتي الاتجاه تعبيرًا عن شهيق ذلك الإله وزفيره للهواء.[٢٩]

وأسماء الإله التوراتية تعطينا تنغيمات مختلفة، كعزفٍ متعدد على نوتة أصلية، فهو ياو، ياهوه، ياه، إهيه، يهوه، جاهوفاه، يهوى، ويعطيك النغم صوت الريح، خاصة لو أخذنا بنصح «لودز» في صحة نطق الاسم، فهو ينبهنا إلى وجوب نطق الاسم جاهوفاه بفتح ثم مد فسجول طويل،[٣٠] ويرى «شتاده STADE» أن معنى الاسم هو المُسقط، أي الذي يسقط البروق على الأعداء؛ لأن هوى بمعنى سقط،[٣١] بينما يذهب «فلهاوزن Wallhaesen» إلى أن الاسم «يهوه» من هوى العربية بمعنى الهواء فمعناه يهب، أي إنه كان إلهًا للريح والعاصفة،[٣٢] وهو ما نراه يتصل بعبادة القمر البدوية كما سنرى.

ومعلومٌ في الدراسات الميثولوجية أن القمر كان في نظر الأقدمين معبودًا، وكان معلومًا أيضًا أنه جرم كبير كالشمس، لكنه غير مستقر الأحوال، فسلوكه «هوائي». وحتى اليوم نقول عن الشخص المتقلب أنه هوائي.

ومع قيام الدولة الأكادية السامية في الرافدين القديم، يبرز بين الآلهة السومرية القديمة الإله «إنليل»، واسمه مركب من ملصقين «آن = سيد أورب» + «ليل = الليل أو الهواء»، وقد اعتبر رب الليل وانتمى الناس إليه بالعبودية حتى زمن الدعوة الإسلامية، كما يأتينا في اسم «عبد ياليل»،[٣٣] ولم يزل المطرب الشعبي في بلادنا، يغني لهذا الرب بمواله: يا ليل يا عين، وعين هنا هي عين الليل، القمر. أما أهم صفات «إنليل» التي وصلتنا؛ فهي أنه كان رب الريح والعاصفة. ولما كان الأقدمون يرسمون للكواكب

---

[٢٩] جارودي، فلسطين أرض ... سبق ذكره.

[٣٠] Lods. A, Israel From its Beginnings to the middle of eight century London, 1963, pp. 321–322.

[٣١] Stade, B, Le herbuch der hebraischen Grammatik, Libzig, 1979, 429.

[٣٢] Wall hawseen. J, Die bibllischen Atertu mer, clu an Stuttgart.

اقتبسه د. يعقوب السيد بكر في هوامشه على ترجمة كتاب موسكاتي: الحضارات السامية القديمة، دار الكتاب العربي للطباعة، القاهرة، ١٩٥٧م، ص٢٨٦.

[٣٣] ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، مج٣، ص١٠٠٧، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، مج٣، ص٥١٢.

والنجوم خرائط تخيلية، تحددها لتسهل مقاربتها؛ ولأن التجريد الخطي لم يكن قد نضج بعد، فقد جعلوا خرائط الفلك على أشكال الحيوانات، وكان حظ القمر من تلك الخرائط رمز الحيوانات ذات القرون؛ لأن القرنين يشبهان الهلال، فقاموا يرسمون تحت الهلال رمزه الأرضي: الثور والتيس والخروف. لكن الصورة التي حازت الانتشار كانت صورة الثور؛ لأنه على الجانب الآخر كان يمثل قوة الخصوبة في الطبيعة، لفحولة الثور الجنسية. وهنا ما علينا سوى أن نتبع نصح «لودز» في نطق يهوه «جاهوفاه»، بفتح فسجول طويل لنستمع لأنفسنا نخور خوار ثور فصيح. إنه بدوره صوت الريح، ولا ننسى أن من معاني كلمة سوت Swt إحدى مشتقات سيت في معجم فولكنر ٢١٥: معنى قوة الريح. وكثيرًا ما قيل في الأساطير الإسلامية القديمة، أن الريح الإعصاري يخرج من منخار ثور أسطوري (متكررات: انظر ذلك قصص الأنبياء للثعلبي النيسابوري مثلًا).

لكن المدهش حقًّا — وسر الدهشة سينجلي بعد قليل — أن نجد المصري القديم يدوِّن لنا عن ذلك الإله المذكور في هيئة مراوح من ريش تزفر الهواء، تنبيهًا يقول: «إنه الإله الذي يحرم النطق باسمه.»[٣٤] وهو ما ترك صداه في الأساطير الدينية حول اسم الإله العظيم أو اسم الإله الخفي، وهو الاسم الذي إذا عرفه شخص تقي أو محظوظ، يمكنه أن يكتسب قدرات الفعل الإلهي، ويكسر به قوانين الطبيعة ويفعل المعجزات، وقد شرح المصريون، وبعدهم علماء المصريات، السر في تحريم النطق باسم هذا الإله، والمتمثل في كونه ليس كائنًا بل هو نطق. هو الكلمة الخالقة، هو فعل وليس كيانًا ماديًّا؛ لذلك استخدمت في التعبير عنه حركات الريح (المراوح والريش)، زيادة في تجريده عن المحسوس. وهو ما يلتقي مع الاسم «هفا» أو «هوا» زوج ربة الشمس «هبات» في بلاد الحوريين المديانية، وإليه انتسبت باسمها الأميرة الميتانية، التي تزوجها آمنحتب الثالث، وعرفت باسم «جيلوخيبا» أو «إيلوهوا»، وترجمتها «الإله الهواء»، وهي الإلهة التي عبدت في مصر باسم «هيبات».

ولو أمكننا الاطمئنان الكامل لكلام «برستد»، حيث لم نجد هذا الكلام إلا عنده، لأمكن القول أن «هوا» أو «هفا» هو نطق لاسم نفس الإله «يهوه»؛ لأنهما كانا يُعبدان في ذات المكان وذات الزمان، فهو يقول: إن أهل مديان قبل موسى، كانوا يدينون بديانة

---

[٣٤] جارودي، فلسطين أرض … سبق ذكره، ص٩٩.

إله وثني باسم «يهوه»،[٣٥] وهذا كله إنما يلتقي مع صفة عناق الآدومي شديد السرعة كالريح، وبقيت عنه ذكريات جاءت في لسان العرب، وهو يقول:

> إنه ليس شيئًا من الدواب يؤبر — أي يخفي أثره — إذا عدا، غيره وغير الأرنب، وجمعه عنوق، والفرس تسميه: سيا كوش.

ثم نجد لدينا قطعةً أدبية كهنوتية مصرية، تعود إلى زمن من الأسرة التاسعة عشرة ربما من زمن رمسيس الثاني، معنونة بعنوان شديد الدلالة هو «الإله واسم قوته الخفي»، تروي كيف كان للإله عددٌ من القوى، ولكل قوة اسم مقدس معبود، وبين تلك الأسماء كان ذلك الاسم، الذي لا يعرفه أحد وهو سر قوته العظمى.[٣٦]

(الإلهة هيبات: انظر الشكل رقم «١٠٦».)

هذا بينما على الجانب الآخر نجد «موسكاتي» يقول: «كان إله إسرائيل يظهر وسط السحاب، ويبدي قوته في البرق والعاصفة.»[٣٧] وكان «سيجموند فرويد» يؤكد: «أن الإله يهوه هو الذي أهداه موسى المدياني شعبًا جديدًا لم يكن كائنًا أعلى، بل كان إلهًا محليًّا محدودًا وشرسًا، عنيفًا ودمويًّا.»[٣٨] إن فرويد كان مثل «جيمس برستد» يعتقد جازمًا أن يهوه كان إلهًا مديانيًّا سيناويًّا آدوميًّا. أما الذي يجب إبرازه هنا أن المصري القديم، كان دائمًا يتحدث عن أرض الإله أي بلاد بونت، لكنه أبدًا لم يذكر لنا اسم هذا الإله ولا مرة واحدة، ونفهم الآن السبب الواضح؛ لأن هذا الإله كان فعلًا، لم يكن اسمًا وليس له اسم، إنه فقط «هو» يشار إليه بالغائب؛ لحرمة النطق باسمه.

ويشرح «كمال الصليبي» معنى اسم الإله الإسرائيلي «يهوه» فيقول: «يهوه: قد تعتبر هذه الكلمة بالعبرية على أنها الاسم الذي تطلقه التوراة على الله ... وهو اسم لا يُلفظ في القراءة إجلالًا، بل يكنى عنه بكلمة الرب، وهكذا يترجم إلى العبرية. ويعتبر

---

[٣٥] برستد، فجر الضمير، ترجمة سليم حسن، مكتبة مصر، القاهرة، د.ت، ص٣٨٦.

[٣٦] سامي سعيد، الرعامسة، سبق ذكره، ص١١٧.

[٣٧] موسكاتي، الحضارات السامية القديمة، ترجمة د. السيد يعقوب بكر، دار الكاتب العربي للطباعة، القاهرة، ١٩٥٧م، ص١٤٩.

[٣٨] سيجموند فرويد، موسى ... سبق ذكره، ص٦٨.

شكل رقم «١٠٦»: الإلهة هيبات المصرية.

علماء اللغة أن يهوه هي صيغة مضارع لفعل هيه بمعنى كان، والمضارع من هذا الفعل هو عادة يهيه، كلمة يهوه إذن قد تعني: الرب وقد تعني: يكون.»[٣٩]

وللباحث نفسه كتاب آخر يعقب فيه على نص التوراة، الذي يحكي عن لقاء موسى لربه في نبات مضيء بسيناء «فناداه الرب يهوه من وسط العليقة، وعرفه بنفسه قائلًا: ء هيه ءشر ءهيه، أي أكون الذي أكون، أو بمعنًى آخر: أنا من أنا، وطلب منه أن يسميه باسم أهيه أي أكون. والاسم هذا من الناحية اللغوية هو اشتقاق من هيه، بمعنى: كان،

[٣٩] كمال الصليبي، التوراة جاءت ... سبق ذكره، ص١٢٩.

أو بأي معنًى آخر. والجذر نفسه يرد أيضًا في العبرية التوراتية بشكل يهوه، والواضح على كل حال أن الاسم ءهوه هو ذاته اسم الرب يهوه.»[٤٠]

بينما الترجمة العربية للتوراة الصادرة عن الكنيسة الكاثوليكية، تسجل نص خطاب الرب لموسى هكذا: «أنا هو الكائن، قل لبني إسرائيل الكائن أرسلني إليكم.» ويعقب «أنيس فريحة» على ذلك بقوله: «إن كلمة يهوه هي اسم الإله، وهو فعل مضارع من هوى.»[٤١]

وفي مصر القديمة إله للهواء أو للهوى معلوم مشهور، هو المعروف باسم «شو SHU»، الذي يحمل قبة السماء، ويقول لنا «فهمي خشيم» أن المقابل العربي لهذا الاسم بالجذر الثاني يُنطق «هو» أو «هواء»، رب الهواء ويرسم بشكل ريشة. وقد صور المصري القديم ذلك الإله برجُل على رأسه ريشة، ومجموعة من الريش للدلالة على الهواء. ونحن نعلم أن الريشة كانت علامة الملوكية عند البدو، الذين يضعون الريش على رءوسهم علامة السيادة،[٤٢] تيمنًا برب الهواء والمالكين باسمه ورمزه «الريش».

وهكذا فإن الإله «سيت» كان في نظر المصريين راعيًا للموت وربًّا له، وكان له عدد من التجليات فارتبط بنوعين من الحيوان: الحمار؛ لأن لونه أحمر، وبالحيوان البونتي الآدومي «عناق». وربما ارتبط بكائنات مصاحبة عاشت في المنطقة، وكانت من علاماتها الدالة، مثل «حية السف الطائرة»، كما ارتبط بطائرٍ صياد للحيات، هو طائر الفينيق، وكان عند المصريين ربًّا لذوي البشرة السوداء أو الكوشيين؛ لذلك رأوه ربًّا للجنس الأسود الزنجي، الذي كان يعيش جنوب الوادي، وكان يُطلق على تلك المنطقة الجغرافية اسم بلاد كوش، كما كان إلهًا للجنس الأسود «الكوشيين»، الذي عاش على حدود مصر الشرقية في سيناء وآدوم.

والكتاب المقدس يروي لنا في سفر الخروج رواية شديدة الدلالة؛ إذ يقول إن يهوه رب إسرائيل بعد أن ضرب مصر بكثيرٍ من الضربات المهلكة، وجعلها بلادًا قحطًا قفرًا، كتحويل مياه النيل إلى دمٍ نتن، وإرسال الريح المحملة بالبرد والنار على البلاد، مما قضى على الزرع والناس والحيوان، وتسليطه الحشرات كالجراد على المزارع، والأوبئة التيفودية

[٤٠] كمال الصليبي، خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل، دار الساقي، لندن، ١٩٨٨م، ص٢١٥.

[٤١] أنيس فريحة، دراسات في التاريخ، دار النهار، بيروت، ١٩٨٠م، ص١٧٩.

[٤٢] فهمي خشيم، آلهة … سبق ذكره، ج٢، ص٤٢٧.

الفتاكة على الحيوان والإنسان. قرر في الليلة الأخيرة قبل خروج بني إسرائيل من مصر في الصباح، قتل كل بكر في مصر سواء كان إنسانًا أو حيوانًا، ونستمع معًا لهذا المقطع التوراتي، الذي يوعز بأن ذلك القتل كان عنيفًا صاحبَتْه إسالة دماء هؤلاء الأطفال، كما لو كان قد تم تمزيقهم إربًا، يقول هذا المقطع:

> فدعا موسى جميع شيوخ إسرائيل وقال لهم: اسحبوا وخذوا لكم غنمًا بحسب عشائركم واذبحوا للفصح، وخذوا باقة زوفا واغمسوها في الدم، الذي في الطست ومسوا العتبة العليا والقائمتين بالدم الذي في الطست. وأنتم لا يخرج أحد منكم من باب بيته حتى الصباح، فإن الرب يجتاز ليضرب المصريين، فحين يرى الدم على العتبة العليا والقائمتين يعبر الرب عن الباب، ولا يدع (المُهلك) يدخل بيوتكم ليضرب ... فحدث في نصف الليل أن الرب ضرب كل بكر في أرض مصر، من بكر الفرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الأسير الذي في السجن وكل بكر بهيمة. فقام فرعون ليلًا هو وكل عبيده وجميع المصريين، وكان صراخ عظيم في أرض مصر؛ لأنه لم يكن بيت ليس فيه ميت.
>
> (خروج، ١٢: ٢٩، ٢٣، ٢٢، ٢١)

لقد كان المحرر التوراتي يعلم بالتباس الإله يهوه بكائنٍ اسمه «المهلك» أي المفترس، وحاول الفصل بينهما لكنه لم يتمكن من ذلك تمامًا فظهرَا كائنًا واحدًا، وهو ما يذكرنا بالإله «سيت» المصري رب الموت، المعروف لدى الإغريق باسم «طيفون» سيد عالم الأوبئة والدمار، الذي زعمناه «عناق» وفضلنا وصفه بعناق البونتي؛ لتبقى عنه ذكريات حفرية انتقلت عبر الأجيال حتى زمن دعوة الإسلام، ليعبر عنها القرآن في قوله: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ (القلم: ١٩)، ومن المدهش أن يفلت من المحرر التوراتي تصور واضح لهيئة ذلك المهلك الإلهي اليهوي طيفون الطائف، فيتابع سرد كيف أهلك المهلك أبكار المصريين في قوله:

> وقال موسى: هكذا يقول الرب: إني نحو منتصف الليل أخرج في وسط مصر، فيموت كل بكر في أرض مصر، من بكر الفرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الجارية التي خلف الرحى وكل بكر بهيمة. ويكون صراخٌ عظيم في كل أرض مصر لم يكن مثله ولا يكون مثله أيضًا، ولكن جميع بني إسرائيل لا يسنن

كلب لسانه إليهم لا إلى الناس ولا إلى البهائم، لكي تعلموا أن الرب يميز بين المصريين وإسرائيل.

(خروج، ١١: ٤–٧)

إذن فالمهلك التوراتي من الفصيلة الكلبية، ونحن نعلم أن أحد سلالة يهوذا بن يعقوب، قد حمل اسم تلك الفصيلة، فهو «كالب بن يفنة» أبو قبيلة الكلبيين، ويحيطنا علي الشوك علمًا في عبارةٍ سريعة غير مشغولة بموضوعنا، لكنها تعني لنا الكثير، تقول: «إن الكالبيين هم الآدميون حلفاء اليهود.»[٤٣]

وفي نص مصري ورد لأول مرة في نصوص ترجع إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد فيما يسمى نصوص اللعنات، التي كانت تُكتَب على جِرارٍ فخارية تسجل أسماء أعداء مصر وبلادهم وحكامهم، ثم يتم تحطيمها في طقسٍ سحري تماثلي يفترض فيه أن الشبيه ينتج الشبيه، لجلب الأذى على أصحاب تلك الأسماء، والنص الذي نقصده يعدد ملوكًا وبلادًا، نقف مع اسم أحدهم دهشين، لكن مطمئنين به إلى فروضنا، إذ يذكر النص اسم ملك لبلاد تشغلنا فيقول:

وإيدوم حاكم إي عناق وجميع بطانته
ويقرب آمو حاكم أورشليم وجميع بطانته.

ويستمر سجل الأعداء المطلوب إنزال اللعنة عليهم بالطقس السحري، فيذكر إثنى عشر ملكًا ببلادهم،[٤٤] إلا أن الملحوظة الهامة على نص اللعنة المذكور هنا، أنه قد حدثت فيه حالة تبادل ما بين اسم الملك واسم البلاد الآدومية، فحمل الملك اسم «إيدوم» أو «آدوم» وكان يحكم في «إي – عناق»، والكلمة «إي» كلمة سومرية هندوآرية، ورثتها الساميات عن السومرية، وترد على التبادل مع كلمة «بيت BIT»، التي تحمل ذات الرسم والمعنى في اللغة العربية، فبلاد آدوم كانت «بيت عناق» ومقره.

(انظر أشكال أنوبيس المصري والسالعوة رقم «١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠».)

---

[٤٣] علي الشوك، سبق ذكره.

[٤٤] فراس السواح، الحدث … سبق ذكره، ص١٤١.

شكل رقم «١٠٧»: أنوبيس/المتحف المصري، لاحظ مدى اشتراكه في هيئته الجالسة وأذنيه المرتفعتين مع الإله سيت، ولاحظ الطوق الذهبي حول العنق.

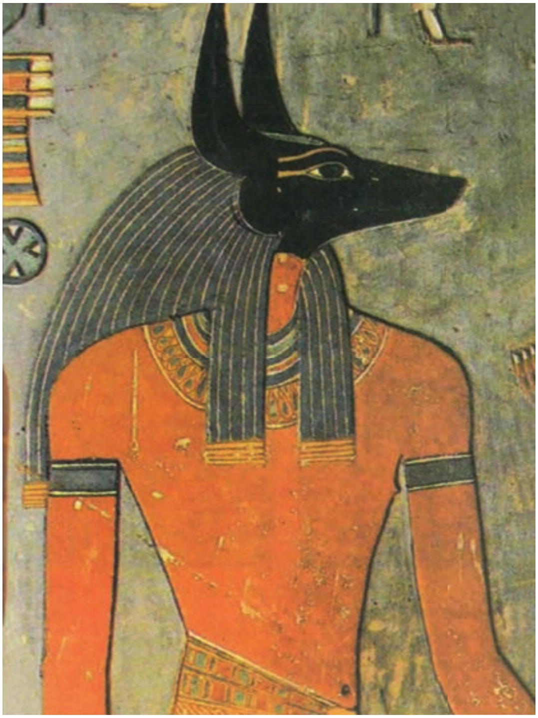

شكل رقم «١٠٨»: بروفيل أنوبيس رب الموت في مصر القديمة.

شكل رقم «١٠٩»: أنوبيس ابن آوى يلحد الموتى في مقبرة سبتاح. التعويذة رقم ١٥١ من كتاب الموتى.

شكل رقم «١١٠»: أحدث عثور وقتل لحيوان السلعوة بأسوان (مصر في شهر إبريل ٢٠١٠م).

شكل رقم «١١١»: رب الشر سيت يلبس تاج القطرين.

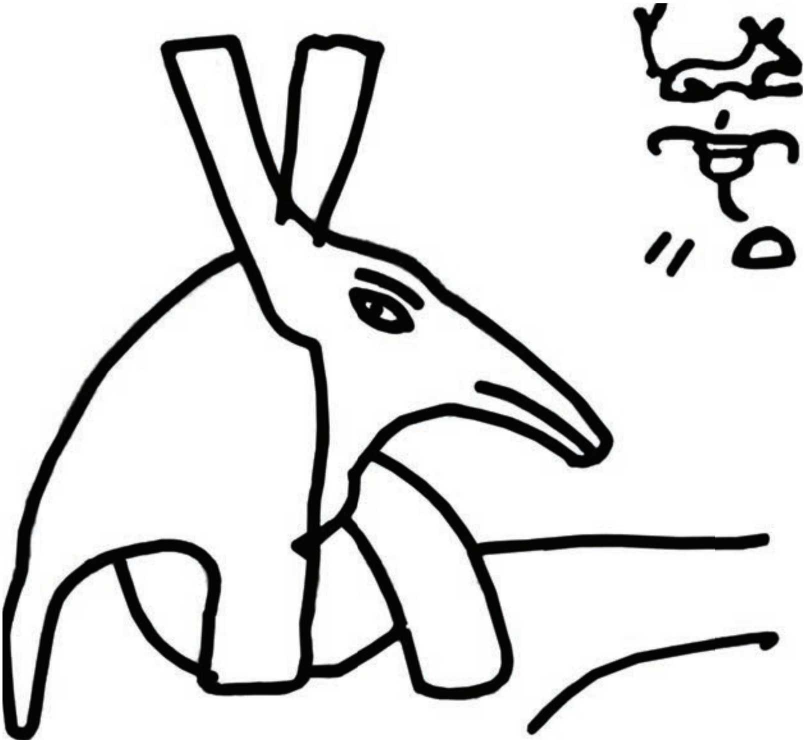

شكل رقم «١١٢»: سيت تفصيل علوي.

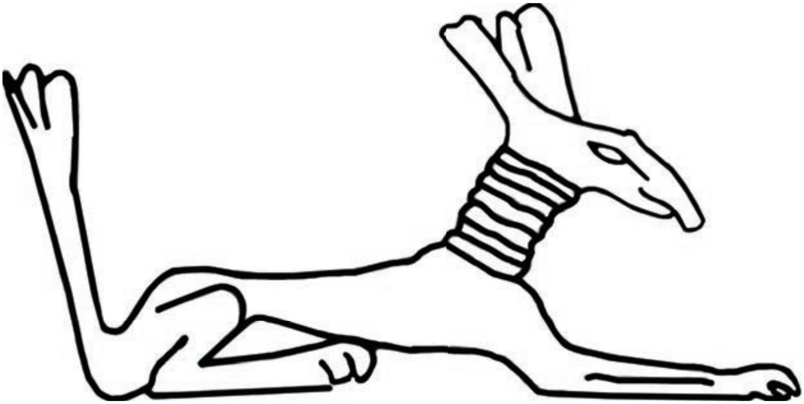

شكل رقم «١١٣»: سيت يلبس أطواقًا؟! مدياني؟!

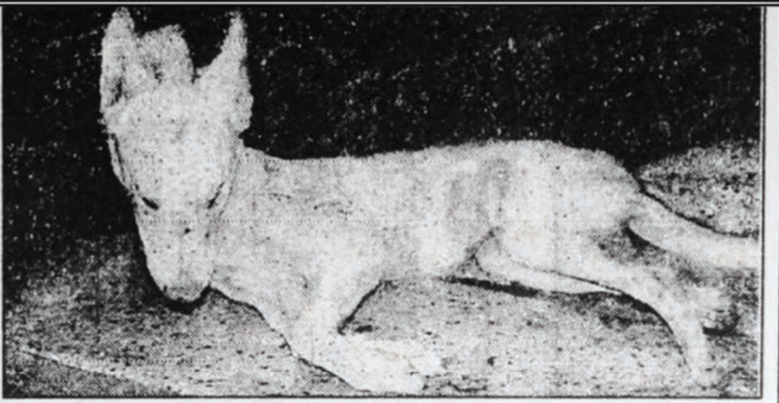

السلعوة بعد القبض عليها حية فى أحداث قنا منذ فترة انتقلت إلى القاهرة واثارت الرعب فى القطامية

٤ تليفونات عملة لمواجهة السلعوة

كتب جمال حسين:

فى أستجابة سريعة وافق المهندس سليمان متولى وزير النقل والمواصلات على طلب اللواء حسن الألفى وزير الداخلية بانشاء ٤ تليفونات خدمة عامة بمنطقة القطامية. بعد أن هاجم حيوان السلعوة المفترس الأهالى وأصاب ١٢ طفلا. كان اللواء محمد عبداللطيف خضر مساعد أول وزير الداخلية قد انتقل الى منطقة القطامية عقب ظهور السلعوة بها ولاحظ مدير الأمن اثناء جولته قصور الخدمات بالمنطقة الجبلية فقام باعداد مذكرة رفعها الى اللواء حسن الألفى وزير الداخلية بضرورة وجود تليفونات خدمة عامة وقد قام وزير الداخلية باخطار وزير النقل والمواصلات حيث وافق على التركيب الفورى لأربعة تليفونات يبدأ تركيبها خلال ٢٤ ساعة.

شكل رقم «١١٤»: السلعوة في الأخبار القاهرية بتاريخ ٦/٤/١٩٩٧م، لاحظ الآذان وقارن مع سيت، والوجه الأقرب إلى الحمار.

المسئولون فى حديقة الحيوان :

سلعوة القطامية أخطر من سلعوة أرمنت

انيـاب السلعـوة بارزة كـالذئاب واذنهـا اطول من اذن الكلاب

كتب سيد عبدالقادر

اكد مصطفى عوض مصطفى وكيل وزارة الزراعة والمشرف العام على حدائق الحيوان ان حيوان السلعوة الذى ظهر فى القطامية هو هجين من الكلاب والثعالب، وهو بذلك يختلف تماما عن «السلعوة» التى ظهرت فى ارمنت والتى كانت تنتمى للفصيلة الكلابية واكثر منها خطورة

وقال ان حيوان السلعوة الذى تم الامساك به فى ارمنت لم يكن يهاجم الا فى حالة الدفاع عن النفس، بينما بدا حيوان القطامية بالهجوم

وقال ان السلعوة ظهرت فى الستينات فى مناطق جبال المعادى وطرة البلد وكوتسيكا وكانت انذاك مقرا لوحدات من الجيش ثم زحف اليها العمران، وقد ادى هذا الزحف العمرانى لهروب هذا الحيوان البرى الى اطراف المدن والى جنوب مصر، ومن المرجح ان يكون لجروه للمدن فى الآونة الاخيرة نتيجة لزيادة حركة العمران، بالاضافة الى حاجته الشديدة للغذاء، لأنه كان يتغذى على الدجاج والارانب بالمزارع، او الحيوانات البرية الاقل حجما

ومن جهة ينصح الدكتور مصطفى هيكل رئيس الادارة المركزية لحدائق الحيوان كل من اصيب بعضة السلعوة ان يأخذ المصل الواقى من مرض الكلب فورا، لان هذا الحيوان ينتمى للفصيلة الكلابية وقال معروف ان ٩٠ بالمائة من القطط والكلاب مصابة بمرض السعار الذى ينقل

مصطفى هيكل

مصطفى عوض

منها للانسان فى حالة العقر (العض) او حتى اذا ما داعب الشخص الحيوان المصاب فاصاب لعابه احد الجروح الموجودة بجسمه

وقال ان هناك احتمالا كبيرا لان يكون سلعوة القطم مصابة بالسعار، لأن هذه الفصائل لا تهاجم الا فى حالتين اذا ما كانت جائعة او اذا ما كانت مصابة بالسعار مما يجعلها تهاجم بلا سبب، وتهجم وتفترس من امامها، وتأكل حتى الخشب والمسامير. والحل الوحيد هو ان يتعاطى كل من اصابه السلعوة بمصل داء الكلب ولا يخيط الجرح حتى لا ينتقل الفيروس للمخ، كما يجب الاحتفاظ بالحيوان حيا لمدة ٢١ يوما لو استطعنا كما نفعل مع الكلاب لأن الكلاب اذا كانت مصابة بالسعار فانها تموت خلال ٢١ يوما.. فاذا ماتت اكمل المصاب كورس المصل، واذا استمرت حية بعد ٢١ يوما توقف عن المصل واضاف: ان الحيوان المصاب بالسعار لا يستطيع شرب الماء ويصاب بشلل ولا يأكل وينزل اللعاب بغزارة، وهذا اللعاب هو الذى يحمل الفيروس.

شكل رقم «١١٥»: أخبار السلعوة «أو المنسوبة إلى سالع» في صحيفة الأخبار القاهرية بتاريخ ٧/٤/١٩٩٧م.

الفصل الرابع

معان المصرية

تقيم التوراة في شجرة أنسابها وتقسيمها للأجناس، علاقات قرابة ونسب ما بين الجنس العربي والجنس العبري، فتجعلهم من أصلٍ واحد، وتعيدهم دومًا إلى سلفٍ واحد مشترك. وأدرجوا تحت هذا السلف المشترك: العبريين، والعرب الشمالية والجنوبية، بإرجاعهم جميعًا إلى أبٍ بعيد واحد هو «عابر». والواضح على المستوى اللساني بالقلب اللغوي «الميتاتيز» أن عبري مقلوبها عربي.

ومن هنا يمكن الظن أن هذا المزج يعود إلى ذكرياتٍ تاريخية، إلى زمن هجرات وتحالفات وحروب وتداخلات، حدثت بين مجموعة شعوب في المنطقة. وأصرت التوراة من جانبها على ربطها جميعًا بصلاتٍ قرابية؛ لتميز من بينهم شعبها المختار «إسرائيل». ومن جهتنا نعتبر ذلك ترديدًا لكشفنا للمملكة التجارية الكبرى، التي قامت في بلاد آدوم، بين حلفاء من أجناسٍ مختلفة وألسن متباينة. واقتضت مصلحتها إقامة كونفودرالية، شكلت لونًا من قومية المصالح، التي اقتضت تنظيرًا قبليًّا، قام المقدس برَتْقها ببعضها باعتبارها بطونًا وأفخاذًا لأصلٍ واحد، امتد من حدود الدلتا الشرقية المتصلة بسيناء حتى الرافدين والخليج الفارسي شرقًا. ومن الشمال السوري والرافدي حتى اليمن جنوبًا، إضافة إلى جزر المتوسط الشرقية.

وغني عن البيان أن ما حدث في آدوم قد وجد صَداه في عودٍ تاريخي يكاد يطابق ما حدث في بلاد آدوم بعد ذلك بقرونٍ طوال، عندما قامت مكة في بلاد الحجاز بدور الوسيط التجاري لعالم الإمبراطوريات، حين توفرت لها الظروف القديمة، والتي أهلتها لتقود القبائل المتفرقة نحو دولة قبائل كونفودرالية اتحادية، لتكرر ذات ما حدث في بلاد آدوم. فحين استوت لها أسباب القوة تحولت عن قبض عشور التجارة، إلى التجارة بأموالها الخاصة، ثم إلى توحد الشركاء في منظومةٍ واحدة، ثم احتلال دول المحيط احتلالًا مباشرًا

واستيطانيًّا، هاجرت فيه القبائل العربية لتسكن البلاد المفتوحة، وتحكمها حكمًا مباشرًا في ولايات. بالضبط كما حدث زمن الهكسوس وتكوينهم إمبراطورية تجارية كبرى، توزعت فيها الولايات على القبائل الكبرى داخل الحلف الواحد. حتى إن مكة قد ضمت مدن الخط التجاري القديم القادم من اليمن حتى مصبِّ ذلك الخط في دول المتوسط الشرقي، كما ضمت في عضويتها أجناسًا متعددة، يأتينا ذكرها في صحابة نبي الإسلام أنفسهم، ما بين الزنجي الكوشي بلال، وبين الهندوآري الرومي صهيب، وما بين الفارسي سلمان.

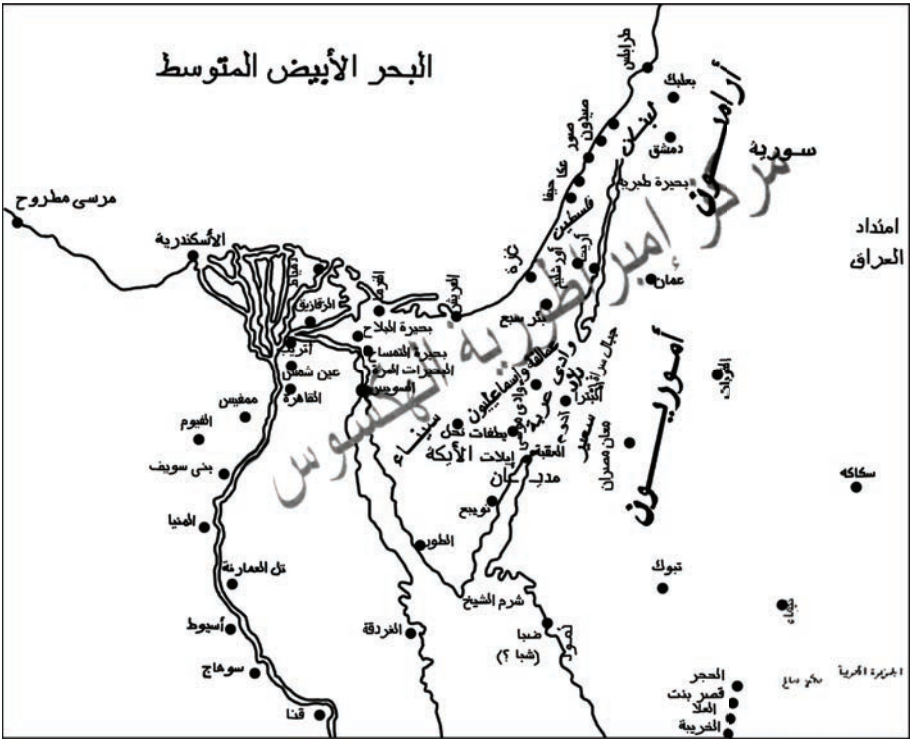

شكل رقم «١١٦»: حقل الأحداث زمن إمبراطورية الهكسوس حسب تخريجات المؤلف.

وفي المأثور العربي ترديد متكرر ومتواتر، لأمرٍ كان يحتفظ به قدامى العرب من ذكريات الأزمنة الخوالي، وهو أن جزيرة العرب كان يعيش فيها من فجرها جنس

أطلقوا عليه العرب العاربة، أي العرب الأصيلة الراسخة في العروبية، والمتجذرة فيها من فجرها القديم. وهم من حظوا بلقب العرب القحطانية، وهم المفترض أن يكونوا سلسلة من الأخلاف لشخصية وردت في شجرة الأنساب التوراتية باسم «يقطان». وتقول لنا المصادر الإخبارية العربية إنه قد وفد على جزيرة العرب من بوابتها الشمالية جنس آخر وافد، هبط إليها هبوطًا غير منطقي لأسبابٍ مجهولة. هجر مناطق الخصب في بلاد حوض المتوسط الشرقي لينزل إلى صحارى شمالي جزيرة العرب ومنطقة الحجاز، وكانت أشبه بهجرة استيطانية حمل أصحابها اسم العرب المستعربة، أي العرب غير الأصلاء أو الدخلاء، الذين اكتسبوا العروبية ولم يكونوا من أبنائها. وقد اصطلح على تسميتهم العرب العدنانية نسبة إلى سلفٍ بعيد باسم عدنان، وهنا يخالف النسابة العرب شجرة الأنساب التوراتية، حيث لا نجد «عدنان» هذا في تلك الشجرة التوراتية. لكن أخبار العرب تلتقي مع أخبار العبر في اسمٍ آخر، أطلقه المؤرخون العرب على العرب العدنانية، فهم إسماعيلية يعودون إلى إسماعيل ابن الخليل إبراهيم، والإسماعيلية هو الاسم الذي فضلته التوراة للعرب الشمالية المستعربة العدنانية.

وهكذا نفهم أن هناك ارتباطًا، يشير إليه كلا المأثورين العربي والعبري، بين عرب الحجاز وبين الجنس الإسرائيلي عبر الخط الإسماعيلي، وأن الفرع الإسماعيلي أو العدناني للعرب قد هاجر من مواطنه في الفترة الهكسوسية حول بلاد آدوم والنقب ومحيطها، ليهبط بلاد نجد والحجاز؛ نتيجة ربما لخلافاتٍ قبلية أو تناقضات مصلحية حدثت داخل البطن الإبراهيمي حسب رواية التوراة، التي وافقتها الرواية الإسلامية، في ترميزاتٍ أسطورية لوقائع قديمة وأحداث تغيب عنا الآن تفاصيلها الدقيقة. ومن ثم انفصل الفرع الإسماعيلي وترك الفرع الإسرائيلي في فلسطين.

ورغم أن التوراة من جانبها لم تذكر أية معلومات واضحة، عن هبوط الفرع الإسماعيلي إلى بلاد الحجاز، فإنها أكدت عروبة هذا الفرع عندما دونت ذكرياتها التاريخية عن سُكنى الإسماعيليين لبلاد آدوم ووادي عربة، وأن «عيسو/آدوم» كان من أنسباء الإسماعيليين لزواجه من محلة بنت إسماعيل شقيقة «نبايوت/نابت» ابن إسماعيل. ويقول لنا «المسعودي»: «وإن إسماعيل بن إبراهيم إنما تكلم العربية حين نشأ في العماليق ... ولا خلاف أيضًا أن إبراهيم لم يكن عربيًّا ولا إسحاق ابنه، وأن ابنه إسماعيل أول من نطق بالعربية.»[1]

---

[1] المسعودي، التنبيه والإشراف، دار ومكتبة الهلالي، بيروت، ١٩٩٣م، ص٨٦.

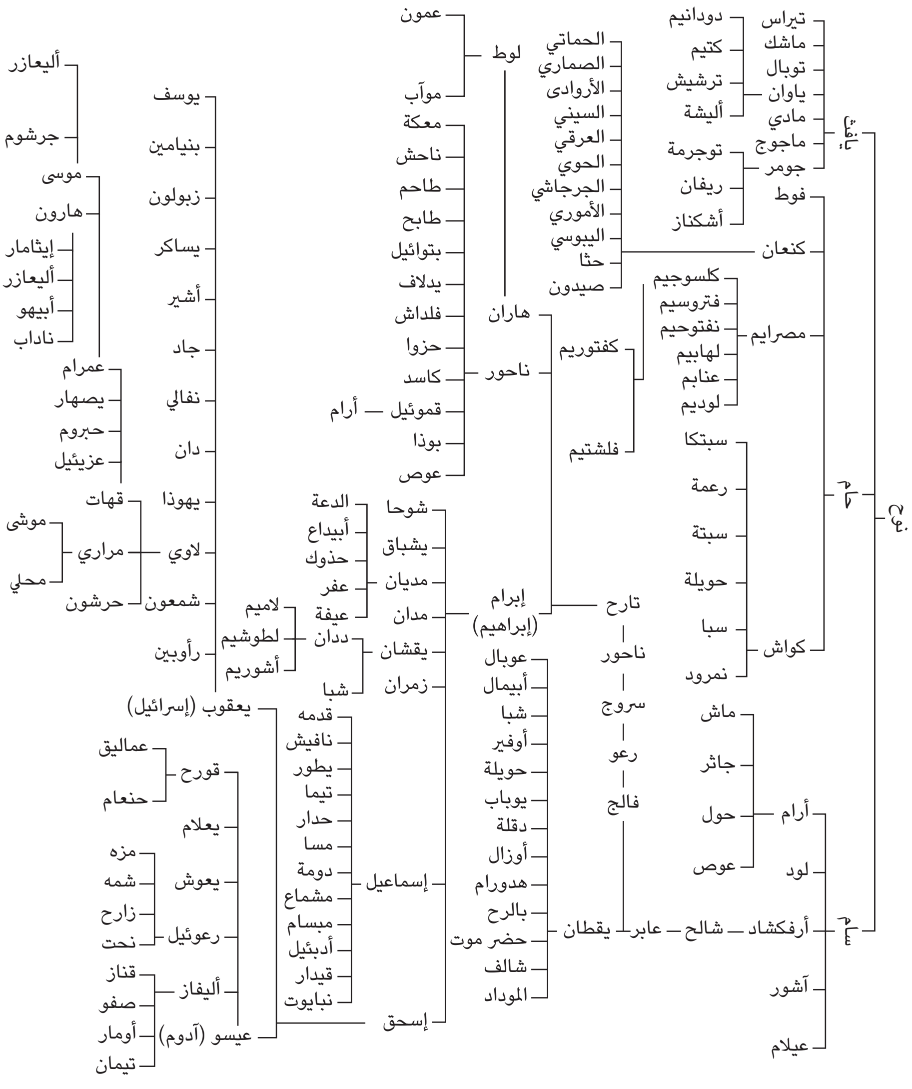

شكل رقم «١١٧»: شجرة الأنساب التوراتية حسب الكتاب المقدس (من وضع المؤلف).

والمأثور العربي يجعل أول من تولى أمر الكعبة المكية هو «نابت» ابن إسماعيل ونسله من بعده، ليربط بين العقيدة الدينية في مكة وبين أصولها الواردة من الشمال مع نابت بن إسماعيل، مع العرب الشمالية العدنانية المستعربة. والتوراة من جانبها تحيطنا علمًا بأن البطرك إبراهيم كان أرومة كل من الإسرائيليين والإسماعيليين، الذين اعتبرهم التأريخ الإسلامي عربًا مستعربة. وهنا يجب أن نتذكر أن على خط الممالك الأخير في غسق الممالك الآدومية، كانت مملكة الأنباط التي تحيل إلى الاسم «نابت» إحالة قوية، مع دعمٍ آخر لتلك الإحالة، إذ تحيطنا علوم اللغات القديمة، معرفة بأن الخط العربي هو تطوير للخط النبطي، الذي تطور بدوره عن الخط الآرامي، وهي جميعًا الإشارات التي تشير إلى أن العرب المستعربة العدنانية الإسماعيلية الحجازية، يعودون بأصولهم التاريخية إلى محيط بلاد آدوم وسيناء وجنوبي فلسطين، وأنهم قد هبطوا جنوبًا ليشكلوا هناك فرعًا عربيًّا جديدًا باسم المستعربة، نتيجة لأسبابٍ لم تزل حتى الآن ضمن أرشيف التاريخ أسبابًا مجهولة.

ويبدو أن منطقة آدوم القديمة ومحيطها، وضمن ذلك المحيط جزيرة سيناء جميعًا، بل والبراري الملاصقة لدلتا النيل الشرقية، بما فيها من مدنٍ مصرية، قد سكنتها أجناس عرفت بأنها «عربية»، وأن اسم عرابة الذي كان يخص الوادي الممتد من البحر الميت إلى العقبة، قد اتسع ليشمل كل تلك المساحة، ويضم معها مناطق الحجر وشمالي الحجاز، ومن هنا نفهم لماذا أطلق المؤرخون الكلاسيكيون مع مطلع العصر الإغريقي على إقليم شرقي الدلتا المصري اسم «الإقليم العربي»، كما أطلقوا على خليج السويس من البحر الأحمر «الخليج العربي من البحر الأريتري»، حتى إن عاصمة ذلك الإقليم الدلتاوي المصري أسماها اليونان «المدينة العربية باتومي»، أو باسم «بوتو» كما وردت عند المؤرخ اليوناني الأشهر «هيرودوت». ويؤكد هذا المعنى ليصبح حقيقة تاريخية، ما ذكرته التوراة عن استعباد الإسرائيليين في مصر في بناء مدينتين: واحدة باسم رعمسيس والثانية التي تعنينا هنا باسم فيثوم، التي تمت إعادتها لنطقها المصري لدى المصرولوجيين باسم «بر – ثوم» التي حرفت «بي – توم» التي هي «باتومي» عند هيرودوت، ومعناها في المصرية القديمة: «مقر الإله أتوم أو مسكنه». هذا إضافة إلى أن هذا الإقليم جميعًا أسمته التوراة «إقليم جاسان» أو «غسان» «جاشان» أو «جشم»، وهو ما يستدعي «الطاسة النذرية» التي عثر عليها بوادي طميلات في ذلك الإقليم شرقي الدلتا، مهداة للآلهة من الملك الآدومي «جشم بن قينو». ثم يستدعي قبيلة «غسان» التي

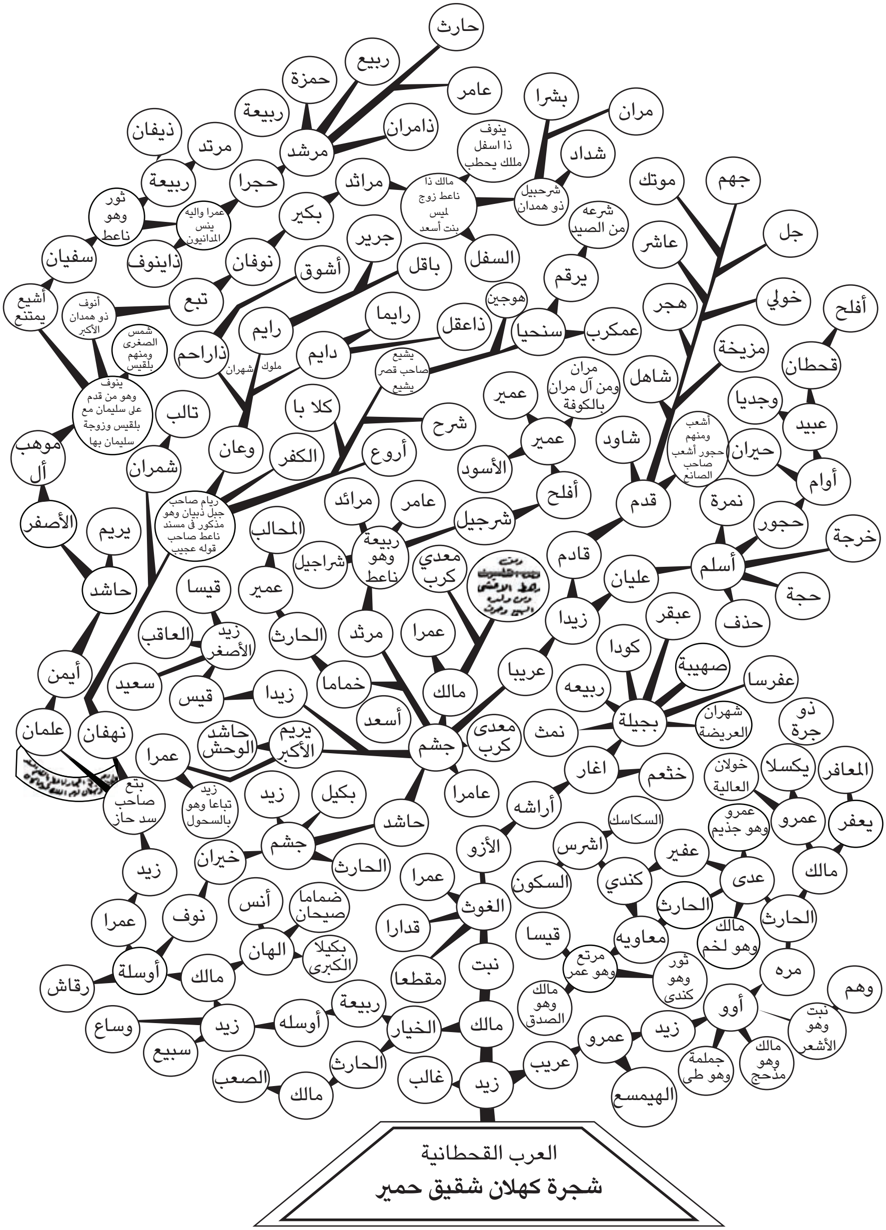

شكل رقم «١١٨»: العرب القحطانية، شجرة كهلان شقيق حمير بن سبأ.

ظهرت بعد ذلك بزمن أيام الرومان، لتقيم دولة في ذات المكان عند خليج العقبة، مرددة في اسمها اسم «جسان» أو «جاسان»، ذلك المكان الذي كان يقع شرقي مصر على حدود الدلتا الشرقية، وقالت التوراة إنه كان موطنًا سكنه الإسرائيليون عند دخولهم مصر، ومنه خرجوا إلى بوادي سيناء. ويبدو أن هذا الاسم قد حفر لنفسه طريقًا عبر التاريخ، وامتد لتحمله قبائل سكنت في مناطق آدوم القديمة، مكان «جشم بن قينو» لتقيم دولة الغساسنة زمن الرومان، ولاحظ «جاسان = جشم = غسان».

ورغم أن المؤرخ «رينيه ديسو» لم يذهب إطلاقًا إلى ما ذهبنا إليه نحن حتى الآن، فإنه يُلقي بقولٍ عابر يلتقي تمامًا مع ما وصلنا إليه؛ إذ يقول: «إن النبطيين كانوا يتكلمون الآرامية ... وأقاموا في جنوب فلسطين، حيث كانت مدينة سالع Petra هي العاصمة، ثم أصبحوا مهيمنين على الطرق التجارية.»[٢]

هذا بينما كان «إحسان عباس» يعبر عن دهشته، وهو يؤرخ لمدينة البتراء زمن الأنباط بقوله: «بين الأنباط وأهل اليمن عنصر هام مشترك، وهو طرق تخزين المياه وأساليب الري والمهارة الزراعية بعامة»، ثم يحاول البحث عن الأسباب وراء ذلك الاستقرار الحضاري في المنطقة الآدومية فيستطرد: «إن السؤال عن السبب الذي حداهم لسُكنى تلك المنطقة ... نفترض أن حاجة قطعانهم إلى المرعى والماء، هدَتْهم إلى ذلك المكان، ورويدًا رويدًا وجدوا في الاستقرار وفي طبيعة المكان نفسه، حماية لأنفسهم وقطعانهم، ثم اكتشفوا بعد ذلك صلاحية المكان للتجارة ولاستقبال السلع من جهاتٍ مختلفة. وتفتحت عيونهم على بريق الثراء، وحين أحرزوا كل ذلك لم يطلبوا عن ذلك المكان تحولًا، ثم إنهم لما بدءُوا هم أنفسهم يتاجرون، ولم يعودوا إلى نقله لمتاجر غيرهم مقابل أجر معلوم، اكتشفوا حاجتهم الماسة إلى الكتابة ... فكتبوا بالآرامية ... لكن العربية الشمالية لم تكن يومئذٍ لغة مكتوبة، أعني لم تكن قد اشتقت لها أبجدية محددة الرموز، إذ يكاد الباحثون يتفقون على أن الحرف العربي اشتق من الحرب النبطي ... وبدءُوا يكتبون العربية بحروفٍ آرامية.»[٣]

[٢] رينيه ديسو، العرب في سوريا ... سبق ذكره، ص١٥.

[٣] إحسان عباس، تاريخ دولة ... سبق ذكره، ص٢٣–٢٥، ونموذجًا للحرف النبطي انظر نقش النمارة المدون على قبر امرئ القيس، على غلاف كتاب أبكار السقاف: الدين في الجزيرة العربية، ط١، دار سينا، القاهرة.

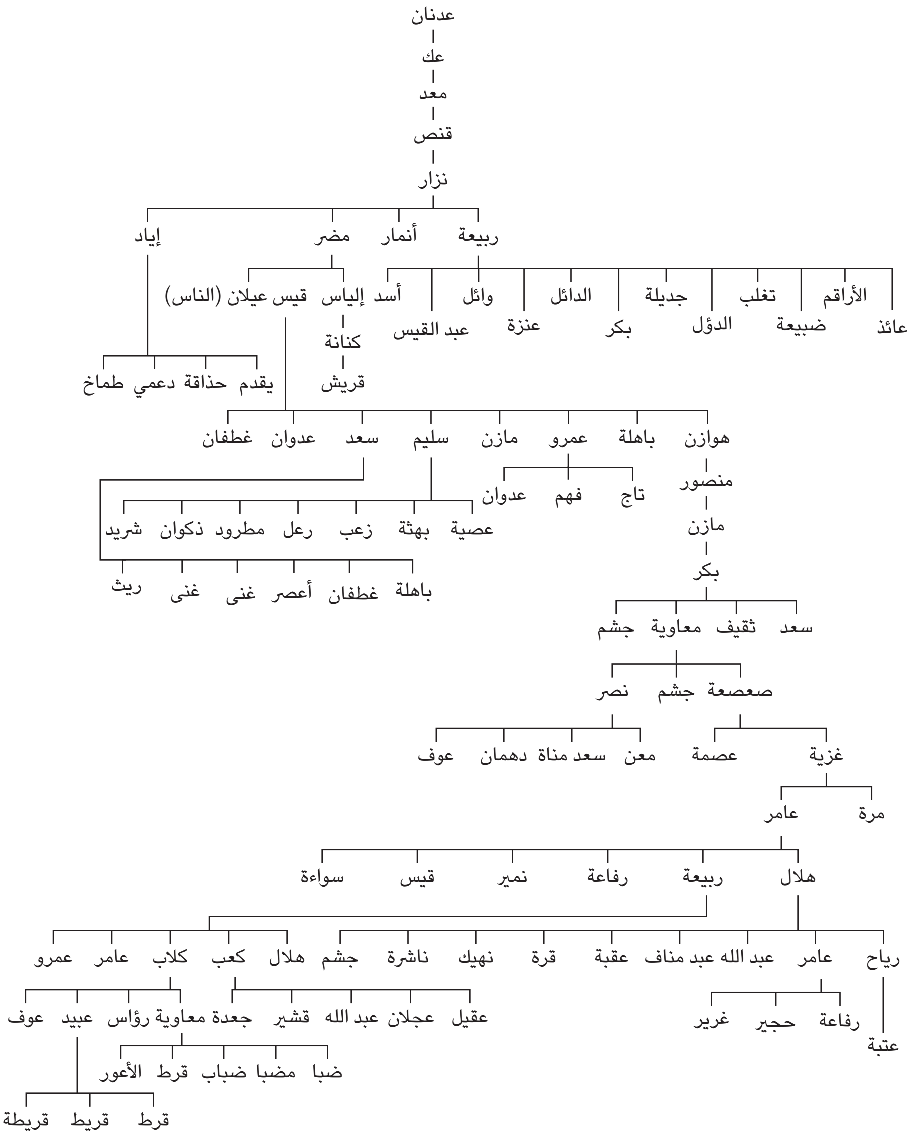

شكل رقم «١١٩»: شجرة أنساب العرب العدنانية.

والمعلوم أن أهم أعمدة تلك التجارة كانت المواد العطرية، وعمودها مواد التبخير من الزيوت واللبان بأنواعه؛ لذلك تساءل المؤرخون طويلًا عن السر العجيب وراء رواج مادة اللبان، وكل تلك الأهمية التي تحملها للعالم القديم، ومن ثم نرى أنه إضافة إلى السبب الواضح في قدسيتها؛ لأهميتها التعبدية للتبخير للأرباب، يمكن الركون إلى سببٍ أكثر وضوحًا وراء غلاء تلك المادة والطلب العالمي عليها، كمادة من المواد الثمينة. وهو أن علم الطب في مراحله الابتدائية، وفي كافة المدونات الطبية وعلوم الصيدلة القديمة، قد اعتمد اعتمادًا كليًّا على عنصرٍ أساسي مشترك، هو اللبان/المر/العلك، باعتباره المشترك في أي تركيبٍ علاجي، وبخاصةٍ للجروح، وهي الحدث الدائم في حياة الإنسان أيام شظف عيشه القديم، حيث كان الجرح قاتلًا لصاحبه إذا تلوث، واستمر في النزف، فكان عزله باللبان بعد معالجته الكيميائية مع التسخين، مانعًا للتلوث والنزف، وقد استمر هذا العلاج حتى زمنٍ متأخر حتى أيام المسيح، وحتى اليوم نجد في الطب الشعبي مادة اللبان/العلك/العيك/مادة أساسية لعلاج الأمراض الصدرية والمعوية وأمراض الدم، فيشرب مغليًّا مع إضافاتٍ نوعية حسب نوع المرض، فهو مادة أساسٌ حاملة لبقية صيدلية ذلك الزمان، وهنا نقرأ لسان العرب يحدثنا تحت مادة نبط:

> النبط: جمع أنباط، ونبط الماء نبط، والنبط ما يتحلب من الجبل كأنه عرق يخرج من أعراض الصخر. وشاة نبطاء: بيضاء الشاكلة محورة، فإذا كانت بيضاء فهي نبطاء بسواد، وإذا كانت سوداء فهي نبطاء ببياض. وفي حديث ابن عباس: نحن معاشر قريش من النبط من أهل كوثي وربا (لاحظ أن كوثي بجنوبي العراق [المؤلف])، وقيل إن إبراهيم الخليل وُلد بها، وكان النبط سكانها. وعلك الأنباط هو الكامان المذاب يُجعل لزوقًا للجروح.

ويوضح العالم الجليل «فهمي خشيم»: أن علك الأنباط ربما كان هو ما نسميه اليوم الصمغ العربي، أما اسمه الكامان، فهو أصلًا من المصرية «ق م إي ت qmiyt» أي صمغ، ومن «ق م إي qmiy» وهو سائل من مواد الصمغ، و«ق م إي. ت. ن ت. ع ن ت ى qmiy. t. nt. anty» أي صمغ شجرة المر، و«ق ء م إي qamiy» أي نبات زيتي و«ق م إي qamiy» أي دهان. وهو في معجم المصرولوجست «بدج» نوع من اللزوق، وجذره «ق م أو ج م» الذي أخذته اليونانية بالكاف «كومي Kommi» وكذلك اللاتينية qummi. ومن هنا نعلم لماذا كان المطاط في الفرنسية القديمة هو gomme، وفي الإنجليزية «gum = صمغ = علك = مطاط»، وقد أبدلت q وg من العربية «ك»،

فهي في العربية من المصرية «كم»، ومنها جاء اسم الكامان علك الأنباط. ولا يفوتنا التأكيد على أن اللبان أو الكامان «ع. ن. ت. ي» في المصرية، جاء هنا غير منسوب لا للصومال في أفريقيا ولا لليمن ولا للهند، إنما للأنباط، لبلاد آدوم. وهي الوراثة اللغوية لواقع أحداث بعيد، يؤكد على الرباط بين اللبان والأنباط، ويؤكد ما نقوله من بداية هذا العمل حتى الآن. ولا نستطيع هنا أن نمنع الذهن من تداعياته، وهو يتذكر المملكة التي قامت جنوبي مصر حوالي ١٦٠٠ق.م. واستمرت حتى ٣٠٨ق.م. وحملت اسم مملكة «نباتا Nabata»، والتساؤل الملحاح يقفز طوال الوقت عن علاقة الجنس الأسود، باسم نابت ونبايوت ونباتا ونبط وبلاد بونط، خاصةً أن مملكة نباتا قامت في منطقة النوبة، التي كانت تكتب وتنطق بفتح التاء الأخيرة/الهاء، «نوبت» التي حملت أيضًا الاسم المصري «ا ء ح س iahs»، واسمًا ثالثًا «ك ش ت kst» أي كاسي، واسمًا رابعًا «إك ش iks» أي كوشي،[٤] وهي ذات المملكة التي كانت تنتظر رسالة من ملك الهكسوس الأخير «أبو فيس» أو «أسيس»، يأمر فيها ملك كوش بالهجوم على طيبة من الجنوب، بينما يهاجمها الهكسوس من الشمال، ويناديه في رسالته بلقب «ولدي»، ومعلوم أن الجند المصرية قد قبضت على هذا الرسول، عندما كان قادمًا من حواريس عاصمة الهكسوس بالدلتا الشرقية، متجهًا نحو الجنوب عبر الصحراء، ومع بداية الألف الأخير قبل الميلاد نجد الجنوب اليمني، قد بدأ يفصح عن حضارةٍ تمثلها أربع ممالك، هي معان وسبأ وقتبان وحضرموت، التي لفتها جميعًا الصبغة الحميرية، وورثتها جميعًا بعد ذلك دولة حملت اسم حمير.

وعن المرحلة المتعددة الممالك في بلاد اليمن، ذهبت مدارس إلى اعتبارها بالفعل ممالك متعددة، لكن ليست متجاورة زمانيًّا؛ لأن تجاورهم جميعًا في تلك المساحة الضئيلة كممالك مستقلة، أمر يصعب قبوله تمامًا، لكن في ضوء فروضنا وما نطرحه يمكن قبول تزامن تلك الممالك، مع التحالف، خاصةً أن منها ما وجدنا له امتدادًا شماليًّا أصيلًا وأولًا، مثل معان، ومثل سبأ التي هبطت من الشمال إلى اليمن، ومن هنا نميل إلى رأي المدارس التي تقول بتزامن تلك الممالك، ونراها معبرة عن ذلك الحلف العظيم، وهنا ننقل عن مظفر نادوثي قوله: «إن العلماء الذين يرون أن المعنيين والسبئيين كانوا يعاصرون بعضهم بعضًا، يبنون هذه النظرية على نقشٍ معيني، هو (جلاسر رقم ١١٥٥، وهاليفي

---

[٤] فهمي خشيم، آلهة ... سبق ذكره، ج١، ص٦٣.

رقم ٥٣٥)، الذي يقول إن المعينيين كانوا يتبادلون تجارة الكندر/اللبان الذكر، مع الآشوريين عبر نهرين، وقد أدى ذلك إلى قيام حربٍ بين المادهي ومصر ... وفرتز هومل يرى أن لفظة Madhi تقوم مقام المديانيين Midiantes أو المانتي Manti؛ لأن بدو سيناء كانوا يُعرفون بهذا الاسم.»[٥]

ولنا أن نرى نحن من جهتنا في لفظ «مانتي» تحريفًا للفظ «مديان»، حيث هو اللفظ الذي يلتقي مع الكلمة التي تكررت في نصوص مصر القديمة «مونتيو»، على النسبة إلى مانتي «ميتان/مديان» أو «مونت/بونت».

وإذا كنا قد انتهينا إلى أن مملكة الهكسوس قد مثل السادة الحاكمين فيها، سادة من قبائل أو أجناس متحالفة في منطقة آدوم، التي كانت تابعة لمصر من بدايتها باعتبارها حد مصر الشرقي، وأن شأنها قد تضخم إلى حد التسلط على الوطن الأم، وأن في بلاد آدوم ومحيطها كانت معان المصرية ومديان؛ فإن «بلليني» يقول في خطاب شارد «إن المعينيين كما يتضح من اسمهم يرجعون إلى ملينوس ملك كريت.»[٦] وبلليني هنا يريد إرجاع أصل ذلك الشعب الشرقي إلى أصولٍ يونانية، وهو لن يقول بذلك إلا إذا كان ذلك الشعب جديرًا بالانتساب إلى أصولٍ حضارية راقية؛ ولذلك فمعان تعود عنده إلى الحضارة المينوية الكريتية، وأنهم من نسل الملك الأسطوري مينوس، وهكذا قلب الرجل الأوضاع، لكن ليعطينا معلومةً تؤكد أن الإمبراطورية الهكسوسية، قد حملت شعوبًا من مواضعها، ونقلتها بين أفلاك إمبراطوريتها، لتفكيك عراها القبلية لتكون أسهل انقيادًا. وهي سياسة معلومة قديمة مارستها إمبراطوريات العالم القديم لتهجين شعوبها، وتذويبها في بعضها وتقليم أظافر الشعوب القوية. ومن ثم فإن كريت المينونة يمكن أن تعود إلى أجناسٍ أخرى، خاصة أن تلك الحضارة نفسها قد دونت عن نفسها، أن حضارتها وأصولها تعود إلى ملكٍ أسطوري يُدعى مينوس، قد جاءها مهاجرًا من بلاد الشرق، من مصر تحديدًا، ويعتقد البعض أنه ربما كان هو الملك مينا مؤسس الأسرات المصرية، والدولة المركزية الموحدة.

---

[٥] سيد مظفر نادوتي، التاريخ الجغرافي للقرآن، ترجمة د. عبد الشافي غنيم، لجنة البيان العربي، القاهرة، ١٩٥٦م، ص٢٠٩.

[٦] نفسه، ص٢١١.

ويقول «صمويل لانج» في كتابه أصل البشر: «ومن بين النقوش التي عرفت ما يدل على أن سلطة بعض الملوك المعينيين، لم تكن تقتصر على مقر ملكهم الأصلي في الجنوب، لكنها كانت تمتد إلى كل البلاد العربية وإلى حدود مصر وسوريا.»[٧]

وقد كشفت التنقيبات الأركيولوجية في جنوب جزيرة العرب عن لوحةٍ نذرية، جاءت ترجمتها عند «نادوثي»، في حالةٍ من الخلط مع ترجمةٍ تالية إلى العربية، زادت الأمر سوءًا، مما أجهدنا وقتًا لتحقيق هذا النص المهم على أصوله. لوحة شكر مقدمة إلى الإله «عستر»، الذي ساعد مقدميها على العودة إلى بلادهم مرة أخرى سالمين، وهم يصفون أنفسهم بأنهم رعية الملك المعيني «أبي يادادياتي Abi-Yada-yathi» أو أبي عاطي في ترجماتٍ أخرى. أما الغريب أن هؤلاء العائدين يقررون أنهم قدموا، من حيث كانوا يعيشون حكامًا على بلاد باسم «شور ونهرين».[٨]

ولأول وهلة يمكن للمطالع أن يتصور قدومهم من بلاد «آشور»، ويغفل عن أنها جاءت بدون همز «شور»، وربما يذهب به ذلك إلى آشور المملكة الكبرى، التي تموضعت بين النهرين دجلة والفرات. لكن قراءة أخرى وفق ما قلناه حتى الآن، يجب أن تذهب بنا إلى بلاد آدوم/نهرين، حيث عرفنا أن «شور» كانت الحد الشرقي لمصر، حيث تموضعت عاصمة الهكسوس، خاصةً أنه في ذات اللوحة نجد إشارة إلى مدينة «غزة»، وإلى حرب نشبت بين المادهي Madhi التي ترجمها فرتز هومل «مديان» وبين المصريين. إن هذه اللوحة في رأينا تسجيل فصيح بطرد الهكسوس من مصر، وعودة بعض عناصر الهكسوس إلى مواطنهم التاريخية، وندعم ذلك فورًا بما ذكره بلليني الذي عاش حوالي ٧٩٩ق.م. أي في زمن قريب من الأحداث، حيث قال: «إن السبئيين كانوا سادة ما بين الخليج الفارسي والبحر الأحمر.»[٩]

وقد ظل كلام بلليني لونًا من المبالغة، وتعرض لسوء الفهم لزمنٍ طويل، لكن مع بحثنا هذا يتضح أن الرجل كان يسجل حقائق تاريخية بالفعل.

ونتذكر الآن النص الذي سقناه عن حملة «زيد بن حارثة» زمن النبي محمد إلى بلاد مديان على العقبة، وأن كتب السيرة قد ذكرتها باسم «أهالي ميناء» أيضًا، وهو

---

[٧] نفسه، ص٢١٤.

[٨] نفسه.

[٩] نفسه، ص٢١٢.

ما حيرنا بعض الوقت، لكن بالرجوع إلى النصوص اليونانية التاريخية نمسك بمفاتيح الفهم، حيث كانت «معين» تكتب Minai، وهو كما هو واضح تلوين لهجوي لقبائل تهمل العين، بالضبط كما كتبها اليونان «ميناي» أو بالعربية «ميناء».

وفي دائرة المعارف البريطانية كتب فرتز هومل، عما جاء في النقوش البابلية بصدد بلاد تحمل اسم «مجان Magan»، ويحكمها ملك باسم «مانيئوم».[١٠] كذلك عقب المصرولوجست بدج على أرض مجان، بكونها تحديدًا مناجم حجر الديوريت الفاخر في سيناء.

ولما كانت العربية في لهجاتها كأي لغة سامية بلهجاتها، تخلط بين أو تستبدل الحرفين «ج» و«ي» مثل «جاهوفاه = يهوه»، وبين القبائل العربية اليوم بالجزيرة قبائل تقول «سجادة»، بينما تنطقها القبائل الشرقية «سيادة»، ومثلها فإن «مجان» في نطق، تصبح «ميان» في نطقٍ آخر، التي هي عندنا معان/معين/مينا/ميناء.

أما اسم الملك مانيئوم أو «ماني أوم»، فيجب أن يكون «معاني أوم»، والأوم هو العمود وجمعه أوام، وهو الاسم القديم لبلدةٍ يمنية قديمة تحوي آثارًا عديدة، أهمها الأعمدة أصبحت تحمل اليوم اسم «العمايد»،[١١] وكل ما حدث هو استخدام مفردة جديدة تدل على ذات المعنى القديم، وعليه فإن «معاني أوم» ليس اسمًا للملك، بقدر ما هو وصف له أو لقب فهو «عمود معان»، والعمود كما علمنا أحد صفات العمالقة ودلالة الملوكية، كما استنتجنا من لسان العرب في الفصول السالفة.

ومما يؤكد رأينا في كون الساميين قد عرفوا سيناء وحدودها الشرقية باسم مصر، بينما مصر كانت تحمل اسمًا آخر «كيميت/توميري»، وأن الاسم السامي لبلاد النيل هو الذي ساد وانتشر، حتى أصبح دالًّا على مصر الوادي جميعًا «باسم مصر»، إن ذلك قد أدى إلى التباساتٍ في تفسير أحداث التاريخ. ونموذجًا له ما جاء عند المصرولوجت «سايس»، وعقب عليه المؤرخ المصري «عبد العزيز صالح» بقوله: «وهناك رأي غريب وبعيد عن المنطق الزمني والمنطق التاريخي، اعتمد على ما سجله نارام سين عن أحداث

---

[١٠] الموسوعة البريطانية Vol I, Arab, p. 377, E. A. Walis Budge, Life and History, pp. 177-178.

[١١] سيد القمني، النبي إبراهيم والتاريخ المجهول، سينا للنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٠م، ص١٨٤، انظر هناك مزيدًا من المصادر.

عصره، وروى فيه أنه قبض بنفسه على «مانو دانو» ملك «مجان»، وفسرت طائفة من المؤرخين ذلك بأنه قبض على الفرعون مينا مؤسس الأسرات وأول ملوك مصر.»[١٢]

وهكذا نجد نظريتنا تعيد الأمور إلى صحيحها ونصابها، حيث كانت «مجان» هي «معان/معين» شرقي سيناء وبلاد آدوم، وأنها كانت تعني آنذاك «مصر»، بلاد «موصرى». وعليه فإن الملك الرافدي «نرام سين» يكون قد هزم «مانو دانو» ملك مصر الآدومية، وليس مصر «كيميت/ توميري» المعروفة في وادي النيل.

وما يؤكد ذلك بشدة أن الكلمة «مجان» تعود إلى الجذر السومري MA بمعنى الماء وبمعنى الميناء وأرض السفن، وهو ما يشير إلى شهرة أهل «مجان» في ركوب البحر، وتشهد عليه تماثيل الدلفين المنتشرة في فنون الأنباط، وقد دعم تلك الترجمة نص من أيام الملك «دونجي» ملك «أور» الرافدية حوالي ٢٤٥٠ق.م. يتحدث فيه عن صناع السفن في بلاد مجان. إنه يتحدث هنا عن بلاد بونت القديمة/آدوم في وادي عربة قبل زمن الأنباط الرومي.

أما الأشد إضاءة، فهو أن تصف النصوص السومرية بلاد «مجان» بأنها: جبل النحاس وأرض الدولريت وبلاد الماعز،[١٣] وكلها تحيل إلى بلاد آدوم المديانية، حيث مناجم ومصانع النحاس، والأحجار المتميزة عن أحجار الدنيا، وماعز الهكسوس الذي شرحنا بشأنه طويلًا، وهو الماعز الذي تنتسب إليه قبائل عربية، كالقبيلة التي لم تزل تحمل اسم عنزة إلى اليوم، والنسبة إليها «عنزي»، ونجد أفراد قبيلة قديمة باسم معزة تعمل مرتزقة في جيش الرعامسة مع أفراد من بلاد النايري، وهو ما نجده في قول حماد:

> وفي عهد الرعامسة الأُول نجد أن الفرقة كانت مكونة من ١٩٠٠ مجند مصري، يعاونهم ٣١٠٠ من المساعدين المتطوعين، وهؤلاء كانوا من الآسيويين من النيارين Nearin، وأصيل اسمهم مشتق من اللفظة السامية نار Naar أي شباب، وكذلك بدو من بدو الصحراء. ومن النوبيين من قبيلة ميزا Meza معزة، ويرى حماد أنهم نوبيون لأنهم سود (ونحن نراهم كوشيي آدوم [المؤلف])، وكانوا يشكلون فرقة الشرطة منذ أقدم العصور ... والجنود

[١٢] Sayce. A. H, Menes and Naram Sin, J. E. A, 6, 1920, p. 29.

[١٣] عبد الحميد زايد، الشرق الخالد، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ت، ص١٢٣.

المساعدون أو المتطوعون مثل الميزاي Mizay، فكانوا تحت قيادة ضباط من شعوبهم.[١٤]

لقد كانوا المعزيين أو العنزيين، وكانوا في آدوم وليس في الصومال في أفريقيا.

[١٤] محمد حماد، كامس ... سبق ذكره، ص١٩.

الفصل الخامس

أين تقع حَويلَة التوراتية

والسؤال الأول هنا: ولماذا البحث وراء أسماء توراتية مثل حويلة؟ ما الغرض من تحديد موضعها الجغرافي؟

الإجابة تتمثل في عنصرين أساسيين؛ الأول هو أن تحديد مكان حويلة سيساعد في تأكيد مذهبنا حول المواضع التي عاش فيها الإسماعيليون المديانيون وحلفاؤهم؛ لأنها دومًا ترد كإحداثية جغرافية يضعها المحرر التوراتي، كإحدى العلامات لمواطن معيشة هؤلاء.

أما العنصر الثاني فهو أن هناك التباسًا شديدًا حول موضع حويلة التوراتية، أدى لكمٍّ غفير من الأخطاء في استنتاجات زملائنا من باحثين. وقد وجدنا في محاولة التحديد تلك فائدة بحد ذاتها، يمكنها أن تقدم للباحثين تحديدًا دقيقًا يؤدي إلى نتائج بحثية دقيقة.

هذا إضافة إلى اعتقادنا أن هناك أكثر من مدينة حملت هذا الاسم، أدت إلى تلك الالتباسات، وأن أهم هذه الحويلات ثلاث حويلات: الأولى في أقصى شمال فلسطين، وأعطت اسمها لبحيرة الحويلة. والثانية هي المتواترة في الكتاب المقدس، وهي مدينة عماليقية على حدود فلسطين الجنوبية بشبه جزيرة سيناء كما سنرى. ومدينة أخرى هي الأهم، وهي تلك التي عرفناها عاصمة للهكسوس في مصر باسم حواريس بالتبادل بين اللام والراء «حويلة = حويرة»، ويموضعها المؤرخون في مكانٍ ما غير متفق عليه شرقي الدلتا المصرية.

ونبدأ بالسؤال الملحاح الذي لم يجد حتى الآن إجابة قاطعة بين مبعثرات التاريخ القديم وشظاياه: أين تقع المدينة التي اتخذها الهكسوس مركزًا عسكريًّا وإداريًّا في

مصر؟ وجاءنا ذكرها عبر المؤرخ المصري «مانيتون ق ٣ق.م.» باسم «حواريس» أو «أواريس» بالنطق اليوناني، أو «حواعرة» أو «هوارة» بالنطق المصري. وهو السؤال الذي أجبنا عليه في الجزء الأول، وعلمنا أن حويلة هي حوير هي حواعرة هي أواريس، هي أفاريس، تل المسخوطة أو الخشبي الآن، والتي أعطاها رمسيس الثاني اسمه، واستُعبد في بنائها الإسرائيليون فيما يزعم المقدس التوراتي.

وكثيرًا ما ربطت التوراة بين مدينة الهكسوس الكبرى في جنوبي فلسطين (حبرون/الخليل)، وبين حواريس المصرية. والتوراة تذكر حواريس باسمين يردان على التبادل، الأول والقديم هو «صوعن»، والثاني الأحدث هو مدينة «رعمسيس». وتشير في تواترٍ متعدد، وفي مناطق متفرقة بالتوراة، إلى أن «صوعن» قد بُنيت بعد «حبرون» بسبع سنين. ويبدو أنها الفارق الزمني بين استيلاء الهكسوس تمامًا على حبرون/-الخليل/جنوبيَّ فلسطين عند تحولهم من دولةٍ تجارية إلى دولةٍ توسعية إمبراطورية، وبين دخولهم مصر وإقامتهم في صوعن/رعمسيس/حواريس. لكن الإضافة هنا أنه كان هناك حواريس أصلية أقرب إلى المركز الرئيسي للهكسوس، نظنه هو ذات المركز الذي جاء اسمه في التوراة باسم «حويلة».

الواضح لدينا على المستوى اللساني وحده «الآن»، أن «حويلة» التي تكررت في الكتاب المقدس، أنها بالتبادل بين حرف اللام والراء باعتبارها حروفَ سقف حلقية، فإن «حويلة» ستكون «حويرة»، وبهذا يصبح معناها «الحورية». وهي المسمى التي يلتقي تمامًا مع اسم عاصمة الهكسوس «حواريس»، بعد حذف التصريف الاسمي فتصبح «حوار». وفي المعركة التي قادها أول ملك إسرائيلي، الملك «شاول» ضد العماليق العناقين، يؤكد لنا الكتاب المقدس نتيجة المعركة بقوله: «وضرب شاول عماليق من حويلة حتى مجيئك إلى شور التي مقابل مصر (صموئيل أول، ١٥: ٧)». وهذه النتيجة تعني أن شاول بضربه مدينة العماليق امتد تأثير تلك الضربة على العمالقة، بطول المنطقة الممتدة من «حويلة» إلى «شور» التي أمام مصر. وحتى الآن لم يتم تحديد أين تقع «حَويلة» التوراتية على الإطلاق، إنما ذهب الجميع إلى تحديد «شور» بأنها على حدود الدلتا الشرقية مباشرة، حتى تكون أمام مصر، استنادًا إلى مجموعة إحداثيات أعطتها لنا التوراة، حيث يتكرر ذكر «شور» مرات متعددة. وأول الإحداثيات وأوضحها تأتي في حدث عبور البحر بالعصا المعجزة، حديث نجد، أول موضع ينزل به الإسرائيليون

بعد عبور البحر من الدلتا المصرية إلى سيناء، هو برية باسم شور: «ثم ارتحل موسى بإسرائيل من بحر سوف، وخرجوا إلى برية شور» (خروج، ١٥: ٢٢)، مما يعني أنها على الحدود مباشرة مع المدن المصرية العامرة في شرق الدلتا، والتي كان أهمها «صوعن» أو «رعمسيس» مدينة الفرعون التي يزعم الإسرائيليون أنهم اضطُهدوا في بنائها، وعبروا من جوارها البحر في قصة العصا الحية. ويبدو أن هناك طريقًا كان يبدأ من الموضع شور حتى يصل إلى شرقي سيناء نحو فلسطين، أطلقت عليه العبرية «درك شور»، وجاء في الترجمة العربية «طريق شور» (تكوين، ١٦: ١٧)، ومن المتكررات التي تذكر الوضع «شور» بالتوراة ذلك النص الذي يحدد موطن سُكنى الإسماعيليين، ويضعه في ذات الموضع الذي سبق للتوراة وحددته موطنًا لسُكنى العمالقة، والذي ذكرناه من هنيهة في نص الملك شاول، والنص الجديد هنا لسُكنى الإسماعيليين، يؤكدان أنهم قد «سكنوا من حَويلة إلى شور التي أمام مصر» (تكوين، ٢٥: ١٨)، وهو ما يضيف قرينة جديدة إلى ما سبق وذهبنا إليه في كون الإسماعيليين عمالقة، أو أنهما بطنان لقبيلة واحدة. ثم لدينا إشارة أخرى تتحدث عن المواطن التي أقام بها البطرك إبراهيم إبان ارتحالاته بالمنطقة، والإشارة تقول: إنه قد «سكن بين قادش (عين قديس [المؤلف]) وشور، وتغرب في جرار» (تكوين، ٢٠: ١).

وإذا كان قد تم تحديد «قادش» بأنها «عين قديس» في أقصى الطرف الشرقي بسيناء على الحدود الآدومية الغربية، وأنه إذا كانت شور في أقصى الطرف الغربي لسيناء على حدودها مع شرقي الدلتا المصرية، فإنه يجب البحث عن «حويلة» التوراتية بجوار قادش سيناء في أقصى الطرف الشرقي لسيناء، وبالتحديد عند طرف الطريق القديم الذي أسمته التوراة «درك شور»، واكتسب اسمه من وقوع «شور» على طرفه الغربي. وبذلك تكون المسافة الواقعة بين «حويلة» شرقي سيناء و«شور» غربي سيناء، هي المسافة الكبرى التي سكنها العماليق والإسماعيليون، وتكون «مدينة عماليق» التي ضربها شاول بعد حصارها، هي ذات عين «حواريس» أو «حويلة» التوراتية، وليست حويلة/حواريس الموجودة شرقي الدلتا المصرية باسم رمسيس. وفي هذه الحالة يجب البحث عن حويلة التوراتية في مكانٍ ما شرقي سيناء في جوار قادش (عين قديس)، وعلى حدود آدوم الغربية وحدود فلسطين الجنوبية.

وحتى يمكن الوصول إلى تحديدٍ دقيق، يلاحظ أن الإسماعيليين رغم انتشارهم في سيناء جميعًا، من حويلة التي نبحث عنها شرقًا حتى شور غربًا، فإن أول استقرار

إسماعيلي ألمحت إليه التوراة، كان في ترميزها القصصي الذي أكد أن هاجر وابنها إسماعيل بعد طردهما من بيت إبراهيم، هبَطَا من فلسطين جنوبًا ليسكنا في برية فاران (تكوين: ٢١)، التي افترضناها باران الحالية، أي قرب قادش؛ وذلك لأن هناك نصًّا توراتيًّا آخر يحدد لنا موقع «قادش»، بأنها تقع بدورها في برية فاران (عدد، ١٣: ٢٦)، وأن في محيط برية فاران برية أخرى، دعتها التوراة برية صين. فالتوراة تقول إن قادش رغم وقوعها في محيط برية فاران، فإنها تقع في محيط برية أخرى باسم «صين» (وذلك في عدد، ٢٠: ١)، وقد اتفقنا على أن برية «صين» هي «تسين» الحالية في الجوار ذاته إلى الشمال قليلًا من «باران».

أما ما يؤكد لنا صدق تلك الإحداثيات، وأن موطن سُكنى إسماعيل وأمه كان في برية «فاران» و«صين»، قرب «قادش» على حدود سيناء الشرقية التي هي حدود آدوم الغربية، وأن هذه المنطقة كانت الطرف الشرقي أودرك «شور»، يؤكد كل ذلك قول التوراة إن ملاك الرب قابل «هاجر»، وأن ذلك اللقاء قد تم في موضعٍ تحدده التوراة بقولها: «فوجدها ملاك الرب على العين التي في طريق شور» (تكوين، ١٦: ٦، ٧). أما «قادش» نفسها فقد حددت التوراة موضعها بقولها: «قادش على تخوم آدوم» (عدد: ٢٠). وبذلك تقع قادش سيناء أيضًا جنوبيَّ فلسطين أو مملكة إسرائيل القديمة، وهو ما جاء في نصٍّ توراتي يرسم الحدود الجنوبية لأرض تلك المملكة. «وجانب الجنوب يمينًا من ثامارا إلى مياه مريبوت قادش النهر إلى البحر الكبير» (حزقيال: ٤٧).

الآن أمكننا حصر منطقة أضيق للبحث فيها عن «حويلة»، فأي موضع في هذا الصقع الممتد من غربي آدوم إلى جنوبي فلسطين، يحتمل أن يكون هو موقع حويلة التوراتية، تلك التي حارت فيها الأفهام؟

بالبحث لا يمكنك أن تجد موضعًا يحمل في سماته اللسانية اسم حويلة أو حويرة أو حواريس، ويقع في تلك المساحة أو تحديدًا، على الطرف الشرقي لطريقٍ قديم في سيناء يربط شرقها بغربها، سوى مدينة العريش الحالية، التي تلتقي التقاءً مدهشًا مع المعطيات التي لدينا، على المستوى اللساني، وعلى مستوى الإحداثيات الجغرافية.

وفي هذه الحال، يجب أن تكون مقاطعة ستروبت المنسوبة إلى الإله «سيت» أي «الستية»، وكما علمنا غير موجودة بالمرة في الجداول المصرية لمقاطعات مصر القديمة، هي منطقة نفوذ إله الصحارى، هو شبه جزيرة سيناء المتصلة بالدلتا المصرية الشرقية.

وإعمالًا لذلك سبق ووضحنا حلنا الافتراضي، وهي أن تكون شبه جزيرة سيناء هي التي عُرفت في أعمال المؤرخين الكلاسيكيين، باسم مقاطعة «سيترويت» نسبة للإله

«سيت»، وهنا علينا أن نلحظ أن «سيترويت» هي المقلوب اللساني للكلمة المصرية «دوسريت» أو «دوشريت»، الدالة على الصحارى الشاسعة.

وقد أفادتنا المصادر المتخصصة في الساميات، أن «سيناء» قد حملت اسم «سيناء»، نسبةً إلى إله القمر المنطوق باللسان السامي «سين» أو «زين»، وأنه كان يُنطق مختصرًا «سي» بإمالة السين إمالة طويلة، و«سي» وحدها دلالة اسمية على السائمة من الحيوانات ذات القرون، ومنها جاءت كلمة «ساة» أو «شاة». وقد اقترنت السوائم المقرنة بإله القمر خاصة في حالة الهلال، بعد أن قرن الإنسان القديم بين قرنَي السوائم وبين قرنَي الهلال، فاعتبر القمر ثورًا أو تيسًا أو خروفًا سماويًّا، وسنعلم لاحقًا كيف اقترن الإله ست بالإله القمر رب الصحارى والبداوة والبوادي، وهو ما يرجح أن يكون اسم «سين للقمر»، جاء أصلًا من المفرد. «س» في «سيت»، مضافًا إليه أداة التعريف السامية الجنوبية «ن»، التي كانت تلحق بآخر الكلمة للتعريف، كما في «رحمن» التي كتبتها نصوص المستند اليمني «رحمن – ن»، ويبدو لنا أن «ن» لحقت أولًا بالثنائي «ست»، فأصبحت «ستن» التي ستصبح بعد ذلك الشيطان كما سلف، وكما سيأتي بيانه، وهي صفات الإله «سيت» المصري، إلا أن ما يهمنا هنا هو أن سيناء اسم منسوبة للإله المصري «سيت» في إحدى تجلياته وتمثلاته، وهو هنا التجلي القمري لقربه من حال سيناء البدوي، تصبح «سيناء» أو «سيتروبت» كليهما وعلى اختلاف نطقهما منسوبة إلى الإله «سيت» المصري.

وهنا نتذكر ما جاء في حديث التلمود عن الشيطان، وأنه كان يطلع بين قرني ثور، والثور هنا هو قمر هلالي لتجلي سيت ... والثور في السامية القديمة وبخاصة البابلية كان يُنطق «شيد» وهي ببساطة «سيت». أما التوراة فقد جاءت بكلمة «شيد» بمعنى عفريت، والعوام حتى اليوم يقولون عن العفاريت «الأسياد»، وهي تسمية تشير إلى أصحاب «سيت»، باعتبارهم أصحاب سيادة/هكسوس كما سلف البيان، والكلمة «سيت» نفسها تنطق أيضًا «سيد»، وتحمل معنى السيادة. أما الرب التوراتي زمن النبي إبراهيم فقد جاء في التوراة العربية باسم «الرب القدير»، وتلك ترجمة عن الأصل العبري المازوري لذات الكلمة بالعبرية «إيل شداي». وهي كلمة تتركب من ملصقين: الأول «إيل» أي رب، والثاني «شداي»، وشداي تحيلنا إلى «سيت» مرة أخرى «سيت/ شيت/شيتاي/شيد/شيداي». وقد أشرنا في كتابنا «قصة الخلق» إلى علاقةٍ واضحة بين «شداي» هذا وبين «الشذى» أو الريح، وكلها تلتقي مع ما جمعناه من معطياتٍ حتى الآن بشأن ذلك الإله، وتتناغم معنا تناغمًا بينًا واضحًا.

أما المصريون فقد كانوا يتقربون إلى الإله «سيت»؛ اتقاءً لشريته الصحراوية بتقديم القرابين إليه من الثيران والأبقار الحمراء أو المغراء، التي لاشية فيها، ولو وجدوا فيه شعرة واحدة من لونٍ مخالف لعدُّوه غير صالح للقربان، الأمر الذي يربطه بالبلاد الحمراء في آدوم، فكان قربان سيت ثورًا أو بقرة «شيد» صفراء فاقعًا لونها.[١]

ولم يزل الفلاح المصري يخاطب السوائم ويحثها على السير والحرث باسمها القديم، والجذر اللغوي الأصيل «سي»، مع إمالته إمالةً طويلة منطوقة «شي». ويتبادل مع لفظ الحث هذا لفظ آخر خصص فقط للحمير هو «حا»، وقد علمنا أن بداية ست في الرسوم التخطيطية كانت تصوره حمارًا. والمبهر هنا أن «حا» هو اسم القمر في حالة الهلال باللسان المصري القديم،[٢] وقد انتسب للإله القمر «حا» فراعنة مرموقون مثل الذي ننطقه اعتباطيًّا «أحمس»، بينما يجب نطقه صحيحًا «حا – مس» أي ابن القمر، وهو بالترجمة الدقيقة «حا أُعطي ابنًا»؛ ولأنه كان قائد تحرير مصر من الهكسوس، وكان عسكريًّا مظفرًا، فيبدو أنه قد ترك أثره اسمًا واضحًا في اللسان العربي «الحماسة».

ولأن المصادر التاريخية تضن علينا بأية إضافات يمكن التعامل معها بشأن أواريس الهكسوسية، التي قامت داخل الحدود المصرية في الدلتا الشرقية، فسنعمد الآن — وإلى حينٍ فقط — إلى حواريس أخرى، هي حويلة التوراتية التي حددنا موضعها بالعريش شرقي سيناء، بحسبانها «حواريس» متقدمة، للإشراف على أرجاء الإمبراطورية الهكسوسية، وفي بلاد الشام وجزر المتوسط ومصر نفسها. أما الأهم فهو قربها من المركز الرئيسي لانطلاق الهكسوس، الذي انعقدت عنده أحلافهم في آدوم.

وهنا نفتح قاموس الكتاب المقدس في مادة «حويلة»، فيطالعنا بوجوب قراءتها بفتح الحاء، فهي «حَويلة»، وهو ما يلتقي مع فتح الحاء في «حواريس»، ثم يقول بأن يؤكد كل ما وصلنا إليه حتى الآن:

> حَويلة: اسم سامي معناه رملية ... هو اسم لرجل من بني كوش (تكوين، ١٠: ٧)، واسم لرجلٍ من بني يقطان (تكوين، ١٠: ٢٩)، واسم لمقاطعةٍ

---

[١] عبد المجيد عابدين، سبق ذكره، ص٤.

[٢] أنطون ذكري، مفتاح اللغة ... سبق ذكره، انظر صفحات ٧٨، ٨٨.

من بلاد العرب يسكن بعضها الكوشيون، ويسكن البعض الآخر اليقطانيون، وهم شعب سامي، (تكوين، ١٠: ٧ و٢٩؛ وأخبار أيام أول، ١: ٩ و٢٣). والصلة بين حويلة وحضرموت وأماكن أخرى، تشير إلى موقعها في وسط البلاد العربية، أو في جنوبها وفي حويلة نهر فيشون، والمنطقة غنية بالذهب والمقل، وهو صمغ عطري طبي، والأحجار الكريمة (تكوين، ٢: ١٢، ١١). ويفضل البعض أن يحققها بمنطقة خولان، في القسم الغربي من بلاد العرب شمالي اليمن، ولا يُعرف إلى أي حدٍّ كانت تمتد الحويلة شمالًا، ومن قصة محاربة شاول مع العمالقة، قد نستنتج أن قسمًا من الصحراء العربية، يمتد عدة مئات من الأميال شمال اليمامة، ويحمل اسم حويلة (صموئيل أول، ٧: ١٥؛ وتكوين، ٢٥: ١٨).

إذن ووفق ما ساقه لنا قاموس الكتاب المقدس، الذي اشترك في إعداده جلة محترمة من علماء الكتاب المقدس، فإن كلمة «حَويلة» تعني «الرمل»، فحويلة تقع في منطقةٍ صحراوية، وكذلك العريش، وعلى عادة المقدس التوراتي في تصنيف المواضع والأجناس، منسوبة إلى أشخاصٍ قُدامى أسطوريين، آباء لأقوامٍ وشعوب، فإنه يقول: إن حويلة كان اسمًا لرجلٍ (كوشي)، أي من الجنس الأسود الزنجي، وقد قلنا إن هناك عنصرًا زنجيًّا قد سكن المنطقة، ورفض المؤرخون، بل ولم يتصوروا وجود عنصر زنجي في هذه المنطقة، رغم ما جاء في المدونات التاريخية الكلاسيكية والكتاب المقدس، وأسقطها الباحثون دومًا من حساباتهم؛ لذلك نحن أول المفسرين بلا منازع ينازعنا، ثم إن الاسم كان في الوقت ذاته اسمًا لرجلٍ من نسل «عابر» العبري هو «يقطان»، وبالعربية هو قحطان. ونحن نعلم أن قحطان جنوب جزيري سكن الجنوب اليمني، لكنه وفق نظريتنا جاء من الجنوب إلى الشمال، يرتحل إلى آدوم تاجرًا ومقاتلًا. ثم إن القاموس المقدس يضيف لحويلة معنى ثالثًا، فهو اسم لمقاطعة يسكنها العرب والزنوج، ويصفها بأنها عربية. ونحن نعلم مما أوردناه أن المؤرخين الكلاسيكيين قد أطلقوا على المنطقة جميعًا من آدوم حتى الدلتا الشرقية اسم العربية، أو المقاطعة العربية. أما الأشد فصاحة لأمرنا هنا، فهو القول أن تلك المقاطعة كانت تنتج المر/البخور/اللبان/الصمغ العربي العطري، ولكن لأن القاموس وأصحابه لم يصلوا إلى ما وصلنا إليه حتى الآن في بحثنا؛ فقد ذهبوا يضعون حويلة في شبيهها اللساني «خولان» غربي جزيرة العرب عند اليمن. ويكون شاول الملك بذلك قد قام بأكبر حملة في التاريخ، حملة أسطورية اكتسح بها فيافي

الجزيرة من فلسطين حتى اليمن، ويأتينا الخلَل الجغرافي الشديد وفق هذا الرأي، فأين خولان من شور التي أمام مصر؟ المهم أن القاموس يستمر فيؤكد لنا مذهبنا، فحويلة بها الأحجار الكريمة والذهب.

ونستفيد هنا من الجليل علي فهمي خشيم الذي يبحث في شأن آخر بعيد عن شأننا هنا؛ إذ يتحدث عن «حواريس» الهكسوسية بمصر، فيقول إن المقابل السبئي لها هو في مادة «ح و ر»، وتفيد معنيين نقيضين، فهي بمعنى ذهب، وبمعنى قعد واستقر (أليست تلك حال أولئك موضوع بحثنا حتى الآن، بل وألا تنطبق إلا عليهم؟)

ولنلحظ أن ذهب هنا بمعنى المشي دومًا، وهو ما يذكرنا بتفسيرنا للكلمة المصرية التي كانت تشير إليهم «الشاسو». ويقارن خشيم «ح و ر» بالآية القرآنية ﴿ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ (الانشقاق: ١٤)، أي لن يعود. وبالأثيوبية حورا Hora أي يذهب، والأصل فيها من التردد والدوران، أي الحيرة. وهنا يجب علينا التذكير بالنص التوراتي «آراميًّا تائهًا كان أبي»، ما معنى الاستقرار، فقد جاء من «حور» بمعنى أحاط وشمل، إذ تُبنى المدينة فتحاط بسورٍ يحورها، وهو ما يلتقي مع الأسوار ذات النمط الخاص جدًّا، الذي كانت تبنى به مدن الهكسوس. والتي يشابهها تمامًا وبشكلٍ مذهل، ذلك الخط العسكري الذي أقامته إسرائيل بعد الهزيمة العربية على قنال السويس، والذي عُرف باسم «خط بارلييف». ويمكن قرن كلمة «ح و ر» بكلمة «حارة» و«ح ي ط» أو «حائط»، ومثلًا لها المصرية «ح ت، و ع ر، ت HT. WR.T» عاصمة إقليم «إم ن. ت MN.T»، ومعناها حائط أو قلعة إقليم منت، وتقترن باليونانية ثيولوجيا أو أرين أو أفارين، أي أوارين المقدسة.[٣]

ومن ثم فالاسم حواريس يضم عددًا من المعاني، فهي مدينة كبرى مقدسة مسورة، سكانها من البدو المرتحلين الذين استقروا مؤقتًا، أو استقروا ثم عادوا فتشتتوا، زيادةً على كونها مركزًا رئاسيًّا إداريًّا.

وفي سفر التكوين نص يرد فيه ذكر الموضع «حَويلة»، يقول:

> وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقًا، ووضع هناك آدم الذي جبله، وأنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل، وشجرة الحياة في وسط الجنة، وشجرة معرفة الخير والشر، وكان نهر يخرج من عدن ليسقي

---

[٣] فهمي خشيم، آلهة ... سبق ذكره، ج١، ص٩٠–٩٢.

> الجنة، ومن هناك ينقسم فيصيران أربعة رءوس، اسم الواحد فيشون وهو المحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب، وذهب تلك الأرض جيد، هناك المقل وحجر الجزع، واسم النهر الثاني جيحون، وهو المحيط بجميع أرض كوش، واسم النهر الثالث حداقل، وهو الجاري شرقي آشور، والنهر الرابع الفرات.
>
> (تكوين، ٢: ٧–١٤)

الأسطورة هنا تحكي عن خلق آدم ووضعه في جنةٍ باسم عدن، وهذه الجنة تقع على هذه الأرض. ونظرًا لأن العلم بجغرافية الأرض لم يكن قد اتسع بعد، فقد رددت الأسطورة تصورًا متواترًا لدى الشعوب القديمة، يعتقد أن الأنهار جميعًا تنبع من منبعٍ واحدٍ على اختلاف مواضعها، وأن ذلك المنبع لا شك عند مقر الآلهة؛ نظرًا لتشابه الظواهر النهرية وكائناتها على اختلاف مواضعها. وضمن تلك التصورات ذلك التصور الذي وضعه سكان منطقة الشرق الأوسط، وتبنته التوراة، فتقول إنه في تلك الجنة سكن آدم أو آدوم أبو البشرية، وفي هذه الجنة نهر أول هو منبع وأساس، تتفرع منه الأنهار الكبرى الأربعة، وأول تلك الأربعة نهر باسم فيشون، وهو المحيط بجميع أرض حويلة. ووفق ما طرحناه، فإن هذا النهر سيكون هو نهر وادي العريش، وقد اعتادت التوراة على تسميته «نهر مصر». خاصة إذا ربطنا ذلك بما سبق وقلناه، إن سيناء وآدوم هي التي كانت تحمل مصر، قبل أن تنسحب التسمية على مصر المعروفة الآن، وأنها كانت تسمى على التنغيم مصري وموسري ومصري وموسير ومشري، وكان هذا النهر هو آخر الحدود الغربية الجنوبية لدولة إسرائيل الموحدة القديمة حسب زعم التوراة، وأبزر النصوص التوراتية لتحديد تلك الحدود، ما جاء في الوعد لإبراهيم بالنص القائل: «لنسلك أُعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات» (تكوين، ١٥: ١٨).

كما تم تحديد وادي مصر هذا أو نهر مصر، مع تحديد التوراة لآخر النقاط الحدودية الجنوبية — لسبط يهوذا — مع مصر، في النص «أشدود وقراها وضياعها إلى وادي مصر والبحر الكبير وتخومه» (يقصد البحر الأبيض [المؤلف]) (يشوع، ١٥: ٤٧).

وفي عبقرية المكان الجغرافي المصري، يقول لنا «جمال حمدان»: «وادي العريش ليس فقط أكبر الأودية الصحراوية طولًا وتشعبًا ومساحة في حوض سيناء وحدها، لكنه أكبر ما في مصر كلها … كان يسمى منذ أقدم العصور نهر مصر، ولعله المقصود بنهر مصر

في التوراة ... ورغم أنه جافٌّ معظم السنة؛ فهو سيلي بالشتاء. أما في موسم فيضانه فيكاد يبدو نهرًا جليل القدر عظيم الخطر، يزحف كالسيل مقتلعًا المباني والمزارع.»[٤]

أما النهر الثاني فهو المحيط بأرض كوش (الجنس الأسود) واسمح جيحون، حسب رؤيتنا هنا هو ذلك الذي يحمل اليوم اسم النيل، حيث كان في جنوب مصر دولة تابعة لمصر باسم بلاد كوش، وكان يحكمها والٍ من قبل الفرعون منوبًا عنه بلقب «ابن الفرعون في بلاد كوش». أما النهر الثالث «حداقل» الذي اتفقت عليه الترجمات بكونه نهر «دجلة» أحد الرافدين؛ لأن النص التوراتي يضعه شرقي دولة آشور الرافدية القديمة؛ لذلك فإن النهر الرابع منطقيًّا يجب أن يكون «الفرات».

وفي المأثور الإسلامي يأتينا نفس التصور مع تحريفٍ بسيط في بعض الأسماء، كما في الحديث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «فجرت أربعة أنهار من الجنة؛ الفرات والنيل وسيحان وجيحان.»[٥] أما الكتاب المقدس فيصر على تأكيد معنى الجنة، فكان نموذجه وهو يصف منطقة وادي عربة بأنها «كجنة الرب كأرض مصر» (تكوين، ١٣: ١٠).

ثم تأتينا القرينة المبينة، وتتمثل فيما رواه سترابو STRABO عن قرار الإمبراطور الروماني عام ٢٥ق.م. بإرساله حملة رومانية إلى جزيرة العرب للاستيلاء على محطات التجارة الكبرى وموانيها، وكلف بذلك إيليوس جالوس AELIUS GALLUS قائدًا للحملة، انطلاقًا من العقبة مستعينًا بملك الأنباط العربي (أبو دعس الثاني OBODAS II)، لكن الملك النبطي ضلل الحملة وساقها إلى عمق الصحارى، حيث تاه الجنود وماتوا عطشًا. إلا أن روما لم تخرج صفر اليدين، فاستولت على ميناء عربي شمالي «كانت التجارة الآتية إليه تنقل من هناك برًّا في القوافل إلى البتراء»، وهو ميناء غير محقق المكان الآن عند الباحثين، أما اسمه حسبما جاء بلسان سكان المنطقة، ودونته المراجع الرومانية فكان «حوارة».[٦]

وكما لدينا «حَويلة» التي تقع عند قادش سيناء، التي قلنا إنها العريش، فإن هناك حويلة أخرى باسم «حواريس»، وهي التي انتهينا إلى أنها رعمسيس الواقعة شرقي الدلتا المصرية، وحويلة ثالثة عند البحيرة التي حملت اسمها شمالي فلسطين «الحولة». ومعلوم أن هناك أكثر من موضعٍ في التاريخ التوراتي، والتاريخ القديم عمومًا حمل اسمًا

---

[٤] جمال حمدان، شخصية ... سبق ذكره، ج١، ص٥٩٧.

[٥] ابن كثير، البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٤، ١٩٨٨م، ج١، ص٢٢.

[٦] فيكتور سحاب، إيلاف قريش، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٢م، ص٥٢–٥٤.

واحدًا مثل قادش، ومثل دان، ومثل حاصور، فهناك أكثر من دان وأكثر من حاصور، لكن يبدو لنا أن «حويلة» سيناء التي حققناها بموضع العريش الآن، هي ذات المدينة التي ذكرتها التوراة باسم آخر هو «حصرون» و«حاصور» التي تقع جنوبي فلسطين. فالنص يعدد لنا مدن يهوذا الحدودية الجنوبية مع بلاد آدوم في قوله:

> هذا نصيب سبط يهوذا حسب عشائرهم، وكانت المدن القصوى التي لسبط بني يهوذا إلى تخم آدوم جنوبًا: قبصئيل وعيدر وياجور وقينة وديمونة وعدعدة وقادش وحاصور ويثنان، وزيف وطالم وبعلوت، وحاصور وحدته وقريوت، وحصرون هي حاصور.
>
> (يشوع، ١٥: ٢٠–٢٥)

وفي هذا النص تختفي حويلة من تعداد المدن، لتظهر بدلًا منها حاصور، ويقول قاموس الكتاب المقدس تحت مادة «حاصور»: إن حاصور كانت تتبعها قرية باسم «حاصور وحدته» بالجوار، وإن «حاصور» كانت مقاطعة في الصحراء العربية. ويدل على أنها كانت مدينة عظيمة ذات شأن، أنها كانت محل طمع العاهل البابلي نبوخذ نصر، الذي هاجمها ونهبها (انظر سفر إرميا، ٤٩: ٢٨–٣٣)، ثم يضيف القاموس نصيًّا: «ويذكر بيروسوس أن نبوخذ نصر قد هز العربية، وربما يكون الاسم اسم مجموعة.»

في الوقت الذي دون فيه هذا الكلام، كان الجنس العربي قد أخذ بالتحدد في جزيرته ونطاقها الشمالي، أما البلاد التي عدت عربية في كتابات المؤرخين الكلاسيك، فهي آدوم ومحيطها من شمالي الجزيرة إضافة إلى سيناء. أما البليغ هنا فهو المعلومة التي تواترت حتى وصلت محرري الكتاب المقدس، ليسجلوا في قاموسهم إن «العربية» ربما يكون اسمًا لمجموعة، أي لحلفٍ بين مجموعاتٍ بشرية، وهو الأمر الذي انتهينا من تقريره بقرائن وأدلة وافية.

وزيادة في البلاغ المبين يقول الكتاب المقدس، الذي اهتم بشئون تسميات المواضع، فقد أفرد لمدينة حاصور التي نظنها اسمًا ثانيًا لمدينة حويلة، تقريرًا يعطيها شأنًا خاصًّا يقول:

> حاصور كانت قبلًا رأس جميع الممالك.
>
> (يشوع، ١١: ١٣)

وهو ما يفيد أن حاصور كانت مدينة رئيسية بين ممالك المنطقة الآدومية في النقب، وهكذا كان أيضًا شأن حواريس عاصمة الهكسوس الأحلاف في شرقي دلتا مصر. وحاصور في حال الاستبدال السهل بين الحاء والعين تصبح ببساطة «عريش». وإذا كنا نعلم أن كلمة «عريش» بالعربية تعني الحظيرة، فإن الكتاب المقدس القاموسي يعلمنا تحت مادة حاصور بمعناها، قائلًا تحت مادة حاصور: «حاصور: اسم عبري معناه حظيرة.»

الفصل السادس

بعل صفون: لغز آخر!

في القصة التوراتية لخروج بني إسرائيل من مصر، نجد إشارات إلى موضع حدودي مصري باسم «بعل صافون» يقع على الحدود الشرقية للدلتا المصرية مع البحر الذي عبره الإسرائيليون في أسطورة شق البحر. ومن المفترض حسب القصة أن تكون تلك الحدود حدودًا صحراوية ملاصقة لمناطق الخصب الدلتاوية. ويقول الكتاب المقدس إن ذلك الخروج أو عبور البحر، قد تم عند نقطة اسمها «فم الحيروث»، وهي بالعبرية «بي – هـ حيروت» أي «فم الحيروت»، والمقدس التوراتي يفيدنا بموضعٍ كان يقع إلى الجوار من فم الحيروت مباشرة، يحمل ذلك الاسم الغريب على اللسان المصري «بعل صافون».

فما هو بعل صافون؟

بالبحث وراء بعل صافون وجدناه اسمًا يرد في الملاحم التي عُثر عليها بمكتبة أوغاريت «تل شمرا اللاذقية الآن بسوريا»، بحسبانه اسمًا لإلهٍ من أشهر الآلهة الكنعانية، فكيف أصبح علمًا على موضعٍ جغرافي بالبلاد المصرية؟

ونحن نعلم من الملاحم الدينية للبلاد الشامية، أن البعل تعني السيد عمومًا أو الرب، وعادةً ما تشير إلى ربٍّ بعينه، ارتبطت به تلك الصفة «بعل»، بحيث إذا وردت وحدها دون ذكره، نعرف أنها تشير إليه. هو رب الحرب والسلام والخصب والدمار والأوبئة معًا، الإله «هدد» أو «هدٌّ» بتشديد حرف الدال، وينطق أيضًا «حدٌّ» و«حدُّو» و«حداد» و«أدٌّ» و«أدد» وأيضًا «ود»، وكلها اختلافات لهجوية باختلاف ألسنة قبائل المنطقة، لكنه دومًا كان بعل صافون، وصافون هنا صيغة نسبة لمكانٍ جغرافي، حيث يقع معبد أو هيكل ذلك الإله، فهو «رب صافون» أو إله الموضع صافون.

وتحيطنا ملحمتان على الأقل من الملاحم الأوغاريتية علمًا بشأن السيد البعل «بعل صافون» هما: ملحمة البعل، وملحمة كارت ملك صيدون، والملحمة الأولى (ملحمة البعل) تحكي لنا قصة هذا الإله، فهو رب الصاعقة والمطر والحرب والوباء، وقد ترك عابدوه لنا نقوشًا له، يمسك بصاعقةٍ ذات ثلاثة شعب، تشبه المذراة أو الشوكة، في شكل أداة حرب حديدية. مما يشير إلى أنه ربما كان أيضًا ربًّا لصناعة الحديد والمسبوكات المعدنية، وهو ما يطابق اسمه «حداد» أي صانع الحديد أو الفيتي. وهذا الاجتهاد من جانبنا لا يتعارض مع ما استنتجه الباحثون، من كونه ربَّ خصب لشعوب متبدية تستوطن الجبال والبراري، وتعتمد على المطر وبرقه ورعده في زراعتها، لكن مثل هذا الإله في بلدٍ مثل مصر سيغدو إله نقمة وليس رحمة، فهي تعتمد بالكامل في ريها على نيلها الهادئ اللطيف المنضبط، وشهور المطر فيها هي شهور الشتاء، والشتاء في مصر فصل جدب ومرَض للبنات وموت للخضرة؛ لذلك عادةً ما قرن حداد أو هدد البعل عند المصريين برب الصحارى الشرير «سيت»، قاتل أخيه أوزويريس رب الخصب والزرع، وهو تناقضٌ بين حالين طبيعيين في المنطقة، أدى إلى تناقضٍ مماثل في تصور الآلهة ووظائفها. وهكذا فالبعل في الأسطورة السامية إله خصب يحمل اسم حداد، أما صافون فهو المكان الذي ورد بالأسطورة كمقر لهيكل البعل وكمسكن له، وللبحث عن الموضع الشامي للإله صافون، نرجع إلى ملحمة البعل نقتطع منها المقاطع التالية:

رفعت «شمش» صوتها تقول: اسمع يا «عشتر» «ثور إيل» أبوك
يميل إلى «يم»،
يؤثر «القاضي نهر».
إذا سمعت «إيل»
يغضب، يزيل عرشك، يحطم صولجانك.
أجاب «عشتر»:
لا هيكل لي كما لسائر الآلهة، لا قصر لي كما لسائر أبناء القدس.

* * *

لكن «إيل» ثبت سلطان «يم» قائلًا: لا زوجة لك يا «عشتر» أنت قاصر لا تصلح للملك، ونادى «إيل» «كاسروخاسس» وقال له: هيا ابن هيكلًا لـ «يم»، هيا ابن قصرًا لـ «القاضي نهر».

أرسل «يم» رسلًا إلى «إيل» أبي السنين قائلًا لهم:
اذهبوا إلى مقام «إيل» عند نبع النهرين قرب أفقا، أما «إيل» تسجدون، تقولون ... (تلف بالنص).

* * *

«البعل» لا هيكل له كما لأبناء «أشيرة» ربة البحر.
هيا سيري يا «عناة» إلى «أشيرة» ربة البحر، توسلي إلى خالقة الآلهة أن تذهب إلى «إيل» تستعطفه، فيسمح ببناء هيكل لي.

* * *

ها «كاسروخاسس» قد هيأ كيره أخذ الملاقط بيده، ها هو يعد الفضة، يرقق ألواح الذهب.

* * *

أسرِج مهرًا ياغلام.
ضع سرجًا غنيًّا بالحلي يا «قادش»،
سر بنا إلى مقام «إيل» عند نبع النهرين بالقرب من أفقا.
سار «قادش» أمام المهر.
أضاء لها الطريق كوكب
بلغت حِمى «إيل»، دخلت هيكل أبي السنين، أمامه انحنت،
وسجدت بإجلال.
رفع «إيل» بصره، ورأى «أشيرة» ... وأجاب:
ليكن له بيت أيها الإله «إيل»،
فيرسل المطر في حينه.
تمطر السماء زيتًا، وتسيل الأودية عسلًا عندما يرسل صوته
رعدًا وضياءه برقًا.
فليكن للبعل بيت كما لسائر الآلهة.
سيكون لك بيت كما لإخوتك.
هيكل كما لسائر بنات «أشيرة».

ادع البنائين إلى بيتك.
الجبال ستخرج لك أجود فضتها والتلال خير ذهبها.
أسرع يا «كاسر» في بناء الهيكل، ستبنيه في أعالي جبل صافون، بالفضة والذهب سترفع بنيانه، جاء الحطابون بأرز لبنان اتجهوا نحو سريون.
الأرز أجمله في سريون، أجوده في لبنان.

* * *

ها إنني قد بنيت بيتي من فضة.
من ذهب خالص شيدته.
راح البعل يطوف البلاد،
ضم إلى ملكه ستين مدينة، بل ضم إليه ثمانين، تسعين ...
اسمع يا «جفنة» يا رسولي الأمين
اسمع يا «حقلة» يا رسولي الأمين
قبل طلوع الفجر تتوجهان إلى طور غزى وشور ماجي الجبلين
المحيطين بأقصى الشمال ... (تلف بالنص)

* * *

الآن وقد قتلت الحية الملتوية
الحية المعلونة ذات الرءوس السبعة ... لواياثان
صعد البعل إلى مسكنه في أعالي جبل صافون،
على قمة جبل الشمال،
في جبل «إيل» سُكناي.
في جبل الله سكناي.[1]

تذكر ملحمة البعل كما رأينا عددًا من الأسماء، يمكن الاستعانة بها لتحديد المواقع الجغرافية للملحمة الأسطورية، ونظرًا للحديث عن جبل صافون بوصفه في ترجمة النص

[1] أنيس فريحة، ملاحم وأساطير في الأدب السامي، دار النهار، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م، ص١١٧، ١١٨.

الملحمي جبل الشمال، فقد افترض الباحثون أن يكون هو الجبل الأقرع الآن في أقصى الشمال السوري؛ خاصةً أن التسمية «جبل صافون» أو «سابون» أو «جبل سابان» — ولا خلاف — كانت تأتي في الأساطير الأوغارينية على التبادل مع التسمية «جبل أقرع».

ويوجز لنا «شيفمان» ما وصل إليه الباحثون بشأن التحديد الجغرافي لموضع جبل صافون، وأسماء صافون المتشابهة لدى شعوب مختلفة فيقول: «وإلى الجنوب من المسير الأدنى لنهر العاصي يتموضع جبل القصير الذي يتراوح ارتفاعه بين ٤٧٠–٤٩٠ مترًا، وتتصل معه من جهة الغرب قمة جبل سابانو/صافون في التوراة، وخازي في اللغة الأكادية، وكاسي عند اليونان والرومان، وهو ما نسميه اليوم جبل أقرع.»[٢] ثم يحدثنا «شيفمان» عن أوليمب الآلهة الأوغاريتية، فيشير إلى مكان مماثل للبلاد التي فيها جنة عدن التوراتية، «أما المكان الذي اختاره بعلو الجبار لسكناه؛ فهو جبل سابانو، وهو جبل موجود فعلًا فهو جبل الأقرع حاليًّا، ويقع على مسافةٍ قريبة من أوغاريت ... لكن في نصٍّ آخر يوجد بعلو في جبل سابانو الذي في السموات.»[٣]

ووفق منظومة بحثنا هذا سيجد قارئنا في فصوله السالفة واللاحقة، ما يؤكد أن التسمية الأكادية «خازي» واليونانية «كاسي» هي هي التسمية التوراتية والمصرية «كوشي». وفي بلاد الرافدين والشام الأعلى كان اسم الكاسيين علمًا على القبائل التي غزت بلاد بابل ضمن الموجة الهكسوسية التي احتلت مصر حوالي ذات الزمان تقريبًا، وهم لدينا عين الكوشيين، حيث أكدنا ونؤكد أن الكوشيين/الزنج كانوا عنصرًا ضمن عناصر الهكسوس، ومن العناصر المتقدمة في بلاد آدوم/بونت/مديان، وأنهم كانوا رفاق العنصر السبئي أو هم ذاته، واقترنوا في وادي عربة وجبال سراة سعير مع العنصر الآري الهابط من الشمال، وبذلك يكون جبل صافون/خازي/كاسي هو الجبل الكوشي أيضًا، جبل الإله البعل حداد/هدد/ود.

وفي الملحمة وردت أسماء آلهة منها الإله «يم» ويعني البحر، والإله «القاضي نهر» ويكتب «أور – دان» أي قاضي المدينة «دان من يدين»، أو قاضي النهر والنهر القاضي،[٤]

---

[٢] شيفمان، ثقافة أوغاريت ... سبق ذكره، ص٧.

[٣] نفسه، ص٥٣، ٥٤.

[٤] كتاب لا يحمل اسم مؤلف بعنوان: شبهات وهمية حول العهد القديم، نشر كنيسة قصر الدوبارة، القاهرة ١٩٩١م، ص٤١.

ويبدو أن النهر كان موضعًا لاختبار الخاطئين بجريمة الزنا بشكلٍ خاص، باعتبار النهر هو سائل الخصب الذي يروي الأرض فتنبت، كسائل الخصب البشري الذي يروي الفرج فيلد، ويقول «جيمس فريزر» إن القضاء النهري كان ينتشر انتشارًا واسعًا لدى الشعوب القديمة. وكان يمارس وظيفته بوضع الطفل المشكوك في شرعيته في سفط وتركه للنهر وقتًا محددًا، فإن نجا كان طفلًا شرعيًّا، وإن غرق كان نغلًا،[٥] لكن هذا القاضي نهر بالملحمة يشير إلى نهر بعينه، أصبح يحمل اسم القاضي «دان» من «يدين»، و«أدان» هو نهر «أوردان» أو «الأردن»، ونهر الأردن كما نعلم في الجنوب وليس في الشمال كما تحدد الملحمة مواضع أحداثها. إضافة إلى علامات أخرى تشككنا في ذلك الشمال، فالعبارة «أبناء القدس» في الملحمة يجب إعادتها إلى أصلها «أبناء قادش». ونعتقد أن قادش سيناء أو عين قديس الآن الملاصقة لبلاد آدوم هي قادش المقصودة. خاصةً أنها جاءت مرتبطة في الملحمة بموضعٍ آخر هو «طور غزى»، والطور هو أي جبل مزروع، وقد تم تمييزه بنسبته إلى مدينة غزة، ثم إنه يقع بالقرب من موضع «شور – ماجي»، الذي يحمل في تركيبه شقًّا معلومًا هو «شور»، الحد الشرقي للدلتا مع سيناء، أو كما تقول التوراة متكررات حول شور التي أمام مصر.

أما الإشارة إلى أن ذلك الجبل بأنه جبل إيل وجبل الله، فهو ما يذكرنا بالوصف التوراتي الدائم لجبل سيناء، بأنه جبل الله حوريب كما في النص:

> وأما موسى فكان يرعى غنم يثرون حمية كاهن مديان فساق الغنم إلى ما وراء البرية وجاء إلى جبل الله حوريب.
>
> (خروج، ٣: ١)

ثم يذكرنا «جبل الله حوبيب» أيضًا بالوصف المصري لبلاد بونت — التي زعمنا أنها بلاد آدوم — بأنها أرض الإله، و«حوريب» أو «هوريب» ببساطة هي «هو الرب».

والآن ليلحظ معنا قارئنا أن الأسطورة الملحمية قد أوردت أبياتًا، تشير إلى إلهٍ باسم «كاسروخاسي»، وأن هذا الإله مهمته صناعة المعادن. فهو ينفخ الكير ويعد الملاقط

[٥] جيمس فريزر، الفولكلور في العهد القديم، ترجمة د. نبيلة إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٨٢م، ج٢، ص٥٤٠.

ويطرق الفضة، ويرقق ألواح الذهب لصناعة عرش الإله بعل صافون، وإن كان شيفمان يفضل ترجمة اسم «كاسروخاسيس» إلى «كوثروخاسيس»، وحرف الواو هو حرف إلحاق فهو كاسر أو كوثر: الكاسي، وأصلها الأوغاريتي جاء هكذا KTR-W-HSS، لكن من جانبنا نذهب إلى وجوب ترجمته وقراءته سوكار أو شوكار الكاسي. فنحن نعلم أن سوكار أوسوكاريس هو الإله الصقري رب مدينة منف المصرية، الذي أعطى اسمه لها فأصبحت سكارة أو سقارة، وأنه رمز الإله المصري أوزيريس. ويدعمنا في هذا المذهب ما جاء عن «كوثروخاسيس» عند «شيفمان»، حيث يقول: «هو الإله الحرفي ومقره في خيكوبتا/ممفيس ... ونشاطه الأساسي يتركز في صناعة السلاح.» والواضح أن خيكوبتا هي «ايجبت/مصر» في اللسان الأوغاريتي، وهو ما يفيدنا به «شيفمان»،[٦] إذ يقول: إن كوثر الكاسي كان يعيش في منف في اعتقاد أهل أوغاريت، ويفيدنا إريك هور نونج علمًا في حديثه عن آلهة مصر القديمة أن سوكر Sokar كان: «إله الحرفية والموتى وعُبد في منف.»[٧]

وهكذا، كما مزج الهكسوس بين الإله سبت والإله بعل حداد، أخذوا أيضًا إله سقارة/منف، المنسوبة إلى ربها سوكر، ثم نسبوه للكوشيين، فأصبح كوثر الكاسي، لكنه في ملحمة البعل أصبح تابعًا لسيت أو للبعل بعكس القصة المصرية.

وما لا يفوت عين فاحصة إشارة الملحمة، إلى أن بعل ما إن تمكن من بناء مركز سيادي له رمزًا للسيادة الهكسوسية، فإنه قام بضم مئات المدن إلى ملكه؛ تعبيرًا عما فعله الهكسوس لإقامة إمبراطوريتهم.

وإذا كنا قد قلنا إن المركز الرئيسي، الذي تجمعت فيه عزمات الهكسوس كان هو بلاد آدوم، التي زعمنا أنها ذات بلاد بونت في النصوص المصرية؛ فإننا نجد في الكشوف الأوغاريتية دعمًا واضحًا لما قلنا، حيث نجد البعل في الملاحم الأوغاريتية ينجب ولدًا مقدسًا يحمل اسمًا فصيحًا، هو «الإله بونت» على ساحل المتوسط الشامي وليس في الصومال.[٨] وأن «بونت» أنجب الإله «صيدون» الاسم المعلوم للمدينة الرائدة على الساحل

---

[٦] شيفمان، ثقافة أوغاريت ... سبق ذكره، ص٧، و«خيكوبتا» في هذه الترجمة هي المتفق عليها حا. كا. بتاح = مقر مجد بتاح.

[٧] إريك هور نونج، ديانة ... سبق ذكره، ص٢٧٩.

[٨] شيفمان، ثقافة أوغاريت ... سبق ذكره، ص١٥٠.

شكل رقم «١٢٠»: موقع كاسيوس.

المعروفة باسم صيدا. وتاريخ ديانات المنطقة يفيدنا بأن أسماء المدن أسماء معبودات تعود إلى آلهةٍ أسطورية أسستها، ولعل أشهرها عبادة مدينة «بيت إيل» في فلسطين؛ فقد عبد الآراميون والإسرائيليون إلهًا باسم «بيت إيل»،[٩] كما عبدوا إيل نفسه رب المدينة، مما يشير إلى تقديسٍ لبعض المواضع، ورفعها إلى رتبة القداسة، وتتم عبادتها كآلهة. وهو ما يفسر تقديس المصريين لبلاد بونت، ووصفها بأنها أرض الإله. وفي «تدمر» كان يكنى عن اسم الإله «بونت»، ولا يلفظ اسمه ويشار إليه بأنه «ذلك الذي اسمه

[٩] الموضع نفسه.

شكل رقم «١٢١»: نصب من رأس شمرا يمثل الإله الأوغاريتي بعل هداد مع الرمح/الصاعقة/ودبوس القتال/متحف اللوفر/باريس (لاحظ أنه يلبس تاجًا عاليًا له قرنان، مع شرائط تتدلى خلف رأسه) حيث سنقارن هذا التاج فيما بعد بتاجٍ آخر أكثر أهمية، لشخصيةٍ تاريخية عظمى.

ممجد إلى الأبد»،[١٠] وهو تقليدٌ مصري بالأساس؛ حيث كان المصريون لا يذكرون الإله أوزيريس باسمه بل بالإشارة إليه، ولا يبيحون نطق اسمه إجلالًا له، كذلك الإله سيت كانوا لا يذكرون اسمه؛ دفعًا لشريته ولحضوره السحري، وحتى اليوم يشير المصري إلى الشخص الشرير بـ «المخفي»، و«اللي ما يتسماش»، ويكني عن المرض والموت بالقول: «الشر بره وبعيد»، إبعادًا لحضوره بعملية إقصاءٍ لفظي سحري، وهو الأمر الذي تكرر بعد ذلك في العقيدة اليهودية، التي كانت تشير لربها بفعل الكينونة «يكون» أو الإشارة

[١٠] نفسه، ص١٥١.

بضمير الغائب المذكر «هو» أو «يهوه». أما الأشد دلالة هنا؛ فهو أن نعثر في أوغاريت على الإله باسم «المُهلك».[١١] وهو ما يذكرنا بالمهلك الإلهي الإسرائيلي لأبكار مصر ليلة الخروج، ثم يستدعي ذلك وصف التوراة لربها بذات صفات الإله طيفون/سيت رب الأوبئة؛ إذ تقول: «قدامه ذهب الوباء وعند رجليه خرجت الحمى» (حبقوق، ٣: ٥)، ويبدو لنا أن المهلك هذا كان البعل حداد على التحديد، حيث تنسب إليه نصوص رافدية ذات الوظائف، التي مارسها المهلك يهوه التوراتي في مصر، من تدميرٍ للزرع والخضرة وكل مظاهر الخصب. وهو ما نقرؤه في نصوص الملك الآشوري «أدد نيراري الأول/ق ١٣ق.م.» يستدعي قدرات أدد على أعدائه قائلًا:

> ليقهره أدد «حداد/هدد» بشؤبوب مدمر، ولتستمر في أرضه الفيضانات والعاصفة والتشوش والاضطراب، والحاجة والعوز والجفاف والجوع، وليأتِ على أرضه مثل الطوفان، جاعلًا منها خرائب وأنقاضًا، وليخرب أدد أرضه بالبرق المدمر، وليسلط عليه الجوع.[١٢]

وكما كان بعل حداد يوصف بأنه إله رعد وريح وبرق وصاعقة، ووصف في الملاحم الأوغاريتية باللغة الحورية الكارية بأنه «راكب السحب»، وأنه «يعطي رعده ويرسل ضياءه إلى الأرض بروقًا»؛[١٣] فإن يهوه العبري يوصف في الكتاب المقدس بأنه «الجاعل السحب مركبته، الماشي على أجنحة الريح» (مزامير، ٣: ١٠٤).

ويقول لنا المهتمون بالمصريات القديمة، إنه في عصر الدولة الحديثة المعروفة بدولة الإمبراطورية، انتشرت في مصر عبادات سامية الأصل. فمثلًا تم تكريس الحي الشرقي من مدينة رعمسيس للإلهة السامية عشتروت، حسبما علمنا من قصيدة تصف تلك المدينة (سبق ذكرها بالجزء الأول)، كما شيد للبعل عدة معابد. وكان رمسيس الثاني عابدًا متبتلًا للإلهة السامية «عناة»، زوجة البعل ولقبها بعلات. وكذلك أنشأ معبدًا للإلهة «أشيرة». أما «بعلات صافون» زوجة «بعل صافون» فقد حازت على شعبيةٍ واسعة، ووصلت من حدود الدلتا لتعبد في منف، إلى جوار آلهتها المصرية العريقة.[١٤]

---

[١١] نفسه، ص١٥٠.

[١٢] حسني حداد وسليم مجاعص، بعل هداد ... سبق ذكره، ص١١.

[١٣] علي الشوك، جولة ... سبق ذكره، ص١٩.

[١٤] سامي سعيد، الرعامسة، سبق ذكره، ص١١٠.

شكل رقم «١٢٢»: تيشوب من تل برسيب ١٠٠٠ق.م. متحف حلب، نموذج بعلي حيثي (لاحظ الأساور على العضد وذات حركة بعل يحمل الصاعقة بيد، ودبوس القتال باليد الأخرى مع التاج العالي والقرنين والشرائط.)

وهنا نستمع إلى عالم المصريات «ياروسلاف» وهو يقول: «إن المصريين قد رأوا في الآلهة المشابهة ذات الطابع الحربي أو القتالي (وهي صفات بعل وزوجته عناة [المؤلف]) في فلسطين وسوريا إلههم ست … وهناك رواية أعطيت فيها الأرض السوداء أي مصر إلى حورس، بينما أعطيت الأرض الحمراء أي البلاد الأجنبية إلى ست … وفي عصر الدولة الحديثة تعرفوا على عددٍ عظيم من آلهة وإلهات المدن المسماة بعل Ba’al — سيد في اللغة السامية — وبعلات Ba’ala أي سيدة. ومن المناطق التي أُخضعت جُلب العديد

شكل رقم «١٢٣»: تمثال من البرونز والفضة والذهب للإله بعل هداد، وجد في رأس شمرا/أوغاريت.

من الأسرى إلى مصر، واستقروا بها كرقيق. وأتبع ذلك التدفق الاختياري للمهاجرين والصناع والجنود. جلبوا معهم جميعًا عبادات آلهتهم المحلية … ولقد أضحى ضربًا من المودة عند المصريين تقليد النمط الآسيوي في العادات؛ فالكلمات السامية تطرقت إلى اللغة المصرية، ومع هذه الكلمات عقائد الآلهة الأجنبية للوافدين الجدد، من بعل وبعلاتوميكال MIKAL ورشب RESHEP أو إرشوب ERSHOP وعبادة الإلهات عشتار ASTARTE وعناة ANAT و قادش KADESH وكسرت KESRET وأخريات. وفي رأس الشمراء — أوغاريت — بسوريا كرست لوحة من ميمي MIMI إلى بعل زيفون BA'AL

ZEPHON أو بعل الشمال. ولقد كان مركز عبادة الآلهة السورية في مصر هي منطقة منف؛ ففي الأسرة الثامنة عشرة كان حيٌّ من المدينة يسمى حي الحيثيين، وربما كان ذلك الحي هو الذي ذكره هيرودوت فيما بعد تحت اسم معسكر التيرانيين CAMP OF THE TYRIANS، باعتبار أنه مستقر أو مقر الإلهة إفروديت الأجنبية أي عشتار غير المصرية. وهناك بردية مصرية تعدد أسماء بعلات وقادش وعنات وبعل وزيفون. ويبدو أن رمسيس الثاني كان متعبدًا متحمسًا لعناة، فضلًا عن أنه أطلق اسم عناة على فرسه، وكذلك أطلق على ابنته المفضلة اسم بنت عناة BINT-ANAT، وكان رمسيس الثاني محبوب حورون BE LOVEED OF HAURON، وهو إله سامي نعلم القليل جدًّا عنه، حتى في موطنه الأصلي بآسيا.»[١٥]

ومن جانبه يحيطنا «شيفمان» علمًا أنه «كانت عبادة الإله الكنعاني الآموري بعل صفون، وهو الأوغاريتي بعلو الجبار، منتشرة في مصر في منتصف الألف الأول قبل الميلاد. وهذا ما تؤكده التوراة (تكوين، ١٤: ٢–٩؛ والعدد، ٣٣: ٧)، والبردي الفينيقي الذي وصلنا من مصر. ويعود تاريخه إلى القرن السادس قبل الميلاد.»[١٦] ثم يضيف «وإلى زمنٍ متأخر أكثر — بداية حكم الأسرة التاسعة عشرة أي بداية من القرن الثالث عشر قبل الميلاد — يعود الرسم النافر للكاتب المصري «مايمي» (سبق ذكره عند ياروسلاف باسم ميمي [المؤلف])، الذي وجد مشوهًا جدًّا في معبد بعلو. وكان مايمي هذا رئيس الخزانة لدى الملك المصري، ولعب في أوغاريت دور ممثل الإدارة المصرية. وتحوي الكتابة التي ترافق النصب إياه إهداء إلى الإله المحلي، الأرجح إلى بعلو … لقد نفذ هذا الرسم الكاتب في وضعية المصلي رافعًا يديه، أمام إله واقف يرتدي قلنسوة عالية فوق رأسه … أما صورة الإله؛ فهي تقابل الرسم المصري للإله السوري سيت بعلو.»[١٧]

وهنا يجب ألا ننسى مسألة الحي الحيثي في منف، حيث ستكشف لنا الفصول المقبلة أنه كان بقايا لجاليةٍ هكسوسية، وأن نتذكر قلنسوة من يسمى «مايمي أو ميمي» العالية، فلها دور شارح لغوامضٍ ستأتي في مكانها من هذا البحث. أما دمج

[١٥] ياروسلاف تشريني، الديانة … سبق ذكره، ص١٨٣، ١٨٤.

[١٦] شيفمان، ثقافة أوغاريت … سبق ذكره، ص١٤٢.

[١٧] نفسه، ص١٢٠، ١٢١.

شيفمان للإلهين سيت وبعل معًا في التعبير «سيت بعلو»، فهو ما يعني أن المصريين والسوريين قد تكونت لدى كليهما فكرة واحدة عن إله واحد، أسماه السوريون بعلًا وأسماه المصريون ست، وبينما رأى فيه السوريون ربًّا للخصب، فقد ركز المصريون على جوانبه السلبية كربٍّ للحرب والدمار، وسعيًا وراء التيقن من هذا الدمج بين سيت وحداد بعل صافون، نقرأ المعاهدة التي تمت بين المصريين والحيثيين زمن رعمسيس الثاني، لنجد الابتهالات تقدم إلى «سيت السماء» و«سيت حاتي»، أي سيت بلاد الحيثيين أي بعل الحيثي، وإلى «سيت حلب» أي إلى بعل حلب، مع طائفة ألقاب تتفق مع ألقاب الحيثيين لرب العاصفة.

ثم نجد ذات الدمج في قصيدة تخلد انتصار الفرعون رمسيس الثاني في موقعة قادشن؛ إذ نجد بيتًا من الشعر يقول:

يهتف أعداء الفرعون
ليس إنسانًا هذا الذي بيننا
بل هو سيت عظيم القوة
أو بعل بذاته.[١٨]

والغريب أن الحيثيين الذين عاشوا في بلاد تركيا القديمة، كانوا قريبين في تصورهم لرب العاصفة تيشوب/بعل/ست من تصورات المصريين؛ فمعظم النصب الحيثية تصور إله العاصفة بمظاهر قتالية متسلحًا بهراوة أو فأس راكبًا عربة حربية، وقليلًا ما تشير إلى أية صفات إخصابية.[١٩] وهو ما يعني لدينا تأثرًا أكثر من جانب الحيثيين بالتصورات المصرية، رغم هذا البعد الشاسع جغرافيًّا، وهو ما سيجد مبرراته في الفصول القادمة التي تتحدث عن الحيثيين تفصيلًا.

ومعلومٌ أن أكمل القصص التي وصلتنا عن إله الشر المصري سيت، قد جاءت ضمن رواية بلوتارك اليوناني لأسطورة أوزيريس رب الخير، وصراعه مع سيت رب الشر. وبعد مقتل أوزيريس على يد ست، يستمر الصراع يقوده حور أو حورس ابن أوزيريس،

---

[١٨] حسني حداد وسليم مجاعص، بعل هداد ... سبق ذكره، ص٢٤، ٢٥.

[١٩] نفسه، ص٧٩.

انتقامًا لأبيه من عمه الشرير سيت، لينتهي الصراع بهزيمة سيت الشرير على يد حور، يقول بلوتارك:

> وبعد أن هزمه حورس ... هرب ست من المعركة راكبًا على حمار، واستغرقت رحلته سبعة أيام على ظهر الحمار ... فكان لاستعمال ست للحمار ولغباء الحمير ولونهم الأحمر، أن انتسب الحمير إلى تيفون (تيفون الاسم اليوناني للإله سيت [المؤلف]) وكان ذلك سببًا في كره المصريين لهم في عقيدتهم؛ لذلك لقبوا أوخوس أقسى ملوك الفرس وأشرهم (هو أرتكسيركسيس الثالث [المؤلف])، لتعسفه وشدة ظلمه بالحمار، فكان رده على المصريين: إن هذا الحمار سيحتفل بأكل عجلكم. أما القائلون بأن رحلة ست في هربه كانت سبعة أيام على ظهر حمار ونجاته، وأنه أصبح أبًا لهيروسوليموس HIEROSOLYMOS ويودابوس JUDAEOS، فهؤلاء كانوا يريدون أن يدخلوا التقاليد الإسرائيلية في الخرافة المصرية ... فالواقع إذن أن المصريين بعد أن عرفوا بني إسرائيل ... ألحقوهم بأبناءٍ من أب هو ست إله الشر والشيطان، الإله العدو في عقيدتهم ... وأصبح بنو إسرائيل في مصر أولادًا للإله ست، الذي يسميه اليونانيون تيفون.
>
> أي إنهم ينحدرون من أصلٍ شرير. جعل منه المصريون رمزًا لكل الحيوانات والنباتات الضارة والبحر المالح والحوادث المفجعة ... وهيروسوليموس وياهو دايوس هما آباء العبرانيين اليهود.[٢٠]

وهكذا ردد بلوتارك ما يؤيد ما قلناه حول أحد صور التجلي للإله سيت في هيئة الحمار واللون الأحمر، وكان اللون الأحمر رمزًا على الجدب، كما كان علامة على بلاد آدوم وسيناء وسكانهما، ونسبة الإسرائيليين إلى ذلك الإله تشير إلى لونٍ من القرابة تربطهم بقبائل آدوم، وسبق لنا أن شرحناها وأكدناها. ولعله من الواضح هذا أن هيروسوليموس هي «أورشليم»، وأن «ياهودايوس» هي اليهودية أو يهوذا، مما يؤدي إلى التباس الإسرائيلي بالهكسوسي، وهو ما يتأكد دومًا بشكلٍ مستمر منذ بداية هذا البحث،

---

[٢٠] بلوتارك، إيزيس وأوزيريس، سبق ذكره، ص٥٢، ٥٣. انظر أيضًا: عبد المحسن الخشاب: تاريخ اليهود ... سبق ذكره، ص٣٧، ٣٨.

فنجد الإسرائيليين هنا أبناء للشرير ست الذي سبق واختاره الهكسوس ربًّا خاصًّا لهم إبان احتلالهم لمصر.

هنا يفيدنا شيفمان المتخصص في أركيولوجيا أوغاريت أن بعلو الجبار الذي هو حداد/هدد وهو زوج الإلهة «هبات»[٢١] ربة العاصفة التي تهب، والتي سبق وأشرنا إليها كربة في بلاد آدوم من الاسم «هفا» أي «هوا» أو الهواء في صيغة المؤنث «هبات»، وكانت تُعبد في مصر باسم «هيبات»، ثم نعلم من جانبٍ آخر أن الإله الحيثي «تيشوب» كانت له زوجة تحمل ذات الاسم «هبات» أو «حبات»،[٢٢] وتيشوب هو رب العاصفة بدوره، هو البعل. وفي وثيقة معاهدة الصلح المصرية الحيثية نجد الابتهال إلى «ست حلب» و«هبا حلب»،[٢٣] و«هبا» هنا مذكر «هبات»، وست حلب هو بعل حلب، مما يعني أن ست/تيشوب/بعل حداد طيفون/رب العاصفة أو «الهوا» هو «هبا» زوج «هبات» أو «هوا» زوج «هوات»، وعلى ذات التنغيم يأتينا اسم الرب الإسرائيلي «يهوه»، الذي فسره فلهاوزن بأنه يعني «يهب» من هبوب الهواء والريح؛ إضافة للتفسير الآخر أنه من فعل الكينونة «يكون».

أما اسم ذلك الإله الأشهر حداد أو هداد أو هدد، فنجده اسمًا لأحد أبناء إسماعيل (الكتاب المقدس، سفر أخبار الأيام الأول، ١: ٣٠)، ثم الأكثر إدهاشًا والتقاءً مع كشوفنا، أن نجد اسم ذلك الإله قد تسمى به ملوك بلاد آدوم تيمنًا، ولدينا منهم على الأقل ثلاثة: الأول هو هداد بن بداد (تكوين، ٣٦: ٣٥)، والثاني هو هداد الذي عاصر زمن جدعون الإسرائيلي (تكوين، ٣٦: ٢٩)، وأما الثالث فهو هدد وريث العرش الآدومي الذي هرب إلى مصر وتزوج أخت الملكة تحفنيس، عندما احتل الملك الإسرائيلي سليمان بلاده، في قصة سبق وأسلفناها (انظر سفر ملوك أول، ١١: ١٤).

وملمحٌ آخر يؤكد التطابق بين يهوه وبين رب العاصفة، فنحن نجد وصفًا اعتياديًّا للإله في التوراة، بأنه رب الجنود/ إيل صبأوت في العبرية (سفر الخروج، ١٥: ٣؛ وصموئيل أول، ١٧: ٤٥) مع وصفٍ آخر يقول: «الرب رجل حرب»، وهي صفات البعل حداد/سيت/تيشوب/هفا، لكنا نعثر على ما يكاد يكون تطابقًا نصيًّا في نصٍّ جاء

---

[٢١] شيفمان، ثقافة أوغاريت ... سبق ذكره، ص١٢٢.

[٢٢] حسني حداد، بعل هداد ... سبق ذكره، ص٢١–٢٣.

[٢٣] نفسه، ص٢٨، ٢٩.

شكل رقم «١٢٤»: تمثال مصري للإله سيت في هيئة البعل وحركته برأس خنوم/خنوف.

بمكتبة أوغاريت عن الإله رشب، وهو بدوره تسمية بعلية لرب العاصفة، ويقول النص حسب ترجمة شيفمان: «إله الحرب صاحب السهام راشابو الجنود.»[٢٤] ولا معنى لهذا الكلام إلا إذا كان حرف الشين زيادة في اسم الإله المحارب «راشابو»، تم إهمالها في النطق بعد ذلك ليصبح النص تمامًا توراتيًّا؛ لأنه سيصبح «إله الحرب صاحب السهام رب الجنود».

[٢٤] شيفمان، ثقافة أوغاريت ... سبق ذكره، ص٨٦.

وحول اسم رب البحار الإله «يم» أو «يمو»، وهو أحد أبطال ملحمة البعل الأوغاريتية، يعقب شيفمان بالقول: «إن يمو سُمي أيضًا يافو، الذي يقارنه بعضهم باسم الإله البيروتي يفو والتوراتي يهو.»[٢٥]

وفي بحثه عن خط سير رحلة الخروج الإسرائيلي من مصر، يقول «بيير مونتييه» إن اسم الموقع الوارد في التوراة باسم بعل صافون بمصر، كان يقع عند قمة جبل مونس كاسيوس، على شاطئ المتوسط إلى الشرق من الفرما، وهي تسمية إغريقية للجبل، تحمل اسم إله يوناني، أدمج بالإله بعل صافون هو كاسيوس ومعناه «الكاسي»، وأن موضع بعل صافون يقع تحديدًا عند قمة ساحل بحيرة البردويل الآن بشبه جزيرة سيناء.[٢٦]

---

[٢٥] نفسه، ص٨٤.

[٢٦] زينون كاسيدوفسكي، الواقع والأسطورة ... سبق ذكره، ص٨٠، ١١٥، ١١٦.

الفصل السابع

لغز أرام النحاسية

لكنا حتى الآن لم نجب إجابة دقيقة على السؤال: من هم شعب إرم الوارد في لوحات حتشبسوت، كاسم لشعبٍ كان يعيش في بلاد بونت؟ إن محاولة الإجابة على هذا السؤال بحد ذاتها، ستعطينًا دليلًا آخر وداعمًا آخر لكل دقائق وتفاصيل بلاد بونت، التي لم تصبح الآن بلادًا غامضة، بل نظن أننا قد تمكنا من رسم لوحة كبيرة واضحة التفاصيل والدقائق، جمعناها من شواردٍ شتى لنؤكد بها صحة نظريتنا، التي ستزداد مع البحث عن شعب إرم استقامة وثباتًا ورسوخًا.

وإبان ذلك سيتأكد لنا أن العرب قد عاشوا بهذا الاسم (عرب) في محيط سيناء وشمالي الحجاز في أزمنتهم الغابرة، قبل ظهور مملكة أحفادهم الأنباط في البتراء بأزمان، وأنه من تلك المنطقة هبط أولئك الذين أعطوا شبه الجزيرة اسمها «العربية»، وهو ما ستفصح عنه أكثر الفصول المقبلة، كما سنرى اللغة العربية وهي تولد أيضًا هناك، لتأخذ خط تطورها الخطي مع «شعب إرم» ثم الأنباط من بعد.

أما الذي سيضيف إلى رصيدنا في البحث وراء شعب إرم البونتي، فهو مزيد من التوضيح والإضاءة لوجود شعب زنجي في هذه المنطقة من العالم، ذلك الشعب الذي كان ظهوره في لوحات حتشبسوت، مدعاة للمدارس التقليدية لوضع بلاد بونت على الساحل الصومالي.

ونعود إلى «الأخلامو» أو «الأحلاف»، وهو الاصطلاح الذي أطلقه سكان الرافدين على ذلك الشعب المعروف بالشعب الآرامي، وقد ذهب المؤرخون إلى أن الأراميين قد ظهروا في بوادي الشام حوالي ١١٠٠ق.م. وبعضهم أعمق في التاريخ قرنًا آخر، فقالوا بظهورهم حوالي ١٢٠٠ق.م. ومن تهوَّر قال بظهورهم حوالي ١٤٠٠ق.م. لكن ليس قبل ذلك مطلقًا. وقد علمنا ببداية تواجدهم من بقايا المدن التي أنشئُوها، وأعادها الباحثون

إلى تلك التآريخ، والتي انتشرت في بلاد الشام حتى أقصاه الشمالي. ومنها ممالك أصبحنا نعرف أسمائها مثل: مملكة بيت جباري أو سمعل وبيت أديني وقرقميش وأرباد، وأنطاكية وحلب وقادش العاصي وحماة وتدمر ودمشق. هذا إضافة لمدنٍ أخرى ذكرها المقدس التوراتي، ولم تفصح الأرض بعد عن آثارها، مثل فدان آرام معكة وأرام نهرين وأرام صوبه، والأخيرتان تأتيان عادةً على التبادل، مما يشير إلى احتمال أنهما كانتا مملكة واحدة.

ويقول لنا المؤرخون: إنهم عند ظهورهم في المنطقة، أزاحوا منها جنسًا عريقًا قديمًا، كان يستوطن تلك الأماكن منذ الألف الثالث قبل الميلاد. وهو الجنس الذي عرف التاريخ أصحابه باسم الأموريين، وبعد أن أزاحوا الأموريين استوطنوا أماكنهم في وادي العاصي والفرات الأعلى، رغم أن الأراميين ظلوا ممالك صغيرة متشظية، وأخفقوا في إقامة أي وحدة بينهم فيما يذهب المؤرخون، والأغرب أن التراث اللغوي والثقافي الآرامي الوافد الجديد، قد ساد المنطقة (كيف؟ لا يقولون لنا؟!) بل وتجاوز الأمر ذلك إلى أن لغتهم أصبحت فجأة ودون إنذار هي اللغة السائدة في المنطقة، بل ونجدها دون مقدمات هي لغة التخاطب الدبلوماسي بين عواصم الدول الكبرى في المنطقة، ذات الحضارات العريقة السامقة، مثل مصر وآشور وبابل وبلاد تركيا الحيثية ودول المدن في فلسطين والشام (كيف؟ أيضًا لا يقولون لنا أية إجابة، وعلينا أن نستسلم ونسلم فقط: هذا ما أمكن معرفته، وفقط هذا ما قد حدث؟!)

ونستمر نتابع أهل التاريخ، فيقولون لنا إن اللغة الآرامية، تطورت عنها لغات أخرى في خطوط فرعية أهمها الكنعانية (رغم أن الكنعانية وفق حساباتهم هي الأقدم لتزمينهم وصول الكنعانيين فلسطين في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد) والنبطية، وأن الآرامية ربما سبقت وربما لحقت اللغة الكارية الحورية، فبينهما تشابه أصيل يشير إلى وحدةٍ قديمة، وعن الآراميين أخذ الإسرائيليون خطهم المربع، أما النبطية فقد تطورت حتى أصبحت خط اللغة العربية، التي نعرفها في خط شمالي الجزيرة ولغة قريش وخطها بعد ذلك.

وتلخص لنا موسوعة تاريخ العالم أمر اللغة الآرامية وأصحابها الآراميين في قولها:

> أصبح الآراميون هم التجار الدوليين في العالم، منذ القرن العاشر حتى القرن الرابع ق.م. وأصبحت لغتهم هي اللغة الدولية في غرب آسيا ... ومعظم الآداب الدينية اليهودية والمسيحية «السريانية» مكتوبة باللغة الآرامية.

ومن جانبٍ آخر نقف نستمع للباحث «فليكوفسكي» يقول: «إن العلماء قدروا أن وصول الحوريين للمنطقة، كان فجرًا لحضارةٍ جديدة، وأنهم كانوا قوةً هائلة ومنتشرة انتشارًا واسعًا، ما بين أرمينيا حتى جنوبي فلسطين والمتوسط، وشرقًا حتى فارس.» ثم يعقب يائسًا: «واللغة الحورية تبدو كلغةٍ بلا شعب، فلا هي سامية ولا هي هندوآرية.»[١] أما نحن فقد قلنا وأعدنا وزدنا حول الاندماج الجنوب جزيري مع الحامي مع الكوشي مع الهندوآري في وادي عربة، والذي لا ريب قد أنتج هذه اللغة التي حيرت الأفهام، لغة الحوريين الكارية، اللغة الأم للساميات فيما نريد تأكيده.

إلا أن الموسوعة تلمح من طرفٍ خفي وحذر، إلى أن ظهورهم المفاجئ جاء نتيجة طرد الهكسوس من مصر سنة ١٥٨٠ق.م. لكنها تلتوي ولا تقول صراحة ولو بصيغة الاحتمال والظن: إن الآراميين الذين ظهروا في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد في بوادي الشام، ربما كانوا من الهكسوس الذين طُردوا من مصر، إنها متشككة فتسوق قولًا، يحتمل الالتباس المقصود نتيجة عدم اليقين.

لكن الكل يغمض عينيه تمامًا عما جاء في نصوص سرجون الأكدي حوالي ٢٤٥٠–٢٣٥٠ق.م. من إشاراتٍ واضحة لآرام، والتي لم تكن الإشارات الوحيدة اليتيمة حتى يمكن التغاضي عنها، بل تكررت مثل هذه الإشارات، لكن لأن التاريخ علم مهيب رزين لا يعرف المجازفات، فقد عقب المؤرخ العراقي المرموق «طه باقر» يقول: «من المستبعد أن يكون للموضع الوارد بهيئة أرامي ARAMI، وأسماء بعض الأعلام على هيئة أرامو ARAMU، صلة بالآراميين، بالنظر إلى قدم العهد؛ لذلك يرجح أن يكون ذلك مجرد تشابه لفظي، ولا يُعرف على وجه التأكيد معنى الكلمة أرامي، على أنه قيل في أرام وإرم — ولعل الكلمة الواردة في القرآن (يقصد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد [المؤلف]) لها صلة بالآراميين — أنها تعني النجد أو الهضبة.»[٢] ورغم أن معنى النجد أو الهضبة يدخل في معنى الصخرة، ورغم أن معنى إرم في الآرامية هو الصخرة على وجه التدقيق، فإن «باقر» لم يلمح حتى إليه، ربما لأنه رآه بلا معنًى (فماذا تعني الصخرة؟!) لأنه لم يكن يعلم ما كشفناه عن علاقة الآراميين بالبتراء، لكن قارئي يرى الآن أي معنًى معناه؟

---

[١] فليكوفسكي، عصور في فوضى ... سبق ذكره، ص٢١٩.

[٢] طه باقر، الوجيز ... سبق ذكره، ص٤٣٩.

ومثل «باقر» عقبت موسوعة تاريخ العالم على ورود إشارات للآراميين في ذلك العهد البعيد القدم بقولها:

> حوالي ٢٤٥٠–٢٣٥٠ قاد سرجون ملك أكاد، ونارام سين، حملات حربية إلى شمال سورية، والإشارة إلى أرام في نقوش هذين الملكين تدعو إلى الحيرة.

أما حسب منظومتنا التي ننسجها هنا يكون مفهومًا أن تتحدث نصوص سرجون ونرام سين عن الآراميين قبل الألف الثاني للميلاد؛ لأنهم إذا كانوا هم الهكسوس كما ألمحت الموسوعة، فلا شك أنهم لم يسقطوا على مصر من السماء، إنما كانوا موجودين بالمنطقة قبل دخولهم مصر، وأنهم قضوا فترةً زمنية كافية تسمح لهم بتكوين قوة مقتدرة، تمكنهم من احتلال كبرى دول المنطقة.

وفي نصٍّ بسفر صموئيل حكاية تعني ما نحاول قوله هنا وإيضاحه بل وإثباته، والنص حكاية عن الأسلاب التي غنمها الملك الإسرائيلي داود، بعد أن هاجم جميع الدول التي تجاوره من الشرق ومن الجنوب، يقول النص:

> وهذه أيضًا قدسها الملك داود للرب من الفضة والذهب الذي قدسه، من جميع الشعوب الذين أخضعهم؛ من أرام ومن مؤاب ومن بني عمون ومن الفلسطينيين ومن عماليق.
>
> (صموئيل الثاني، ٨: ١١، ١٢)

وعجبنا هنا من عدم ذكر آدوم في نصٍّ يعدد بالحصر جيران مملكة داوود من الشرق والجنوب، وعدنا نقلب صفحات المقدس نبحث عن تعليل، فوجدنا ذات الإشارة تتكرر بعد ذلك في سفر أخبار الأيام الأول، بل بذات الكلمات لم يتغير غير كلمة واحدة، لم يلتفت الكاتب إلى اختلافها عن النص الأول، بحسبان أنه كان يعلمهما كلمة واحدة ومعنًى واحدًا وإن اختلفتا، والنص يقول:

> هذه أيضًا قدسها الملك داود للرب مع الفضة والذهب الذي أخذه من كل الأمم، من آدوم ومن مؤاب ومن بني عمون ومن الفلسطينيين ومن عماليق.
>
> (أخبار الأيام الأول، ١٨: ١١)

وهنا جاءت آدوم بديلًا عن أرام، بل وفي ذات مكانها من النص، مع عدم تغيير يذكر فيما عدا ذلك، ولمزيدٍ من التأكيد نستنطق المحرر التوراتي: هل كان يعلم أن أرام بالفعل هي آدوم، أو حتى إن الآدومي هو بطن من البطون الآرامية، ومرات ومرات كدأبنا طوال بحثنا نقلب أسفار الكتاب المقدس، فنعثر على نصين آخرين حدث معهما ذات ما حدث مع النصين السالفين. محرر كتب هذا ومحرر كتب ذاك، لكنهما كانا يتفقان على أن ما اختلف بينهما من أسماءٍ، ليس إلا أسماء لشعبٍ واحد، يقول النص الأول:

> ونصب داود تذكارًا عند رجوعه من ضربه ثمانية عشر ألفًا من أرام في وادي الملح، وجعل في آدوم محافظين، ووضع محافظين في آدوم كلها، وكان جميع الآدوميين عبيدًا لداود.
>
> (صموئيل الثاني، ٨: ١٣، ١٤)

أما النص الثاني الذي دونه محرر أخبار الأيام، فيغير فقط كلمة واحدة هي «آرام» الواردة في أول النص، ويستبدلها بكلمة آدوم، انظر:

> ضرب من آدوم في وادي الملح ثمانية عشر ألفًا، وجعل في آدوم محافظين، فصار جميع الآدوميين عبيدًا لداود.
>
> (أخبار أيام أول، ١٨: ١٢، ١٣)

واضح إذن أن التوراة تتحدث عن أرام باعتبارها آدوم، ولمزيدٍ من حسن الطالع لنا، أن التوراة تذكر الموضع الجغرافي لأرام في النص الأول، فهي تقع في وادي الملح، الذي يقع جنوبي بحر الملح «البحر الميت» حيث تقوم دولة آدوم.

هل يمكن أن نجد المزيد لتدعيم معمارنا هذا؟

في الكتاب المقدس نصٌّ آخر لا يحمل لبسًا، يؤدي إلى المعنى الذي نقوله هنا، والنص يؤكد أن ميناء «أيلة» الآدومي على العقبة كان ميناء أراميا، والنص يحكي عن تعاصر الملك اليهوذي «أحاز» مع الملك «رصين» ملك آرام دون تحديد أي أرام يقصدها، بين مدنٍ كثيرة عددها لنا عند حديثه عن أرام فيما سبق، كقوله أرام معكة وأرام بيت رحوب وأرام صوبا وفدان أرام ... إلخ. يبدو لنا أنه قصد بالفعل أرام بعينها لا تحتاج تحديدًا،

يكفي أن يقال بشأنها أرام، أرام مركزية لا تحتاج توضيحًا، ثم يحكي النص أن رصين هذا قد تحالف مع مملكة إسرائيل الشمالية، مع ملكها فقح بن رمليا، ضد أحاز ملك يهوذا، فالنص يقول:

> كان أحاز ابن عشرين سنة حين ملك، وملك ستة عشرة سنة في أورشليم، ولم يعمل المستقيم في عيني الرب … حينئذٍ صعد رصين ملك أرام وفقح بن رمليا ملك إسرائيل إلى أورشليم للمحاربة، فحاصروا أحاز ولم يقدروا أن يغلبوه، في ذلك الوقت أرجع رصين ملك أرام أيلة للأراميين وطرد اليهود من أيلة.
>
> (ملوك ثاني، ١٦: ٢، ٦، ٥)

رصين ملك أرام غير المحددة ولا المعرفة، استرجع مدينة أيلة — الواقعة على خليج العقبة الآن باسم إيلات — من يد مملكة يهوذا الجنوبية، حيث يبدو أن إيلة خضعت ليهوذا منذ زمن سليمان، لكنه هنا لم يسترجعها لآدوم بل للآراميين، الواقع أن رصين كان ملكًا آدوميًّا تتبعه ميناء أيلة، التي كانت مستلبة من بلاده منذ زمن، فتمكن من استعادتها لآدوم أو أرام، النص كما هو واضح لا يرى هنا أي فرق بين الآدوميين والآراميين.

لكنا هنا ندفع بالأمر دفعة أخرى، فنتابع أرام هذه المعلومة والمعروفة ولا تحتاج تعريفًا، تلك التي وردت في مواضع أخرى بالكتاب المقدس باسم «أرام صوبا»، التي لم يتم التعرف في علم التاريخ على مكانها حتى الآن، رغم علمنا باسمها من مصادر أخرى غير الكتاب المقدس. فيفيدنا «طه باقر» — مشكورًا — أنها لا بد واقعة في الأنحاء الجنوبية من بلاد الشام، وقد خرج بهذه النتيجة من دراسة النصوص الرافدية القديمة، التي تحدثت عن أرام صوبة، لكن أقصى جنوب وصل إليه هو البقاع جنوبي زحلة بلبنان، فموضعها هناك.[٣]

معقبًا بالقول: «والمرجح أن مدينة صوبا هي المذكورة في المصادر الكلاسيكية الرومانية باسم خلسيس.»[٤]

---

[٣] طه باقر، الوجيز … سبق ذكره، ص٤٩٥، انظر أيضًا: قاموس الكتاب المقدس.

[٤] الموضع نفسه.

وبهذا الشأن يقول الباحث الفارس «فراس السواح»: «فيما يتعلق بمملكة صوبا، احتار الباحثون بشأن موقعها وحدودها، وخرجوا باستنتاجاتٍ واهية، من شأنها خلق صورة مضخمة عن هذه المملكة، والباحث هاليفي يقول: إن صوبة هي تحريف لكلمة صهوبة، التي تعني بريق الذهب أو النحاس ... ومن المرجح أن صوبة كانت تشمل الأراضي الممتدة إلى الشمال الغربي من دمشق ... وقد سار بقية الباحثين على منوال هليفي، ويقول واين بيتار في كتابه «دمشق في العصور القديمة» ما يلي: في أيام داود كانت مملكة صوبة أقوى وأهم دولة في وسط وجنوب سوريا، وخصمًا عنيدًا للمملكة الإسرائيلية الجديدة. أما عن موقع هذه الدولة وحدودها، فإن معظم الباحثين يضعونها اليوم في البقاع الشمالي، مع امتداداتٍ نحو الشرق تصل إلى سهول حمص وتتجاوزها حتى البادية.»

ويتابع السواح: «لقد ورد اسم صوبة لأول مرة في سفر صموئيل الأول، الذي يذكر أن الملك شاول قد ضرب ملوك صوبة، وحارب جميع أعدائه حواليه، موآب وعمون وآدوم وملوك صوبة والفلسطينيين (صموئيل أول، ١٤: ٤٧)، وهذا يعني أن صوبة منطقة جغرافية، وليست مملكة، وأن الملوك المذكورين هنا ليسوا سوى مشايخ قبائل، نظرًا للإشارة إليهم بصيغة الجمع، ولكننا في عصر داود نجد صوبة، فجأة وبعد عدة سنوات، عبارة عن مملكة يحكمها ملك واحد اسمه حدد عزر.»

ثم يضيف: «ولم تتوفر لدينا من منطقة البقاع الشمالي حتى الآن أية لُقًى أثرية، يمكن أن تشير إلى وجود هذه المملكة أو عاصمتها.»

ويستمر مشيرًا إلى ما جاء في الكتاب المقدس في عبارةٍ مبهمة وملتبسة تقول: «فجاء أرام دمشق لنجدة هدد عزر»، ويعقب عليها بالقول: «ويستنتج المؤرخون من هذه الإشارة أن مدينة دمشق كانت في ذلك الوقت تابعة لهدد عزر ملك صوبة»، «وفي المعركة مع أرام صوبه يقول النص: إن «هدد عزر قد أبرز أرام الذي في عبر النهر، فأتوا إلى حيلام وأمامهم سوبك رئيس جيش هدد عزر، ويبني المؤرخون على هذا الخبر أن ملك صوبة كانت له سلطة غير مباشرة على الدويلات الآرامية القائمة عند الفرات.»[٥]

الأمر بهذا الشكل لا يلتقي أبدًا مع مملكة تقع في البقاع الشمالي، إنما يلتقي مع بلاد آدوم التقاءً واضحًا؛ لأن «خلسيس» التي أطلقها المؤرخون اليونان على مملكة صوبا

[٥] السواح، أرام ... سبق ذكره، ص١٢٨، ١٣١.

هي «كلسيس»، التي أطلقها المؤرخون اليونان على مملكة صوبا، تلتقي مع بلاد آدوم التقاءً واضحًا؛ لأن «خلسيس» هي «كلسيس» و«كلسيس» تعني «النحاس». والكلمة صوبة نفسها هي صهوبة هي بريق النحاس، كما أفادنا السواح منذ قليل، وهو ما يستدعي مناجم نحاس تمنة في آدوم. أما صوبة فلا نشك أنها بقايا باهتة من المملكة الآودمية الكبرى، في حالة نزعها الأخير بين المد والجزر، وإن «صوبا» ليست سوى تنويع لهجوي للكلمة «سبأ»، فأرام صوبا هي «أرام سبأ» على التخصيص. وإذا كانت النصوص التوراتية قد أطلقت على الجنس الأسود اسم «كوش»، فإن النصوص المصرية أطلقت عليه ذات الاسم مع اسمٍ آخر هو «نحاسي»، وكان الحد الذي أقامه سنوسرت الثالث لمنع سكان الجنوب المصري السود الكوشيين من عبور الحدود المصرية الجنوبية، قد ذكر كالتالي: «الحد الجنوبي الذي أُقيم في العام الثامن ... لمنع أي «نحاسي» من المرور شمالًا.»[٦] أما الذي يلتقي معنا هنا، وما أكثر ما التقانا، فهو أن نجد لقب «نحاسي» في بردية تورين، لقبًا لأسرةٍ من الأسرات الهكسوسية إبان الاحتلال «النحاسيون».[٧]

ثم لا يغيب عنا معبد روعة الروائع طوال الوقت، فتستوقفنا في تقريره عبارة تؤكد أن رئيس بعثة حتشبسوت إلى بلاد بونت حمل لقبًا أو اسمًا أو صفة هي «نحاسي»؟! ... لقد أرسلت حتشبسوت في رئاسة بعثتها ترجمانًا من ذات الجنس، يعرف لغة البلاد التي ارتحل إليها.

أما البليغ فهو التعقيب الهيروغليفي المكتوب أمام رسوم الصف الأول في لوحات حتشبسوت، وفي الصف الأول في بلاد بونت يقف الملك، ويقول الشرح المكتوب: «عظيم عظماء إرم».[٨]

ثم لا يدهشنا أبدًا قول جيمس العابر، الذي لا يعبر علينا دون تدقيق، وهو يقول: «لما أصبحت مصر تحت حكم الهكسوس لم يبقَ لها قوة في النوبة، وانتهزت بعض القبائل المغيرة الفرصة وتسربت إلى النوبة، وكانت تجمع بين الجنس الحامي والجنس الزنجي ... واستطاعت تلك القبائل أن تكون دولة مستقلة عاصمتها بوهن ... وعقدوا

---

[٦] Wilson, J.E.A, The clature of Ancient Egypt, V.S.A, 1975, pp. 136-137.

[٧] جاردنر، مصر الفراعنة ... سبق ذكره، ص١٧٢.

[٨] عاطف عوض الله، بلاد بونت ومحاولة لتحديد موقعها، مجلة نزوى العمانية، عمان، العدد السادس، أبريل ١٩٩٦م.

حلفًا مع الهكسوس ... ويعزز هذا التقارب رسالة الملك الهسكوسي أبوفيس إلى الملك الكوشي جنوبًا، حيث يبدأ رسالته بلفظة: ولدي.»[٩]

وإذا كانت الكلمة «ن ح س و NEHSU»، تعني الزنوج السود، فإن جذرها «نحس» والنحاس في العربية بفتح النون هو: ضرب من الصفر والآنية شديدة الحمرة، وهو بضم النون دخان أسود لا لهب فيه، ومنها نحش في العبرية، وهي حنش أي ثعبان في العربية! ... لقد جمعت لنا كلمة واحدة في اللغة، حفريات معاني قديمة عن الجنسين الأسود والأحمر من الناس، وثعبان شجر البخور.

والإله المصري القديم «أبيب»، ويُنطق بالتصريف اليوناني «أبو فيس»، تسمى باسمه بعض ملوك الهكسوس القادمين من بلاد التين والبخور، وكان المصريون يرسمون أبيب في صورة حية متلوية، تحمل في كل طية من جسمها مدية ماضية، وتصوروها تكمن لإله الشمس مع شياطينها عند المغيب، وقد وصفت النصوص المصرية تلك الشياطين التابعة للحية بأنها «شياطين سوداء وحمراء».[١٠] وهو إشارة واضحة لسكان آدوم من الجنسين الأسود والأحمر، كذلك نجد كلمة «النوبة» التي أطلقها المصريون على بلاد كوش الجنوبية تحمل عددًا من المعاني، من الجذر «ن ب»، فهو في المصرية القديمة يدل على عددٍ من المعاني: كل ما ارتفع من الأرض وهو صفة بلاد آدوم، كما يعني أيضًا الذهب، واللهب الأحمر، وفي العربية تتبادل اللام والذال المعجمة، التي تنطق في ذهب «دهب» لتصبح لهب.

وفي العربية تلتقي نحاس ونحاسي، والنحس والنحاس أصلًا في المصرية القديمة، هو العبد الأسود «الزنجي/الكوشي»، ثم تطورت لتصبح النخاس الدالة على تاجر العبيد.

وتعود العين لتجول في مدون «تجلات بليزر الأول»، ملك آشور الذي سبق وأوردناه، ويتحدث فيه عن غزوه لإقليم باسم مصري، الذي عرفناه إقليم أدوم وسيناء، لنقرأ المدون مدققين فنجده يقول: إنه قد «دحر هناك القبائل الآرامية.»[١١]

[٩] Vol James. T. S, Egypt from the Expulsion of the Hyksos to Amenophis I, in C.A.H, II Part I.

[١٠] عباس محمود العقاد، إبليس، كتاب الهلال، عدد ١٩٢، القاهرة، ص٥١.

[١١] طه باقر، الوجيز ... سبق ذكره، ص٤٩٢.

ثم نقلب مرة أخرى ما سبق وسجلناه للفرعون «آمنحتب الثاني»، وتدميره لشمس آدوم، وعودته من تلك الحملة بعدد ١٥٠٧٠ من الأسرة النجاسو،[١٢] وقد اعتبرت كلمة النجاسو ذات دلالة غير معلومة لنا الآن، على شعبٍ مجهول، أو طائفة بعينها لا نعلمها، فهل يمكن الآن القول إننا نعلم من هم النجاسو، في ضوء غزوة أخرى لذات الموضع الذي عاش فيه النحاسو؟ ثم يورد لنا طه باقر أهم المنتجات التي وصلت الملك الآشوري (آشور ناصر بال الثاني ٨٨٣–٨٥٩ق.م.)، بعد أن اكتسح البلاد الآرامية والآمورية، حتى وصل «البحر العظيم بحر الأموريين»، وهو إما البحر الأبيض أو البحر الأحمر، وقد عددت سجلات هذا العاهل الآشوري أهم السلع التي وصلته من ذلك المكان كالتالي:

> تضمنت الجزية الذهب والفضة والقصدير والنحاس وأنسجة الكتان ... وقردة صغيرة وكبيرة، والعاج والأخشاب النفيسة مثل الأبنوس والبقس ... إضافة إلى ذلك الحيوانات الوحشية ... والنباتات الغريبة ...[١٣]

ولا تعقيب لدينا هنا سوى سؤال: أليست تلك ذات صادرات بلاد بونت في لوحات حتشبسوت؟ لا يَنِي تقرير بعثة حتشبسوت يضيء المنطقة أمامنا، وتنفك ألغازها مع ترميزاته في خطو بحثنا، فنعرف شعبًا من بين شعبين مجهولين، وشعوب أخرى، كانوا يعيشون في بلاد بونت، أحدهما أحمر والآخر أسود، لنسمع سليم حسن يردد فقرة من تقرير علماء حملة حتشبسوت في نقش يقول:

> السياحة إلى الوطن والوصول بسلام، إن السياحة إلى طيبة قد قام بها بقلب فرح جنود رب الأرضيين، ورؤساء هذه الأرض بونت، وقد أحضروا معهم أشياء لم يحضرها من قبل أي ملك.

ثم يقرأ سليم حسن أسماء الشعوب هناك ليقول لنا تعقيبًا على الرسوم:

> ويلي هذا مشاهدة رئيس أرام ورئيس نميو، وهما قبيلتان غير معروفتين من بلاد بونت.[١٤]

---

[١٢] جاردنر، مصر الفراعنة ... سبق ذكره، ص٢٢٤، ٢٢٧.

[١٣] طه باقر، الوجيز ... سبق ذكره، ص٥٠٢.

[١٤] سليم حسن، مصر القديمة، سبق ذكره، ج٤، ص٣٣١.

لكنا نعتقد أننا قد أصبحنا نعرف القبيلة الحمراء الآدومية التي تعود إلى أصولٍ آرامية، وكانت تعرف باسمها «أرام» منذ زمن قديم؛ بدليل وروده في سجلات رحلة حتشبسوت إلى بلاد بونت الآدومية الآرامية. كذلك أصبحنا نعرف شعب «نميو»، فالواو جمع ومفردها «ن. م. ى»، وهي بالقلب ي. م. ن، فشعب «نميو» هو القادم إلى بلاد آدوم/بونت من جنوبي الجزيرة، نميو/اليمن.

ولمزيدٍ من التأكد حول كون مملكة سبأ في آدوم هي المملكة، التي جاءت إليها إشارات التوراة باسم مملكة صوبة، نتابع المؤرخين وهم يحصون الدويلات الآرامية، التي تأسست على أطراف كنعان/فلسطين في القول: «إن الدويلات الآرامية التي تأسست على أطراف كنعان ... هي موآب والعمونيين وآدوم وملوك صوبة.»[15] وتأتي صوبة هنا ملحقة بآدوم على التجاور مع موآب وعمون، الواقعتين شرقي البحر الميت ونهر الأردن، ونعلم من مصدرٍ آخر أن تلك الإمارات الآرامية الجنوبية، قد تحالفت مع إمارات شمالية مثل مملكتَي صور وصيدا، لمواجهة هجوم آشوري محتمل، وضد عميل الآشوريين في المنطقة، وهو ملك دويلة يهوذا، وأن هذا التحالف قد ضم «سمس ملكة العرب ... وآدوم انضمت للتحالف، وبقيت يهوذا وحدها غير راغبة في الانضمام.» المهم هنا ألا تفوتنا الإشارة إلى «سمس» ملكة العرب، لنربطها بأصول العرب جميعًا التي تعود إلى النابتيين أو الأنباط، سكان وادي عربة الذي غطى باسمه مساحات شاسعة للجنس، الذي حمل بعد ذلك اسم العرب.[16]

ويسوق «فهمي خشمي» رأيًا للأستاذ «عبد الحق فاضل»، ويصفه بأنه «رأيٌ لطيف» حول كلمة عربي وكلمة أرمي، وأنهما كلمة واحدة سواء في الدلالة التي تشير إلى بلادٍ صخرية، وفي اللفظ حيث يمكن تبادل العين في «عربي» والهمزة في «أرمي»، كذلك الباء والميم من جهة أخرى، وهو ما يعني أن كلمة «عربي» كانت في فجرها تنطق «أرمي»، وباختصار فالعربي هو الأرمي، ويضرب لذلك مثالًا بتبادل الباء والميم في كلمة «مكة»، التي أوردها القرآن بلفظها هذا، ثم أوردها أيضًا «بكة».[17]

---

[15] بولس، الآراميون ... سبق ذكره، ص١٠.

[16] نفسه، ص١٤٠.

[17] فهمي خشيم، آلهة ... سبق ذكره، ج١، ص٥٤.

ثم يحدثنا «مراد كامل» و«محمد البكري» عن أول ظهور عربي صريح لمملكةٍ عربية في تدمر، التي تقع إلى الشمال الشرقي من بلاد آدوم، ونعتبرها من جانبنا الامتداد الطبيعي للمملكة التجارية الآدومية، فيقول:

> ظهرت تدمر بهذا الاسم في بداية الألف الثاني ق.م. وكان أهلها في البداية من الكنعانيين، ثم سكنها جماعة من البدو من أشراف الأراميين، ... تمر بها طرق التجارة ... وقد قضى أورليان على استقلالها عام ٢٧٣م في عهد زنوبية زوجة أذينة ... خلف التدمريون العديد من الآثار منها معبد بعل، ووُجِدت في هذا المعبد أشكال لنساءٍ محجبات ... وكانت اللغة المستخدمة في تدمر هي الآرامية، أما القرارات العامة فدونت باليونانية والآرامية ... أما عن مملكة النبط فقد شملت الرقعة التي شغلتها بعض الممالك، التي ظهرت قديمًا منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وهي آدوم وموآب وعمون وجلعاد، وكانت هذه كلها كنعانية وآرامية، وأول ظهور الأنباط كان في القرن السادس ق.م. كقبائل بدوية عربية، وكان ملوكهم بني الحارث، وأكثر أسماء الأعلام الواردة في نقوشهم عربية، مثل حارثة ومالك ومليكة وجذيمة وكليب ووائل ومغير وقصي وعدي وعميرة ويعمر وكعب ومغن وسعد ومسعود ووهب الله وتيم الله.»[١٨] ونستكمل من مصدرٍ آخر يقول: «واتخذوا البتراء عاصمة لهم ... وتدخلت روما في شئون هذه الدولة حتى قضى عليها عام ١٠٦م القائد الروماني كورلينوس بالما نائب تراجان في سوريا ... واستخدم الأنباط اللغة الآرامية، وفي منتصف القرن الأول ق.م. أصبح للأنباط خط مميز ذو شكل معروف، حتى إن الأحرف العربية أخذت من الحروف النبطية، ومن الآلهة التي عبدها الأنباط ذو الشرى واللات ومناة والعزى وهبل واتراجاتيس وعبادة الأفعى.[١٩]

ويتابع العبقري الفذ اللمعة «علي فهمي خشيم» دراسته المتميزة في المقارنة اللغوية بين الهيروغليفية والعربية، لتصلنا منه الكلمة المصرية القديمة «إ أب IAB» وتعني

---

[١٨] مراد كامل ومحمد البكري، تاريخ الأدب السرياني، القاهرة، ١٩٤٩م، ص٨.

[١٩] بولس، الآراميون ... سبق ذكره، ص١٩.

الشرق، كما تعني اليسار؛ لأن المصري كان يوجه وجهه عند تحديد الاتجاهات الأصلية إلى منبع النيل مصدر الحياة (الجنوب)، ومن ثم فإلى اليسار يكون الشرق وإلى اليمين يكون الغرب، ويرى أن الهمزة الأولى من إأب مبدلة من العين، وذلك مثل «ك أب = كعب، إن ق = عنق، ج م أ = جمع»، وهو ما أحاطنا به إمبير EMPER، ثم إن العربية أيضًا تبدل العين همزة كما في أربان وعربان «اللسان مادة أرب». أما الهمزة الثانية فهي مبدلة من الراء، فالأستاذ إمبير يقدم لنا معجمًا لمفرداتٍ طويلة أبدلت فيها الهمزة المصرية براءٍ عربية، وذلك مثل: ب أ ك = برك، ش أ ع = شرع، ح أ م = حرم، وأ ح = ورخ (القمر)، ع أ ب = عرب، ومن ثم فإن إ = ع، أ = ر ومعنا باء أصيلة، وهو ما يعني أن إ أب IAB= عرب، وهي كلمة تفيد الشرق.[٢٠] وهذا يعني من وجهة نظرنا الإشارة إلى وادي عربة تحديدًا الذي يقع شرقي مصر، أما التوراة فاعتادت إطلاق تسمية «بني المشرق» على العرب.

وهنا ننبه بوضوح أن كلمة عرب، التي كانت تعني عند المصري القديم الشرق، لا تؤدي المعنى الذي نفهمه منها اليوم عن الجنس والقومية؛ لأن الحس القومي لم يبرز عند قبائل الجزيرة إلا عشية ظهور الإسلام، أما قبل ذلك فكان فيما يؤكده لنا «جواد علي» هو: البداوة والقفر والجفاف، ويستمر قائلًا: «بمعنى البداوة والأعرابية إذن وردت لفظة العرب في اللغة العبرية ولغات سامية أخرى، مثلما هو الحال في سفر إشعيا وسفر إرميا من العهد القديم، وقد وجد الباحثون أول نص ذكر فيه العرب، هو نص آشوري من أيام شلمنا صر الثالث أو الثاني ملك آشور، والمقصود باللفظة إمارة أو مشيخة يتزعمها رجل بلقب ملك اسمه «جنديبو .../جندب ...». واختلف العلماء في قراءة الاسم الثاني لهذا الملك، وكان واضحًا أنه لقب له هذا ما بين ARIBI, ARBI, URBI, ARABU, ARIBU التي تعني بوضوح الكلمة «العربي».

وقد وردت في الكتابات البابلية كلمة ماتوأربي MATU-A-RABI أي أرض العرب، وفي نقش برستون لدار الأكبر بالإخمينية جاءت لفظة أربايا «عربية ARABAYA»، كذلك جاءت في العيلامية، وفي المواقع الأرامة كان هناك موضع باسم بيت عرباية BETH ARABAYA، وأول مرة ورد فيها ذكر العرب لدى الكتاب اليونانيين كانت عند إسخليوس ٥٢٥–٤٥٦ق.م. ثم هيرودوت ٤٨٤–٤٢٥ق.م.

[٢٠] فهمي خشمي، آلهة ... سبق ذكره، ج١، ص٦٦، ٦٧.

وكان معنى البداوة هو المقصود عند الحديث عن العرب ... ويذكر استرابون أن كلمة أرمبي EREMBI تعني عربًا عند البعض، ولعلها تحريف لكلمة ARABI.[٢١]

أما نحن فنتساءل: هل كانت كلمة أرمبي تحريفًا لكلمة عربي، أم أنها كانت حفرية لغوية تعيش حتى زمن استرابون منذ كان العربي أرمي أو أرامي؟ لكن ما لا يفوت فطن أنه إلى الشرق من بلاد آدوم، قامت بعد تلك الأحداث إمارة عربية استمدت اسمها من التاريخ القديم هي مملكة «الحيرة» الحورية، وفي موسوعة تاريخ العالم نجد محاولة لحصر الممالك الآرامية في أعالي الرافدين، فتذكر لنا: بيت معكة وبيت أدين أو أديني (أي بيت عدن [المؤلف])، وجوزان (تل حلف الآن) وجرجوم (مرعش حاليًّا)، وسامعل التي كانت تحمل قبل ذلك اسمًا هو: ياودي، ثم أعيد تسميتها باسم سمعل أو بيت جباري نسبة لمنشئها، وتقول الموسوعة إن مكانها الحالي هو سنجرلي، وكان من ملوكها حيان بن جبار وشاءول أو ساولم، ونلاحظ أن مواضع تلك الممالك جميعًا تقع في محيط المنطقة المزعومة، كمكانٍ موضعوا فيه بلاد ميتاني الحورية المركزية.

الملاحظة الأولى أن اسم حيان بن جبار الذي ملك على مملكة سامعل أو ياودي، يحيل إحالة قوية إلى أشهر ملوك إمبراطورية الهكسوس الذي عرفناه باسم «خيان».

الأمر الثاني والهام والغريب، أن الكتاب المقدس رغم زيادته وتكراره وتعديده للدويلات الآرامية، بحيث ذكر دولًا لم يتم الكشف عنها إلى الآن، فإنه لم يعرف مدنًا آرامية كشفت عنها الآثار. نعم ذكر بعض المدن التي كشفت عنها الآثار مثل بيت أديني أو بيت عدن كما في قوله: «وأقطع الساكن في بقعة آون وماسك القضيب من بيت عدن وينفي شعب أرام إلى قير» (عاموس، ١: ٤، ٥)، لكنه لم يذكر مدينة شديدة الأهمية، جاء ذكرها في المصادر الرافدية باسم «سمعل»، وهي ذاتها التي ذُكرت على التبادل مع اسمٍ آخر هو «ياودي»، وأن من ملوكها كان «شاءول» الذي يرد على التبادل مع «ساولم»؛ فهل حقًّا لم تعرف التوراة مملكة سامعل أو ياودي وملكها شاءول أو ساولم؟

إن ما يبدو لنا أن مملكة سامعل هذه قد قصد بها جماعة بشرية بعينها، لكن هذه الجماعة لم تعش أبدًا في شمالي الرافدين عند سنجرلي، إنما جنوبًا في دولةٍ أرام صوبا أو أرام سبأ الآدومية، وأنها كانت تمتد لتتصل بمملكةٍ أخرى تقع إلى الشمال

---

[٢١] جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد، د.ت، ج١، ص١٦–٢٥.

منها، جاء اسمها ياودي مشيرًا بوضوحٍ إلى اسم اليهودية أي مملكة يهوذا، خاصة أن تلك المملكة قد جاء ذكرها مصحوبًا باسم شاءُول وساولم، وهما في رأينا اسمان يستقل كل منهما عن الآخر؛ فالأول هو شاول أول ملك لمملكة إسرائيل الموحدة، أما الثاني فهو أشهر ملوك تلك المملكة ساولم/سليمان. وإن الخلط الذي حدث بين اليهودية وسامعل، أو الإسرائيليين والإسماعيليين له تبريره التاريخي فيما أسلفنا، وفيما سيأتي ناصعًا في حينه وفي موضعه من هذا البحث.

وتشير المادة التاريخية المكتشفة في المدونات الرافدية إلى إقليمٍ وُصف بأنه آرامي، وأنه كان يحمل اسم لاق، وأنه كان تابعًا لمملكة بيت عدن،[٢٢] وهو ما يستدعي اسم العمالقة واحتمالاً آخر للتسمية، فبإضافة «عم» بمعنى شعب أو أبناء إلى «لاق» تصبح «عملاق».

هكذا يمكن استنتاج أن الآراميين هم الشعب الذي حمل صفة الجنس الأحمر في بلاد آدوم، بكافة بطونه المذكورة آنفًا، فكان هو الأم الجامعة، وهو الشعب الذي ظهر في نقوش رحلة حتشبسوت إلى بلاد بونت، إلى جوار جنس آخر يختلف عنه تمامًا، جنسًا زنجيًّا نحاسيًّا، وموطنه معلوم بالمستودع الأفريقي على الساحل الأفريقي المقابل لليمن، والذي وصل آدوم بصحبة القادمين من جنوب الجزيرة إلى الشمال، في شكل مستعمرات تجارية استقرت شمال غربي جزيرة العرب.

وكان طبيعيًّا أن تتزاوج الثقافات كما تزاوجت الأجناس، فتظهر اللغة الحورية التي ظلت مشكلة ولغزًا بلا حل، في أصلها، وأصحابها، وأنها لغة تحمل سمات مشتركة بين السامية والهندوآرية والحامية، وهي الإشكاليات التي انسحبت على جنس الهكسوس، وانقسام علم التاريخ حوله إلى رأيين يرفض كل منهما التنازل الآخر. الأول يقول إن أصلهم سامي من جزيرة العرب، والثاني يرى أن أصلهم هندوآري بلا جدال، وكل لديه حججه وبراهينه. أما المشكل حقًّا الذي ظل مستعصيًا على الفهم ناهيك عن الحل، فهو إشارات الكتاب المقدس إلى وجود الجنس الزنجي الكوشي بكثافة ضخمة في مناطق جنوبي إسرائيل بالنقب وسيناء وآدوم. كذلك أشارت إليه الكتابات التاريخية الإغريقية الكلاسيكية باعتباره من سكان شرقي المتوسط، وقالت إن Kissians يسكنون شرقي

[٢٢] بولس، الآراميون ... سبق ذكره، ص١٦.

المتوسط، وتعني الكوشيين، ثم جاء بطلميوس المؤرخ ليؤكد من جانبه أن Kossaeans كانوا يتموضعون في تلك المنطقة، وتم إهمال تلك الإشارات لاستحالتها التاريخية. لقد كان وجود الأفارقة بكثافة كجنس يسكن مواضع ما شرقي المتوسط مشكلة إما مهملة أو لغزًا يطلب حلًّا.

ومثال للحلول المتسرعة والسهلة ذلك الحل الذي اعتمد على أن الكتابات التاريخية والدينية، التي كانت تتحدث عن منطقة شرقي سيناء وجنوب فلسطين، كانت تبدأ الحديث عن العمالقة لتنتهي إلى الكوشيين، فاعتبرت العمالقة هم الكوشيين، لكن ذلك الربط السريع وقف حائرًا ما بين الأصل السامي والأصل الهندوآري، بذلك رأت تلك الحلول العَجْلى أن هناك عمالقة كاسيين أو كاشيين جاءوا من الشمال الأسيوي، من عند أعالي الرافدين، وأن هناك عمالقة كوشيين زنوجًا جنوبيين، ذاك هندوآري وهذا سامي، وذلك كما في قول «غطاس الخشبة»: «والأصل في الجبابرة: العمالقة من الناس ... طائفتان: العمالقة الكوشيون وكانوا يقطنون أعالي دجلة والفرات بين النهرين، وهم من نسل نمرود ابن كوش بن حام بن نوح، وهؤلاء كان البابليون القدماء يسمونهم ماليق، ثم تفرقوا في أنحاء العراق وجزيرة العرب، ثم العمالقة السوريون من نسل عوص بن أرام بن سام بن نوح، وهؤلاء هم الأخص عند العرب باسم العماليق، وكانوا يقطنون أرض قادش جنوب فلسطين.»[٢٣]

وفي هيرودوت خبر يذكر حادثة إرسال قمبيز الفارسي رسلًا إلى أثيوبيا، وعودة هؤلاء الرسل بالوصف التالي للشعب الأثيوبي:

> إن الأثيوبيين الذين ذهب إليهم أولئك السفراء، أطول الناس في العالم كله وأكثرهم أناقة، كما أنهم يختلفون عن سائر البشر في عاداتهم خصوصًا الطريقة التي يختارون بها ملوكهم، فهم يبحثون عن أطول رجل بين جميع المواطنين، على شرط أن تتناسب قوته مع طوله، ثم يعينونه ملكًا يحكم عليهم.»[٢٤] والغريب أن ذلك المبدأ ذاته هو ما عملت به مملكة إسرائيل الموحدة من بعد، انظر مثلًا تولية أول ملك إسرائيل باسم «شاول»، وسر اختياره ملكًا

---

[٢٣] غطاس الخشبة، رحلة ... سبق ذكره، ص١٣٥.

[٢٤] إيفانز، هيرودوت ... سبق ذكره، ص١٢٠، ١٢١.

«شاول شاب وحسن، ولم يكن في بني إسرائيل أحسن منه، من كتفه فما فوق كان أطول من كل الشعب».

(صموئيل أول، ٩: ٢)

أما أن نجد في الآثار الهكسوسية مفردات لغوية حامية، ومفردات من أصول هندوآرية، ومفردات سامية، ثم أسماء أعلام من تلك اللغات المتباعدة، فكان بدوره مشكلة مؤرقة مستمرة غير محلولة؛ لذلك رأى فريق أن الهكسوس جاءوا من براري آسيا استنادًا إلى الهندوآرية، وأن محطتهم الأولى كانت حول محيط بحر قزوين، ومن هناك انحدروا جنوبًا على الشرق الأوسط، أما الفريق الآخر فيراهم عربًا أقحاحًا قدموا من هجرة كبرى من جزيرة العرب، حتى أصبح الساميون أنفسهم كعرق وكلغة محل تضارب شديد، فتأتي بهم جلة محترمة من المؤرخين، من المستودع الصحراوي الكبير في جزيرة العرب، بينما تأتي بهم جماعة أخرى من المؤرخين، لا تقل احترامًا من بلاد أرمينيا حول بحر قزوين.

وإعمالًا لذلك نجد لدينا مذهبًا يرى شبه جزيرة العرب مهدًا أولًا لكل الشعوب السامية، ويمثله شبرنجر Sprenger وشرادر Schrader،[٢٥] والعلامة كيتاني Coetani الذي يرى أن كل حضارات الهلال الخصيب من العراق إلى الشام الكبير إلى ساحل المتوسط الشرقي حضارات سامية، حدثت نتيجة نزوح الفائض من بدو جزيرة العرب إلى الشام، ويؤيد كيتاني في مذهبه العلامة موسكاتي. وبعض أصحاب هذا المذهب يفترض أن جزيرة العرب كانت في زمنٍ موغل في القدم أكثر خصوبة ثم أصابها الجفاف، مما أدى إلى هجرة سكانها إلى وديان الأنهار والسهول الشمالية في الشام والعراق، إلا أن موسكاتي نفسه يرفض مثل تلك التعقيدات التي ليس عليها شواهد علمية، بل إن تلك الشواهد تؤكد أنه إذا كانت مثل هذه التغيرات الطبيعية الكبرى قد حدثت، فكانت قبل فجر التاريخ بقرونٍ طويلة، وربما تعود إلى أبعد من عشرين ألف عام قبل الميلاد.

[٢٥] تيودور نولدكه، اللغات السامية، ترجمة د. رمضان عبد التواب، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٣م، ص٢٣، ٢٢.

وتأسيسًا عليه فإن مثل تلك الافتراضات خاطئة تمامًا، بمقاييس الأنثروبولوجيا الطبيعية والجغرافيا الجنسية.[٢٦]

وعلى الخط الآخر النقيض تمامًا نجد اتجاهًا آخر، يأتي بالجنس السامي من أرمينيا بالاستناد إلى ترميزات الكتاب المقدس، الذي يعيد الأصول البشرية السامية إلى أرفكشاد Arpachsad(تكوين، ١٠: ٢٢–٢٤)، وهو اللقب التاريخي لبلدة Arrapachitis المسماة اليوم البك Albak بأرمينيا الحالية، مع ترميزاتٍ أخرى تشير بالكتاب المقدس إلى بداية الأصول البشرية من نوح، والترميزة هنا تقول إن السفينة النوحية قد رست على جبلٍ باسم أرارات، وما زال هذا الجبل بنفس الاسم يقع بأرمينيا عند بحيرة فان بالمحيط الجنوبي لبحر قزوين ... وهو ما يعني مجيء السامي والهندوآري من موطنٍ واحد، هو بلاد أرمينيا القديمة.[٢٧]

وقد انسحب ذلك التناقض حول الأصول على الشعب الآرامي، فرغم الأصل الاسمي الواضح للآراميين، حيث أرم = أرب التي تحيل إلى «أرب – خيتيس» أو أرابخيتيس في أرمينيا، وحيث عثر هناك على كتاباتٍ باللغة الآرامية القديمة، وحيث لم تزل توجد جماعات هناك تتكلم الآرامية القديمة حتى اليوم، ناهيك عن اسم أرمينيا نفسه كشاهد على موطن الآراميين، فإننا نجد عالمًا حجة مثل كريلنج يلتبس عليه الاختلاط الجنسي الناتج حسب نظريتنا عن التقاء شعوب آدوم في أحلاف أو أخلامو، وما نتج عنه من اختلاط ثقافات ولغات، فيؤكد سامية الشعب الآرامي حتى إنه يعيدهم إلى بلاد نجد بجزيرة العرب، ويأخذ من المدونات التاريخية اسمهم القبلي الذي اشتهروا به وهو سوتي، وهو ما رأيناه ليس دلالة مكانية جغرافية، إنما نسبة للإله «سيت» المصري.[٢٨] أما «دي بنسومير Du Pont-Sommer» فيرى أنه ليس هناك أي دليل وثائقي حقيقي، يقطع بموطن الآراميين الأصلي.[٢٩]

والمعلوم أن منطقة فلسطين ومحيطها عمومًا ومنطقة آدوم بشكلٍ خاص وبلاد الشام بشكلٍ أعم، قد تعايشت فيها أجناس عديدة ولغات مختلفة، لم تنصهر معًا إلا

---

[٢٦] لويس عوض، مقدمة ... سبق ذكره، ص٢٤.

[٢٧] نولدكه، اللغات السامية ... سبق ذكره، ص٢٢، ٢٣.

[٢٨] Kraeling. E. G, Arma and Israel, New York, 1918, p 15–20.

[٢٩] دي بنسومير في Les Armeen s, Paris, 1949, p. 15.

بعد مرور وقت كافٍ، وانتهينا إلى القول بسيادة اللغة الكارية بسيادة الآرامية المتطورة، وهو الأمر الذي كثيرًا ما حدث في التاريخ، وقد نبه لويس عوض إلى مثل ذلك بقوله: «إنه في الشعوب المستقرة تتعايش اللغات داخل القومية الواحدة، وتتعايش الأجناس والسلالات داخل القومية الواحدة، بل وتتعايش الأديان داخل القومية الواحدة.»[٣٠]

والقومية الواحدة في حال نضوجها تصاحبها دولة مركزية واحدة، وهو بالضبط ما نظنه قد حدث في آدوم ومدينتها الرائدة (الصخرة)، وأنها لم تكن فقط مجرد دولة مركزية، بل كانت مركزًا رئيسيًّا لإمبراطورية عظمى، امتدت من المحيط الهندي جنوبًا حتى تركيا شمالًا، ومن العراق شرقًا حتى حدود مصر الليبية غربًا، وشملت ضمن ما شملت جزر البحر المتوسط، وهي الإمبراطورية التي أطلق المصريون على زعمائها اسم الهكسوس، وكما يفسر لنا كيف خضعت مصر لسيادتهم، فهم لم يكووا شراذم بدوية كما يصورهم علم التاريخ، بقدر ما كانوا قوة لها مركزها التأسيسي الجغرافي، لقد كانوا إمبراطورية تجارية كبرى، تليق باحتلال بلد عظيم كمصر.

ووفق هذا الطرح يمكن تفسير السر في التضارب الهائل في إثنيات سكان فلسطين وآدوم وسيناء وتعدد أعراقهم ولغاتهم، ذلك التضارب الذي نعلمه من وثائق علم التاريخ ومن الكتاب المقدس معًا، وهو التضارب الذي لحق بمحاولة البحث عن الأصول الآرامية، فالآراميين عند البعض قادمون من الشمال الأرميني، وعند البعض الآخر أنهم جاءوا من جزيرة العرب، لكن ما نعلمه الآن بعدما قدمنا وأعدنا وزدنا، أن المنطقة قد حوت عددًا من الأجناس، أبرزه الأسود الزنجي القادم عبر مضيق باب المندب والبحر الأحمر، بادئًا بالتواصل مع سكان جنوب الجزيرة «سبأ»، ثم ممتدًّا معهم حتى معان المصرية، ليلتقي في وادي عربة بالآري القادم من الشمال الآرامي ممثلًا في الآراميين الهندوآريين، لتقوى المملكة التجارية ويستفحل شأنها في حلف الأخلامو، وتنضم إليها ممالك المنطقة تكسبًا، أو تخضع لها بالقوة، ليصلوا أوج قوتهم في جيوشٍ هائلة في أحلاف تكتسح المنطقة وتقيم فيها إمبراطورية كبرى، حتى وصل الائتلاف حدًّا تعلم معه أنه قد تم تنصيب أحد مشايخ أو ملوك تلك الأحلاف، حاكمًا على بلاد بابل يُعرف باسم «نمرود»، وأن نمرود هذا كان كوشيًّا زنجيًّا أسود.[٣١]

---

[٣٠] لويس عوض، مقدمة ... سبق ذكره، ص١٢٩، ١٣٠.

[٣١] انظر مادة نمرود بقاموس الكتاب المقدس.

لقد بدأت آدوم مركزًا لتجمع شراذم من الشمال ومن الجنوب طلبًا للرزق التجاري، عبر تواصل المركز مع محطات الأطراف، في المساحة الشاسعة الواقعة ما بين أرارات شمالًا واليمن جنوبًا، لتتوحد في النهاية في بلاد آدوم، وتشكل تيارًا جارفًا، يضم تحت جناحيه المنطقة جميعًا في الإمبراطورية التي أسمى المصريون أصحابها بالهكسوس.

وإن ترتيبنا للأحداث على هذا النحو يفسر لنا سر الاعتقاد الطريف، لكنه الراسخ لدى الأحباش الزنوج اليوم، فهم يعتقدون جازمين، وهو اعتقاد يدخل في عداد الإيمان الديني، أنهم أبناء لرجلٍ أبيض هو منليك، ومنليك هو ابن الملك الإسرائيلي سليمان، نتيجة علاقة جسدية له مع ملكة سبأ، وقد كانت تلك القصة تدخل في عداد الأساطير، لعدم إمكان هذا التواصل أصلًا، حيث كان معتقدًا أن سبأ قامت فقط في الجنوب اليمني، ثم تم رفض تحقيق القصة تمامًا؛ لأنه ما العلاقة بين فلسطين والإسرائيليين وبين الجنس الحبشي الأسود؟ لكن في ضوء ما قدمنا تصبح القصة مفهومة، فلا يفرق الأحباش بين أصولهم البعيدة وبين سبأ في الجوار عبر المندب. كانا حلفًا متوحدًا قطن شمالًا عند العقبة بجوار مملكة سليمان، وهناك كان بالإمكان حدوث لقاء أو تحالف تاريخي، تم الترميز له بعلاقة سليمان بالملكة «سبأ». وتقول القصة الحبشية أن منليك هذا، قد أصبح السلف البعيد لسلسلةٍ من الأباطرة الأكابر، حكموا إمبراطورية كبرى، ثم تضاءل ملكهم مع الأيام حتى اقتصر على بلاد الحبشة، وأنه من هذا النسل العظيم كان الإمبراطور هيلاسلاسي آخر أباطرة الحبشة، الذي لقب نفسه بلقب ينسبه إلى جنسه الأبيض البعيد، فحمل لقب «أسد يهوذا». لقد حملت القصة في ترميزها أصولًا كشفنا عنها في تزاوج النحسي الكوشي والقحطاني أو اليقطاني اليمني الجنوب جزيري مع الشعب الهندوآري القادم من أرمينيا، وتقيم الشعوب الثلاث مع التهجين المصري الحامي في بلاد صخرة الشرق الإمبراطوري في آدوم، ليترك اجتماعها بصمته في التوراة، وهي تؤكد أن أجناس البشر الأوائل كانوا ثلاثًا: «حام وسام ويافث»، وأنهم كانوا يجتمعون في مكانٍ واحد تفرقوا منه بعد ذلك على سطح البسيطة.

ومن جانبها كانت التوراة تؤكد طوال الوقت على الأصل الآرامي للقبيلة الإبراهيمية، ممثلة في آبائها الأوائل الأباعد، وتردد: «آراميًّا تائهًا كان أبي»، لكنها وضعت في مصهر التاريخ الجنسين العربي والعبري، فأعادت كليهما إلى أبٍ واحد هو عابر، حتى حملت الأسماء ذلك التلازم على الوجهين بالتبادل الميتانيزي؛ لأن عبري بالقلب هي عربي، وبذلك وضعتهما في بوتقةٍ واحدة، كان سببه ومكانه الدولة المركزية الكبرى في بلاد آدوم، الملتقى التجاري والجغرافي للجهات الأصلية الأربع.

ثم تأتي الكشوف الأركيولوجية لتؤكد صلة الشعب الإسرائيلي الإبراهيمي العبري بالقبائل الآرامية، في النصوص التي اكتُشفت في مدينة ماري الآرامية القديمة، فيقول لنا كاسيدوفسكي: «إن أسماء المدن المذكورة في النصوص تلك: ناحور، تارحي، ساروج، تاليكي، تتشابه مع أسماء أقارب إبراهيم، زد على ذلك أن هذه النصوص تتحدث عن قبائل أبام رام، ويعقوب إربل، وعن قبيلة تدعى بنيامين ... ومما لا ريب فيه أن إبراهيم نفسه وحفيده يعقوب وأصغر أبناء هذا الأخير بنيامين، لهم علاقة مباشرة بأسماء هذه القبائل.»[٣٢]

وفي زمن أحدث، حدثت هجرات يهوذية إلى مصر، إبان الحروب التي خاضتها دولة يهوذا مع جيرانها، وأقام المهاجرون لأنفسهم جيتو خاصًّا في ألفنتين عند أسوان بجنوبي مصر، وهنا يعقب باحث مهتم على الوثائق التي تركتها الجالية اليهودية في جنوبي مصر بقوله:

> من العسير معرفة الآرامي من اليهوذي، فبعض الأشخاص اعتبروا أنفسهم تارة آراميين وتارة أخرى يهوذيين، وخاصة في البرديات المدونة في عصرٍ مبكر، ومن هؤلاء محيسة بن يدينة، فقد ذكر في بعض البرديات أنه آرامي من أسوان، وفي برديات أخرى أنه يهوذي من ألفنتين (ألفنتين جزيرة بأسوان [المؤلف])، كذلك مسلم بن زكور، ذكر في بعض البرديات أنه آرامي من أسوان، وفي برديات أخرى أنه يهوذي من ألفنتين، وأيضًا عنتي بن حجي بن مسلم، ذكر في إحدى الوثائق أنه آرامي من ألفنتين، وفي وثيقةٍ أخرى أنه يهوذي.[٣٣]

وهنا نستعيد أبيات المتنبي عن «شعب بوان» مرة أخرى وهي تقول:

يقول بشعب بوَّان حصاني   أعن هذا يُسار إلى الطعان
أبوكم آدم سن المعاصي   وعلمكم مفارقة الجنان

وقد قيل في تفسير تلك الأبيات، أنه كان يصف موضعًا في بلاد فارس، باسم «شعب بوان»، ونحن نعلم أن بلاد بوان أو بونت/آدوم، قد جمعت في دولتها الهندوآري فارسي

[٣٢] زينون كاسيدوفسكي، الأسطورة والواقع ... سبق ذكره، ص٥٥، ٥٧.

[٣٣] بولس، الآراميون ... سبق ذكره، ص٣.

الأصل مع الكوشي الزنجي المنبت مع الجنوب جزيري. ثم لنتذكر المناسبة الخاصة التي قال فيها المتنبي شعره هذا؛ فقد غضب من سيف الدولة الحمداني عندما أهمل قدره، فتركه مغاضبًا، وذهب إلى مصر يمتدح حاكمها آنذاك كافور الإخشيدي، لكنه لقي هناك ما هو أسوأ، فخرج من مصر عائدًا إلى الشام مصالحًا سيف الدولة ومغاضبًا لكافور، وألقى بين يدي سيف الدولة تلك القصيدة التي يذكر فيها موضعًا مر عليه في رحلته من مصر إلى الشام، موضعًا تلتقي فيه بقايا ألسن قديمة متعددة مختلفة، وبقايا أجناس متباعدة، تعبر عنها أبيات أخرى بالقصيدة تقول:

مغاني الشعب طيبًا في المغاني   بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربي فيها   غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنة لو سار فيها   سليمان لسار بترجمان
وألقى الشرق منها في ثيابي   دنانيرًا تفر من البنان

وقصد بالدنانير التي تفر من البنان، ضوء الشمس المتسلل داخل أيك شعب بوان، ليطبع على ثيابه ما يشبه الدنانير، لكنها تفر من اليد، وهو ما دفع سيف الدولة ليقول له مع عطائه إعجابًا بشعره: «والله لأقرنها في يدك؛ يقصد الدنانير.»[٣٤]

إن ما يمكن فهمه من هذا أن شعب بوان حتى زمن المتنبي كان جنة، كان لم يزل أيكًا وغيضًا، وكان يحمل اسمه القديم بوان أو بونت، وكان ما زال يجمع بقايا الأخلامو الذين لو سار فيهم سليمان، على قدرته الأسطورية في فهم اللغات، ومحادثة كل الكائنات، لاحتاج هناك إلى ترجمان، هذا إذا لم نكن قد أخطأنا في تحديد موقع شعب «بوان». وعلى أية حال فهو قرينة واحدة، ضمن مئات من القرائن التي قدمناها، فإن فرَّت من بين أيدينا فرار الدنانير، فلا أسف عليها ولا تثريب علينا.

(انظر مقر الجالية اليهودية الآرامية في أسوان بمصر الشكل رقم «١٢٥».)

[٣٤] ديوان المتنبي، تحقيق عبد الوهاب عزام، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٥م، ص٥٥٧، ٥٥٨.

شكل رقم «١٢٥»: في الجوار من هذا المعبد (معبد إيزيس) بجزيرة فيلة (الفنتين بأسوان) عاشت الجالية اليهودية الآرامية.

الباب الثالث

من الألغاز إلى الحلول

الفصل الأول

العامو أو العموريون: اسم الأحلاف الجامع

في حديثٍ ملتبس يقول لنا المؤرخون: «لقد بينت الدراسات اللغوية للنصوص المسمارية التي اكتُشفت في أرشيف ملك ماري، أن منشأ اليهود قريب من الأموريين، ففي الزمن الغابر اندفعت من منطقة الخليج العربي باتجاه الشمال موجة عارمة من القبائل الأمورية المهاجرة؛ حيث طردت السومريين وشغَلَتْ منطقة ما بين النهرين كلها تقريبًا. ولقد أقام الأموريون على أطلال الدولة الصغيرة التي أخضعوها دُولَهم البعيدة التي ما لبثت أن توحدت كلها في دولةٍ كبرى واحدة، كان حمورابي أعظم ملوكها، وفي زمنٍ متأخر غزت بلاد الرافدين في الشمال قبائل غير سامية الأصل. واضطرت القبائل المطرودة أمامها أن تنزع إلى الجنوب الغربي (أي باتجاه فلسطين وآدوم [المؤلف]) وأثناء هذه الهجرة الجديدة استوطن الآراميون سورية، وسكن الموآبيون والعمونيون والآدوميون في جنوب وشرق أرض غزة، وبعد فترة جاءت إلى هنا قبيلة الإبراهيميين.[1]

ثم نجد تقاربًا في زمن ظهور الكنعاني والأموري وتُنطق أيضًا عموري، في القول التاريخي «إن الكنعانيين والأموريين الذين ينتسبون إلى ربهم أمورو قد هاجروا من شبه جزيرة العرب إلى الشام عام ٢٥٠٠ق.م. واستقر الكنعانيون في الساحل، بينما استقر الأموريون في الداخل.»[2]

---

[1] زينون كاسيدوفسكي، الأسطورة ... سبق ذكره، ص٥٧.

[2] يوسف سامي، تاريخ فلسطين ... سبق ذكره، ص٢٥.

ولما كانت الدراسات اللغوية تفيدنا بأن الرافدي وبخاصة الآشوري، كان ينطق حرف «ع» أقرب إلى الهندوآرية «أ»، فإن الإله «أمورو» هو في السامية الغربية «عمورو» أو «حمورو»، أي الحمار، والأحمر. وإليه كإلهٍ انتسب الملك البابلي باسمه «حمورو – أبي» أي «الحمار أبي» أو «الأحمر أبي»، فلا فرق.

والأهم هنا ذلك الاتجاه الذي ينزع إلى تنسيب الإسرائيلي للعنصر الأموري أو العموري أو الحموري. ويبدو أن حرف «م» قد أهملت بالتخفيف في «حموري» لتصبح «حوري»، وظلت الكلمة حوري تحمل معنى كلمة حموري، فهما بمعنًى واحد هو الأحمر والحمار (وربما كانت لكلمة حوري علاقة بكلمة حوذي أي سائس الحمير/ الإشارة من المراجع الدكتور سميح عيد)، وقد ورد في رسائل تل العمارنة إشارات إلى جنوبي بلاد الشام «فلسطين» باسم KHAKHNI وهي ما تعني الصبغ الأحمر القرمزي بدورها، ثم وردت في ذات الرسائل الإشارات إلى القسم الشمالي من بلاد سوريا باسم بلاد «آمورو».[٣]

ومن جانبٍ آخر نعرف في مختلف الكتابات التاريخية، والكتابات المقدسة التوراتية أن منطقة الشمال السوري كانت بالتأكيد بلادًا آرامية، ومع ذلك تشير إليها الكتابات المصرية باسم «آمورو»، أي أنها كانت بلادًا أمورية أيضًا.

ولا نندهش أبدًا عندما نجد التاريخ ينقسم برجاله على نفسه، فبعد أن قال لنا بعضهم منذ قليل إن الأموريين قد قدِموا من جزيرة العرب، فإن البعض الآخر يقول: «إنهم قد وصلوا حوالي ٢٦٠٠ق.م. مما وراء القوقاز، كما تدل على ذلك أواني الخزف ذات الطابع الجديد، والتي عُثر عليها في خربة كرك (بالرافدين [المؤلف]) ... وكانت أقوى موجات هذه الغزوات هي موجة الأموريين ... وعلى الرغم من أن الملك شوسن SHU SIN ٢٠٤٨–٢٠٣٩ق.م. كان قد بنى خط دفاع عن بلاد، فإن إحدى الرسائل الموجهة إلى خلفه إبي سين IBBI-SIN ٢٠٣٩–٢٠١٥، تعلمنا أن الأموريين = مارتو MAR-TU بقضهم وقضيضهم قد اخترقوا البلاد واستولوا على قلاعها الكبرى واحدة تلو الأخرى، إن نصوص هذا العصر تترجم هذا الرعب الذي ساد المنطقة أمام أناس لم يكونوا يعرفون زراعة القمح ولا المنازل ولا المدن، وتصف لنا أسطورة زواج أمورو — الإله الذي سُمي باسمه الأموريون — الذي ينبش الأرض بحثًا عن الكمأ في سفوح الجبال، ولا يعرف

[٣] أحمد سوسة، العرب واليهود ... سبق ذكره، ص٩.

كيف يثني ركبتيه، ولا يملك بيتًا طيلة حياته ولا يدفن بعد موته، ولم يكن الذعر بأقل من ذلك على الطرف الآخر من الهلال الخصيب، ففي مصر شيد الفرعون أمنمحات الأول ١٩٩١–١٩٦٢ق.م. خطًّا من القلاع الحصينة، هو حائط الأمير الذي يصد (أو حائط الحاكم كما ورد في مصادر أخرى).»

ويحيطنا هؤلاء علمًا أن كلمة «أموري» تعني عند أهل الرافدين عدة معانٍ منها «الغرب»، فالأموريون بالنسبة للعراقيين هم أهل الغرب.[٤]

وهنا نسمع «كوبر» يحدثنا فيقول: إن تلك القبائل الأمورية اشتهرت في رسائل مدينة ماري باسم SUTIUM، التي ترجمناها من جانبنا السيتيين نسبة إلى الإله سيت، وأنهم عنصر سامي غربي بالنسبة لأهل العراق الساميين الشرقيين، وأن هؤلاء السيتيين قد عبدوا آلهة أهمها: رب الحنطة، داجون ويشكر، أو كما قرأناه نحن إله الحرف المصري «سوكر» أو «شوكاريس» إله موتى مدينة منف، كما عبدوا إلهًا باسم «سومو»، والمحتمل لدينا أنه يشير إلى السلف البعيد المعبود «سام»، كما عبدوا الإله البعل باسمه «حداد».[٥]

أما مدينة ماري؛ فقد جاء في رسائلها ما يفيد أن هناك معارك طاحنة كانت تدور بين ملك حلب، وبين قوم ذكرهم باسم «بني يمين»،[٦] ولا يفوتنا هنا التنبيه إلى أن «بني يمين» اسم يلتقي تمامًا مع اسم السبط الإسرائيلي «بنيامين».

و«بني يمين» تعني في التوراة، كما تعني بالضبط في نصوص ماري: سكان الجنوب، والجنوب هو النقب، وكلمة جنوب تستخدم في الكتاب المقدس للدلالة على النقب تحديدًا، حيث كان المركز الرئاسي للأخلامو/الأحلاف حسب فروضنا، ويرى الباحث «غطاس الخشبة» أن الأموري والحموري لفظ واحد متعدد المعاني، ومن تلك المعاني «الشديد»،[٧] والشدة هي العملقة والقوة والجبروت، وكان الإله الإسرائيلي زمن البطرك إبراهيم يحمل لقب «إيل شداي»، أي الإله شداي، وبتخفيف حرف «د» في شداي يصبح «إيل – ستاي» أي الإله ستاي، أو كما ذهبنا نحن: الإله ست.

---

[٤] روجيه جارودي، فلسطين أرض ... سبق ذكره، ص٧٥، ٧٦.

[٥] Kupper, Les Nomades en mesoptamie au Temps der rois de rori, 1957.

انظر أيضًا: طه باقر الوجيز ... ص١٤٠.

[٦] علي القيم، المرأة في حضارات بلاد الشام القديمة، الأهالي دمشق، ١٩٨٧م، ص٩١، ٩٢.

[٧] غطاس الخشبة، رحلة ... سبق ذكره، ص٧٨.

أما السور الذي بناه «شو – سين» لصد الهجوم الأموري فقد سمي «مورق تدنم»، أي السور الذي يصد الأموريين، وكان طوله ٢٦ بيزو أي في حدود ٢٧٥كم، لصد سكان بوادي الشام وسُمي سكانها الغربيين أو الأموريين،[٨] هذا في الوقت ذاته الذي كان المصريون يقيمون على حدودهم الشرقية عند بوادي الدلتا، سورًا مماثلًا باسم «سور الأمير الذي يصد الآسيويين وعابري الرمال».

هذا من جانب، ومن جانبٍ آخر نجد الكتاب المقدس يحدثنا عن الأموريين، باعتبارهم قومًا ينتشرون في فلسطين غربي نهر الأردن وشرقيه في بوادي الشام، بل في آدوم وفي سيناء، وفي إشاراتٍ كثيرة ومتعددة، نقتطع بعضها هنا، يصف الكتاب المقدس بلاد فلسطين جميعًا كأرض موعودة لبني إسرائيل، يقول الرب لشعبه:

> وأنا أصعدتكم من أرض مصر، وسرت بكم في البرية أربعين سنة، لترثوا أرض الأموري.
>
> (عاموس، ٢: ١٠)

ثم يفيدنا أن جبال سينا وآدوم وفلسطين كانت جبالًا أمورية، وذلك في قوله على لسان موسى، وهو يخاطب شعبه في قادش سيناء:

> ثم ارتحلنا من حوريب (اسم للجبل المقدس في شبه جزيرة سيناء [المؤلف])، وسلكنا كل ذلك القفر العظيم المخوف، الذي رأيتم في طريق جبل الأموريين كما أمرنا الرب وجئنا إلى قادش برنيع.
>
> (تثنية، ١: ١٩)

وقد سبق وعلمنا أن قادش برنيع تقع أقصى شرقي سيناء على حدود آدوم (عين قديس حاليًّا)، وها هو المقدس يعود ليصف جبال تلك المنطقة السينائية بأنها «جبل الأموريين». وسنجد الكتاب المقدس يصر على ذلك في عددٍ آخر من النصوص، كما في حديثه عن العبور على جبال آدوم، فوردت مرة باسم جبال آدوم كما أسلفنا في نصوصٍ

---

[٨] طه باقر، الوجيز ... سبق ذكره، ص٣٩٢.

توراتية عديدة، وذات الجبال تأتي هنا مرة أخرى باسم جبال الأموريين، انظر معي إلى موسى يقول لشعبه:

> الرب إلهنا كلمنا في حوريب قائلًا: كفاكم قعودًا في هذا الجبل، تحولوا وارتحلوا وادخلوا جبل الأموريين، وكل ما يليه من العربة (أي وادي عربة [المؤلف]).
>
> (تثنية، ١: ٦)

هذا عدا نصوص عديدة تشير إلى جبال آدوم وفلسطين باعتبارها مسكنًا للأموريين، وعادة ما ذكرت حديثها حول سكن الأموريين الجبال كما في النص:

> جميع ملوك الأموريين الساكنين في الجبل.
>
> (يشوع، ١٠: ٦)

ولتحديد موضع ذلك الجبل الذي يسكنه الأموريون نقرأ عن تمرد الإسرائيليين على قائدهم موسى في سيناء بعد الخروج من مصر، وكيف وقف يقول لهم موسى في قادش سيناء:

> وقلتم: الرب بسبب بغضه لنا قد أخرجنا من أرض مصر، ليدفعنا إلى أيدي الأموريين لكي يهلكنا. إلى أين نحن صاعدون؟ قد أذاب إخواننا قلوبنا قائلين: شعب أعظم وأطول منا، مدن عظيمة محصنة إلى السماء، وأيضًا رأينا بني عناق هناك.
>
> (تثنية، ١: ٢٧، ٢٨)

النص كما هو واضح — مع النصوص السابقة — يفصح عن الأموريين كشعب يسكن جبال جنوبي فلسطين، وأنه شعب طويل القامة عظيمها، ومدنه محصنة ترتفع نحو السماء، وأن في هذا الجبل يسكن بنو عناق العناقين العمالقة.

ويتكرر النص الذي يحكي عن الموقعة ذاتها في موضعٍ آخر من التوراة، لكنه يستبدل العمالقة باسمٍ آخر؛ إذ يقول موسى وهو يتذكر ويُذكِّر شعبه عند استقرارهم الطويل

في محطة قادش سيناء، على تخوم آدوم، محددًا موقع الموقعة على حدود جبال سعير الآدومية:

> فكلمتكم ولم تسمعوا، بل عصيتم قول الرب وطغيتم وصعدتم الجبل، فخرج الأموريون الساكنون في ذلك الجبل للقائكم، وطردوكم كما يفعل النحل، وكسروكم في سعير إلى حرمة، فرجعتم ... وقعدتم في قادش أيامًا كثيرة كالأيام التي قعدتم فيها.
>
> (تثنية، ١: ٤٣–٤٦)

وفي زمن الفرعون المصري ستي الأول، نشاهد ضمن المنحوتات البارزة في معبد الكرنك (في طيبة/الأقصر حاليًّا)، مشهدًا يصور حِصاره لمدينة قادش العاصي، ويشير إليها باسم البلاد الأمورية حيث دون تحت النقش نصًّا يقول: «صعود الفرعون لتدمير قادش وبلاد أمورو»، وقد تم العثور هناك على حجرٍ تذكاري للفرعون سيتي يؤكد صدق المدون الطيبي.[٩]

وسيرًا على خطِّنا نعود إلى لغة العرب، نستنطق لسانها ما حواه من ذكريات الماضي وحفائر المعاني الدارس منها والباقي، حول شأن بلاد آدوم الحورية الكوشية الآرامية الأمورية (أو العمورية أو بني عمرو) السوداء الحمراء البيضاء، بلاد المعز والخيل، ومدينتها الثانية حويلة العريشة، ومدينتها الأولى المنبسطة في سهلٍ تحرسه أعلام سعير باسم الصخرة، بأيكها المضيء وثعابينها الطائرة وطيورها العنقاء ووحشها المعبود عناق البونتي، الذي انتسب إليه عمالقتها بالنسب والبنوة، فنجد في لسان العرب، ونحن نبحث عن الحوريين تحت مادة حرر:

> الحرة: هي التي أعلاها سود وأسفلها بيض، والحر: حية. وزعموا أنه الأبيض من الحيات. والحر: طائر. وحر: زجر للمعز.

٩ Wilson. J. A., Egyptian Historical textes in James Pritchard Ancient Near Eastern Textes, p. 27.

وتحت مادة حور نقرأ:

> الحور: أن يشتد بياض العين وسواد سوادها، والحور: شدة سواد المقلة في شدة بياضها. وقال كراع: الحور أن يكون البياض محدقًا بالسواد. والأحوري: الأبيض الناعم. والحور: الأديم المصبوغ بحمرة. وقال الجوهري: الحور جلود حمر. والحائر المكان المطمئن يجتمع فيه الماء، فيتحير فلا يخرج منه. وتحيرت الأرض بالماء: إذا امتلأت. وطريق مستحير يأخذ في عرضه مسافة لا يدري أين منفذه. والحارة: كل محلة دنت منازلهم فهم أهل حارة. والحير بالفتح: شبه الحظيرة.

هكذا تحمل كلمة «حور» في طيات حفرياتها الدلالية ذكريات أيام أوائل، ونحن نعلم أن العربية تطورت عن النبطية التي تطورت بدورها عن الآرامية، وأنها جميعًا تداخلت مع لغات المنطقة وبخاصة المصرية؛ لذلك نجد مادة حور تعطينا الأحمر أو الأبيض مع الأسود دومًا، ثم الحور هو الأديم، والأديم هو تراب الأرض الأحمر، ومنها جاء اسم بلاد آدوم، والحائر هو مكان البحيرات الناتجة عن عيون، ونلاحظ أن بحر وبحيرة ذات علاقة واضحة بالحر وبالحور، ثم الحير هو الحظيرة أو العشيش أو العريش.

ووراء آدوم موطن الأحلاف الذين توافقوا واتفقوا ما بين زنجي وأحمر وأسمر عند شجر الأيك في جبلٍ عظيم هو سعير بجواره واد عظيم هو عربة، موطن الآرامي والعموري أو بني عمرو، نتابع البحث في لجج وثراء اللسان العربي، فيفصح تحت مادة أدم:

> الأدمة: القرابة، وقيل الأدمة: الخلط، وقيل: الموافقة، والأدم: الألفة والاتفاق. قال الكسائي: يؤدم بينكما؛ يعني: أن تكون بينهما المحبة والاتفاق. والأديم: الأحمر. وأديم النهار: بياضه. والأدمة: السمرة. قال ابن سيده: الأدمة في الإبل لون مشرب سوادًا وبياضًا. والأدمة في الإبل: البياض مع سواد المقلتين، قال: وهي في الناس السمرة الشديدة. والآدم من الظباء: بيض تعلوهن حدد فيهن غبرة. فإن كانت خالصة البياض؛ فهي الأرام. والأدمة هو الأبيض والأسود المقلتين. والإدمان شجرة. الإيدامة: الأرض الصلبة. قال ساعدة بن جؤية:
>
> كأن بني عمرو يراد بدارهم بنعمان راع في أديمة معزب
>
> يقول: كأنهم في امتناعهم على من أرادهم، في جبل، وإن كانوا في السهل.

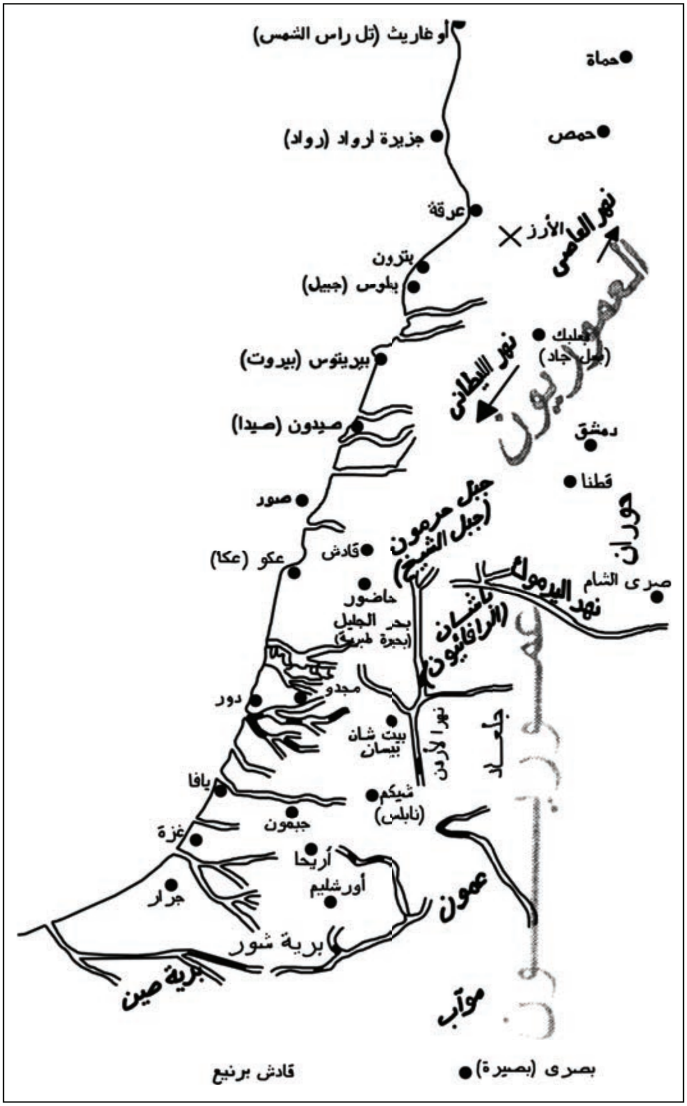

شكل رقم «١٢٦»: خريطة فلسطين وفق التقسيم التوراتي.

وهكذا أصبحت أدوم تاريخًا يشتق منه معاني اختلاط الناس ببعضهم، وموافقتهم واتفاقهم وقرابتهم، وأن الأديم يعني الأحمر والأبيض والأسود، لكنا نرتكز على اللسان وهو يمنحنا تأكيده أن البيض بين هؤلاء كانوا الآراميين لقوله: «فإن كانت خالصة البياض فهي الأرام»، وهو ما سنحاول التيقن منه لاحقًا. أما بنو عمرو العموريون؛ فقوم أشد منعة من بقية الناس؛ لأنهم يسكنون في سهلٍ يمتنع بالجبال.

ووراء الأموري نبحث في اللسان تحت مادة أمر فيقول:

> الأمر معروف، نقيض النهي. والأمير: ذو الأمر، والأمير: الآمر. قال أبو عبيدة في قوله «مهرة مأمورة»: أنها كثيرة النتاج والنسل. يقولون: أمر الله المهرة؛ أي: كثر ولدها وأمر القوم أي كثروا. والأمر: الصغير من الحملان. والأنثى إمره، وقيل: هما الصغيران من أولاد المعز. قال ثعلب: رجل إمر قال يشبه بالجدي، والأمر الحجارة واحدتها أمرة. والأمر بالتحريك: جمع أمرة، وهي العلم. والأمرة: الرابية. قال ابن شميل: الأمرة مثل المنارة فوق الجبل، عريض مثل البيت وأعظم، طوله في السماء أربعون قامة، صنعت على عهد عاد وإرم. والتامورة عريشة الأسد، وقيل أصل هذه الكلمة سريانية.

وهكذا ورثت لغة العرب اقتران السيادة بالأموريين، والتي احتسبناها سيادة هكسوسية في إمبراطوريةٍ عظمى، وأن من معاني الأموري كثرة النسل، وأنه له علاقة بالماعز والجدي، وأنها تعني الحجارة، ولمزيدٍ من الإيضاح يذكر العرب أثرًا فوق علم (جبل) عريض كالبيت، يرتفع في السماء أربعين قامة (فهل يكون ذلك مطابقًا لأم البيارة في البتراء؟)، وأن ذلك الأثر صُنع منذ عهد عاد وإرم، ثم يكرر أن من معانيها العريش، وأن أصل الكلمة سريانية، أي آرامية.

ولأن الأموري هو العموري، نقرأ تحت مادة «عمر»:

> عمري الشجرة القديمة: وقيل: هو العبري من السدر، والميم بدل، قال الأصمعي: العمري والعبري من السدر القديم. يقال للسدر العظيم النابت على الأنهار: عمري وعبري على التعاقب. والعمار والعمارة كل شيء على الرأس من عمامة أو قلنسوة أو تاج، والعمار الآس. وقيل: كل ريحان عمار. والعمارة: القبلية والعشيرة. والعوامر: الحيات. والعومرة: الاختلاط. واليعمور: الجدي.

> والعمر: ضرب من النخيل هو السحوق الطويل. وأم عمرو وأم عامر هي: الضبع. يقال للضبع أم عامر، كأن ولدها عامر.

وهكذا يصل ثراء ما تحفظه مورثات جينات اللغة حدًّا، احتوت معه أسماء بطون القرابات، فالعموري هو العمري؛ ولأن الميم تختلط بالباء فهو العبري «والعبريون — حسب التوراة — هم قبيلة إسرائيل»، وأن لهؤلاء العموريين ميزة التاج أو السيادة والقلنسوة. وسنرى فيما بعد أهمية تلك القلنسوة الأمورية، ثم إن لهم علاقة بالآس، ولعلنا لم ننسَ بعدُ الآس والإله آش، ثم إن من معاني الاسم «عموري» اختلاط الناس ببعضهم أحلافًا، وأن لهم علاقة بالجدي والماعز، وبالعملقة لأن العمر نخل طويل، وأم عمرو هي الضبع، وهو ما يستدعي عناق البونتي ذا الوجه الضبعي، وأن العموريين ينتسبون إليه كأنهم أولاده، فالعموريون يعبدون ربًّا أشبه بالضباع تسموا باسمه.

وللمزيد يفيدنا «ابن قتيبة» بقوله عن سلف قبيلة سبأ المعروف باسم سبأ، وعرفناه نحن أنثى اسمها الزباء أو الملكة سبأ، فيقول: «واسم سبأ عامر».[١٠] وفي مادة ضبع يقول لسان العرب:

> ضبعت أسرعت، وفرس ضابع شديد الجري، والضبع الجور، وفلان يضبع أي يجور. والضبع: ضرب من السباع أنثى. وفي قصة إبراهيم عليه السلام وشفاعته في أبيه، فيمسخه الله ضبعانًا أمدر، والضبعان ذكر الضباع. وجار الضبع المطر الشديد.

ولنلحظ هنا عبارة «شديد الجري»؛ لأنها ترتبط بفصلٍ آتٍ عن الشاسو، أما الأهم فهو أن يظهر لنا إبراهيم الآرامي العبري، من نسل رجل مُسخ ضبعًا فهو ابن الضبع، أو هو من نسل عناق البونتي.

ولنتأمل الآن صورة الإله ست التي رسمها المصري القديم، ولا ننسى أن عم تعني قوم، وبالنسبة إلى عناق يصبح المنتسب إليه ابن عناق أو عناقيًّا، وقد عرفنا أن العناقيين هم العمالقة.

---

[١٠] ابن قتيبة، المعارف ... سبق ذكره، ص١٠١.

وفي التوراة نجد الجبل الذي عبره الخارجون من مصر تحت قيادة موسى يسمى جبل الأموريين، وفي مواضع أخرى بالتوراة يسمى هو ذاته جبل العمالقة، ففي رحلة الخروج يقف موسى في قادش بسيناء يخطب في رجاله قائلًا:

> ثم ارتحلنا من حوريب، وسلكنا كل ذلك القفر العظيم المخوف، الذي رأيتم في طريق جبل الأموريين … وقلتم الرب بسبب بغضه لنا أخرجنا من أرض مصر، ليدفعنا إلى أيدي الأموريين ليهلكنا.
>
> (تثنية، ١: ١٩، ٢٧)

وفي قاموس الكتاب المقدس تحت مادة عمالقة نقرأ:

> وكان العماليق يتجولون من مكانٍ لآخر، وكان مجال تجولهم وسيعًا، من حدود مصر إلى شمال العربية إلى بادية فلسطين (صموئيل أول، ١٥: ٧ و٢٧: ٨) … وآخر ذكر لهم كان أيام حزقيا الذي طارد دخولهم من جبل سعير (أخبار أيام أول، ٤: ٤٣).

وتحت مادة جبل العمالقة يقول القاموس:

> جبل العمالقة كان من نصيب إفرايم، وقد حمل اسمه نسبة إلى العمالقة الذين سكنوه (قضاة ٥: ١٢، ١٥).

لكن عنصرًا من بينهم وصف بالعملقة، لا شك أنه كان القادم من إفريقيا السوداء، أو هجينًا منهم ومن أهل جنوب الجزيرة.

لقد كانت بلاد آدوم كما قلنا وأكدنا وزدنا وأعدنا، موئلًا لجماعاتٍ وعناصر جنسية متباعدة، فكان فيها الكوشي العملاق الزنجي، ثم كان فيها الحامي المصري القادم بالضرورة عبر سيناء في صلاتٍ دائمة، ثم كان فيها الآرامي القادم من شمال الرافدين وبلاد أرمينيا عند أرارات، وهو الشعب الذي أولد بني إسرائيل من بعد، ثم ذلك القادم من جنوبي الجزيرة الحميري، والذي ربما اختص باسم العامو أو العموريين العمالقة، قبل أن يصبح اسمًا عامًّا يُطلق على جماعة الأحلاف.

(انظر الشجرة الربة الإلهية في مصر القديمة، الشكل رقم «٩٥، ٩٦».)

ملحق

إبان مراجعة بروفات الطبعة الأولى من هذا الكتاب، وكانت بروفة هذا الفصل بين يديَّ أضفت هذه الفقرات، بعد أن طالعت بصحيفة الأهرام القاهرية بتاريخ ١٢/١١/١٩٩٧م الخبر التالي، وقد رأيت أن أضعه كما هو «بالتصوير»:

اليهود ينحدرون من أصل أرمينى

باريس من ـ سعيد اللاوندى: كشفت دراسة تاريخية بالفرنسية، النقاب عن مجموعة من الحقائق المذهلة التى أحدثت دويا فى الأوساط اليهودية، منها أن مدينة القدس كانت فى القرون الأولى بعد الميلاد، مدينة مختلطة يسكنها العديد من الأجناس من بينهم اليهود، بمعنى أن العنصر الغالب للسكان فى فلسطين، كان هذا الخليط الذى يجمع بين المصريين والعرب والفينيقيين.

وأكدت الدراسة التى تعتمد على الوثائق والآثار القديمة فى مصر والمشرق العربى منذ الألف الثالثة قبل الميلاد ـ نقلا عن الجغرافى اليونانى «سترايون» المعاصر للسيد المسيح ـ أن المصريين والفينيقيين كانوا يسكنون نصف القدس الشمالى أما النصف الجنوبى، فكان يقيم فيه العرب الآراميون، والعرب النبطيون ثم هنا وهناك، يتناثر بعض السكان من أصل إغريقى.

وأثبتت الدراسة ـ التى صدرت أخيرا فى كتاب بعنوان «عيسى اللايهودى» ـ أن اليهود ينحدرون من أصل أرمينى، وليس من أصل سام، كما هو ذائع ومعروف.

وخلصت الدراسة إلى القول بأن الحق العربى والفلسطينى فى القدس أقوى وأعمق من كافة الادعاءات اليهودية والإسرائيلية التى دأبت على تشويه الحقائق التاريخية.

شكل رقم «١٢٧»: والخبر إذ يؤكد ما قلنا حتى الآن، فإن القول بمجيء الإسرائيليين الآراميين من أرمينيا، قد سبق ووصلنا إليه في كتابنا «النبي إبراهيم والتاريخ المجهول» المنشور في طبعته الأولى بتاريخ ١٩٩٠م عن دار سيناء بالقاهرة، قبل أن تكتشفه تلك الدراسة الفرنسية بسبع سنين.

الفصل الثاني

الشاسو والكاشو والحاثو

في مواضع متعددة من النصوص المصرية القديمة، نجد اصطلاحات متعددة للدلالة على البدو الشرقيين الآسيويين، منها «ستتيو» الوارد في لوح كارنارفون، و«مونتيو – ستت» الواردتين في نقش أحمس بن أبانا،[1] وعرفنا أن الاسم هنا منسوب إلى الإله «ست»، وباختلاط الحرفين الشفهيين الباء والميم؛ فإن «مونتيو» هي «بونتيو» أي البونتيون، إضافة إلى اصطلاحاتٍ أشيع استخدامًا هي «شاسو» و«عامو»، وبالنسبة للاحتلال الذي عانت منه مصر في نهاية الدولة الوسطى، فقد أطلق المصريون على أصحابه اسمًا مكروهًا هو الطاعون، بينما وصلنا اسمهم في وثائق متأخرة زمن يوسفيوس والمؤرخين اليونان الكلاسيك بالصيغة «هكسوس».

وهنا يقول لنا المؤرخ والمصرولوجست المصري الحجة سليم حسن:

> عندما يطرح السؤال: من هم الهكسوس؟ فإنه لا يسعنا إلا الاعتراف بالجهل التام![2]

ورغم هذا التواضع العلمي الراقي الصريح الواضح المباشر، فإن ذلك لم يمنع الباحثين من وضع افتراضات حول أصل محتلي مصر، في محاولاتٍ متعددة لكنها متضاربة للبحث عن منطلقهم المكاني وأصلهم العرقي، فهناك من ذهب إلى أنهم من الجنس السامي، لكن أصحاب هذا المذهب اختلفوا حول أي نوع من الساميين كانوا؟

[1] سليم حسن، مصر القديمة، سبق ذكره، ج٤، ص٦٢.

[2] نفسه، ج٤، ص١٨٥.

فقال بعضهم: إنهم كانوا بابليين، وذهب آخرون إلى أنهم كانوا كنعانيين، بينما أكد فريقٌ ثالث أنهم جاءوا من عمق بوادي جزيرة العرب.[٣]

وعلى الجانب الآخر وقف باحثون لا يقلون علمًا وقدرًا، يؤكدون أنهم أبدًا لم يأتوا من فلسطين ولا العراق ولا جزيرة العرب؛ لأن المنبع البشري الذي تدفَّقوا منه على الشرق القديم، كان المستودع الكبير المعروف في عصر الهجرات الكبرى في محيط بحر قزوين وبحر الأورال، والبحر الأسود وبحيرة فان، وجبال أرارات، وهو الجبل الذي زعمت التوراة أنه كان مرسى السفينة النوحية، في ترميزةٍ أسطورية حفظتها الذاكرة الإنسانية، لتشير إلى المنبع الأصيل لتلك الهجرات،[٤] وهو أيضًا الذي يعرف علم التاريخ أنه كان موطنًا لقبائل متبربرة أسماها «سكيث». ولنتذكر من الآن وبشدة هؤلاء الـ «سكيث»؛ لأن لهم في الفصول المقبلة دورًا عظيمًا.

وكان تعبير «العامو» كما يقول «خشيم» هو الأكثر شيوعًا في الكتابات المصرية، للدلالة على غزاة بلادهم، وقد وردت «ع أم و A M U» في صورة «ع م و A M W» ومفردها «ع م A M»، لتشير إلى سكان شرقي وادي النيل حيث الهضبة المتصلة مباشرة بصحراء سيناء، وترجمها معجم فولكنر إلى «آسيوي» و«رجل آسيوي» وجمعها «ساميون SEMITES» ومؤنثها «ع ء م ت، أي امرأة آسيوية.»

وفي معجم بدج نجد الكلمة تعني: رعاة، بدوًا رُحَّلًا، ويترجم «ع ء م ي ت AMYT» إلى امرأة آسيوية، والعميت هو العبيط بخلط الميم بالباء، والعبيط في لسان العرب هو العملاق القوي قوة عمياء؛ لذلك نجد «ع ء م AM» تعني «حيوان أو سائمة أو بهيمة». وفي معاني «عامو» نجد اللغة تحمل في جيناتها إشارة إلى الجهة الأصلية التي وفدوا منها على مصر؛ لأن « أ م و AMW» تعني أيضًا إلهة الفجر، وهو ما يشير إلى الشرق حيث تشرق شمس الفجر. ويرى أمبير أن إبدالًا قد حدث بين الراء والهمزة وبين الباء والميم، بين المصرية والسامية في كلمتي «ع ء م AM» و«عرب»، وتفيد معنى البداوة والارتحال والمشي مطلقًا، ولا تدل على جنس بعينه.[٥]

٣ فهمي خشيم، آلهة ... سبق ذكره، ج١، ص٨٥.

٤ لويس عوض، مقدمة ... سبق ذكره، ص٢٢.

٥ فهمي خشيم، آلهة، ج١، ص٥٣، ٥٤.

وعند بروغش أن كلمة هكسوس كانت التسمية الشعبية لكلمة العامو (زمن البطالمة [المؤلف])، وأنهم كانوا آدوميين،[٦] لكن دون أن يتكرم بروغش بأي جهد واضح يؤكد به هذا الرأي السليم فعلًا، فقط رأى أنهم آدوميون استنادًا لنصٍّ مصري واحد لا علاقة له بالأمر برمته، ثم أصدر قراره. وحتى قوله هذا قول غير دقيق؛ لأنهم وإن كانوا يعودون بمركزهم الرئيسي إلى بلاد آدوم، فإنهم كانوا أخلاطًا من البشر، كانوا أخلامو أو أحلافًا.

ويذهب فهمي خشيم إلى أن الهمزة في «ع ء م» مزيدة، والأصل هو «ع م»، وضرب المثل لذلك أمثلة عديدة منها: «و ء ح ت = واحة، ح ء ت = حيط، خ ء ب ء س = قبس، خ ء ر = خار (صوت الثور)، س ء ب = صب»، وقد احتج لذلك بأن الهمزة العربية نفسها قد تهمز ما لا يهمز عادة، وقد تفعل العكس فتحذف الهمزة، فنقول عن البئر «بير» والفأس «فاس» والذئب «ذيب». وإعمالًا لذلك فإن «ع ء م» هي في العربية «عم»، و«عم» إذا ثلثت دلت على العملقة والقوة، فنجد «عمت» أي قسر، و«العمثل» هو الضخم الثقيل، و«العميثل» الضخم الشديد العريض، و«عمد» طال منها العماد والعمود، و«اليعملة» الناقة الفارهة القوية، و«العامل» هو الوالي أو الحاكم.

وفي معجم بدج نجد الكلمة المصرية «إ ء م ت I A M T» تعني النخلة، وجاء في الحديث النبوي «أكرموا عمتكم النخلة.»[٧] ونتذكر قول ابن منظور في لسان العرب: عُم إذا طول، وعم إذا طال، والعم شقيق الأب وأصله المُسانِد القوي، والعمامة ما يوضع على الرأس، وهي تيجان العرب، وتؤدي إلى طول لابسها، وكل ما اجتمع وكثر فهو عميم، والعمم عظم الخلقة. فالجذر عم والثلاثي عمم ورباعيُّه عملق، ومنه العملاق الطويل والجمع عماليق وعمالق، والعمالقة عند ابن منظور من عاد وهم بنو عملاق. قال الأزهري: عملاق أبو العمالقة، وهم الجبابرة الذين كانوا بالشام على عهد موسى عليه السلام.

ومن العامة يأتي معنى الكثرة الوافرة، ومفردها بصيغة النسبة عامي وتجمع عوام، ومن عامي تطورت الدلالة إلى معنى الجهل وعدم المعرفة، ومنها أمي الذي يجهل القراءة والكتابة في مواجهة الخاصة. وهنا نتذكر أن فترة حكم الهكسوس في مصر كانت مظلمة تمامًا من حيث المدونات، فلم يتركوا شيئًا مدونًا بلغتهم، وما وجدناه كتبه

[٦] Brugch, H., History of Egypt under the phorahs, vol I, p 232–241.

[٧] فهمي خشيم، آلهة ... سبق ذكره، ج١، ص٥٥.

لهم المصريون باللغة المصرية، وهو نادر ندرة شديدة إلى جوار ما هو معتاد في مصر القديمة. ولم نعلم بمدونات حقيقية إلا بعد خروجهم من مصر، وانتشار اللغة الآرامية كلغة للمراسلات الدولية، بعد أن أخذت الآرامية الطريقة الرافدية في الكتابة بالمسمار على الطين، هو الخط البابلي، وكتبته بالكارية أو الحورية.

أما «عم» فهي تعني في لغة جزيرة العرب «أبناء» أو «شعب»، وهي كذلك في الكنعانية، وهي ذاتها «ع م» أي أناس، وينتهي فهمي خشيم إلى أن كلمة «ع م» تؤدي إلى «الأميين»، كاسم علم بمعنى الأقوياء الجبابرة العماليق من الجذر «أم» و«أمم»، وهو ذات لجذر «عم» و«عمم» وفيه معنى الكثرة الغالبة.[٨]

وفي الجزء الأول من هذا العمل سبق وأشرنا إلى أن المؤرخ اليهودي «يوسفيوس فلافيوس» الذي نقل عن المؤرخ المصري «مانيتو»، قد كرس من وقته زمنًا؛ ليثبت أن الهكسوس كانوا هم ذات الإسرائيليين، وضمن شواهده ترجمته لكلمة «هيك – سوس» بحسبانها تعني «الأسرى – الرعاة»؛ لأن بني إسرائيل قد تم أسرهم بمصر بعد ثورة المصريين على حكمهم، إلا أن «وادل» يحيطنا هنا علمًا: أن يوسفيوس قد تلاعب بكلمة هكسوس التي تتركب من ملصقين: المقطع الأول فيها «هيك»، وقد قرأه يوسفيوس وكتبه «ح أ ق haq» التي تعني: يقبض على، يأسر، أسر، بينما كتابتها وقراءتها الصحيحة هي «ح ق hq» وتعني معنًى نقيضًا تمامًا، فهي: من الفعل الماضي حكَم، وجَّه، قاد، تسلَّط، ويفيدنا «مارسيل كوهين» أن تلك الكلمة هي بالضبط الكلمة العربية حق. وهي Legalite أي شرعية الحكم. أما المقطع الثاني الذي جاء في صورة SôS، فيعني عند «مانيتو المصري»: «راع» أو «رعاة»، ورأى «وادل» أنها من القبطية Shôs أي راعٍ، وأنها من الأصل «ش أس و» أي بدو. وهنا اختلف «بدج» مع الجميع وأكد أن معنى «سوس» هو: المشي، السعي، السفر، ومنها البدو الرُّحَّل. ويدعم ذلك «إمبير Ember» إذ يقابل الكلمة المصرية بالإثيوبية Sosawa أسرع في المشي، هرول، وبالعبرية SIS التي تعني «حصان»، وهي جميعًا المعاني التي تفيد المشي والحركة الثابتة دون استقرار، وفي معجم المصرية «س س م SSM» وتعني زوجًا من الخيل، ومنها في معجم بدج كلمة «س س م ت SSMT» أي فرس.

---

[٨] نفسه، ج١، ص٥٩.

ويعقب هنا فهمي خشيم بقوله: «وعلى هذا الأساس ترجمت هكسوس إلى الملوك الرعاة … لكننا عرفنا أن الجذر س س يعني الحصان، ومن المسلَّم به تاريخيًّا أن وادي النيل لم يعرف أهله استخدام الحصان قبل هجرة الهكسوس إليه.»

ومما هو جدير بالذكر هنا أن مدينة الهكسوس «حواريس» التي هي في الأصل المصري «حوارة» أو «هوارة»، لم تزل تُطلق على كثيرٍ من المدن الصحراوية المتطرفة المتاخمة للصحراء، فنجد الهوارة في صعيد مصر وفي الفيوم والحدود الشرقية، كذلك تحمله قبائل من أصول عربية تمصرت.

وينقل ابن خلدون عن الصولي البكري أن قبائل الهوارة تنتسب إلى «حمير بن سبأ»، ويزعمون الانتساب إلى قبائل كندة، وبالتحديد إلى قبيلة «السكاسك»، وهو ما يلتقي مع كلام الصولي البكري حول أصولهم الحميرية السبئية؛ لأن لسان العرب يقول:

> سكسك بن أشرس من أقيال اليمن، والسكاسك والسكاسكة حي من اليمن، أبوهم ذلك الرجل، والسكاسك أبو قبيلة من اليمن، وهو السكاسك بن وائلة بن حمير بن سبأ، والنسبة إليهم سكسكي.

ومن جانبه، ينسبهم ابن خلدون إلى «هوار بن أوريغ بن حمير بن سبأ»، وعليه يرى فهمي خشيم أن الكلمة سكاسك ربما كانت تحريفًا للكلمة اليونانية هكسوس، التي كانت بدورها تحريفًا للكلمة المصرية «ح ق. س س».[٩]

وعن أصل بربر أفريقيا يقول ابن خلدون: «إنهم من أبناء إبراهيم وأوزاع اليمن»، والخلط هنا واضح بين جنسين متباعدين: جنس إبراهيم الآرامي الشمالي وجنس الجنوب اليمني، ثم يقول: «فلما وصلوا إلى مصر منعهم ملوك مصر من النزول، فعبروا النيل وانتشروا في البلاد، وهم من ولد النعمان بن حمير بن سبأ.» ثم في إشارة فصيحة يقول: إنهم «تلاقوا بالشام واستجاشهم أفريقش لفتح أفريقية.»

فالهكسوس في الذكريات العربية ينتسبون من جانبٍ إلى عرق شمالي يعود إلى إبراهيم الآرامي، وعرق جنوبي يعود إلى سبأ وإلى حمير الحموري أو العموري أو الأموري، وأن هؤلاء الجنوبيين من قبائل يمنية كانت تحمل اسم السكاسك، وهو فيما نرَى يفسر لنا اسم أحد مواضع تكثف الوجود الهكسوسي في مصر؛ فهو لم يزل يحمل

[٩] نفسه، ج١، ص٧٦، ٧٧، ٨٨، ٨٩.

في طياته اسم السكاسك؛ لأنه حتى الآن (الزقازيق) عاصمة محافظة الشرقية.[١٠] ويدعم ذلك التفسير ما جاء في أزمنة سوالف على دبوس قتال الفرعون المعروف بالملك العقرب، حيث وردت إشارات إلى صراعٍ خاضَه العقرب مع البدو، وقد أطلق عليهم اسم «قوم الزقزاق/ السكاسك». و«الزقزاق» اسم لطائرٍ تم تصويره بأعلى دبوس الملك العقرب، وقد وردت قصص مصرية قديمة عن ذلك الطائر، باعتبار أنه كان غذاء لبحَّارة مصريين ضلوا الطريق ونفد طعامهم، فعاشوا على الاغتذاء بهذا الطائر المهاجر الذي كان يحط في طريقهم،[١١] وهو ما سنعرفه بعد ذلك في التوراة باسم السلوى، ونعرفه اليوم في مصر باسم السمان، وطعمه شبيه بطعم الحمام، وهو ما عرفناه في بحثنا باسم السقساق أو الزقزاق. وهو طائر مهاجر تُعَد شبه جزيرة سيناء محطته الكبرى في رحلته الفصلية الكبرى، ولم يزل حتى الآن يصدَّر إلى الوطن الأم بعدما يفيض عن حاجة السكان في سيناء.

وفي لسان العرب نبحث عن السكاسك في مادة «سكك»، فنجده يعطينا مضامين تطابق كل ما علمناه حتى الآن عن الهكسوس، بحسبانهم كانوا يعيشون في بلاد أيك تين وبخور وغياض ملتفة، وكانوا أصحاب صناعة الحديد والنحاس؛ لذلك لقبوا بالقينيين، وأهم حديد كان السيف وسكة المحراث، ولاحظ «سكة» وأيضًا «سك» من ضرب المعدن وصنعه، كما نقول: سك النقود وصانعه هو السكاك، وتسهيلًا للنطق هو سكاسك للفصل بين كافين ثقيلين، وأنهم كانوا تجار الطيوب والبخور، يقول ابن منظور في اللسان:

> ... استك النبت أي التف.
>
> ... السك تضبيب الباب أو الخشب بالحديد. ويُروى السكي بالكسر. وقيل: هو المسمار. وسكة الحراث حديدة الفدان. والسكاكة من الرجال هو المستبد. والسك ضرب من الطيب.

[١٠] ذهب البعض أن اسم الزقازيق ينسب لسمك بهذا الاسم كما في معجم محمد رمزي.

[١١] سعيد محمد ثابت، فرعون موسى، دار المدينة المنورة، القاهرة، ١٩٩٢م، ج٢، ص٣٣، ٣٤. من المهم هنا الإشارة إلى أننا أخذنا المعلومة فقط بغض النظر عن الكتاب، فهو لا علاقة له بالعلم ولا بمنهج البحث العلمي، بقدر ما هو هلوسات غيبية.»

شكل رقم «١٢٨»: مجموعة من طيور الزقزاق معلقة على رأس دبوس قتال الملك العقرب، وهو المعروف بطائر السمان اليوم.

ومدينة الزقازيق تقع ضمن مقاطعات شرقي الدلتا على تخوم الصحراء السينائية مباشرة، وقد سبق وكشفنا في الجزء الأول عن اسم مدينة الاضطهاد وموضع خروج الإسرائيليين قرب الزقازيق.

المهم أن لدينا الآن مزيدًا لتدعيم ما قلناه حول السكاسك والزقازيق، فقد جاء في الآثار المصرية أنه بين مقاطعات الدلتا الشرقية، كان يوجد إقليم باسم «عنزتي Anzti»، نسبة إلى إلهٍ قديم بذات الاسم، وهو من الجذر «ع ن ز Anz»، وهي كلمة تعني عند

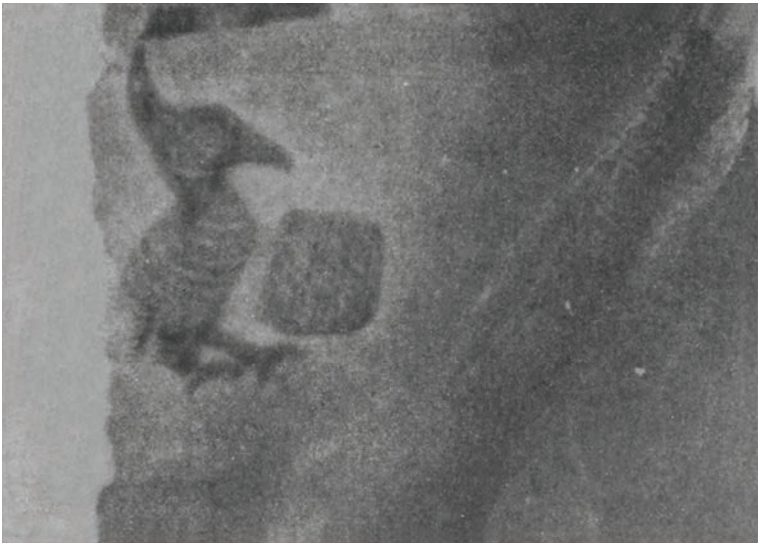

شكل رقم «١٢٩»: طائر الزقزاق يأكل المن العسلي (المن والسلوى؟!).

«بدج» في معجمه: ملك، قوي، مضيء، شديد، ثابت، مشرق، قادم من الشرق. وكلها كلمات تحيل إلى الملوكية القادمة من الشرق، والثنائي من الكلمة «ع ز AZ»، وتعني: الكون في حالةٍ طيبة، ولو زدناها «ت ي Ti» فإن معناها يصبح الحامي أو المانع أي «Azti» Protector، وهي المطابق المصري للكلمة العربية بذات الصوت والمعنى «عز».[١٢]

وفي مادة «عزز» يقول اللسان معاني أهمها: «العزيز، المتمنع الذي لا يغلبه شيء، القوي الغالب، الشدة، الرفعة»، وبزيادة «م» تصبح «معز»، «والمعز هو الشدة، أما العنز فهي أنثى المعز، والعزيز من أسماء الله، وعنزة اسم قبيلة عربية.» وفي الحديث القدسي يقسم الإله في الإسلام «وعزتي وجلالي»، ثم نتذكر ما قلناه عن الحموري والأموري الذي يعني «الشديد»، وأن اسم إله البطرك إبراهيم كان «إيل شداي»، وأن كلمة «حُر» زجر للمعز، وأن العناق هو الأنثى من أولاد المعز، وأن عنخ المصرية هي عنز العربية، وأن عنخت زوجة الإله خنوم المصري صانع البشر من صلصال الفخار، الذي هو خنوف أو

[١٢] خشيم، آلهة ... سبق ذكره، ص٦٨، ٦٩.

خروف وهو من الغنم، وكلها معانٍ تشير إلى بدو رُحَّل رعاة عنز، شاسو، لا يستقرون أبدًا، أما مسكنهم فهو ما نحتسبه موصوفًا في لسان العرب تحت مادة شسأ:

> شسأ: مكان شئس: الخشن من الحجارة. الشس والشسوس: الأرض الصلبة الغليظة اليابسة التي كأنها حجر واحد.

يكاد ابن منظور يقول كل ما يحمل اسم عاصمة آدوم/ الصخرة من معانٍ كشفنا عنها، أما الشاسو؛ فهي برأينا أصل كلمة سوس في المركب «هيك – سوس»، وسوس هي شاس أو شاسو في كشكشة الكاف في سكاسك، وتعني البدو الرُّحَّل من أصحاب المعز من قبائل السكاسك السبئية العمورية أو الحميرية، والقبائل الآرامية الإبراهيمية، أما «هيك»؛ فهي كما سبق القول تعني «حق» أو الحكم بالحق الشرعي، وتشير إلى الملك؛ لذلك فالكلمة هيكسوس تعني لدينا الحكام الشاسو أو الحكام البدو، أو بشكل أكثر تدقيقًا شيوخ القبائل البدوية.

وإبان رصده لسلسلة أنساب اليمن، يحيطنا ابن قتيبة علمًا بأن «سبأ» لقب؛ لأن اسم الشخص الحقيقي كان «عامر».[١٣] وعامر يمكننا أن ننسب إليه ببساطة العامريين أو العموريين، وهو ما يدعم رؤيتنا في قدوم العموريين/الأموريين السبئيين من الجنوب. ويضيف ابن قتيبة أن سبأ قد أنجب «حمير» أو الأحمر، وأن من أحفاد حمير كان «بنو القين»[١٤] أي أبناء القيني، أي «الحدادين/السباكين/السكاكين/السكاسك/النحاسين». وضمن هذا النسب عند ابن قتيبة يأتي شخص باسم سعد هزيم، كان عبدًا حبشيًّا زنجيًّا احتضن عامر فنسب إليه، وهو ما يشير إلى ما قلنا عن احتضان شعبٍ لآخر، زنجي، وجنوب جزيري عموري (نقصد المعروف بجنوب الجزيرة الآن)، أو التوحد معه في خلف «جنوب جزيري + زنجي».

وقد انفرد الزنجي بحديث لدى ابن قتيبة له لدينا دلالة، فهو شقيق أفريقيش الذي فتح مصر وأفريقيا، وبه سميت أفريقيا، وهذا الزنجي هو المعروف باسم «العبد أبرهة»، وكلمة العبد في الكتابات العربية تساوي كلمة الكوشي في التوراة، والعبد أو الكوشي أو الزنجي أبرهة غير أبرهة المعروف في التاريخ الإسلامي بغزوة الفيل؛ لأن ذلك الأخِير متأخر

---

[١٣] ابن قتيبة، المعارف ... سبق ذكره، ص١٠١.

[١٤] نفسه، ص١٠٣، ١٠٤.

عن الأول بقرونٍ طوال. وهذا الزنجي الكوشي العبد أبرهة قد حاز عند ابن قتيبة لقب «ذو الأذعار، وسمي بذلك؛ لأنه كان غزا بلاد النسنناس، فذُعر الناس منه؛ فسمي ذو الأذعار». وبلاد النسناس هي بلاد القردة، ولعلنا لم نزل نذكر بلاد البابون في بونت بلوحات حتشبسوت، ثم ملك بعده حداد بن شرحبيل بن عمرو بن الرانش، وهو أبو بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام».[١٥] ومن نسل حمير جاء السكاسك بن وائلة، ثم من السكاسك جاء «قيدار»، فيما قدر ابن قتيبة.[١٦] وقيدار جماعة عربية سكنت بدورها وادي عربة في أزمنةٍ متأخرة، ثم من قيدار جاء غسان أو جاسان أبو الغساسنة، الذين سكنوا ذات المنطقة.[١٧]

وهكذا كان بين الهكسوس عناصر وأجناس، خلطت بينهم أقدار التاريخ وشطحات الحراك الإنساني المهاجر، وتركت اسمًا دالًّا عليهم؛ فهم «الأحلاف» أو «الأخلامو»، والأكثر دلالة أنهم أطلقوا على أنفسهم اسمًا يشير إلى تحالفهم، وذلك إبان احتلالهم مصر، فقد أطلق مشايخ أو ملوك الهكسوس على أنفسهم اسم «الملوك الإخوة»؛[١٨] مما يشير إلى أكثر من ملكٍ يحكم في نفس الوقت، وهو ما يؤكد ما قلناه حتى الآن عن إمبراطورية واسعة، يحكم كل إقليم منها ملكًا معينًا مختارًا من قبل مجلس أحلاف الملوك الإخوة.

والآن ننتقل نقلة أخرى لمزيدٍ من تضفير استنتاجاتنا، فنحن نعلم أن «الكشكشة» في اللسان العربي، تعني أن هناك عربًا ينطقون الكاف «تش» أو «ش». ولو افترضنا أن ذلك قد حدث للكلمة «شاسو»، فأصلها سيكون «كاسو» أو «كاشو»، وهو ما يطابق اسم الهكسوس، فسيكون «هيك كاسو» بدلًا من «هيك شاسو»، أو بالأحرى «هيكاسو» أو «هيكاسي»، وهو ما يفتح أمامنا بابًا آخر لمعرفة أصل الهكسوس، وهو الباب الذي سيصادق تمامًا على ما وصلنا إليه حتى الآن، أما هذا الفرض فسيظهر الآن صحيحًا تمامًا.

يقول «سليم حسن»:

> عدت كل من هجرة الهكسوس وهجرة الكاسيين مشهدين من هجرةٍ عظيمة جدًّا، وفدت إلى الشرق الأدنى في باكورة الألف الثاني قبل الميلاد. وأول

---

[١٥] نفسه، ٦٢٨، ٦٢٩.

[١٦] الموضع نفسه.

[١٧] نفسه، ١٠٧.

[١٨] خشيم، آلهة ... سبق ذكره، ج١، ص٢٩١.

ظهور معروف للكاسيين في بابل كان في خلال حكم الملك حمورابي ١٩٤٧–١٩٠٥ق.م. والظاهر أنهم كانوا في هذه الفترة سُكانًا مسالمين في هذه البلاد، وعلى إثر موت حمورابي انتقل عرش الملك لابنه سامسو إيلونا، الذي صد في السنة التاسعة من حكمه غارات الكاسيين، الذين انقضوا عليه من الجبال. وعلى إثر غارة الخيتا على بابل، أضحت البلاد تحت سيطرة الأسرة الكاسية ١٧٤٩ق.م.[١٩]

وتقول الموسوعة الأثرية العالمية:

الكاشيون Kassite ترجع أهمية هذه القبيلة بخاصة إلى الدور الذي لعبته في تاريخ بابل، ويُعتقد أن الكاشيين هم الكوشيون Kossaeans، الذين ذكرهم بطليموس المؤرخ، والكيشيون Kissianas الذين ذكرهم الكتاب الإغريقي الأقدم منه، وقد ذكرت السجلات أنهم هاجموا بلاد بابل في عام ١٧٨٠ق.م. استولوا عليها وأسسوا فيها أسرة حاكمة استمرت أكثر من ٥٧٠ عامًا. ومن المحتمل أن الكاشيين أدخلوا الحصان حيوانهم المقدس في بلاد الرافدين.[٢٠]

ويتحدث «كارلتون كون» عن استعمال الأسلحة البرونزية والعجلات التي تجرها الخيول فيقول:

واستخدمتها أقوام غازية هاجمت البلاد (يقصد الشام) من مكانٍ ما في الشمال في نحو ١٧٠٠ق.م. وفي هذا الوقت غزا الهكسوس مصر وتولوا حكمها … وغزا الكشيون وهم من الشعوب المتكلمة بلغة هندو أوروبية أرض العراق.[٢١]

ويضيف «إيفار لسنر»:

ولم يلبث تتابع الملوك البابليين أن توقف عندما سيطر عليها الكاشيون Kassires، وهم شعب بربري من أصلٍ غير سامي بعد موت حمورابي، وتوالى

[١٩] سليم حسن، مصر القديمة، سبق ذكره، ج٤، ص١٧٥.

[٢٠] الموسوعة الأثرية العالمية، ص٥٨٠.

[٢١] كارلتون كون، قصة الإنسان، ترجمة محمد توفيق وعبد المطلب الأمين، المكتبة الأهلية، بغداد، ١٩٦٥م، ص٣٢٥.

منهم على السلطة في عاصمة الفرات ستة وثلاثون ملكًا بلغت مدة حكمهم ٥٧٧ عامًا.[٢٢]

أما التدقيق فمع المؤرخ العراقي الرصين «طه باقر»، وهو يخبرنا عن هؤلاء الكاسيين أو الكاشيين، الذين هاجموا بلاده واحتلوها، وفي الوقت ذاته — أو قريب منه — احتل الهكسوس مصر، حيث يقول:

انتهى حكم سلالة بابل الثانية الأولى على إثر غزو الحيثيين بلاد بابل في حدود ١٥٩٤ق.م. وجاء الكشيون إلى بابل، وأقاموا سلالة حاكمة في البلاد عُرفت باسم سلالة بابل الثالثة، التي دام حكمها زهاء أربعة قرون ١٥٩٥–١١٦٢ق.م. واسم هؤلاء القوم الجدد من الكلمة البابلية كشو التي لا يُعلم أصل اشتقاقها بالضبط. أما موطنهم الذي نزحوا منه؛ فيرجح أنه كان في مكانٍ ما من الأجزاء الوسطى من جبال زاجروس الفاصلة بين العراق وإيران. والمرجح أن يكونوا هم القبائل الجبلية الذين ورد ذكرهم في المصادر الكلاسيكية باسم كوساي Kossaioi. لم يخلفوا لنا من بعد حكمهم في العراق شيئًا مدونًا بلغتهم، بل إنهم اتخذوا اللغة البابلية. ولما برزوا في التاريخ بصفتهم قوة عسكرية في عهد سلالة بابل الأولى، اتجهوا في توسعهم — لعله بسبب ضغط أقوام أخرى إلى وادي الرافدين، ولكن خلفاء حمورابي ولاسيما سمسو إيلونا وأبي يشوخ استطاعوا أن يصدوهم، فاتجهوا عبر نهر ديالي ودجلة إلى الجهات الشمالية الغربية، وتمركزوا في منطقة الفرات الأوسط، أي في منطقة خانة القديمة. وأخيرًا حانت الفرصة المواتية على إثر غزو الحيثيين لبابل، وهناك مشكلة تاريخية تعترض المؤرخ عن بدء الحكم الكشي في العراق، وعلاقتهم بالحيثين الذين غزوا بابل، فأولًا أن بداية حكمهم لا تنطبق مع نهاية سلالة بابل الأولى؛ ولذلك فينبغي أن يكون الملوك السبعة الأوائل من السلالة الكشية، ابتداء من كنداش المعاصر لملك بابل سمسو إيلونا، قد حكموا خارج بلاد بابل، وأن السلالة الكشية بدأ حكمها في بلاد بابل؛ ابتداء من الملك الكشي المسمى

[٢٢] إيفارلسنر، الماضي الحي، ترجمة شاكر إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨١م، ص٣٧.

آكوم الثاني/آكوم كا كريمه Agum kakrime، وأن هذا الملك هو الذي انتهز فرصة الغزو الحثي، فزحف على بابل في حدود ١٥٩٥ق.م. لكن ماذا كانت علاقة هذا الملك الكشي بالملك الحثي مورشيليس؟ ... هل تحالف مع الملك الحثي، فكانت حملة عسكرية مشتركة على بابل؟ لعل التساؤل أقرب إلى الواقع التاريخي؛ لأنه يفسر لنا سبب انسحاب الحيثيين من بابل. إن الملوك الكشيين حكموا مملكة واحدة، من أقصى الجنوب إلى حدود بلاد آشور في الشمال ... وكان الكشيون أقلية حاكمة بالمقارنة مع الأغلبية من سكان البلاد. وأهم ما يميز العهد الكشي الطويل الأمد قلة ما وقع من أثنائه في اصطداماتٍ حربية مهمة، سواء كان ذلك مع الآشوريين المجاورين أم مع دولة الشرق الأدنى المعاصرة، مثل دولة «ميتاني» في شمالي ما بين النهرين أم مع الدولة المصرية. اتخذ الملوك الأوائل من السلالة الكشية مدينة بابل عاصمة لحكمهم، لكنهم أسسوا في منتصف عهدهم تقريبًا مدينة جديدة ضخمة، أطلق عليها اسم دور كوريكالزو، وتعرف بقاياها الآن باسم عقر قوف على بعد نحو ٢٠ ميلًا غرب مركز بغداد. ويشير اسم هذه المدينة الذي يعني حصن أو مدينة كوريكالزو إلى أن مؤسسها أحد ثلاثة ملوك سموا باسم كاريكالزو، شيدت في زمن قديم من العصر الكشي، يرجع إلى ما بين القرن الخامس عشر والرابع عشر ق.م. والملك كوريكالزو الثاني يرجح أن يكون هو الذي شيد برج المدينة «الزقورة». وبرج المدينة بقي من ارتفاعه الآن زهاء ستة وخمسن مترًا (تعرفه الأساطير الدينية باسم برج بابل حيث بلبلت الألسن [المؤلف]). وقد تميزت جدران العهد الكشي بالضخامة المفرطة، فجدران قصر عقرقوف وجدران معابدها بلغ معدل سمكها ثلاثة أمتار، مشيدة باللبن الكبير الحجم. والاسم الجغرافي الجديد الذي أطلقوه على بابل هو كار دُنياش؛ أي بلاد أو قطر دنياش وهو اسم أحد آلهتهم (ودونياش بدون التصرف الاسمي هو دون أو تون أو أدون [المؤلف]).

ويرى جمهور المؤرخين أن الكشيين هم الذين أدخلوا استعمال الخيل في بلاد وادي الرافدين، الأمر الذي أحدث تبدلات جوهرية في أساليب الحرب والقتال وسرعة المواصلات. وما قبل العهد الكشي لم تكن الخيول شائعة الاستعمال في العراق. جاء ذكرها في النصوص المسمارية، ولا سيما في عهد

> سلالة أور الثالثة ٢١١٢–٢٠٠٤ق.م. وقد دُعيت في هذه النصوص Anshu-Kar-Ra أي حمار الجبل أو حمار البلد الأجنبي، ويرادف ذلك في اللغة الأكادية سيسو Sisu. الكشيون استبدلوا طريقة التأريخ بالحوادث المشهورة المتبعة في العصور السابقة للعصر الكشي، بطريقةٍ أسهل في تأريخ الحوادث وتقويمها هي التأريخ بسنى الملوك، فصاروا يؤرخون من السنة الأولى التي تعقب تتويج الملك الجديد. وشاع في العهد الكشي استعمال ما يسمى بأحجار الحدود، واسمها باللغة الأكدية كودورو Kudurru وانتشرت في العصر الكشي اللغة البابلية بخطها المسماري؛ بحيث اتخذت من هذه اللغة لغة للمراسلات الدولية الدبلوماسية بين ملوك الشرق الأدنى وحكامه، كما تدل على ذلك رسائل تل العمارنة الخاصة بفراعنة مصر في القرن الرابع عشر ق.م. حيث كان الفراعنة في أوج قوتهم واتساع ملكهم، فلا يمكن تفسير اتخاذ اللغة البابلية من جانبهم بتسلط أو نفوذ من الملوك الكشيين، وانتشر مع استعمال اللغة البابلية أدب وحضارة وادي الرافدين، وترجمت جملة قطع أدبية مشهورة مثل ملحمة جلجامش إلى اللغة الحثية والحورية.[٢٣]

وهنا يجدر التنبيه أن الأستاذ طه باقر، أكد أن تلك المكاتبات البابلية كانت فعلًا بالخط المسماري، لكنها كانت باللغة الكارية أو الحورية حقًّا وصدقًا.

ثم يقول لنا علم التاريخ إن هناك خطأ قديمًا تم إصلاحه في مؤلفات المؤرخين، حيث كان يطلق على ممالك بلاد الشام اسم الممالك الحثية الحديثة، لكن مع مزيدٍ من الكشوف تأكد أنها كانت ممالك آرامية، تأثرت بشدة في فنونها بالتقاليد الفنية الحثية.[٢٤]

إذن الهكاشي أو الكشيون أو الكاشيون أو الكاسيون أو الكاشو، قبائل متبربرة هبطت على العراق القديم، وقضت على أسرة بابل الأولى، وحكموا البلاد ٤٣٣ عامًا، وليس معلومًا لدى المؤرخين معنى اسمهم أو أصله. لكن المؤكد لديهم أنهم كانوا هجرة هندو آرية، وأنهم لم يدونوا شيئًا بلغتهم الأصلية، واتخذوا من لغة بابل المكتوبة لغة لهم، وكان غزوهم بابل بعد غارة حيثية مفاجئة قدمت من الأناضول، قام بها الملك

---

[٢٣] طه باقر، الوجيز ... سبق ذكره، ص٤٤٨–٤٥٩.

[٢٤] فراس السواح، أرام دمشق ... سبق ذكره، ص١٤٨.

الحيثي «مورشيليش»، الذي هاجم البلاد وأسقط أسرتها الحاكمة، ليتركها للكوشيين أو الكاسيين دون أسباب مفهومة أو واضحة. أما الأكثر غرابة فهو أن بدء الحكم الكاشي لا ينطبق مع نهاية سلالة بابل الأولى، التي أسقطها «مورشيليس» الحيثي، مما أدى إلى استنتاج أن هناك سبعة ملوك كشيين حكموا في مكانٍ ما خارج الرافدين قبل أن يحتلوه. والجديد هنا أن الملوك الكاشيين قد حكموا القطر جميعه موحدًا، بينما كانوا أقلية حاكمة، ولم يتصادموا في معاركَ واضحة مع جيرانهم في منطقة المتوسط الشرقي، بل كانوا على وئامٍ معهم، وإن أحد ملوكهم المعروف باسم «كوريكالزو الثاني» هو الذي شيد الزقورة أو البرج المشهور في بابل، وبقي منه بعد أن تهدَّم حوالي ستين مترًا، وقد أطلقوا على بلاد الرافدين اسم «كار دويناش» أي قطر «دونياش»، وهو اسم إلهٍ لهم. ومن المرجح أنهم هم من جاءوا بآلةٍ عسكرية جديدة على المنطقة، هي العربة العسكرية التي تجرها الخيول، حتى إن الخيول لم تكن معروفة في المنطقة قبل ذلك، وكان الأكاديون في الرافدين يتحدثون عن رؤيتهم للكائن المعروف بالحصان، بحسبانه كائنًا خاصًّا ببلادٍ أجنبية اسمه «سيسو»، وأسموه Anshu Kar Ra أي الحمار الجبلي، كما ابتدعوا تقويمًا جديدًا يعتمد على التأريخ بسنى حكم الملوك، وأن الكاسيين أو الكاشيين قد أخذوا الخط المسماري واللغة البابلية وطوروها واستخدموها. ولأسبابٍ غير معلومة أصبحت تلك اللغة لغة عالمية. ويرفض «طه باقر» وجلة المؤرخين أن يكون ذلك بسبب قوة وتسلط أو نفوذ للكاشيين خارج الرافدين، وأن هناك آدابًا بابلية مكتوبة بالخط المسماري، قد وُجدت خارج الرافدين (كما في تل العمارنة بمصر)، ولكن باللغة الحورية.

وهنا عدة مسائل بحاجةٍ إلى توضيحٍ وحلول، تتمثل في تساؤلات بسيطة لكنها إشكالية في التاريخ أهمها:

- من هم «الكاشيون/الكاسيون/الهكاشيون» الذين احتلوا الرافدين ما يزيد على أربعة قرون؟
- ما هي علاقتهم بالحيثيين والملك الحيثي مورشيليش؟ وما هو السر الذي دفع الملك الحيثي لفتح بابل، وتركها ببساطة للحكام الكاشيين الذين أصبحوا قلة حاكمة في بلاد الرافدين.
- لماذا لم يدونوا شيئًا بخطهم وأخذوا الخط واللغة البابلية وطوروهما، وكتبوا بهما اللغة الحورية؟ فهل لم يكن لهم خط أصلًا ولم يعرفوا الكتابة؟

- كيف نفسر الفجوة الزمنية بين ما دونته المراجع الكوشية عن بدء حكمهم، والفارق الزمني بين هذه البداية وبين نهاية حكم الأسرة البابلية الأولى؟ وإذا كان الملوك السبعة الأول قد حكموا خارج البلاد؛ فأين كان حكمهم هذا؟
- معلومٌ أن بلاد بابل لم تقم دولة مركزية مستقرة متماسكة، للقطر جميعه إلا في حالات نادرة وقصيرة، لكن زمن الكاشيين كان القطر كله وحدة مركزية واحدة، فكيف نفسر ذلك؟
- ومعلومٌ أن العراق القديم كان دومًا مفتوحًا على جيرانه في معارك هجومية أو دفاعية طوال الوقت، وهو مال لم يحدث زمن الحكم الكاشي، لماذا؟
- نعلم من المأثور الديني الإسرائيلي والإسلامي، أن باني برج بابل هو المعروف باسم نمروذ بن كوش، ونعلم من التاريخ أن بانيه هو كوريكا لزو الثاني، فهل كانا شخصًا واحدًا؟
- من أين جاء الكاشيون بحمار الجبل «سيسو» أو الحصان؟

وسبق وافترضنا أن الشاسو المذكورين في المدونات المصرية، هم الكاشو أو الكوشيون الذين تموضعوا في بلاد آدوم، فهل ثمة علاقة بين هؤلاء الكاشو أو الكاشيين وبين محتلي بلاد الرافدين، باسم الكاسو أو الكاشو أو الكاشيين؟

مجموعة من التساؤلات لا إجابة واضحة عليها، إلا بمزيدٍ من البحث وراء تلك الهجرات التي غمرت المنطقة، نضيف إليها الآن مزيدًا من التساؤلات الإشكالية التي تتمثل في العنصر الحليف للعنصر الكوشي، أقصد: الحيثيين، وهو ما سيزيد من البلبلة، لكنه واسطة العقد لحل كثير من الإشكاليات.

في الوعد المعروف بالكتاب المقدس، الذي قطعه الرب على نفسه لخليله إبراهيم يقول النص:

> في ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقًا قائلًا: لنسلك أُعطِي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات: القينيين والقنزيين والقدمونين والحيثين والفرزيين، والرفائيين والأموريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين.
>
> (تكوين، ١٥: ١٨–٢١)

من بين الشعوب والقبائل التي يعددها المقدس التوراتي، لسكان المنطقة الممنوحة لإبراهيم ونسله، نجد ذلك الاسم (الحيثيين)، ثم تتواتر النصوص المقدسة لتؤكد أن

العنصر الحيثي كان عنصرًا قائمًا ومستقرًّا في أرض فلسطين، بل كانوا ملاكًا للأراضي، لكنهم في الوقت نفسه يظهرون كما لو كانوا عنصرًا غير أصيل بالمنطقة؛ لأن أرض فلسطين كانت تخصص بكونها أرض كنعان تحديدًا.

والملاحظة المهمة بشأن الحيثيين، في النصوص التوراتية، هو الهيئة السيادية التي يتخذها الحيثيون هناك، التي أوجبت على البطرك إبراهيم السجود لأشخاصٍ عاديين من بينهم، وهو يطلب منهم شراء مغارة بفلسطين، ليدفن فيها جسد زوجته سارة، والنص يقول:

> وماتت سارة في قرية أربع التي هي حبرون في أرض كنعان ... وقام إبراهيم ... وكلم بني حث قائلًا: أنا غريب ونزيل عندكم، أعطوني ملك قبر معكم لأدفن ميتي ....
>
> فقام إبراهيم وسجد لشعب الأرض لبني حث ... وبعد ذلك دفن إبراهيم سارة في مغارة حقل المكفيلة، أمام ممرا التي هي حبرون في أرض كنعان، فوجب الحقل والمغارة التي فيه لإبراهيم ملك قبر من عند بني حث.
>
> (تكوين، ٢٣: ٢٠، ١٩، ٧، ٤، ٣، ٢)

والواضح في التوراة من البدء أنها تنسب أرض فلسطين إلى الكنعانيين دومًا، وإلى الأموريين أحيانًا، لكنها تجعل الحيثيين عنصرًا أصيلًا فيها، فشجرة الأنساب التوراتية تجعل الحيثيين أبناء كنعان بن سام بن نوح، فتنسب لكنعان بن سام ابنًا اسمه «حثا» (تكوين،١٠: ١٥)، مع إشارةٍ أخرى تجعل أورشليم رمزيًّا بنت سفاح لأمٍّ حيثية من رجلٍ أموري.

> قال السيد الرب لأورشليم: مخرجك ومولدك من أرض كنعان أبوك أموري وأمك حيثية.
>
> (حزقيال، ١٦: ٣)

وقد قصد النص إيضاح أن أورشليم رمز الشعب الإسرائيلي نفسه، هجين من شعبين متباعدين: الأب أموري وعرفناه حموري عموري قادمًا من جنوب الجزيرة والأم حيثية.

وظل الحيثيون يتواجدون كعنصرٍ هام وبارز في فلسطين، حسبما جاء بالكتاب المقدس، إلى زمنٍ يبعد إلى ما بعد ملك سليمان، وكان أبرز قواد جيش داود من العنصر الحيثي «أوريا الحيثي مثلًا»، كما تزوج ولده سليمان من نساء حيثيات (ملوك أول، ١١: ١)، والأموريون كما قلنا كانوا عنصرًا جنوب جزيري قادمًا برفقة الكوشيين، بينما الحيثيون من أصولٍ شمالية هندوآرية فصيحة.

وقد سبق وأوردنا نصًّا يوزع عناصر سكان فلسطين على خريطتها (سفر العدد، ١٣: ٢٧–٣٢)، ويجعل الحيثيين من سكان جبال فلسطين، ولدينا هنا نص آخر يجعلهم يشغلون جميع المساحة الشمالية الواقعة بين جبال لبنان ونهر الفرات، وجبال لبنان في التوراة كان اسمًا يطلق على جبال فلسطين، بدءًا من الكرمل وصولًا إلى جبال لبنان الشمالية، والنص يقول ليشوع خليفة موسى بلسان الرب:

> قم واعبر هذا الأردن أنت وكل الشعب إلى الأرض التي أنا معطيها لهم … من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات، جميع أرض الحيثيين، وإلى البحر نحو مغرب الشمس يكون تخمكم.
>
> (يشوع، ١: ٢، ٤)

وهذا إنما يعني احتلال الحيثيين لجبال فلسطين، التي تعد امتدادًا جنوبيًّا طبيعيًّا لجبال لبنان، وإننا كلما اتجهنا شمالًا اتسعت الرقعة التي يشغلونها بالمنطقة، نحو نهر الفرات ونحو البحر المتوسط. لكن المثير للاضطراب والدهشة معًا، أننا نجد نصوصًا أخرى لا تشير إلى الحيثيين باعتبارهم يعيشون فقط خارج فلسطين، بل إن لهم ممالك ودولًا، وهو ما نجد التوراة تقوله في أزمنةٍ تالية أحدث، حول استيراد سليمان للخيل من مصر، والتجارة بها مع «ملوك الحيثيين وملوك آرام» (أخبار الأيام الثاني، ١: ١٧)، وهو الأمر الذي يتكرر في نصٍّ آخر يقول: «وكان مخرج الخيل التي لسليمان من مصر … وكانت المركبة تصعد وتخرج من مصر بستمائة شاقل من الفضة، والفرس بمائة وخمسين، وهكذا لجميع ملوك الحيثيين وملوك آرام» (ملوك أول، ١٠: ٢٩)، ثم بعد زمن سليمان أيام ملوك مملكة اليهود المنقسمة إلى إسرائيل شمالًا ويهوذا جنوبًا، نجد نصًّا يؤكد ذات المعنى، جاء في معرض الحديث عن حرب جرت بين الملك الآرامي بنهدد وبين مملكة إسرائيل الشمالية، عندما فر الجيش الآرامي من المعركة هاربًا، لما سمع جنوده ضجيجًا هائلًا لسلاحٍ وعربات وخيول، وقال أفراده بعضهم لبعض: «ها هو ذا ملك

إسرائيل؛ فقد استأجر ضدنا ملوك الحيثيين، وملوك المصريين ... فقاموا وهربوا في غبش الليل» (ملوك ثاني، ٧: ٦، ٧).

الحيثيون بهذا الشكل مشكلة، فهم ملوك على دولةٍ تقع خارج فلسطين، بل وملوك أقوياء يثيرون الفزع، وهو لغز كبير لا يمكن فهمه، في ضوء احتساب التوراة في أسفار أخرى، أن العنصر الحيثي عنصر يعيش في فلسطين الكنعانية، ويتناثر في أنحاءٍ أخرى حولها.

هذا ما كان عن نصوص المقدس التوراتي، أما علم التاريخ فيروي لنا رواية أخرى مبهرة، لكنها للأسف ستزيد الأمر غموضًا واضطرابًا وإلغازًا، فقد جاء في نصوص مصر القديمة، ما يشير إلى علاقاتٍ وطيدة لملوك مصر مع ملوك دولة، تسمى «خيتا» التي ترجمت أيضًا إلى الحيثيين، وهناك أيضًا نصوص مشهورة لمعاهدة سلام جرت بين الفرعون «رمسيس الثاني» وبين الملك الحيثي «حاتوشيليش» بعد معركة قادش الشهيرة. وقبل ذلك بسنوات، في الأسرة الثامنة عشرة، تقدم الفاتح الأعظم في تاريخ الشرق القديم «تحتمس الثالث» ١٤٩٠–١٤٣٦ق.م. شمالًا متجاوزًا سوريا، ليعبر الفرات الأعلى في هضبة الأناضول خلال القرن الخامس عشر قبل الميلاد، ليضرب قومًا جاء اسمهم في مدوناته «أهل خيتا».

وقبل ذلك بقرون، حوالي عام ٢٢٠٠ق.م. حارب «نرام سين» رابع ملوك أسرة أكد Akkad الرافدية، حلفًا مكونًا من سبع عشرة ملكًا، بينهم ملك باسم بامبا Bamba، وصفته نصوص الرافدين بأنه ملك حاتي، وضمن الحلف ملك آخر، لكنه آموري اسمه «حوار واس Huwruwas»، وهو الاسم الذي يعبر لدينا عن أصل حوري واضح. وبعد ذلك بما يزيد على ألف عام، أي حوالي ١١٠٠ق.م. نجد في نصوص الملك الآشوري تجلاتيبليزر الأول، أن سوريا الشمالية العليا تظهر باسم خاتي، وأن عاصمتها زمن تجلاتيبليزر كانت مدينة قرقميش داخل الحدود التركية الحالية، وهي ذات العاصمة التي اجتاحها قبل ذلك تحتمس الثالث زمن فتوحاته الكبرى.[٢٥]

واضح إذن أن المادة المتجمعة لدينا حول العنصر الحيثي تتفجر بالتناقضات الحادة، فالكتاب المقدس يظهر الحيثيين كعنصرٍ كنعاني يسكن فلسطين مرة، ومرة

---

[٢٥] إ. ر. جرني: الحيثيون، ترجمة د. محمد عبد القادر محمد، مطبوعات البلاغ، القاهرة، ١٩٦٣م، ص٢٣، ٣٧، ٣٨.

أخرى يظهرهم كقوة كبرى لها ملوك أقوياء خارج فلسطين. وعلم التاريخ يوضح لنا أنهم كانوا سكان الأناضول التركي ولا علاقة لهم بفلسطين، بل يجب استبعاد هذه العلاقة تمامًا؛ لأن الوثائق الحيثية المكتشفة حتى الآن، لم نجد بها ما يشير إلى هبوط الجيوش الحيثية جنوبًا، في أوج عظمة المجد الحيثي، لأبعد من دمشق جنوبًا، ولا نجد إشارة واحدة لدخولهم فلسطين إطلاقًا. وحتى المنطقة التي خضعت للحيثيين من بلاد الشام، فكانت على حساب التوسع الحيثي الحدودي الجنوبي، واقتصرت على المنطقة الواقعة شمالي قادش على نهر العاصي. ويقول المؤرخون إنه بعد انهيار دولة الحيثيين وتفككها إلى دويلات، لم نجد بين تلك الدويلات الحيثية دويلة واحدة تقع إلى جنوب حماة السورية، وقد شكلت مملكة دمشق الآرامية الناهضة حينذاك، حاجزًا بين الدويلات الحيثية شمالها وبين فلسطين جنوبها، حتى صرح «جرني» أهم باحث في تاريخ الحيثيين بقنوطٍ بالغ:

> «إن وجود الحيثيين في فلسطين قبل غزو إسرائيل لها (يقصد قبل خروجهم من مصر وغزوهم فلسطين [المؤلف]) يثير مشكلة عجيبة. وتجمع المعلومات المتزايدة عن أهل حاتي لم يوضحها، وإنما جعلها أكثر تعقيدًا.»[٢٦]

ومن هنا أخذ «جرني» — حلًّا للمشكلة — بالفرض الذي قدمه زميله «فورر»، واعتبره جرني حلًّا بارعًا؛ إذ يرجع «فورر» إلى سكان الأناضول قبل الحيثيين والمصطلح على تسميتهم «بروتوحيثيين» أحيانًا و«الحاثيين Hattians» أحيانًا أخرى، وأن لغتهم التي تكلموها أطلق عليها الحيثيون من بعدهم اسم لغة خاثيلي أو حاتيلي Hattili، وينطلق «فورر» من ذلك إلى افتراض أن تلك اللغة كانت في وقتٍ ما وسيلة تخاطب في منطقة واسعة جدًّا شملت فلسطين، وربما كان يقصد ما أشرنا إليه حول اللغة الكارية الحورية، وأن الحيثيين الذين رحل بعضهم من الأناضول جنوبًا وسكنوا فلسطين زمن الخروج حسبما نفهم من التوراة، إنما كانوا بروتو حيثيين يتكلمون اللغة الخاتيلية، وأدت ظروف لا نعلمها لاستمرار بقائهم في فلسطين، فأسماهم المأثور التوراتي باسم لغتهم، وهي اللغة التي استخدمها الحيثيون، فأصبحوا بذلك حيثيين يسكنون فلسطين في التاريخ التوراتي.[٢٧] (لاحظ هذا نموذج حل المشاكل السريع لدى المؤرخين المتخصصين).

---

[٢٦] نفسه، ص٨٣.

[٢٧] نفسه، ص٢٠.

وتدلنا رسائل تل العمارنة المصرية المحفوظة في مدينة إخناتون، على أن العالم في ذلك الوقت حوالي «١٣٧٠ق.م. زمن آمنحتب الثالث وولده إخناتون»، كانت تتقاسمه أربع دول كبرى هي: «مصر» التي امتدت سيطرتها إلى فلسطين وسوريا، و«بابل» التي حملت في ذلك الزمن اسم كاردونياش، و«ميتاني» المملكة الحورية الخورية التي تواضع المؤرخون على وضعها على حوض الفرات الأعلى بين الفرات والخابور، وكانت تحكمها طبقة أرستقراطية من أصل هندوأوروبي، ثم المملكة «الحيثية» في بلاد الأناضول.

وقد ظل أمر مملكة الأناضول الحيثية مجهولًا، فقط كنا نعرف أن هناك شعبًا اسمه الشعب الحيثي يعيش بفلسطين، وذلك من الكتاب المقدس، حتى تم اكتشاف رسائل تل العمارنة عام ١٨٨٧م، وتحوي رسائل دبلوماسية وإدارية واردة إلى الملك آمنحتب الثالث وولده إخناتون، وتغطي الفترة ما بين ١٣٧٠ و١٣٤٨ق.م. ورسائل كتبها ولاة مصر في سوريا وفلسطين، وقد جاءت في تلك الرسائل إشارات متعددة لملك على دولة اسمها «حاتي»، وإلى تحركات جيوش حاتي. كما تم العثور على خطاب كتبه الملك الحيثي «شوبيلو ليوماش»، يهنئ فيه «إخناتون» لتوليه العرش، لكن شوبيلو ليوماش ظل ملكًا مجهولًا لدولةٍ مجهولة حتى عام ١٨٧٢م، حين تمكن «وليم رايت» من نقل خمسة أحجار كانت ضمن أحجار منازل مبنية في حماة السورية وفي حلب، بعد أن اكتشف عليها هيروغليفية شبيهة بالمصرية، لكنها ليست مصرية، فأطلق عليها اسم الخط الحاماتي Hamathit نسبة إلى حماة؛ حيث عثر على الأحجار. ولم يمضِ غير بضع سنوات حتى تم اكتشاف نقش صخري عظيم، على ترعة إفريز Ivriz في جبال طوروس مدون بالخط الحاماتي، وهو ما وجه الاهتمام إلى آثار وأطلال ونقوش كانت مهملة، وتقع عند بوغاز كوي Boghaz Koy والجاهويوك Alaja Huyuk عند منحنى نهر الهاليس Halys المعروف الآن باسم «قيصل يرموق» في شمال تركيا الحالية.

لفتت أنظار الباحثين بوابة حجرية كبرى، يقف على جانبيها تمثالان لأبي الهول، فبدأت حفائر المتحف البريطاني عام ١٨٧٩م لتكشف عن كثيرٍ من النقوش الهيروغليفية الحاماتية، حتى تمكن «هوجو فنكلر Hugo Winckler» من الحصول على تصريحٍ بالحفر سنة ١٩٠٦م في بوغاز كوي ليكتشف كشفه الهائل، حيث عثر على حوالي ١٠٠٠٠ لوح مسماري مكتوبة بلغة غامضة، تشبه ما عثر عليه في مكتبة رسائل تل العمارنة.

وبالبحث الدءوب أعلن أن تلك الثروة الهائلة، ترجع إلى عاصمة لمملكةٍ عظمى كان مقر عاصمتها، حيث عثر على تلك الألواح، أي في بوغاز كوي التي اكتشف أنها عاصمة

تلك المملكة — وكانت تحمل اسم خاتوشاش Hattusas أو «حاتوسا»، وأن تلك المملكة كانت تعرف في زمانها بمملكة الحيثيين، وأنها استخدمت في الكتابة خطها الهيروغليفي. أما العجيب فهو أن الألواح الهائلة العدد، فقد تم التأكد أنها كتبت بخطٍ آخر، وباللغة الحورية التي كتبت بها ألواح العمارنة في مصر. وكان المؤرخون يعلمون أن هناك دولةً مجهولة، دفعت الجزية للملك رمسيس الثاني كانت تحمل اسم «خيتا العظمى»، لكنهم افترضوا لها موقعًا في بلاد سوريا إلى جوار «ميتاني» المزعومة، حتى أعاد ذلك الاكتشاف العظيم الأمور إلى نصابها، ثم تتالت الاكتشافات المبهرة في العاصمة «خاتوشاش» الواقعة على مبعده مائة ميل شرقي أنقرة الحالية. ولما كان قد وضح أن الحيثيين يصرفون الأسماء بحرف «ش SH» و«تش CH» تلحق بنهاية الاسم، فإن اسم العاصمة دون تصريف يصبح «خاتوشا» أو «حاتوسا»، وهو اسم يحمل في طياته اسم الحيثيين.

ومن الرسوم والنقوش وبقايا جماجم هؤلاء القوم، أمكن تكوين فكرة واضحة عن سماتهم الجسدية، فهم قوم مكتنزون، عظام أوجههم بارزة، أنوفهم طويلة قليلًا وأشبه بمنقار الببغاء، ذقونهم قصيرة.

واكتشف أنه في ذات المكان وقبل ظهور الحيثيين أو مجيئهم من مكانٍ ما في الشرق، كان يعيش قوم يتحدثون لغة باسم الحاتيلية ويطلقون على أنفسهم عبارات: رجال حاتي، نساء حاتي، أبناء حاتي، ويرى «إيفارلسنر» أنه من هنا جاء اسم الحيثيين، الذي أطلق على الأقوام الجديدة التي احتلت الأناضول، وتركت لنا هذا التراث العظيم. ويرى «مورتمارت» و«زومر» أن ثقافة الحيثيين جميعًا تعود إلى أبناء حاتي الأصليين، مما يشير إلى أن الحيثيين حين وفدوا على الأناضول كانوا بلا ثقافة محددة تقريبًا، فأخذوا بثقافة البلاد التي احتلوها. وقد أكد ذلك «بيتل» الذي عاش سنوات في خاتوشا يبحث، ليكتشف أن الحيثيين الذين سيطروا هناك كانوا متخلفين ثقافيًّا عن السكان الأصليين، وبعد ذلك اكتسبوا حضارة الحاتيين وتشربوها.[٢٨]

ويحيطنا «وليم كون» بخبر شديد الأهمية لعملنا هذا، فيقول: إن الحيثيين كانوا أول أمة عرفت خام الحديد واستخرجته وصنعته، وأنهم كانوا يتكلمون لغة هندوآرية. ويبدو أن معرفة تعدين هذا المعدن، كانت كشفًا خاصًّا بهم عرفوه من قبل في وطنهم الأصلي الذي هاجروا منه بوسط آسيا. أما السمة الأخرى التي لا تفوتنا، فهي أن الخيل لم يظهر

[٢٨] إيفارلسنر، الماضي الحي … سبق ذكره، ص٨٨، ٨٩.

في المنطقة الشرق أوسطية، وكذلك العربة التي يجرها الخيل، قبل ظهور الحيثيين فيها. ويبدو لنا أن إشارات أهل الرافدين إلى حمار البلد الأجنبي أنشوكرا Ansha-Kar-Ra، كانت نتيجة مشاهداتهم له في بلاد جيرانهم الجدد في شمالهم التركي. وقد ثبت أنهم أقدم أمة عرفت الحديد وتصنيعه، من رسالة وجهها الملك الحيثي حتوشيليش إلى ملكٍ من أصدقائه، يعتذر له عن تلبية طلبه؛ لأن موسم إنتاج الحديد ذلك العام كان رديئًا، مع وعد بإرسال المطلوب إلى أخيه الملك، حالما ينتهي الصناع من ذلك.[٢٩]

وفي الموسوعة الأثرية العالمية نجد تحت مادة عصر الحديد Iron Age، إشارة إلى خطاب وصل الفرعون رمسيس الثاني من الملك الحيثي، يقول إنه قد أرسل إليه خنجرًا حديديًّا يليق بالملك، وتشير الموسوعة إلى أن الحديد وصل بلاد اليونان قادمًا من منطقة تقع في محيط بحيرة فان وبحيرة قزوين، وأنه حول ذلك الوقت عرفت المملكة الحورية المجاورة للحيثيين صناعة الحديد منهم (الموسوعة تذهب مع الفرض المعتاد في وضع المملكة الحورية «ميتاني» بأعالي الرافدين بين الفرات والخابور، بجوار الحيثيين جنوبًا منهم مباشرة)، وأن من منتجات الحديد الميتاني ذلك الخنجر المحلى بالذهب والأحجار الكريمة، الذي تم العثور عليه في مقبرة «توت عنخ آمون».[٣٠]

وقد عبد الحيثيون إلهًا يظهر في هيئة رب جنود، في نقشٍ يؤكد معرفتهم المبكرة للعجلة والحديد، فهو يركب عجلة قتال ممسكًا ببلطة حديدية في يد، وبالصاعقة في يدٍ أخرى يركض بها على قمم الجبال،[٣١] فهو إله رعد وبرق مثل البعل، ويرمز له بدوره بالثور، ثم تنسب له الأساطير الحيثية أنه هو الذي قتل التنين المتعدد الرءوس المعروف باسم لواياثان،[٣٢] وهو ذات الفعل التأسيسي الذي قام به الإله في الديانة الكنعانية، عندما قتل تنينًا بنفس الصفات وبذات الاسم، في ملحمة البعل التي عثر عليها في أوغاريت/رأس شمرا، ثم كرر الإله يهوه ذات البطولة بقتلة لواياثان الحية المتعددة الرءوس بالكتاب المقدس (للمزيد ارجع لكتابنا: الأسطورة والتراث).

[٢٩] كارلتون كون، القافلة، قصة الشرق الأوسط، ترجمة برهان دجاني، دار الثقافة، بيروت، د.ت، ص٣٢٥: ٣٢٧.

[٣٠] الموسوعة الأثرية العالمية ٣٧٩.

[٣١] كارلتون كون، القافلة ... سبق ذكره، ص٣٢٨.

[٣٢] جرني، الحيثيون ... سبق ذكره، ص١٨٩.

ومع دراسة الوثائق الحيثية أمكن معرفة أنهم كانوا يحبون الرجوع إلى أصلٍ ملكي مع أول ملك لهم باسم لابارناس Labarnas؛ لذلك يبدأ المؤرخون به تاريخ الحيثيين، ويقولون إنه في عهد خليفته خاتوشيليس الأول Hattusilisi، تم نقل العاصمة من مدينة باسم كوسارا إلى خاتوشا أو حاتوسا (بوغاز كوي)، وبعده بدأت المملكة تتسع، وتخرج جيوش مملكة حيثي من خلف الحواجز الجبلية في طوروس نحو الجنوب، اصطدمت بداية بمملكة يمخد Yamhad الغنية، وكانت عاصمتها حلب Aleppo الحالية، وذكرها الحيثيون باسم خالاب Khalap، وفي عهد الملك الحيثي مورشليش قام الحيثيون بغزوة على مملكة بابل، وأسقطوا دولة بابل الثانية، حيث نجد في آثارها نصًّا يؤكد تلك الغزوة يقول: «إلى شمشو ديتانا زحف رجال حاتي، وزحفوا إلى بلاد أكد.» وقد ربط ذلك الحدث بين ثبت التاريخ البابلي وثبت التاريخ الحيثي،[٣٣] وبدأ تأريخ الحيثيين من ذلك العام أي حوالي عام ١٥٩٤ق.م. لكن الغريب الذي يشكل لغزًا غير مفهوم، هو انسحاب الحيثيين من بابل بعد فتحها، ليتركوها فريسة لغزاةٍ عرفهم التاريخ الرافدي باسم الكاسيين، فاحتلوا بابل عام ١٥٩٥م في إثر الغارة الحيثية مباشرة، وسيطروا عليها أربعة قرون متصلة، حتى عام ١١٦٢ق.م.[٣٤] ولمزيدٍ من الدهشة لا يأتي عام ١٤٠٠ق.م. حتى نجد الثقافة الحورية واضحة تمامًا من بلاد الأناضول شمالًا حتى العقبة جنوبًا عند آدوم.[٣٥]

وفي عهدٍ متأخر زمن الملك الحيثي «تود خالياش الرابع» ثم «آرندوانداس الرابع»، تظهر في غربي الأناضول قوة جديدة حول الجزر اليونانية «الفريجيون»، في موجة هجرة كاسحة نحو الشرق والأناضول، قادمة من جزر بحر إيجة وكريت وسردينيا، وتهاجم مصر في نفس الوقت لكنها تنكسر هناك،[٣٦] ولا تستطيع الدخول وتتالى الضربات على الدول الحيثية، بينما في ذات الزمن تقص علينا سجلات «رمسيس الثالث»، كيف أن الجزر اليونانية اضطربت، وكيف غزت تلك الجزر الأناضول وهرب الحيثيون وشعوب أخرى إلى الجنوب السوري، ليصبح الفريجيون سادة الأناضول بعد الحيثيين، لتنتهي الدولة الحديثة، وتبقى ثقافتها في المقاطعات الجنوبية السورية ضياء غسق باهت،

---

[٣٣] نفسه، ص٤١–٤٣.

[٣٤] طه باقر، الوجيز ... سبق ذكره، ص٤٤٨، ٤٤٩.

[٣٥] جرني، الحيثيون ... سبق ذكره، ٣٨: ٦٦.

[٣٦] سامي سعيد، الرعامسة، سبق ذكره، ص٦٧.

استمر حوالي خمسة قرون. بينما استمرت وثائق آشور تشير لسوريا وطوروس باسم بلاد حاتي، التي سقطت بعد ذلك بزمان في قبضة الآشوريين، لينتهي ذكر الحيثيين وثقافتهم من التاريخ، وينسى عالم الإنسان ذلك الشعب وتلك الإمبراطورية، ويظل ذكرهم في الكتاب المقدس حكاية أسطورية لا معنى لها. واحتسبوا في أحيانٍ أخرى مجرد قبائل كأي قبائل، كانت تعيش في منطقة فلسطين وجنوبها، وعندما توغَّل الرحالة الإغريق بعد ذلك في بقاع تركيا، وجدوا هناك مقاطعات آشورية فحسب، لا وجود لاسم حاتي والحيثيين،[٣٧] وظل ذكرهم في الكتاب المقدس يثير سؤالًا محيرًا لزمنٍ طويل: من هم الحيثيون؟ وحتى بعد اكتشاف دولة الحيثيين ووثائقها، ظل وجود الحيثيين بفلسطين مشكلة تستعصي على الحل، حيث لم يقدم لنا التاريخ كعلمٍ ما، يفيد بأن الحيثيين قد دخلوا فلسطين أو ضموها لإمبراطوريتهم يومًا، ولم يبقَ مفهومًا بالكتاب المقدس، تلك النصوص التي وردت في سفر ملوك ثاني (٧: ٦) وأخبار أيام الثاني (١: ١٧)، وتتحدث عن ملوك الحيثيين وحيث إن زمن ملوك إسرائيل يقع بعد عام ١٠٠٠ق.م. فهو ما يعني أن المقدس التوراتي كان يحدثنا عن مماليك حيثية، بينما لم تكن هذه المماليك موجودة حينذاك، وهي الإشارة التي رآها عالم الحيثيات «جرني»، تتحدث عن مقاطعاتٍ سورية ظلت حيثية الثقافة واللغة، بعد سقوط دولة الحيثيين بخمسة قرون تقريبًا، وقتما كانت الوثائق الآشورية تشير لتلك المقاطعات السورية الشمالية باسم «حاتي»،[٣٨] وهو بدوره ما لا يفسر وجود الحيثيين داخل فلسطين كعنصر ضمن عناصر الشعوب المقيمة فيها.

وإضافة لمشكلة وجود الحيثيين كعنصر مستوطن أصيل بفلسطين، فإن هناك أمرًا آخر يشكل لغزًا، فحيث سجلت المصادر الحيثية أن دولتها القديمة التي أسسها «لابرناس» كانت دولة إمبراطورية، ولا نجد شيئًا واضحًا في مدونات المنطقة الأخرى، عن توسع الحيثيين فيما عدا وصوله سوريا، وإسقاط الملك الحيثي مورشيليش لدولة بابل الثانية، ثم انسحابه دون سبب واحد واضح، ليتركها طواعيةً لغزوٍ آخر مجهول الشأن يستولي عليها، جاء ذكر أصحابه باسم العنصر الكاسي أو الكوشي، هذا ناهيك عما ذكرته النصوص الحيثية، أن جزيرة ألاشيا/قبرص كانت تابعة للحيثيين، وهو ما يراه «جرني» أمرًا غير مفهوم؛ لأننا لو صدقناه فذلك يعني خروج الحيثيين من وراء

---

[٣٧] جرني، الحيثيون ... سبق ذكره، ص٣٣–٦٦.

[٣٨] نفسه، ص٦٠.

جبال آسيا الصغرى،[٣٩] ومعنى ذلك أنهم قد بدءُوا تكوين إمبراطورية لم تزل التفاصيل بشأنها مجهولة تمامًا.

هنا يمكن العثور على طرف الخيط في شبكة الخيوط المعقدة، التي أدت إلى تضاربٍ شديد في تحديد الأصل الجنسي للهكسوس، وهو ما سيساعد بعد قليل في تفسير وجود المفردات والصياغات الهندو الآرية إلى جوار السامية فيما تركه الهكسوس من آثارٍ قليلة، كما يمكن أن يساعد في حل مشكلة الموطن الأصلي للهكسوس، والتي تأرجحت بدورها بين جنوبي جزيرة العرب وبين محيط قزوين في أرمينيا، ثم تفسير مذهب بعض المؤرخين القائل بأصول إفريقية للساميين، استنادًا لمقارباتٍ لغوية مقنعة. فكما قلنا ذهب فريق كبير إلى أن جزيرة العرب كانت أصلًا منشأ الساميين، ثم خالفهم فريقان: الأول يقول بمجيء الساميين من بلاد أرمينيا، والثاني فريق يتوارى في الظل، ذهب إلى أن الوطن الأصلي للساميين هو شمال شرقي أفريقيا (سيناء)، حيث عُثر على أدلةٍ لغوية بالكتابة المعروفة بالسينائية، وأن تلك الكتابة تجمع سماتٍ سامية مع سماتٍ مصرية قديمة في اللفظ وفي المعنى، وأن تشابه السامية مع المصرية بعد ذلك يمتد إلى اللغة القبطية ولغات البربر والكوشيين والصومال وأثيوبيا. كما أن العنصرين السامي والحامي يتشابهان في الصفات الجسدية، خاصةً إذا ما نظرنا إلى جنوبي بلاد العرب وبلاد أثيوبيا، حيث لم تكن الحبشة منفصلة عن اليمن، وكانتا تحسبان دولة واحدة رغم مضيق المندب بينهما، وأطلق اليونان عليهما معًا اسمًا واحدًا هو «أثيوبيا».[٤٠]

أما الحيرة الناتجة عن الحلف الهكسوسي العظيم؛ فقد تجلت في قول صموئيل لانج: «من الأمور التي يحوم حولها قدر كبير من الشك معرفة أصل هؤلاء الغزاة الذين عُرفوا بالهكسوس أو ملوك الرعاة، وقد كانوا يتألفون على الأرجح من قبائل بدوية من الكنعانيين والعرب وعناصر سامية أخرى، لكن يبدو أن الحيثيين الطورانيين، كانوا على صلةٍ بهم، وأن قادتهم (أي قادة الحلف الهكسوسي [المؤلف]) كانوا من الطورانيين «سكان الأناضول [المؤلف]»، إذا حكمنا بما نشاهد من صور وتماثيل ملكين من آخر أسرة من الهكسوس، كشفهما حديثًا نافيل Naville في بوباسطة، وتدل دلالةً قاطعة على أنها طورانية الملامح بل أصيلة.»[٤١]

[٣٩] نفسه، ص٧٢.

[٤٠] مظفر نادوثي، التاريخ الجغرافي ... سبق ذكره، ص١١٥–١٢١.

[٤١] نفسه، ١٦١.

وهي الحيرة ذاتها التي تضاعفت بعد كشف مدينة أوغاريت في رأس شمرا بجوار اللاذقية، «فقد كشفت الألواح أن شعب أوغاريت الصغير هذا، قد تمازج فيه أكثر من شعب وعنصر؛ فقد كانت فيه في وقتٍ واحد قبائل وجماعات أكادية وحيثية ومينوية ومصرية وعمورية، لكن الجماعة الأكثر عددًا كانت جماعة الحوريين.»[٤٢] ويقول الأركيولوجي «شيفمان»: «وكان التخاطب في أوغاريت يتم بلغتين محليتين هما: السامية التي يسميها علم الساميات المعاصر بالأوغاريتية وبالحورية. أما اللغة الثانية فهي الأكادية التي اقتبست عن بلاد الرافدين، وقامت بدور الوسيط العام كوسيلة للتخاطب المكتوب بين الدولة الأوغاريتية وبقية الدول، وبين الجماعات الإثنية، وكذلك كانت لغة الشئون العملية والمراسلات.» ثم يعود إلى اللغة الحورية ليقول: «كانت اللغة الحورية نسيبة اللغة الأوغاريتية وعدد آخر من لغات شمال القفقاس المعاصر.»[٤٣]

وهكذا بعد أن أكد لنا شيفمان أن الحورية لغة سامية، يعود ليقول إنها نسيبة لغة شمال القفقاس، وهي لغة هندو آرية (؟!)، دون أن يشعر بأي اختلال (؟!)

وما يعضد أمرنا من وثائق أوغاريت (تل شمرا الآن على الساحل السوري)، ذلك النص الذي يشير إلى خضوع المدينة مكرهة لمحتلٍّ غريب الشأن، هو مزيج من الكوشيين والحوريين والحيثيين والقبارصة، وأنهم ينتمون إلى مدينةٍ جامعية واحدة، والنص يتحدث عن قربان يتقدم به شعب أوغاريت للإله. والنص يقول:

> ويقدمون ضحية حمارًا ويغني ابن أوغاريت الأغاني، ويزينون أطراف الجدران في أوغاريت، ويتزين «بامعان» ويتزين «عروماتو» ويتزين ... (تلف بالنص) ويتزين «نقمد».
>
> وقبائل الحوريين
> وقبائل الحيثيين
> وقبائل الآلاشين
>
> (آلاشيا هي قبرص [المؤلف])

٤٢ شيفمان، ثقافة أوغاريت ... سبق ذكره، ص١١٣.

٤٣ نفسه، ٣١.

والقبائل المكروهة، القبائل التي نهبتكم، القبائل التي أذلتكم.

قبائل المدينة المتسلطة

ها نحن نقدم قربانًا ونذبح ذبيحة، فليعلو هذا الحمار إلى قبيلة أبناء «إيلو».[٤٤]

(أبناء إيلو أي أبناء الله [المؤلف])

ثم نتابع السعي وراء كل ما يؤيدنا، فنجد وثائق مدينة دولة «إيبلا»، التي تعود بتاريخها إلى نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، تحدثنا عن مجتمعٍ باسم ديتانو بالكتابة «ديدانو»، ويقول «شيفمان»: إن هذا الاسم أطلقه أهل إيبلا على جبال باسم «آمور». ويلحظ شيفمان أن اسم ديدانو يتطابق مع اسم ددان شرقي آدوم، وأن اسم جبال آمور ويتطابق مع اسم جبال الأموريين، لكنه لا يرى وجوب مخالفة الرأي السائد فيقول: «ويبدو أن تطابق هذا الاسم مع اسم أحد مجتمعات شمال شبه جزيرة العرب ... مجرد مصادفة؟!»[٤٥] هكذا (؟!)

ثم يقف «شيفمان» مع اصطلاح «رباتي RP. THT»، الذي يرد بكثرة في الألواح الأوغاريتية، وهو ذات اصطلاح «رفائي» و«رفائيين»، الذي يرد بكثرة في التوراة للإشارة إلى الشعب الطويل العملاق، ويكتشف شيفمان في نصوص أوغاريت أن الرباتيين قد اتحدوا مع شعب ديدانو، وشكلوا جماعة واحدة ينتمي إليها جميع أهل منطقة «ددان» جنوب شرقي آدوم، وأن هذا الاتحاد جاء تفصيله وتعداد أعضائه في سفر التكوين (١٥: ١٩–٢١)، وقد رجعنا من جانبنا نبحث وراء هذا النص، الذي أشار إليه «شيفمان»، فوجدناه فعلًا يعدد أطراف ذلك الحلف كالآتي:

القينيين والقنزيين والقدمونيين والحيثيين والفرزيين والرفائيين والأموريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين.

ثم يضيف شيفمان أن الرباتين وُصفوا في وثائق أوغاريت بأنهم «شعب عظيم كثير العدد طويل القامة»، وهو ذات وصف التوراة للعمالقة بالنص كما سلف إيراده.[٤٦] أما

---

[٤٤] نفسه، ٨٨.

[٤٥] نفسه، ١٠.

[٤٦] نفسه، ٧٣.

الأشد تلاقيًا مع فروضنا فهو التصور الأوغاريتي عن الرباتيين، باعتبارهم جنسًا متميزًا هجينًا ينتمي من جانب لجنس البشر، لكنه من جانبٍ آخر ينتمي إلى عنصر الآلهة.[٤٧] وهو ما يذكرنا بالأسطورة التوراتية عن الجبابرة، الذين كانوا نسلًا مميزًا من أبناء الله وبنات الناس، الذين اصطلح التاريخ على تسميتهم بالعمالقة.

ومن الطيب فعلًا ثراء تاريخنا العربي، الذي سجل ذكريات تاريخية قديمة عن انتشار العماليق في المنطقة، والمناطق التي حكموها، وأن بني حام (المصريين) قد طردوهم من تلك المناطق، وقد تم ذلك التسجيل مع بعض الالتباسات، التي عادة ما شابت الكتابات التاريخية العربية، ونموذجًا لذلك ما جاء عند ابن قتيبة الدينوري في كتاب المعارف؛ إذ يقول:

> وكان من بينهم العرب العمالقة، الذين كانوا يتألفون من قبائل مختلفة، والذين انتشروا في بلادٍ متعددة، ومن بينهم ملوك مصر وبابل.

وما جاء عند ابن خلدون عالم الاجتماع العربي في كتاب «العبر وديوان المبتدأ والخبر»؛ إذ يقول:

> إن عادًا والعمالقة حكموا العراق، ويقال إنه لما طردهم أبناء حام هاجروا من بابل إلى بلاد العرب.[٤٨]

وما جاء عند اليعقوبي وهو شرح أن ملك العمالقة على مصر كان طارئًا عليها، وحدث لأسبابٍ آنية حينذاك، فيقول:

> ولما اتخذ المصريون النساء ملكات عليهم، طمع العمالقة ملوك سوريا (سوريا هنا تعني بر الشام جميعًا [المؤلف]) في غزو مصر، ومن ثم عاث الوليد بن دومة فيها فسادًا، وأجبر المصريين على الاعتراف به ملكًا عليهم، وقد حكم مصر مدة طويلة، وخلفه بعد موته ملك آخر من العمالقة هو ريان بن الوليد الذي عاصر يوسف.

---

[٤٧] نفسه، ٧٤.

[٤٨] مظفر نادوثي، التاريخ الجغرافي ... سبق ذكره، ١٤٠، ١٤١.

وهو ما يعني أن دخول بني إسرائيل مصر زمن يوسف، قد حدث بينما كانت مصر واقعة تحت احتلال العماليق بمدةٍ طويلة.

وهنا يورد لنا ابن خلدون سببًا آخر لاحتلال العمالقة مصر؛ لأنه لم يقتنع بسوء حكم النساء، فيقول:

> وقد طلب بعض الملوك القبط في مصر المعونة من أحد ملوك العمالقة في عصرهم، فاستجاب لرغبته لكنه احتل مصر لنفسه.

هذا بينما يؤكد ياقوت الحموي:

> إن فراعنة مصر كانوا من العمالقة، وكذلك كان فرعون إبراهيم وفرعون يوسف وفرعون موسى.[٤٩]

وفي كتب الأنساب نجد أن:

> العمالقة من ملوك حمير كانوا بالشام، منهم الزباء قاتلة جذيمة الأبرش، والعماليق من ولد عملق بن لاوذ بن سام، منهم الفراعنة ملوك مصر … والعنقاء «العناقين = العماليق»، لقب ثعلبة بن عمرو بن عامر الأزدي.[٥٠]

ومن المدهش حقًّا أن يطلق المؤرخون العرب، على أول ملك هكسوسي لمصر هو فاتحها اسم «شداد»، وهو الأكثر تداولًا في الكتابات العربية، كأول ملك عماليقي على مصر، وليس الوليد بن دوما، وهو ما يلتقي تمامًا مع اسم أول ملك هكسوسي، حدثنا عنه مانيتون المؤرخ المصري، وكذلك بردية تورين باسم «شلات»، أو مع التصريف اليوناني «شلاتيس» أو «شلاد»، وهو ما لا يلتقي معه مبنًى فقط، بل في المعنى أيضًا، فكلمة شداد تعني القوي الشديد، وكذلك تعني ذات المعنى كلمة Sallat في اللغات السامية، ومنها «شلات»، ومنها أيضًا سلطنة وسلطان وسلطة.

ويلخص لنا «جارستانج» أمر الحيثيين، فنراهم مجموعة أجناس وأحلاف، وذلك في قوله إن «القبائل الحيثية كانت تتكلم بما لا يقل عن ست لغات مختلفة، إلا أنه يتضح بعد

---

٤٩ نفسه، ص١٤٩–١٥١.

٥٠ الويسي، اليمن … سبق ذكره، ص١٤٨.

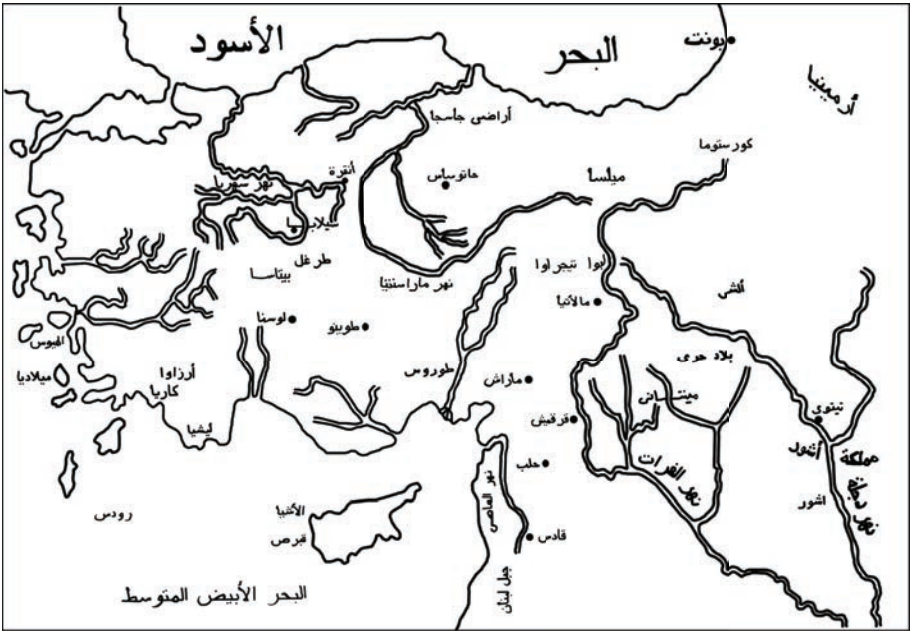

شكل رقم «١٣٠»: بلاد الحيثيين/الأناضول/تركيا اليوم.

إلى أي حد يدل اختلاف طرق الكلام ولغات هذه القبائل، على وجود تباين حقيقي بين أجناس الناطقين بها. وقد أظهرتها الرسوم المصرية المتأخرة على أربع أو خمس سلالات (هل ما زلنا نذكر المدينة الخماسية والحلف الخماسي؟) من الفصائل التي حاربت فرعون، بل إن آسيا الصغرى (تركيا [المؤلف]) ما برحت حتى اليوم آهلة بأقوامٍ غير متجانسة، منها الجركس والأرمن والأكراد واليونان يحتفظون بجنسياتهن، ويتكلمون لغتهم الخاصة. وكانوا يجنحون أول ما ظهروا إلى الاندماج في حلفٍ سياسي يؤلف بينهم. وخضعوا بصفةٍ عامة لسلطان قبيلة خيتي»،[٥١] لكن جارستانج يذهب مع الجميع إلى موضعة «ميتاني» في أعالي الرافدين بجوار الجانب الشرقي للحيثيين، فيقول: إن

[٥١] جارستانج، إمبراطورية الحيثيين، ترجمة دريني خشبة، تاريخ العالم الثاني المجلد الثاني، النهضة المصرية، القاهرة، د.ت، ص٩، ٨.

شكل رقم «١٣١»: الفينيق الرفائي/الرفاعي/صاحب العصي الحيات يبارك الملك الفرعون.

الملك الحيثي سبليوليوماس «استغل اتفاقه مع الحريين فأخذ يرسم خططه على نطاقٍ عسكري أوسع أفقًا، فها هو ذا يعبر الفرات عند منابعه العليا، ولعل ذلك كان عند ملطية، فيجتاح أرض عيسووه المقابلة، التي كانت لا تزال تعترف بنفوذ دوشراتا على ما يظهر، فأذل أهلها وأمن بإذلالهم على سلامة هذا الطريق البالغ الأهمية، وأنجز استعداداته فعبر

الفرات بكامل قوته، ثم انتهى به الزحف إلى مشارفواشوكاني Wassukkanni عاصمة الميتانيين نفسها، وهي التي يُظن أنها كانت واقعة عند منابع نهر الخابور.»[٥٢]

أما نحن فلا نرى في ذلك إلا مزيدًا من الدعم لنظريتنا، فأرض عيسووه التي أشارت إليها نصوص سبليوليوماس الملك الحيثي، باعتبارها بلادًا يحكمها دوشراتا، وأن فيها عاصمة الميتانيين، ولا تقع عند منابع نهر الخابور، فليس هناك أي «عيسووه» بعد بحثٍ وتقصٍّ دقيق، استغرق وحده من بحثنا وجهدنا زمنًا، إنما تقع بين البحر الميت وخليج العقبة في بلاد مديان الآدومية في بلاد عيسو/آدوم. أما الطريق البالغ الأهمية فهو طريق التجارة العالمي الذي كانت تمسك بعنقه بونت/سالع البتراء.

وهكذا نعرف كيف حدث التوحد قياسًا على هذا النموذج المتأخر، فهو توحيد ثانٍ قاده ملوك الحيثيين، أما الأول فقد حدث بنفس الطريقة النموذج، فهبط الحيثيون واستولوا على عنق الطريق التجاري، وضموا تحت جناحهم تلك العناصر والشعوب، وقادوها لفتح دول الجوار الكبرى، فيما عرفه البابليون بالكاسيين، وعرفه المصريون بالهكسوس. وهناك، إلى الشرق من تركيا على البحر الأسود، يقع الميناء المعروف حتى الآن باسم بونت من حيث هجرتهم الأولى، ثم منح الحيثيون سلسلة الجبال الكبرى شمالي الهلال الخصيب أسماء جبال بونتس ربونت بدورها، ومن هناك هبطوا جنوبًا مبكرين، ربما قبل أن تصل بقية الهجرات الكثيفة بأزمان، ليمنحوا منطقة العقبة ووادي عربة أسماء بلادهم القديمة، وهو الأمر الذي يعضد نظريتنا في تحديد هذه المنطقة القديمة بحسبانها هي بلاد بونت التاريخية، وجاء الاسم «بونت» مع الحيثيين الوافدين من بلاد بونت عند البحر الأسود إلى شرقي سيناء/آدوم، وهو الفرع الهندوآري في الحلف التجاري العظيم.

أما أتباع مدرسة جارستانج ورفاقه، فما زالوا يبحثون عن عاصمة بلاد الميتاني عند نهر الخابور في الفرات الأعلى.

أما نحن فقد علمنا أن المصريين قد عرفوا محتلي بلادهم (الهكسوس) باسم الشاسو، وأن الشاسو مزيج هجين من الكوشيين (الكاشو) الزنوج والسبئيين القادمين من الجنوب، وعلى رأسهم قادة من العموريين، ومن الحاثو (الحيثيين) الحوريين القادمين من الشمال، وهم قادة الجنس الهندوآري، وبين هذا وذاك تناثرت البطون والأفخاذ

---

[٥٢] نفسه، ص٢٥.

الشمالية والجنوبية، عمورية جنوبية عملاقة وآرامية شمالية حمراء، وكثير من العناصر المزيج، شكلوا ما يزيد على ثمانية وعشرين جنسًا، فيما أخبر المؤرخ «هورشيوش»، ليتمركزوا في بلاد آدوم، ويتوحدوا في خمس ممالك، تحت قيادة قوية تعمل بشكلٍ بدائي من الديموقراطية، مركزها سالع البتراء، ثم ينطلقون منها لتكوين إمبراطورية تشمل المحيط جميعه، وهو الأمر الذي سيزداد تأكيدًا ووضوحًا في الصفحات التالية من هذا العمل.

الفصل الثالث

عاد وثمود

يفهم من المادة التي قدمها لنا «سليم حسن» أن مدونات الملوك الحيثيين، قد ورد بها ذكر الحوريين مرات عديدة، كما جاء في ذات المدونات حديثًا عن الخابيرو. ويقول «سليم حسن»: إن تلك المدونات تفصح عن علاقات قوية ومتينة، بين أولئك الذين حملوا في تلك المدونات اسم «الحوريين»، وبين أولئك الذين حملوا اسم «الخابيرو»، وهكذا يبدو سليم حسن ميالًا إلى ربط الخابيرو بالحوريين، أو التأكيد على أن المدونات الحيثية هي التي ترى ذلك، ومع ذلك يؤكد سليم حسن من جانبه، أن الخابيرو كانوا من العنصر السامي، بينما الحوريون من عنصرٍ مخالف تمامًا هو الهندوآري.[١]

وفي موضعٍ آخر، وفي إشارةٍ عابرة، يُبدي ذلك المؤرخ الكبير دهشته من الانتشار الواسع للمواد الحورية، بطول حوض المتوسط الشرقي وعرضه، دون سبب واضح، خاصة أنه ينظر إليهم كبقية المؤرخين، بوصفهم شعبًا منكور الشأن ينزوي على استحياء بين شعوب المنطقة. ويجد أن فنون الفخار الحوري تتطابق في كل المنطقة، فهي في فلسطين كما في أعالي الرافدين، كما في مصر كما في قبرص، يضاف إلى ذلك أن مصر بداية من عهد الدولة الحديثة، قد أخذت تشير إلى فلسطين باسم بلاد حور/حوري، مما يفيد بغلبة هذا العنصر على منطقة شرقي المتوسط،[٢] بل وصل مد الآثار الحورية حتى وجدناه ضمن آثار الحيثيين بشمالي الأناضول.[٣]

---

[١] سليم حسن، مصر القديمة، سبق ذكره، ج٤، ص١٩٤، ١٩٥.

[٢] نفسه، ص١٨٢.

[٣] نفسه، ص١٨٧.

إن ذلك جميعه يؤكد نظريتنا حول الإمبراطورية، التي قامت بذرتها في بلاد آدوم، ثم توسعت لتضم المنطقة جميعًا، فيما عرفه التاريخ باسم إمبراطورية الهكسوس ... ونستعيد المشاهد الأولى لدخول الهكسوس مصر في حديث «كاسيدوفسكي»، وهو يؤرخ قائلًا:

> في حوالي ١٧٨٠ق.م. اجتاحت بلاد مصر أحداث ثورية عاصفة هزتها هزًّا عنيفًا ... واهتزت القوة المصرية بشدة عانت فيها مصر من انهيارٍ سياسي حقيقي، حلت بالبلاد كارثة رهيبة، فقد اندفعت من الشرق جحافل لا حصر لها من الجنود الأغراب، واجتاحت مصر كسيلٍ جارف، وكان هؤلاء الجنود يركبون عجلات سريعة، تجرها الخيول ويحملون سيوفًا طويلة، ويلبسون دروعًا من حديد.[٤]

ويضيف «سليم حسن» أن معدن البرونز المصنوع من سبيكة خليط من القصدير والنحاس، والذي ظهر في مصر مع الهكسوس، كان معروفًا في الأناضول منذ عام ٢٥٠٠ق.م. وأن ذلك يعد في علم التاريخ من الحقائق الثابتة. مع ملاحظاتٍ عدة أخرى، تؤكد أن الهكسوس قد أتقنوا في موطنهم الأصلي فن صناعة المعادن القوية بشكلٍ لم تعرفه مصر من قبل.[٥]

ويجد المؤرخون تبريرًا معقولًا لسقوط مصر بحجمها المعلوم أمام ما كان مظنونًا أنه شراذم بدوية، بكون هؤلاء كانوا — فيما تقول جوليا سامسون — «يتسلحون بأسلحةٍ صنعت من الحديد، وهذه النوعية من التسليح لم تكن معروفة بعد في مصر. هذا إضافة إلى الصلافة والشراسة التي طبع عليها الهكسوس، من طول الحياة البدائية التي قضوها في الصحراء.»[٦]

وعن الحوريين تقول موسوعة تاريخ العالم: إنه «كان أعظم عمل للحوريين، هو إدخال العربة ذات العجلتين التي تجرها الخيل إلى مصر وغربي آسيا، حيث أصبحت معروفة بعد عام ١٦٠٠ق.م. عثر الباحثون في سجلات بوغاز كوي (عاصمة الحيثيين

---

[٤] زينون كاسيوفسكي، الأسطورة ... سبق ذكره، ٧٧، ٧٨.

[٥] سليم حسن، مصر القديمة، سبق ذكره، ج٤، ص١٦٥.

[٦] جوليا سامسون، نفرتيتي، ترجمة مختار السويفي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٨٢م، ص١٠٥.

[المؤلف]) على كتابٍ في تدريب الخيول، كتبه أحد الحوريين المعروف باسم كيوكولي، ويحتوي الكتاب على كثيرٍ من التعبيرات الفنية الهندية.»

والمعلوم من علم التاريخ أنه «لم يظهر الحصان في مصر حتى عصر الهكسوس، عندما أدخل من آسيا لجر العربات أصلًا.»[٧] ويؤكد «بتري» أن الحصان قد ذكر في لوح كارنافون باسم «حترو»، وهي كلمة حورية أصلًا وليست مصرية، تنبهنا إلى الأصل الحوري للحصان.[٨]

وعن الحصان يحدثنا تشيلد: «إن الحصان له علاقة أصيلة بالأقوام الآرية، والظاهر أنه يمكن اقتفاء أثر الكلمة المصرية والسامية الدالة على لفظ الحصان إلى اللغة الآرية، وهي «أسوا» من السنسكريتية (آسفا). ومن الواضح أن الكلمة المصرية «سسمت Ssmt» مشتقة من اسم الجمع العبري «سوسيم»، وكلمة سسمت لا تمثل إلا الحروف الساكنة للاسم، وحرف التاء فيها للتأنيث. وعلى أية حال، فإن وجود وسيط سامي في نقل الكلمة إلى المصرية، يجعلنا نظن بعض الشيء أن الجنس الآري يحتمل أنه اختلط بعنصرٍ سامي من بين الهكسوس. ولدينا كلمة أخرى هي مرين، ومعناها خيال وسائق عربة، والظاهر أنها تنتسب إلى الكلمة الميتانية مارينا، وهذه الكلمة الأخيرة قرنت بالكلمة السنسكريتية ماريا، ومعناها الرجل الفتي الشاب.»[٩]

هكذا تجمع الدلائل إلى درجة القطع واليقين، على أن الهكسوس هم أول من أدخل إلى منطقة شرقي المتوسط، فن صناعة المعادن الثقيلة كالحديد، وأن معدن البرونز تحديدًا كان معروفًا في بلاد الحيثيين بالأناضول منذ وقتٍ مبكر. ولعلنا نتذكر الآن رسالة الملك الحيثي حتوشيليش الثالث، لملك صديق يعتذر عن الوفاء بطلباته؛ لأن موسم الحديد كان رديئًا.[١٠] ثم نلمس علاقات قوية بين الكوشيين الذين احتلوا بابل (الكاسيين) وبين الحيثيين، وصلت حد التضامن الكامل. فتضرب جيوش حيثي بلاد بابل لتتركها فريسة سهلة للكوشيين، مع علاقةٍ أخرى طوال الوقت تجمع الحيثيين بالحوريين.

وإن نسبة الخيل والعربة العسكرية والحديد إلى الحوريين مرة، وإلى الحيثيين مرة أخرى، لا يشكل سوى مشكلة ظاهرية؛ لأن الحوريين الذين ظهروا في فلسطين

---

[٧] جاردنر، سبق ذكره، ص٥٧.

[٨] Petrie, Ancient Gaza, Landon 1921, p. 4.

[٩] Childe, The Aryans, New York, 1926, pp. 18, 19, 83, 109.

[١٠] كارلتوكون، القافلة … سبق ذكره، ص٣٢٥–٣٢٧.

وآدوم، يعودون بأصولهم إلى هجرةٍ قدمت من منطقة أرمينيا ومحيط بحر قزوين، بينما تموضع الحيثيون إلى الغرب منهم مباشرة في الأناضول، وهناك رواية تاريخية تقول إن الحوريين قد سبق لهم التموضع في الأناضول، حتى ظهر الحيثيون وأزاحوهم من هناك ودفعوهم جنوبًا، لكن الواضح ويجب استنتاجه دون جهد، هو أن هناك حلفًا قد قام بين كليهما، وأن كلا الشعبين: الحوري والحيثي قد تسربا جنوبًا عبر نسيج هذا الحلف وخيوطه الرابطة، بحيث نجدهم بالكتاب المقدس كشعبين من شعوب فلسطين وبلاد آدوم.

وهكذا يظهر بالتدريج أن منطقة آدوم التجارية، قد استوعبت في شريط ضيق لكنه طويل وهائل، كل هذا التداخل التدريجي لشعوب هندوآرية (آرامية) قادمة في بلاد أرمينيا، عنصره آري (فارسي)، ومكوناته حوري وحيثي، في حلفٍ امتد على الخط التجاري العالمي القادم من أعلى بوادي الشام عند الرافدين الأعلى، ممتدًّا عبر بوادي الشام وبلاد آدوم، مستمرًّا في امتداده عبر بلاد الحجر والخط التجاري الحجازي الواصل إلى اليمن، ليلتقي في وادي عربة وجبال سعير حلفاء الشمال الآراميين بحلفاء الجنوب من شعوب (عمورية)، قادمة من الجزيرة العربية بصحبة العنصر الزنجي، الذي عبر المندب إلى الجزيرة ببضائعه الإفريقية.

وحتى يتضح سر هذا التضارب علينا الآن العودة إلى مشكلة أصل الساميين، فقد نشأ القول بأن هناك أصلًا واحدًا للمتكلمين باللغات الأكادية (بابلية وآشورية)، وبالكنعانية والعبرية والفينيقية والآرامية والحبشية والنبطية والعربية، بحساب المشتركات اللغوية التي تجمع بين لغات هذه الشعوب. فجذور الأفعال فيها جميعًا ثلاثية، وتتطابق فيها جميعًا الألفاظ الدالة على القرابة والعلاقات الاجتماعية. وهو ما يشير إلى مشتركٍ أول جمع بينهم جميعًا في تنظيم المعاملات وبخاصة التجارية، وهو ما أدَّى جميعه بالعالم النمساوي لودفيج شلوتسر عام ١٧٨١م، إلى إعلانٍ عام أن الشعوب التي تتكلم هذه اللغات، تنحدر من أصلٍ واحد أطلق عليها اصطلاح الساميين، وأنهم لا شك بهذا المعنى قد جاءوا من أصلٍ وطني قديم واحد هو وطن الساميين الأم.

لكن ما حدث هو أن الباحثين تضاربوا تضاربًا هائلًا، عند محاولة تحديد هذا الوطن الأم الأصلي للعنصر السامي، الذي انتشر في حوض المتوسط الشرقي بدءًا من شرقي الدلتا المصرية وسيناء وآدوم وفلسطين وبوادي الشام، وصولًا إلى تركيا في أقصى الشمال واليمن في أقصى الجنوب، فذهب فريقٌ كبير إلى أنهم قدموا من جزيرة العرب في

هجراتٍ كبرى، ويمثل هذا الفريق الجانب الأعظم من العلماء الذين اهتموا بتلك المشكلة. ومنهم دي جوييه De Goege وشرادر Shradar وونكلر Wincklr وتيلي Tiele وماير Mayer وروبرتسون سميث Robertson Smith ولانج Samuel Lang وسايس Wright Sayce وروجرز R. W. Rogers.

وخلاصة ما توصل إليه أصحاب هذا الرأي، هو أن شبه جزيرة العرب لم تكن منطقة صحراوية جافة في كل عصورها القديمة؛ فقد تعرضت لهطول أمطار غزيرة طوال عصر البلايستوسين (آخر العصور الجيولوجية)، شأنها في ذلك شأن بقية المناطق المدارية، ونتيجة ذلك غطتها الغابات والنباتات التي تسكنها المجموعات البشرية. وانتهى عصر البلايستوسين بأمطاره حوالي سنة ١٠٠٠٠ق.م. وبدأ الجفاف يزحف على المنطقة لتحل الصحراء محل الغابات، إلا حيث نحتت الأنهار لها مجرًى كنهر النيل ودجلة والفرات.

نتيجة لذلك بدأت تتضاءل إمكانيات الحياة، واضطر الناس إلى النزوح منها كلما زحف الجفاف والإجداب، وهو ما أدى إلى موجاتٍ متتالية من الهجرات من شبه الجزيرة إلى المناطق الخصبة على تخومها، وكانت آخر تلك الهجرات تلك التي جاءت مع الفتوح الإسلامية في القرن السابع الميلادي، وقد حملت هذه الهجرات لغتها معها، وهو ما أدَّى إلى تعدد في الشعوب السامية وتقارب في اللغة، سواء في الألفاظ أو في التراكيب أو في التصريف.

وقد رتب أصحاب هذا الرأي هذه الهجرات، استنادًا إلى ما استنتجوه من شواهد تاريخية، على النحو التالي:

الأكديون وقد استقروا في وادي الرافدين في الألف الثالث والرابع قبل الميلاد.

الكنعانيون بما فيهم الفينيقيون والأموريون، وقد استقروا في المنطقة السورية ووادي الرافدين خلال الألفين الثالثة والثانية قبل الميلاد.

الآراميون وقد استقروا في كل مناطق الهلال الخصيب، والعبرانيون الذين استقروا في المنطقة السورية في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد.

الأنباط وبعض القبائل العربية الجاهلية، وقد استقروا في منطقة الهلال الخصيب بين القرن الثاني والقرن السادس قبل الميلاد.

العرب المسلمون وقد استقروا في منطقة الهلال الخصيب وشمال إفريقيا منذ القرن السابع الميلادي.

ويدعم هؤلاء نظريتهم بالقواقع الحجرية التي عثر عليها في شبه الجزيرة، وهي لا تعيش إلا في الماء، وبقايا عظام متحجرة وأدوات حجرية، تشير إلى وجود الماء والحياة فيما

قبل التاريخ، إضافة إلى عددٍ من الوديان الجافة الآن، مثل وادي الدواسر ووادي الرمة ووادي السرحان التي يحتمل أنها كانت أنهارًا عظيمة، هذا مع حيواناتٍ وأشجار كانت معروفة في جزيرة العرب أيام الكتاب الكلاسيك يونانًا وورمانًا ٥٠٠ق.م.–٥٠٠ب.م. أو الكتاب العرب. وقد اندثر بعضها الآن مما يشير لاستمرار زيادة الجفاف والتصحر.

لكن أصحاب النظرية اختلفوا حول أي موطن في الجزيرة الواسعة كالقارة، كان يعيش الساميون؟ بعضهم رأى أنه من اليمن، وأنه من الخط المسند اشتقت سائر الخطوط التي كتبت بها الشعوب السامية. وبعضهم رأى ذلك الموطن هو شرقي الجزيرة على ساحل الخليج، أما البعض الثالث فرأى أن موطن الساميين هو حافة شبه الجزيرة الشمالية الغربية، وهو ما يعني محيط بلاد آدوم وسيناء.[١١]

أما الفريق الآخر من علماء الأجناس فقد نحَى منحًى مخالفًا، ويعتمد أصحابه على أدلة لغوية تربط ما بين السامية وبين الأحباش، للقول أن الجنس السامي جاء من أفريقيا الشرقية عبر باب المندب والبحر الأحمر، وأن أفريقيا هي أصل الساميين والحاميين معًا، الساميون عبروا مضيق باب المندب إلى جزيرة العرب، والحاميون عبروا شمالًا نحو مصر ثم عبورًا لسيناء إلى آسيا.[١٢]

أما الفريق الثالث؛ فيذهب بعيدًا تمامًا ليأتي بالجنس السامي من أرمينيا، والقادم أصلًا من هضبة آسيا الوسطى، الوطن الأصلي للجمل، وقد جاء الجمل من هناك مع الساميين المهاجرين من جنوبي شرقي وجنوب بحر قزوين مرورًا بإيران.[١٣]

وقد رأى الباحثون المحدثون أن افتراض فكرة موطن أصلي واحد، ليس ضروريًّا لتفسير التشابه والتقارب بين اللغات؛ فليس ضروريًّا أن تنتمي الشعوب التي تتقارب لغاتها إلى عنصرٍ واحد ووطن واحد؛ لأن هناك احتكاكًا دائمًا بين الشعوب خاصة في تلك المنطقة المتوسطة من العالم، وهي منطقة مفتوحة طوال تاريخها، كما أن الاختلاط وتشابك المصالح غالبًا ما يؤدي إلى ازدواجٍ لغوي.[١٤] ولأننا نعتقد أن ظهور الشعوب السامية لم يكن كما صورت النظريات الدينية تنحدر من أسلافٍ يعودون إلى أبٍ واحد،

[١١] طفي عبد الوهاب يحيى، العرب في العصور القديمة، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٩م، ص٥٨.

[١٢] نفسه، ص٤٩–٥١.

[١٣] نفسه، ص٥٥–٥٦.

[١٤] نفسه، ص٧١–٨١.

تفرقت منه البشرية إلى زنجي حامي وأسمر سامي وأحمر يافثي، بل نعتقد أن ما حدث هو العكس تمامًا، وهو الموافق لروح العلم، حيث تلاقت أجناس متفرقة وتلاقحت في مساحة جغرافية أفرزت عنصرًا جديدًا، وأن ذلك تكرر في جهاتٍ متفرقة من العالم، وبين الشعوب التي ظهرت نتيجة التلاقح الجنسي، كان ذلك الشعب السامي الشمالي، الذي حمل في جيناته أصولًا حامية زنجية ومصرية مع أصول هندوآرية، وحملت لغته أصول لغات تلك الشعوب، وأن ذلك قد حدث في سيناء وآدوم وبوادي الشام. ويبدو أن هذا التلاقي والتلاقح قد بدأ مبكر جدًّا، وأقصى ما يمكن قوله هنا أن عنصرًا زنجيًّا، كان عبوره المندب بالمنتجات الأفريقية، امتدادًا طبيعيًّا للطريق التجاري الكبير، ليصبح عضوًا بعد ذلك في الحلف الهكسوسي العظيم، عندما يلتقي في بلاد آدوم بالعنصر الهندوآري القادم من براري آسيا. وهو ما يفسر لنا كيف كان باني زقورة بابل، ملكًا حكم في بابل باسم نمرود، ونمرود في المأثور التوراتي والتاريخ الإسلامي، زنجي أسود من أبناء كوش. أما الوثائق التاريخية فتدون لنا اسم باني البرج، حاملًا فيه حامية زنجية واضحة؛ فهو «كاريكالزو»، وكان ضمن سلسلة حكام تأكد تاريخيًّا أنهم كانوا أقلية حاكمة على بلاد بابل وفدت غازية.

ثم تفسر لنا تلك الرؤية انتشار العنصر الحوري الآرامي بطول المنطقة من الفرات الأعلى من أرابخا في الشمال، حتى المملكة الحورية في آدوم، كما يفسر لنا انتشار العنصر الحيثي في فلسطين، يحمل فيها سمات سيادية واضحة، كما يظهر من قصة شراء إبراهيم مغارة المكفيلة منهم وسجوده لهم. ولا يفوت فطنًا أن اسم المملكة الشمالية «أرابخا»، بلسانٍ هندوآري يُنطق عربيًّا دون التباس (العربية)، ثم إن المنطقة التي هبط منها العنصر الهندوآري تسمى الآن «البك»، لكن اسمها التاريخي كان «آراب – خيتيس Arrapa-chitis»،[١٥] وهي كلمة تحمل تصريفًا اسميًّا حاتيليًّا حوريًّا، يشبه ما نراه في نطق اسم الإله سيت باسم سيتتش أو سوتخ، فالكلمة أرابخيتيس هي «أراب» أو «عرب»!

وقد نسبت التوراة الشعب العبري إلى جدٍّ بعيد باسم «أرفكشد» أو «أربكسد»، وأعادت موطن هذا الجد إلى منطقة أرارات بأرمينيا، بحسبانه من أحفاد نوح حيث رست السفينة الأسطورية، وفي سلسلة أنسابها تؤكد التوراة أن هذا المكان مرموز له

---

[١٥] نولدكه، اللغات السامية ... سبق ذكره، ص٢٢.

باسم «أربكسد» أو «أراب خيتيس»، هو أصل لسلسلةٍ من الأنساب العبرية والعربية في نفس الآن (ولنلحظ أن عربي هي عبرى بالميتانيز). ويحيطنا «آرثركيت Sir Arther Keith» أستاذ علم الأجناس — وفق المنهج الأنثروبولوجي — أنه قد «ظلت القوقاز وميديا (شمالي فارس [المؤلف]) وعامة منطقة بحر قزوين حتى العصور التاريخية القريبة نسبيًّا ١٠٠٠–٥٠٠ق.م. مجتمعات رعاة في المقام الأول، رغم معرفتها بالزراعة.» وقد أسفرت حفائر «ليونارد وولي Leonard Woolley» و«لانجدون Langdon» و«دي مورجان De Morgan» عن نتائج أساسية، هي أن الرعاة وليس الفلاحين هم من نزلوا من بحر قزوين في كل اتجاهٍ بالمنطقة، لامتلاكهم وسائل النقل السريع كالخيل والجمال، لأسبابٍ ديموغرافية كالانفجارات السكانية أو بسبب كوارث طبيعية كالجفاف، أو بسبب السيول كما سجلتها التوراة رمزيًّا في قصة الطوفان.»[١٦] أما المؤكد عند «آرثركيت» فهو أن الجنس العربي المعروف الآن، كان من أصولٍ قوقازية تتكلم السامية، مما يعني اختلاطًا شديدًا بين السامي والآري في العنصر الجنسي وفي اللغة. وهو ما يمكنك ملاحظته في مأثور التوراة وذكريات المحررين عن الجنس الآري، مرموزًا له بيافث بن نوح والجنس السامي مرموزًا له بسام بن نوح، فتقول: «ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام.» (تكوين، ٩: ٢٧) لكن ما يجب التنبيه عليه هنا هو أن هؤلاء الذين هبطوا من الشمال الأرميني إلى بلاد آدوم، قد حملوا من أصل مواطنهم إشارات لتسمية تلك الأصول «آرامية»، ومنهم من كان أولئك القائلون «آراميًّا تائهًا كان أبي» (بني إسرائيل)، ومنهم من كان سكان وادي عربة، الذين أعطوا للعرب اسمهم، وهنا يفيدنا زياد منى بأن المراجع العربية القديمة، تعيد اسم العرب إلى نشأتهم في وادي عربة فنسبوا إلى بلادهم.[١٧] وذات المعنى يؤكده مظفر نادوثي؛ إذ يقول عن اسم العرب وأصله البعيد: «نعرف أن هذه الكلمة أُطلقت بادئ ذي بدء على شمال جزيرة العرب، وليس على جنوبها. ويبدو أن ما ذهب إليه الجغرافيون من أن أول اسم سميت به بلاد العرب هو عرابة صحيح، وقد أصاب هذا الاسمَ التحريفُ على مر الزمن، فأصبح بلاد العرب، وتبع ذلك أن سُمي الشعب باسم العرب، نسبة إلى بلادهم، وتعني كلمة عرابة في كل اللغات السامية صحراء.

---

[١٦] لويس عوض، مقدمة ... سبق ذكره، ص١٠٧، ١٠٨.

[١٧] زياد منى، جغرافية الجذور ... سبق ذكره، ص٨٥، ٨٦.

ومعنى هذا اللفظ في العبرية حقل أو غابة.»[١٨] وهو ما يصادق على ما قلنا، ويشهد على أن بلاد الغابة أو الأيكة، كانت وسط الصحارى الصخرية في بلاد وادي عربة.

ولما كنا قد قلنا إن تجمع الأحلاف كان في وادي عربة، وأن الحصان والعجلة قد جاءا إلى المنطقة مع الهكسوس، فإن ذلك يفسر لنا لماذا تسمى العجلة حتى اليوم عربة، ولماذا يسميها المصريون عربية، وهنا نستمع لزياد منى يؤكد أن اصطلاح عرب واصطلاح عبر (عربي/عبري)، بمعنًى واحد هو البدو المرتحلون دومًا،[١٩] أو كما قاله المصريون القدماء «شاسو»، وأسموا الحيوان القادم معهم «ساسو» أي الحصان. وهكذا أعطى سكان عرابة لجنس العرب اسمه، بينما سكان جزيرة العرب أنفسهم، كانوا لا ينظرون لسكان عرابة على أنهم أصلاء، بدليل أنهم أصروا على توضيح ذلك، وتسجيله بالتفريق بين عربٍ أصلاء سكنوا جنوبي الجزيرة هم العرب العاربة، أي الراسخة في العروبية بتعبير ابن خلدون، وبين عرب دخلاء اكتسبوا العروبية اكتسابًا عندما سكنوا بين العرب، واستحقوا اسم العرب المستعربة، أي التي استعربت ولم تكن كذلك، ومقصود ذلك هو عروبة مكانية، عروبة الجزيرة، مقصود يرى الجزيرة موطنًا للجنس العربي على امتداد تاريخه، ولم تكن كذلك أبدًا كما هو واضح حتى الآن.

ويقول المأثور التاريخي العربي إن العرب المستعربة، أي القادمين من عرابة، كانوا يتكلمون السريانية المتفرعة عن الآرامية الأرمينية، وفي الزمن الذي لم يكن العرب بلغتهم كعنصر مميز قد ظهر في جزيرة العرب، كانت إشارات المؤرخين الكلاسيك عن العرب تشير فقط إلى وادي عربة، ثم اتسع المدلول بالتدريج ليشمل عرب سيناء والشام، ولم يتسع بمفهوم المكان الجغرافي العربي، ليشمل جزيرة العرب المعروفة الآن إلا زمن الرومان.[٢٠] ولكن قبل ذلك، عندما لم يكن عرب آرام/أرمينيا قد توراوا تاريخيًّا من أرمينيا، نقرأ عن إسخيليوس المسرحي اليوناني في مسرحية Promethees السطر ٤٢٠ عبارة شديدة الدلالة، تؤكد أن معنى كلمة عرب أطلق في مبدأ الأمر، على أهل البراري والخيول في براري أسيا (آرمينيا) قبل أن يمنحه مهاجروها لوادي عربة. ولنقرأ هذه العبارة البليغة تقول: «زهرة شباب Arabia يحمون بأسلحتهم الحصن المنيع على حدود

---

[١٨] مظفر نادوثي، التاريخ الجغرافي ... سبق ذكره، ص٥٨، ٥٩.

[١٩] زياد منى، جغرافية الجذور ... سبق ذكره، ص٨٧، ٨٦.

[٢٠] لطفي، العرب ... سبق ذكره، ص٩٦–٩٨، انظر أيضًا: عثمان، الشعر ... سبق ذكره، ص١٠٣.

القوقاز.»[٢١] وهنا نقرأ ما ورد عن عبيدة بن شرية أن أحد أبناء سام بن نوح، أنجب ولدين أحدهما، هو إرم الذي ينتسب العرب المستعربة إلى بنيه.[٢٢] ومن جانبه يحيطنا فراس السواح نقلًا عن طومسون قوله: «أما عن جزيرة العرب فيبدو أن اللغة العربية السامية، قد جاءتها عن طريق فلسطين وسوريا الجنوبية، في أواخر عصر البرونز المبكر وأوائل عصر البرونز الوسيط، أي حوالي عام ٢٠٠٠ق.م.»[٢٣]

أما التاريخ العربي نفسه فقد أعطى لسكان جزيرة العرب، قبل أن تكون عربية وقبل أن تتكلم العربية، اسم القحطانيين؛ نسبة لجدٍّ بعيد هو قحطان باليمن، أما العرب الشمالية مع انفتاح الجزيرة الواسع، دون حدودٍ جغرافية مانعة حتى الأناضول، فقد حملوا اسم العرب العدنانية نسبة إلى جد باسم عدنان، يبدو أنه ترميز لأصولهم غير الجزيرية العائدة إلى أصولٍ أسطورية توراتية، في مكانٍ أول لهم على الأرض، كان منطلق البشرية باسم جنة عدن.[٢٤]

وهكذا تفسر لنا نظرية الحلف التجاري الكبير كثيرًا من الغوامض والألغاز، مثل إصرار التوراة طوال الوقت على وجود عنصر زنجي كوشي في محيط جنوبي فلسطين، دون منطق واضح كاشف يبرر هذا التواجد هناك. فالكوشيون هم في التوراة الأحباش الزنوج سكان أفريقيا السوداء تحديدًا، لكنهم في التوراة يظهرون جنوبي فلسطين، كشعب له جيوشه. وقد ذهب مرجليوث لتفسير نص التوراة، الذي يقول إن الفلسطينيين والعرب الذين بقرب الكوشيين، قد هاجموا جنوبي مملكة يهوذا، بأن المقصود بالعرب هنا عرب اليمن، الذين بجوار الحبشة عبر مضيق باب المندب (؟!) ... هكذا ... بينما ذهب موسيل Musil إلى أن المقصود هم عرب سيناء، الذين بجوار المصريين باعتبار المصريين حاميين من أبناء حام، الذي أنجب مصرايم وكوش، فهم المقصودون بالكوشيين.[٢٥]

أما نحن فتفسيرنا هو هذا الكتاب جميعه.

---

[٢١] لطفي، العرب ... سبق ذكره، ص١٩٧.

[٢٢] وهب بن منبه، التيجان في ملوك حمير، حيدر آباد، الدكن، ١٣٤٧هـ، وعبيد بن شريه: أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها، وكتابات الملوك وأخبار الماضين (ملحق بكتاب التيجان لوهب بن منبه)، ص٣١٦–٣١٩.

[٢٣] فراس السواح، أرام دمشق ... سبق ذكره، ص١٧، ١٦.

[٢٤] نفسه، ص٢٢، ٢١.

[٢٥] لطفي، العرب ... سبق ذكره، ص١٨٦.

كذلك تفسر لنا ذلك نظرية الحلف التجاري حكم الكوشيين لبابل، وأنهم لم يدخلوا في معارك مع جيرانهم كعادة سكان الرافدين المفتوحة على محيطها، مما كان يخلق دومًا توترًا عسكريًّا لحماية الحدود، وكان حكم الكاسيين أو الكوشيين في الرافدين على اتصالٍ حميم ودائم مع الجيران بالمنطقة، مما يشير إلى أن زمن حكمهم لبابل كان هو ذات حكم الحلف لبقية المنطقة، كان هو ذات زمن الإمبراطورية، بعد أن بلغ الأحلاف من القوة ما يسمح لهم بالخروج عن الشريط التجاري الطويل لاحتلال دول المحيط شرقًا وغربًا.

وكذلك تفسر نظريتنا انتشار التعدين في أقصى جنوبي آدوم، بينما أصوله الابتداعية كانت في أقصى الشمال الحيثي، كما يفسر لنا مجيء الخيل والعربة العسكرية مع أسماء سامية وأسماء هندوآرية، حيرت الباحثين الذين اعتبروا جزيرة العرب مهد الشعوب السامية، والإشكال أن طبيعة جزيرة العرب لا يمكن أن تكون مهدًا للحصان؛ لأن الحصان والعربة فرز لا يصلح لفيافي الرمال، بقدر ما هو فرز مسطحات صخرية وجبلية صلبة، كما في الشمال الحيثي الحوري وكما في بلاد آدوم الصخرية، حتى إن أهل الرافدين أطلقوا عليه اسم «آنشوكرا» أي حمار الجبل، ولم يطلقوا عليه حمار الصحراء.

ثم يفسر لنا الحلف ذلك التوافق العجيب، الذي أفرز في النهاية لغة آرامية مشتقة من البابلية، مكتوبة بالمسمارية كلغة عامية في المنطقة ولغة مكاتبات رسمية، فقد كانت لغة الأخلاف التي تم التوافق عليها بينهم، فبدأت بابلية ثم تطورت إلى كارية/حورية، عرفت بعد ذلك بالآرامية. أما الأعجب الذي أصبح مفسرًا الآن وفق عملنا هذا، فهو الرصد الذي قام به لويس عوض، ليكتشف أن اللغة العربية في كثيرٍ من مفرادتها وتراكيبها، تعود إلى أصولٍ هندوآرية. أما الأكثر عبقرية فهو أن تكشف لنا علوم اللغات كشوفًا حديثة تؤكد ما قلناه، فالجنوب الحميري أو الجنوب الجزيري الذي تدفق محتضنًا زنج أفريقيا نحو الشمال بصحبة تجارته، كان عنصرًا له لغة تختلف تمامًا عن اللغة العربية، التي جاءت مع عنصرٍ وافد هبط جزيرة العرب من آدوم. وقبلها كان مجيئه إلى آدوم من أرمينيا، وهم العرب المعروفة باسم المستعربة القيسية العدنانية. والباحثون يؤكدون لنا الآن «أن اللغة الحميرية شيء واللغة العربية شيء آخر، وأن الحميرية أقرب إلى الحبشية القديمة منها إلى العربية.»[٢٦]

[٢٦] أحمد عثمان، في الشعر الجاهلي واللغة العربية، مكتبة الشروق، القاهرة ١٩٩٦م، ص١٥.

ثم نعلم إلى أي حدٍّ تأثرت أطراف المنطقة بحدث الهكسوس، عندما نكتشف مدى العلائق والمشتركات التي حدثت، بين اللغة المصرية القديمة وبين اللغات السامية وبخاصة العربية، فذات الباحثين يقولون: «إن اللغة المصرية القديمة كانت تشترك مع اللغات السامية في العديد من التركيبات الجوهرية، وإن كان بها بعض التشابه أيضًا مع لغات أفريقية، مثل الصومالية في الشرق والبربرية في الشمال، فالمصرية تشترك مع السامية في خاصتها الأساسية، التي تجعل كلماتها تستخدم مصدرًا واحدًا غالبًا ما يتكون من ثلاثة أحرف، كما تشتمل على كلماتٍ مشتركة عديدة ... وتحتوي اللغة المصرية القديمة على أصوات اللغات السامية الأساسية، مثل الحاء والعين والضاد، لكنها لا تعرف حروف الثاء والذال والظاء مثلها في هذا مثل العامية المصرية الحالية.»[٢٧]

ومن ثم تتأكد لنا علاقة اللغة المصرية القديمة باللغة العربية (القاموسية)، التي ظهرت واضحة طوال عملنا هذا، ويتم تفسير وجود ألفاظ مصرية أحصاها بعض الباحثين بـ ٣٠٠٠ مفردة مصرية قديمة دخلت إلى العربية، ناهيك عن الألفاظ الهندوآرية الموجودة بالعربية، وكذلك المفردات التي تعود إلى لغات ساحل إفريقيا القادمة مع العنصر الزنجي.

وعليه فإن اللغة العربية الحالية لم تكن لغة جزيرة العرب؛ لأن تلك الجزيرة كانت لها لغاتها التي عرفناها بخط المسند بالجنوب اليمني، هي غير العربية الشمالية التي جاءت جزيرة العرب، مع العرب العدنانية المستعربة المتأثرة إلى حدٍّ بعيد بالمصرية القديمة، حتى تكاد تكون في ٦٠٪ منها لغة مصرية قديمة. وإن العرب العدنانية هم من منح جزيرة العرب صفة العرب، أما قبل ذلك وإن أردنا لغة الجزيرة حقًّا، قبل أن تأتيها عربية الشمال (مصرية + هندوآرية + اللغة الجغرافية القادمة مع الزنوج)، فإن تلك اللغة القديمة للجزيرة كانت لغة اليمن أو لغات اليمن أو اللغة الجنوب جزيرية، أما العربية الشمالية القاموسية فالظل المصري يغطي أكثر من نصفها، حتى إننا لو بحثنا اليوم عن اللغة المصرية القديمة، فسنجدها تغطي العالم «العربي»، أما لو بحثنا عن اللغة القديمة لسكان الجزيرة، فهي تلك التي كانت في الجنوب اليمني، وانقرضت وأصبحت من مهام علماء الحفائر والأركيولوجيا.

---

[٢٧] نفسه، ص٥٥، ٥٧.

كذلك تحل فرضية الحلف الإمبراطوري لغز وصول الحيثيين إلى «ألاشيا/قبرص»؛ لأنها ببساطة كانت تابعة ضمن مجموعة جزر المتوسط للإمبراطورية الهكسوسية. وفي ذات الجزر عثر على آثار للملك الهكسوسي خيان ملك مصر آنذاك، الذي يبدو أن زمن حكمه كان زمن أكبر توسع قوي للأحلاف الهكسوس، فيقول «سليم حسن»: «كان الملك خيان الذي جاء ذكره في قائمة مانيتون وعلى الآثار، أعظم ملوك الهكسوس الذين حكموا مصر، وقد ورد اسمه في قائمة مانيتو، على ما يظهر باسم يناس Jannas، وآثاره منتشرة في جهاتٍ مختلفة، وقد عثر على جعارين عدة وأختام باسمه، ومنها نعلم أنه كان يحمل الألقاب التالية: حاكم البلاد الأجنبية خيان، الإله الطيب خيان، الإله الطيب سوسرن رع، حاكم المجندين خيان، ابن الشمس سوسرن رع، ابن الشمس خيان ... وأهم ظاهرة في حكم خيان، هي وجود آثار له خارج القطر المصري في جهاتٍ نائية بعيدة جدًّا، لدرجة أن بعض المؤرخين ظن أن مملكته قد مدت أطرافها إلى تلك البقاع؛ فقد وُجدت له آثار في سوريا وفلسطين من جهة، وفي بغداد وكريت من جهةٍ أخرى. أما عن وجود جعارين باسم هذا الملك في سوريا وفلسطين فلا غرابة فيها؛ لأننا نرى أن هذين القطرين كانا ضمن البلاد، التي يسيطر عليها الهكسوس أيام عظمة مجدهم.»[٢٨] وفي كريت كشَف الأثَري إيفانز في أثناء الحفر بقصر كونسوس على غطاء آنية مرمرية باسم خيان.[٢٩]

ثم لعلنا نذكر أن المصريين قد بنوا حائط الأمير/أو حائط الحاكم الذي يصد الآسيويين وعابري الرمال، في الوقت ذاته الذي بنى البابليون سورًا عظيمًا مماثلًا باسم «مورق تدنم»، أي الحائط الذي يصد الأموريين، مما يشير إلى تزامن في انتشار الوافد الجديد بقوة.

والمؤرخ اليهودي «يوسفيوس» لم يعلم أن الإسرائيليين بطن آرامي صغير، وظنهم ذات عين الهكسوس الذين حكموا مصر، وقال إنهم بقوا في مصر مدة زمنية تصل إلى ٤٥٠ عامًا، والجميل في هذا الشأن أنها ذات المدة التي أقرها علم التاريخ لحكم العنصر الكاسي/الكوشي لبلاد بابل (؟!)

ويحكي لنا الكتاب المقدس عن زواج البطرك إبراهيم بعد موت زوجته سارة من امرأة في النقب في محيط آدوم بقوله: «وعاد إبراهيم وأخذ زوجة اسمها قطورة» (تكوين، ٢٥: ١) وأنجب منها شعب مديان، ترميزًا لعلاقات واضحة بالمديانيين.

---

[٢٨] سليم حسن، مصر القديمة، سبق ذكره، ص٤، ص٩١، ٩٢.

[٢٩] Evans The place …, 1, p. 49.

ثم يحكي لنا أيضًا عن هروب موسى من مصر بعد قتله المصري وزواجه من صفورة المديانية بنت كاهن مديان رعوئيل/يثرون.

ثم يأتي المؤرخ ابن العبري فيلخص لنا الحدثين في عباراتٍ كانت غير مفهومة بالمرة حتى تاريخه، لكنها تصبح واضحة في بحثنا هذا، جمع فيها ابن العبري ذكرات ذلك التاريخ المتناثرة، ليقول في نصٍّ شديد الأهمية لنا رغم أنه كان من المهملات تمامًا:

> فهرب موسى إلى أرض العرب، وتزوج صافورا الزنجية ابنة يثرون بن رعويل المدياني ابن ددان بن يقش بن إبراهيم من زوجته قطورا التركية.[٣٠]

هل أصبحت شهادة ابن العبري إذن ليست من تهريفات القدماء كما توصف عادة؟ ونحن نعلم أن الأرض التي هرب إليها موسى كانت بلاد مديان/آدوم في سيناء الشرقية عند وادي عروبة، وهي ما يسميها ابن العبري «أرض العرب»، مصادقًا على كل ما قلنا، وفي هذه الأرض العربية اجتمع ابراهيم العبري الآرامي مع الدداني مع المدياني مع — وهناك كان الغريب غير المفهوم — الزنج والأتراك، وهكذا لا يصح أن نندهش لاسم ددان بشمالي جزيرة العرب، وهو اسم إله مصري لبلاد النوبة وما والاها من جنوب وهي بلاد الزنج، ولا لمعرفة أن كلمة تركي في العربية تعني الجوال أو المشاء أو غير المستقر أبدًا، هو «الشاسو».

وهكذا عرف المصريون محتلِّي بلادهم وبلاد بابل باسم الشاسو وهم الكاشو أو الكاشين، وكان هؤلاء الهكسوس عناصر خليط من شعوبٍ متعددة، تضافرت بطونه في ثلاثة أعراقٍ واضحة، استظلت جميعًا بالثقافة واللغة المصرية: هي «النحسي الزنجي الكوشي الكاسي»، و«العموري السبئي القادم من جنوب الجزيرة» و«الهندوآري الأرميني وتفاصيله في العبري والحوري والحيثي، القادم من براري محيط بحر قزوين»، اجتمعت في دولتها المؤسسية التجارية ببلاد آدوم، وانطلقت عزماتها من بونت سالع البتراء عاصمتها الكبرى، وحملوا في بابل اسم الكاسيين، وحملوا في مصر اسم الهكسوس الذي ترجم إلى الحكام الرعاة ومرة إلى الملوك الرعاة، ومرة إلى الرعاة الأسرى ومرة إلى شيوخ البدو، وفي رأينا أن أصدق ترجمة هي الحكام الشاسو أو الكاشو من «حق = حاكم بالحق الإلهي = ملك» + «شاسو = كاشو = كوشي» فهُم الملوك الكوشيون. ولما كانت

---

[٣٠] ابن العبري، تاريخ مختصر الدول ... سبق ذكره، ص١٧.

كاشو وشاسو تعني المتحرك دومًا إشارة للبدو، فهو ما يؤدي إلى ترجمتها «شيوخ القبائل البدوية».

وتشير المدونات القديمة وتفاسير المؤرخين، أنه كان في ذلك الحكم الهكسوسي طبقتان: طبقة دنيا من الجند المرتزقة من عناصر وقبائل شتى، وطبقة عليا هي الحاكم الفعلي المسيطر، وكانوا في معظمهم من العنصر الهندوآري، ويؤكد لنا «جاردنر» أن اصطلاح حق شاسو أو حق كاشو، أو كما دونه «حيق خاسه» يعني رئيس البلد الجبلية، وأن الاصطلاح يشير فقط إلى الحكام وحدهم، وليس كما ظن يوسفيوس أنه يشير إلى الهكسوس جميعًا.[٣١] هذا بينما اختلط في نسيج الطبقة الدنيا الزنجي بالجنوب جزيري بالهندوآري.

ويؤكد ذات المعنى «زينون كاسيدوفسكي» في قوله: «إن الهكسوس أنفسهم لم يشكلوا سوى فئة قليلة العدد كانت على رأس المقاتلين، أما الجمهرة الرئيسية من هؤلاء فقد تألفت من شذاذ الآفاق الذين كانوا يقطنون الصحارى والمغامرين والمتشردين. وقد أظهرت التنقيبات الأثرية في مدينة أريحا، أن الهكسوس شغلوا هذه المدينة القديمة لوقتٍ ما. وهكذا يجوز لنا أن نفترض أن مستعبدي مصر، كانوا يسيطرون على فلسطين أيضًا. ويتوقع أن تكون عشيرة يعقوب قد جاءت مصر مع زحف الهكسوس أو بعد أن أقاموا سيطرتهم فيها. وقد استقبل يعقوب ومن معه استقبالًا طيبًا في مصر؛ لأنهم كانوا أقرباء المحتلين. ومن جهةٍ أخرى ليس من الصعب أن نتوقع أن الفراعنة الهكسوس لم يثقوا بالمصريين، وكانوا يثقون بأنسبائهم الآسيويين الذين يجمعهم معًا المنشأ واللغة.»[٣٢]

وعليه نفهم تقسيم السيادة بين بقية عناصر سادة الإمبراطورية، فبينما تُركت بابل للسيادة الكوشية، وُضعت مصر تحت سيادة النخبة الحيثية، التي ربما كانت الجنس القائد للإمبراطورية.

ويؤكد ما ذهب إليه كاسيدوفسكي، أن التوراة تكشف عن علاقةٍ حميمة بين سكان المنطقة السامية، وبين قيادة الهكسوس التي احتسبناها حيثية، حيث تقول التوراة بترميزها عن عيسو/آدوم: «ولما كان عيسو ابن أربعين سنة اتخذ زوجة، يهوديت ابنة بيري الحيثي وبسمة ابنة إيلون الحثي» (تكوين، ٢٦: ٣٤). ثم تتأكد علاقة الحثي

[٣١] جاردنر، مصر القديمة ... ص١٤٩.

[٣٢] زينون كاسيدفسكي، الأسطورة ... سبق ذكره، ص٧٨، ٧٩.

بالإسرائيلي، فتفصح عنها الزوجة الأولى لعيسو/آدوم، وكان اسمها «يهوديت»؛ فهي حيثية تنتسب باسمها إلى رب إسرائيل يهوه.

وعلى ذكر مدينة أريحا يمكننا أن نأخذها، كنموذج نموذج واحد فقط، يدلنا على عدد القبائل المتعددة التي توحدت في أخلامو الهكسوس، فيقول الكتاب المقدس عن المساحة، التي أعطاها الرب بني إسرائيل بعد وفاة موسى، وذلك في حديثه ليشوع:

> من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات، جميع أرض الحيثيين.
>
> (يشوع، ١: ٤)

ثم يعدد لنا سكان أريحا على أصولهم، فيقول:

> أصحاب أريحا: الأموريون والفرزيون والكنعانيون والحيثيون والجرجاشيون والحويون واليبوسيون.
>
> (يشوع، ٢٤: ١١)

أما أقرب مصرولوجيست إلى ما قلناه حتى الآن، فهو مارييت Mariette الذي قال عبارة عابرة لم يكررها، أو يستفيض فيها في صدفةٍ عبقرية:

> إن قبائل الهكسوس كانوا أخلاطًا من العرب وأهل الشام، وأكثرهم من الكنعانيين كما ذكر مانيتون، وكانت أكبر قبيلة حاكمة عليهم تسمى بالقلم الهرمسي خيتا، وفي التوراة هم الحيثيون، وفي التواريخ العربية العمالقة.[٣٣]

ولا يغرب على عينٍ فاحصة أن تلحظ منقار الببغاء الأنفي، أو الأنف الببغائي المقوس القادم من الشمال الأرميني الحوري الحيثي، في سمات العنصر الإسرائيلي وفي الآدوميين وعرب الحجاز الشمالي المستعرب حتى الآن. وكان هبوط هذا الأنف إلى الحجاز في رأينا قد جاء بعد تشتيت قوة الهكسوس على يد أحمس وملوك مصر الذين خلفوه، فتشرذمت قواهم ليهبط بعضها الحجاز، ويبقى بعضهم في البلاد الحيثية والبابلية متماسكًا، ليستمروا هناك زمنًا أطول وصل إلى ما يزيد على أربعة قرون. ويدعم رؤيتنا

---

[٣٣] غطاس الخشبة، رحلة ... سبق ذكره، ص١٣٤.

حديث التاريخ عن عدم توافق بداية الحكم الكوشي في الرافدين مع نهاية الأسرة البابلية الأولى، واحتمال أن يكون الحكام الكاسيين السبعة الأوائل قد حكموا خارج بلاد بابل؛ لأن ذلك يلتقي مع ستة ملوك هكسوس حكموا مصر خلال ١٠٨ سنة على التوالي، فيما يقول لنا علم المصريات الحديث. ويبدو أن الهكسوس قد نقلوا عاصمة الإمبراطورية إلى مصر إبان احتلالها وقبل طردهم منها. ويزيدنا دعمًا أنه بعد التحرير تأتينا من مصر أخبار: أن آمنحتب الثاني واجه عصيانًا في بلاد الشام، وكان رؤساء ذلك العصيان يحملون أسماء حورية.[٣٤] لقد كان الهكسوس الحوريون ما زالوا حتى زمن آمنحتب الثاني سادة في الهلال الخصيب، بعد سقوط سيادتهم على مصر بعد ثورة أحمس.

وتحمل العجلة التي تجرها الخيل القادمة من براري قزوين، لتتمركز ردحًا في وادي عربة تسمى «عربة»، أو في اللسان المصري الحديث (عربية)، بدلالة لا تحمل لبسًا فيما وصلنا إليه من نتائج، حول مركز تجمع قوى الهكسوس مركزيًّا في وادي عربة، حيث من هناك هبط جنوبًا فرع آرامي أرميني، هو الفرع الإسماعيلي ليسكن الحجاز ويستعرب، كما ظن المؤرخون العرب أنه استعرب، بينما هو منح الجزيرة عربيته ولغته العربية، التي تقبع في ثناياها اللغة المصرية القديمة فصيحة. بينما كانت ذكريات المنطقة تتواتر في مدونات التأريخ العربية، فيقول برهان الدين الحلبي راوي السيرة: «إن إسماعيل عليه السلام أول من ركب الخيل. وقد قال النبي ﷺ: اركبوا الخيل؛ فإنها ميراث أبيكم إسماعيل.»[٣٥]

وهنا ينبه «لويس عوض» في قراءته لتاريخ الهكسوس، إلى أن اصطلاح «حق – كاش» الذي يقرؤه «حكا خاز Heqa-Khase» يرتبط فونيطقيًّا باسم الحجاز بجزيرة العرب، ويرى أن «الهكسوس لم يأتوا إلى مصر من الحجاز ومن شبه جزيرة العرب، وإنما استقروا فيها بعد طردهم من مصر، أما المنبع البشري الذي تدفقوا منه على الشرق القديم، ثم عبرو إلى مصر سواء على مرحلةٍ واحدة أو دفعة واحدة، فهو حول بحر قزوين. وربما كان هذا المنبع ذاته مجرد محطة وسطى، استقروا فيها زمنًا منذ هجرتهم من وسط آسيا، شأن كافة القبائل التي كانت تسمى آرية وطورانية وسامية. والهكسوس

[٣٤] سليم حسن، مصر القديمة، سبق ذكره، ج٤، ص١٨٤.

[٣٥] علي برهان الدين الحلبي، السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون إنسان العرب، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ج١، ص٣٠، ٣١.

إذن ليسوا بني إسرائيل، إنما بنو إسرائيل على الأرجح قبائل دخلت كنفهم، ثم طردت من مصر بعد رحيل الهكسوس بقرون. ولعل بني إسرائيل هم العمو Ammou، التي كثيرًا ما يرد ذكرها مع الخازو Khasou أو الهكسوس في النقوش المصرية القديمة، وكانت متمركزة معهم في شرق الدلتا بصفةٍ أساسية.»[٣٦]

ورغم بعض الخلط عند الدكتور عوض، فإن التقاطه تطابق الهكسوس مع اسم الحجاز، وأن الحجاز قد اكتسب اسمه من الشراذم المطرودة من مصر، وهبوط بعضهم إلى شمالي الجزيرة، هي لقطة شديدة الإضاءة والتميز. ثم نتذكر فرع «سمعل» أو «إسماعيل» الآرامي ومملكة بيت عدن أو أدنى أو آدون أو عدن، والإله الذي كان ينتشر شرقي المتوسط باسم عدن أو أدن أو أدونيس، ويعني الرب أو السيد مرادف البعل. ونجد الإسرائيلي ينادي ربه بالتوراة: أدوناي أي يا سيدي، ولم تزل أدون بمعنى سيد في العبرية من الأصل عدن، أو السيد الرب الذي تُنسب إليه قصة جنة عدن، التي تتحدث عن ذكريات عالم سعيد عاش فيه الأسلاف تحت رعاية ذلك السيد، قبل أن يغضب عليهم فيشتتهم من جنته الرباعية الأنهار، وهي الجنة التي لو دققنا في مواصفاتها الجغرافية بالتوراة، لأعطتنا مساحة الإمبراطورية الهكسوسية من دجلة والفرات إلى نهر النيل بالضبط وبكامل الموضوع.

وربما كان سيجموند فرويد محقًّا، وهو يربط الاسم الإلهي آدون باسم الإله، الذي تبناه أخناتون وعرف باسم «آتون»، والذي يلتقي مع اسم بلاد «آدوم»، قياسًا على استخدام التوراة كما في عمران وعمرام. كما تلتقي مع الذكريات الأسطورية للإنسان الأول في جنة السيد الرب المعروف باسم «آدم»، وهي تسمية الجنوب اليمني لسكان بلاد آدوم، كما أسلفنا التوضيح، ومن ثم كانت بلاد آدوم هي بلاد آدون أو بلاد آتون أو بلاد عدن أو جنات عدن. وكانت تقع شرقي مصر حيث تشرق منها الشمس على مصر كل يوم؛ لذلك استحقت أن ينعتها المصريون باسم أرض الإله؛ لأن «آتون» في المصرية القديمة كانت تعني قرص الشمس، وتنسب تلك الأرض أيضًا للإله ست، الذي يمنع أبوفيس في الأسطورة المصرية من ابتلاع الشمس فهي سيترويت، المقاطعة المصرية غير الموجودة في جدول المقاطعات المصرية، فهي مصرية شبه مستقلة، كذلك لم يتم تدوينها بتلك الجداول.

---

[٣٦] لويس عوض، مقدمة ... سبق ذكره، ص٢٢، ١١.

وبين سكان تلك البلاد الآدومية أو الآتونية أو العدنانية، كان العنصر القادم من بلاد أرابخيتيس أو بلاد «عرب»، الذين هبطوا وسكنوا الحجاز مستعربين، وفق رأي يرى جزيرة العرب هي موطن العرب، وأن من دخلها واستوطنها استعرب. لكن ما نراه قد حدث هو العكس، حيث منح هؤلاء اسمهم أولًا لوادي عربة، ثم منحوه لجزيرة العرب عندما استوطنوها. ومن هنا احتسب الرأي العربي في كتاباته التاريخية، أن العرب الأقحاح هم عرب الجنوب، أما عرب الشمال الوافدة فهي ليست من أصولٍ عربية إنما استعربت. رغم أن امتداد الجزيرة مستمر، من بحر العرب والمحيط الهندي جنوبًا، حتى بلاد الأناضول شمالًا دون عوائق جغرافية، حتى إن اصطلاح جزيرة العرب جغرافيًّا، يدل على المنطقة من المحيط الهندي حتى جبال زاجروس شمالًا حتى اليوم.

وقام النسابة العرب ينسبون المستعربة إلى جدٍّ أسطوري بعيد، باسم عدنان على وزن فعلان من «عدن»، والكلمة عدن معرفة بلسان الجنوب، بأداة تعريف هي «ن» تلحق بآخر الكلمة، كما في «رحمن» و«رحمنن»، فالكلمة عدن في أصلها غير المعروف هي «عد» و«أد» و«حد»، والإله حداد هو أدد أيضًا، ويمكن أيضًا ببساطة أن تكون «ود» دون خلل، ونحن نذكر الإله البعل حداد أو هداد أو أد، كما لا شك نعرف الإله «ود» الذي عبد في بلاد آدوم وجزيرة العرب، على نطاقٍ واسع حتى ظهور الإسلام، حيث ذكره القرآن ضمن أرباب العرب، وهو ذات الإله البعل حدد أو عد أو عدن.

وهو ما يستدعي آيات القرآن الكريم، التي كانت تحدثنا عن مدينةٍ كبرى، اشتهر أمرها في العصور الخوالي، في دولةٍ مركزية كبرى أطلقت عليها الآيات اسم «عاد إرم ذات العماد». ويؤيدنا تمامًا هنا أن «عاد» عند ابن قتيبة الدينوري، هو اسم علم لأب قبلي، يعطينا اسمه موافقًا لكل ما قلناه، فهو عنده «عاد بن عوص بن إرم»، فعاد هنا قبيلة من نسل عيسو، وعيسو من نسل إرم، وإرم تلقي بنا في عمق التاريخ مع الآراميين القادمين من أرمينيا، ومع الإرم بمعنى الصخرة والصخرة عاصمة آدوم.

وبشأن عاد والعماد نقرأ لسان العرب، فيطالعنا تحت مادة «عدد»:

> العد هو الكثرة. عادَّهم الشيء: تَساهموه بينهم فساواهم. والعدائد: الشراكة. ويعني ابن الأعرابي بالشراكة جمع شريك، أن يقتسموها. والعديد الذي يعد من أهلك وليس معهم (لاحظ هذا وضع بلاد آدوم الستروي بالنسبة لمصر، فهي من أهلها، ليست معها [المؤلف]) والعد ماء الأرض الغزير. وعدان: الشباب والملك. ومعد أبو العرب وهو معد بن عدنان.

ثم نستطلعه كلمة العماد، فتأتينا في مادة عمد في قوله:

العماد الأبنية الرفيعة. وفي قوله تعالى: إرم ذات العماد قيل معناه أي ذات الطول. ورجل طويل العماد إذا كان معمدًا أي طويلًا. وعميد القوم وعمودهم: سيدهم. والعمود: القضيب الحديد. والمعمد: العمد والعمدان. والعمداني: الشاب الممتلئ شبابًا. وقيل: هو الضخم الطويل.

والرباعي منه عمرد، والعمرود والعمرد: الطويل، يقال: ذئب عمرد. ويقال العمرد: الشرس السيئ الخلق. والعمرد: الذئب الخبيث. والعمرد: السير السريع الشديد.

والثلاثي منه عود: وعاد قبيلة وهم قوم هود. قال الليث: وعاد الأولى هم عاد بن عاديا بن سام بن نوح الذين أهلكهم الله. أما عاد الأخيرة فهم بنو تميم ينزلون رمال عالج، عصوا الله فمسخوا نسناسًا. والعيدية ضرب من الغنم، والعيدانة النخلة الطويلة، والعيدانة شجرة صلبة قديمة.

وهي جميعًا المعاني التي جمعت فأوعت قصة أولئك الذين تحالفوا، ولم يكونوا على قراباتٍ أصيلة، مع صورةٍ واضحة للمكان وللبشر. وما يلفت النظر تكرار صفة الشباب الممتلئ شبابًا لدى العاديين، وهي ما يلتقي مع تلك الصفة فيهم، والتي سجلها عنهم التاريخ، عندما قال إن قواد الخيول الآرامية يسمون ماريانو أو مرين.[٣٧] لذلك نعود إلى اللسان نقرأ تحت مادة مرن:

مرن: لين في صلابة. قال ابن بري: صوابه معك بالكاف، يقال رجل معك أي مماطل (نتذكر هنا أرام معكة الآرامية، وصفة تجار شعب الأيكة المماطل

[٣٧] المارينو: طبقة من المقاتلين المحترفين تستخدم العربة الحربية التي يجرها الحصان، أمكنهم تأسيس ولايات إقطاعية في سوريا وفلسطين، وقد انضموا للهكسوس في احتلالهم لمصر. ولما تمكن أهل طيبة من التغلب على الهكسوس في القرن السادس عشر، قد اقتبسوا نظمهم العسكرية وأسلحتهم، ويبدو أيضًا أنهم اقتبسوا معها التركيب الاجتماعي الملازم لهذا النظام، وهناك احتمال أن يكون المرتزقة من طبقة المارينو، قد حاربوا ضمن قوات طيبة، فكافأهم قوادهم المنتصرون بمنحهم إقطاعيات بمصر (آلدريد: إخناتون ص٣١، ٣٢).

[المؤلف]). ومرنه عليه فتمرن: دربه فتدرب. والمرن الأديم الملين المدلوك (نتذكر أن الأديم هو التراب الأحمر صفة بلاد آدوم [المؤلف]). والمارن: الأنف، وقيل طرفه، وقيل المارن: ما لان من الأنف منحدرًا عن العظم، وفضل عن القصبة. وبنو مرينا: هم قوم من الحيرة، وليس مرينا بكلمةٍ عربية.

ويقترن الحديث في الآيات عن إرم ذات العماد وقومها عاد، بالحديث عن الذين جابوا الصخر بالواد، والذين «جابوا» أي الذين حفروا، ففي لسان العرب «جاب = حفر» في صخر الوادي، وهو ما يحيل إلى بلاد آدوم، وربما أحالت إحالةً قوية إلى الجوبان أي الارتحال، وهو ما يذكرنا بقول التوراة: «آراميًّا تائهًا كان أبي»، لكن الغريب هنا أن تقترن قصة عاد إرم في الآيات بفرعون الطاغية، وهو ما انتهى بكارثة قضت على قوم عاد أو العاديين أو «عدن». وهو ما يستدعي ما جاء في تاريخ هروشيوش، عن النار التي أحرقت بنط بوليس أو بلاد بونت أو البلاد الخماسية؛ لأن «بُنت» أيضًا تعني باليونانية رقم خمسة، ومنها جاءت تسمية التوراة بالأسفار الخمسة «بنتاتك Pentateuch»، ثم نجد تفسير معنى بونت/الخماسية في الكتاب المقدس، الذي يفيدنا أن مدائن بلاد آدوم في وادي عربة، كانت خمس ممالك هي سدوم وعمورة وأدومة وصبوييم وبالع، وتحمل بالع أحيانًا اسمًا آخر هو صوغر (سفر التكوين، ١٤: ٨)، وتقع صوغر باسمها هذا حتى الآن جنوبي البحر الميت، وتطل عليه مباشرة، وهي الآن «صغر».

ونستعيد الاسم الذي أطلقه الكاسيون على بلاد بابل عندما احتلوها، فهو «كاردونياش»، أي قطر «كار» الإله «دون» مع التصريف الاسمي «ياش»، وبدون هذا التصريف تصبح «دون» أو آدون، أو عدن أو أدن أو آتون أو «دان»، أي الإله السيد القاضي.

وإذا كان معنى «عد» في اللسان، هو كثرة يتساهمون في شركةٍ يتقاسمونها، فقد كان معناها أيضًا الشباب والملك والسيادة، ومن الكلمة جاء اسم معد بن عدنان أبو العرب. وكلها من الأصل الثنائي «عد»، مما يحيل إحالة قوية إلى أن الاسم «عدن» هو من الأصل «عد» بعد حذف أداة التعريف الجنوبية «ن». وعليه فقبائل عاد هي قبائل عد أو الإله عد، أو ود، أو آدون، أو عدن. القرآن الكريم إذن يقرن عادًا بإرم فتكون عاد إرمًا، أو «أدإرم». وذكر الجغرافيون الإغريق هذا الشعب تحت اسم «أدرميتاي»، وقد ظن البعض أن تلك الكلمة اليونانية Adramitae تعني حضرموت، وهو التباس

وخطأ واضح، حيث إن حضرموت كانت تكتب باليونانية Chataramotitae، وهي غير أدراميتاي التي تتركب من مقاطع هي على الترتيب:

Ad عاد

Ram إرم

Tae شعب أو قبيلة

= قبيلة عاد إرم

وفي إشارة عابرة لا تحمل كل ما قدمنا من جهد، يقول المؤرخ الفرنسي سدل Sadles على محمل الظن والصدفة في كتابه «تاريخ بلاد العرب»:

> إن عادًا قد امتلكت مصر وبابل سنة ٢٠٠٠ق.م. وقد عرفوا حينئذٍ بالهكسوس.[٣٨]

ثم نلحظ أن كلمة «عاد» في العبرية تعني: مرتفع، وشهير، وهو ذات معنى كلمة إرم وكلمة سام في العربية، فهي الصخرة والتل المرتفع الشهير، وقد وصف الجغرافيون اليونانية موضع سُكنى هؤلاء، فقالوا إنه كان على خليج العقبة، وأطلقوا عليهم اختصارًا اسم Oaditae أي العاديين، وبعدهم جاء بطليموس ليقول في زمانه (أي بعد عودتهم جنوبًا نحو اليمين) أن العاديين قد أصبحوا سكان بلاد اليمن.[٣٩]

وإعمالًا لكل ذلك؛ فقد وفد إلى وادي عربة القادمون من آراب خيتيس وهم آريون، مع القادمين من الجزيرة التي عرفت بعد ذلك بجزيرة العرب. وفي وادي عربة يلتقون بالكوشيين القادمين من ساحل أفريقيا الشرقي. ويفيدنا سميث أن أول ما ذكر اسم العرب ذكر منسوبًا إلى وادي عربة، وسكان هذا الوادي المعروف باسم عرابة، وهي الكلمة التي تحمل معنى صحراء في كل اللغات السامية، إلا في العبرية فمعناها

[٣٨] مظفر نادوثي، التاريخ الجغرافي ... سبق ذكره، ص١٣٥.

[٣٩] نفسه، ص١٨٤، ١٨٥.

غابة.[٤٠] وهو ما يعني أن العبريين كانوا يعرفون أنها أيكة. وبهبوط شراذم من هذا النسيج إلى جزيرة العرب، أعطى الجزيرة اسمها فانقسم أهلها إلى أصيل ووافد: عرب قحطانية وعرب عدنانية مستعربة، أو عرب يمنية وعرب قيسية والقيسية هي المستعربة، وقيل فيهم قيسية نسبةً إلى جدٍّ بعيد باسم قيس، وخلال التاريخ بطوله نجد تنافسًا شديدًا داخل جزيرة العرب، وصراعاتٍ طويلة بين اليمني والقيسي يمتد حتى اليوم، فالكلمة يمن تعني الجهة الجغرافية الجنوبية، وقيس تعني شمال. ولا شك أننا لم ننسَ أن هؤلاء القيسيين الشماليين، كانوا يحملون في منظومة الأخلامو اسم الكاسيين أو القيسيين الذين احتلوا بلاد بابل.

وهنا أسجل إضافة هامة؛ فقد زارني في بيتي بالهرم يوم الخميس ٧/٣/١٩٩٦م العالم الجليل الأستاذ المبرز، علي فهمي خشيم إبان زيارته لمصر، وهو رجل قد تخصص ببراعةٍ تستحق الإكبار في كثير من اللغات القديمة، وبخاصة المصرية القديمة. وقد اعتمد كتابنا هنا كثيرًا من تخريجاته المبهرة، وتحادثنا طويلًا وجرنا الحديث إلى ما أكتبه الآن بين يدي قارئي، وجاء ذكر لغز الملكة بلقيس. ذلك الاسم المتواتر في كتب التراث باعتباره اسم الملكة التي زارت سليمان. رغم أنه لم يذكر أبدًا لا بالكتاب المقدس ولا بالقرآن الكريم. وطرح الدكتور خشيم في هذا اللقاء الذي أعتز به فهمًا جديدًا لاسم بلقيس، فاقترح أن يكون كلمة مركبة من ملصقين: الأول هو بعلة أي سيدة أو ربة أو ملكة. والملصق الثاني هو قيس فهي بعلة قيس، وبالتخفيف سقطت العين لتصبح لقيس. وهو التخريج الذي يلتقي بشدة مع كل ما وصلنا إليه في تناغمٍ مدهش رائع.

وهكذا كان سقوط كثير من المعلومات التاريخية في مصر، إبان الفترة غير الكتابية زمن إمبراطورية الهكسوس، قبل أن يأخذوا الخط البابلي ويطوروه إلى الآرامية، الذي تطور بعد ذلك إلى نبطية، مدعاة لألغازٍ كبرى في التاريخ، يمثلها تأريخ «إحسان عباس» في كتابه عن الأنباط، سكان جبل سعير السراة ووادي عربة؛ إذ يقول:

> مع أن الأنباط عاشوا على المشارف الشمالية من الحجاز، فليس لهم أي ذكر في مصادرنا العربية، عرف العرب من يدعون النبط بأنهم أهل سواد العراق، أو السكان الأصليون في الشام والعراق. وعرفوا بأنهم حاذقون في الزراعة

[٤٠] نفسه، ص٥٩.

وعمارة الأرضين، وفي استنباط المياه واستخراج المعادن، وأن لهم لغة خاصة بهم هي النبطية، أي الآرامية والسريانية، وكل هذه الخصائص التي ذكرت تنطبق على أنباط بترا. ولعل العرب عرفوها باسمٍ آخر. إن عرب الجنوب أنفسهم الحريصين على التدوين، لم يذكروا اسم النبط في رقمهم المنقوشة، مع أن الأنباط كانوا على الدوام يعاملونهم تجاريًّا. نعم عرف العرب الجنوبيون ن. ب. ط لقبًا لشخص، ون. ب. ط/ك. ر. ب علمًا على آخر، أو ن. ب. ط. م اسمًا لعلم أيضًا، ولكنهم لم يعرفوا قومًا بهذا الاسم، مما قد يرجح الافتراض بأن يكون أنباط بترا، قد عُرفوا باسم آخر ترجيحًا قويًّا. ومن الباحثين من ربط بينها وبين لفظة نبايوت. ومنهم من قرنها بلفظة النبياتيين والنبأيتي، التي وردت في مدونات تجلاتبلاسر الثالث، وفي مدونات أسر حادون، ومن بعد لدى آشور بانيبال. ويبدو أن اللفظة كانت تشير إلى قبيلةٍ آرامية، كانت تعيش في القرن الثامن ق.م. ويقرن بالأنباط عادة شعبان هما: الإيدوميون أو الآدوميون وبنو قيدار، وقد كانت بلاد الآيدوميين منطقة يمثل حدها الشرقي — على وجه التقريب — خطًّا ما أصبح يسمى طريق الحج من دمشق إلى مكة، وربما كان وادي العريش هو حدها الغربي، أما جنوبًا فقد كانت المنطقة تمتد حتى رأس خليج العقبة، ويقف حدها الشمالي عند النهير المعروف اليوم بوادي الإحسي، وهو يجري إلى الشمال الغربي مخترقًا غور الصافية/الصافي، ويصب في الطرف الجنوبي من البحر الميت.[٤١]

وهنا علينا أن نقدم اجتهادًا واضحًا، يفسر السر وراء ذلك التحول الكبير لمنطقة بلاد آدوم، ونشوء ذلك الخط التجاري العظيم في المنطقة، وأننا نعتقد أن ذلك قد حدث تحديدًا مع هبوط العنصر الآرامي الحيثي الحوري القادم من الشمال، والذي جاء معه بثلاثة أعمدة كانت أساس ذلك التحول نحو إمبراطورية تجارية مركزية. العمود الأول منها هو الجمل ذلك الحيوان الذي حل مشكلة النقل التجاري من أطراف المحيط الهندي جنوبًا حتى تركيا شمالًا، حيث لم تعرف بلاد الشرق المتوسطية الجمل إطلاقًا قبل ظهور الهكسوس في المنطقة، وكان مجيء الجمل إيذانًا بنقل تجاري أسهل وأقل مخاطرة من

[٤١] إحسان عباس، تاريخ دولة الأنباط ... سبق ذكره، ص١٧–١٩.

الإبحار في البحر الأحمر. ذلك البحر المليء بنتوآته الصخرية وشعابه المرجانية مع سفنٍ بدائية، وكان مجيء الجمل عوضًا حميدًا عن تلك المخاطر، فالجمل الواحد يمكنه حمل أربعة قناطير (أي ما يقرب من حمولة سفينة كاملة حينذاك) يقطع بها ستين ميلًا في اليوم في الصحراء (وبذلك يكون أسرع من أي سفينة بحرية)، زد على ذلك أنه بإمكانه أن يسافر عشرين يومًا بدون ماء في درجات حرارة عالية (وهو غير متوفر بالسفن البحرية)، ثم يمكنه أن يسافر أكثر من ذلك، إذا أُعطي شيئًا من الكلأ الأخضر، ويمكنه أن يواصل السفر لخمسة أيام أخرى بدون كلأ أو ماء قبل أن يموت.[٤٢]

وعليه فقد صدق التعبير «الجمل سفينة الصحراء»، الذي لا شك لم يأتِ من فراغ بل من مقارنته بالسفن فعلًا وقولًا، فأنشأ خطًّا تجاريًّا آمنًا عبر الصحراء، أدى إلى اجتذاب التجارة إلى مركزها الرئيسي في سالع البتراء. وكان لا بد أن يجذب هذا النشاط التجاري العالمي مجاميع وصنوفًا من البشر، سيطرت عليها القوة الأكبر «الحيثيون»، الذين تحولوا بالطريق التجاري إلى إمبراطوريةٍ كبرى.

أما العمود الثاني فهو الحصان، الذي ارتبط بالعمود الثالث وهو المعدن القوي من البرونز، أو الحديد الأكثر تطورًا من البرونز، حيث أصبح بالإمكان صناعة عجلات قتالية حديدية قوية، وخفيفة في الوقت نفسه تعمل بالبرامق (مثل عجلات الدراجة الهوائية الآن)، وتحتمل الصعاب، لتشكل مع الحصان والسيف الحديدي تحولًا هائلًا في عالم تسليح ذلك الزمان. والمتفق عليه أن الحديد جاء تحديدًا مع الحيثيين الذين تدفقوا في البداية كعناصر متاجرة، وكجند لحماية القوافل، وشركاء في التجارة، ثم بعد ذلك في المكان. ويبدو أنهم قد أقاموا معامل التعدين في جبال تمناع عند العقبة. وبعضهم حمل اسم القيني أي الحداد. وبعد فترةٍ وجدوا في أنفسهم من القوة ما يمكنهم من السيطرة الفعلية على المنطقة حولهم، في وقتٍ كانت المنطقة نفسها مهيئة لذلك، فمصر تمر بصراعاتٍ داخلية وثورات مزقتها تمزيقًا وهيأتها للغزو المرتقب، بعد أن كانت القوة الكبرى في المنطقة التي عليها العول والمعتمد من بقية دول حوض المتوسط الشرقي.

وهنا نستمع إلى عبد المنعم أبو بكر يربط بين الميتانيين الحوريين (بعضهم بالفرات الأعلى كالعادة/وهم مديانيون سيناويون في رأينا)، وبين الحيثين والهكسوس جميعًا دفعة واحدة فيقول: «تعرض العالم القديم منذ القرن العشرين قبل الميلاد لهجراتٍ

---

[٤٢] لطفي، العرب … سبق ذكره، ص١١٣، ويقول: إن الجمل يمكنه حمل أربعة أطنان؟!

متعددة قامت بها قبائل جبلية غير متمدنة تسكن المناطق الوسطى من آسيا، وتُعرف في التاريخ باسم القبائل الهندو أوروبية ... كانت فلول منهم عرفها التاريخ باسم القبائل الكاشية، قد وصلت إلى أوسط العراق، وهاجمت مدينة بابل بعد موت حمورابي بثماني سنوات، فقضت على الأسرة الملكية، وتولت فئة منهم الحكم في بابل لفترةٍ من الزمن، كما نزل البعض الآخر إلى المناطق الشمالية من العراق، واستقروا في وادي الفرات الأعلى، وكوَّنوا هناك دولة الميتاني التي امتدت حتى قاربت حدود الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط، وهؤلاء من عرفهم التاريخ تحت اسم الحوريين، وهناك القبائل التي استمرت في هجرتها نحو الغرب، ووصلت آسيا الصغرى (تركيا)، واستقرت فيها وظهرت في التاريخ باسم الحيثيين، ومنها أخيرًا تلك الفلول التي استمرت في هجرتها البطيئة نحو الجنوب، ووصلت إلى مناطق سوريا فلسطين. وبعد أن استقرت فيها بعض الوقت وامتزجت بأهلها، عاودت التحرك نحو مصر التي كانت تعاني من التفكك والاحتلال في عصر الأسرة الثالثة عشرة، فدخلت الدلتا حوالي عام ١٧٨٨ق.م. واستقرت فيها، ومدت سلطانها على البلاد حتى أسيوط جنوبًا، وعرفهم التاريخ باسم الهكسوس.»[٤٣]

ومن التلاقح الذي حدث بين الجنس الجنوب جزيري وبين الجنس الزنجي الكوشي الحامي، وبين الجنس الهندوآري، ظهر على صفحة التاريخ جنس أحدث نسبيًّا هو الجنس السامي في بلاد سيناء/آدوم وبوادي الشام، وما زلنا نذكر النظريات الثلاث حول أصل الجنس السامي، ومن بينها النظرية التي تعيده إلى شمال شرقي أفريقيا في التقائه مع آسيا عبر سيناء، وهو كلام بعض المؤرخين قد ألقوه، كان قد تم القاؤه إلقاءًا، رغم صحته الشديدة التي برهنت عليه نظريتنا حتى الآن.

وقد حدثنا القرآن عن قوم «عاد»، وأنهم كانوا يسكنون الأحقاف ببلاد اليمن، لكن المؤرخين الكلاسيكيين حدثونا عن زياراتهم لدراسة البلاد القابعة عند خليج العقبة، وأن اسمها كان «عاد» لكنهم لم يحدثونا عن سُكنى عاد لليمن، وفي آياتٍ أخرى من القرآن الكريم نجد موطنهم ليس في الجنوب، إنما في الشمال بالقسم الشمالي الغربي للجزيرة عند العقبة، وسط غابة من الكتابات الثمودية، التي تنتشر في تلك المنطقة بآلاف النماذج، وهو الأمر الذي أدى إلى القول بعادين يمثلان مرحلتين زمنيتين في مكانين مختلفين لقوم عاد، فهناك عاد الأولى التي كانت في أحقاف اليمن، وأرسل الله لهم رسولًا هو النبي

[٤٣] عبد المنعم أبو بكر، إخناتون، المكتبة الثقافية، القاهرة، عدد ٢٥، ص٦، ٥.

«هود»، ثم عاد الثانية التي أقامت عند العقبة، وقد أشار القرآن الكريم لمساكن عاد، لكن ليس في اليمن، إنما حول خليج العقبة، فتحدث عن آثارهم الباقية في مساكن منحوتة بالجبال.

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۞ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ۞ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ﴾ ....

(العنكبوت: ٣٥–٣٨)

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ ... وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾.

(الأعراف: ٧٣، ٧٤)

وظل ذكر قوم عاد حتى وقتٍ متأخر، فهم يظهرون في خرائط الجغرافي المصري اليوناني بطليموس كلاوديوس Ptolmaios Claudios ١٢١–١٥١ق.م. المعروف عند العرب بـ «القلوذي»، تحت اسم Oaditae العاديون عند العقبة بالتحديد.

وقد أوجز «لطفي عبد الوهاب» ما جاء بالقرآن بوجودين في مكانين متباعدين لعادٍ، على مرحلتين زمنيتين هي عاد الأولى وعاد الثانية بقوله: «أما عن وجود مكانين مختلفين لعاد الأولى والثانية، فتفسير ذلك هو الهجرات التي عرفها عرب الجنوب إلى شمالي شبه الجزيرة. إن هجرات قد تمت من الجنوب إلى الشمال بشكلٍ أو بآخر، وإن بعض هذه الهجرات اتخذ شكل مستوطنات أقامها التجار أو الحكام الجنوبيون في شمال شبه الجزيرة لمحطاتٍ تجارية لقوافلهم في البداية، لكن هذه المستوطنات لم تلبث أن تحولت إلى كياناتٍ قائمة بذاتها ... وقد كان بعض هذه المستوطنات يتخذ اسم القوم أو البلد الذي جاء منها لمستوطنين في البداية ...»[٤٤]

وتذكر عاد وثمود في القرآن الكريم متلازمتين بشكلٍ متكرر ومتواتر، وهو ما يشير إلى تجاورٍ مكاني، ويتحدث عن أرض الثموديين باعتبارها جنات وعيونًا وزروعًا ونخيلًا

[٤٤] لطفي، العرب ... سبق ذكره، ص١٦٢، ١٦٣.

(١٤٧، ١٤٨ الشعراء)، وإذا كنا لم نتأكد من موضع عادٍ الأولى، فإن الواضح رفقتها وملازمتها المكانية والزمانية لثمود، التي نحن على يقينٍ من موضعها في شمال غربي الجزيرة؛ لما تركوه من مخربشاتٍ كدليل أركيولوجي تام الوضوح، ولدينا إضافة لذلك قش آشوري منذ حكم الملك سرجون يظهرهم يقطنون شمال الجزيرة في القرن الثامن ق.م. كذلك نجدهم في كتابات بلينوس أواسط القرن الأول الميلادي، وأنهم ما زالوا موجودين هناك تحت اسم ثموادي Tamudaei، وفي النصف الأول من القرن الميلادي الثاني نجد بطليموس القلوذي يرسمهم على خريطته شرقي العقبة باسم Thamydeni، على التعامد مع قوم عاد الذين وضعهم القلوذي إلى الشمال منهم على الخط التجاري العالمي، وظل الثموديون في مواضعهم حتى كتب عنهم يوسابيوس Eusebois حوالي ٢٦٠–٣٤٠ق.م. وظلوا مذكورين حتى تاريخ بروكبيوس Prokopios المؤرخ الروماني الذي توفي في ٥٦٥ق.م.[٤٥]

لكن الباحثين يتضاربون جميعًا حول تزمين سيادة القبائل التي سادت وحكمت وأعطت اسمها لحضاراتٍ متأخرة في الغسق الأخير لأضواء منطقة العقبة، فيشيرون إلى سيادة قبائل توصف بأنها قبائل عربية باسم قيدار، وقيدار هو اسم الابن الثاني لإسماعيل بن إبراهيم في خريطة الأجناس التوراتية، وقبائل باسم الأنباط وتنتسب إلى نابت بن إسماعيل الابن الأول والأكبر، إلا أننا نعتقد من جانبنا بتعاصر قبائل ثمود مع زمن قيام الحلف الكبير، وأنها كانت في مواطنها بمنطقة الحجر المعروفة بمدائن صالح الآن، نسبة إلى نبيٍّ حدثنا عنه القرآن باسم صالح، وأنه ضمن تلك القبائل كانت قبائل قيدار أيضًا. فعلى امتداد بلاد آدوم الجنوبي وعلى الخط التجاري العالمي قرب ساحل البحر الأحمر الشرقي، قامت محطة كبرى للتجارة في منطقة الحجر قطنتها قبائل ثمود، التي يزعم المؤرخون أنها ظهرت متأخرة إلى حدٍّ بعيد عن زمن الأحداث، التي نحكي عنها زمن الهكسوس/الأخلامو، فيعيدونهم في أبعد تزمين إلى ق ٩ق.م. ثم يقولون لنا إنه مع ثمود ظهرت قبائل عربية باسم قيدار، التي نراها من جانبنا ذات قبائل ثمود، كما نعتقد أنه في ذات الزمن أيضًا كان الأنباط النابتيون. كل ما في الأمر أنه بعد سقوط الحلف، وتشتته بعد ضربه من قبل المصريين في ثورة التحرير، التي طردت الهكسوس، ثم طاردت فلله في آسيا في حملاتٍ متتالية. وبعد فشل عدة محاولاتٍ جدية لإعادته فقد

٤٥ نفسه، ص١٦٦–١٦٨.

توالى أخلاف القبائل ذلك الحلف بعد ذلك — أو من بقي منهم بعيدًا عن الشتات — على زعامة المنطقة، فظهر حكم الثموديين والقيداريين والأنباط ... إلخ. لكن ذلك لم يكن أول ظهور لهم، بل كانوا قائمين وموجودين طوال الوقت منذ زمن الأخلامو، وحتى آخر دولتهم التي ظهرت في المنطقة «اللحيانيين» و«الغساسنة» و«الصفائيين»، لينتهي بهم خط تاريخ تلك البلاد إلى ظلام السكون، حتى جاء الرحالة بوركهاردت ليعيد اكتشاف بلاد آدوم مرة أخرى.

وأول القرائن الواضحة التي تؤكد أن ثمود التي سكنت بلاد الحجر، كانت امتدادًا للحلف الكبير على الطريق التجاري في زمنه البعيد، أن المُشاهد لمنطقة مدائن صالح/الحجر، سيجد نفسه أمام نسخة أخرى من البتراء، من حيث النحت في الصخر، والسكن في الكهوف الصخرية، التي تشبه أعشاش النحل، ناهيك عن كون الحجر كان في محيط السيطرة المباشرة لسالع/بونت/البتراء. وتقع الحجر ضمن دائرة مدن كانت من أعمال العاصمة الكبرى، فمعها مدن سبقت الإشارة إليها كامتدادٍ للعاصمة، ففي محيطها الشرقي مباشرة نجد تيماء، ثم دومة الجندل التي حملت في أسمائها «تيماء، دومة»، ترديدًا لاسم البلاد الأم آدوم، وكذلك وادي القرى.

وبسبيل التأكد من صدق ما نعتقد نستمع إلى المؤرخ الدءوب مظفر نادوثي يقول: «إن للإسماعيليين تسمية أخرى هي الهاجريين، وقد أشير إليهم في العهد القديم بهذا الاسم. وقد أشارت التوراة إلى عشيرتين من الإسماعيليين في قولها: قطعان قيدار وخراف نبايوت. وهناك قبيلة أخرى أشير إليها باسم ماعون، وهي التي أطلق عليها العربُ اسم معين.»[٤٦]

الإشارات هنا واضحة، فالقيداريون يعاصرون النابتيين الأنباط يعاصرون معين أو معان، ومن جانبها أشارت التوراة بما يفصح عن تحالف تلك المنطقة، مرموزًا لها بأسماء أشخاص ربطتهم التوراة بصلة قرابة الدم، فالتوراة تؤكد في خريطة الأجناس أن «تيما» أو «تيماء»، بدوره كان ابنًا لإسماعيل (تكوين، ٢٥: ١٥؛ وسفر أيام الأول، ١: ٢٩–٣٠)، والمبهر أنها ذكرته بالترافق مع سبأ التي تأكدنا من وجودها شمالًا بذات المنطقة (سفر أيوب، ٦: ١٩؛ وحزقيال، ٢٧: ٢١–٢٢)، ثم بالترافق مع مدينة العلا/ددان

[٤٦] مظفر نادوثي، التاريخ الجغرافي، ص٦٨.

(سفر إشعيا، ٢١: ١٣، ١٤؛ وإرميا، ٢٥: ٢٣)، ويلخص حزقيال تلك العلاقات لهذه المدن بدولة يهوذا، بقوله:

> ددان تاجرتك بطنافس للركوب، العرب وكل رؤساء قيدار هم تجار يدك، بالخرفان والكباش والأعتدة. في هذه كانوا تجارك، شبا ورعمة هم تجارك، بأفخر أنواع الطيب وبكل حجر كريم وبالذهب أقاموا أسواقك.
>
> (حزقيال، ٢٠: ٢٢)

أما إشعيا فكان يتنبأ بضرب إسرائيل لقومٍ يأتي ذكرهم في قوله:

> وحي من جهة بلاد العرب، في الوعر في بلاد العرب تبيتين يا قوافل الددانيين، هاتوا ماء لملاقاة العطشان، يا سكان أرض تيماء وافوا الهارب بخبزه، فإنهم من قدام السيوف قد هربوا، يفنى كل مجد قيدار؛ لأن الرب إله إسرائيل قد تكلم.
>
> (إشعيا، ٢١: ١٣–١٧)

واضح أن شمال الجزيرة الآن قد أخذ يكتسب اسم بلاد العرب، وأن التوراة تتحدث هنا في زمنٍ متأخر، بعد هبوط العرب المستعربة الشمالية العدنانية الإسماعيلية إلى الجزيرة ليمنحوها اسمها «جزيرة العرب». ويتواتر في ذلك الزمن ظهور اسم العرب لوصف سكان الجزء الشمالي من الجزيرة، ونجد في نقوش الملك الآشوري «شلمناصر الثالث ٨٥٨–٨٢٤ق.م.» ذكرًا لانتصاره على تحالف ملوك أرام ضده، ويطابق شلمناصر بنقوشه ما وصلنا إليه بوضوحٍ كاشف ومضيء، فهو يعدد لنا أعضاء هذا الحلف الآرامي، لنجد منهم «جنديبو» الموصوف في نقوش شلمناصر بالعربي، وجماعة توصف بأنها عربية بدورها باسم «أدوماتو» وهي «آدوم» بوضوح.

ثم نجد في نقوش الملك الآشوري «آشور بانيبال ٦٢٦ق.م.» تعدادًا لحلفٍ عربي يعدد أعضاءه، فيقول إنه مكون من قبائل هي: السبئي والتمئي والثمودي والعاديد والمارسمانو والنبط وقيدار، الذين هم: سبأ، تيماء، ثمود، عاد، مارسمانو، (لم نعرف المقصود بمارسمانو بالتحديد)، الأنباط، القيداريون.

ونفهم من نصوص آشوربانيبال أن هؤلاء الأحلاف كانوا تجارًا، وأن تجارتهم كانت في التعدين الذي برعوا فيه: الذهب والقصدير والحديد، والملابس المصبوغة باللون الأرجواني الأحمر، والطيوب من بخور مر ولبان، والعاج، بل وتاجروا في حيوانات لا يمكن أن يجمعها سوى مركز تجاري كبير ممتد حتى جنوب البحر الأحمر عند المندب، فمن تلك الحيوانات كان الفيل، وهو حيوان إفريقي أو هندي، ولكن نصوص آشوربانيبال تؤكد وجوده في آدوم، ثم تاجروا بحيواناتٍ أصبحت من حيوانات المنطقة بعد مجيئها من الشمال الأرميني، واستيطانها في بلاد العرب الأولى «آدوم وسيناء». ومن هذه الحيوانات الجمال والخيول، فهل نستغرب بعد ذلك وجود الزراف في واردات بلاد بونت مع بعثة حتشبسوت؟

والزائر لمدينة العلا/ددان سيجد نفسه أمام نقوش وكتابات ددانية ومعينية وثمودية ونبطية معًا،[٤٧] مما يشير إلى تعاصرٍ وتعاضد وتحالف، أما مدينة الحجر فتكتظ بألوف الكتابات الثمودية المتناثرة على الصخور، ويسميها المؤرخون مخربشات لقيمتها التاريخية المحدودة، فهي فقط تحوي أسماء أفراد وأدعية للآلهة وحسابات تجارية وعوائد. وقد عثر بالحجر على أختامٍ تجارية على شكل أسطوانات ومربعات ودوائر. وتكاد تلك الأختام خاصة تلك التي عثر عليها في ددان/العلا، أن تكون نسخة أخرى من الأختام الرافدية القديمة، مما يشير إلى أن تلك المنطقة الجغرافية كانت رقعة واحدة في زمنٍ مضى.[٤٨]

وفي محيط الحجر/مدائن صالح يقع عدد من المستوطنات، أهمها القرية التي اشتهرت بكهوفها المنحوتة بالجبال، وبآثارٍ كثيرة وفخار أعادها المكتشفون إلى الحضارة المعينية، وأعادوا بعضها الآخر إلى زمن سيطرة الأنباط،[٤٩] وبدراسة مخربشات تبوك والعلا ومدائن صالح وتيماء ووادي السرحان وحائل وجبل رقم الثمودية، تم اتفاق العلماء مؤخرًا على أنها تعود إلى زمنٍ موغل في القدم، يصل إلى الألف الثالث قبل الميلاد. ومن آثار تيماء قصر زلوم المعروف بالأبلق الذي اشتهر في أساطير العرب باسم قصر

[٤٧] لطفي، العرب ... سبق ذكره، ص١٤٨.

[٤٨] موسوعة بهجة المعرفة، مجموعة من الأساتذة المتخصصين: الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا، طبعت في إيطاليا ١٩٨٢م، الطبعة الثانية، المجموعة الثانية، المجلد الأول، الجزء الثالث، ص١٢٤.

[٤٩] نفسه، ص١٢٥.

السموأل.[٥٠] والسموأل بالعبرية شموئيل وصموئيل، والثلاثة يتجمعون عند الاسم العربي لصاحب ذلك القصر، الذي لا شك حكم منه يومًا وهو اسم «إسماعيل»، ويظهر لنا عند العرب اسم غريب هو «الرقيم»، ظهر قبلهم عند المؤرخ اليهودي يوسفيوس، وقد رجح الباحثون أنه التسمية العربية لمدينة البتراء أو لمدينة الحجر أو لكليهما. وأورد إحسان عباس رأيًا يقول: إن الرقيم هي المدينة التي وردت في المصادر الصينية باسم «لي – قن» من «ري – قم»، مما يشير إلى مساحة التوسع في التواصل التجاري العالمي، الذي لا يمكن القيام به إلا لإمبراطوريةٍ قوية كبرى، ثم ورد اسم الرقيم في رسالةٍ سريانية تحدثت عن زلزال دمر الرقيم، ونحن نعلم أن هناك زلزالًا قد دمر البتراء عام ٣٦٣م.[٥١] وهو ما يذكرنا بهروشيوش المؤرخ، الذي قال إن بلاد بونت أو الدولة الخماسية المدن أو الخماسية الحلف «بنط بوليس»، الواقعة بين العقبة والبحر الميت حسب تحديده، قد نزلت عليها نار من السماء فدمرتها. وأشهر تلك المدن التي تم تدميرها سدوم وعموره. والمعلوم أن المنطقة تقع على خط زلزالي ساخن، فوق امتداد الأخدود الإفريقي العظيم. وقد ذكر القرآن الكريم بدوره دمارًا أصاب عادًا وثمود، التي هي في رأينا ذات سدوم وعمورة؛ لأن سدوم هي بالقلب سمود أو ثمود، ويبقى أن تكون عاد هي عمورة، ولا ننسى أن العاديين أو أهل عاد كانوا من العموريين، التي تنتسب إليهم عمورة أو ينتسبون إليها، ويؤكد هذا المعنى أن ترتيب المدن الخمسة يبدأ من الجنوب إلى الشمال بمدينة سدوم ثم مدينة عمورة، وتصبح سدوم بهذا التخريج هي ثمود/مدائن صالح، وتليها شمالًا عمورة (عاد/إرم ذات العماد/بونت/سالع/الصخرة/البتراء).

ومن القبائل الإسماعيلية المشهورة كان النابتيون أو الأنباط المنتسبون رمزيًّا إلى الابن الأكبر لإسماعيل «نابت أو نبايوت»، ثم القيداريون نسبةً إلى الابن الثاني لإسماعيل «قيدار». وفي المقدس التوراتي ذكر لملكٍ عربي باسم جشم (سفر نحميا ٢: ١٩)، الذي يبدو صيغة من «جاسم». وقد تطابق هذا الاسم مع اسمٍ عثر عليه في نقشٍ على طاسة في تل المسخوطة بوادي طميلات قرب الإسماعيلية بمصر، في أقصى شرقي الدلتا على الحدود السينائية، ويقول النقش المكتوب بالآرامية: «نذر إلى هاب — إيلات من قينو بن

[٥٠] مظفر نادوثي، التاريخ الجغرافي ... سبق ذكره، ص٧٤؛ وإحسان عباس، تاريخ دولة ... سبق ذكره، ص٧٠.

[٥١] السواح، الحدث ... سبق ذكره، ص٢٩٤.

جشم ملك قيدار».[٥٢] مما يعني أن جشم الوارد في سفر نحميا كان ملكًا على قيدار. أما قينو فهي القيني/الحداد، وما يؤكد لنا أن القيداريين كانوا من سكان سالع/البتراء ما جاء في سفر إشعيا يقول:

لترفع البرية ومدنها صوتها، الديار التي سكنها قيدار، لتترنم سكان سالع من رءوس الجبال، ليهتفوا.

(إشعيا، ٤٢: ١١)

ويدعم لنا أن القيداريين هؤلاء كانوا من سكان الجنوب، الذي هاجر شمالًا للتجارة بصحبة معين وسبأ وزنج أثيوبيا، في رحلة عمورية عماليقية تدريجية، استوطنت حتى استفحلت وتضخمت في حلفٍ كبير، هو أن قاموس الكتاب المقدس يقول لنا تحت مادة قيدار: إنه اسم سامي يعني الصفة اللونية «الأسود» أو «الزنجي».

لقد كانت قيدار من ثمود من العموريين القادمين من الجنوب، لكن الكتاب المقدس أصر على أنها من الجنس الآرامي القادم من أرمينيا، فنسبتهم بالبنوة إلى إسماعيل بن البطرق إبراهيم الآرامي لتأكيد معنى الحلف، حيث يرى الباحثون — دون أن يذهبوا مذهبنا لا في كله ولا في تفاصيله الدقيقة — إنه «في وقتٍ لم يكن فيه سكان شبه الجزيرة قد عرفوا التكتل حول أيديولوجيات سياسية، كان التصور الوارد هو التكتل حول العصبية، التي تقوم على أساس من رابطة العرق أو رابطة الدم، والانتماء إلى أصلٍ واحد سواء كان حقيقيًّا أو موهومًا.»[٥٣]

وهنا يتأكد ظننا في تعاصر الجميع زمن الحلف الكبير من «فراس السواح»، الذي يستنتج من المادة التاريخية: «أن الأنباط لم يكونوا سوى فريق قيداري أقام في سالع بصفةٍ دائمة، وتحول اسمها إلى بتراء فيما بعد. واسم بتراء باليونانية يعني الصخر، وكذلك اسم سالع بالكنعانية.»[٥٤] أما امتداد مدينة الصخر الجنوبي، فقد حمل ذات المعنى في مدينة مدائن صالح، التي كانت تحمل اسم الصخر في اسمها (الحجر). بل

---

[٥٢] لطفي، العرب ... سبق ذكره، ص٨٣.

[٥٣] السواح، الحدث ... سبق ذكره، ص٢٩٤.

[٥٤] إحسان عباس، تاريخ دولة ... سبق ذكره، ص٥٩.

إن إحسان عباس يقول: «وتحولت المنشأة النبطية في مدائن صالح الحجر إلى مدينة كبيرة، وتكاد القبور المنحوتة في الصخر هناك تضاهي الآثار المنحوتة في الصخور في بترا نفسها.»[٥٥] ثم يتساءل: «هل يمكن أن نوحد بين بني قيدار وأصحاب الحجر الذين ذكرهم القرآن الكريم؟ يصح هذا لو استطعنا أن نثبت أن بني قيدار هم أنفسهم ثمود، الذين ورد ذكرهم في القرآن. وهنا يجب أن نعرف أن اسم عاقر ناقة صالح كان اسمه لدى المفسرين قدار.»[٥٦]
ولمتابعة مطلب «إحسان عباس» عدنا إلى التاريخ العربي، نقرأ عند ابن قتيبة قوله:

> إن الله بعث صالحًا إلى قومه، وكان رجلًا أحمر إلى البياض. وهو صالح بن عبيد بن عابر بن إرم. وكانت منازل قومه بالحجر، وعاقر الناقة هو أحمر ثمود الذي يضرب به المثل في الشؤم، واسمه قدار بن سالف، وكان أحمر أشقر، وكان صالح رجلًا تاجرًا.

واضح هنا التداخل الذي حدث عند الحجر بين الجنسين الأسود والأحمر، ولو في ذكريات ذلك الماضي البعيد، فقيدار في الرواية العربية يصبح هو الأحمر كذلك صالح، ويذهب ابن قتيبة بهم إلى الموطن الشمالي الآرامي عبر نسبتهم لأرام.
ثم يستمر شارحًا:

> تزوج إسماعيل بنت مضاض بن عمرو الجرهمي، فولدت لإسماعيل اثني عشر بطنًا، منهم قيدار ونبت. وكان نبت بكر إسماعيل، وعاش إسماعيل مائة وسبعًا وثلاثين سنة، ودُفن في الحجر، وفيه دفنت أمه هاجر.[٥٧]

وقد ورد في نقش بمدينة بترا بخط وسط بين الآرامي والنبطي، يتكلم عن ضرورة إكمال النقوش في غرفة العبادة عند بداية السيق، مع اسم لرجلٍ وصف بالصلاح والورع اسمه «أصلح»، وأن أصلح هذا ربما كان كاهنًا كبيرًا أو حاكمًا؛ لأنه طلب تكريس تلك الغرفة للإله ذي الشرى.[٥٨] وهو الأمر الذي ظل ذكريات بعيدة تتماوج في تداخلٍ مع

[٥٥] نفسه، ص٢١.

[٥٦] نفسه، ص٢١.

[٥٧] ابن قتيبة، المعارف ... سبق ذكره، ص٣٤.

[٥٨] إحسان عباس، تاريخ دولة ... سبق ذكره، ص٤١، ٤٠.

روايات أخرى عن ذكريات أخرى، حتى وصلنا صالح في القرآن الكريم نبيًّا مرسلًا إلى ثمود. فإذا كانت الآيات تردد ذكريات عن أصلح الموجود بنقش بترا بداخل السيق، فستكون بترا مسكنًا لثمود، وليس فقط مدينة الحجر، مما يشير إلى تداخلٍ واضح بين مختلف فئات الحلف.

لكن القرآن الكريم يؤخر ظهور الثموديين إلى ما بعد انتهاء زمن عاد، فيقول:

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾.

(الأعراف: ٧٤)

والقرآن الكريم يختلط فيه الوعظ والترهيب، والترغيب بالأمثلة من ذكرياتٍ تاريخية تمت قراءتها على طريقة القرآن الكريم المعتادة بهذا الشأن، فيقول إن «عاد إرم» قد عصت ربها، فأرسل الله إليها نبيًّا باسم «هود». وما يؤكد فرضنا في أن عاد كانت البتراء أو مدينة في محيط آدوم، بل إنها آدومية الزمن وليست جنوبية يمنية، أن ابن قتيبة يذكر لنا نسب «هود» مرفوعًا إلى «عيسو آدوم»، فيقول:

هو هود بن عبد الله بن رباح بن حارث بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح. وكانت عاد ثلاث عشرة قبيلة ينزلون الرمل وبلادهم أخصب البلاد.

لكن أهل عاد الآدوميين/الآداميين لا يؤمنون بما جاء به هود، فيغضب عليهم ربهم فيدمرهم فيرثهم الثموديون، أي إن ثمود هي امتداد في زمنٍ تالٍ لعاد الآرامية. وأفسد الثموديون بدورهم في الأرض، فأرسل لهم ربهم النبي صالحًا، وكأسلافهم كذب الثموديون صالح فدمرهم الله بدورهم.

ويشرح المسعودي بشأن الآراميين/الأرمان بقوله، موجزًا تاريخًا رأيناه قد حدث في هذا المكان:

وقيل إن الأرمان إنما سموا بذلك؛ لأن عادًا لما هلكت قيل: ثمود إرم. فلما هلكت ثمود قيل لبقايا إرم أرمان، وهم النبطيون الأرمانيون.

وكانت بلاد الكلدانيين العراق وديار ربيعة وديار مضر والشام وبلاد العرب اليوم، وبرها ومدرها، اليمن وتهامة، والحجاز واليمامة والعروض

والبحرين والشحر وحضرموت وعمان، وبرها الذي يلي العراق، وبرها الذي يلي الشام. كانت جميعًا مملكة واحدة يملكها ملك واحد، ولسانها واحد سرياني (آرامي [المؤلف]).[٥٩]

وحول عناصر من ذلك الحلف يشرح الكتاب المقدس، كيف جاء الرب بكل شعب من موطنه في قوله:

ألستم لي كبني الكوشيين يا بني إسرائيل؟ يقول الرب: ألم أصعد إسرائيل من أرض مصر والفلسطينيين من كفتور والآراميين من قير.

(عاموس، ٩: ٨)

ويحتمل أن تكون قير الأصلية تلك محطة بعيدة من محطات هجرة الآراميين الشمالية، وربما كانت الأصل في اسم منطقة قرقيزيا.[٦٠]

والنبي محمد كتب لبني جعال بن ربيعة الجذاميين، الذين سكنوا العقبة زمن الدعوة الإسلامية يقول لهم فيه: «إن لهم إرمًا لا يحلها أحد غيرهم لغلبهم عليهم، ولا يحاقهم أحد، فمن حاقهم فلا حق له.» لقد كان العرب حتى زمن الدعوة الإسلامية، يعرفون بلاد العقبة بكونها آرامية.

أما الذي يتأكد طوال الوقت، فهو وجود الجنس الكوشي الزنجي بالمنطقة، بينما كانت نصوص التوراة التي تذكر الكوشيين بجوار دولة يهوذا وإسرائيل، تصنع ارتباكًا حادًّا لدى المؤرخين. يقول الكتاب المقدس مثلًا:

وأهاج الرب على يهورام (ملك يهوذا [المؤلف]) روح الفلسطينيين والعرب بجانب الكوشيين، فصعدوا إلى يهوذا وافتتحوها، وسلبوا كل الأموال الموجودة في بيت الملك مع بنيه ونسائه أيضًا.

(أخبار أيام ثاني، ٢١: ١٦-١٧)

---

[٥٩] المسعودي، التنبيه ... سبق ذكره، ص٨٤، ٨٥.

[٦٠] قيزقيز «جمهورية قيزقيزستان» الآن في آسيا الوسطى منبع الهجرات الهندوآرية.

لقد ظل تعبير «العرب الذين بجانب الكوشيين» لغزًا غير محلول، يتمثل في سؤال: كيف يكون الزنوج بجوار العرب، وكان الظن هو التجاور على البحر الأحمر، فالعربي شرقية والزنجي غربية، لكن اللغز ظل لغزًا؛ لأن النص ونصوصًا أخرى كثيرة، تضعهم جنوبي دولة يهوذا مباشرة، وهنا نقف مع فراس السواح، وهو يحدثنا عن أحدث الكشوف، فيما يتعلق بتصنيف اللغات إلى سامية وحامية، وأن العلماء لم يعودوا يركزون على ما يسمى باللغة السامية الأصلية، ثم يقول: «يقوم العلماء الآن بتلمس خيط يربط بين اللغات السامية باللغة المصرية وبقية لغات شمال أفريقيا، وهم يرون أن الأقرب إلى الواقع هو وجود لغة أفروسامية، تفرعت فيما بعدُ إلى سامية وإفريقية عند نقطة معينة من التاريخ.»[٦١] ومن هؤلاء العالم الألماني P. Behrens والروسي Diakonoff.

أليس هذا بكلامٍ يلتقي التقاءً عبقريًّا مع ما وصلنا إليه، حول التقاء العناصر التأسيسية في بلاد آدوم، وما نتج عنه بعد ذلك على مستوى اللغات والأجناس؟ أما الأكثر إلماعًا وإشراقًا، فهو أن نعلم أن تلك النقطة المعينة في التاريخ، التي افترضها الألماني بهرنس والروسي دياكونوف، كانت هي زمن قيام إمبراطورية الهكسوس الذي ظل منطقة مظلمة في التاريخ حتى كتابة بحثنا هذا، بل وإن مكانها كان ذات المكان الذي حددناه في بلاد مديان الآدومية العربية في شبه جزيرة سيناء تحديدًا وتدقيقًا. فقد عثر الآثاري البريطاني فلاندر بتري عام ١٩٠٥م عند سرابيط الخادم بسيناء على كتاباتٍ منقوشة على الصخور، أصبحت تعرف الآن علميًّا باسم الكتابات البروتو سيناتيك، قرب مناجم النحاس والفيروز. وقد تبين أن البروتو سيناتيك أقدم كتابة تستخدم الأبجدية في التاريخ حتى الآن، وقد وجد بتري اكتشافه هذا على بقايا أثرية تم بناؤها زمن الفاتح العظيم تحتمس الثالث خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر. وبعد اكتشاف بتري تم العثور على المزيد من كتابات البروتوسيناتيك، بعد أن عثرت بعثة فنلندية عام ١٩٢٩م على نماذج جديدة، واتبعتها بعثة جامعة هارفارد الأمريكية؛ لتكتشف ذات الكتابات في مواضع أخرى، حتى بلغ ما تم العثور عليه حتى الآن خمسة وعشرين نصًّا.[٦٢] تتحدث عن أعمال استخراج حجر الفيروز من جنوبي سيناء، وتقديم قرابين «تسمى هنا طاعة» إلى بعلات حات حور، وبعلات لقب سامي هو السيدة مؤنث

[٦١] السواح، أرام ... سبق ذكره، ص٣١.

[٦٢] أحمد عثمان، في الشعر ... سبق ذكره، ص٧٦–٧٨.

بعل/السيد أو الرب، بينما حتحتور إلهة مصرية معلومة الشأن، مما يشير إلى تمازجٍ مصري سامي في تلك المنطقة، استمر منذ تمازج الإلهين سيت وبعل، وهي تقع إلى الغرب مباشرة من جبال كاثرين، التي اتجه إليها موسى برجاله عند الخروج من مصر كموقعٍ مقدس. وقد أخبرنا الكتاب المقدس أن تلك المنطقة كانت أراضي مديانية، وقد أكدنا من جانبنا أن المدياني هو الإسماعيلي، وتأتينا من كتابات «أو مخربشات» سيناء Sinaite Inscriptions، نصوص تؤكد مذهبنا، فنجد نصًّا يقول:

شمعا ما رب عبدم.
ومعناه إسماعيل صبي رئيس العاملين.[٦٣]
أو إسماعيل «شمعاما» عبد «عبدم» السيد «رب».

فالكتبة هنا يحملون ثقافة مصرية سامية مشتركة، وكتبوها بذات اللغة التي عثر عليها في نصوص تل العمارنة (الكارية)، بأبجديةٍ سينائية هي الأصل الأصيل للأبجدية، الفينيقية التي ظهرت بعد ذلك، وانتقلت إلى بلاد اليونان ثم العالم. ويعتبر الباحثان نيلسون وسيث أن اللغة الثمودية المنتشرة بطول ساحل البحر الأحمر الشرقي هي تطوير بسيط للبرتوسيناتيك[٦٤] كما استطاع وينت أن يثبت انقسام الثمودية إلى أشكال مختلفة، تمثل مراحل تطورها خلال مدة زمنية طويلة.[٦٥] وهو ما يعني عراقة ثمود وقدمها منذ أيام الحلف الكبير.

كذلك تم العثور على كتاباتٍ سينائية في موقع الكنتلة، على الطريق الذي يصل طابا على خليج العقبة برفح على البحر المتوسط، على بعد خمسة كيلومترات من الحدود الإسرائيلية، وكذلك في عين القديرات بالقرب منه. والمعتقد أن هذه الكتابات قد نقشها الخارجون من مصر برفقة موسى في رحلة الخروج. وقد قال الإسرائيليون: إن تلك الكتابات عبرية، لكن الحقيقة أن العبرية نفسها هي لغو وخط كنعاني كُتب بحروفٍ آرامية. ولم يحدث أن عُرف وكُتب إلا بعد القرن العاشر قبل الميلاد، أي بعد أربعة قرون تقريبًا على حدث الخروج؛ لذلك لا تخرج تلك الكتابات بدورها عن البروتوسيناتيك، التي يبدو أنها

[٦٣] نفسه، ص٧٨–٨٠.
[٦٤] نفسه، ص١٠٧.
[٦٥] نفسه، ص١٠٩، ١١٠.

كانت أصلًا للعبرية المكتوبة بالآرامية، بعد أن أصبحت الآرامية الوسيلة الأمثل والأيسر للكتابة. وهو ما يعني أن الخط الآرامي نفسه قد تطور عن البروتوستاتيك، التي هي في رأينا الكتابة أو الخط الحوري الكاري، خاصةً بعد ثبوت تطابقه مع الكتابات الحورية في مكتبة العمارنة. ويعتبر أولبرايت أن البروتوسيناتيك هي الأصل الأصيل للكتابات الأبجدية بعد ذلك وصولًا إلى اللغة العربية التي ظهرت في سيناء.[٦٦] وعندما قامت دولة الفرس حوالي ٦٠٠ق.م. اتخذت من الآرامية لغة رسمية لها، مما يشير إلى مدى حميمية القرابة بين تلك الكتابة الأم للأبجدية وبين الهندوآريين. أما العربية فقد تطورت عن النبطية المكتوبة بالحرف الآرامي في سيناء وآدوم. ومع ذلك لم يزل علماء اللغة المهتمون بهذا الأمر، لا يلتفتون إلى العوامل الموضوعية التي أدت لظهور الكارية بالخط السينائي، ولم يزل قولهم: «منذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد ظهرت لغة سامية مشتركة بين شعوب ممالك الهلال الخصيب ومصر. لم تكن هي لغة الكلام لأيٍّ من شعوب هذه المنطقة، وإنما استخدمت في الكتابات الأدبية فقط.»[٦٧] «وأنها تطورت وأصبحت تمثل لغة أدبية خاصة، تختلف عن لغة كلام الأكاديين والكنعانيين والمصريين، فهي لغة أدبية خاصة لا يستخدمها أي قوم في الكلام.»[٦٨] ومع ذلك فإن «العربية الفصحى قد جاءت نتيجة لتطور هذه اللغة المكتوبة، وأنها كانت خليطًا من لهجات القبائل العربية.»[٦٩] بينما نحن قد كشفنا عن التقاءٍ وحلفٍ ولغة كهوف اسمها الكارية أو الحورية، تعددت ما بين ددانية وثمودية ونبطية وآرامية وعبرية، لكنها جميعًا كانت تعزف على نوتاتٍ متشابهة متقاربة، انصهرت معًا جميعًا بعد ذلك في اللغتين العبرية والعربية، وأن نوتتها الأصلية كانت مزيجًا من المصرية.

وهكذا امتدت المساحة المركزية لدولة التجار من البتراء إلى الحجر جنوبًا، وتيماء شرقًا وتبوك، والبدع جنوب غربي تبوك، حيث تجد هناك مغاير وكهوفًا أطلق عليها الناس بحكم ذكريات العصور الخوالي «مغاير شعيب». وأطلقوا على بئر هناك اسم بئر موسى ترديدًا لذكرياتٍ تاريخية مختلطة. ويقول صاحب معجم البلدان أنه في جبال

---

[٦٦] نفسه، ص٧٤.

[٦٧] نفسه، ص٧٤.

[٦٨] نفسه، ص٦٩.

[٦٩] نفسه، ص٧٥.

السراة/سعير تقع البلقاء، التي حدثت فيها أسطورة أصحاب الكهف، والتي ترد في القرآن الكريم مقرونة بالرقيم، وأن العماليق قد نزلوا البلقاء وكانوا ملوكها.[٧٠]

وتغطي الكتابات الثمودية آثار تيماء التي تقع على خط ٣٨,٣٠ طولًا و٢٧,٤٠ عرضًا، وتتميز تيماء بتربةٍ حمراء، وتؤكد البحوث الجيولوجية أنها كانت مغمورة بالمياه إلى زمنٍ قريب جدًّا، لدرجة أن أخبار ذلك الماء جاء في أخبار عرب الجاهلية الأخيرة.[٧١]

أما مدينة الحجر نفسها؛ فتقع على خط ٣٧.٤٥ طولًا و٢٦.٤٦ عرضًا، وقال فيها القرآن الكريم:

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ * فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الحجر: ٨٠–٨٤).

والزائر للمنطقة يمكنه ببعض المشقة الوصول إلى تلك البيوت الصخرية، لكنه لن يجد سوى غرف مربعة أو مستطيلة، تحوي عظامًا بشرية، وبها أرفف حجرية على عدة طبقات، تطابق مثيلاتها في البتراء، وفي تدمر التي كانت بدورها امتدادًا طبيعيًّا للطريق التجاري، وبالضرورة للحلف العظيم. وهناك يمكنك أن ترى تماثيل لعناق البونتي فوق أحد الكهوف، ذهبت فيه الآراء إلى أنه حيوان ربما كان لبؤة صغيرة، لكن ذيله المعقوف مثل ذيل الكلب، يشير لحيوانٍ غريب مجهول، وعلى كهفٍ آخر ستشاهد تماثيل أبي الهول المصري، وعلى كهفٍ ثالث يمكنك مشاهدة طائر الفينيق ناشرًا جناحيه.

أما الأفصح والأبين والأكثر إعلانًا عن هوية المكان، فأنك تجد هناك بناء يحمل الاسم الذي أطلق على مثيله الضخم في البتراء، اسمه قصر الـ «بنت». هذا بينما يكرر لنا القرآن الكريم ذكريات العرب عن القرون الخوالي، أيام كانت تلك المنطقة من الجنات الوارفة في قوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ

[٧٠] حمود بن ضاوي القثامي، شمال الحجاز، الآثار، دار نشر العصر الحديث، بيروت، ١٩٩١م، ج١، ص٨٠، ٨٢.

[٧١] نفسه، ص١١٥، ١١٧، ١٢٦.

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (الشعراء: ١٤١–١٥٠).

ويؤكد لنا الإخباريون العرب أن العرب المستعربة من أبناء إسماعيل، هم من قالت الآيات بشأنهم: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الحجر: ٨٠). ويقول آخرون: «كانت ثمود تقيم في جنوب شبه الجزيرة العربية، ولكنها انتقلت إلى شمال غرب الجزيرة العربية في غرب خليج العقبة. وجاء في الأعلام لخير الدين الزركلي: أن ثمود بن عابر بن إرم من بني سام بن نوح. كانت إقامته في بابل ورحل عنها بعشيرته إلى الحجر. ثم انتشروا بين الشام والحجاز، وفيها من أعجب الآثار بيوت منقورة في الصخور.»[٧٢] ويضيف «حمود القثامي» جامعًا أخبار الأولين بقوله: «واختلف في أصل ثمود؛ فقيل: هم من بقايا عاد؛ لأن القرآن الكريم ذكرهم مرادفين لعاد، وقيل إنهم من العمالقة الذين شيدوا لهم مملكة في مدين والبتراء ووادي موسى، ولكنهم في الثابت كانوا بعد قوم نوحٍ وعاد. قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ (التوبة: ٧٠). وتعتبر مدائن صالح من أهم وأغنى المناطق آثارًا في جزيرة العرب.»[٧٣] ثم يتساءل مع المتسائلين من أصحاب الدراسات الأركيولوجية في المنطقة قائلًا: «لا يزال واضعو الدراسات العلمية حول نقوش الثموديين في حيرةٍ من أمرهم، وما زالوا يتناقضون فيما بينهم. فالنقوش الثمودية تطالعنا في المنطقة الواقعة على امتداد الجزء الغربي من شبه الجزيرة العربية، من جوار مدينة البتراء حتى اليمن، لكن هذه المنطقة أوسع بكثيرٍ من المنطقة التي يسكنها الثموديون، كما هو في كتب التاريخ العربي.»[٧٤]

وعلى الامتداد نفسه من البتراء قرب العقبة نصل إلى وادٍ لم يزل يحمل الاسم الآرامي «رم»، وقد وصفه لورانس بقوله: «صخوره الشاهقة كأنها بنايات ضخمة عملاقة، تقع على جانبي شارع طويل، تبدو القمم العالية التي تكتنفها الضخمة، وكأنها الأعشاش

---

[٧٢] نفسه، ص١٥٦، ١٥٩.

[٧٣] نفسه، ص١٦٠.

[٧٤] نفسه، ص١٧٠.

(ولا بد أن نتذكر هنا قباب مساكن بونت التي تظهر كالأعشاش [المؤلف])، يشاهد الزائر اللوحات الصخرية، المتناثرة في مختلف الأماكن من وادي رم، مكتوبًا عليها باللغة الثمودية: إنه من روائع جمال الطبيعة العذراء، وبقعة لا مثيل لها في بقاع العالم، فمن خلال الأشكال والألوان يحس الإنسان أنه في أجمل بقعة من العالم.»[٧٥]

ثم يتساءل «قثامي» حول هذا الانتشار الهائل للمخربشات الثمودية من البتراء حتى اليمن، بينما المفترض أن ثمود قد سكنت فقط منطقة الحجر بقوله: «إذن من هم مؤلفو الثلاثة عشر ألفًا أو الأربعة عشر ألفًا من النقوش الثمودية، التي باتت الآن معروفة لنا، بالإضافة إلى الألفي نقش، التي وجدت في شمال شبه الجزيرة العربية، والتي اكتشفها بييرفان دن براندان ... يقول بعضهم: «إن تلك النقوش تعود إلى أصحاب القوافل، التي كانت تعبر الصحراء، حاملة التجارة عبر الطرق الصحراوية، ومن الغريب أن يكون بعض هذه النقوش من صنع أصحاب القوافل أنفسهم، والأغرب من ذلك أن حقيقة وجود أعداد كبيرة من هذه النقوش في قمم الجبال العالية، حيث يصعب على أصحاب القوافل الوصول إليها.»[٧٦] إن مثل تلك النقوش فيما نرى كانت بحاجة إلى وقت وزمن وارتباط بها، لقد كانت لأناسٍ يقيمون هناك في محطاتٍ دائمة على الخط التجاري للإمبراطورية التجارية.

وإذا كنا قد عثرنا هناك على التأكيد الواضح — في اسم قصر البنت — على ما ذهبنا إليه حتى الآن، وعثرنا على عناق البونتي والطائر البوني، فإننا نجد أيضًا الرفائيين/الرباتيين، في اسم معبد الروافة النبطي «والفاء تنطق أيضًا باء» الواقع إلى الغرب من تبوك على خط طول ٣٦٫٥ طولًا و٢٧٫٤٥ عرضًا. وقد ذكره ديودورس الصقلي باعتباره مكانًا مقدسًا لقبيلةٍ عربية، وذكره أيضًا الدكتور جواد علي، ووجد على حجر هناك نقوشًا يونانية قصيرة، تذكر أن البناء يعود إلى Hierontouto، وأنه قد بُني في أرض الرباتيين أو كما كتبها النص رباتي Rabathai، وهو ما يدفع إلى اعتبار اسم الروافة الحالي من الأصل رفائي ورباتي.

ويذهب المفسرون المسلمون إلى أن الآيات ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ (الأعراف: ١٦٣)، و﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (البقرة: ٦٥)، إنما تعني

---

[٧٥] نفسه، ص٢١٠، ٢١١.

[٧٦] نفسه، ص٢٢٠.

مدينة إيلات/أيلة أو ربما العقبة، ولكنها في رأينا ميناء عصيون جابر التوراتي، الذي تحول إلى جزيرة فرعون بجوار ميناء أيلة. ويحكي القرآن ذكريات العربان عمن أبادتهم الحدثان، فيربط بين الحوت/الدلفين، الذي تتناثر تماثيله في المنطقة، وبين المدينة والبحر وبين الشعب الإسرائيلي وشرائعه، فيقول: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (الأعراف: ١٦٣–١٦٦). ولا يبقى سوى أن تكون حاضرة البحر، تلك التي هي استقبلت سفائن الفرعونة حتشبسوت «عصيون جابر»؛ لأن اسمها المصري بذات النطق فهو «حرج سوى واي ور».

ويتابع «حمود القثامي» ليقول عن شعب مدين: «وقد بقيت آثارهم حتى الآن، وهي عبارة عن بيوتٍ نُحتت داخل الحجر، أي إن البيوت حُفرت حفرًا داخل الصخور، فتكونت بيوت من الصخور، وداخل هذه البيوت غُرف فُصِّلت تفصيلًا دقيقًا، بطريقةٍ فنية تشير إلى المستوى الحضاري والفني، الذي كان عليه هؤلاء الأقوام. ويظهر من مقابرهم أنهم طوال القامة.»[٧٧] ويسجل عن قائد سلاح الحدود في منطقة مقنا على خليج العقبة، وصفه لها في قوله: «إن مقنا منطقة أثرية عظيمة، فقد عُثر على كثيرٍ من الجماجم الغريبة الشكل في طولها، بحيث تدل على أنها لقومٍ عماليق في الحقيقة؛ لأن الجماجم أكبر بكثيرٍ من جماجم الناس العاديين.»[٧٨] ولنتذكر من الآن هذه الجماجم الطويلة، فسيكون لها شأن عظيم في حل غوامض تاريخية منغلقة، ستأتي في مواضعها من أجزاء بحثنا هذا.

وعلى صلاية الملك نعرمر مؤسس الأسرة الأولى المصرية، نجد أول ذكر لأول معارك مع البدو الساميين، وهو رأيٌ يخالف ما استقر عليه التفسير لهذه الصلاية ونقوشها،

---

[٧٧] نفسه، ص٣٠٥، ٣٠٧.

[٧٨] نفسه، ص٣٣٨.

بكونها إشارات لتوحيد نارمر للقطرين المصريين الشمالي والجنوبي، أما حسب قراءتنا نحن للنقوش، فسنجد على أحد وجهي الصلاية الملك يقبض على بدوي من رأسه ويضربه بدبوس قتال، وفي كلا القطرين المصريين ليس هناك بدو بالشكل الآسيوي المرسوم بالصلاية، ونلاحظ أن الملك الجليل كان يقف حافيًا، ولا يتركنا الفنان نتوهم أن المصري القديم لم يعرف النعال، فقد نقش خلف الملك صورة لواحدٍ من أتباع الملك، يحمل نعلي الملك بشكلٍ واضح، فهل كانت هناك قاعدة ضرورية تلزم صاحب الجلالة بخلع نعليه؛ لأنه يقف بأرضٍ أو بوادٍ مقدس مثلًا، أو بأرض إله؟

وعلى الوجه الآخر نشهد نقشًا لحيوانين يوصفان في كتابات المؤرخين بأنهما كائنات أسطورية خرافية، فالرأس أقرب إلى اللبوءة، والعنق شديد الطول كما لو كان الفنان قد بالغ في إطالة الرقبة لتأكيد تعريفنا بهذا العناق، ويمسك برقبتي العناقين رجلان من أتباع الملك، رمزًا لانتصاره على تلك البلاد وسيطرته عليها، ممثلة في سيطرته وترويضه لأشهر أعلامها (التفسير التقليدي لعلماء التاريخ يرى الصلاية والوحشين، رمزًا لتوحيد نعرمر لوجهي مصر العليا والسفلى).

أما ذيل الحيوان فكان معقوفًا، وهو الشكل الذي يطابق مشهدًا لذات الحيوان، عُثر عليه فوق الكهوف الثمودية، وقال الباحثون في وصفه: «ربما كان لبؤة صغيرة، لكن ذيله المعقوف مثل ذيل الكلب.»

ويدعم تفسيرنا أو قراءتنا هذه لصلاية نعرمر، أن على رأس الصلاية نَقَشَ الفنان نقشًا آخر، ليؤكد به الموطن الذي ذهبت إليه جيوش نعرمر، فصور طائر الزقزاق بشكل واضح لا لبس فيه، وهو طائر غير موجود في القطرين، وعلى الجانبين رأس الإلهة حتحور، وهي ربة سيناء الشهيرة عند المصريين.

أما أن يلبس تاج الوجه القبلي على أحد وجهي الصلاية، ويلبس تاج القطرين على الوجه الآخر، هو المؤدي لتفسير اللوحة بتخليد توحيد القطرين المصريين، فإنه ليس كافيًا وليس بقدر الشواهد التي سقناها، فليس في مصر بدو يضربهم الفرعون، وربة الصلاية هي حتحور السيناوية، ناهيك عن كون لبس الفرعون تاج الوجه القبلي، تأكيدًا على قدسية وأهمية الوجه القبلي مقر الفراعين، وتأكيد اعتزاز الفرعون بهذا التاج، والوجه القبلي هو الوجه الذي تمكن من ضم الوجه الآخر (البحري)، فكان لبس الفرعون تاج الجنوب هو تأكيدًا لسيادة هذا الجنوب، ولبسه تاج القطرين على الوجه الآخر، يعني

تأكيد السيادة عليهما معًا، ولا يحمل النقش عدا ذلك أي دلالات يمكن الذهاب بها، إلى فكرة أن الصلاية هي تخليد توحيد القطرين.

ونتذكر الآن أن كثيرًا من المؤرخين ذهب لأسبابٍ وجيهة، أن الملكة المصرية «تي» أم الفرعون إخناتون، كانت من بلاد ميتاني التي يفترض أنها كانت تقع في أعالي الرافدين، والتي افترضناها مديان في سيناء ووادي عربة ومحيط خليج العقبة جميعًا، ولو تطلعنا إلى إخناتون سنجده شخصًا عملاقًا، يحمل رأسًا غريبًا، فهو رأس مستطيل وكبير، وهو ما أورثه أيضًا لبناته في النقوش التي تركتها فنون العمارنة، وهو الشأن الذي ستطول بنا متعته الكشفية في الجزء الأخير من هذا العمل.

(انظر الشكل رقم «١٣٢، ١٣٣».)

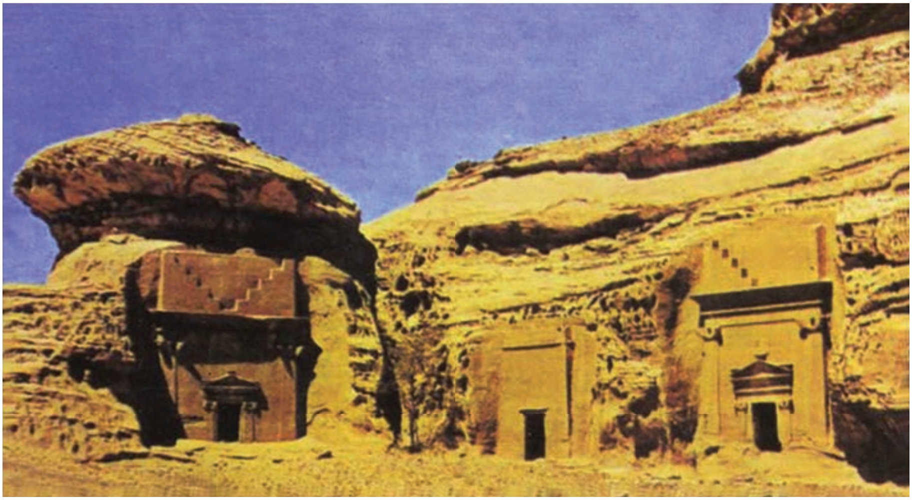

شكل رقم «١٣٢»: الثموديون: مدائن صالح/الحفر في الصخر ﴿يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ (قرآن كريم).

شكل رقم «١٣٣»: الثموديون: المساكن الكهفية القديمة بخرائب ددان «مدائن العلا حاليًّا».

شكل رقم «١٣٤»: صورة من خريطة بطلميوس الأصلية.

شكل رقم «١٣٥»: مناطق العاديين والثموديين.

شكل رقم «١٣٦»: جزيرة العرب/طرق القوافل التجارية.

شكل رقم «١٣٧»: نقش ثمودي تيماني من جبل غنيم (شمال غربي شبه الجزيرة) بالتيمن.

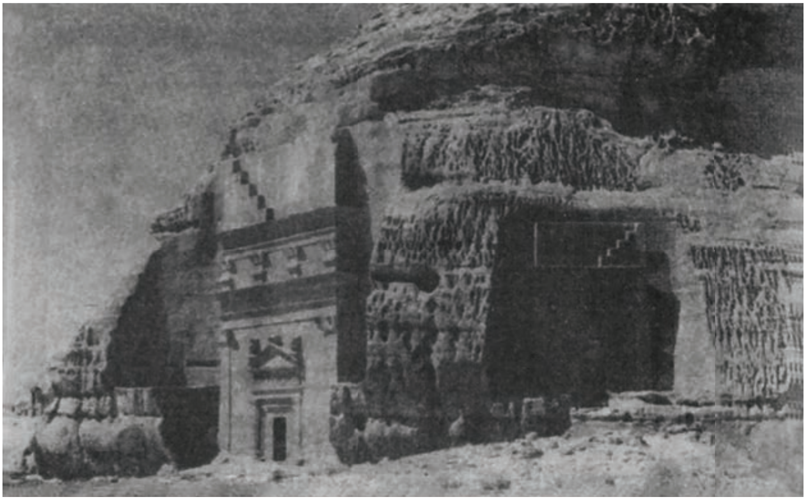

شكل رقم «١٣٨»: منظر عام لضريحٍ أو بيت منحوت في الصخر في خربة العلا (لاحظ المشهد كأعشاش النحل).

شكل رقم «١٣٩»: صلاية نارمر الوجه الأول.

شكل رقم «١٤٠»: ربة سيناء حتحتور أعلى الصلاية وتحتها سفينة تشير إلى وسيلة الوصول، وبجوارها طائر الزقزاق يشير إلى شعب الأرض المقصود التعبير عنها.

شكل رقم «١٤١»: حامل نعلي الملك، بينما الملك يسير حافيًا.

شكل رقم «١٤٢»: صلاية نارمر الوجه الثاني الملك حافيًا على آسيوي ويضربه بدبوس القتال، وخلفه حامل الحذاء الملكي، مع ملاحظة أن الأسير ليس مصريًّا بالمرة!

شكل رقم «١٤٣»: أعداء الملك يهربون وخلفهم رمز موطنهم (كهف) لاحظ أن أشكالهم سامية لا مصرية.

الفصل الرابع

إسحاق و«الإله الضحاك»

إبَّان بحثنا بدَتْ لنا بعضُ الغوامض التي يمكنُ بحلها أن تلتقي نتائجُها مع ما قلنا حتى الآن وتؤكده؛ ناهيكَ عن كونِ هذا الحلِّ يفسر لنا علاقةَ بني إسرائيل بالهكسوس بتوضيحٍ أكثر إضاءة وإدهاشًا. كما أن بعض الغوامض التي سنتناولها ستعطينا مزيدًا من الأدلة على مدى تغلغل العقائد المصرية في العقائد الإسرائيلية من بعد، مع غرض رئيسي من هذه المباحثات يهدف إلى ربط كل ما وصلنا إليه بما هو آتٍ، خاصة ما تعلق بعلاقة النبي موسى والخروج الإسرائيلي من مصر، بكل هذا الرتل من تلولٍ معلوماتية، جهدنا وراءها زمنًا طويلًا حتى الآن.

وبين أبرز هذه الألغاز المطلوب حلها، هو ما ترويه لنا التوراة حول البطرك إبراهيم، الذي شاخ هو وزوجته سارة، لكن إرادة الله كانت أن ينجبا ولدًا يكون أبًا لنسلٍ كثير، ذلك النسل الذي سيأتي من يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، ويعقوب هو الذي أسماه الله إسرائيل، ونسله هم «بنو إسرائيل».

ولتحقيق الخطة الإلهية ذهب الرب ليقابل إبراهيم، ويشكو له مما وصل إليه شعب يعيش في مدينتين من المدن الخمس (بنط بوليس) لبلاد آدوم من تدنٍّ خُلقي، إذ يأتون الرجال دون النساء شهوة، ويتعشقون الصبية المُرد، وينفرون من الغيد الحسان. وإبان الحوار الذي دار بين الرب وخليله، حول رغبة الرب في القضاء المبرم على مدينتي عاد وثمود أو عمورة وسدوم الآدوميتين، يخبر الرب خليله بقرار الميلاد العجيب لإسحاق بن إبراهيم: حين يقول الرب لإبراهيم:

> أين سارة امرأتك؟ فقال: ها هي داخل الخيمة، فقال: إني أرجع لك نحو زمان الحياة ويكون لسارة امرأتك ابن، وكانت سارة سامعة في باب الخيمة

وهو وراءه، وكان إبراهيم وسارة شيخين متقدمين في الأيام، وقد انقطع أن يكون لسارة عادة (حيض [المؤلف]) كالنساء، فضحكت سارة في باطنها قائلة: أبعد فنائي يكون لي تنعم؟ وسيدي قد شاخ؟ (أي إبراهيم [المؤلف])، فقال الرب لإبراهيم: لماذا ضحكت سارة قائلة: أفبالحقيقة ألد وأنا قد شخت؟ هل يستحيل على الرب شيء؟ في الميعاد أرجع إليك نحو زمان الحياة، ويكون لسارة ابن، فأنكرت سارة قائلة: لم أضحك لأنها خافت، فقال: لا! بل ضحكت.

(تكوين، ١٨: ٩–١٥)

ومع استمرار القراءة يخبرنا الكتاب المقدس أن سارة قد ولدت في شيخوختها طفلًا:

ودعا إبراهيم ابنه المولود له الذي ولدته له سارة: إسحاق. وكان إبراهيم ابن مائة سنة حين ولد له إسحاق ابنه، وقالت سارة: قد صنع إلي الله ضحكًا، كل من يسمع يضحك لي.

(تكوين، ٢١: ٣–٦)

وهنا ننقل السمع إلى مصادر أخرى، فننصت إلى روايات المسلمين من أصحاب السير والأخبار وقصص الرسل والأنبياء، يحيطوننا علمًا نافعًا يقول:

قال السدي: قالت سارة لجبريل عليه السلام (استبلدت الرواية الإسلامية الإله بجبريل [المؤلف]) لما بشرها بالولد على حالة الكبر: ما آية ذلك؟ فأخذ بيده عودًا يابسًا، فلواه بين أصابعه فاهتزَّ أخضر. وقال مجاهد وعكرمة: فضحكت أي حاضت في الوقت. وتقول العرب: ضحكت الأرنب على الصفا إذا حاضت. وقال السدي وابن يسار وغيرهما من أهل الأخبار: فحملت سارة بإسحاق.[١]

والعارف بالتوراة لا شك يعلم دأبها على ربط أسماء المواليد (خاصة في العصر البطريركي من إبراهيم إلى موسى)، بأسماء مواضع جغرافية ومدن، أو أن يحمل اسم

[١] الثعلبي، عرائس المجالس ... سبق ذكره، ص٨١.

المولود دلالة على حدثٍ هام أو نادر قد حدث إبَّان ولادته أو ما أشبه، فيعقوب سمي يعقوب؛ لأنه وُلد ممسكًا بعقب شقيقه التوءم عيسو، وسمي يعقوب عندما كبر باسم إسرائيل؛ لأنه صارع الله (إيل)، وعيسو حمل اسمًا ثانيًا بدوره هو آدوم؛ لأن لون عيسو وشعره كان بلون الأدمة، أي لون الأرض الحمراء، أي لون الدم أو الشقرة. وفي الأدمة شق تركيبي موروث هو «دم». وبنيامين بن يعقوب سمي كذلك؛ لأنه ابن اليمين أي الجنوب، فكان الناس يتوجهون لمشرق الشمس لتحديد الجهات الأصلية، فيكون الجنوب إلى يمينهم.

ورواية التوراة هنا تحاول أن تبلغنا بسر تسمية إسحاق ومعنى هذا الاسم، لكن على سرعةٍ وعجل يتسم بالغموض، فيأتي أهل الأخبار من مؤرخي الإسلام؛ ليجلوا لنا المعنى ويوضحوه. فقد كانت سارة عجوزًا قد انقطع حيضها، فلما أراد الله لها الحبل ضحكت؛ أي حاضت على الفور، تهيئة لقبول أعضائها لممارسة عملية الحمل والولادة.

فالضحك هو ضحك الفم والأسنان، لكنه أيضًا ضحك الفرج أي انفتاحه، فالفم والفرج ينفتح كلاهما عند فعل الضحك أو الحيض. ولأمر معلومٍ لدى دارسي الأساطير القديمة لا بد أن يحيل هذا الإله إلى أرباب الخصب والخضرة؛ فقد كانت آلهة الخصب القديمة هي المسئولة عن نمو المحصول وعن الري، أي عن ولادة الأرض، وعن خصب الحيوان وزيادة نسله كذلك الإنسان. وتحفظ لنا القصة الإسلامية رمز ذلك الإله المخصب في العود اليابس، الذي تحول في القصة إلى عودٍ أخضر، كلونٍ من الإعلان الواضح عن الفعل المطلوب، وهو ممارسة خصبية تؤدي إلى ميلاد إسحاق، الذي ارتبط اسمه بالخصب والضحك ودم الحيض.

وكان معلومًا في تلك الأيام الغوابر أن الدم هو المكون الأساسي والمادة الخام للحياة وخصبها لتكوين الجنين؛ إذ لاحظ الإنسان الابتدائي اختفاء دم الحيض مع الحمل، فربط بين اختفاء الدم والولادة، واعتبر احتباس دم الحيض؛ لأنه يشكل ويبني الجنين، واعتبر الدم معامل الحياة المشترك لكل شيء؛ لذلك كان اختفاؤه النهائي يعني توقف الخصب، وامتناع المرأة عن منح الحياة والولادة.

وفي الفصول السابقة سبق وحددنا إلهًا يعد أهم آلهة الأقوام السامية، ومنهم الهكسوس والإسرائيليون الذين تمركزوا شرقي الدلتا المصرية، هو سيت المصري المتحد ببعل رب الخصب السامي. وقد شهدنا له عدة تجليات، كما في الحية وطائر الفينيق وفي حيوان عناق البونتي، وهنا يكشف الإله عن تجلٍّ جديد، سيرتبط وشيكًا بعد فقراتٍ بإسحاق.

وتقول لنا الأساطير المصرية: إنه من راس سيت — والرأس محل الحكمة والعقل — انبثق الإله تحوت، الذي ينبغي أن ينطق سليمًا (ضحوت Tcheuti) إله مدينة الأشمونين عاصمة الإقليم الثامن بمصر الوسطى. ويبدو أنه كان إلهًا حديثًا بالإقليم؛ لأنه اندمج هناك عند ظهوره بربٍّ قديم للإقليم يحمل اسم «ح ض – و ر»، وكان «حضور» يمثل في رمزين: الأول طائر البلشون/الفينيق IBIS أبي قردان، والثاني هو قرد البابون، لكن هذه الآلهة نفسها رغم صعيديتها؛ فهي ذات منشأ دلتاوي.[٢]

وما يعنينا هنا هو أن أهم رموز وتجليات الإله «ض ح – و ت» كان القمر، فهو رب القمر، لكنه أيضًا كان ربًّا شمسيًّا؛ لذلك لقبه المصريون القدماء بلقب «سيد الزمان وحاصي السنين»، كذلك كان حامي الكتَّاب والمفكرين، باعتباره مخترع الكتابة في الأساطير. وقد ربط اليونان بينه وبين معبودهم «هرمس Hermes» أو «إرمس» الذي يعود للإسم «إرم» أي الإرمي، واعتبروا ضحوت هو الصورة المصرية للإله هرمس الأرمي، وقد صور المصريون ضحوت إما في صورة رجل برأس أبي قردان (الأيبس)، أو بصورة أبي قردان الكاملة، أو بصورة قرد يضع فوق رأسه قرص القمر في حالة الهلال، يضم بداخله صورة قرص الشمس، مما يؤكد قمرية ضحوت وشمسيته معًا.

وكما اعتدنا في عملنا هنا، نعود إلى لسان العرب نبحث عما تركه الزمان متضمنًا داخل معاني المفردات، فنجد الجذر «ضحا» في العربية، هو من طلوع الشمس وارتفاع النهار، لكن الكلمة تُقال أيضًا عن القمر وطلوعه؛ إذ يقول العرب: ليلة ضحياء وإضحيانة أي ليلة مقمرة لا غيم فيها، كما سميت الضحية كذلك؛ لأنها تذبح عند الضُّحى. وفي القرآن الكريم آيات تقسم بظواهر الكون ومنها: ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾، حيث قرنت الآيات بين الليل والضحى، مما يشير إلى أن الضحى المقصود هنا هو القمر، وبالقلب تصبح «وضح» والثنائي منها «و ض» و«وضأ». و«الوضح» في لغة العرب هو بياض القمر كما هو بياض الصبح.[٣]

وللمزيد من أجل جمع معانٍ تزيدنا إيضاحًا ووضوحًا، نجد قرد البابون على وجه التحديد هو الرمز المصري القديم للإله ضحوت، دون بقية أنواع الفصيلة القردية. ويسمى في الإنجليزية الوسيطة Babewin والفرنسية القديمة Babuin من اللاتينية

[٢] علي فهمي خشيم، آلهة مصر ... سبق ذكره، ج٢، ص٣٥١.

[٣] نفسه، ص٣٢٥، ٣٥٣.

شكل رقم «١٤٤»: ضحوت الضحاك إله شمسي قمري يحمل الهلال والشمس فوق رأسه مع طائر الأبيس أو الفينيق.

الوسيطة Babewynus، لكن المعجم هنا يقدم لنا تقريرًا حول الكلمة موجزًا يقول: وأصل هذه الكلمة مجهول. هنا يذهب الباحث علي خشيم ببراعةٍ نادرة إلى أن تلك الكلمة لها أصل واضح في العربية، فهي مأخوذة من مأمون/ميمون. ويدعم هذا التخريج أن مونتجومري وات يقول: إن معنى Baboon هو سعيد أو محظوظ Lucky. الميمون في العربية هو المبارك أو المحظوظ. وفي العربية نجد الشق الأول من اسم الإله القردي بابون القمري «ضحوت» هو «ض ح»، وهو مقلوب الشق الأول من الإله الذي اندمج

معه «ح ض. و ر»، والشق «ح ض» هو بلا خلاف «ح ظ» والحظ يعني السعد واليُمن، ثم إن العربية تسمي قرد البابون «سعدان» من السعد، وميموناً من اليمن التي تلتقي مع بلاد اليمن بلاد السعد، أو كما سميت «العربية السعيدة». ولم تزل بلاد اليمن إلى يومنا موئلًا للقرد أو سعدان البابون، الذي ينتشر فيها انتشارًا واسعًا، كما لم يزل ينتشر من مواطن ثقيف بالطائف حتى اليمن جنوبًا.

والاصطلاح العلمي الذي يطلق على هذا القرد كتبته اللاتينية: Cyno-Cephauls Hamedryas، وعلى الفور تلحظ أن المقطع الأول Cyno في اليونانية Kuno أي كلب، ثم المقطع الثاني من الكلمة Cephalus وتعني رأسًا، لتصبح الكلمة جميعًا تعني: القرد الكلبي الرأس، وهي الصفة التي تطابق تمامًا قرد البابون، فرأسه أقرب إلى رأس الكلب، أو ربما الضبع.

ويزداد ترابط هذا المعبود الكلبي الرأس بالكلب، عندما نتذكر ملحوظة استرابون عند زياراته لمصر؛ إذ لاحظ أن في مدينة مصرية اسمها اليوناني كينوبوليس، أي مدينة الكلب، كانت تتم عبادة الإله أنوبيس رب الموتى الكلبي، وأنه كانت تُقام هناك مأدبة مقدسة للكلاب، كما لاحظ أن أهل بابليون (منطقة جنوب شرقي القاهرة [المؤلف])، في زمانه كانوا يعظمون الكيبوس وهو القينوقفالس Cyno-Cephalus/القرد الكلبي الرأس.[٤]

والطريف أن نجد قرد البابون/ ضحوت رب الحكمة، يرتبط تمامًا بمعبود البوادي السامية «ست»، فهو قد خرج من رأسه، ثم نستمع إلى بلوتارك يقول: «ويسمى توفون «الاسم اليوناني لرب الشر المصري سيت» سيت بابون Bebon وسمو Smu وفوق ذلك يسمون الحديد عظم توفون كما ذكر مانيتون.»[٥]

وهكذا فإن الإله المتعدد الأسماء «سيت/تيفون/بعل حداد/بعل صافون»، يأخذ لقب «سيت بابون»، أي سيت القرد البابوني، وكان له لقب آخر هو «سموه» علامة على السيادة والسلطان. أما الأكثر إضاءة فهو ربط هذا المعبود في عبارة بلوتارك العابرة بموطنه في بلاد مديان، حيث كان القينيون صُناع الحديد، الذي هو في الأسطورة عظام

---

٤ استرابون، استرابون في مصر ... سبق ذكره، ص١٠٤، ١٠٥.

٥ بلوتارك، إيزيس وأوزيريس، سبق ذكره، ص٩٣.

سيت/تيفون. والطريف أن نصوص مصر القديمة كانت تشير إلى الطوائف السامية من الخابيرو/العبيرو بالكلاب،[٦] أما العابيرو فكان يصفون أنفسهم بها، وهو ما يرجح أنها كانت صفة مستحبة تيمنًا بالمعبود،[٧] لكننا نجد اسم الإله المصري القردي ح ض. و ر Hd. Wr لقبًا أكثر منه اسمًا، وهو ما يفضي إلى ما نقصده مع الإله الضحاك، فالكلمة ح ض. و ر تترجم على التدقيق بالأبيض العظيم «ح ض = أبيض + و ر = عظيم»، فهل يمكن أن يسعفنا لسان العرب في فهم سر تلك التسمية الغريبة تمامًا؟ إن مادة «حضأ» تقول: «حضأت النار التهبت، وحضأت النار سعرتها، وحضو النار تحريك جمرها»، وهو ما يشير إلى طبيعة البابون الشرسة الحادة، خلافًا لبقية الفصيلة القردية كالشمبانزي والنسناس مثلًا.[٨]

والكلمة «ح ض» أي الأبيض تطابق العربية «ح ي ض» «حيض» دون التباس، لكنها بالقلب تصبح «ض ح» لتشكل الشق الأول من اسم ضحوت، والثلاثي من الثنائي ض ح هو ضحك، أما ضحوت نفسها فهي كلمة واحدة متكاملة، هي ضحوك، أو هي الضحاك، وتحت مادة «ضحك» نقرأ في لسان العرب:

> ضحك: الضحك معروف. ضحك يضحك ضحكًا. وفي الحديث يبعث الله السحاب فيضحك أحسن الضحك. وضحكت الأرض: إذا أخرجت نباتها وزهرها. والضاحكة كل سنة من مقدم الأضراس مما ينِدُّ عند الضحك. والضاحكة السن التي بين الأنياب والأضراس وهي أربع ضواحك. والضواحك الأسنان التي تظهر عند التبسم. والضحك الثغر الأبيض. والضحك الثلج، والضحك أيضًا طلح النخل حين ينشق، وقال ثعلب: هو ما في جوف الطلحة. وضحكت النخلة وأضحكت أخرجت الضحك. وضحكت المرأة إذا حاضت، وبه فسر بعضهم قوله تعالى: ﴿فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾، وأنشد تأبط شرًّا:

تضحك الضبع لقتلى هذيل   وترى الذئب بها يستهل

---

[٦] زياد منى، جغرافية ... سبق ذكره، ص٧٤.

[٧] فليكوفسكي، عصور في فوضى ... سبق ذكره، ص٢٦٨–٢٧٠.

[٨] خشيم، آلهة مصر ... سبق ذكره، ص٣٥٥، ٣٥٦.

قال أبو العباس: تضحك هنا تكشر، وذلك أن الذئب ينازعها على القتيل، فتكشر في وجهه وعيدًا. قال ابن سيدة: وضحكت الأرنب إذا حاضت، قال:

وضحك الأرنب فوق الصفا كمثل دم الجوف يوم اللقا

يعني الحيض فيما زعم بعضهم. وقال ابن الأعرابي في قول تأبط شرًّا: تضحك الضبع لقتلى هذيل؛ أي إن الضبع إذا أكلت لحوم الناس أو شربت دماءهم طمثت. وقد أضحكها «أي أطمثها الدم»، وقال الكميت:

وأضحكت الضباع سيوف سعد لقتلى ما دُفنَّ ولا ودينا

أراد الشاعر أنها تكشر لأكل اللحوم. وقيل: معناه أنها تستبشر بالقتلى إذا أكلتهم فيهر بعضها على بعض، فجعل هريرها ضحكًا، وقيل: أراد أنها تسر بهم، فجعل السرور ضحكًا.

وقال الأخطل فيه بمعنى الحيض:

تضحك الضبع من دماء سليم إذ رأتها على الحداب تمور

والضحوك من الطرق: ما وضح واستبان. والضاحك: حجر أبيض يبدو في الجبل، والضحوك: الطريق الواسع. ويقال: إن القرد يضحك إذ صوت. والضحاك بن عدنان، زعم ابن دأب المدني أنه هو الذي ملك الأرض.

وعليه فإن الضحك هو الجلاء والوضوح والبيان، وظهور الثنايا من الفرح واتساع الطريق، وله علاقة وطيدة بخصب الأرض والزرع والحيوان كالأرنب والضبع، وكذلك بخصوبة الإنسان، والقرد يضحك إذا كشر عن أنيابه هياجًا أو سرورًا، ولقب القرد في مصر القديمة «ح ض»، وتعني الحضاء أو البسام، وتضاف لها «ور = كبير»، فيصبح: الضحاك الكبير. وهو بالضبط ما تعنيه عبارة «الأبيض الكبير»؛ لأن الضحك يكشف عن بياض الأسنان ويبين عنها، واتساع الطريق يشير إلى اتساع أعضاء المرأة عند الحيض.

ونموذجًا لذلك كمثالٍ آخر نجد ضمن آلهة مصر القديمة، إله السمك «سمك» أو «سبك» وهو التمساح، ونجد اليوم قرية من أعمال المنوفية لم تزَلْ تحمل اسمه؛ فهي

«سبك الضحاك»، مما يشير إلى أنه قد حمل صفة الضحاك؛ لأن التمساح يفتح فمه ساعات طويلة؛ ليفصح عن أسنانه البيضاء.

وهكذا نجد نظريتنا تتدعم بجديدٍ، يؤكد صحة ما وصلنا إليه في الفصول السابقة، فاللغة العربية أكثر ما خصت الضبع بالضحك وبالحيض، ولعلنا لم نزَلْ نذكر عناق البونتي الشبيه بالضباع، وكيف قرنه لسان العرب بتصويت القرد «ضحوت»، وضحوت هو البابون ذو الرأس الضبعي، كما لو كان قردًا قد مسخ ضبعًا أو العكس، ناهيك عن الشبه الواضح للقرد بالإنسان. وهو ما انعكس في اعتقاد عن مسخٍ آخر هو مسخ البشر إلى قردة. ونتذكر أيضًا طائر الفينيق آكل الحيات القادم من بلاد العنز العربية؛ لأن الأبيس أبا قردان المصري يسمى في الأقطار العربية «أبو حنش، أبو منجل، حارس، عنز»، واللاتينية تسميه Ibis religiosa أو Sacred Ibis أي أبيس المقدس. وهذه الفصيلة بالتحديد من نوع طيور أبي منجل «أي أبي قردان»، قد أطلقت عليه المصرية القديمة الاسم «هـ ب H B»، وأخذتها اليونانية وصرفتها اسميًّا، فاسمه «هـ ب ي س» أو «أبيس»، وهنا لا بد أن نتذكر أيضًا إله الريح «هبا» وزوجته «هيبات». وأبو منجل طائر يسابق الريح، ولونه أبيض واضح، و«هب» تعني ما يعنيه اسم ضحوت (البياض)؛ لأن من كلمة هب تأتي كلمة «هبهب»، والهبهبة هي البياض والصفاء والبيان، ويقال في لسان العرب: هب النجم إذا طلع (هـ ب)، وهي على النسبة Hby. والطريف أن المصري لا يسمي صوت الكلب نباحًا، ولم يزل حتى اليوم يربط «هب» بالفصيلة الكلبية، مُبقيًا على الصيغة المصرية القديمة، فهو يطلق على نباح الكلاب «هبهبة» الكلاب.

هكذا يمكننا أن نفهم السر وراء اعتبار المصري للقرد البابون وطائر أبي قردان معًا، رغم تباعدهما النوعي بين الأحياء، رمزين للإله ضحوت.

ولمزيدٍ من الفهم سنجد أن الكلمة المصرية القديمة HBY، قد أدت إلى «هـ ب ن ي Hbny» و«هـ ب ي ن Hbyn» كما عند بدج، ونقلتها اليونانية إلى لغتها في الاسم أبينوس أو هبينوس Ebenos أي أبنوس، وهو الخشب الأسود الصلب. وبهذا الشكل يكون بالمسألة خلل؛ لأن الأبنوس أسود بينما أصل الكلمة المصرية يعني الأبيض الناصع. هنا يقول معجم أوكسفورد: إن الكلمة الإنجليزية ebony تعني أبنوس. لكن المعجم يستمر شارحًا، فيقول: إنها ربما كانت تحريفًا للكلمة Evory أي عاج، والعاج/سن الفيل، ناصع البياض، لكن هذا بالتحديد يشكل دليلًا على نظريتنا، نُضيفه إلى رصيد أدلتنا، إذ يتضح مجيء النقيضين من مركز تصدير واحد، مع الأبيض والأسود من

شكل رقم «١٤٥»: الأبيس ضحوت/هبني/أبو قردان/الفينيق.

الناس، فحملت اللغة السامية وهي تتطور هناك في بلاد آدوم جينات وراثية، تشير إلى المنابت والأصول. لقد اشتقت اليونانية كلمة Ebenos الدالة على الخشب الأسود، من الكلمة المصرية Hbny طائر ضحوت أبي قردان شقيق زميله البونتي «ب ن و»، رمز الشروق والضياء القادم من أرض الإله في الشرق، كما سبق وحدثنا المصري القديم.

وللطرافة ولمزيدٍ من التأكيد، نجد الكلمة العبرية سن الفيل هي «شن هـ بين Shen habbin»، أي العاج الأبيض الناصع، لكن «هـ بين» وحدها تعني أبنوس. لقد حملت الكلمات أيضًا تداخلات عناصر وأجناس الأحلاف الأخلامو ما بين البيض والسود.

شكل رقم «١٤٦»: ضحوت من تل العمارنة زمن إخناتون، وأمامه الكاتب جالس القرفصاء؛ تعبيرًا عن كونه رب الحكمة والكتابة/المتحف المصري.

وطائر «هبني» يسميه المصريون اليوم «أبو قردان»، وهي التسمية التي جمعت بين اسم ضحوت ورمزية القرد مع طائر الأيبس، فهي من مقطعين: «أبو = هـ ب ى hby + المقطع الثاني وهو تفعيل لكلمة قرد/قردان»، بل إن اسم قردان يعود بدوره إلى المصرية القديمة الواضحة باللفظ والفوناتيك؛ لأن المصري القديم كان يطلق على جميع أنواع القردة الاسم «ق. ن. د».

وقد ورد بلسان العرب كما قلنا من هنيهة أن الضحاك أيضًا هو اسم لشخصٍ محدد هو الضحاك بن عدنان، وعدنان هو أبو العرب الشمالية المستعربة، ثم ساق اللسان زعمًا يقول: إن الضحاك هذا هو الذي ملك على الأرض جميعًا، وكان مقر حكمه

في بابل، محتفظًا في الذكرى بإمبراطوريةٍ كبرى، كان لعرب الشمال «وادي عربة» نصيب فيها.

وهناك أسطورة فارسية معروفة حدثتنا عن ملكٍ باسم الضحاك، حكم من عاصمته في الرافدين القديم، وكانت الرافدين تحسب فارسية حتى الفتح الإسلامي العربي لها، فيروي لنا الفردوسي في رائعته المعروفة بالشاهنامه أن الكتاب الزرادشتي المقدس قد ذكر الضحاك باسم «إس – ت – حاك» أو «إزي – د – هـ ا ك هـ»، وكتب الأخبار الإسلامية تقول: إن الضحاك كان ملكًا من ملوك النبط، لكنه كان كلدانيًّا حكم في بلاد الكلدانيين/الرافدين القديمة (؟!) والأنباط كما عرفنا هم السلالة الأخيرة في التطور نحو الجنس العربي واللغة العربية؟! قبل ظهور العرب الصرحاء والعربية الصريحة، وأنهم سكنوا بلاد العرب أو وادي عربة في آدوم. والطبري يرى أن النمرود الزنجي كان منوبًا على حكم الرافدين من قبل ملك العالم الضحاك، وأن الأصل الوطني للضحاك هو بلاد اليمن، وأنه هجرها واستقر في بيت المقدس/أورشليم، تلك التي قال لنا يوسفيوس إنها المدينة التي بناها، واستقر فيها الهكسوس بعد طردهم من مصر.

وهنا نقتطع من «مظفر نادوثي» فقرةً شاردة، لم يقصد بها شيئًا محددًا، لكنها تعني لنا هنا الشيء الكثير، فهو يقول:

> يؤكد الفرس أن العرب كانوا حكام العراق وبابل الأقدمين، وأنه بعد جامشيد Gumshid الذي كان معاصرًا لسام بن نوح، احتل دهاق Dahak العربي هذه البلاد، ويؤكد العرب أنفسهم ذلك؛ إذ يقول الطبري المؤرخ العربي المشهور: يدعي أهل اليمن أن الملك دهاق بن علوان ينتمي إليهم، كما يقال أيضًا إن الدهاق هو النمرود، الذي وُلد في عهده سيدنا إبراهيم، وأنه هو الذي أمر بإحراقه، وقد وصف الفردوسي أكبر الثقات من المؤرخين الفارسيين مملكة الدهاق، التي استمرَّت ألف سنة في شاهنامته.[٩]

ثم يضيف:

> ويرى المؤرخ الألماني الشهير دنكر Duncher، أن كلمة كوش Cuch المستعملة في سفر التكوين، تشمل جميع الأمم التي عاشت في الأراضي الجنوبية

[٩] مظفر نادوثي، التاريخ الجغرافي للقرآن ... سبق ذكره، ص١٤١، ١٤٢.

كالأثيوبيين والنوبيين. أما قبائل جنوب العرب فيقصد بهم سلالة كوش الذين أسسوا بابل، والذين استقروا على الخليج الفارسي أيضًا.[١٠]

وبغض النظر عن تزمين حكم الكوشيين أو الكاشيين، الذين أسسوا بابل بألف عامٍ، ممثلة ترميزًا في شخصية الضحاك، لترمز إلى ربٍّ بعينه لجمهرةٍ حاكمة بذاتها. فإن هناك تزمينًا آخر ينقله «نادوثي» عن المؤرخ البابلي «بيرسوس Brushes»، الذي عاش في بابل سنة ٤٠٠ق.م. وأرخ لبلاده، وتسربت من كتبه المفقودة إلى المؤرخين الكلاسيك واليهود، وما ينقله نادوثي يعنينا منه فقرة يقول فيها بيروسوس:

كان عدد ملوك بابل العرب تسعة، بلغت مدة حكمهم نحوًا من ٢٢٥ عامًا.[١١]

ومدة ٢٢٥ سنة سنكتشف في الفصول المقبلة، أنها كانت الزمن الذي أمكننا تدقيقه لوجود الهكسوس في مصر، على سدة حكم مصر بدورها (كما سلف وكما سيأتي مزيد يؤيده).

ونعود للشهنامه لنجدها تحوك أسطورة حول الضحاك، تقول: إنه نبتت في كتفه حيتان، لا تهدآن إلا بالاغتذاء على أمخاخ البشر، فكان رمزه الثعبان، أو كان قرينًا لثعبانٍ أسطوري معبود.[١٢]

ومن جهتهم يصر المؤرخون العرب القدامى، على أن الضحاك كان ملكًا على بلاد الرافدين القديم، لكنه كان يمنيًّا، فما أبعد الشقة، وما أقربها في ضوء حدوث ذلك زمن إمبراطورية كبرى من حلفاء كبار! لذلك يعقب المسعودي بقوله: «إن اليمانية من العرب تدَّعي الضحاك (أي تنسبه لليمن [المؤلف])، وتزعم أنه من الأزد. وقد ذهب كثير من ذوي المعرفة بأخبار الأمم السالفة وملوكها، إلى أن الضحاك كان من أول أوائل ملوك الكلدانيين النبط.»[١٣]

---

[١٠] نفسه، ص١٤٢.

[١١] نفسه، ص١٤٣.

[١٢] الفردوسي، الشاهنامه، ترجمة الفتح بن علي البنداري، تحقيق د. عبد الوهاب عزام، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٩٣م، ج١، ص٢٥، ٢٦، ٢٩.

[١٣] المسعودي، التنبيه والإشراف ... سبق ذكره، ص٩٢، ٩١.

ونعود للشهنامة التي تخبرنا أن ملك الضحاك، قد سقط على يد رمز الخير في الأسطورة «إفريدون»، الذي اعتقل الضحاك وسجنه في مغارةٍ مظلمة، في شعبٍ يقع بين جبلين متناطحين، يضيق ما بينهما حتى يرى في النهار الشامس كالليل الدامس.

وإفريدون في الشهامة هو أول طبيب، فقد أنزلت إليه عشرة آلاف من الأعشاب الشافية، كانت تلتف في غيضةٍ حول شجرة هوم البيضاء.[١٤] والأبيض هو اللبان، واللبن واللبان من جذرٍ لغوي واحد، يشير إلى الإبانة والوضح والجلاء؛ لذلك يكون منطقيًّا أن من هزم الثعبان طبيب؛ لأن المرض عادة ما كان يُعزى لسم الثعبان ونفثاته، لكن منها أيضًا تؤخذ العقاقير العلاجية، ولم يزل رمز الدواء ثعبانًا ينفث سمه في كأس. والمدهش أن الشهنامة تقول إن إفريدون رُزق بحفيدٍ أسماه مناجهر، ومعناه عندما تترجمه من الفارسية إلى العربية، يلتقي تمامًا مع المعاني المصرية القديمة فهو «الأبيض الضاحك». وحتى تكتمل اللوحة نقرأ المراجع الإخبارية العربية، فتفيدنا خبرًا نافعًا هو: إن هذا الأبيض الضاحك أو «الضحاك»، كان حفيدًا لإسحاق بن إبراهيم، إسحاق دون غيره، وبالذات؛ فلماذا لا يكون هو إسحاق بالتحديد (؟!) إذن بذلك نكون قد حققنا اسم إسحاق بحسبانه هو ذات عين اسم الضحاك معنًى ومبنًى، بل وفيما تضمنته جينات اللغة الحاملة للصفات الوراثية عبر تطورها التاريخي الطويل.

وننتقل نقلةً أخرى، فنربط بين اسم إسحاق بالضحك، وبالضحاك الذي ملك على الأرض جميعًا، (وهو ما يعبر عن سيادته على إمبراطوريةٍ كبرى) وبخصب الأرض والحيض والنبت والولادة، وبين اسم الملك الهكسوسي الذي حكم على إمبراطورية عظمى مترامية الأطراف، وهو ما انتهينا إليه في الفصول السابقة، الملك الهكسوسي الثاني على مصر، والذي جاءنا اسمه عند مانيتون (بنون Benon)، ونقله عنه يوليوس الإغريقي ويوسفيوس (بيبون)، وهو ما لا بد أن يذكرنا بميمون/البابون، وأن الملك بنون جاء اسمه في بردية تورين باسم «بنيم»، ووصلنا اسمه على الآثار المصرية بالرسم «سكا»، والسكة هي حديدة المحراث. والسكة عادة ما ترمز للقضيب الذكوري، ويكنى بها عن القضيب؛ لأنها تشق تربة الأرض كما يشق القضيب الفرج فيدمى. فالسكة هي التي تجعل الأرض تحيض وتلد، تجعلها تضحك، فسكا هو صانع الحيض أو صانع الضحك، هو الضحاك. ويدعمنا بشدةٍ هنا أن الكتابة الهيروغليفية التصويرية، تكتب أول حروف

---

[١٤] الشاهنامه، سبق ذكره، ص٣٨.

اسم سكا من اليمين، حرفًا على هيئة رجل يمسك محراثًا ، وبإهمال الحاء المخففة في اسم إسحاق/سحق يصبح سك، وهنا فورًا نتذكر عنصرًا هسكوسيًّا في مصر، كان يحمل اسم «السكاسك»، ومنه فيما نرى جاء اسم مدينة الزقازيق. ثم علينا ألا ننسى أن حكام الهكسوس كانوا بالأصل في الأغلب عبَدَة للقمر، ومع هبوطهم مناطق الخصب عبدوا الشمس أيضًا، وتُسمَّى ملوكهم في مصر بأسماء تنتسب إلى رب الشمس المصري القديم «رع»، لقد كان سكا شمسيًّا وقمريًّا في ذات الوقت كما هو «ضحوت».

وهذا بالطبع لا يعني أن إسحاق المقصود، هو إسحاق التوراة بن إبراهيم تحديدًا، وكل ما نعنيه أن جميعهم كانوا ذوي قرابات وأسماء متقاربة، وأن الحاكم الهكسوسي «البابون/ميمون/سكا/الضحاك» كان ملكًا هكسوسيًّا، حكم في إمبراطوريةٍ كبرى، وربما كان هو أصل الأساطير العربية، عن عظيم من اليمن باسم الضحاك، الذي جمع صفة الشكل الآدمي مع الضبع عناق البونتي.

ونقف نعجب من اللغة المصرية القديمة، وهي تطلق على قرد البابون الأسود القاتم اسم الأبيض الكبير، وما في معناها الضحاك العظيم، وأن يقال في العاج الناصع البياض أبنوس وهو شديد السواد، وأن تكنى العربية عن الصفة المعيبة بعكسها، فتقول عن الأعمى «أبو بصير» و«الشواف» وعن الكسيح «أبو سريع». وإذا تصورنا فعلًا أن الملك النمرود ربما هو الضحاك، فهي الصفة العكسية لعلمنا لماذا حمل هذا الاسم؛ لأن كتبنا التراثية تصوره زنجيًّا شديد القبح حتى شبهته بالقرود. (وكانت آدوم موئلًا لقردة البابون بكثرة).

ولا يفوتنا التنبيه إلى أن لسان العرب نسب الضحاك إلى عدنان، فقال الضحاك بن عدنان، وعدنان هو أبو العرب المستعربة، ثم هذا كله يفسر بقايا ذكريات ربطت بين الجنس الإسرائيلي وبين جنس القردة، وتواتر ذلك عبر الأزمنة، حتى جاء عنهم في القرآن:

﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (البقرة: ٦٥)
﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (الأعراف: ١٦٦)
﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ﴾ (المائدة: ٦٠)

وفي موضعٍ آخر بالشاهنامه رواية أسطورية تتحدث عن العنقاء، التي كانت — في الرواية المصرية — تسافر من بلاد العرب حاملةً أبيها إلى منف، لكن الشاهنامه هنا تحدثنا عن شخصٍ باسم «سام»، أنجب ولدًا شعره أبيض (مما يذكرنا بعيسو آدوم

في الرواية التوراتية)، فألقاه أبوه على جبل العنقاء، فقامت العنقاء بتربية الطفل بين صغارها، ثم حملته بعد أن شب صبيًّا إلى أبيه، ليصير ملكًا من بعده، وأعطته ريشًا من جناحها يمكنه أن يستدعيها بحرق ريشة منه إذا حزبه أمر.[١٥] والرواية هنا قريبة مما رُوِي عن رحيل الفينيق لأداء رسالةٍ مشابهة. والترميز يربط بين موطن العنقاء وموطن الوليد الأحمر، وبين كليهما وبين مصر، في رمزٍ واضح يشير إلى أن ابن العنقاء بالتبني، ابن الفينيق، ابن الأيبس، ابن ضحوت، ابن القرد، الضحاك، قد صار ملكًا عظيمًا.

وقد أصبح الآن لدينا عدد من التجليات لرب سيناء وآدوم، ومنها ذلك القرد القمري ضحوت، الذي حمل وجه سيت عناق البونتي، ونلاحظ أن البابون في نقوش رحلة حتشبسوت إلى بونت، كان يتربع على صواري السفن، والشق «بي» و«بو» المصرية القديمة تعني «فم»، فهو «بي – بون» أو الفم البونتي. وهو الفم المعلوم الأمر للمصري القديم؛ لأنه فم عناق البونتي. ومن هنا لا يكون أصل كلمة بابون مجهولًا، إنما كان معلومًا في مصر وآدوم، ولم يزل ملاعبو القرود المتسولون في مصر حتى الآن، يقفون في المناطق الشعبية يلاعبون قردتهم بالنداء: «العب يا ميمون.»

وقد سبق وقدمنا محاولة تفسير لاسم بلاد بونت عند المصريين القدماء، فقلنا إنه الحجر، استنادًا إلى اسم الحجر الهرمي بن بن، وأنه البلاد الخماسية. وهنا اقتراح آخر لتفسير اسم بونت، فربما جاء منسوبًا إلى الفم البوني (البابون). ثم نعلم أن مشروب القهوة/البن كان منتوجًا من جنوبي الجزيرة/يمنيًّا. ولا شك أنه قد وجد طريقة مع التجار إلى بلاد آدوم، التي كانت تصدره كمادةٍ عطرية ومادةٍ علاجية، ويدخل البن في معظم التركيبات العلاجية الشعبية، ولم يزل يُستخدم في قرى مصر كمجلط للدم وحابس للنزيف. وربما حمل هذا النبات اسم البن؛ لعلاقته بالفم البوني/البابون، وربما كان قرد البابون وراء اسم بونت، خاصة إذا علمنا أن الكلمة اللاتينية، التي تدل على البن هي «كوفي» و«كافي»، وهي اختصار بالأحرف الأولى لاسم البابون Ceno-Cephalus، ثم إنها بالضبط «قهوة» العربية لتبادل الفاء مع الواو؛ فالقهوة هي الكوفي هي القهفة/الكهفة، فهل ثمة علاقة بين هذا الاسم وبين الكهف والكهوف مساكن آدوم القديمة؟ ومن قهوة لدينا مدينة «قها» في مصر. والعجيب أن تدهشك اللغة بقدرتها على حمل كل تلك الذكريات؛ لأن قها كانت أحد أهم مقار عبادة الإله الضحاك ضحوت. والأغرب أن تبقى

[١٥] نفسه، ص٥٢–٥٧.

الذكريات بشكلٍ لا واعي، ويحفظ العامة اليوم مأثورًا عن علاقة «قها» بفعل الضحك، فيطلقون على البلدة من باب التفكه «بلد النصف ضحكة»، باحتساب الضحكة الكاملة هي قهاقها.

والدارس للأساطير يعلم أن رب القمر كان على علاقةٍ وطيدة بالمرأة، حتى عدَّته بعض الأساطير إلهة أنثى، وذلك لتناغم تقلب أوجهه مع إيقاعات المرأة البيولوجية في دورتها الشهرية الحيضية، وكان ربًّا للهواء والريح، وهو ما يستدعي «هوا» رب الريح و«يهوه» كأرباب خصوبة، وهو ما يفسر لنا الضحك باعتباره حيضًا؛ لأن الضحاك الكبير ضحوت، كان هو القمر قرين الحيض الأنثوي. ومع حيض نقرأ تحت مادة حضض باللسان:

> حضض: الحض ضرب من الحث في السير. وهو عقار مكي ومنه هندي، وهو عصارة شجر معروف. وقال ابن دريد: الحضض صمغ من نحو الصنوبر والمر. وأحمر حضي: شديد الحرمة، قال ابن خالويه: يقال حاضت ونفست ودرست وطمثت وضحكت وكادت وأكبرت وصامت، قال المبرد: سمي الحيض حيضًا من قولهم حاض السيل إذا فاض. وقيل: الحيض الدم نفسه.

وهكذا أجملت اللفظة معانيها فأوعبتها، فالحيض الذي هو فعل الضحك، الذي يسببه الضحاك الكبير القمر، رب الخصب والطريق الوسيع، فهو يفتح الأرض لتنجب، ويفتح فرج الأنثى فتحيض وتلد، ويفتح شجرة المر فتنتج لبانها، واللبان والصمغ والمر كلها تسيل، كالحيض من جرح في الشجرة ينفلق تلقائيًّا. وبين معاني حاضت: درست، والدرس هو استخدام السكة في شق الأرض. وكان الفرعون الهكسوسي الثاني على مصر يحمل اسم سكا، وللتأكيد تم تدوين نفسه اسمه برمز فلاح يحرث الأرض بسكته.

وفي القصص الإسلامي حكايات عن النبي موسى لم تعرفها التوراة على الإطلاق، ويبدو أنها كانت مأثورًا تاريخيًّا شفاهيًّا، لم يجد طريقه إلى التدوين بالكتاب المقدس، استمر متواترًا حتى زمن الدعوة الإسلامية، حيث أعلمنا به القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة. ومن نماذج تلك الحكايا قصة التقاء موسى، في موضعٍ يسمى مفرق البحرين، بشخصيةٍ تراثية باسم الخضر، الذي صورته الآيات بحسبانه حكيمًا عظيمًا يعلم الغيب، كما أضافت إليه الشروح صفاتٍ تفسر اسمه بشكلٍ يشير إلى أنه كان في الأصل ربًّا للخضرة والزرع؛ فقد كان إذا جلس على فروةٍ بيضاء اخضرَّت، وأن الأرض

تخضرُّ تحت قدميه بالنبات عند مسيره، وأنه حيٌّ غائب، حيٌّ خالد في هذه الحياة الدنيا، لكنه مختفٍ عنا، فقط يظهر كل حين لتحقيق غرضٍ قدسي محدد كلقائه بموسى.

ونحن نعلم أن أوزيريس المصري كان ربًّا للخضرة والزرع والنيل، وربًّا أيضًا للحكمة، يمكنه اتخاذ هيئة ضحوت الضحاك رب الحكمة في أي وقت. كما نعلم أنه قد مات شهيدًا، لكنه قام حيًّا من بين الأموات في اليوم الثالث، يوم القيامة المجيدة، ونعلم أنه خالدٌ في هذه الدنيا؛ لأنه يحكم في عالمه التحت أرضي، لكنه كان على استعدادٍ للعودة إلى الأرض دومًا، لتخصيبها بمائه المخصب ولإنقاذ المصريين من الخطوب.

ويبدو الخضر في الروايات الإسلامية ربًّا أيضًا للسمك، فهو يركب على ظهر حوت، وكان الحوت دليل موسى إليه ليلقاه، وكان أوزيريس بدوره حوتًا أو ربًّا للسمك وكل كائن مائي حي، كذلك كان ذو الشرى المعبود الآدومي، الذي كان يصوره في هيئة رجل نصفه الأعلى إنسان ونصفه الأسفل سمكة، كذلك داجون الذي عبد في فلسطين في عسقلان، والغريب أن جميع هذه الآلهة كانت أربابًا أيضًا للحنطة رمز الشبع والخير والخصب، حتى داجون نفسه من اسم الحنطة «دجن».

وكان بإمكان أوزير كرب للحكمة، أن يتحد بالإله ضحوت الضحاك إسحاق، الذي هو المختص بالحكمة، وساعتها سيحمل اسمه الثاني حضور، والحضور ظهور النبت هو الخضور هو الخضرة هو الخضر.

لكن المصريين من جانبهم رأوا في الحاكم الهكسوسي الأعظم رأيًا آخر، فقد أطلقوا عليه اسم الشيطان «أبوفيس» الحية، والكتاب المقدس وكتب الأخبار الإسلامية، ترى الشيطان متجسدًا في الحية. ولو رجعنا إلى يوليوس الإفريقي سنجده يقول لنا إن الملك الهكسوسي الملقب بلقب «أبوفيس» هذا كان يحمل اسم «ستان» أو الشيطان، بينما يوسفيوس يسجل لنا اسمه «سكا»، والسكة تعني الحارث. ولو فتحنا لسان العرب لطالعنا بذات المعاني؛ لأن الحارث اسم من أسماء الشيطان! ومن أسماء أبي قردان في البلدان العربية، كما سبقت الإشارة «أبو حنش، أبو منجل، حارس، عنز». وفي الأساطير المصرية أن ضحوت خرج من رأس ست، الذي يمثل الشيطان أو هو ذاته.

الفصل الخامس

تجليات الرب السينائي

عند خروج الإسرائيليين من مصر بقيادة موسى عبر سيناء، تم تكريس هارون وأبنائه ونسله كهنة للإله «يهوه»، وهارون وموسى هما أبناء السبط لاوي بن يعقوب؛ لذلك أصبح الكهنة جميعًا فيما بعد من اللاويين نسل هارون، أو الليفيين. وهنا يحيطنا «زينون كاسيدوفسكي» علمًا، يوضح لنا احتمال أن يكون اللاويون كهنة مديانيين من منطقة قادش سيناء، ونظنهم من جانبنا مصريين من سكان براري الدلتا الشرقية وحدود سيناء الغربية، أو هم نصف مصريين نصف ساميين.

ولما كنا نعلم من قصة التوراة أن موسى قد عاد إلى مصر من بلاد مديان بالعصا الحية، وأنه قد صاهر كاهن مديان بسيناء (رعوئيل/يثرون)، فإنه يمكن فهم «كاسيدوفسكي»؛ إذ يقول: «يرى بعض العلماء أن اللاويين لم يكونوا قبيلة من قبائل إسرائيل، بل هم فئة الكهنة في قادش، حيث أكدت الكتابات العربية التي اكتُشفت في منطقة العول، التي تقع إلى الشرق من المنطقة التي كانت تسمى أرض مديان، أن كاهنات الإله «وُد» كُنَّ يحملن لقب «لو»، بينما حمل كهنته لقب لوي. ويزعم هؤلاء أن اللاوي اشتق منه. وثمة وجهة نظر أخرى في هذه المسألة، تفترض أن لقب لاوي قريب من الكلمة اليهودية القديمة «لوي»، التي تعني أفعى. ولن ننسى هنا أن المقطع لوي هو جزء من الكلمة، التي تشكل لقب الوحش الأسطوري لوياثان.»[١]

ولوياثان وحشٌ أسطوري في هيئة حية ضخمة هائلة، ظهر من قبل بذات الاسم كأفعوان (من أفعى) زاحف، متعدد الرءوس في الأساطير الأوغاريتية، باعتباره كائنًا

[١] زينون كاسيوفسكي، الواقع والأسطورة ... سبق ذكره، ص١١٩.

مفزعًا شريرًا يقتله الإله الأعظم. وقد سُمي هذا الوحش في الأساطير المصرية «أبو فيس». ذات الاسم الذي لقبوا به ثلاثة من ملوك الهكسوس الستة، (وقد قال الكتاب المقدس بدوره: إن الإله يهوه، تغلَّب على الحية المتحوية لوياثان وقتلها) وفي مصر حتى الآن تقديس لشيخ يعده العامة من أولياء الله الصالحين أخضع الثعابين لمشيئته، وله أتباع يقومون حتى اليوم باستخراج الثعابين من المنازل نظير أجر، ويدَّعون بدورهم الولاية المقدسة، وكان ذلك الولي هو المعروف باسم الشيخ الرفاعي، وأتباعه الرفاعية أو الرفاعيون، وهو ما يستدعي على الفور الرفائي والرفائيين العمالقة. وللرفاعي بحي مصر القديمة مسجد هائل فخيم قائم حتى اليوم.

ونتابع «كاسيدوفسكي» وهو يقول: «زد على ذلك أن أسماء اللاويين غالبًا ما كانت تحمل في أصولها معنى أفعى، ومن هنا يستنتج أصحاب هذه الفرضية أن اللاويين كانوا يعبدون الأفعى في مصر، ولم يشاءوا ترك عبادتهم تلك، كما بينت الاكتشافات الأثرية أن عبادة الأفعى، استمرت قائمة في فلسطين عدة قرون أخرى. ومن هنا يغدو مفهومًا لماذا أقام موسى الأفعى النحاسية وسط المعسكر. ولم ينجُ من اتهام أتباع يهوه له، من أنه لطخ نقاء اليهودية بسماحِه بإقامة عبادة إله الأفعى.»[٢]

وكاسيدوفسكي يشير هنا إلى النص التوراتي: «فصنع موسى حيةً من نحاسٍ ووضعها على الراية» (عدد، ٢١: ٩)، وما حدث بعد ذلك إبان حكم الملك اليهوذي الورع «حزقيا بن أحاز»، الذي قرر مع التطور الكبير الذي لحق الديانة اليهودية مع مرور الزمن، استبعاد كل العبادات والتجليات الإلهية؛ للإبقاء على وحدانية يهوه. وجاء بشأن ذلك نص بالكتاب المقدس يقول: إن الملك حزقيا «عمل المستقيم في عيني الرب، هو أزال المرتفعات وكسر التماثيل وقطع السواري، وسحق حية النحاس التي عملها موسى؛ لأن بني إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها، ودعوها نحشتان» (ملوك ثاني، ١٨: ٣، ٤)، ونحشتان مقلوب حنش والحنش هو الثعبان.

والمعلوم أن الإله «ود» كان إلهًا عربيًّا عريقًا، وأنه عُبد في بلاد آدوم على تتالي السيادات عليها، كما عُبد في بلاد الحجر والمحيط الشمالي للجزيرة جميعًا، وفي بلاد الحجاز بعد ذلك. وجاء ذكره في القرآن الكريم كمعبودٍ جاهلي، وظل «ود» ربًّا جليل القدر حتى ظهور دين الإسلام، الذي صفَّى الآلهة جميعًا عدا رب الإسلام «الله»، إلا أن

[٢] الموضع نفسه.

الله حاز لنفسه أسماء الآلهة السابقة في العربية، فهو الله من إيل، وهو القدوس من الإله اليمني عستر الملقب «قدست»، وهو الرحمن من «رحمنن» اليمني وهو الرحيم من «هـ-رحيم» عند عرب الشمال، وهو الودود من «ود» ... إلخ.

ولو أضفنا لازمة التعريف الشمالية «الهاء في أول الكلمة» إلى ود، لصارت «هود» اسم النبي الذي أرسله الله إلى عادٍ في القص العربي الجاهلي وفي القص الإسلامي، كما يفصح اسم هود عن العلاقات الخفية بين الإسرائيليين وبقية الأخلامو ومعهم العرب، فهو «يهود»، كما يشير الاسم هود إلى أصل كلمة «يهوذا».

وبالإمكان هنا أن نسوق تخريجًا يعتمد على لغة قبائل الأحلاف؛ فأداة التعريف اليمنية كانت «ن» تلحق بآخر الكلمة، بينما كانت «هـ» أداة التعريف الشمالية تسبق المراد تعريفه، فاسم الرحمن وهو إله يمني كان يُكتب باليمنية «رحمنن»، وتكتبه العرب الشمالية «هـ رحيم» عند الأنباط، والأمر ذاته حدث مع الإله «ود» وحرف «د» في «ود» مدغم من حرفين بالتشديد، فهو بالأصل «ودد» الذي هو «أدد» و«حدد» أو البعل حداد. وتعريف «ود» شماليًّا يجعل الكلمة «هود» أو «يهود». أما تعريفه جنوبيًّا فيجعله «ودن» الذي هو آدون لقب البعل بمعنى السيد.

وهنا ينبه «كاسيدوفسكي» إلى مسألة بقاء الإسرائيليين في مصر زمنًا كان كفيلًا بتشربهم ثقافة المصريين ومقدساتهم، حيث يقول: «أخذوا يتمثلون الثقافة المصرية رويدًا رويدًا. بل وتشير معطيات موثوقة أنهم اعترفوا بعبادة آلهة المصريين ومارسوها، فقد قال يشوع بن نون مؤنبًا الإسرائيليين: انزعوا الآلهة التي عبدها آباؤكم في عبر النهر وفي مصر (يشوع ٢٤: ١٤)».[٣]

ويستمر «كاسيدوفسكي» شارحًا: «يظهر التأثير المصري بكل وضوحٍ في وصف التوراة للثياب التي يريتديها الكاهن أثناء تأديته لفروض العبادة؛ فهي عبارة عن نسخة طبق الأصل تقريبًا عن الثياب التي كان يرتديها كهنة هليوبوليس (أون/عين شمس شمال شرق القاهرة الحالية، وعاصمة الدولة الفرعونية القديمة [المؤلف]). ولم يكن ثمة فارق بين كهنة الإسرائيليين وكهنة المصريين، سوى أن هؤلاء الآخرين كانوا حليقي الرءوس والوجه. بينما أطلق الأولون شعر رأسهم ولحاهم. لقد اقتبس موسى عن المصريين أيضًا تابوت العهد والأسفاط (الكروبيم بالتوراة [المؤلف])، التي كانت

[٣] نفسه، ص١٠٥.

تظل بأجنحتها شكلين لروحين حاميتين. إن الكروبيين اللذين زينا التابوت هما من منشأٍ مصري أيضًا. ولقد اقتبست القبائل البدوية عن الإسرائيليين تابوت العهد، وحرم المعبد يحمل خيمةً مقدسة صغيرة، وما زالت آثار هذا التقليد المصري القديم قائمة حتى اليوم عند قبيلة الروالة، التي تنتقل في الصحراء السورية، حاملة على أحد الجمال سفطًا خاصًّا، يُسمى المركب أو تابوت إسماعيل، الذي يعد ما يشبه الذخر المقدس للقبيلة.»[٤]

شكل رقم «١٤٧»: تصور فني لقصة التوراة عن حية موسى على الراية.

ومثل بقية الشعوب القديمة قدس الإسرائيليون العجل/الثور؛ لما له من قوةٍ وفحولة جنسية خصيبة. ومعلوم أن قدسية الثور كانت شاملة ومنتشرة بين جميع الشعوب القديمة، حتى صنع الملوك تيجانهم تعلوها القرون، وهو ما لحق بيعقوب إسرائيل نفسه، حيث يحيطنا شيفمان علمًا أن هناك صيغتين وردتا في التوراة عن يعقوب

[٤] نفسه، ص١٢٢، ١٢١.

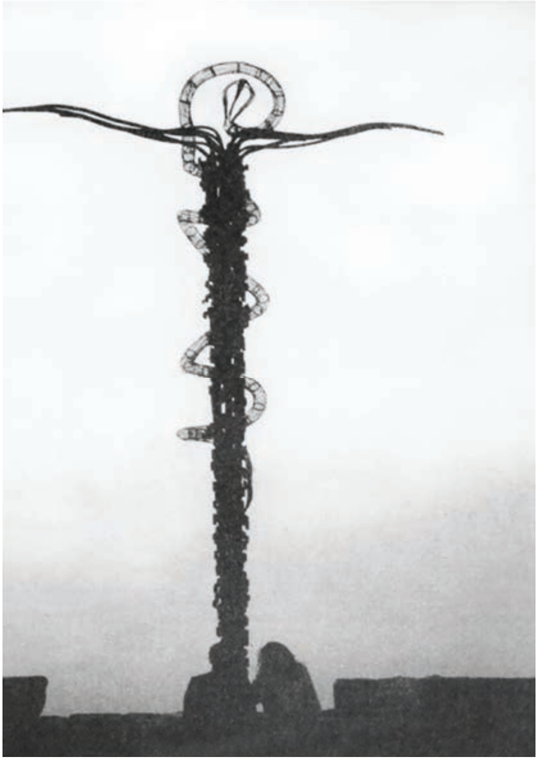

شكل رقم «١٤٨»: المؤلف ومعه صديقته تحت نُصبٍ حديدي يمثل حية موسى على جبل الجلجال شرقي أريحا.

(في سفر التكوين: ٤٩؛ وفي المزمور: ١٣٢)، تمت ترجمتها إلى عزيز إسرائيل وعزيز يعقوب، بينما هما في الأصل العبري المازوري ثور إسرائيل وثور يعقوب.[٥]

بل إن هناك نصًّا صريحًا واضحًا يشير إلى اعتقاد إسرائيل (المملكة الشمالية) منذ فجر انقسام مملكة سليمان، إلى يهوذا في الجنوب وإسرائيل في الشمال، أن يهوه بالفعل هو الذي أخرجهم من مصر، لكنه ليس سوى الثور نفسه؛ فقد أمر الملك يربعام مؤسس

٥ شيفمان، أوغاريت ... سبق ذكره، ص٨٥.

إسرائيل الشمالية بعمل عجلين من ذهب «... وعمل عجلي الذهب، وقال لهم هوذا آلهتك يا إسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر. ووضع واحدًا في بيت إيل، وجعل الآخر في دان» (ملوك أول، ١٢: ٢٨-٢٩).

وعندما أخذت الديانة الإسرائيلية خطها التطوري اللاحق للتفرد بيهوه وحده، نسمع نبيًّا من مملكة يهوذا، اسمه هوشع يصب نقمته على أشقائه في مملكة إسرائيل وعاصمتها السامرة، وعلى سبط إفرايم الابن الثاني ليوسف؛ وذلك بسبب عبادتهم عجول أون. وعجول أون هي عجول عين شمس المصرية، وعجل عين شمس المعروف كان المعروف باسم العجل أبيس.كذلك نعى هوشع على إسرائيل عبادتها لشوامخ أون، والشوامخ هي المسلات التي تطلق عليها التوراة اسمًا آخر على التبادل هو السواري (هوشع، ١٠: ٥، ٨) جمع سارية.

وفي قصة لقاء موسى بربه ليأتي بألواح الشريعة إبان رحلة الخروج، يحيطنا «كاسيدوفسكي» علمًا أن النص التوراتي القائل، أن موسى غطى وجهه بقطعة قماش؛ لأن وجهه كان يلمع أو يشع من لقاء الله، كان في أصله المازوري أن موسى بعد لقاء الرب ظهر له فوق رأسه قرنان.[٦]

وإعمالًا للنص الأصلي صور الفنان مايكل أنجلو، تمثال موسى بقرنين. ولا بأس هنا أن نجمع اللمعان المضيء مع القرنين، إذا تذكرنا أن الفرعونة حتشبسوت قد استوردت من بلاد بونت مادة دهنت بها جسدها، فأضاءت أمام شعبها، وهي ذات البلاد التي جرت فيها أحداث الخروج بمديان وآدوم سيناء. ويؤكد لنا «كاسيدوفسكي» أن الكهنة المصريين كانوا يغطون وجوههم أثناء إقامة الاحتفالات الدينية والمراسم؛ لأنها كانت تضيء «أما القرون فهي راسب من رواسب عبادة الثور المصري أبيس. وهذا ما تدل عليه حادثة العجل الذهبي، فبقيت القرون رمزًا للقداسة.»[٧]

كذلك ظل البعل وهو ثور بدوره، هو جدي «تيسا» إلهًا جليل الشأن لدى شعوب شرقي المتوسط وضمنها بنو إسرائيل. ويمكنك أن تجد بالكتاب المقدس شهادات واضحة بذلك، من أمثلتها عبادتهم عجل بعل فغور (تثنية، ٣٢: ١٧-١٦؛ وعدد، ٢٥: ١–٣)، وعبادتهم البعل وعشتروت (قضاة، ٢: ١٣)، وعبادتهم البعليم جمع بعل (قضاة، ٣: ٥–٨)، كما مارسوا طقس الجنس الجماعي وراء بعل بريث (قضاة، ٨: ٣٣؛ ١٠: ٦)،

---

[٦] نفسه، ص١٢٢.

[٧] الموضع نفسه.

ومارسوا هذا الزنا المقدس في باب خيمة الاجتماع (صموئيل أول، ٢: ٢٢)، كذلك ذكر هذا المقدس أن سليمان سجد لكل آلهة المنطقة (ملوك أول، ١١: ١–٨)، كما عبدوا عددًا من العجول الذهبية، وقاموا بالجنس الجماعي على المرتفعات، وقدموا الأطفال أضاحي للآلهة (ملوك أول، ١٣: ٢؛ ١٤: ٢٣؛ ١٦: ٣١–٣٣؛ وملوك ثاني، ١٦: ٣، ٤؛ ٢١: ٢، ٦؛ وأخبار أيام ثاني، ٢١: ١١، ٣٣؛ وملوك ثاني، ٢٣: ١١؛ وأخبار أيام ثاني، ٣٤: ٢–٥)، كذلك سجدوا لبعل مولك عند توفه (ملوك ثاني، ٢٣: ١٠)، أما مركب الشمس المصرية التي كان يُعتقد أن رع يركبها في رحلته السماوية، فقد كانت محل عبادة دائمة في المملكتين معًا إسرائيل ويهوذا، حتى وصل الأمر بالنبي إرميا، وهو يرهص بتوحيد يهوه، إلى التنديد بشعبه صارخًا فيه: «بعدد مدنك صارت آلهتك يا إسرائيل» (إرميا: ١١–١٣).

حتى إن يهوه نفسه الذي اكتشفه موسى في أيكة مديان المضيئة لم يكن إلهًا واحدًا، بل مدمجًا لعددٍ من الآلهة، حيث يقول لنا «كمال الصليبي»: «هناك ثلاثة مقاطع مختلفة في التوراة، تذكر اسم موسى مع تعريف لشخصه بأنه: ء يش هـ – ء لهيم، وفي الترجمة العربية وسائر الترجمات: رجل الله (المزمور، ٩٠: ١؛ وعزرا، ٣: ٢؛ وأخبار أيام أول، ٢٣: ١٤)، ولو كانت العبارة بالعبرية هنا: ء يش لهيم، لصحت ترجمتها على أنها تعني رجل الله؛ لأن اسم الله بالعبرية هو: ء لهيم. ويُلفظ: إلوهيم. لكن العبارة العبرية هي في الواقع هـ ء لهيم بالتعريف، وليس: ء لهيم بدون تعريف، وهـ ء لهيم بالعبرية ليست هي اسم الله، بل لفظة عادية تعني الآلهة، جمع إله أي آلهة مع سابقة التعريف.[8]

ولعل أهم تجليات الإله يهوه وأبرزها إضافة إلى الثعبان، هو التجلي الناري، وقد سبق وألمحنا إلى خنفساء المانجروف، كظاهرة يمكنها تفسير مشهد عليقة تلتهب ولا تحترق. والطريف أنه يمكنك أن تجد في سيناء أكثر من ظاهرة للنباتات الضوئية. وقد حاول بعض الباحثين تفسير مشهد عليقة تلتهب ولا تحترق، بالظاهرة المعروفة بهالات القديسين، «وهي هالات ضوئية تُرى محيطة برءوس القديسين في المصورات القديمة، وتطابق ما يُشاع بين البسطاء عن أنوارٍ تشع من وجوه الأنبياء والأولياء ذوي الكرامات، وهي الظاهرة التي فسرها علم الفيزياء بعد اكتشافه للكهرباء الجوية، التي

[8] كمال الصليبي، خفايا التوراة ... سبق ذكره، ص٢١٢.

تأخذ أحيانًا شكل كهرباء إستاتيكية مستقرة، وعادة ما تظهر فوق قمم الجبال والمناطق الخلوية الرطبة، وهي الأماكن التي اعتاد الزهاد والنساك ارتيادها للتعبد والاختلاء، كذلك الأفاقون والهاربون من العدالة، وهم أيضًا ممن لوحظت معهم تلك الظاهرة، وكانت رؤيتها كفيلة بإبهار العامة.»[٩]

ومن جانبنا لا نجد ذلك معبرًا بوضوحٍ عن ظاهرة العليقة الموسوية، فنحن نظن موسى التوراتي قد رأى بالفعل لهبًا بشكلٍ من الأشكال، أو ضوءًا نباتيًّا، وليس شرطًا أخذ الأسطورة بحرفيتها أو بتفاصيلها الدقيقة، على محمل الجد الصارم، حيث حاول الباحثون العثور على تفسيرٍ للظاهرة في سيناء نفسها، فوجدوا هناك نباتًا لم يزل يسمى عليقة موسى من قبل سكان المنطقة الحاليين. واكتشف أن لهذا النبات خصائص فريدة، فهو يرسل خيوطًا من الزيت في الأثير، تتوهج بسهولة تحت أشعة الشمس، وحملوا معهم إلى بولونيا نموذجًا منه، وزرعوه في محمية «سكوروتيت». وفي عام ١٩٦٠م خرجت الصحف بنبأ مثير يقول: إن عليقة موسى المحاطة بالرعاية في المحمية، قد اشتعلت بنارٍ ذات لون أحمر، وكان اليوم حارًّا وقائظًا.[١٠] ومن ثم تم الربط بين اشتداد الحرارة والرطوبة معًا، وهو ما يحدث في أيامٍ محددة في ذلك الجنوب السينائي، وبين توهج ذلك النبات بالضوء، لكن أحدًا في بولونيا لم يزعم أنه رأى يهوه، أو سمعه يتكلم من خلال النبتة المتوهجة!

وظاهرة رابعة في سيناء أيضًا، يمكنها بدورها تفسير مشهد عليقة نارية لا تحترق، صادفتنا إبان مشاهدتنا للتلفاز المصري، على قناته الأولى في برنامج عالم الحيوان، وكانت تفسيرًا سهلًا وبسيطًا، حيث كان يعرض البرنامج الذي أعده سعيد محمود وعلق عليه، وأذيع خلال شهر يناير ١٩٩٣م، ألوانًا من الأشجار والنباتات الفطرية، التي تتعايش معها بكتريا تؤدي بالتفاعل الكيميائي، إلى صدور شحناتٍ ضوئية منتظمة نابضة تصدر عن النبات. وقدم البرنامج ألوانًا من تلك النباتات في البحر الأحمر وفي شبه جزيرة سيناء. وبالطبع لم يكن البرنامج يتحدث عن عليقة موسى، لكنه كان يتحدث

---

[٩] سعد زغلول، الأنبياء والمتنبئون قبل ظهور الإسلام، مجلة عالم الفكر، المجلد ١٢، العدد ٤، الكويت، ١٩٨٢م، ص٢١١.

[١٠] كاسيدوفسكي، الواقع والأسطورة ... سبق ذكره، ص١١١.

عن الشوكيات، وفطر المشروم السينائي الذي يضيء بالخلايا البكتيرية، كما قدم أيضًا عددًا من تلك الظاهرات تحدث في نباتاتٍ مائية في عمق البحر الأحمر وخليج السويس والعقبة، أما الحالات التي عرضها البرنامج فكانت مدهشة حقًّا، حيث كان النبات يبدو بالفعل متوهجًا تمامًا كما لو كان يشتعل بالنار، ولو لم تمسسه نار.

ومن ثم فلدينا في شبه الجزيرة السيناوي، أكثر من ظاهرة يمكنها تفسير ما شاهده موسى، في تلك الصحراء الحافلة بالعجائب، فلو كانت الرؤية بالنهار يمكن أن تفسرها العليقة الزيتية، وإن كانت ليلًا يمكن أن تفسرها خنافس المانجروف أو المشروم المضيء.

ونبات المشروم تحديدًا يمكنه أن يستدعي معانيَ كثيرة، فالإله يهوه يبدو في أحد تجلياته كقضيبٍ ذكري، ولا ننسى أن القضيب مصدر الخصب وعلامة القوة، فالبطاركة الأوائل كان يمسك أحدهم بالقضيب، ويقسم به في مواضع متعددة بالتوراة، ومثالًا لذلك «وقال إبراهيم لعبده كبير بيته المستولي على ما كان له: ضع يدك تحت فخذي، فأستحلفك بالرب إله السماء وإله الأرض، أن لا تأخذ زوجة لابني من بنات الكنعانيين» (تكوين، ٢٤: ٢-٣). ويتكرر القسم بالقضيب في عدة مواضع أخرى، منها على سبيل المثال ما جاء في طلب يعقوب لولده يوسف إبان وجودهم في مصر، ألا يدفنه في بلاد مصر، بل يذهب بجثمانه إلى أرض كنعان ليدفنه هناك، وهو الطلب الذي لم يطمئن إلى تنفيذه وتهدأ نفسه، إلا بعد أيمانٍ مغلظة من يوسف في عبارة التوراة على لسان يعقوب: «ضع يدك تحت فخذي، واصنع معي معروفًا معي وأمانة، لا تدفني في مصر» (تكوين، ٤٧: ٢٩).

ولا ننسى مسألة ختان القضيب كشرعةٍ إسرائيلية، وفريضة إجبارية محتومة على كل يهودي، ورغم علمنا من قوانين الفراعين وما تركوه من رسومٍ لإجراء عملية الختان بسكاكين الصوان، تؤكد أنهم اعتبروا الختان ميزة خاصة تعاليًا على بقية الشعوب، فإن الإسرائيليين أخذوا بهذه الشرعة المصرية، بل واحتسبوها علامة العهد بين الرب وبينهم، الرب يعطيهم فلسطين، وهم يعطونه غلفات قضبانهم بالاختتان. وكلما نظر الرجل إلى قضيبه بعد قص غرلته عنه، يتذكر عهده وميثاقه مع الرب:

> وقال الله لإبراهيم: وأما أنت فتحفظ عهدي أنت ونسلك من بعدك في أجيالهم. هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم، وبين نسلك من بعدك، يختتن

منكم كل ذكر فتختتنون في لحم غرلتكم، فيكون علامة عهد بيني وبينكم. فيكون عهدي في لحمكم عهدًا أبديًّا.

(تكوين، ١٧: ٩، ١٣، ١١، ١٠)

ولا يفوت لبيب هيئة المشروم، فهو يتخذ شكل قضيب نموذجي الاختتان، وبهذا الخصوص يعرب شفيق مقار عن رأيه في ديانة يهوه فيقول: «هي نابعة من دياناتٍ صحراوية من ديانات الخصب، انصبت على تقديس نوع من الفطر واسمه العلمي هو «أمانيتا موسكاريا»، كان أتباع تلك الديانة يرون فيه تجسيدًا لإلههم القومي، وهو إلهٌ قضيبي. ويؤمنون بأن تعاطيه يمكنهم من الاتصال اتصالًا مباشرًا بمعبودهم، ويتيح لهم مشاركته أسراره السماوية. والمعروف أن لذلك الفطر تاجًا يشبه قمة القضيب في حالة انتصابه، ويحتوي على عقار يسبب الهلوسة لمن يتعاطاه، ويشيع في كيانه بلهنية وشعورًا بالحيوية والجزل، يصحبه اندفاع لطاقةٍ جسدية عارمة، ويعقبه فترات من الانحطاط الجسدي الحاد. ونفهم الأهمية القصوى التي علقها هذا المعبود القضيبي، حسبما يرويه الكهنة من مبدأ الأمر على مسألة الختان؛ فالختان هو الذي يجعل القضيب، عندما ينتصب مماثلًا لنبات الفطر المقدس، الذي رأى عبدة ذلك الإله أن معبودهم يتجسد فيه.»[١١]

ومن الطريف أن اسم القضيب الذكري في العامية المصرية حتى اليوم هو «الحمامة»، وسر الطرافة أنه قد تم العثور في أورغايت، على قطعةٍ فنية نحاسية تعود إلى حوالي سنة ١٦٠٠ق.م. تحمل اسم رب التوراة IA-HU، وبتدقيق النظر ستكتشف أن الاسم مركب من مقطعين «IA أي رفيع أو سامي الشأن» و«HU أي الحمامة»،[١٢] فهو رب الحمامة أو رب القضيب.

ويعلق علي الشوك على تلك القطعة النحاسية بقوله عن إياهو: «وكان يُدعى يومئذٍ إيلات إياهو ... وكان إله الحدادة عند القينيين! ويظن أنه كان عشيق بعلت (أي البعلة [المؤلف]). واسم إياهو يرجع إلى حِقَبٍ أبعد بكثير، فهو قد ظهر في مصر في عهد الأسرة

[١١] شفيق مقار، قراءة سياسية ... سبق ذكره، ص٦٢.

[١٢] علي الشوك، جولة ... سبق ذكره، ص٢٥.

السادسة، أي في النصف الثاني من الألف الثالث ق.م. لقبًا للإله سيت Set أو سوتخ Sutech، وكان إله الرعاة. وقد ظهر في سفر التكوين باسم شيث بن نوح.»

والأفعى المقدسة رمز يهوه «الأفعوان»، تتخذ في الأساطير اليونانية، صورة حمامة تلقح الكون فيلد الحياة. ويضع علي الشوك تخريجًا للأصل الاشتقاقي لكلمة حمامة، يقول إنه غير متأكد من صحته، رغم أنه شديد الصحة، فهو عنده من مادة حم أي صار أسود؛ لأن حم في المصرية القديمة = أسود، أفلا يحيل كل هذا إلى القينيين في مديان الحدادين وربهم حداد، الحاميين، الكوشيين، الزنوج.

والأفعوان هو باليونانية Ophis ومنها أبوفيس كذلك هو Ophion، وله اسمٌ آخر في ذات اللغة هو بيثون Python، وفي اللغة الحورية الأوغاريتية اسمه ب ث ن أي الحية. وبقلب الباء فاء تصبح فتن، والفتن بالعبرية تعني حية. وبثن بالعربية هو الناعم الطري؛ لذلك نجد الاسم «بثينة» أي الناعمة. لكن يبدو أن تلك النعومة، اشتقت من ملمس البيثون الحية الناعمة، لكنها الشريرة القاتلة؛ لذلك جاءت كلمة فتن في العربية وفاتن، لتدل على شديد الجمال الفاتن الأخاذ، لكنه الشرير القاتل، ومنها الفتنة التي هي أشد من القتل.

ومن بيثون يأتينا اسم PAN/بان رب الرعاة أو رب الماعز عند الإغريق، فقد كانت هذه صورته المفضلة (التيس)، وكان في الوقت ذاته هو رب القضيب ورب الجماع، ثم المقابل لكلمة «بان» في العربية، هي كلمة فن/بن، والفن في العربية هو عملية إخصاب الحمار لأنثاه، ويقال: فن الحمار بأتنه أي نكحها؛ لذلك يسمى الفنان.

وقد لاحظ جون الليجرو أن اسم البعل نفسه مأخوذ من اسم سومري هو BA-AL وهو ما يعني المثقب أو القضيب، واختلاط الباء بالفاء يؤدي بكلمة «بال» السومرية إلى فالوس Phallus اللاتينية، وهي اسم القضيب الذكري في حالة الانتصاب، ولنلحظ أيضًا أن الشق الأول من الكلمة BA هو في العربية القدرة الجنسية المسماة «باه»، وكان المصري القديم يتصور القضيب وهو مخرج روح الرجل، وكانت الروح في المصرية القديمة تحمل اسم الـ «با». وكانت ترسم وهي تخرج من القضيب في شكل الحمامة، والحمامة هي اسم القضيب المتداول في مصر حتى الآن، لم تزل ذكريات القضيب المضيء (فطر أو عيش الغراب السينائي)، تتمثل في المصابيح الزيتية القروية باسم الفانوس/الفالوس.

وفي أساطير الشعوب القديمة جميعًا تمثلت الروح في الريح، الرياح؛ ربما لأن التنفس (النفس) أي الريح هو الذي يمد الكائنات بالحياة. وفي الكتاب المقدس: «بنسمة الله يبيدون وبريح أنفه يفنون» (أيوب، ٩: ٤). ويتواتر ذكر عبارة «روح الرب»

(ملوك أول، ١٢: ١٨). أو كما في «بريح أنفك تراكمت المياه» (خروج)، وتشترك مع الريح والروح كلمة الرائحة، التي عادةً ما تعبر عن الرائحة العطرية، وتشترك معها في الدلالة لفظ شذًى، التي أحالت لدينا من قبل إلى «شرى» أو ذوي الشرى، الذي ارتبط بالخصب بدوره، فولد تحت نخلة في بلاد آدوم في أسطورته. والنخلة باليونانية هي Phoenix فويينكس، وهو ذات الاسم الذي كان يُطلق على العنقاء الطائر المسافر من بلاد العرب إلى مصر، وإلى العناقين العمالقة، الذين سنجد بينهم — بعد فصول — قاطعي الأعناق أو الرقاب أو قاطعي الرءوس، أو الخناقين. والمبهر أن الكلمة فوينكس تعني أيضًا في اليونانية «الخناق أو قاطع الرقبة»! وهنا الحالة الثالثة التي نطلب من القارئ تذكرها؛ لأن لها دورًا آتيًا في حل كثيرٍ من الألغاز في بحثنا هذا.

وكان القدماء يتصورون الريح الإعصاري، في هيئة عمود ثعباني كبير عظيم متلوٍ يلتهم كل شيء، وهي صورة الإعصار. ومن هنا جاء اسم الأفعى الأفعوانية، التي أصبحت في اليونانية أوفيس/أوفيون، لكنهم يطلقون عليها أيضًا الاسم بيثون. ومن الكلمات «بثن» و«فتن» يأتينا اسم «بان» رب الماعز اليوناني. وفي الأساطير اليونانية نجد مملكة الرياح تتكون من أربعة آلهة بعدد الجهات الأصلية، وأمهم جميعًا هي البقرة «يهو» أو «أيوس»، وكذلك فإن انفجارات البركان المتتالية مع كل دمدمة تعطي بغبارها السحابي الهائل شكل الانفجار النووي، تعطي بالضبط مشهد المشروم، مشهد القضيب لكنه العظيم المهول، الذي يقذف بمواد الخصب، لكن بقدرةٍ ربانية تزلزل الجبال وتنشف المياه وتشق الأرض. واللافا البركانية بالملاحظة المستمرة، أعطت إنسان العصور الخوالي فرصةَ اكتشاف أنها سر خصب الأرض.

وعليه نقف الآن مليًّا مع مشهدية كبرى نارية قضيبية بركانية لرب التوراة «يهوه»، وهو يتجلى تجليًا لا يمكن بحالٍ إلا احتسابه بركانًا كامل المواصفات.

- وكان الرب يسير أمامهم نهارًا في عمود سحاب، ليهديهم في الطريق، وليلًا في عمود نار ليضيء، لكي يمشوا نهارًا وليلًا (خروج، ١٣: ٢١).
- سحابة الرب كانت على المسكن نهارًا، وكانت فيها نار ليلًا، أمام عيون كل بيت إسرائيل (خروج، ٤٠: ٤٨).
- وحدث في اليوم الثالث لما كان الصباح، أنه صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل، وصوت بوق شديد جدًّا، فارتعد كل الشعب الذي في المحلة، وأخرج موسى الشعب لملاقاة الله، فوقفوا في أسفل الجبل، وكان جبل سيناء كله يدخن،

من أجل أن الرب قد نزل عليه بالنار، وصعد دخانه كدخان الأتون وارتجف كل الجبل جدًّا. ونزل الرب على جبل سيناء، إلى رأس الجبل (خروج، ١٩: ١٦، ١٧، ١٨، ٢٠).

- وكان الشعب كأنهم يشتكون شرًّا في أذني الرب، وسمع الرب فحمي غضبه، فاشتعلت فيهم نار الرب وأحرقت طرف المحلة، فصرخ الشعب إلى موسى، فصلى إلى الرب، فخمدت النار، فدُعي اسم ذلك الموضع تبعيرة؛ لأن نار الرب اشتعلت فيهم (عدد، ١١: ١–٣).
- عندما تمرد قورح — قارون إسلاميًّا — على موسى: «انشقت الأرض التي تحتهم، وفَتحت الأرض فاها، وابتلعتهم وبيوتهم، وكل ما كان لقورح من كل أموال، فنزلوا هم وكل ما كان لهم من أحياء إلى الهاوية، وانطبقت عليهم الأرض، فبادوا من بين الجماعة، وكل إسرائيل الذين حولهم هربوا من صوتهم؛ لأنهم قالوا: لعل الأرض تبتلعنا، وخرجت نار من عند الرب، وأكلت المائتين وخمسين رجلًا، الذين قربوا البخور (عدد، ١٦: ٣١–٣٥).
- فتقدمتم ووقفتم في أسفل الجبل، والجبل يضطرم بالنار إلى كبد السماء، بظلامٍ وسحاب وضباب (تثنية، ٤: ١١).
- الرب إلهك هو نار آكلة، إله غيور (تثنية، ٤: ٢٤).
- إنك قد أُريت لتعلم أن الرب هو الإله، ليس آخر سواه، من السماء أسمعك صوته لينذرك، وعلى الأرض أراك ناره العظيمة، وسمعت كلامه من وسط النار (تثنية، ٤: ٣٥، ٣٦).
- هذه الكلمات كلم بها الرب كل جماعتكم في الجبل من وسط النار والسحاب والضباب وصوت عظيم. فلما سمعتم الصوت من وسط الظلام، والجبل يشتعل بالنار قلتم: هو ذا الرب إلهنا قد أرانا مجده وعظمته، وسمعنا صوته من وسط النار، هذا اليوم قد رأينا أن الله يكلم الإنسان ويحيا، أما الآن فلماذا نموت؟ لأن هذه النار العظيمة تأكلنا (تثنية، ٥: ٢٢، ٢٤، ٢٥).
- فاعلم اليوم أن الرب إلهك، هو العابر أمامك، نار آكلة (تثنية، ٩: ٣).
- وكان منظر مجد الرب، كنارٍ آكلة على رأس الجبل، أمام عيون بني إسرائيل (خروج، ٢٤: ١٧).
- فانصرفت ونزلت من الجبل، والجبل يشتعل بالنار (تثنية، ٩: ١٥).
- اعبدوا الرب بخوف واهتفوا برعده (مزمور، ٢: ١١).

- يمطر على الأشرار فخاخًا نارًا وكبريتًا وريح السموم (مزمور، ١١: ٦).
- فارتجت الأرض وارتعشت أسس الجبال، ارتعدت وارتجت لأنه غضب، صعد دخان من أنفه ونار من فمه، أكلت جمرًا، اشتعلت منه. عبرت سحبه برد وجمر نار، أرعد الرب من السماوات، والعلي أعطى صوته بردًا وجمر نار (مزمور، ١٨: ١٣، ١٢، ٧، ٨).
- صوت الرب يقدح لهب نار، صوت الرب يزلزل البرية، يزلزل الرب برية قادش (مزمور، ٢٩: ٧، ٨).
- نارًا قدامه تأكل، وحوله عاصف جدًّا (مزمور، ٥٠: ٣).
- السحاب والضباب حوله، العدل والحق قاعدة كرسيه، قدامه تذهب نار وتحرق أعداءه، حوله أضاءت بروقه المسكونة، رأت الأرض وارتعدت (مزمور، ٩٧: ٢–٤).
- الصانع ملائكته رياحًا، وخدامه نارًا ملتهبة (مزمور، ١٠٤: ٤).
- بسط سحابًا سجفًا، ونارًا لتضيء الليل (مزمور، ١٠٥: ٣٩).
- يا رب طأطئ سماواتك وانزل المس الجبال فتدخن، أبرق بروقًا وبددهم، أرسل سهامك وأزعجهم (مزمور، ١٤٤: ٥، ٦).
- من حضرتك تتزلزل الجبال، كما تشعل النار الهشيم، وتجعل النار المياه تغلي، لتعرف أعداءك باسمك، لترتعد الأمم من حضرتك (إشعيا، ٦٤: ١، ٢).
- على جبل الله المقدس كنت، بين حجارة النار تمشيت (حزقيال، ٢٨: ١٤).
- غيظه ينسكب كالنار، والصخور تنهدم منه (ناحوم ١: ٦).

والآن، هل من الممكن أن يُفهم من تلك النصوص شيء، سوى أنها تصوير بليغ لبركانٍ حقيقي؟ إن البركان هو الظاهرة الوحيدة التي إذا طالعناها من بعد، أخذت شكل عمودٍ النار ليلًا، وشكل عمود السحاب نهارًا عندما تظهر الشمس، وتطغى بضوئها على ضوء النار المتلظية داخله. هو الظاهرة الوحيدة التي يصاحبها أصوات القصف كالرعد والبرق، مع السحاب الثقيل المصحوب بالأدخنة الصاعدة كالأتون. وهو الظاهرة الوحيدة التي تؤدي لارتجاف محيطها، وهو الظاهرة الوحيدة التي يمكن رؤيتها عن بعدٍ بأمانٍ تام، لكنها تصبح خطرًا محققًا، إن زحفت مصهوراتها إلى أماكن السكنى، كما حدث في إحراقها طرف محلة الإسرائيليين بسيناء. وهو الظاهرة التي تصاحبها الزلازل ورجف

الأرض، وانشقاقها وابتلاعها لما فوقها، كما حدث مع «قورح/قارون إسلاميًّا» وجماعته. وهو الظاهرة التي تظهر نيرانها في رءوس الجبال وقممها، وهو الظاهرة التي تصحبها رياح كبريتية سامة (رياح السموم)، مع تفاعلاتٍ غازية في شكل أبخرةٍ قاتلة. وهو الظاهرة الوحيدة التي بإمكانها إن صبت في البحر أو النهر أن تجعله يغلي ويفور ويتبخر. إنه الوصف الدقيق تمامًا لإلهٍ ناري، إنه الوصف الأكثر دقة لبركانٍ في حالة توتر في شبه جزيرة سيناء. لكن المحبط تمامًا هو تأكيدات الباحثين الجيولوجيين، أن سيناء لم تكن يومًا (في العصور التاريخية) مسرحًا لأي ظواهر بركانية من أي نوع. وكان ذلك التأكيد مدعاة لارتباكٍ طويل، عانيناه أثناء مشاق هذا العمل، أدى — مع القناعة بوجود ظاهرةٍ بركانية — إلى افتراضاتٍ بعيدة؛ للبحث عن مواضع بركانية محتملة، كانت كل مرة تتضارب مع ما جمعناه من مادةٍ علمية. وهذه المادة جميعًا لا بد أن تؤدي بالخارجين إلى جبل كاثرين في جنوب المثلث السينائي، وكانت النتيجة مزيدًا من جهدٍ ضائع، ووقت ثمين ذهب هباءً مع كل فرضٍ، يسقط مع الاختبار قياسًا على المادة العلمية المجموعة. وعشنا متاهةً كبرى كنا نخرج منها كل مرة صفر اليدين.

ولم يعد أمامنا بإزاء كل المعطيات، سوى الإصرار على أن جبلي موسى وكاثرين كانا بركانيين فعلًا، ومن ثم كانت رحلتنا القاسية في ظروفٍ أقسى، مع ظروفٍ صحية أشد قسوة، إلى المكان، لكنها كانت كافية للقناعة أن الجبلين، كانا إضافة لجبل الطور غربًا، جبالًا بركانية بالفعل، حيث كانت نتوءات الخفاف البركاني، تتناثر بطول المنطقة وعرضها، ولكن بكمياتٍ صغيرة متباعدة؛ لأن قولنا هنا لن يكون كافيًا للفصل في الأمر، فقد عدنا ندقق النظر في جغرافية «جمال حمدان»، لنجده يدعمنا ببساطة الصدق العلمي، الذي لا يحتاج معه جدلًا، فيصف كتلة جبل الطور بأنها «كتلة نارية»، وإن غلب عليها الجرانيت، لكن ما يجاورها من مجموعة جبال كاثرين وموسى وأم شومر والثبت، وأبو مسعود وسربال ومدسوس، التي تنتشر كغابةٍ صنبورية من الأقماع المخروطية، تنتشر بها جميعًا الطفوح البركانية الواضحة في كل مكان.» ثم يقول بإصرار: «إن هذه المنطقة تحديدًا قد تعرضت لاضطراباتٍ تكتونية عنيفة مزقتها تمزيقًا وملأتها بالانكسارات التي لا حصر لها.»[١٣]

[١٣] جمال حمدان، شخصية مصر ... سبق ذكره، ج١، ص٥٩٥، ٦٠٥.

أما «شطا» فقد لاحظ من جانبه، أن مجموعة «من الحمامات وتشمل صخور الحمامات هي عبارة عن رواسب قديمة وصخور بركانية.»[١٤] وقام «عمار» يؤيده مؤكدًا أن «النصف الجنوبي من سيناء، هو منطقة جبالٍ نارية مرتفعة، تقطعها الوديان العميقة. لكن هذه الكتلة النارية، لا تصل إلى ساحل خليجي السويس والعقبة.»[١٥]

ومن ثم لا يبقى سوى القول: إن إعلان السيدين كوتل وروزيير علماء الحملة الفرنسية: إن سيناء لم تعرف البراكين، والذي سلم به الباحثون وأكدوه من بعدهم دون تدقيق، وكان وراء نفي فكرة البركان السينائي واحتساب المنطقة بالكامل صخورًا جرانيتية، إما ناتج خدعة الانتشار الجرانيتي، دون ملاحظة دقيقة لذلك الطفح المتناثر، وإما أن الرجلين قد قاما بخدعةٍ غير لائقة تمامًا، دحضًا لفكرة أن يكون إله التوراة مجرد بركان، تعصبًا لفكرةٍ دينية حمقاء. وهناك عدة أسباب محتملة لاختفاء كثير من الطفوح البركانية، فيحتمل أن تكون الرمال قد أهالت عليها بمرور السنين تلولًا عظيمة من الكثبان، خاصة على الطفوح الكبرى. ولم يبقَ سوى الخفاف المتناثر هنا وهناك. ثم هناك هواية دينية معهودة في جميع الأحجار المقدسة للتبرك بها، كذلك استخدمت تلك الطفوح المقلوعة في مراكب الصيادين، فقد لاحظ دي بوا إيميه العالم المرافق للحملة الفرنسية، أن تلك المراكب جميعًا تعلق في مقدمة السفينة كتلًا من الخفاف البركاني لحفظ التوازن، وهي سفن خليج السويس وبالتحديد ميناء الطور. أما أسمنت العالم القديم؛ فكان يتأتى بقلع الخفاف البركاني، وطحنه بمسحوق الحجر الجيري، فيتحول هذا المزيد عند ابتلاله بالماء إلى أسمنت حقيقي، وعن البناء بهذا الأسمنت حدثنا محمد العزب موسى يقول: «عندما يمتزج الخفاف البركاني بالحجر الجيري، ينتج نوعًا من الأسمنت القوي، وهذا ما حدث في ثيرا، وبالتحديد في جزيرة ثيراسيا التي أخذت منها في ستينيات القرن الماضي كميات ضحمة من الأسمنت لبناء قناة السويس ومدينة بورسعيد.»[١٦] وما أكثر البناء في مصر القديمة! زد على ذلك استخدامه في ردم سواحل

---

[١٤] عبده شطا، جيولوجية شبه جزيرة سيناء، ضمن موسوعة جزيرة سيناء، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢م، ص١٢٩.

[١٥] عباس مصطفى عمار، المدخل الشرقي لمصر، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٤٦م، ص٢٦.

[١٦] محمد العزب موسى، حضارات مفقودة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط، ١٩٩٢م، ص٥٥.

خليج السويس المستمر لحمايتها، أدى هذا كله لا شك إلى تعرية الطبقة الجرانيتية من غطائها (الخفاف الناري) في مواضع كثيرة، لكنه ترك لنا بعضها يتناثر هناك، ليشهد أن رب التوراة النار الآكلة كان هناك، وأنه كان بركانًا. ومن الطرافة ألا ننسى حجر الخفاف الذي كان يملأ كل بيت في مصر؛ لتنعيم كعوب نساء مصر القديمة، تلك العادة التي استمرت ألوف السنين وحتى اليوم، وكانت سيناء موردة هذه الأداة التجميلية للوطن الأم.

ومع هذا كله تظل جيولوجيا سيناء تحمل شكًّا كبيرًا في وجود أية براكين نشطة زمن الخروج، وأن الإشارات البركانية، بها سواء ما لاحظته بنفسي، أو ما ورد عند جمال حمدان، تعود إلى أزمنةٍ جيولوجية بعيدة. هنا يبقى بيدنا اقتراح آخر، وهو أن يكون الإله البركاني كان في البلاد الآدومية شرقي العقبة، وأن موسى التوراتي قد التقاه هناك، وتربى هناك حيث ثقافة عبادة البراكين، وعاد بها وعلم بها أتباعه، حتى وصلت كاتب التوراة، الذي كانت تعز عليه سيناء حيث جبل الشريعة، وحيث أكثر الجبال رهبةً وجلالًا في جبل كاترين وجبل موسى. فاختار سيناء ليضع فيها ربه البركاني، واستبعد آدوم لأنها كانت ملكًا لآدوم عيسو، حسب الأسطورة التوراتية ولنسله، وأن التوراة أو ربها قد أعطى بلاد آدوم لنسل عيسو، كما أعطى الإسرائيليين ما بين الفرات والنهر الكبير نهر مصر بسيناء، وهي من الحالات النادرة التي يمنح فيها رب التوراة في تلك العهود، أرضًا يعتبرها أرضه لغير بني إسرائيل، مما يشير إلى توحدٍ ألوهي واضح، خاصةً أن هذه العطية للآدوميين أخذت شكلًا مقدسًا. انظر رب موسى عند هروبهم من مصر إلى فلسطين، ينصحهم بألَّا يعتبروا أرض آدوم ضمن الأراضي الممنوحة للإسرائيليين، ويقول لموسى «أوصِ الشعب قائلًا: أنتم الآن مارون بتخم إخوتكم بني عيسو الساكنين في سعير، فيخافون منكم فاحترزوا جدًّا، ولا تهجموا عليهم لأني لا أعطيكم أرضهم ولا وطأة قدم؛ لأني لعيسو قد أعطيت جبل سعير ميراثًا» (تثنية، ٢: ٤، ٥).[١٧]

والآن لا شك أننا ما زلنا نذكر «سيت»، وأنه كان رب «سترويت» سيناء، وأن «سيت» الذي هو «تيفون» في الأساطير اليونانية، يعيش تحت بركانٍ عظيم، وأن انفجارات البركان ليست شيئًا سوى دمدماتٍ «سيت/تيفون» ونفثات غضبه الملتهب، وقد حاول مؤلفو التوراة الإيعاز طوال الوقت، بأن «يهوه» رب موسى كان إلهًا خاصًّا جدًّا، لم

[١٧] هذا الفرض من اقتراح صديقي الدكتور محمد سميح عيد.

يظهر لأحدٍ قبل موسى، ولم يكن إلهًا لشعبٍ من الشعوب سوى القبيلة الإسرائيلية. لكن الواضح حتى الآن أنه لم يكن سوى «سيت/تيفون/بعل/هفا» رب سيناء المصرية، وإله صحارى مصر القديمة، رب الشرور والأوبئة، وهو ما تصف به التوراة ربها «قدامه ذهب الوباء، وعند رجليه خرجت الحمى (حبقوق، ٣: ٥).»

وقد سبق وافترضنا أن هذا البركان القضيبي، كان تجسيدًا لرب الأرض المصري الذكر «جب»، الذي كان يقذف بمخصباته إلى السماء الأنثى، ويجب أن ننطق «جب» بتعطيش الجيم، وفي هذه الحالة يكون الإله المصري القديم الذكر، قد ترك اسمه في التسمية الشعبية للعضو الذكري «زب»، فاللسان العربي جميعه على اختلاف لهجاته يطلق على القضيب لفظ «أير»، والمصري هو الوحيد الذي يسميه «زِب – بكسر الزاي» و«زِبر – بكسر الزاي».

وعلى تنغيم اسم الكائن «يهوه» جاءت أسماؤه في المقدسة التوراتية، فهو مرة «يهوه» ومرة «إهيه» ومرة «ياه»؛ فموسى يسأل رب العليقة: «فإذا قالوا لي: ما اسمه؟ فماذا أقول لهم؟ فقال الله لموسى إهيه الذي إهيه، وقال: هكذا تقول لبني إسرائيل: إهيه أرسلني إليكم، وقال الله لموسى: هكذا تقول لبني إسرائيل: يهوه إله آباكم، إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب، أرسلني إليكم، هذا اسمي إلى الأبد (خروج، ٣: ١٣–١٥).»

لكن يبدو أن الكاتب التوراتي، كان يعلم يقينًا أن يهوه هذا ربٌّ جديد، يدخل أفق العبادة الإسرائيلية؛ لذلك سجل «ثم كلم الله موسى، وقال له: أنا الرب، وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب، بأني الإله القادر على كل شيء، وأما باسمي يهوه فلم أعرف عندهم» (خروج، ٦: ٢، ٣). ثم يأتي إشعيا، فيعطينا التنغيم الثالث في قوله: «هو ذا الله خلاصي، فأطمئن ولا أرتعب؛ لأن ياه يهوه قوتي وترنيمتي، وقد صار لي خلاصًا» (إشعيا، ١٢: ٢). وهو ما رددته المزامير قائلة: «غنوا لله رنموا لاسمه، أعدوا طريقًا للراكب في القفار باسمه ياه واهتفوا أمامه» (مزامير، ٤٨: ٤).

وفي المقدس التوراتي إشارات واضحة إلى أن هذا الإله كان إله «دوشريت» الاسم المصري للصحارى والجبال، ومقلوبها «شترويت/سيناء»، فهو رب القفار، «وأما عبيد ملك أرام فقالوا له: إن آلهتهم (يقصد آلهة إسرائيل [المؤلف]) آلهة جبال؛ لذلك قووا علينا، ولكن إذا حاربنا في السهل، فإننا نقوى عليهم» (ملوك أول، ٢٠: ٢٣).

وبالنسبة للترجمة العربية: «الإله القادر على كل شيء»، فإنها في الأصل العبري «إيل شداي» و«إيل» كما علِمْنا: الله. أما شداي فترجمت بمعنى الشدة أو القوة، وترجمناها نحن في كتابنا قصة الخلق بالشذى، أي الريح والهواء، وهو ما يلتقي مع صفات الرب

السيناوي الريح والعاصفة، ثم نتذكر هنا أن أول الحكام الهكسوس، الذي لا شك بلغ رتبة التقديس، لعمله المجيد، كان اسمه شالاتيس (شالات/شالاد). ولما كانت المصرية القديمة لا تعرف حرف «اللام»، فإن شلات يصبح شت أو شد، الإله الشديد «شدا» أو «شداي»، ويعضد هذا الفهم أن المؤرخين العرب، أطلقوا على فاتح مصر من العماليق اسم «شداد»، وتعني أيضًا القوي الشديد «القادر على كل شيء!»

ومن المفيد أن نعلم أن شداد وشالاد اسم الملك الهكسوسي الأول على مصر ترجع إلى أصلٍ مصري، فيقول إريك هورنونج إن الإله «شد Shed هو المنقذ ومساعد البشرية في أوقات الحاجة والشدة، وبصفته إلهًا شابًّا؛ فهو قريب من حور في خصائصه.»[١٨] وربما كان هو ذات الإله «شري» رب سراة سعير.

ويتبع «شلاتيس» في ترتيب الملوك الهكسوس الستة الملك «بنون»، الذي حمل أيضًا لقب سكا/ إسحاق/الضحاك. وفي العربية «سكا» هي حديدة الفدان أي المحراث الحديدي، الذي يشق الأرض كالعضو الذكري، فتضحك بمواليدها النباتية.

ويقول إحسان عباس: إن العلماء يذهبون إلى أن «ذا الشرى لم يكن إلهًا عربيًّا؛ لأن العرب في الشمال الغربي من الجزيرة، كانت تسيطر عليهم العبادة القمرية، بينما ذو الشرى إله شمسي.»[١٩] وهو ما يرجح ترجيحنا أنه كان المصري «شد Shed».

وعلى ذات تنغيم اسم يهوه، جاءنا قبل زمن الخروج في مكتشفات كنعان سنة ١٩٣١م، على قطعٍ من بقايا عصر البرونز، تنغيمٌ آخر لإله بالرسم «ياه» و«ياهو»، وفي ألواح أوغاريت كان كبير الأرباب إيل، يؤكد للجميع «أن اسم ابني ياو».[٢٠]

ويؤكد لنا موسكاتي أن الآراميين قد عبدوا «يهوه»، حيث وجد اسمه داخلًا في تركيب أسماء أعلامٍ آرامية ومواضع آرامية عديدة، مثل «يهورام» ابن الملك «توعي» ملك حماة.[٢١]

ويقول «عصام حفني ناصف»: «وكانوا يكتبون اسم يهوه بالأحرف الأربعة ي هـ و هـ J. H. V. H، دون أن يدعم بأحرف العلة، أي دون أن يضبط بعلامات الشكل؛ لخلو

[١٨] إريك هو رنونج، ديانة مصر ... سبق ذكره، ص٢٨٨.

[١٩] إحسان عباس، تاريخ دولة، ... سبق ذكره، ص١٢٩، ١٢٨.

[٢٠] فراس السواح، مغامرة العقل ... سبق ذكره، ص١٠٨.

[٢١] موسكاتي، الحضارات السامية ... سبق ذكره، ص١٨٤.

اللغة العربية منها إذ ذاك، ومن ثم كان من الممكن أن يقرأ الاسم يهوه أو ياهو. ثم جعلوا يستخدمون بدلًا من لفظ الجلالة كلمة أدوناي أو أدونا أي ربي. وركب اليهود آخر الأمر لكلمة يهوه، أحرف العلة التي بكلمة أدون Edona، فأصبح الاسم يُكتب على وزنها Je Ho Vah ويُنطق Jahweh يهوه.»[٢٢]

ويدقق «سهيل ديب» في أمر ذلك الاسم الغريب، فيعود إلى العبرية في التوراة، يقرأ «فقال الله لموسى: أَهْيَهْ آشر أهيه، وقال: هكذا تقول لبني إسرائيل أهيه أرسلني إليكم (خروج، ٣: ١٣). وفي النص العربي الكاثوليكي تترجم: أنا هو الكائن، وقال: كذا قل لبني إسرائيل، الكائن أرسلني إليكم». ثم تترجم النسخة العربية البروتستانتية: إهيه الذي إهيه، المعروفة، وفي الترجمة الإنجليزية المعروفة بترجمة الملك جيمس King James 1611Version، نجدها I AM THAT IAM، وهو ما يعني أنا الذي أنا، أنا أرسلني إليكم، فهل كان الرب يعرفه باسمه أنه أنا أم هو؟ ناهيك عن قوله: أنا الذي تجليت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب، إلهًا قادرًا على كل شيء، والإله القادر على كل شيء هي بالأصل «إيل شداي»، فماذا كان يجب أن يقول موسى لشعبه: أهيه أم يهوه أم شداي؟

وفي المزمور ١١٠ من النص الكاثوليكي يبتدي النص هكذا: قال الرب لسيدي: اجلس عن يميني، ولو رجعنا للنص العبري، سنجد قال يهوه لأدوناي. إذن كان هناك رب باسم يهوه، ورب باسم أدوناي؛ لذلك لم تبعد الترجمة العربية البروتوستانتية، وهي تترجم النص العبري إلى: «قال الرب لربي» (مزمور، ١١٠).

وإزاء كل ذلك الرتل من أسماء الإله باسم: إيل، إلى يهوه، إلى إهية، إلى ياه، إلى أنا، إلى الكائن، إلى هو، إلى شداي، إلى آدون، يتساءل سهيل ديب سؤالًا هامًّا ومفصليًّا: «كيف يمكن أن ينسى شعب بكامله اسم ربه؟».[٢٣]

ويجيب «كمال الصليبي» عن السؤال قائلًا: «إن الكلمة التي تدل على الإله الواحد في العبرية هي ءلهيم، التي هي جمع المذكر من ءله أو إله، وهكذا يصح القول إن ما أصبح معترفًا به من قبل بني إسرائيل بأنه إله، كان في الأصل تجمعًا للآلهة أو آلهة قبلية متعددة.»[٢٤]

[٢٢] عصام الدين حفني ناصف، اليهودية بين الأسطورة والحقيقة، دار المروج للمطبوعات، بيروت، ١٩٨٥م، ص٥٧.

[٢٣] سهيل ديب، التوراة بين الوثنية والتوحيد، دار النفائس، بيروت ط٢، ١٩٨٥م، ص١٧–٢١.

[٢٤] كمال الصليبي، التوراة جاءت ... سبق ذكره، ص٢٢٩.

ولا مراء أن إجابة الصليبي إجابة دقيقة تمامًا؛ إذ كان لا بد من محاولات للتوحيد الأيديولوجي لآلهة الأخلامو، مع إصرار على تغطية أسماء الآلهة التأسيسية القديمة، ومعها اختفى اسم عناق البونتي وظهر المهلك، وغام المهلك بدمجه بملاك الرب يهوه، وتلاشى الثعبان «لو»، لكن ليظهر في التوراة كطرفٍ في صراعٍ مع يهوه، لكن باحتسابه أفعى تنين عظيم اسمه «لوياثان». واختفت المسلات وراء اسم السواري والشوامخ، وغاب الثور وراء ترجمة العزيز، واستتر ضحوت الضحاك وراء شخص إسحاق.

أما أدونيس الفينيقي؛ فظل آدون لقبًا للربوبية والسيادة. واختفت الأيكة لتحل محلها كل شجرة خضراء:

> هل رأيت ما فعلت العاصية إسرائيل؟ انطلقت إلى كل جبلٍ عال، وإلى كل شجرةٍ خضراء وزنت هناك.
>
> (إرميا، ٣: ٦)

> خطية يهوذا، مذابحهم وسواريهم عند أشجار خضر على آكامٍ مرتفعة.
>
> (إرميا، ١٧: ١، ٢)

ونتذكر أن الآراميين تسمية تنسب إلى الإرم والهرم، وهي الأحجار والجبال، وكلمة هرم تحمل ذات المعنى، فالأهرام هي الأحجار أو الجبال. ومن الطريف الذي يعضد تخريجنا في تصور الأقدمين للجبل، بحسبانه قضيبًا ذكريًّا عظيمًا، أن المفردة «جبل» التي ترد في الترجمة العربية للتوراة، هي في الأصل العبري تكتب وتنطق عير، وهي المفردة التي تترجم أيضًا إلى جبل من الأصل السومري «ء و ر و ERU وء يرى ERI» وهو ما يحمل ذات المعنى في المعاجم العربية.[٢٥] ومعلوم أيضًا أن الكلمة «عير» و«إير» هي الاسم الفصيح للقضيب الذكري، ويعود تصحيح الترجمة هنا إلى الباحث زياد منى، حيث رأى أن كلمة عير تعني جبلًا وليس بلدًا، وهو ذاته صاحب اجتهاد

[٢٥] زياد منى، جغرافية ... سبق ذكره، ص١٦٠.

يقول: «أنا مقتنع بأن بلاد السراة — الأصح ء ل سر ء ه — هي نفسها ط ء نتر أي بلاد الله الوارد ذكرها في النقوش المصرية.»[٢٦]

أي إنه يرى أن بلاد بونت/أرض الإله «ط ء نتر» تقع في جبال السراة، لكنه يذهب إلى السراة الجنوبية امتداد جبال السراة نحو اليمن، حيث يعتقد مع كمال الصليبي أن هناك كانت بلاد التوراة، ثم تختل المسألة بين يديه، فيرى أن اسم بونت ربما كان فلت، أي بلاد الموت أي حضرموت (؟!)،[٢٧] ولكن ما يعنينا هو المادة التي جمعها الرجل في جهدٍ مشكور، لكنه ذهب بتفسيرها جنوبًا بتأثير نظرية كمال الصليبي.

شكل رقم «١٤٩»: الإله الأرض «زبر» أو جب أو «زب» يلقح ربة السماء «نوت» بمقذوفاته المنوية بفالوسه المنتصب «كما في التصور المصري القديم».

[٢٦] نفسه، ص١٢٣، وقد لاحظ صديقي الدكتور سميح أن عيربا بالعبرية = جبل وعير بالعربية = جمل والجمل والجبل يتبادلان بقلب الميم ياء على قياس مكة وبكة.
[٢٧] نفسه، ص١٨١.

الفصل السادس

لغز البلست

فجأة يظهر في فلسطين، وعلى ساحل المتوسط تحديدًا، جنس غريب جديد على المنطقة، أطلقت عليه النصوص المصرية اسم «البلست»، وهو الجنس الذي عُرف باسم «شعوب البحر». وبشأن هؤلاء يقول لنا المدون التاريخي: إنه «في سنة حكم رمسيس الثالث، سنة ١١٩١ق.م. تقدم الملك لصد هجمات شعوب البحر على مصر، فقد أخبرنا أن هذه الشعوب، بعد أن قهروا الحيثيين وكركميش وقود وألاشيا وكلكيليا وأرزاوا، دخلوا سوريا مع نسائهم وأطفالهم بجموعٍ غفيرة، شبهت كثرتها بالجراد، راكبين على عجلاتهم التي تجرها الأبقار. وقد حشدت قواتها في بلاد عمورو «سورية»، وشكلت حلفًا من شعوبها المختلفة مثل البلست والتكر، والاثنان يضعان على قبعاتهم الريش، ويستعملون الدروع المدورة، والشاكروشا والدانونا والواشاشا، وقد قدموا من البر والبحر ... وقد حدثت معركة قرب أحد فروع النيل، ويظهر أن شعوب البحر لم تكن تتوقع مثل هذه القوة المصرية المدافعة، فدمرت سفن المهاجمين، وغرقت بما تحمل من رجالٍ وأموال، في وقتٍ أمطرت به سفن شعوب البحر من الشاطئ المصري، بوابلٍ من سهام الجيش المصري الواقف على طول الشاطئ ومعهم الملك.»[١]

وقد سجل «رمسيس الثالث» لنا تلك المعركة الكبرى فنسمعه يقول:

> شكلت البلاد الأجنبية مؤامرة في جزائرهم، وتفرقت البلاد وذعرت مرة واحدة من جراء هجومهم، ولم تستطع أية قوة أن تقف في وجوههم أو تقاومهم، ولقد

[١] سامي سعيد، الرعامسة، سبق ذكره، ص١٥١.

بدءُوا بخاتي (تركيا أو الأناضول [المؤلف]) وقود وكركميش (جنوبي الأناضول [المؤلف])، وأرزاوا وألاشيا (قبرص)، وأقاموا معسكرًا في عمورو، وعزلوا أهلها وأرضها، وكأنما لم يكونوا، وجاءوا واللهب مُعَد لهم متجهين إلى مصر. وكان حلفهم مكونًا من البلشت والزكارة والشكلش والدانو والوشش، ووضعوا أيديهم على الأراضي إلى مدار الأرض جميعًا، وقلوبهم مطمئنة واثقة قائلين: لقد نجحت خطتنا، ولكن قلب هذا الإله (المصري [المؤلف]) سيد الآلهة، كان مستعدًّا لاصطيادهم كالطيور. لقد دعمت حدودي عند زاهي (سوريا)، وجهزت أمامهم الأمراء المحليين وقواد الحاميات والماريانو، وأمرت بأن تعد فوهات النهر كحائط، والقوارب، وجهزتها جميعًا وزودتها من قبل ومن بعد، بشجعان المحاربين الذين يحملون أسلحتهم، وبالمشاة من خيرة رجال مصر، حتى أصبحوا كالأسود تزأر فوق الجبال، ... وجهزت العربات بالمحاربين الأكفاء، وكل الضباط الممتازين، وكانت خيولها تنبض كل أعضائها، معدة لسحق البلاد الأجنبية تحت حوافرها. أما بالنسبة لأولئك الذين وصلوا إلى حدودي، فإن بذرتهم لم تكن فيهم، وقلوبهم وأرواحهم قُضي عليها إلى الأبد، أولئك الذين تقدموا من ناحية البحر. كان اللهب أمامهم عند فوهة النهر، وكان سياج من الحراب يحيط بهم.[٢]

لكن بعض الباحثين يميل إلى الأخذ بمذهبٍ آخر، ويقول بموجة أبكر قليلًا من البلست، هاجمت مصر زمن الملك مرنبتاح، وأن ما قاله مرنبتاح عن صد هجوم التحنو الليبيين، كان صدًّا لهجومٍ ليبي بلستي مشترك، ويلخص تلك الرؤية تأريخًا يقول: إنه «في أواخر القرن الثالث عشر ق.م. تحرك طوفان بشري كبير من جزائر البحر الإيجي، وأخذ يهاجم مصر بعنفٍ على نية احتلالها، لكن مرنبتاح تصدى لهذه الهجمة، وردها عن حدود مصر. ولكن طوفانًا أكبر وأزخم، سرعان ما راح يتفجر من جديد في أوائل القرن الثاني عشر، يوم انقضَّت شعوب البحر على الأناضول، ودمرت العاصمة الحيثية خاتوشاش/حاتوسا إلى الأبد، ثم تابعت هذه الشعوب زحفها متجهة صوب الجنوب،

[٢] نفسه، ص١٥٣، ١٥٢.

لتدمر كركميش (جرابلس الحالية إلى الشمال من حلب [المؤلف])، وأوغاريت (رأس شمرا قرب اللاذقية [المؤلف]) وأرواد، لتصل أخيرًا إلى الحدود المصرية، بعدما هيمنت على الساحل الفلسطيني. والأخطر من ذلك، أن هذا الهجوم على مصر من جهتها الشرقية، قد صاحبه هجومٌ آخر من جهة البحر، وهجوم ثالث من جهة ليبيا، ولكن رمسيس الثالث آخر محارب عظيم في مصر الفرعونية، قد راح يتصدى لهذا الهجوم الثلاثي، ليدحره في معركتين، إحداهما بحرية، وأخراها برية، وذلك زهاء عام ١١٨٠ق.م. أو بعد ذلك بقليل، وسمح الفرعون المنتصر لبعض هذه الشعوب المهزومة بالاستيطان على ساحل فلسطين، ربما تكون درعًا لمصر يقيها من أي هجوم جديد، فاستقر شعب البلست الذي جاء من جزيرة كريت بين يافا وغزة، كما استقر شعب بحري آخر يسمى التكر إلى الجنوب من جبل الكرمل، وهو الجبل الذي صار فاصلة، تحجز بين الفينيقيين والقادمين الجدد؛ ولهذا ما عاد الساحل الفلسطيني إلى الجنوب من الكرمل يدخل في فينيقيا بعد ذلك التاريخ، وصار اسمه فلستيًّا، نسبة إلى البلست، ثم انتشر هذا الاسم وشمل القطر كله، وحل البلست في خمس مدن كنعانية هي: غزة وعسقلان وعقرون وأشدود وجت، ونظم البلست مدنهم الجديدة على هيئة ممالك مستقلة في إدارتها وحكومتها، إلا أن هذا الاتحاد، ربما كان مركزه في مدينة أشدود.»[٣]

وهكذا ظهر الفلسطينيون ١١٨٠ق.م. على مسرح تاريخ المنطقة، وهكذا استقروا في أرض كنعان، ليمنحوها اسمها حتى اليوم. ومن جانبه فقد أشار الكتاب المقدس طوال الوقت، إلى الفلسطينيين الذين يسكنون الساحل، وكانوا عقبة كأداء إزاء الاستيطان الإسرائيلي لفلسطين، وظلوا دومًا أعداءً مصيريين للجنس الإسرائيلي، ومنافسًا قويًّا كثيرًا ما ألحق الهزائم بالجيوش الإسرائيلية. وموسوعة تاريخ العالم تفيدنا بأن «لفظ فلسطين مشتق من اسم البلست، الفلستين، وكان هيرودوت أول من استعمله، أما الاسم العبري للأرض الواقعة غربي الأردن فهو كنعان.»

وقد اختلف المؤرخون حول موطن البلست الأصلي، فذهب بعضهم إلى أنهم قدموا من جنوب شرقي الأناضول، بينما اقترح آخرون مثل هول وبرن أنهم جاءوا من جنوبي آسيا الصغرى، وذهب فريقٌ ثالث إلى افتراض أصول إليرية للبلست، لكن الإجماع كان

[٣] يوسف سامي، تاريخ فلسطين ... سبق ذكره، ص٥٨، ٥٧.

حول جنسهم الهندوأوروبي،[٤] وأنهم كانوا يختلفون كلية عن سكان المنطقة القدامى فيها، حيث كانت التوراة تشير إليهم بأنهم الغلف أي غير المختونين، وكانت معظم شعوب المنطقة في ذلك الوقت، قد أخذت عن مصر عادة الختان (سفر القضاة، ١٤: ٣ و١٥: ١٨؛ وسفر صموئيل الأول، ١٤: ٦ و١٧: ٢٦، ٣٦ و٣١: ٤؛ وسفر صموئيل الثاني، ١: ٢٠؛ وسفر أخبار الأيام الأول، ١٠: ٤)، وأن إلههم القومي كان «داجون» من «دجن أي الحنطة»، وكان أيضًا إلهًا للسمك، وكان له مقام في غزة وأشدود، حسبما ورد في سفر القضاة (١٦: ٢١–٢٣)، وفي سفر صموئيل الأول (٥: ١، ٢). أما الأهم فهو أن البلست كانوا يستخدمون الأسلحة الحديدية على نحوٍ شديد الوفرة، بينما كان السائد في الشرق آنذاك استعمال الأسلحة البرونزية، ثم الحديدية لكونها نوعًا نادرًا من السلاح، ووصلت وفرة الحديد لديهم، إلى حد أنهم صنعوا منه عجلاتهم الحربية، التي كان يجرها البقر وليس الخيل، مما كان له أثرٌ كبير في انتصاراتهم، وفضلًا عن ذلك كانوا بحَّارة ممتازين وقراصنة موهوبين.[٥]

ولمزيدٍ من تحصيل مادة تفيد بشأن البلست/الفلسطينيين، نستمع إلى «زينون كاسيدوفسكي» يسجل شارحًا: «في الألف الثاني قبل الميلاد، عاش في قبرص شعب أسس حضارة متأنقة رفيعة المستوى، وأنشأ دولة تجارية جبارة في حوض بحر إيجة. وفي الحقبة نفسها استوطنت بيلوبونيز قبائل لا نعرف منشأتها ولغتها، ولكن الآخيين المدججين بالدروع البرونزية قهروها وأخضوعها لهم، وأقام الآخيون قلاعًا حجرية في ميكيني وتيرينف وغيرها من بقاع بيلوبونيز. ويخبرنا المؤرخ الإغريقي فوكيديد أن الآخيين مارسوا أعمال القرصنة، وبنوا أسطولًا جبارًا غدَا منافسًا خطرًا لكريت. وابتداء من القرن الخامس عشر قبل الميلاد، أخذ الآخيون بزعامة الأتريديين الذين ينتسب إليهم أجاممنون، يزيحون الكريتيين من ممتلكاتهم الاستعمارية في بحر إيجة وسواحل آسيا الصغرى، وفي عام ١٤٠٠ق.م. احتلوا كريت نفسها، وقضوا على حضارتها المينوية الراقية (سميت بالمينوية نسبة إلى الملك الآسطوري مينوس [المؤلف])، وفي عام ١١٨٠ قبل الميلاد حولوا طروادة إلى كومةٍ من الأنقاض، بعد حصارٍ دام عشر سنوات. غير أنهم لم يستمتعوا طويلًا بثمار انتصاراتهم؛ فقد اندفعت من أعماق أوروبا قبائل بربرية أخرى

---

[٤] سامي سعيد، الرعامسة، سبق ذكره، ص١٩٠، ١٨٩.

[٥] يوسف سامي، تاريخ فلسطين ... سبق ذكره، ص٥٩.

هي قبائل الداريين، وأخضعت بيلوبونيز وكريت وجزر إيجة وسواحل آسيا الصغرى. وتحت ضغط تلك القبائل، حدثت في رحاب بحر إيجة واحدة من تلك الثورات الإثنية، التي أيقظت الهجرات البشرية العظمى، فقد أرغم سكان البلقان وإيليريا وجزر بحر إيجة، الذين طردوا من أرضهم، أن يندفعوا أمواجًا متتابعة باتجاه الجنوب، بحثًا عن أرضٍ يستوطنونها، فعبروا الأناضول وآسيا الصغرى وسوريا وكنعان، وصولًا إلى دلتا النيل، حيث هزمهم الفرعون مرنبتاح شر هزيمة، وأرغمهم على التراجع. ولكن أخطر الهجمات التي شنتها الشعوب الإغريقية على مصر، وقعت عام ١١٩١ق.م. حيث اندفعت على امتداد الساحل السوري الكنعاني، قطعان من المحاربين مع عائلاتهم وأرزاقهم، ترافقهم في البحر كثرة من السفن الشراعية، فقضوا على الإمبراطورية الحثية إلى الأبد، وجعلوا من عاصمتها خاتوشاش، الواقعة على نهر هاليس كومة من الرماد والخراب، ثم اندفعوا إلى كيليلكيا، فنهبوها مع قطعان الخيل الأصيلة، التي اشتهرت بها على امتداد القرون، أما المدن الفينيقية جبيل وصيدا وصور، فقد استسلمت لهم، وتفادت بذلك الخراب والدمار، وعبر المستعمرون أرض كنعان، واجتاحوا شمال مصر ونهبوه، فحشد رمسيس الثالث قُواه كلها لصد تلك الهجمة، واستطاع أن يسحق المعتدين في البر والبحر، وهكذا صدت أخطر هجمة استعمارية، تعرضت لها مصر خلال تاريخها الطويل كله. ولم يبقَ لدى رمسيس الثالث ما يكفي من قوةٍ لطرد الخصم من كنعان وسوريا، فاستوطن البلست الناجون من سيوف المصريين، الساحل الجنوبي من أرض كنعان. ونعلم من الكتابة التي وجدت على جدران المعابد، أن المصريين قد أطلقوا على أولئك المستعمرين اسم شعوب البحر، وتشغل مكانة خاصة بينها موجات قبائل دونوي وآخاي. ومن المرجح أن يكون الدانيون والآخيون، الذين نعرفهم في التاريخ الإغريقي القديم، يختفون خلف هذين الاسمين. وبالرغم من توفر هذه المعطيات كلها، فلم يتفق العلماء حتى الآن على تحديد الهوية الإثنية لتلك القبائل. لقد شكل الفلسطينيون جماعة إثنية خاصة بين شعوب البحر. وإذا صدقنا التوراة فإن جزيرة كريت، تكون هي الوطن الأصلي للفلسطينيين؛ إذ ينتسب الفلسطينيون حسب التوراة، إلى القبائل الآخية التي أخضعت كريت، ثم جاء الآريون وطردوهم من الجزيرة، وكانت بعض الأسماء الفلسطينية ذات منشأ إيليري، وكانت توجد في إيليريا مدينة تدعى فيليستي، وبما أن هجرة الشعوب الدارية بدأت من هناك بالذات، فلا يستبعد أن يكون الفلسطينيون قد سكنوا إيليريا قبل الإغريق، ثم طردتهم من هناك موجةٌ ما من موجات المستعمرين، واكتشفت بين أنقاض

أوغاريت مدافن ذات طابع إيجي وقبرصي وميكيني. كذلك الفخاريات التي التي وجدت بين أنقاض المدن الفلسطينية الخمس في أرض كنعان، غلَب عليها الطابع الميكيني.»[٦]

هذا ما قاله لنا علم التاريخ. لقد جاء البلست إلى المنطقة في هجومٍ كاسح على دفعتين: الأولى زمن الفرعون مرنبتاح ١٢٢٤–١٢١٤ق.م. لكن الهجمة انكسرت على أسنة رماح الجيش المصري، ثم تلتها موجة أخرى زمن الفرعون رمسيس الثالث ١١٨٢–١١٥١ق.م. الذي صد العدوان، لكن قواه أُنهكت؛ مما جعله يسمح لهم باحتلال الساحل الكنعاني.

والقول طوال الوقت بأن مصر هي التي سمحت للفلسطينيين، باحتلال الفلسطينيين للساحل الكنعاني؛ سواء لأن قوة مصر كانت قد أنهكت عن المتابعة والاستمرار لطردهم كلية، أو لأن المصريين تركوهم هناك كحراس حدود، بعد أن هزموهم وأخضعوهم لتبعية مصر، وسمحوا لهم باستيطان ساحل فلسطين، حتى ذابوا بعد ذلك في أجناسٍ وحضارة المنطقة نهائيًّا،[٧] هو محاولة لتفسير ظهور الفلسطينيين على الساحل الفلسطيني، رغم أن فلسطين كانت تابعة للإمبراطورية المصرية حينذاك.

حتى الآن لا تبدو هناك أية إشكالية أو ألغاز، لكن اللغز يبدأ عندما ننتقل من قراءة التاريخ كعلمٍ، إلى قراءة التوراة كتاريخ، ففي زمن الخروج الإسرائيلي من مصر باتجاه فلسطين، تحت قيادة النبي موسى، نجد الكتاب المقدس يشرح موقف سكان فلسطين، من ذلك الهجوم الإسرائيلي القادم من مصر، فيقول:

> يسمع الشعوب فيرتعدون، تأخذ الرعدة سكان فلسطين، حينئذٍ يندهش أمراء آدوم، أقوياء موآب تأخذهم الرجفة، يذوب جميع سكان كنعان.
>
> (خروج، ١٥: ١٤، ١٥)

وهكذا نجد أرض كنعان قد حملت اسم «فلسطين»، زمن الخروج من مصر، مما يعني أن الفلسطينيين كانوا قد استقروا هناك قبل الخروج بزمنٍ يسمح بتعميم اسمهم

---

[٦] كاسيدوفسكي، الواقع والأسطورة ... سبق ذكره، ص١٧٣–١٧٥.

[٧] مرعي عبد الرحمن، الإمبريالية اليهودية ... سبق ذكره، ص١٤.

على أرض كنعان، وهو المتكرر الذي نقرؤه في سفر يشوع مشيرًا إلى المدن الفلسطينية الخمس على ساحل كنعان، حيث يقول:

> من الشيحور الذي هو أمام مصر إلى تخم عقرون شمالًا تحسب للكنعانيين أقطاب الفلسطينيين الخمسة: الغزى والأشدودي والأشكلوني والحتي والعقروني.
>
> (يشوع، ١٣: ٣)

وعندما استقر الإسرائيليون في أرض كنعان، ولم يتمكنوا أبدًا من القضاء على الفلسطينيين، بل عاشوا إلى جوارهم وظلوا طوال الوقت في حروبٍ معهم، وهو ما اعتبره الكتاب المقدس امتحانًا من الرب لشعبه حيث يقول:

> فهؤلاء هم الأمم التي تركهم الرب ليمتحن بهم إسرائيل، أقطاب الفلسطينيين الخمسة، وجميع الكنعانيين والصيدونيين والحويين.
>
> (قضاة، ٣: ١–٣)

وعن أصل هؤلاء الفلسطينيين يشير الكتاب المقدس إلى جزيرة كريت، باعتبارها موطنًا أصيلًا هاجروا منه إلى الساحل الكنعاني. وقد أطلقت التوراة على جزيرة كريت اسم كفتور على التبادل مع اسم كريت، وهو ما نجده في متفرقات الأسفار في نماذج منها:

> الرب يهلك الفلسطينيين بقية جزيرة كفتور.
>
> (إرميا، ٤٧: ٤)

> ألستم لي كبني الكوشيين يا بني إسرائيل؟ يقول الرب، ألم أصعد إسرائيل من أرض مصر، والفلسطينيين من كفتور والآراميين من قير؟ (ربما كانت قير هي قيرقيزيا الآن [المؤلف]).
>
> (عاموس، ٩: ٧)

أما كيف سكن الفلسطينيون في فلسطين؛ فهو ما يوضحه نص التوراة:

والعويون الساكنون في القرى إلى غزة، أبادهم الكفتوريون الذين خرجوا من كفتور وسكنوا مكانهم.

(تثنية، ٢: ٢٣)

ثم نفهم أن «كفتور» هي «كريت» من شراذم نصوص أخرى مبعثرة، نجمعها لنسمعها توضح:

هكذا قال السيد الرب: ها أنا ذا أمد يدي على الفلسطينيين، وأستأصل الكريتيين، وأهلك بقية ساحل البحر.

(حزقيال، ٢٥: ١٦)

ويل لسكان ساحل البحر أمة الكريتيين، كلمة الرب عليكم يا كنعان أرض الفلسطينيين، إني أخربك بلا ساكن ويكون ساحل البحر مرعًى بآبارٍ للرعاة، وحظائر للغنم، ويكون الساحل لبقية بيت يهوذا.

(صفنيا، ٢: ٥، ٦، ٧)

وفي حديثٍ لغلام مصري — تابع لرجل عماليقي — مع داود يحدثه عن غزوة عماليقية على جنوب فلسطين، يقول:

فإننا قد غزونا على جنوبي الكريتيين وعلى ما ليهوذا.

(صموئيل أول، ٣٠: ١٤)

ومن الجدير بالذكر أن السجلات المصرية قد سجلت مجيء «رؤساء بلاد الكفيتو Keftiu وجزر البحر» ليقدموا لرمسيس الثالث الخضوع.[٨]

---

٨ شتيندورف وسييل، عندما حكمت ... سبق ذكره، ص١٣٢.

والآن تبدأ المشكلة بالظهور، وهي المشكلة التي تجعلك تقف مشدوهًا، من مدى تساهل أهل التاريخ، في حل الإشكاليات الكبرى أحيانًا، وإغماض العين عنها أحيانًا أخرى، حتى تظهر حفائر جديدة تحسم الأمر. ووجه الإشكال هنا هو أن خروج الإسرائيليين من مصر، يحتمل أن يكون قد حدث في أي زمنٍ خلال الأسرة الثامنة عشرة التي تبدأ بأحمس ١٥٧٥–١٥٥٠ق.م. بطل التحرير، لكنها لا يمكن بأي حالٍ أن تكون بعد زمن مرنبتاح ١٢٢٤–١٢١٤ق.م. لحساباتٍ دقيقة قدمنا بعضها، وسيأتي بعضها الآخر في مكانه من هذا البحث. وهذا يعني أننا حتى لو أخذنا بآخر التوقعات الافتراضية وأكثرها تأخرًا في الزمن، لخروج الإسرائيليين من مصر أي زمن الفرعون مرنبتاح. فإن معنى ذلك أنهم قد خرجوا، بينما الفلسطينيون لم يستقروا بعد في فلسطين، حيث إن هذا الاستقرار لم يحدث حسب قرار المؤرخين قبل زمن رمسيس الثالث ١١٨٢–١١٥١ق.م. الذي يأتي بعد زمن مرنبتاح بحوالي ثلاثين عامًا، ولو افترضنا أن الفلسطينيين قد استقروا هناك زمن مرنبتاح، فإن هذا الاستقرار ما كان يسمح لهم بكل تلك القوة خلال ثلاثين عامًا، وما كان ممكنًا أن يمنح كنعان جميعًا اسم فلسطين، ناهيك عن كون استقرارهم في فلسطين زمن مرنبتاح، يعني صلحًا قد حدث بين مصر وبينهم، أقطعتهم مصر بموجبه الساحل الفلسطيني، وهو الأمر الذي سيتضارب مع الهجوم البلستي الكبير على مصر، والذي حدث بعد ذلك زمن الفرعون رمسيس الثالث قادمًا من البحر الإيجي.

أما ما يحسم الأمر، فهو أنه زمن البطرك إبراهيم نفسه، حوالي ١٧٠٠ق.م. قبل الخروج بخمسة قرون كاملة — بحسابات التوراة العبرية — نجد الكتاب المقدس يحدثنا عن وجودٍ فلسطيني في المنطقة الكنعانية الساحلية، وهو ما يُستفاد من رواية ذلك المقدس عن زيارة قام بها البطرك إبراهيم وزوجته سارة إلى مصر، وأنه عند خروجه منها عرج على مملكةٍ باسم جرار، لينزل ضيفًا على ملكها، وهو ما يأتي به النص، يقول:

> وانتقل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب (النقب [المؤلف])، وسكن بين قادش وشور وتغرب في جرار، وقال إبراهيم عن سارة امرأته: هي أختي، فأرسل أبيمالك ملك جرار وأخذ سارة.

(تكوين، ٢٠: ١-٢)

وقد ظل ذلك الملك «أبيمالك» ملكًا أيام إسحاق بن إبراهيم، حيث حدثت مجاعة فذهب إسحاق، لينزل ضيفًا على أبيمالك ملك جرار، في قصةٍ توراتية تقول لنا إن أبيمالك هذا كان ملكًا على فلسطين.

> وكان في الأرض جوع، غير الجوع الأول، الذي كان أيام إبراهيم، فذهب إسحاق إلى أبيمالك ملك الفلسطينين إلى جرار. فأقام إسحاق في جرار، وزرع إسحاق في تلك الأرض، فأصاب في تلك السنة مائة ضعف، وباركه الرب فتعاظم الرجل، وكان يتزايد في التعاظم حتى صار عظيمًا جدًّا، فكان له مواشٍ من الغنم ومواشٍ من البقر وعبيد كثيرون، فحسده الفلسطينيون.
>
> (تكوين، ٢٦: ١٤، ١٣، ١٢، ٦، ١)

وهو الأمر الذي يعني أن الفلسطينيين، كانوا موجودين بالمنطقة زمن إبراهيم، ولكنهم لم يكونوا عنصرًا واضح القوة، كبقية العناصر التي غلب عليها زمن إبراهيم، كالعنصر الحيثي سيد الأرض ومالكها، حيث رأينا كيف سجد البطرك إبراهيم للحيثيين ليشتري منهم قبرًا لسارة. كما لا نجد إشارات لممالك الفلسطينيين الخمسة إلا زمن الخروج، وهو ما يعني وجودًا ابتدائيًّا للفلسطينيين، ممثلًا في مدينة مملكة واحدة على الأقل، باسم مملكة جرار زمن إبراهيم. ولم تكن الممالك الفلسطينية الخمس قد ظهرت على ساحل فلسطين بعد فيما يبدو.

وفي بحثٍ سابق أدرجناه بكتابنا «رب الزمان»، حاولنا حل المشكلة بالاستناد إلى ما جاء من ذكرٍ للبلست، في مدونات رسائل تل العمارنة،[٩] والتي استند إليها آخرون للقول بفرضٍ غير مؤيد، أن أولى هجمات البلست، قد حدثت زمن الملك آمنحتب الثالث ١٣٧٩–١٣٦٠ق.م. التي كانت توجه إليه وإلى ولده إخناتون تلك الرسائل.[١٠] وقد قلت في حينها باحتمال استقرار البلست في فلسطين زمن آمنحتب الثالث، استنادًا إلى ما ورد عنهم في سجلات تل العمارنة، في محاولة لتفسير وجودهم هناك قبل الزمن التاريخي

---

[٩] جاردنر، مصر الفرعونية ... سبق ذكره، ص٣١٣.

[١٠] سامي سعيد، الرعامسة ... سبق ذكره، ص٣٠.

المفترض، لهجوم شعب الجزر الإيجية على المنطقة، والذي تأتي أجلى صوره وأوضحها زمن رمسيس الثالث. لكنا بتنا الآن مقتنعين برأيٍ آخر، يمكنه أن يحل المشكلة حلًّا نموذجيًّا، ويعطينا التوقيت الصحيح لزمن ظهور الفلسطينيين على الساحل الفلسطيني، زمن البطرك إبراهيم في مملكة جرار، وربما قبله بزمن، وهو المقبول كما سنرى الآن. ثم تكاثفهم بعد ذلك في ممالك خمسة على ساحل المتوسط الشرقي، زمن الخروج من مصر بعد إبراهيم بحوالي أربعة قرون أو خمسة، حسب حسابات التوراة العبرية/المازورية، التي قالت إن الإسرائيليين قد عاشوا في مصر ٤٣٠ سنة، إضافة إلى عمر إسحاق ثم عمر إبراهيم.

أما لو أخذنا بحسابات التوراة السبعونية، التي قالت إن بني إسرائيل عاشوا في مصر ٢٢٥ سنة فقط، وليس ٤٣٠ سنة كما قالت التوراة المازورية، ثم إضافة عمر إبراهيم وولده إسحاق، يكون الفارق بين زمن إبراهيم وزمن الخروج حوالي ٣٠٠ سنة، بفرض أن الخروج قد حدث في أحدث التوقعات، زمن الفرعون مرنبتاح ١٢٢٤-١٢١٤ق.م. وعليه فسيكون الفلسطينيون قد حلوا على الساحل الفلسطيني، قبل زمن مرنبتاح بحوالي ٣٠٠ سنة، أي حوالي سنة ١٥٢٤ قبل الميلاد. وهي ضمن السنوات الأخيرة في حكم الهكسوس لمصر قبل طردهم منها، والذي بدأ في أوسع الترجيحات عام ١٧٨٨ق.م. واستمر حتى ١٥٧٥ق.م. وإذا كان زمن إبراهيم قد عاصر مدينة مملكة فلسطينية لها ملك، ومؤسسة حاكمة بالمنطقة اسمها جرار، فإن هذا يعني وجوب الرجوع بموعد وصول الفلسطينيين، قبل عام ١٥٥٠ق.م. بعدة سنوات، تسمح بقيام هؤلاء الجدد بتأسيس نظامٍ سياسي، ولتكن تلك المدة افتراضًا قرنًا آخر من الزمان. وبذلك يجب أن يكون الفلسطينيون قد تواجدوا في فلسطين حوالي عام ١٦٥٠ق.م. إبان حكم الهكسوس لمصر وللمنطقة جميعًا، بل إبان أوج قوة إمبراطورية الهكسوس، فكيف حدث ذلك؟ وكيف أمكن للفلسطينيين القيام بهذا الغزو الاستيطاني لفلسطين، إبان وقوع فلسطين بل وجزر المتوسط التي جاءوا منها، تحت حماية دولة الهكسوس الإمبراطورية الكبرى؟

هنا نتذكر عادة حكام دول المنطقة القديمة، عندما كانت تتوسع فتحتل بلاد شعوب أخرى، كان المصريون يأتون من البلاد المفتوحة بنخبة أهلها إلى مصر، ويُربَّى أمراؤها في مصر على طاعة الفرعون وعلى الثقافة المصرية، وهو ذات ما كان يفعله الآشوريون، وأشهره ما فعلوه مع مملكة إسرائيل الشمالية، عندما نقلوا عشرة أسباط إلى بلاد آشور.

وهو ما فعله البابليون مع مملكة يهوذا، وهو ما ظل فعلًا حتى زمن صدام حسين بالعراق، الذي نقل إثنيات بكاملها من مواضع إلى أخرى، وهو بالضبط ما نراه قد فعلته إمبراطورية الهكسوس، التي زادت على ذلك بنقلها شعوبًا بكاملها، من مواطنها إلى أوطانٍ أخرى. فنقلت سكان الجزر الإيجية المتوسطية إلى ساحل فلسطين. لكن هذا النقل عادةً ما يكون لأهدافٍ ومصالح، فينقل الشباب ليعملوا في جيوش المحتل ويصبحوا من عناصره. والصناع المتميزون وبخاصة الحدادين مصانع ذلك الزمان الحربية؛ ولذلك نفهم سر الظهور الفلسطيني القوي على الساحل، فقد ظهروا فجأة أقوياء، ومسلحين تسليحًا حديديًّا متميزًا. وهذا النقل بالضبط ما كان يفعله أباطرة مثل تحتمس الثالث، ونبوخذ نصر الكلداني وآشور ناصر بال الآشوري، وغيرهم من الأمثلة — في التاريخ — كثير.

وبالإضافة لنماذج حوادث التهجير الإجباري للشعوب، التي وردت بالكتاب المقدس، فإن نصوص التاريخ الأركيولوجية تؤكد هذا المعنى، فمثلًا يقول سرجون الثاني الآشوري في نصوصه، التي دونها تسجيلًا لحدث فتحه السامرة، عاصمة المملكة اليهودية الشمالية إسرائيل عام ٧٢١ق.م.:

> لقد حاصرت السامرة وفتحتها وجلوت ٢٧٢٩٠ من سكانها، وجهزت من بينهم فصيلة بخمسين عربة ضممتها إلى فيلقي الملكي. أما المدينة فقد أعدت بناءها بأفضل مما كانت، وأسكنت فيها شعوبًا من المناطق الأخرى التي قهرتها، ثم أقمت عليهم ضابطًا من لدني حاكمًا عليهم، وفرضت عليه جزية الآشوريين.[١١]

وهو الأمر الذي طابقه الكتاب المقدس إذ يقول:

> في السنة التاسعة لهوشع أخذ ملك آشور السامرة، وسبى إسرائيل إلى آشور، وأسكنهم في خليج وخابور نهر جوزان وفي مدن مادي.
>
> (ملوك ثاني، ١٧: ٦)

[١١] السواح، الحدث … سبق ذكره، ص١١٠.

ويستمر المقدس التوراتي شارحًا:

> وأتى ملك آشور بقومٍ من مدن بابل وكوت وعوا وحماة وسفراويم، وأسكنهم في مدن السامرة عوضًا عن بني إسرائيل، فامتلكوا السامرة وسكنوا في مدنها.
>
> (ملوك ثاني، ١٧: ٢٤)

ويعقب «فراس السواح» بالقول: «ولم تطبق سياسة التهجير هذه على أهل السامرة فحسب، بل شملت شعوبًا عديدة منها شعب مملكة حماة ومملكة قرقميش.»[١٢] وهو ما يؤكده نص ذات الملك وهو يقول: «أما أهل المدينة ممن ثاروا معه، فقد سُقتهم أسرى إلى آشور ... ثم أحللت في كركميش سكانًا من آشور.»[١٣]

وهكذا فيما نعتقد وبنفس الأسلوب كان انتقال البلست من كفتور إلى كنعان، وهو الأمر الذي ما كان ممكنًا تفسيره تفسيرًا مقنعًا قبل بحثنا هذا عن إمبراطورية الهكسوس الكبرى، وسيتبع ذلك باليقين عدة نتائج ترتبط بالأحداث ارتباطًا مزيجًا؛ لأن معنى ذلك أن إبراهيم قد زار مصر زمن الحكم الهكسوسي؛ لأنه خرج من مصر إلى وجود فلسطيني في مملكة جرار، وكان تواجد الفلسطينيين في جرار ملازمًا لوجود الهكسوس في مصر، وسيكون يوسف وأسرة يعقوب جميعًا قد دخلت مصر زمن الهكسوس، وهو ما يفسر لنا كيف أمكن لراعٍ بدوي مثل إبراهيم، أن يحصل على جاريةٍ مصرية (هاجر)، بينما المصريون يرون البدوي رجسًا ونجسًا يجب اجتنابه. وهو ما أكدته التوراة ذاتها، عندما حكت عن الوليمة التي أقامها يوسف، وهو وزير لخزانة فرعون لإخوته، عندما التقاهم بعد بعادٍ طويل، فتقول:

> وقال قدموا طعامًا، فقدموا له وحده، ولهم وحدهم وللمصريين الآكلين عنده وحدهم؛ لأن المصريين لا يقدرون أن يأكلوا طعامًا مع العبرانيين؛ لأنه رجس عند المصريين.
>
> (تكوين، ٤٣: ٣١، ٣٢)

---

[١٢] نفسه، ص١١١.

[١٣] الموضع نفسه.

وعندما عرض يوسف إخوته على الفرعون، منحهم مكانًا يسكنون فيه، بعيدًا عن مساكن المصريين، أو بنص التوراة:

لكي تسكنوا في أرض جاسان؛ لأن كل راعي غنم رجسٌ للمصريين.

(تكوين، ٤٦: ٣٤)

والعجيب أيضًا أن يطلب يوسف من أشقائه، وهو يقدمهم إلى الفرعون أن يقروا بصفاتهم كرعاة، ويعلنوها:

ثم قال يوسف لإخوته ولبيت أبيه: أصعد وأخبر الفرعون، وأقول له إخوتي وبيت أبي الذين في أرض كنعان جاءوا إليَّ. والرجال رعاة غنم، فإنهم كانوا أهل مواشٍ وقد جاءوا بغنمهم وبقرهم وكل ما لهم، فيكون إذا دعاكم فرعون وقال ما صناعتكم؟ أن تقولوا: عبيدك أهل مواشٍ.

(تكوين، ٤٦: ٣١–٣٤)

ويعقب الباحث مظفر نادوثي على إصرار يوسف، على إعلان بدوية ورعوية أهله للفرعون، مع علمه بكراهية المصريين الشديدة للبدو والرعاة، يحمل دلالة علاقة ما بين ملوك مصر في ذلك العهد وبين العبرانيين.[١٤]

وتتناقض قصة حصول إبراهيم على جاريةٍ مصرية، مع أمثلة واضحة للقانون المصري بهذا الشأن، ومنها تلك الحادثة الطريفة، التي يرويها لنا كل من سيل وشتيندورف، وهما يقرران:

كانت العلاقات بين مصر والدولتين الكبيرتين، في دجلة والفرات وآشور وبابل، قائمة على أسسٍ متشابهة، كما يبدو ذلك من سلسلةٍ أخرى من الألواح المسمارية، التي عُثر عليها في العمارنة. وكان تبادل الرسائل نشيطًا بصفةٍ خاصة مع ملكي بابل كادشمان إنليل وبورنا بورياش (لاحظ أفريقية في تلك

[١٤] مظفر نادوثي، جغرافية القرآن ... سبق ذكره، ص٥٤.

الأسماء [المؤلف]). ولكن الرسائل التي في حوزتنا من هذين الحاكمين، مصاغة بلهجةٍ أكثر قوة وإحساسًا بالذات من تلك الصادرة من بلاط ميتاني. وتدل على أن ملوك هذه الإمبراطورية العظيمة القوية، كانوا يعتبرون أنفسهم أكفاء على الأقل للفرعون. فمثلًا لم يجرؤ أحد حكام ميتاني أن يطلب يد أميرة مصرية، وكان الأمر على عكس ذلك مع البابليين. فعندما طلب آمنحتب الثالث ابنة كاد شمان إنليل ليضمها إلى حريمه، أُعطيت له بدون تردد، ولكنه في نفس الوقت وُوجِه بطلبٍ مقابل بأن يرسل أميرة مصرية إلى بابل، وقد رُفض هذا الاقتراح غير المعقول باعتباره منافيًا لكل التقاليد. ولكن كادشمان إنليل رد على أخيه ردًّا منطقيًّا متماسكًا في خطابٍ آخر: إنك يا أخي كتبت لي بأنك لن تسمح لابنتك بالزواج مني قائلًا: إنه لم يحدث أن أعطيت ابنة ملك مصري لأحدٍ من قبل! دعني أسألك لماذا؟ إنك أنت الملك ومشيئتك نافذة، فإذا كنت راغبًا في إرسالها، فمن ذا الذي يعترض؟ ثم يمضي بسذاجةٍ قائلًا: إنه سوف يقتنع بأية امرأة جميلة أخرى؛ إذ يمكنه أن يدعي أنها ابنة الملك، ولن يجرؤ أحد على تكذيبه، لكن إذا كنت من حيث المبدأ، ترفض أن ترسل لي أحدًا على الإطلاق، فأنت لا تأخذ الأخوة والصداقة بعين الاعتبار.[١٥]

وحتى إبان سقوط القوى المصرية وانحطاطها، ظل المصري يحافظ على هذا التقليد المقدس، فيخبرنا هيرودوت أنه عندما ألح الملك الفارسي قمبيز ملك العالم آنذاك، في طلب الزواج من ابنة الفرعون، زمن تدهور مصر الحضاري والسياسي والعسكري، اختار الفرعون لملك العالم فتاة من خادمات البلاط، وأرسلها لقمبيز على أنها ابنته، وعندما اكتشف قمبيز ذلك اتخذها ذريعة لغزو مصر.[١٦]

وفق هذا كله لا يمكن تصور أن فرعونًا مصريًّا، يمنح راعيًا بدويًّا (إبراهيم) جارية مصرية، وهو أشد عناصر البشر نجاسة في القانون المصري. إن الحل الأوحد هو أن يكون إبراهيم، قد دخل مصر على ذوي قرابته وحلفه، لقد كان الحاكم على مصر زمن إبراهيم هكسوسيًّا ولم يكن أبدًا مصريًّا.

[١٥] شتيدورف وسبيل: عندما حكمت ... سبق ذكره، ص١٣١.

[١٦] إيفانز، هيرودوت ... سبق ذكره، ص١٩٥، ١٩٤، وقد أورد جوردون تفصيل تلك القاعدة المقدسة ببحثٍ وافٍ في: Gordon, The Encient Near East, Norton, New York, 1965, pp. 90–91.

والتوراة تقول إن إبراهيم أنجب من هاجر المصرية ولده البكر إسماعيل، ثم إن إسماعيل نفسه سار على درب أبيه فتزوج مصرية «وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر» (تكوين، ٢١: ٢١).

لكن لأن التاريخ مساربه وتواصلاته عبر ذكريات عادة ما تكون غائمة أو منزوية، فإن الحدث يجد له منفذًا كما عند المؤرخ هروشيوش، الذي قام يردد ذكريات القرون الغوابر، ويخالف التوراة مخالفة شديدة حسب الفهم السائد، بينما يتفق معها أشد الاتفاق حسب رؤيتنا لأحداث ذلك الزمان، فهو يقول عن إبراهيم:

> ووُلد له إسماعيل من جاريته العملاقة، وتزوج إسماعيل امرأة من العماليق، فولدت له اثني عشر ولدًا.[١٧]

وحيث نعلم أن إسماعيل هو ابن هاجر، فمعنى ذلك أن هاجر لم تكن مصرية إنما «عملاقة»، وأن زواج البدو العبران من أرض مصر، لم يكن من مصريات، بل من عملاقات هكسوسيات. وهو الأمر الذي وجد منفذه ليصل إلى مؤرخينا الإخباريين القدامى ليدونوه بدورهم، فيحكي المسعودي:

> تفرق العماليق بعد أن أقحط الشحر واليمن، فتزوج إسماعيل منهم.[١٨]

كذلك كان يعلم ذات الخبر راوي السيرة ابن هشام، الذي أكد أن العماليق وليس المصريين، كانوا أخوال إسماعيل، وذلك في قوله:

> إن إسماعيل نبيٌّ مرسل، أرسله الله إلى أخواله من جرهم والعماليق.[١٩]
>
> وهو المعنى الذي دونه الثعلبي يقول:
>
> ثم نبَّأ الله إسماعيل، فبعثه إلى العماليق وقبائل اليمن.[٢٠]

وهو الخبر الذي يجمع الكثير لتأييدنا؛ فالعماليق في مصر وسيناء، وكان إسماعيل مبعوثًا إليهم وإلى قبائل اليمن. لقد كانت بذلك قبائل اليمن في ذات الجوار (حيث مملكة

---

١٧ أورسيوس، تاريخ العالم ... سبق ذكره، ص٩٢.

١٨ المسعودي، مروج الذهب ... سبق ذكره، ج٢، ص٤٧، ٤٦.

١٩ السهيلي، شرح سيرة ابن هشام ... سبق ذكره، ج١، ص١٧.

٢٠ الثعلبي، عرائس المجالس، المكتبة الثقافية، بيروت، د.ت، ص ١٠٠.

سبأ كما سبق البحث) بسيناء وآدوم وكذلك بمصر ضمن العماليق أو الهكسوس. إن نظريتنا تلتقي مع أحداث كان يتم التعامل معها، بحسبانها أوهامَ أهل السيرِ والأخبار، بل إنها تفسر نظريتنا وتضعها في تناغمٍ واضح مع سياقها التاريخي.

وهكذا فإن الهجمة التي حدثت في زمن مرنبتاح، وتلاها هجوم أعظم زمن رمسيس الثالث، لم تكن هجمة الفلسطينيين من كريت، التي احتلوا بموجبها ساحل فلسطين، إنما مجموعاتٌ خرجت من الجزر اليونانية، حملت أسماء شعوب عديدة كالشاكروشا والثكر والدانونا والواشاشا والبلست، وهم الذين عرفهم التاريخ باسم الشعوب الآخية، وهي الهجمة الكبرى التي أسقطت الحضارة الحيثية وأزالتها من التاريخ. وكان الخلط يتم دومًا بين حركة الآخيين الكبرى وبين وجود البلست على الساحل الفلسطيني، بدمج مبتسر ومتكلف لإيجاد تفسير لظهور الكريتيين البلست على ساحل فلسطين، في زمنٍ كانت فيه مصر قد أصبحت إمبراطورية قوية، لن تسمح بهذا الاستقرار لمهزومين — كما يقولون — في أراضٍ تابعة لها. بينما التوراة قد أكدت وجودهم هناك قبل تحديد المؤرخين بثلاثة قرون على الأقل. وكان هذا الاستيطان المبكر للفلسطينيين أمرًا غامضًا، لم يأتِ بشأنه مدون واضح يحدد موعد بدئه؛ لأنه ببساطة حدث زمن الهكسوس الذي لم يترك لنا شيئًا مدونًا يعول عليه، وهو الزمن الذي أسدل عليه المصريون ستارًا من النسيان، فلم يدونوا عنه وقرروا نسيانه ولم يعودوا يذكرونه كأنه لم يكن.

وفي تلك الأثناء، وفي فترة الظلام الهكسوسي نعتقد وفق ما طرحناه، أنه قد حدث الحدث، وتم نقل الكريتيين إلى الساحل الفلسطيني ليفاجئونا — عندما يرتفع الستار مرة أخرى، ويبدأ التدوين بعد طرد الهكسوس من مصر — نفاجأ بوجود الفلسطينيين هناك قبل أي تواجد للعبريين، أو من ذكرهم التاريخ باسم بني إسرائيل، وهم الشعب الغريب تمامًا عن المنطقة، جاءها وافدًا مستوطنًا، وهذا أمرٌ آخر يحتاج إلى جهدٍ آخر ومبحث جديد.

الفصل السابع

حل لغز الخابيرو

حول زمن خروج الإسرائيليين من مصر، سِيقت عدة نظريات وفروض، كان أولها تلك النظرية العتيقة، وتعد أول النظريات التي وُضعت بهذا الشأن، وهي نظرية المؤرخ اليهودي يوسفيوس، والتي اعتمد فيها على تاريخ مانيتون المصري ٢٨٢ق.م. وقد زعم يوسفيوس في نظريته أن بني إسرائيل كانوا هم حكام مصر باسم الهكسوس، إلا أن هذه النظرية لم تعُد تلقى اليوم قبولًا عند علماء التاريخ أو عند علماء نقد التوراة، حيث تواترت حديثًا نظريات علمية جديدة، بدأت بالظهور تباعًا، بعد فك رموز الهيروغليفية المصرية، وما تبِعها من كشوفٍ أركيولوجية متتابعة. ووُضعت فروض تزمن هذا الخروج في مساحةٍ تقع ما بين ثلاثة قرون أو أقل، تقع ما بين زمن الفرعونة حتشبسوت ١٤٩٠–١٤٦٠ق.م. وزمن الفرعون مرنبتاح حوالي ١٢٢٤–١٢١٤ق.م. لكن ليس قبل ولا بعد، إنما تدور جميعًا بين فراعين حكموا بين هذين المدتين ١٤٩٠–١٢١٤ق.م.

وقد ذهبت مدرسة جارستانج إلى القول بأن الخروج قد حدث زمن الفرعونة حتشبسوت، وذهب آخرون إلى تزمينه بزمن الفرعون الفاتح تحتمس الثالث ١٤٩٠–١٤٣٦ق.م. بينما أرجأه آخرون إلى زمن الفرعون مرنبتاح ١٢٢٤–١٢١٤ق.م. ويعد هذا الرأي الأخير هو الرأي السائد والمستقر الآن، ويستمد قوته من اعتماده على وثيقةٍ أركيولوجية واضحة، تتمثل في لوح مرنبتاح الذي ذكر اسم إسرائيل لأول مرة ولآخر مرة، فيما اكتُشف من آثارٍ مصرية حتى الآن. ويقول فيه الفرعون إنه قد أباد إسرائيل ولم يبقَ لهذا بذر أي نسلٍ أو أثر. ولأن فترة حكم هذا الفرعون لم تتجاوز عشر سنوات، تسمح بكل الأحداث التي رواها سفر الخروج بالتوراة، فقد افترض أصحاب تلك النظرية أن الأحداث الكبرى المروية بالتوراة، وما رافقها من اضطهاد الإسرائيليين في مدينتين باسم «رعمسيس» و«فيثوم»، إنما تعود إلى زمن أبيه رمسيس الثاني ١٢٩٠–١٢٢٤ق.م.

بحيث يصبح رمسيس الثاني فرعون الاضطهاد، وصاحب مدينة الاضطهاد التي حملت اسمه. أما الخروج فيكون قد حدث زمن ولده مرنبتاح صاحب لوح إسرائيل المشهور.

وكان علم التاريخ قد استقر على أن العبرانيين قد سجلوا اسمهم في التاريخ ووثائقه، بعد أن ورد اسمهم في التاريخ ووثائقه بصيغٍ مختلفة، للدلالة على أناسٍ بعينهم في كل مدونات منطقة المتوسط الشرقي، على اختلافَ التنغيم ما بين: عابيرو، خابيرو، خابيري، حابيري، حبراي، هبر، عفر، عفرم، حبري، خبري. لكن تزمين الخروج بزمن مرنبتاح كان يعني لهؤلاء المؤرخين خسارة كبرى، اضطروا معها للتنازل عن كون تلك الأسماء المتعددة تشير إلى عبريي التوراة الإسرائيليين؛ لأن تاريخ تدوين هذه الأسماء للعابيرو لن يلتقي زمنيًّا مع زمن مرنبتاح والذين خرجوا من مصر. ولمعرفة السبب وراء ذلك نحن بحاجةٍ إلى بعض التفصيل.

كان أول ظهور للصفة «عبري»، عندما استخدمها سفر التكوين بالكتاب المقدس لوصف البطرك إبراهيم. ثم وردت كلمة «عبرانيون» لوصف الإسرائيليين الذين كانوا يعيشون بمصر، ثم وصفوا بذات الصفة بعد خروجهم من مصر ودخولهم فلسطين. إلا أن الملاحظ أن تلك الصفة كانت تستخدم عند ورودها لتمييزهم جنسيًّا عن أصحاب الأرض وأهلها، وهو ما حدث في قصة يوسف عند نزوله مصر لتمييز الإسرائيليين عن المصريين، وكذلك تكرار ذات الأمر في قصة موسى بمصر، ثم في قصة أول ملك إسرائيلي (شاول) لتمييز الإسرائيليين عن سكان فلسطين. ثم اختفت صفة عبري مدة طويلة، لتظهر بعد ذلك في سفر صموئيل أول وفي سفر يونان.

وقد تواترت الكشوف الأركيولوجية بأخبارها عن الـ «خا – في رو»، في النصوص المسمارية الكاشية أو الكوشية أو الكاسية بالرافدين، والـ «ع ف ر م» في نصوص أوغاريت/رأس شمرا، والـ «خ ا ب ي ر و» في رسائل تل العمارنة بمصر، والـ «ع ف ر» في نصوصٍ مصرية أخرى، و«خ ب ي ر و» في نصوص نوزي بأعالي الفرات، ضمن مملكة ميتاني المزعوم وقوعها هناك، ففي المدونات هناك تكرار اسم «خ ب ي ر و»، بينما لم يُشِر المدون نفسه إلى هويته، ولا إلى «ميتاني» ولا إلى نوزي نفسها.[١]

وفي الفترة ما بين نهاية القرن الخامس عشر ومنتصف القرن الرابع عشر ق.م. أفادت رسائل العمارنة القادمة من ملوك كنعان ومحيطها، أن جمعات باسم «الخابيرو»

---

[١] كمال الصليبي، التوراة جاءت ... سبق ذكره، ص١٣٦.

و«الساجاز» تهدد العديد من الممالك الفلسطينية سواء في الشمال أو الجنوب.[٢] وإذا كان الخابيرو قد كانوا باسمهم المتواتر في وثائق المنطقة جميعًا، هم اللقية العظيمة للمؤرخين، على اعتبار أنها إشارة إلى العبريين، فقد اضطروا للتنازل عن هذه اللقية إزاء الاتفاق، على أن الخروج قد حدث زمن مرنبتاح الذي يأتي بعد زمن العمارنة بزمان؛ لأنه لن يكون مفهومًا كيف خرجوا، وكانوا يهاجمون فلسطين زمن العمارنة الأسبق؟ أما الساجاز؛ فهي كلمة تعني القتلة، ويوصفون بأنهم «قاطعوا الرقاب أو الأعناق» أو «قاطعوا الرءوس»، وقد ظلوا مجهولين تمامًا، كما ظلت كلمة «ساجاز» مجرد صفة، أطلقت على بعض الهكسوس لوحشيتهم!

وللمزيد بشأن الخابيرو والساجاز نقرأ: «تفيد العديد من النقوش القديمة المؤرخة، ابتداء من الألف الثاني قبل الميلاد، بوجود مجموعات من اللصوص وقطاع الطرق والمرتزقة في المشرق العربي، كانت تعيش على هامش المجتمع، وقد عرفت هذه المجتمعات في النقوش السومرية، العائدة للفترة الواقعة بين الأعوام ٢٠٥٠–١٩٣٠ و٩٣٠–١٦٩٧ق.م. باسم «س ء ج ء ز» ومن أهل الاختصاص من يرى أن الاسم السومري «س ء. ج ء ز»، مشتق من المفردة الأكادية «شجج ء شو» بمعنى شجه/تلة، كما قرئ الاسم أحيانًا «خبب ء تو» بمعنى لصوص وبدو رحل. وبمقارنة قوائم الآلهة الحثية وقائمة الضرائب الأوغاريتية اقتنع أهل الاختصاص، بأن المجموعات التي عرفت بالاسم السومري «س ء. ج ء ز» هي نفسها المشار إليها بالاسم الأكادي خفيرو «خء. في. رو» و«خء. ءب. بي ري» وهناك اتجاه يرى أن الاسم خبيرو مشتق من المفردة خبر، بمعنى يربط أو يوصل، أو من المفردة «عبر» بما يعني أن المقصود «حبريم» أي المتحالفون، أو «خبريم» بمعنى البدو المتنقلين، ويرى اتجاهٌ آخر أن المعنى الصحيح للاسم عفر هو «مغبرين»، وانطلاقًا من حقيقة أن البدو أي العرب في حالة ترحل مستمرة، فقد أوَّلَ ممثلو هذا الاتجاه المعنى ليشير إلى بدوٍ رحل. ومن الجدير بالذكر أنه تمت قراءة الاسم بصيغته الأخيرة في نصوص مملكة ماري العائدة للنصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، والتي فُهم منها أن المقصود بذلك مرتزقة أو عصابات تعيش من نهب المدن. ويعود الخفيرو للظهور من جديد في نصوصٍ عديدة تعود إلى مملكة الألاخ، حيث يسجل النص المؤرخ في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، توقيعهم لاتفاقية سلام مع حكام تلك المملكة،

---

[٢] أحمد عثمان، تاريخ اليهود ... سبق ذكره، ج١، ص١٢.

بما يظهر أنهم شكلوا حينئذٍ قوة عسكرية هامة ومستقلة. كما يعود الخفيرو للظهور من جديد في نصوص هذه المملكة ذاتها، والعائدة للقرن الخامس عشر قبل الميلاد. وهذه المرة يظهرون كقوةٍ عسكرية متمركزة في المدن، حيث عرف أن بعضًا منهم كان ينتمي إلى طبقة الكهنة، ويتم مدحهم في نصٍّ ثالث لاستضافتهم الملك المعزول إدرمي.

أما النصوص العائدة للقرن الخامس عشر قبل الميلاد، التي عُثر عليها في مدينة نوزي الواقعة في القطر العراقي، فتظهر أن الخفيرو وضعوا أنفسهم كأشخاصٍ أو مجموعات بتصرف الدولة كمرتزقة وخدم، بينما تُثبت وثائق أخرى أنهم كانوا رقيقًا وُظفوا في الخدمة المنزلية (نتذكر هنا ما حدث ليوسف وعمله الأول كخادم منزل في بيت رئيس الجند المصري فوطيفار [المؤلف]).

وتعود هذه المجموعات للظهور من جديدٍ في رسائل تل العمارنة، العائدة للنصف الأول من القرن الرابع عشر ق.م. بصيغة «سء. ج ء ز».

ويرى أهل الاختصاص أن تلك الوثائق تظهر تشكيلهم من أمراء وسكان مدن، أي إنهم أصبحوا من أهل الحواضر. وكما تبين تلك الرسائل أن تلك المجموعات، والتي رأى فيها أهل الاختصاص نفس خفيرو النصوص الأكادية، أنهم لم يكونوا متمردين فحسب، وإنما وُظفوا أيضًا كمحاربين مرتزقة، مما جعل كاتبي الرسائل ينعتونهم بصفة: كلب، وكلاب ضالة. أما النقوش الحيثية فتشير إلى «س ء. ج ء ز»، كمجموعةٍ طبقية صُنفت ما بين النبلاء والعامة.

كما عثر على إشارة لعفروم في النصوص الأوغاريتية، فُهِم أن المقصود بها جماعات مستقرة المسكن تدفع الضرائب، وأن رئيسهم الموصوف برب عفروم كان يتمتع بموقعٍ محدد في إدارة المملكة. وتسجل النقوش المصرية العائدة للفترة الواقعة بين القرنين السادس عشر والثاني عشر ق.م. وجود جماعة متشابهة من السكان المحليين في فلسطين، أطلق عليها اسم «عفرو» كجماعة من الرقيق والعمال الأسرى. وقد سجل الأثر المسمى نقش آمنوفيس (لوح مرنبتاح/إسرائيل [المؤلف])، أخذ ذلك الملك المصري مجموعات من الـ «عفر. و» كأسرى وأحضرهم إلى مصر، وهو ما يعني وجودهم في فلسطين وليس في مصر، زمن غزوة مرنبتاح (لوح إسرائيل).[٣]

---

[٣] زياد منى، جغرافية الجذور ... سبق ذكره، ص٧٣: ٧٥.

ولفترةٍ من الزمن تم الاعتقاد أن هذه الاصطلاحات على مختلف تنغيماتها، تشير إلى العبريين بمعنى الإسرائيليين تحديدًا كمجموعةٍ قبلية عُرفت في التوراة باسم «عبريم»، وهو الاسم الذي تكرر بالكتاب المقدس ٣٤ مرة. وإنه في عرف تلك المدرسة التي تربط بين خابيرو التاريخ وبين عبريي الكتاب المقدس، اسم يشير إلى مجموعةٍ جنسية إثنية محددة، انتسبت حسب قول الكتاب المقدس إلى جدٍ بعيد باسم عابر. خاصة أن التوراة تصف أرومة الإسرائيليين إبراهيم الخليل بأنه «ءبرم هـ عبري»، أو إبرام العبري في (سفر التكوين، ١٤: ١٣)، لكن الطريف أن النسخة السبعونية من التوراة، قد سجلت مصطلح عبري ٢٨ مرة فقط بفارق ست مرات عن النسخة المازورية؛ لأنه في تلك المرات الست كان يفهم أن عبريم تعني عبديم أي عبيد، أو تعني مجرد بدو أو مارة أو عابرين.»[٤]

ويقول «إيفارلسنر»: «إن اليهود شعبٌ سامي شأنهم شأن البابليين والفينيقيين والعرب، عاشوا في فلسطين في الأزمنة الغابرة، كما أنهم في الأصل بدو يعرفون بالعبرانيين.» ويُعقب على كلامه مترجم كتابه إلى العربية فيقول: «ظن بعض الباحثين ومنهم مؤلف هذا الكتاب (أي: إيفار لسنر) أن الاسم «عبر» هو نفسه الذي وُجد منقوشًا في لوحات تل العمارنة ... وفي الكتابة المسمارية بلفظ حابيري أو خابيري. وقد تكررت هذه التسمية في بعض كتابات الكشيين المسمارية البابلية في العراق، وفي نقوش حيثية عُثر عليها في بوغاز كوي بتركيا، كما وردت في بعض نقوش أمورية في حفائر نوزي بشمال العراق، لكن المحققين من العلماء يرفضون ارتباط كلمة عبري بالاسم حابيري.»[٥]

وللمزيد من التفاصيل نقرأ النص «No 190-EA» من رسائل تل العمارنة، وهو عبارة عن رسالة من حاكم أورشليم إلى سيده آمنحتب الثالث، أو ربما إلى ولده آمنحتب الرابع إختانون، يقول فيها:

إلى الملك مولاي،
هكذا يقول خادمك عبد خيبا (عبد هفا):
انظر إلى ما فعله ملك إيلو Milki Lu وشوارداتا Shuwardata

---

[٤] نفسه، ص٧٧.

[٥] إيفارلسنر، الماضي الحي ... سبق ذكره، ص١٣٨ (تعقيب من المترجم).

بأراضي الملك مولاي؟
لقد فعلوا بقواتٍ من جازر Gezer ومن جت Geth ومن كيلة Keilah وأخذوا أراضي روبوتو Rubutu، وأراضي الملك سُلمت إلى شعب العابيرو، حتى بلدة في أراضي أورشليم من أملاك سيدي اسمها بيت لحم Bit-Lahm قد أعطيت إلى كيله.
فليُصغِ مليكي لخادمة عبد خيبا، ويرسل قوات تعيد الأراضي الملكية لخادمة عبد خيبا، ويرسل قوات تعيد الأراضي الملكية إلى الملك.
وإذا لم تصل القوات.
فإن أراضي الملك ستغدو للعابيرو.[٦]

ومن جانبه يؤكد لنا «أحمد سوسة» أنه قد تم العثور حتى الآن على ست رسائل استغاثة موجهة إلى فرعون العمارنة، موجهة إليه من «عبد خيبا» واليه على أورشليم.[٧] ونعلم بعد ذلك أن هؤلاء العابيرو ظلوا يهاجمون أملاك مصر في فلسطين مدة طويلة، حيث تم العثور في موقع «بيت شان» على نُصب تذكاري تركه سيتي الأول ١٣٠٩–١٢٩١ق.م. ورغم ما لحق به من تلفٍ شديد؛ فإنه أمكن الإفادة منه بحدثٍ هام، هو أن الفرعون قد صد هناك هجمات للعابيرو قادمة إلى فلسطين عبر نهر الأردن.[٨]

وفي نصٍّ من مدينة «الالاخ» بشمالي الرافدين نجد ملكًا باسم «إبرم»، يعقد اتفاقًا مع الخبيرو ليكونوا جنودًا في جيشه (لاحظ أن إبرم هي إبرام هي إبراهيم)، وفي نصوص نوزي جدولة للمرتبات والملابس، التي كانت تصرفها مملكة نوزي للخبيرو، وفي منشورٍ رسمي للملك الحيثي حتوسيل الثالث إعلان عن رفض المملكة الحيثية، لاستقبال الخبيرو الهاربين من أوغاريت.[٩]

ثم يحيطنا «ماكلستر» علمًا أن تهديد أملاك مصر في الشام كان على يد عصاباتٍ آرامية، عُرفت في رسائل العمارنة باسم «السوتو والخبيرو»، ويُفترض أن قوةً ما ضاغطة دفعت أمامها الخبيرو والبولساتي (البلست/الفلسطينيين) من بلادهم الأصلية،

[٦] السواح، الحدث التوراتي ... سبق ذكره، ص٥٧.
[٧] أحمد سوسة، العرب واليهود ... سبق ذكره، ص١٤٩.
[٨] السواح، الحدث ... سبق ذكره، ص٦٤.
[٩] جارودي، فلسطين أرض ... سبق ذكره، ص١١٣.

ليتجهوا نحو بلاد فلسطين وبوادي الشام، ثم يشرح موضحًا مشكلة الخابيرو والعبريين قائلًا:

> وبعيدٌ أن يكون هذان الفريقان من الغزاة، واسمهما يكاد يكون واحدًا (يقصد الخابيرو والعبرانيين) منفصلين أحدهما عن الآخر تمام الانفصال. وإذا لم يكونا منفصلين فإن قصة الخبيرو، وعلى قدر ما تستخلص من رسائل تل العمارنة، تضاعف ما يوجه إلى قصة الخروج الواردة بالكتاب المقدس من نقد. فيجب أن نستنتج من الرسائل أن استعمار الخابيرو فلسطين، استمر بدون مقاومةٍ تُذكر (على عكس رواية الكتاب المقدس [المؤلف])، وأن الكنعانيين اضطروا آخر الأمر إلى قبولهم جيرانًا ثقلاء لا مفر من جيرتهم. فإذا كان الأمر كذلك، وإذا قلنا إن العبرانيين من نسل هؤلاء الخبيرو، فماذا يكون رأينا في قصة الخروج من مصر (يقصد الخروج زمن مرنبتاح)؟[١٠]

ماكلستر بذلك مثل آخرين يصر على أن العبرانيين بالكتاب المقدس، هم ذات الخبيرو بنصوص أركيولوجيا المنطقة.

لكنه سيواجه بذلك مشكلة.

فإذا كان العبرانيون هم الخابيرو، فكيف كانوا يهاجمون أملاك مصر في فلسطين زمن العمارنة (آمنحتب الثالث ١٤٠٥–١٣٦٧ق.م.، وولده إخناتون ١٣٦٧–١٣٥٠ق.م.)، كما ثبت من رسائل الاستغاثة المرسلة من حكام فلسطين إلى ملوك العمارنة؟ وهو وقت يفترض أنهم كانوا ما زالوا يقيمون فيه بمصر، حسب تزمين الخروج بزمن مرنبتاح؟! ولم يكونوا قد خرجوا من مصر بعدُ إلى فلسطين، حيث إن زمن مرنبتاح يقع بعد ذلك التاريخ بما يزيد عن قرنين.

هنا لا يفارق ماكلستر ما استقرَّ عليه ضميره العلمي، وقرر أن الخطأ بذلك لن يكون في علم التاريخ ووثائقه، وما وصل إليه العلماء بتحديد زمن مرنبتاح لحدث الخروج، إنما علينا بالبحث عن الخطأ في القصة التوراتية ذاتها وتزميناتها وربما تسمياتها، وما روته من أحداث حول الخروج.

---

[١٠] ماكلستر، الأقوام الجدد، ترجمة عبد الحميد يونس، المجلد الثاني من تاريخ العالم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت، ص٩٣.

لكن ما فات ماكلستر أن هؤلاء المؤرخين أنفسهم، الذين اعتمدوا على وثيقة لوح مرنبتاح، لتزمين الخروج إبَّان حكمه على مصر، قد بنوا حكمهم هذا على عنصرٍ توراتي إلى جوار العنصر الأركيولوجي، بحيث تطابق تزمين التوراة للخروج مع تزمين علماء الآثار والباحثين، وتمت وفق ذلك حسابات تستند إلى التوراة كالآتي:

تقول التوراة: «وأما إقامة بني إسرائيل التي أقاموها في مصر؛ فكانت أربعمائة وثلاثين سنة»، وذلك منذ دخول يعقوب وأبنائه الأسباط مصر، حتى خروج موسى وأتباعه من مدينة رعمسيس. يضاف إليها التواريخ التي وردت في سفر التكوين، بخصوص يوسف تحديدًا بعد أن دخل مصر حيث قضى في السجن عامين، وانقضت سبع سنوات من الخير، وسنتان من سنين القحط قبل وصول يعقوب وأولاده إلى السبط يوسف في مصر. وبذلك تكون المدة من دخول يوسف السجن إلى خروج موسى ٤٤١ سنة. فإذا أضفنا ٤٤١ سنة إلى أوائل حكم مرنبتاح، فسيؤدي بنا ذلك إلى زمن دخول الهكسوس مصر، أو بعد غزو الهكسوس بحوالي ١٥ سنة. وإذا طرحنا ٤٤١ عامًا من زمن دخول الهكسوس مصر، فسيفضي بنا ذلك إلى زمن مرنبتاح، وهكذا تمت مطابقة تزمينات التوراة مع تزمينات التاريخ، لكن ظلت المشكلة قائمة: كيف كان العبريون يقومون بغزو فلسطين زمن آمنحتب الثالث والرابع، بينما لم يكونوا قد غادروا مصر فعلًا زمن مرنبتاح، الذي يقع تاريخيًّا بعد غزوهم فلسطين بحوالي قرنين من الزمان؟

على أية حال علينا الآن أن نتابع ما وصلنا من علم التاريخ، بشأن الخابيرو حتى نكون على بينةٍ واضحة، أو نجد ما يفصح عن حل ذلك اللغز المحير.

لقد تأكد تاريخيًّا أنه في فترةٍ قصيرة أيام حكم العمارنة تحولت «ميتاني» عن ولائها لمصر، وأخذ ملكها عبدى شراتا «عبد شري» و«شري» هو الإله الذي أوضحنا أمره في مديان وليس في «ميتاني» المزعومة أعالي الرافدين، ومن بعده ولده «عزيرو»، بالتوسع على حساب أملاك مصر في فلسطين والشام، وأنهم من أجل ذلك قد دخلوا في تحالفٍ مع الخابيرو، وقاموا بغزو أراضٍ في فلسطين،[١١] وهو ما يلخصه لنا عالما المصريات «شتيندورف» و«سييل» في قولهما:

> وإلى الجنوب من فلسطين لم يكن الموقف أفضل من ذلك، فهذه المنطقة أيضًا لم ينقصها الأمراء الشغوفون بانتهاز فرصة الضعف المصري، لنيل استقلالهم

[١١] شتيندورف وسيل، عندما حكمت ... سبق ذكره، ص٢١٦.

> أو توسيع ممتلكاتهم الخاصة، ووجدوا حلفاء جاهزين في الخابيرو والبدو، الذين يعرفون باسم سوتي Suti، أما الملحقات الموالية ومنها أورشليم، فقد حاولوا عبثًا الحصول على مساعدة البلاط المصري، وأخذوا يتوسلون إلى الملك من أجل «العناية بأراضيه، كل أراضي الملك قد انفصلت. الخابيرو ينهبون كل أراضي الملك، إذا لم تأتِ القوات هذه السنة بالذات، فإن كل أراضي الملك سوف تضيع.» ولم تصل التعزيزات المطلوبة مطلقًا، واستطاع الخابيرو اجتياح كل ممتلكات الملك بدون عائق، وحل اليوم الذي «ضاعت فيه كل منطقة الفرعون».[١٢]

هذا وبينما يعرض لنا جاردنر غارة آمنحتب الثاني ١٤٣٦–١٤١٣ق.م. على فلسطين، يؤكد على إشارة وردت لقبائل باسم عابيرو، متحالفة مع أعداء لمصر باسم شاسو والحوريين، ثم يعقب شارحًا للفظة عابيرو: «وقد نوقش هذا المصطلح كثيرًا ... فمنذ سنوت قليلة مضت كان هناك من يؤكد أن هؤلاء الأقوام هم أنفسهم العبرانيون في التوراة، لكن هذا الرأي لا يتقبله اليوم سوى قلة من العلماء. إن الخابيرو الذين جاء ذكرهم في ألواح العمارنة، يبدو أنه اصطلاح شامل، أُطلق على المنبوذين أو العصابات التي لا تنتسب إلى أية مجموعةٍ جنسية محددة.»[١٣]

وهكذا، وبكل بساطة تم حل مشكلة العابيرو، وإذا كان وجودهم على حدود فلسطين زمن آمنحتب الثالث وولده إخناتون سيسبب أرقًا ومشكلة، في حال احتسابهم هم ذات الإسرائيليين الذين خرجوا من مصر، فليكن الحل: إن هؤلاء ليسوا هم أولئك؟ وأن المسألة مجرد تشابه أسماء؟! فإن سألنا: من هم إذن الخابيرو تحديدًا إذا لم يكونوا هم العبريين أو الإسرائيليين؟ فإن الإجابة السهلة: هم مجرد شوارد قبائل وشذاذ آفاق، وعصابات لا تنتسب لعنصرٍ بشري معروف. ويصبح الأمر كما لو أن عبريي التوراة شعب ذو عنصر بشري معروف، أما الخابيرو فليسوا كذلك، وإنهم ليسوا عبريي التوراة؟!

لكن ذلك الأمر فيه نظر؛ لأنه إذا كان الكتاب المقدس، قد أوعز بأن الإسرائيليين نسل عبراني وكلاهما واحد، فإنه في مواضع أخرى يهمس بنتيجةٍ مخالفة تمامًا لمن ينقب

[١٢] الموضع نفسه.

[١٣] جاردنر، مصر الفراعنة ... سبق ذكره، ص٢٢٧.

فيه، وهي أن العبريين ضموا مجموعة قبائل وشعوب متنافرة كانت تنتقل في بداوتها شرقي المتوسط، ومن ثم نراهم من جانبنا عنصرًا من عناصر الحلف الهكسوسي القديم، بينما الكتاب المقدس من جانبه تحول بفكرة الحلف إلى بديلٍ قرابي، فوضع سلسلة نسب تجمع مجاميع بشرية متنافرة في جماعةٍ واحدة وجنس مميز، كما لو كان شعبًا واحدًا من الأزل.

ورغم أن سفر التكوين يضع شخصية أساسية باسم عابر، سلفًا لكل بني عابر أو العبريين، ويضع ضمن العبريين شعبًا من جنوبي جزيرة العرب هم اليقطانيون أو القحطانيون، الذين أصبحوا يعرفون بعرب الجنوب العاربة، أي الأصلاء في العروبة، فإنه في المقاطع «١٠: ٢١–٢٩» لا يصف يقطان/قحطان وأبناءه بأنهم عبريون. ولو كان عابر هذا ساميًّا حقًّا هو ونسله من بعده، لكان وصفه «عابر السامي» نسبة إلى جده سام، حسب الشجرة التوراتية. وليس كما وصفه بنسبته إلى أحفاده وتعريفه بأنه «أبو كل بني عابر، وهناك حوالي ٢٥ قبيلة أو شعبًا، احتسبتها التوراة من بني عابر، ولم تُوصَف واحدة منها ولو مرة واحدة بأنها عبرية.» ونتذكر هنا تأكيد هروشيوش أن بلاد آدوم، كان يعيش فيها نحو ثمانية وعشرون جنسًا، ومن هنا يستنتج زياد منى «أن النصوص التي تشير إلى جد أعلى باسم عابر، هي إضافات لاحقة من المحرر التوراتي.»[١٤]

ثم يجمع «منى» معاني كلمة «عبر» من مصادر اللسان العربي لينتهي إلى أنها تعني الارتحال مطلقًا، فهي «القطع من مكانٍ لآخر، الإبل القوية على السير، الجريء على الأسفار القوي عليها، الكثير من كل شيء، وغلب على الجماعة من الناس، السحائب تسير سيرًا شديدًا» ويعقب: «إن هذه المصطلحات أو المفردات تحمل مضمون الحركة في معانيها»،[١٥] وهو ما يلتقي تمامًا مع ما انتهينا إليه من معاني الاصطلاح المصري القديم «شاسو» الذي يعني الارتحال مطلقًا.

ويقرن منى بين العبري والغبري ليجمع من المعاجم ما أفاد به علم التاريخ عن أسلوب حياة وعمل الخابيرو، فيقول: «تفيد المراجع المتخصصة أن بني غبراء، هم الغرباء الصعاليق المحاويج الفقراء.»[١٦] الأمر الذي ينجلي عن تعبير التوراة «تائه» في النص

---

[١٤] زياد منى، جغرافية ... سبق ذكره، ص٨٢.

[١٥] نفسه، ص٨٥.

[١٦] نفسه، ص٨٩، ٩٠.

«آراميًّا تائهًا كان أبي»، كما ينجلي عن تكرار قول إبراهيم، في كل محطة كان ينزلها بعد ارتحال، أنها أرض «غربته»، وحتى اليوم نجد في لسان عرب الخليج والجزيرة، «العبري» هو المسافر العابر غير المقيم، و«العبرية» هم المسافرون.

ثم يعقب منى بالقول:[١٧] «إن النصوص التي تحوي قوائم الأجداد مشكلة من عدة رواياتٍ متباينة المحتوى، أدمجت ببعضها البعض بهدف نقل الانطباع بوحدة الرواية، وبوحدة أصول شعب التوراة.» ثم يطابق «منى» بين الصفات التي عرفها علم التاريخ عن هذه الجماعة كشذاذ آفاق، يعيشون على السلب والنهب والحركة الدائبة، وبين ما جاء في التوراة من تصوير لحياة الأسباط في وصف جماعة داود، بأنها تتكون «من كل رجل متضايق وكل مديون وكل رجل مُر النفس».[١٨]

ومن هنا ينتهي «منى» إلى أن الكتاب المقدس، قد وظف المصطلح «عبري» للدلالة على تحالفٍ إعرابي قبلي، وأن محرري الكتاب المقدس لم يعرفوا معنى المفردة، فتمثلوها في شخصٍ باسم عابر، أدخلوه في قوائم الآباء الأولين. والحقيقة أنه ليس هناك مجموعة جنسية إثنية متميزة باسم العبريين.[١٩]

أما سليم حسن؛ فيوضح باختصارٍ أنه «كان أول ظهور للخابيرو في التاريخ في ميسوبوتاميا (الرافدين القديم [المؤلف])، حوالي نهاية الألف الثالث ق.م. وقد كان لهم اتصال وثيق بالحورانيين ... وفي حين أن غالبية الخابيرو ساميون، فإنهم كانوا في العادة على اتصالٍ مباشر بالعنصر الحوراني (وهو عنصر هندوآري عند سليم حسن [المؤلف]) المنتسب إلى الهكسوس.[٢٠]

وحول هذا الاختلاط الجنسي الغريب بين السامي والهندوآري عند الهكسوس، يشرح «شتيندورف» بقوله: «من المحتمل أن الهكسوس لم يكونوا شعبًا واحدًا متجانسًا. أما العنصر الغالب فيهم فكان ساميًّا لا شك، وأُضيفت إليه عناصر أخرى ربما منها الحوريون، وهم أقوامٌ قديمة كانت تسكن شمال بلاد الرافدين «(يقصد موضع «ميتاني» المزعوم في الرافدين الأعلى [المؤلف]).[٢١]

---

[١٧] نفسه، ص٨١.

[١٨] نفسه، ص٧٨، ٨٨.

[١٩] نفسه، ص١٠٥.

[٢٠] سليم حسن، مصر القديمة، سبق ذكره، ج٤، ص١٩٥.

[٢١] شتيندورف وسيل، عندما حكمت ... سبق ذكره، ص٤٠.

وعن مواجهة آمنحتب الثاني للشاسو والحوريين والخابيرو السالفة الإشارة إليها، نسمع لباحثٍ يقول:

«وعند وفاة تحتمس الثالث ورثه ابنه آمنحوتب الثاني المشهور بقوته الجسمية الخارقة، وخلال حكمه ١٤٣٦–١٤١٣ق.م. قام بحملتين على بلاد الشام، شن الأولى منهما على أواسط سورية الحالية، حيث دمر وقتل وأسر. وإثر عودته لمصر أخذ بعض أمراء فلسطين، يدربون بعض الكنعانيين الشاسو والعابيرو، ويستعدون للثورة على الفرعون، بعدما تحالفوا مع الحوريين المنتشرين حول نهر الخابور (لاحظ أن الباحث هنا كبقية المؤرخين، يذهب بموضع الحوريين إلى «ميتاني» المزعومة بين الفرات والخابور شمالًا [المؤلف])، فعاد آمنحتب الثاني إلى الشام ووصل إلى بحيرة طبرية، واستولى على مجموعةٍ من المدن الفلسطينية.»

ثم يتابع «وتراخت قبضة المصريين على الشام، إبان انشغال إخناتون بثورته على الوثنية والشرك، فأخذ الحيثيون من عاصمتهم خاتوشا الواقعة في الأناضول إلى الشرق من نهر الهاليس، يحرضون عبدي شراتا، وهو ملك أموري «ميتاني» من الطرف الشمالي لسورية (نكرر هنا نفس الملاحظة السابقة [المؤلف]) على الثورة ضد النفوذ المصري الآخذ بالتراخي في بلاد الشام. وأخذ عبدي شراتا هذا يزحف ويحاصر المدن في حوض نهر العاصي وسواحل سوريا، ولا سيما حماة وأرواد. وبالمقابل تشكل في بلاد الشام حلفٌ موالٍ للفرعون، بزعامة رب عدي ملك جبيل. ويتألف من بيروت وصيدا وصور وعكا فضلًا عن جبيل ... وحين شاخ عبدي شراتا أو مات، ورثه ابنة عزيرو الشاب الداهية الطموح. زحف عزيرو جنوبًا بعدما تحالف مع الحيثيين، وكذلك مع قبائل الخابيرو أو العابيرو، التي تحترف القتال كمرتزقة؛ إذ هي تحارب لكل من يدفع لها، فوصل إلى جبيل التي آثر ملكها رب عدي الموالي لمصر، أن يموت على أن يخون سيدة الفرعون.»

وهنا علينا أن نلاحظ النغمة التي استقرت لحل مشكلة الخابيرو، فأصبحوا في كتابات الباحثين مجرد مرتزقة يعملون لمن يدفع.

ونتابع الباحث وهو يردف قائلًا: «وتوالت الرسائل من ملوك الشام على آمنحتب الثالث وعلى ابنة إخناتون، تطلب النجدة من مصر ضد قوات عبدي شراتا وابنه عزيرو. وهذه ضمن رسائل تل العمارنة المشهورة، التي اكتشف منها زهاء ٣٧٧ رسالة. ومن دهاء عزيرو أنه قد أخذ يراسل الفرعون هو الآخر، وأقسم له بأغلظ الأيمان أنه وحده المخلص للملك، وأن جميع الأمراء الذين شكوه إلى مولاه، ليسوا إلا كذابين وغير مخلصين

للعاهل المصري. لكن عزيرو زحف جنوبًا (هنا يفترض الباحث أن عزيرو ملك على «ميتاني» المتموضعة زعمًا شمالاً بين الفرات والخابور [المؤلف])، وأنه قام يزحف من هناك نحو الجنوب، بعدما ضم إليه مُلك قادش (يفترض الباحث هنا أن قادش المقصودة هي فادش نهر العاصي، وليس قادش سيناء [المؤلف])، فوصل إلى شمال فلسطين وضمه إلى دويلته. وفجأة تواجهك رسالة من رسائل العمارنة، مفادها أن الخابيرو قد احتلوا شكيم قرب نابلس الحالية، وأنهم ضربوا الحصار على القدس، وأن حاكم القدس عبد خيبا (عبد هفا) كاتب الرسالة، يستنجد بمولاه الفرعون إخناتون. ولا يعرف أحد كيف وصل الخابيرو إلى شكيم ثم القدس، هل عبروا مرج بني عامر واحتلوا شكيم عام ١٣٦٠ق.م. أم أنهم زحفوا من الجهة الشرقية لنهر الأردن، والتفوا على المصريين من الجنوب؟ وأرسلت مصر القائد حور محب وخاض معركتين، على الأرجح أنهما كانتا صغيرتين ومخففتين.»[٢٢]

وهكذا نجد الخابيرو قد دخلوا فلسطين بالفعل، لكن المحبط في محاولة الفهم أن نجدهم ما زالوا بمصر زمن رمسيس الثاني ١٢٩٠–١٢٢٤ق.م. فهناك رسالة من الكاتب «كويسر»، موجهة إلى الموظف «بكنبتاح» تحمل أمرًا يقول:

«أعطِ الجنود قوتهم، وأعط أيضًا العبيرو الذين ينقلون الحجارة لبناء الملك رع موسى.» ورسالة ثانية من «كينا» إلى «كجناهو» يقول فيها: «أطعت ما أمرني به سيدي قائلًا: أعطِ الجنود أرزاقهم والعبيرو أيضًا، الذين ينقلون الحجارة لهيكل الشمس، الذي انصرفت إليه عناية رع موسى (رعمسيس).»[٢٣]

وفي نصوص أوغاريت نجد ملحمة «كارت ملك صيدون» الهبيرو حراسًا للملك، ويوصفون في Cis-Ktu, 1.5، بأنهم قوة عظيمة وجبارة، وأن الشريحة العليا منهم حملت لقب الجبابرة.[٢٤]

وبين هؤلاء الحراس الذين يسمون «ناس الملك» نجد شرائح متعددة تحمل ألقابًا متعددة، مثل «ماريانو» و«ماجاروخلي» و«سانانو» و«عشيرو». و«عشيرو» في رأينا هي «أشيرو»، التي يمكن أن تشير إلى السبط «أشير»، أحد الأسباط الاثني عشر. وقد أقيمت

[٢٢] يوسف سامي، تاريخ فلسطين ... سبق ذكره، ص٤٤، ٤٥.

[٢٣] سوسة، العرب واليهود ... سبق ذكره، ص٢٨٣.

[٢٤] شيفمان، أوغاريت ... سبق ذكره، ص٢٧.

في أوغاريت أحياء خاصة للخابيرو مثل «خالابو» و«أبيريما». ومن جانبٍ آخر يوضح اللوح PruIV, 17. 238 أنه كانت توجد في بلاد الحيثيين منطقة مخصصة لسكنى فئة «الأبيرو».[٢٥]

والآن نرتب ما بيدنا من أوراقٍ حول مشكلة الخابيرو.

أولًا: الظهور الفصيح للخابيرو في نصوص المنطقة، كان في رسائل تل العمارنة القادمة من فلسطين، تستنجد بالملك آمنحتب الثالث وبولده آمنحتب الرابع/إخناتون. وتطلب قوات مصرية لصد هجوم الخابيرو على الممالك الفلسطينية التابعة للإمبراطورية المصرية حينذاك. فإذا كان الخابيرو هم العبريين الإسرائيليين؛ فإن ذلك — كما أسلفنا — سيُحدث مفارقةً لا تلتئم مع أهم نظريات الخروج، وهي النظرية السائدة التي تقول بخروجهم زمن مرنبتاح؛ لأن ذلك يعني أن العبريين — إذا كانوا هم الخابيرو — قد خرجوا من مصر قبل زمن آمنحتب الثالث بحوالي أربعين سنة أو يزيد قليلًا. وهي المدة التي حددها المقدس التوراتي لبقاء الإسرائيليين في سيناء، بعد خروجهم من مصر وقبل غزوهم فلسطين، والمعنى هو: كيف نفسر وجودهم زمن آمنحتب الثالث أو الرابع في تشكيلٍ هجومي على فلسطين قبل خروجهم زمن مرنبتاح بحوالي ١٧٠ عامًا أو يزيد؟

ولو اعتمدنا النظرية التي تقول بخروجهم زمن حتشبسوت، فسنجد أيضًا خطأً صارخًا؛ لأن معنى ذلك أن يستغرق العبريون ما يزيد على ١٢٠ سنة من خروجهم من مصر، وحتى نجدهم يهاجمون مدن فلسطين زمن آمنحتب الثالث. وهو زمنٌ طويل جدًّا للسفر بين مصر وإسرائيل، بينما كان تحديد التوراة لذلك الزمن بأربعين عامًا في التيه، يعد زمنًا طويلًا جدًّا في نظر الباحثين، حتى رفضه بعضهم تمامًا، واعتبروه تلوينًا أسطوريًّا.

ثانيًا: حسب قصة التوراة أن موسى قد مات على أبواب فلسطين في جبل نبو شرقي الأردن، وقام تلميذه يشوع بن نون بقيادة جحافل الغزاة، وعبر الأردن من الشرق إلى الغرب، وقام بتدميرٍ شامل لمدينة أريحا حتى سواها بالأرض، وتركها كومًا خرابًا. وبالفعل أثبتت حفائر الأركيولوجية كاثلين كانيون، التي قامت بدراسة طبقات الأرض

---

[٢٥] نفسه، ص٢٤.

تحت أريحا، أن أريحا قد تم تدميرها مرتين: المرة الأولى عند طرد الهكسوس من مصر، على يد الفراعنة، باعتبارها كانت أحد مراكز الهكسوس الحصينة. أما المرة الثانية فالمفترض أن الدمار قد حدث فيها بفعل يشوع ورجاله الخارجين من مصر؛ فإن البحث الدقيق أثبت أنه قد حدث قبل زمن مربنتاح بحوالي قرن ونصف القرن من الزمان أو يزيد.[٢٦] وهو ما يضيف مزيدًا من الإلغاز والغموض، على قصة الخروج الإسرائيلي من مصر وعلى لغز الخابيرو. فإذا كان الخروج قد حدث زمن مرنبتاح، فلا بد أن يكون دمار أريحا قد حدث بعد زمنه بحوالي أربعين عامًا هي زمن التيه، لكن ما أكده البحث الأركيولوجي أن ذلك الدمار قد حدث قبل زمن مرنبتاح بأكثر من قرنٍ ونصف، وهو ما يعيدنا مرةً أخرى إلى زمن الخابيرو، الذين كانوا يهاجمون فلسطين زمن آمنحتب الثالث وولده إخناتون، وهو ما عبر عنه كاسيدوفسكي بإيجازٍ بليغ يقول:

> إذا كانت القبائل اليهودية القديمة العبرية هي المقصودة بالخابيرو؛ فإن رسائل العمارنة تعطينا برهانًا على أنها دخلت أرض كنعان، قبل وصول الإسرائيليين إليها من مصر بحوالي قرن ونصف القرن.[٢٧]

وهنا بدأت محاولات التوفيق، أو على الأصح التلفيق.

جاردنر مثلًا وآخرون ساروا مساره، يقولون إن الخابيرو مجرد شذاذ آفاق، لا علاقة لهم بالعبريين أو بني إسرائيل، أما وادل Wadle فله رأيٌ آخر في كتابه Israel and Babylon، يقول: إن دخول القبائل الغازية إلى فلسطين من سيناء وبوادي الشام، كان أمرًا مألوفًا طوال التاريخ. ثم يفترض أن الخابيرو كانوا مثل تلك القبائل الغازية، لكنهم ليسوا هم العبريين تحديدًا، لكن ما حدث أن أحدهما قد احتضن الآخر!»[٢٨] هكذا!

---

[٢٦] جارودي، فلسطين أرض: ص٦٨، ٦٩، ١٠٦، ١٠٧، انظر أيضًا: أحمد عثمان، تاريخ اليهود ... سبق ذكره، ج١، ص١١٤، ١١٥.

[٢٧] كاسيدوفسكي، الواقع والأسطورة ... سبق ذكره، ص١٢٢.

[٢٨] روبنسون، إسرائيل في ضوء ... سبق ذكره، ص١٠٧.

أما الأركيولوجيست «كاثلين كانيون»؛ فقد اعتمدت على مناقشات «دي فو Devau»، حول وجود طريقين محتملتين للخارجين من مصر تحت قيادة موسى، الأول يسير بحذاء المتوسط على الساحل السينائي الشمالي، والثاني يهبط لعمق سيناء ويعبر آدوم من جنوبها إلى فلسطين من شرقها. ومن هنا تقدم كانيون حلها لمشكلة وجود الخابيرو على حدود فلسطين، وفي نفس الوقت لم يكن حدث الخروج قد وقع بعد، أن هناك خروجين للإسرائيليين من مصر قد حدثا: الأول اتخذ طريق الساحل (طريق حورس الحربي بحذاء البحر المتوسط)، ودخل فلسطين من جنوبها الملاصق للحدود السينائية، والثاني اتخذ طريقه عبر آدوم والتف من شرقي الأردن، وعبر نهر الأردن إلى فلسطين من شرقه إلى غربي الأردن.

والآن وبعد العمر الذي قضيناه وراء محاولات حل ألغاز التاريخ، هل بالإمكان العثور على حل لا يجيز لباحثٍ آخر أن يصفه بأنه تلفيقي؟ للوصول إلى الحل المرتجى علينا أولًا أن نقف مع إشاراتٍ ضرورية تمهيدية.

لا يفوت لبيب ذكر ملك باسم إبرام، يعقد اتفاقًا مع الخابيرو؛ ليكونوا جنودًا في جيشه. وكما ألمحنا هو اسم إبراهيم بالتوراة، وإن كنا لا نعني أنهما نفس الشخص، إنما أقصى ما نقصده أن الاسم إبرام التوراتي كان منتشرًا بين الخابيرو، مما يدعم فكرة أنهم كانوا هم ذات العبريين الذين ينتمي إليهم البطرك التوراتي إبرام/إبراهيم. ومن الصعب تصور أن شعبين يحمل كل منهما نفس الاسم، ودخل كل منهما مصر، وخرج كل منهما من مصر، وأن كليهما كان يهاجم فلسطين، دون أن نشك شكًّا قويًّا في القول، أنهما كانا شعبين منفصلين!

ثم نلحظ بشدةٍ أن الحلف الذي ذكرته رسائل تل العمارنة، بين الخابيرو والسوتي وأنها وصفتهم بالعصابات الآرامية، ونتذكر أن السوتي تعني الستيين نسبة إلى ست، وهو ما يدعم ما قلناه حتى الآن، ويضع العبريين في مكانهم الجغرافي الذي حددناه، ومكانهم الزماني الذي نوشك الآن على تحديده.

وقد علمنا منذ هنيهاتٍ أن ملوك «ميتاني» بأعالي الرافدين، حسبما يذهب المؤرخون الذين تحالفوا مع الخابيرو، كان بينهم الملك عبدي شراتا أو «عبد الشرى»، بينما سبق وتأكد لنا أن الشرى هو رب الشراه أو السراه/عسير ببلاد آدوم، مما يعني وجوب قراءة تلك النصوص منسوبة إلى جغرافية آدوم، وليس إلى جغرافية الرافدين الأعلى. وتقول تلك

النصوص إنهم أخذوا بالتوسع على حساب الإمبراطورية المصرية في فلسطين والشام. وهنا علينا أن نتذكر أن موسى عندما خرج من مصر مع أتباعه، لم يتخذ طريق حورس الحربي السريع على ساحل المتوسط نحو فلسطين، إنما انحدر جنوبًا في رحلةٍ شاقة طويلة ليس لها مبرر سوى نظريتنا، حيث يمكنه ذلك الطريق من اللحوق بحلفائه في بلاد مديان، أنسبائه وأهل زوجته صفورة.

والحصافة تجعلنا نقف مع إشارة آمنحتب الثاني إلى مهاجمة أعداء مصر الذين حدد أسماءهم: شاسو، حوريين، عبيرو، نتذكر أن خروج الهكسوس من مصر إلى مواقعهم القديمة حول آدوم، حدث بعد تفكك حلف الهكسوس على يد أبطال التحرير المصريين، لكن ليتجدد هذا الحلف جزئيًّا مرةً أخرى لمهاجمة البلاد الفلسطينية، عبر تحالفٍ جديد للقبائل وصل إلى تحالف عزيرو المدياني مع الحيثيين في أقصى الشمال. أما اسم عزيرو نفسه؛ فليس اسمًا حوريًّا هندوآريًّا يمكن إرجاعه إلى المملكة الميتانية الآرية المزعومة شمالي الرافدين، بقدر ما هو اسم سامي قح يليق بمديان، وتليق به آدوم، والعربان به أليق.

وقد مر بنا باحثٌ مجتهد يعجب بشأن «ميتاني»، التي أصبحت تحمل اسمًا آخر هو أمورو (نسبة إلى أموريين؟!) لأن الأموريين حسب التاريخ التقليدي لا علاقة لهم بالميتانيين، ثم يعجب ثانيًا من كيف وصل حلفاؤهم الخابيرو إلى شكيم ثم القدس؟ ويتساءل: هل عبروا مرج بني عامر واحتلوا شكيم؟ أم أنهم زحفوا من الجهة الشرقية لنهر الأردن، والتفوا على المصريين من الجنوب؟ إن السؤال برأينا هو الخطأ؛ لأن صاحبه يأتي بالخبيرو من الفرات الأعلى والخابور، حيث موضع «ميتاني» المزعوم؛ لذلك يستعصي الحل ويصبح لغزًا، لكنه يصبح سهلًا مفهومًا تمامًا لو جاء بهم من آدوم. وهنا نستمع إلى زياد منى الذي ذهب إلى اليمن وعسير يموضع هناك بلاد إسرائيل، لكن ليعود معنا في عبارةٍ عابرة إلى الموضع الذي حددناه، لكل تلك الأحداث في بلاده شراة سعير عند العقبة ووادي عربة حيث الشرى في بلاد آدوم، فيقول عن قبائل لم تزل موجودة حتى اليوم، في لمحةٍ خاطفة تحكي أن «قبيلة عبرة من الشرى من زهران بن كعب ومقرهم بلاد السراة، وبنو عريب من قبائل حمير التي عرفتها في مؤلفي آنف الذكر، بأنها هي آدوم التوراتية.»[٢٩]

---

[٢٩] زياد منى، جغرافية ... سبق ذكره، ص١٠٢.

واضح إذن أننا مع الرأي القديم الذي عفا عليه الزمن وأهمله الباحثون تمامًا، نحن مع كون العبريين التوراتيين هم ذات عين الخابيرو والتاريخيين، وأنه كان اسمًا عامًّا على البدو الرعاة المتنقلين قطاع الطرق المرتزقة النهابين. لكن ذلك يعني ضمن ما سيعني أن الخابيرو لم يخرجوا أبدًا زمن الفرعون مرنبتاح، بل خرجوا قبل زمن العمارنة؛ لأنهم في زمن العمارنة قد وصلوا بالفعل إلى مهاجمة فلسطين. وبدأت رسائل الاستغاثة تتواتر من حكام فلسطين إلى العمارنة، وهو ما يعني أنهم قد خرجوا قبل زمن العمارنة بزمان. أما الأكثر إدهاشًا لنا قبل القارئ، هو توصلنا إلى أن الخابيرو التاريخيين الذين هم عبريو التوراة، ليسوا إطلاقًا بني إسرائيل على التدقيق، إنما كان بنو إسرائيل بطنًا حليفًا ضمن الأخلامو لا أكثر، وهو ما سنحاول إقامة الدليل عليه الآن.

بإجراء الحسابات الزمنية المقارنة بين التوراة وبين تزمينات التاريخ المصري، لا يمكن الذهاب بحدث الدخول الإسرائيلي إلى مصر أبعد من زمن الهكسوس، كما لا يمكن أيضًا التقدم به بعد زمن مرنبتاح. وقد تم ذلك التحديد بناء على توافقٍ واضح بين زمن الملك سليمان وابنه رحبعام ملوك الدولة الإسرائيلية الموحدة، وزمن الفرعون الذي جاء ذكره بالكتاب المقدس «شيشق»، الذي قاد حملةً كبرى على مملكة إسرائيل الموحدة في العام الخامس لحكم رحبعام بن سليمان. وهو الاسم الذي يطابق في التاريخ المصري القديم اسم الفرعون «شيشنق» أول ملوك الأسرة الثانية والعشرين، الذي حكم حوالي ٩٤٥–٩٢٤ق.م. إذ يقول الكتاب المقدس:

> وفي السنة الخامسة للملك رحبعام، صعد شيشق ملك مصر إلى أورشليم، وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك، وأخذ كل شيء وجميع أتراس الذهب التي عملها سليمان.
>
> (ملوك أول، ١٤: ٢٥، ٢٦)

وهذا الحدث الذي حكته لنا التوراة قد تأكد، بما جاء في حوليات الفرعون شيشنق، التي سجلت له جدولًا بالمدن التي انتصر عليها في بر الشام وإسرائيل. ولما كان الكتاب المقدس يؤكد أن الإسرائيليين، قد قضوا ما بين زمن خروجهم من مصر إلى آخر زمن بناء الهيكل زمن سليمان، حوالي ما ينوف على أربعة قرون، تحت حكم القضاة القبلي قبل قيام مملكة إسرائيل الموحدة، التي حكم عليها شاول ليتبعه داود ثم ولده سليمان.

فالكتاب المقدس يقول:

> وكان في سنة الأربعمائة والثمانين لخروج بني إسرائيل من أرض مصر، في السنة الرابعة لملك سليمان على إسرائيل في شهر زيو وهو الشهر الثاني، أنه بنى البيت للرب.
>
> (ملوك أول، ٦: ١)

وفق هذه الحسابات — ومع بعض التجاوزات — يجب أن تقع افتراضات الخروج، في الفترة الزمنية الواقعة بين تحتمس الثالث ١٥٠١–١٤٤٧ق.م. مرورًا بمشاهير الأسرة الثامنة عشرة: آمنحتب الثالث ١٤٠٥–١٣٦٧ق.م. وولده إخناتون ١٣٦٧–١٣٥٠ق.م. وربما حتى زمن رمسيس الثاني ١٢٩٢–١٢٢٥ق.م. وولده مرنبتاح ١٢٢٥–١٢١٥ق.م.

ولما كان الكتاب المقدس قد حدد مدة بقاء الإسرائيليين في مصر بزمن يصل إلى ٤٣٠ عامًا، فيجب أن يكون زمن الدخول إلى مصر قد حدث قبل الخروج بـ ٤٣٠ عامًا، مما يعني أنه لو تحدد لخروجهم زمن أيام حكم أي فرعون من الأسرة الثامنة عشرة، فيجب علينا للعثور على زمن الدخول، أن نتعمق في التاريخ قبلها بما يزيد على أربعة قرونٍ كاملة.

ولو اعتمدت حساباتنا على معطيات المقدس تلك، فيجب أن يكون الإسرائيليون قد دخلوا مصر حوالي ١٨٥٥ق.م. أي زمن الدولة الوسطى، وبالتحديد بعد حكم الفرعون سنوسرت الثاني ١٩٠٦–١٨٨٧ق.م. قبل دخول الهكسوس مصر بحوالي قرنين وربع القرن من الزمان. وهو ما أخذ به باحثون مثل إيمانويل فليكوفسكي في كتابه «عصور في فوضى». ولو أخذنا بتقديرات التوراة الزمنية، وذهبنا مع أبعد الافتراضات البحثية لزمن الخروج — لكنه أضعفها — بالعودة إلى أيام الفرعونة حتشبسوت ١٤٩٠–١٤٨٠ق.م. فإن الدخول يكون قد حدث حوالي ١٩٥٠ق.م. وهو زمن سنوسرت الأول الذي حكم في الدولة الوسطى حوالي ١٩٨٠–١٩٣٥ق.م. ولو أخذنا بتزمين الخروج زمن مرنبتاح بن رمسيس الثاني في الأسرة التاسعة عشرة، فسيكون الدخول قد حدث كما أسلفنا حوالي ١٢٢٤ + ٤٣٠ = ١٦٥٤ق.م. بعد احتلال الهكسوس لمصر بعقدٍ أو عقدين من الزمان، أو يكون بنو إسرائيل هم ذات عين الهكسوس، وهو ما قاله المؤرخ الإغريقي يوسفينوس، وهو القول الذي يستبعده المؤرخون، بعد الكشوف التي تراكمت، لتفتح الباب لفروضٍ أخرى بعيدة عن فرض يوسفيوس. وبشأن ذلك يلخص روبنسون موقف علم التاريخ

من رأي يوسفيوس، فيقول روبنسون: «يرى يوسفيوس أن قصة الخروج هي الرواية العبرية لحوادث الهكسوس، وأخذ البعض برأيه أحيانًا، بيد أن اختلاف التواريخ يبلغ من الكثرة حدًّا لا يجوز معه أن نقول بأن هذه الحادثة هي عين تلك؛ لأن مائتي سنة على الأقل قد انقضت بين إجلاء الهكسوس وبين فتح العبريين فلسطين.»[٣٠]

إلا أن وجه الإشكال الحقيقي في كل هذا، أن تزمينات التوراة نفسها يشوبها شكٌّ كبير، سواء في تقدير الزمن ما بين الخروج وحتى قيام الدولة السليمانية وهو ٤٨٠ سنة، أو زمن البقاء في مصر وهو ٤٣٠ سنة. أما مأساة أي باحث هنا فإن كليهما ضرورة أساسية لتحديد زمن الدخول والخروج، وليس لدينا أية مصادر أخرى بديلة غير التوراة بهذا الشأن.

وقد تكررت شهادات التوراة التزمينية بهذا الصدد، فهناك نص يتحدث فيه الرب مع صديقه إبراهيم، يقول له فيه:

> اعلم يقينًا أن نسلك سيكون غريبًا في أرضٍ ليست لهم، ويستعبدون لهم فيذلونهم أربعمائة سنة.
>
> (تكوين، ١٥: ١٣)

والتعبير في النسخة العبرية «ودور ربيعى يشبوا هنا»، يعني أنهم في الجيل الرابع يرجعون إلى هنا، وهو ما يطابقه قول آخر بالتوراة، وهو أن بني إسرائيل عندما دخلوا مصر تناسلوا هناك لأربعة أجيال فقط، ثم خرجوا من مصر، فهي ترصد سلالة النبي موسى لتعيده إلى جده السبط لاوي شقيق السبط يوسف؛ إذ أنجب لاوي قهات، وأنجب قهات عمران، وأنجب عمران موسى، وموسى خرج بالإسرائيليين من مصر (؟!)، ويبدو أن حسبة سنوات بقائهم بمصر، قد تمت وفق قائمة أعمار هؤلاء الأشخاص الواردة بالتوراة، حيث قالت إن لاوي عاش ١٣٧ سنة، وقهات ١٣٣ سنة، وعمران/عمرام/عمران عاش ١٣٧ سنة (خروج، ٦: ١٦–٢٠)، وموسى عاش ١٢٠ سنة، فيكون المجموع ٥٢٧ سنة. وبخصم المدة التي قضاها لاوي في فلسطين قبل نزوله مصر على أخيه يوسف وهي ٥٧ سنة، ثم إضافة المدة التي عاشها موسى بعد الخروج وهي أربعون سنة؛ إذ خرج

[٣٠] روبنسون، إسرائيل في ضوء سبق ذكره، ص١٠٧.

وعمره ثمانون سنة (خروج، ٧: ٧)، يصبح المجموع ٩٧ سنة، تطرح من ٥٢٧ سنة، فتكون النتيجة ٤٣٠ سنة، وهو الزمن الذي حددته التوراة المازونية لوجود الإسرائيليين بمصر.

وحتى لو أخذنا جدلًا بتلك الأعمار الأسطورية البعيدة عن أي واقعٍ حقيقي، فسيكون معنى ذلك أن كل واحد من هذه الأجيال قد أنجب ابنه في آخر يوم من حياته، وهي بحد ذاتها استحالة أخرى مضحكة وتلفيق واضح. أما الأزمة الكبرى هنا فستكون في محاولة الإجابة على السؤال: كيف أمكن لهذه الأجيال الأربعة فقط، أن تنجب ذلك العدد الهائل من الخارجين، والذي حددته التوراة في قولها:

> فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سكوت نحو ستمائة ألف ماشٍ من الرجال عدا الأولاد.
>
> (خروج، ١٢: ٣٧)

وإذا أضفنا إلى ذلك الرقم الهائل عدد الأولاد والنساء بافتراض امرأة وطفلين لكل رجل، فسيصل الرقم إلى المليونين والنصف مليون مع التحفظ والتواضع في حساب عدد أفراد الأسر الخارجة من مصر، وهو رقم خيالي إلى حدٍّ بعيد، وربما لا يتطابق إلا مع فكرة يوسفيوس أنهم كانوا ذات عين الهكسوس، تلك الفكرة التي استبعدها علم التاريخ الحديث تمامًا.

وهكذا تضعنا التوراة وسط أحبولة من المتاهات، ناهيك عن الشرَك الأعظم، فحيث تقول النسخة المازورية العبرية إن بقاءهم في مصر كان لمدة ٤٣٠ عامًا، فإن النسخة السبعونية اليونانية «سبتواجت» تقول في ذات الموضع من ذات السفر، إنهم بقوا هناك ٢١٥ سنة فقط؛ أي نصف المدة بالضبط، لتجعل اللغز يستعصي تمامًا ويستغلق؟! فهل ثمة حل؟ علينا هنا إعادة ترتيب المعطيات التي يمكن أن تساعدنا على إمساك مفاتيح الحل، لتحديد موعد دخول بني إسرائيل مصر أولًا، وفي زمن أي فرعون تحديدًا؟

أولًا: يصعب كما قلنا آنفًا تصور فرعون مصري يُهدي راعيًا بدويًّا مثل إبراهيم جارية مصرية، وانتهينا إلى أن إبراهيم قد دخل مصر ضيفًا على أحلافه أو ذوي قرابته، خاصة أنه بعدما خرج من مصر نزل في طريقه إلى فلسطين ضيفًا على المملكة الفلسطينية جرار. وقد علمنا أن هذا التواجد الفلسطيني المبكر قد حدث بفعل تهجير

إمبراطورية الهكسوس للشعوب التي كانت تخضع لها، ومن هنا نرجح أن يكون إبراهيم قد دخل مصر زمن حكم الهكسوس. وبحسابات الأجيال بينه وبين يوسف عبر إسحاق ثم يعقوب، يمكن ترجيح أن يكون إبراهيم قد دخل مصر زائرًا زمن ملك الهكسوس بنون، المعروف باسم سكا أو إسحاق أو الضحاك كما استنتجنا، أو ربما زمن الملك التالي له مباشرة «أبوفيس الأول/أبخنان/أبو الغنم» في أبعد تقدير.

ثانيًا: أن يوسف عندما دخل مصر كان سلاح العجلات التي تجرها الخيل معروفًا هناك، أو على الأقل في القصر الحاكم ومحيطه. ونحن نعلم الآن يقينًا أن ذلك السلاح والخيل نفسها، لم تعرفهما مصر إلا مع مجيء الهكسوس إليها، مما يعني أن يوسف قد دخل مصر زمن الهكسوس، أو بعد زمنهم حيث تكاثرت العجلات والخيل في مصر زمن الدولة الحديثة الفرعونية. وفي التوراة نصوص كثيرة تؤكد وجود العجلات في مصر زمن يوسف منها مثلًا:

> فقال فرعون ليوسف: خذوا لكم من أرض مصر عجلات لأولادكم ونسائكم واحملوا أباكم وتعالوا، ولا تحزن عيونكم على أثاثكم؛ لأن خيرات جميع أرض مصر لكم. ففعل بنو إسرائيل هكذا، وأعطاهم يوسف عجلات بحسب أمر فرعون. فصعدوا من مصر وجاءوا إلى أرض كنعان إلى يعقوب أبيهم، وأبصر العجلات التي أرسلها يوسف لتحمله.
>
> (تكوين، ٤٥: ١٧، ١٩، ٢١، ٢٥، ٢٧)

ثالثًا: أن يوسف تم تعيينه على خزانة المصريين بأمر فرعون الحاكم، وأنه قام إبان سنوات القحط بشراء الأراضي المصرية من أهلها لصالح الفرعون، كذلك شراء حيوانات المنزل والحقل، كذلك اشترى يوسف المصريين أنفسهم ليحولهم إلى عبيدٍ للفرعون، مما يعني نظامًا جديدًا تمامًا مخالفًا للنظام السابق، وظل معمولًا بهذا النظام الجديد فترة طويلة بعد طرد الهكسوس من مصر حتى تم الغاؤه، ونسب اليونان هذا الإلغاء إلى الفرعون المعروف عند اليونان باسم سيزوستريس، وأعاد توزيع الأراضي على الفلاحين، أي إن الحدث جميعه يجب أن يقع إبان زمن حكم الهكسوس لمصر أو بعده.

رابعًا: أن يوسف عندما استدعى أباه وإخوته وبقية أهل بيته إلى مصر، أخذ عربته الحربية وأسرع لاستقبالهم على الحدود، وأن ذلك السفر من مقر إقامة يوسف

بالقصر الحاكم إلى الحدود المصرية مع سيناء، قد استغرق يومًا واحدًا. وهو الأمر الذي يحدد لنا موقع العاصمة المصرية آنذاك؛ إذ لا بد أن تقع في تلك الحال على الأطراف الشرقية للدلتا في محيط محافظة الشرقية الحالية، في نقطةٍ ما قرب مدينة الزقازيق؛ لأننا نعلم أن عاصمة مصر زمن الدولة القديمة كانت منف، ثم انتقلت جنوبًا إلى طيبة/الأقصر/واست/زمن الدولة الوسطى، في أقصى جنوب مصر. ولم تتحول العاصمة إلى الشمال إلا مع غزو الهكسوس الذين سكنوا مدينة حواريس، على الحدود الشرقية للدلتا المصرية، حتى يمكنهم إحكام الاتصال مع بقية الإمبراطورية بالتواجد قرب خطوط المواصلات الدولية. وقد انتقلت العاصمة فور طرد الهكسوس، لتعود إلى طيبة «الأقصر» مرةً أخرى، ولم تقم مدن كبرى في الشمال بعد ذلك إلا ابتداء من زمن الرعامسة، وكانت المدينة التي أنشئُوها باسم رعمسيس قد بُنيت على تلول أطلال مدينة حواريس الهكسوسية، فقط كمقرٍّ صيفي لملوك الأسرة التاسعة عشر وليس كعاصمة. ولما كان من المستحيل زمنيًّا دخول يوسف وأهله زمن الرعامسة، فلا بد في هذه الحال أن يكون قد دخل مصر زمن الهكسوس؛ لأنه الزمن الوحيد الذي يُتيح وجود القصر الحاكم على مسافة يوم من الحدود السينائية، وفي زمن كانت مصر قد عرفت فيه العجلات التي تجرها الخيول.

خامسًا: في الذكريات العربية القديمة التي أورد القرآن طرفًا منها، نجد الآيات تتحدث دومًا عن ملك مصر باسم الفرعون، إلا زمن يوسف وحده فقط. فهي تتحدث عن حاكم مصر بلفظ الملك، وتختفي تمامًا كلمة فرعون في قصة يوسف القرآنية، وتظهر إلى جوار شخصية الملك شخصية أخرى باسم العزيز، وهي تسمية سامية كما هو واضح، وأنه هو الذي اشترى يوسف. مما يشير إلى أن رئيس الشرطة (العزيز) كان ساميًّا وليس مصريًّا، رغم أن التوراة تذكره باسمٍ مصري واضح هو «فوطي فارع»، وربما تسمى رئيس الشرطة الهكسوسي باسم مصري على عادة سادته الهكسوس، حيث حمل حكام الهكسوس ألقابًا ملكية مصرية. إلا أن اللافت للنظر هنا تطابق اسم «عزيز» مع اسم حاكم الهكسوس الأخير «أسيس»، مما يشير إلى بعض الخلط، وأن الأصل الصحيح ربما كان يشير في الصيغة السامية للملك نفسه باسم العزيز. وهو ما يتفق إلى حد التكامل مع رواية الكتاب المقدس، حيث نفهم من تلك القصة أن هناك تغيرًا هائلًا قد حدث في الهيئة المصرية الحاكمة آخر أيام يوسف، وأن هذا التغيير جاء بحكومةٍ لا تعرف يوسف ولا أهله، كما نفهم أن يوسف وأهله قد تحولوا، من سادةٍ مترفين ورؤساء مقربين من القصر الحاكم، إلى أسرى وعبيد، كما في النص:

> ثم قام ملكٌ جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف، فقال لشعبه هوذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا، هلم نحتال لهم لئلا ينموا، فيكون إذا حدثت حرب، أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض، فجعلوا عليهم رؤساء تسخير؛ لكي يذلوهم بأثقالهم، فبنوا لفرعون مدينتي مخازن فيثوم ورعمسيس.
>
> (خروج، ١: ٨–١١)

وهو الأمر الذي يشير إلى متغيرٍ عظيم، يفسر الأحداث التي سردتها التوراة وهي تفسره بدورها، حيث يمكن أن نفهم أن الحكام الجدد لم يكونوا من سكان المنطقة الشمالية، التي سكنها الملوك وأتباعهم الإسرائيليون في شرقي الدلتا، بحيث إنه لم يكن بإمكانهم معرفة قيمة يوسف وأهله. بل على العكس تمامًا، كانوا يحملون لهم ضغينة شديدة، إلى حد أنهم كانوا يشكون في ولائهم إلى حد توقع تحالفهم مع أعداء البلاد. كما أن هؤلاء الملوك الجدد كانوا حريصين على عدم ترك هؤلاء الضيوف الثقلاء يغادرون مصر، مما يعني أنهم قد أصبحوا أسرى. وكانت البلاد بحاجةٍ إلى الخدمات الرخيصة لمثل هؤلاء العبيد في بناء مدن جديدة، منها مدينة رعمسيس بالتحديد التي انتهينا إلى أنها في الأصل، كانت مقرًّا للهكسوس باسم حواريس، مما يعني أنه قد تم تدميرها في حرب التحرير، وأصبحت بحاجةٍ للإصلاح والبناء من جديد. إن ما حدث في تلك اللحظة التاريخية التي تسوقها التوراة على عجالة، يشير إلى آخر زمن لآخر ملك هكسوسي، وإلى قيام حرب التحرير وطرد الهكسوس من مصر، وأسر بعضهم ومن لحق بهم للقيام بأعمال البناء الشاقة، وهو الأمر الذي لا شك يقع زمن فرعون التحرير الملك المظفر «أحمس».

سادسًا: بينما نفهم من القصة التوراتية أن يوسف، قد عاش في القصر الملكي الواقع بمنطقة باسم جاسان شرقي الدلتا، وأن أهله قد اشتغلوا في مراعي الملك المصري وضياعه، نجد الأمر يختلف تمامًا زمن الحفيد موسى. وإليك النصوص التي توضح هذا الأمر، يقول النص حاكيًا لحظة وصول أهل يوسف إلى مصر:

> ثم جاءوا إلى أرض جاسان، فشد يوسف مركبته وصعد لاستقبال إسرائيل أبيه، إلى جاسان. ولما ظهر له وقع على عنقه، وبكى على عنقه زمانًا. ثم قال يوسف لإخوته ولبيت أبيه: أصعد وأخبر فرعون، وأقول له: إخوتي وبيت

أبي الذين في أرض كنعان قد جاءوا إليَّ، والرجال رعاة غنم، فإنهم كانوا أهل مواشي، وقد جاءوا بغنمهم وبقرهم وكل ما لهم، فيكون إذا دعاكم فرعون وقال: ما صناعتكم؟ أن تقولوا: عبيدك أهل مواشي منذ صبانا إلى الآن، نحن وآباؤنا جميعًا، لكي تسكنوا في أرض جاسان؛ لأن كل راعي غنم رجس للمصريين. فأتى يوسف وأخبر فرعون وقال: أبي وإخوتي وغنمهم وبقرهم وكل ما لهم، جاءوا من أرض كنعان وهوذا هم في أرض جاسان، وأخذوا من جملة إخوته خمسة وأوقفهم أمام الفرعون، فقال فرعون لإخوته: ما صناعتكم؟ فقالوا لفرعون: عبيدك رعاة غنم وآباؤنا جميعًا، وقالوا لفرعون: جئنا لنتغرب في الأرض، إذ ليس لغنم عبيدك مرعًى؛ لأن الجوع شديد في أرض كنعان، فالآن ليسكن عبيدك في أرض جاسان، فكلم فرعون يوسف قائلًا: أبوك وإخوتك جاءوا إليك، أرض مصر قدامك، في أفضل الأرض أسكن أباك وإخوتك، ليسكنوا في أرض جاسان، وإن علمت أنه يوجد بينهم ذوو قدرة، فاجعلهم رؤساء مواشي على التي لي. فأسكن يوسف أباه وإخوته، وأعطاهم ملكًا في أرض مصر في أفضل الأرض، في أرض رعمسيس كما أمر فرعون.

(تكوين، ٤٦: ٢٨-٢٩، ٣١–٣٤، ٤٧: ١–٦، ١١)

إن كاتب هذا النص، كان يعلم أن مقر القصر الحاكم يقع في أرض جاسان، وأن المدينة الإدارية للحكم هي التي أصبحت تُعرف فيما بعد باسم مدينة «رعمسيس»، أما اللافت للنظر فهو إصرار يوسف على تنبيه أهله أن يخبروا الفرعون أنهم رعاة غنم، والغنم والماعز معًا يطلق عليها «عنز» و«معز». إن هذا الإصرار لا شك يحمل معنًى يجعل أصحاب هذا المعز، محل اطمئنان وثقة الفرعون إن علم به، وأنه إذا علم بذلك فسيسكنهم بقربه وهو ما حدث بالفعل، حيث أقطعهم أرضًا يملكونها في مقاطعة جاسان، بل وجعلهم المسئولين عن رعاية ما يملك هو من «عنز». ثم ما لا يجب أن يفوت العين الفاحصة هنا، أن جاسان هذه كان لا يسكنها مصريون حينذاك، إنما عنصرٌ آخر يكرهه المصريون، عنصرٌ بدوي عنزي؛ فقد أكدوا للفرعون أنهم أهل عنز، «لكي تسكنوا أرض جاسان؛ لأن كل راعي غنم رجس عند المصريين»، وهو ما يشير إلى تباعدٍ واضح في مواضع السكنى بين الرعاة الأنجاس وبين المصريين من أهل البلاد، كما يشير أيضًا إلى

أن أرض جاسان جميعًا كانت موئلًا للرعاة، حتى تصلح لسكنى الملك وقومه ويوسف وقومه دون المصريين. لقد كان الملك بدوره من الرعاة. أما المبهر فهو أن تكون جاسان، وهي مسكن البدو المكروهين من المصريين مقرًّا للقصر الحاكم، وأن يصر يوسف على تنبيه أهله البدو إبراز صناعتهم (الرعي)؛ كي يتمكنوا من السكن قرب قصر الفرعون.

ويبدو أيضًا أن المصريين كانوا لا يأتون إلى جاسان إلا زوارًا، سفراء، أو علماء تجاريين، لا نعلم، لكنه ما يتضح من نصٍّ آخر عندما حان موعد اشتراك إخوة يوسف في مأدبة طعام أقيمت للضيوف، حيث يقول النص:

> وقال «يوسف»: قدموا طعامًا، فقدموا له وحده، ولهم (إخوته) وحدهم، وللمصريين الآكلين عنده وحدهم؛ لأن المصريين لا يقدرون أن يأكلوا طعامًا مع العبرانيين؛ لأنه رجس عند المصريين.
>
> (تكوين، ٤٣: ٣١، ٣٢)

أما زمن «موسى» بعد يوسف بثلاثة أجيال، فإننا بالتدقيق نستطيع أن نفهم أن الوضع ما زال كما هو، فالإسرائيليون يعيشون في «رعمسيس»، ولم تزل جاسان منطقة معزولة بأهل العنز عن المصريين أهل الزرع، اللهم إلا زوارًا مصريين من هنا أو هناك، مشرفين وإداريين أو جنودًا يشرفون على أعمال البناء، لكننا نلحظ في الوقت ذاته أن رعمسيس في جاسان لم تعد مقرًّا للقصر الحاكم في زمن موسى، وهو ما يتضح في أسطورة الضربات التي وجهها إله الإسرائيليين يهوه إلى بلاد مصر، فكانت تصيب المصريين وتصيب البلاط المالك ولا تصيب الإسرائيليين، مما يعني أن مقر البلاط قد أصبح حينذاك بعيدًا عن جاسان، حيث يعيش الإسرائيليون ليتعرض هو للضربات، بينما لا يتعرض لها الإسرائيليون، وهو ما تفصح به نصوص تقول:

> ثم قال الرب لموسى: بكر في الصباح وقف أمام فرعون، إنه يخرج إلى الماء، وقل له هكذا: يقول الرب أطلق شعبي ليعبدوني، فإنه إن كنت لا تطلق شعبي، ها أنا أرسل عليك وعلى عبيدك وعلى شعبك وعلى بيوتك الذبان، فتمتلئ بيوت المصريين ذبانًا، وأيضًا الأرض التي هم عليها، ولكن أميز في ذلك اليوم أرض جاسان حيث شعبي مقيم، حتى لا يكون هناك ذبان، لكي تعلم أني أنا الرب

في الأرض، وأجعل فرقًا بين شعبي وشعبك. غدًا تكون هذه الآية، ففعل الرب هكذا، فدخلت ذبان كثيرة إلى بيوت فرعون وبيوت عبيده وفي كل أرض مصر، خربت الأرض من الذبان.

(خروج، ٨: ٢٠–٢٤)

ونموذجًا آخر في ضربة البرد والنار:

ثم قال الرب لموسى: مد يدك نحو السماء ليكون برد، في كل أرض مصر، على الناس وعلى البهائم وعلى كل عشب الحقل في أرض مصر، فمد موسى عصاه نحو السماء فأعطى الرب رعودًا وبردًا، وجرت نار على الأرض، وأمطر الرب بردًا على أرض مصر، فكان برد ونار متواصلة في وسط البرد، شيءٌ عظيم جدًّا لم يكن مثله في كل أرض مصر منذ صارت أمه، فضرب البرد في كل أرض مصر، جميع ما في الحقل من الناس والبهائم، وضرب البرد جميع عشب الحقل، وكسر جميع شجر الحقل، إلا أرض جاسان، حيث كان بنو إسرائيل، فلم يكن فيها برد.

(خروج، ٩: ٢٢–٢٦)

كذلك في ضربة الظلام:

ثم قال الرب لموسى: مد يدك نحو السماء ليكون ظلام على أرض مصر، حتى يُلمس الظلام، فمد موسى يده نحو السماء، فكان ظلام دامس في كل أرض مصر ثلاثة أيام، لم يبصر أحد أخاه ولا قام أحد من مكانه ثلاثة أيام، ولكن جميع بني إسرائيل كان لهم نور في مساكنهم.

(خروج، ١٠: ٢١–٢٣)

وهذا بالطبع لا يعني وقوع تلك الضربات التوراتية الإعجازية، وجل ما يعنيه أن الكاتب التوراتي والذاكرة الحافظة، كانت تعلم أن البلاط المصري قد انتقل من رعمسيس جاسان إلى العمق المصري.

وإعمالًا لكل هذا، فإن إشارات التوراة التي تؤكد أن يوسف قد دخل هو وآله إلى مصر، وسكنوا رعمسيس بأرض جاسان إلى جوار قصر الفرعون، فإن ذات الإشارات تؤكد أن هذا الوضع قد تغير آخر أيام يوسف، وما تلاه من سنين حتى زمن موسى، حيث انتقل القصر المالك ليكون وسط المصريين، وبعيدًا عن الإسرائيليين، وتحيق به الضربات التي كان ينزلها رب إسرائيل بالمصريين، بينما لا تصيب إلا الإسرائيليين. مما يعني أن كاتب تلك الأسطورة، كان يعلم أن القصر الملكي حينذاك، قد كان في عمق الأراضي المصرية، بعيدًا عن جاسان التي لم تلحقها تلك الضربات. إن الأمر يشي بكل وضوح أن يوسف وآله قد دخلوا مصر على سادتها آنذاك من الهكسوس، وكان ذلك تحديدًا زمن آخر ملك هكسوسي هو أسيس، وهو ما يلتقي بلقبه القرآني العزيز، الملقب مصريًّا باللقب أبوفيس أي الحية التنين، وكانت عاصمته حواريس عند الشرقية في أرض جاسان أو غسان. وبمجرد أن ينتهي عصر أسيس، حتى يظهر لنا في التوراة ملوك، بل وحكومة بل واتجاه عام جديد تمامًا، يتحول معه يوسف وأهله من أصحاب ضياعٍ ورئاسة مكرمين، إلى عبيدٍ في الأعمال الشاقة مسخرين. وتنتقل العاصمة مع هذا التحول بعيدًا إلى طيبة جنوب مصر مرة أخرى.

لكن يبقى أمر لا يصح المرور عليه هكذا، دون وقفة تحاول فهم تفصيلات ما حدث، وهو قصة السنوات السبع العجاف. ومعلوم يقينًا أن النيل أبدًا لا يسير على الوتيرة، التي صورتها القصة التوراتية، فهو لا يستمر سنواتٍ سبعًا دون فيضان أبدًا، لكننا نعلم يقينًا أن قصة السنوات العجاف، كانت تنتشر في البلاد الفلسطينية والشامية عمومًا، حيث كان بالإمكان حدوث متغيرات مناخية، تؤدي إلى ندرة الأمطار لسنواتٍ متتابعة. أما النيل فلم يحدث أن جاء منخفضًا إلى حد المجاعة، لعددٍ من السنوات المتتالية المحددة بالرقم المقدس عند الساميين «سبعة».

هنا نستعين بالتمرين المدرسي للتلميذ المصري الصغير بيتاعور أو بنتاأور، الذي كان يدبج موضوعًا في التعبير الإنشائي، عن أول فرعون قادة ثورة التحرير ضد الهكسوس، وهو الفرعون «سقنن رع»، زمن آخر حكام الهكسوس أسيس الملقب «أبوفيس»، ونتذكر كلماته وهو يقول:

> حدث أن أرض مصر كانت في جانحةٍ شنعاء، ولم يكن للبلاد حاكم يعد ملكًا في هذا الوقت، وقد حدث أن الفرعون سقنن رع، كان حاكمًا على

المدينة الجنوبية (طيبة [المؤلف])، لكن الجائحة الشنعاء كانت في بلد العامو (حواريس [المؤلف])،[٣١]

فماذا يعني بالجائحة الشنعاء؟ ليس لدينا أي خبر عنها سوى تلك العبارة، لكن التاريخ المقدس يمكنه أن يفسر لنا تلك الجائحة الشنعاء، التي حدثت في منطقة العامو/الهكسوس. فلا شك أنها كانت تعني ذلك الجفاف الذي سمي «سنوات سبع عجاف». لكن التلميذ وهو يكتب موضوعه الاختباري، كان حريصًا على الحصول على درجاتٍ متميزة؛ لذلك لم تفته بعض دقائق الموقف، فأكد أن تلك الجائحة كانت في بلد العامو «حواريس»، حيث يحكم أبوفيس، بينما لم تنل من المصريين المتحصنين عند طيبة بقيادة سقنن رع شيئًا. فكيف نفسر جفافًا في الشمال وخصبًا رغيدًا في الجنوب؟

هنا نعيد قراءة رسالة الملك أسيس الملقب بلقب «أبوفيس الثالث»، يستفز فيها الفرعون المصري ملك طيبة «سقنن رع تاعا»، ويقول له: «إن الملك أبوفيس يطلب منك أن تأمر فرس النهر ليهجر بحيرته، التي تقع في ينبوع المدينة الجاري؛ لأنه لا يسمح للنوم أن يغشى عينيه ليلًا ولا نهارًا؛ لأن صياحه يطن في أذنيه باستمرار.»[٣٢]

ولطالما ظلت تلك الرسالة تحتمل عددًا من التفاسير، التي تجمع على أنها لون من الألغاز، التي كانت عادة يتبادلها ملوك العالم القديم، وتحمل دلالات أعمق من الظاهر، فما هي رمزية أفراس النهر هنا وضجيجها؟! قيل هو ضجيج السلاح والعسكر والتهيؤ للثورة على الهكسوس، وهو ما لم يُرضِ الملك الهكسوسي، فأرسل بتلك الرسالة المنذرة، لكن علام ترمز البحيرة؟ وليس في طيبة بحيرات! هناك النيل، فمتى نشأت تلك البحيرة؟ والرسالة تقول إن البحيرة تقع في ينبوع المدينة، وهناك نيل لا ينابيع؛ فالحديث إذن عن بحيرة تكونت بفعل النيل، فكيف كان ذلك؟ ويدعم مثل تلك التخريجات ما جاء بعد ذلك في النص، الذي يحكي عن الملك سقنن رع، بعد أن قرأ رسالة أبو فيس: «هنا صمت أمير المدينة الجنوبية، ولم يستطع أن يجيب على رسالة الملك أبوفيس، وقد تعجب كيف عرف أبوفيس عن البحيرة، التي في ينبوع المدينة الجاري؟» يعقب هنا محمد حماد فيقول: «يظهر أن فرس النهر الذي في البحيرة، التي في ينبوع المدينة الجاري، ترمز إلى خطةٍ

[٣١] سليم حسن، مصر القديمة ... سبق ذكره، ج٤، ص١٢٨.

[٣٢] محمد حماد، كامس ... سبق ذكره، ص٥١.

بحرية، يدبرها الملك المصري لمقاومة الهكسوس، مما أزعج ملكهم، أو أن ملك الهكسوس أبوفيس، قد فطِن إلى محاولة أمير الجنوب مماطلته للاستعداد؛ لذلك فقد باغته بالهجوم عليه بجيشه.»[٣٣] وانتهت هذه المعركة بمقتل سقنن رع المصري، لكنها كانت فاتحة حروب التحرير المصرية ضد الهكسوس، التي سيتكملها أبناؤه من بعد: كامس وأحمس، ويبقى التساؤل: ما هي تلك الخطة البحرية، خطة يستخدم فيها الماء في الحرب، وتنشأ عنه بحيرة لم تكن موجودة قبل ذلك، وأن تلك الخطة كانت محاطة بالتكتم والسرية، وهو ما يشير إليه تساؤل سقننر ع: كيف عرف ملك الهكسوس بوجودها؟

نظننا وجدنا الإجابة في أكثر من حادثةٍ في تاريخ مصر القديمة، تشير إلى استخدام النيل كوسيلةٍ في إلحاق الخسائر بالخصوم، فإبان العصر المتوسط الأول، وانقسام مصر لأقاليم، حَكم على إقليم مصر الوسطى «أهناسيا» الفرعون «خيتي»، الذي عمل على إعادة توحيد مصر مرة أخرى، وإبان ذلك حدثت عدة حروب طاحنة لإعادة الدلتا لمصر الموحدة، وضمن تلك الحروب كانت معركته ضد مدينة (إتريب/بنها الحالية)، ولدينا نص بأمرٍ موجه من الملك خيتي بهذا الشأن، يقول:

> أقم سدًّا ضد نصف البلاد، واغمر النصف الثاني بالمياه، بما في ذلك مدينة أتريب.

ويعقب سليم حسن هنا قائلًا إن: «هذه الجملة مع إيجازها لها أهمية استثنائية؛ إذ تبرهن لنا أن كل المدن في الدلتا، كانت تتوقف حياتها على النيل.» ثم يشرح بأن مدينة إهناسيا حاضرة الملك خيتي، قد أقامت ضد أتريب سدًّا في النيل لإخضاعها، «وهذا السد طبعًا يكون في عرض النهر، لأجل وقف الملاحة، ولإجبار المدينة المناهضة على التسليم والخضوع.» وذلك يفسر لنا النص الفرعوني الذي يصف الفرعون بأنه: «يمنع المدن من أن تثور؛ لأنه سيد النيل، وأنه بإرادته يمكنه أن يأتي بالنيل، أو لا يأتي إلى مدن الدلتا.»[٣٤]

---

[٣٣] نفسه ص٥٣.

[٣٤] سليم حسن، أقسام مصر الجغرافية في العهد الفرعوني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، والنشر، القاهرة، ١٩٤٤م، ص٣٢.

ثم نجد هيرودوت يحكي لنا عن ذلك الأسلوب في تحويل مجرى نهر النيل، في زمن فرعونٍ آخر لكن لأسبابٍ أخرى، فيقول:

> قال لي الكهنة: إن أول ملوك مصر مينا، وإنه هو الذي أقام الجسر، الذي يقي مدينة ممفيس خطر فيضان النيل؛ فقد كان قبل عهده يفيض على طول سلسلةٍ من التلال الرملية، التي تحد مصر من ناحية ليبيا، فصنع سدًّا وسط النيل، عند المنحنى الذي يكونه النهر جنوبي ممفيس بحوالي مائة فورلنج. وبذا جفف مجراه القديم، وفي نفس الوقت حفر له طريقًا جديدًا، في منتصف المسافة بين صفي التلال.[٣٥]

إن الخطة البحرية التي أنشأت بحيرة جديدة في الجنوب، وأقضَّ صوت الثوار فيها مضجع الملك الهكسوسي، فشبههم بأفراس النهر لطول عملهم في الماء، كانت بالضبط تحويل مجرى نهر النيل. ويأتينا التفسير من الفرعون كامس ثاني فراعنة التحرير، وهو يعبر عن سخطه من المحتلين ويقول:

> إلى أي مدًى أدرك كنه قوتي هذه؟ عندما أرى حاكمًا جالسًا في أواريس وآخر في بلاد كوش، وأنا أجلس مشتركًا مع رجلٍ من العامو وزنجي، وكل رجل منهما مسئول عن جزئه من مصر هذه؟ إن ذلك الذي يقاسمني الأرض، لن أجعله يمر في ماء مصر حتى منف؟[٣٦]

«كامس» هنا يضيء أمامنا تفسيرًا موضوعيًّا تمامًا للسنوات العجاف في الشمال. لقد كان هو نموذج «مينا» في قصة «هيرودوت»، أو أنه كرر ما فعله سلفه العظيم، ليمنع الهكسوس حتى من استخدام السفن النيلية، وأنها لن تتمكن من الوصول من حواريس في شرق الدلتا إلى منف «لن أجعله يمر في ماء مصر حتى منف.» لقد سد الفرعون نيل مصر من الجنوب، وكان منع الماء جائحة شنعاء متعددة الوجوه، فهو إذا كان سيؤدي إلى مجاعةٍ في الشمال، فإنه سيعوق هبوط سفن الهكسوس العسكرية

[٣٥] إيفانز، هيرودوت ... سبق ذكره، ص٩٤.

[٣٦] سليم حسن، مصر القديمة، سبق ذكره، ج٤، ص١٤٠.

جنوبًا، وكان أحدث استخدام مصري للنيل في العمل العسكري في حملة الملك لويس الصليبية، حيث تمت هزيمتُه وأسْرُه في المنصورة.

ولأن مسألة «سبع سنوات عجاف» كانت غير مقبولة مع وجود النيل العظيم، فقد جرت محاولات عدة لتفسير ذلك الأمر، وآخر ما سمعته في الإذاعة العربية من راديو لندن B.B.C يوم الجمعة ٩ / ٢ / ١٩٩٦م في برنامج دنيا العلوم، عندما أجرت مقدمة البرنامج حوارًا مع العالم «كولن همفرس» البروفيسور بجامعة كمبردج، لتسمع اكتشافه لتفسير قصة السنوات العجاف، حيث أكد أن النيل لا يتوقف أبدًا سبع سنين، ثم رأى أن المجاعة قد شملت بلادًا أخرى مثل كنعان، بدليل رحيل أبناء يعقوب إلى مصر للحصول على الطعام قادمين من كنعان؛ لذلك قدم تفسيره لتلك المجاعات بانفجار بركان سانتوريني بجزيرة ثيرا في المتوسط، وهو انفجار عظيم أدى إلى انتشار المطر الحامضي الذي يحمل حمض الكبريت، مما أوقف الأشجار عن النمو في مساحةٍ كبرى وصلت إلى أمريكا، حيث ارتفعت اللافا ٣٦كم في الجو، وكان بذلك كارثة عالمية، بدليل رحيل أبناء يعقوب إلى مصر للحصول على طعام، وإن دراسة كولن همفرس ترجح دوام تأثير البركان الذي حدث في المتوسط لمدة تصل إلى سبعة سنوات، وأنه قد تم تحديد أثره بدراسة حلقات أشجار البلوط.

وقبل همفرس كان «سبيريدون مارينا توس» ينقب في ميناءٍ قريب من ميناء كونسوس، فاكتشف حفرةً مليئة بالخفاف البركاني، كما اكتشف دلائل على أن أمواجًا عاتية طغت على الموقع، واكتسحت في تراجعها أشياء ضخمة من أماكنها الأصلية. وأعرب مارينا توس عن اعتقاده بأن انهيار كريت لم يكن بسبب غزاة أتوها من الخارج كما يعتقد معظم المؤرخين، إنما إلى كارثةٍ طبيعية عنيفة حلت بالجزيرة. وأشار إلى احتمال أن يكون مصدر هذا الخراب، هو الجزيرة البركانية الصغيرة المسماة ثيرا، والتي تبعد ٧٥ ميلًا شمال كريت. وكانت ثيرا في الماضي مستديرة الشكل يبلغ محيطها حوالي أحد عشر ميلًا. أما حاليًّا فهي ممزقة إلى ثلاث قطع تلمحها من الجو كيف كانت واحدة مستديرة. ويتوسط الجزر الثلاث قبة سوداء تعلوها فوهة بركان. ويقول محمد العزب موسى في حديثه عن غرائب العالم القديم: إن هذا البركان كان أقوى انفجارٍ بركاني عرفه العالم. وكي نعلم مدى ضخامة الحدث، فإنه يقارنه بحدثٍ مشابه لبركانٍ من ذات النوع والمواصفات، هو بركان كراتوكا الذي وقع وتم تسجيل تفاصيله سنةً ١٨٨٣م. وضمن تلك التسجيلات أن غباره تساقط في دائرةٍ نصف قطرها ٨٠٠ ميل، وسمع صوت انفجاره في جزيرة رود ريجويز على بعد ٣٠٠٠ ميل، وارتفعت سحبه مسافة

٥٠ ميلًا، وحطمت الموجة الصوتية لانفجاره الجدران المعمارية لمسافة ١٠٠ ميل، ورفع البحر في موجة مد (تسونامي) دمرت ٣٠٠ مدينة وقتلت ٤٠٠٠٠ شخص تحت الموج الذي اجتاح مدنهم. وقد وصل هذا المد إلى مسافةٍ تبعد حوالي ٧٠٠٠ ميل، وظل الناس لعدة شهور في مختلف أنحاء العالم يرون الشمس تشرق خضراء ثم تتحول إلى زرقاء، ثم تغرب مصحوبة بوهجٍ شديد يستمر فترة، وكذلك استمر شأن القمر لعدة شهور، نتيجة العالق من الغبار البركاني في الفضاء.[٣٧]

وبدراسة «همفرس» أمكن تحديد زمن البركان الذي حدث في جزيرة أثيرا حوالي عام ١٦٢٨ق.م. وامتد أثره سبع سنوات، أي إنه انتهى حوالي عام ١٦٢١ق.م. وبالحسابات ستجد أن تقديرات البروفيسور «همفرس» ستلقي بنا إلى آخر أيام الهكسوس في مصر. وهو ما يعني أن شمال مصر في ذلك الحين (الدلتا)، قد أصابها من ذلك البركان نصيب عظيم، أدى إلى كارثةٍ زراعية كبرى. فإذا كان ما قاله «همفرس» قد حدث بالفعل، فإن «سقنن رع» قد استثمر ذلك استثمارًا عظيمًا بتحويل مجرى النهر، لتصبح الجائحة «شنعاء» بالفعل. أما أن يقوم المصريون جنوبًا بسد مجرى النيل وتحويله، فكان أمرًا لا يمكن إخفاؤه، وقد شعر به الهكسوس، وعرف «أسيس/عزيز» بما يحدث، ذلك الحدث الذي جاء ترميزًا في أسطورة حلم البقرات والسنابل السبع، لقد عرف ما يحدث جنوبًا، وأراد معالجة الأمر بمحاولة تخزين الحبوب للسنوات العجاف المقبلة.

هذا ما كان عن محاولتنا تزمين الدخول الإسرائيلي إلى مصر بزمن الهكسوس، أو بالأحرى زمن آخر ملوك الهكسوس عليها الملك «أسيس» ... فماذا عن الخروج؟

لو أخذنا بالتقديرات الحسابية التي قام بها فريق البحث الإنجليزي بقيادة البروفيسور كولن همفرس، والذي انتهى إلى توقيت بداية السنوات العجاف السبع بحوالي عام ١٦٢٨ق.م. مما يعني أن نهايتها كانت حوالي عام ١٦٢١ق.م. وهو زمن قريب جدًّا من بداية حكم أحمس فرعون التحرير، ومؤسس الأسرة الثامنة عشرة والدولة الحديثة دولة الإمبراطورية، حيث حكم حوالي ١٥٨٠ق.م. بفارق أربعين عامًا فقط عن تقديرات هفمرس لسنوات العجف، مما يشير حسب خطتنا إلى أن تلك السنوات كانت آخر سنى الهكسوس بمصر، وربما كانت أربعون عامًا رقمًا كبيرًا بعض الشيء؛ فالحسابات لن تكون بمنتهى الدقة. وربما كان الفارق أقل من ذلك، وهو الزمن الذي

[٣٧] محمد العزب موسى، حضارات ... سبق ذكره، ص٥٢، ٥٣.

استغرقته حرب التحرير. مرة أخرى، لو أخذنا بذلك التقدير ١٦٢١ق.م. لبداية حرب التحرير حسب فروضنا، وأن الأمور استقرت بطرد الهكسوس ونهاية الأسرة السابعة عشرة وبداية حكم الأسرة الثامنة عشرة المستقرة — خلال عشر سنوات مثلًا — أي حوالي عام ١٦١١ق.م. وكفرض تجريبي لمحاولة تزمين خروج بني إسرائيل من مصر، الذين تم أسرهم في مصر بعد طرد الهكسوس، سنقوم بطرح ٤٣٠ سنة، وهو الزمن الذي حددته التوراة المازورية العبرية العربية لبقاء بني إسرائيل بمصر، من ١٦١١ق.م. فتعطينا زمن ١١٨١ق.م. وهو زمن حكم رمسيس الثالث الذي حكم ١١٩٨–١١٦٧ق.م.

وهي كما يرى قارئنا نتيجة خاطئة تمامًا، حيث كان الإسرائيليون حينذاك بفلسطين مستقرين فيها فعلًا، إضافة إلى أنه لن يبقى لقيام مملكة سليمان سوى حوالي مائتي عام فقط، وهو ما يخالف تقرير التوراة حول الزمن الذي انصرم ما بين الخروج وبين بناء سليمان للهيكل، وهو ٤٨٠ سنة كاملة، ولو حسبنا تلك المدة خصمًا من عام ١١٨١ق.م. فسيكون الهيكل قد بُني حوالي عام ٧٠٠ق.م. وهو ما يخالف الزمن المفترض لحكم سليمان مخالفة شديدة، حيث اتفق على أنه كان زمن حكم الفرعون شيشنق الأول الذي حكم ٩٤٥–٩٢٤ق.م.

ولو افترضنا أن هناك خطأً في تزمين التوراة المازورية، وأخذنا بتزمين التوراة السبعونية لمدة بقاء بني إسرائيل بمصر، وهو ٢١٥ عامًا، وأعدنا الحسابات مرةً أخرى بطرح ٢١٥ عامًا من ١٦١١ق.م. فسيعطينا عام ١٣٩٦ق.م. وهو زمن حكم الفرعون آمنحتب الثالث الذي حكم ١٤٠٥–١٣٦٧ق.م.

ونتذكر الآن ما سجله يوسفيوس نقلًا عن العبقري المصري «مانيتو»، الذي حدد لنا زمن الخروج أيام فرعون باسم آمنوفيس/آمنحتب، دون أن يحدد لنا أي آمنحتب، خاصةً أننا نعلم أن ابن آمنحتب الثالث المعروف باسم إخناتون، كان يحمل اسم آمنحتب الرابع، وتتطابق معه إلى حدٍّ مدهش صفات فرعون الخروج أمنوفيس، آمنحتب التي دونها لنا «يوسفيوس» نقلًا عن «مانيتو»؛ فهو رجل لا يحب الحرب ويعتبرها عملًا ضد الآلهة. وكانت تلك بالضبط جزءًا أساسيًّا في العقيدة الآتونية الجديدة التي جاء بها «إخناتون»، وقد رفض الاستجابة لرسائل الاستغاثة، التي تأتيه من ولاته في أملاك مصر بآسيا، إعمالًا لذلك المبدأ، حتى أضاع الإمبراطورية التي بناها أجداده. وإذا وضح الآن ميلنا إلى تزمين المؤرخ المصري الفذ «مانيتو» لخروج الإسرائيليين من مصر، فسوف تواجهنا هنا عدة عقبات، لعل أهمها تزمين التوراة المازورية للبقاء في مصر بمدةٍ زمنية،

هي الضعف بالضبط للمدة التي رصدتها السبعونية، حيث قالت: إن البقاء بمصر استمر ٤٣٠ عامًا، بينما أكدت السبعونية من جانبها أن هذا البقاء لم يزِدْ عن ٢١٥ عامًا، ومن ثم يحق للقارئ هنا أن يذهب بظنونه فينا مذهبًا بعيدًا يسلبنا العلمية، وهو يرانا ننتقي رأيًا ونستبعد آخر دون إبداء أسباب واضحة لذلك، لكن الطريف في أمرنا هنا أننا إطلاقًا لن نستبعد رأيًا، بل سنأخذ بكلا التزمينين المازوري والسبعوني رغم تضاربهما، حيث هذا التضارب فيما كشفنا، كان تسجيلًا حقيقيًّا لواقعٍ قد حدث فعلًا.

لقد كان الزمن الذي ساقته التوراة المازورية مثار انتقادات كثيرة من جانب، ومحاولات تلفيق توفيقية من جانبٍ آخر، حيث لا يمكن تصور أن يستغرق أربعة أجيال من الإسرائيليين في مصر هذا الزمن الطويل، ناهيك عن أن كل منهم يكون قد أنجب ولده في اليوم الأخير من حياته، الطويلة جدًّا؛ قياسًا على الأعمار المفترضة لبني الإنسان. ثم إننا لو أخذنا بهذا التزمين جدلًا مع غض النظر عن عدد الأجيال، وافترضنا أن زمن الخروج كان آخر أيام حكم إخناتون/آمنحتب الرابع في تل العمارنة، أو بعد سقوطه بحوالي عشر سنوات ١٣٤٠ق.م. ثم أضفنا ٤٣٠ عامًا، وهو تزمين التوراة المازورية لبقاء الإسرائيليين بمصر؛ فسيكون زمن الدخول هو عام ١٧٧٠ق.م. لكن المفاجأة هنا في كون هذا التاريخ كان تاريخ دخول جافل الهكسوس إلى بلاد مصر القديمة واحتلالها، بالتحديد والتدقيق المبين دون فارق أو خطأ ولو بنسبةٍ واحدة، فموسوعة تاريخ العالم (ج١، ص٤٨) تبدأ تاريخ احتلال الهكسوس لمصر ١٧٨٨–١٥٥٠ق.م. وتطلق عليه عصر الاغتصاب.

هنا بالضبط ما نقصده. لقد جمعت التوراة المازورية زمن بقاء الهكسوس بمصر، وهو بهذه الحسابات ٢١٥ سنة، مضافًا إليه استمرار القبائل الإسرائيلية بمصر، الذين لحقوا بهم آخر أيام حكمهم ٢١٥ عامًا أخرى؛ ليكون مجموع السنوات ٤٣٠ عامًا. أما التوراة السبعونية، فقد استبعدت سني بقاء الهكسوس بمصر ٢١٥ سنة، وسجلت فقط زمن بقاء بني إسرائيل هناك ٢١٥ سنة، لكن يبقى التساؤل: لماذا دونت المازورية وسجلت مدة بقاء الهكسوس بمصر، مضافة إلى سني الإسرائيليين فيها؟ هل كان الكاتب على رأي يوسفيوس يرى أن الإسرائيليين هم ذات الهكسوس، أم أن هناك أسبابًا أخرى خفية تحتاج جهدًا آخر للكشف عنها؟

هذا ما سنحاول الإجابة عليه الآن.

الفصل الثامن

إسرائيل ويهوذا العبري أو إسرائيل والهكسوسي الخبري

انتهت الدراسات النقدية للتوراة، إلى اكتشاف تأسيسي يعيد فكرة النقاء الجنسي العرقي إلى أصولها، حيث يتضح لنا أن كل تلك الصلات القرابية لأبطال العهد القديم، إنما كان لونًا من الأحلاف بين نماذج بشرية مختلفة، بل وأحيانًا متضاربة ومتصارعة. ويضرب لنا الباحث المجتهد بفراسة «فراس السواح» نماذج من الأمثلة التي توضح أكذوبة الأصل الواحد المتصل، ومنها ما جاء من ذكر للإسماعيليين والمديانيين في قصة يوسف، حيث لا يتناسب هذا الذكر إطلاقًا مع سلسلة الأنساب، التي رسمها سفر التكوين لإبراهيم وأولاده، حيث المفروض أن الإسماعيليين هم أبناء إسماعيل بن إبراهيم من هاجر المصرية، وأن المديانيين هم أولاد مديان ابن إبراهيم من زوجته قطورة. فإذا أخذنا الزمن الفاصل بين عصر إسماعيل ومديان وإسحاق أبناء إبراهيم وبين عصر يعقوب ويوسف، لاكتشفنا أنه من المحال أن يكون الولدان الثلاثة قد تشكلوا في شعوبٍ تملأ سيناء وآدوم ضجيجًا، فقط خلال الفترة التي جرت خلالها أحداث قصة يوسف في مصر.[١]

إن الأيديولوجيا العرقية حاولت هنا رسم خط نسب رئيسيًّا، يربط تحالف الأسباط الاثني عشر بتحالفاتٍ أخرى، تأخذ باعتبارها خطوط نسب فرعية، تنشئ اتصالًا قرابيًّا حتى مع الشعوب المجاورة والمحيطة، التي احتك بها الإسرائيليون، وهي المحاولة التي تؤكد وجهة نظرنا في ذلك الحلف الكبير، الذي أشرنا إليه دومًا، وقام في مركزٍ رئيسي ببلاد آدوم ومحيطها.

---

[١] السواح، أرام ... سبق ذكره، ص٤١، ٤٢.

وتقول الأركيولوجية «كاثلين. م. كنيون» أهم من نقب الأرض الفلسطينية، سعيًا وراء التاريخ الإسرائيلي القديم في فلسطين: «إن الذي قام بتحرير سفر التكوين في القرن العاشر ق.م. حاول أن يجمع في قصةٍ واحدة الحكايات الشائعة بين القبائل والمجموعات، التي اجتمعت فيما بعد لتكون شعب إسرائيل، وكثير من المتخصصين يتفقون على أنها قبائل متفرقة. ومن الأرجح أن تكون إحداها قبيلة إبراهيم «وولده» إسحاق، أما قبيلة يعقوب «المنسوبة لإسحاق» فقبيلة أخرى، وقد تم فيما بعدُ إيجاد صلة قرابة بينهما، ولعل عائلة إبراهيم هي من أعالي النهرين، بينما عائلة يعقوب من شرقي الأردن ... ومن المرجح أنه لا توجد علاقة بين قصة الآباء وقصة الخروج Exodus، والانقطاع بين سفر التكوين وسفر الخروج تام.»[٢]

ويقول «تيودور. هـ. روبنسون»، وهو متخصص آخر: «من الواضح أن شعب إسرائيل الذي يتحدث التاريخ عنه، يشمل عشائر كثيرة لم تطأ أقدامها أرض مصر مطلقًا، بل إن الإصحاح الثامن والثلاثين من سفر التكوين، قد يفهم منه أن يهوذا استقر في الجزء الجنوبي من كنعان، وأن قبيلة أشير كانت قد أقامت في ديارها التي استقرت فيها عند ولادة موسى ... ودخلت بطون من هذه القبائل في طاعة المصريين، بيدَ أنهم في فترة من الفترات بين عامي ١٥٠٠ و١٢٠٠ق.م. فروا من مصر وعلى رأسهم موسى. وكان موسى قبل ذلك قد عقد صِلاتٍ بقبائل البدو، ووفق إلى جمع كلمة بعضها في شعبٍ واحد، متوسلًا إلى ذلك بدينٍ جديد، آمن به جميع الأحلاف عند الجيل المقدس الذي كان موسى يتردد عليه.»[٣]

وكلام «روبنسون» هنا بحاجةٍ إلى بعض التوضيح، فهو يقول إن شعب إسرائيل لم يكن أبدًا قبيلة واحدة متوحدة جنسيًّا وثقافيًّا، بل كان يشمل عددًا من القبائل، ومن بين هذه القبائل كانت قبيلة «يهوذا»، أحد الأسباط فيما بعد، قد استقرت في جنوبي فلسطين، أي في محيط النقب وآدوم، وذلك في الوقت الذي كان فيه الإسرائيليون مستعبدين بمصر، وقد استنتج من ذلك أن قبيلة يهوذا لم تدخل مصر أبدًا، وهنا فقط نخالفه في استنتاجه هذا؛ لأننا نزعم أن يهوذا قد دخل مصر فعلًا، وأن تلك القبيلة الكبرى «يهوذا» قد خرجت

---

[٢] كاثلين كينون، الكتاب المقدس والمكتشفات الآثارية الحديثة، ترجمة د. شوقي شعث وسليم زيد، دار الجيل، دمشق، ١٩٩٠م، ص٢٩.

[٣] روبنسون، إسرائيل في ضوء ... سبق ذكره، ص١٠٨.

من مصر، وتركت في مصر بقية القبائل التي لحقت بها، فيما نعرفه برحلة الخروج، وشكلت فيما بعد جزءًا من شعب إسرائيل. أما قبيلة سبط أشير، فهي فيما يبدو بالفعل لم تدخل مصر، إنما كانت تستقر في مواضعها التاريخية القديمة، على ساحل المتوسط الشرقي في حول صيدون القديمة/صيدا الحالية، حيث نجدها هناك تخوض معارك ضد مملكة أوغاريت كما سيأتي بيانه، ثم يستمر «روبنسون» ليوضح أن الحلف الكبير قد بدأ نواته موسى النبي عند الجبل المقدس في سيناء، حيث كان موسى قد هرب إلى هناك، قبل أن يخرج بشعبه من مصر، وسبق له أن أسس تحالفات واضحة من القبائل التي تعيش في محيط مديان، وبالخروج أمكنه صهر هؤلاء الأحلاف في شعبٍ واحد، تقوم هويته على أيديولوجيا اعتقادية واحدة موحدة.

ثم يتابع «روبنسون»، ليقول بعد ذلك إن الملك «داود» قد استكمل مهمة موسى بتوحيد العناصر القبلية المتعارضة في فلسطين، حتى أمكنه أن يقيم دولة، تجمع «العناصر المتعددة التي توحدت في الظاهر، واكتسبت ما يشبه القومية المشتركة».[٤]

ومن ثم أمكن لعالم النفس الأشهر «سيجموند فرويد» أن يقول: «إننا أضفنا إلى ثنائيات التاريخ اليهودي المعروفة، شعبين ينصهران ليؤلفا أمة، مملكتين تتفرعان من انقسام هذه الأمة، إله يحمل اسمين في مصادر التوراة، وأضفنا إلى هذه الثنائيات ثنائيتين أخريين، لتأسيس ديانتين جديدتين، تدحر ثانيهما أولاهما في البداية، ولكن الأولى لا تتأخر في انتزاع لواء النصر من جديد.»[٥]

ومع «فرويد» نقف مرةً أخرى للتوضيح، فهو يقول: إن تاريخ الإسرائيليين، هو تاريخ تحالفات وانفضاض لتلك التحالفات، إلا أن التحالف الأمثل كان بين سبط يهوذا، وأسباط إسرائيل الأخرى؛ لذلك نجد إلهين لشعبين، إلهًا ساد وبرز إبان زمن البطاركة الأوائل من إبراهيم حتى موسى، هو الإله المعروف باسم «إيل»، ثم إله آخر جديد يظهر مع موسى باسم «يهوه»، ويهوه إله يهوذا وإيل إله إسرائيل، كما هو واضحٌ في المسميات ذاتها، وتتمكن ديانة يهوذا الطارئة، الجديدة، الثانية، غير الأصلية، من دحر ديانة إيل الأولى.

---

[٤] نفسه، ص١٠٩.

[٥] فرويد، موسى ... سبق ذكره، ص٧٢.

ومزيد من التوضيح يقدمه لنا «كمال الصليبي» في عملين من أعماله، في العمل الأول يقول: «إن بني إسرائيل مثلهم مثل سائر الشعوب التاريخية، لم يكونوا شعبًا واحدًا في الأصل، بل مجموعة من قبائل مختلفة تم توحيدها على مراحل، عن طريق الالتفاف والتحالف، لسببٍ أو لآخر، ومن بني إسرائيل قبائل كانت في الأصل عبرانية، انظر مثلًا سفر التثنية (١٥: ١٢) وتتكلم الكنعانية، ومنهم قبائل كانت في الأصل آرامية، انظر سفر التثنية (٢٦: ٥). وقد كان لعبادة الإله يهوه دور أساسي في توحيد هذه القبائل المختلفة أصلًا؛ إذ إن هذا التوحيد كان يترافق في كل مرحلة من مراحله، مع تحول قبائل جديدة عن عباداتها الأصلية المتنوعة إلى عبادة يهوه، مع الإبقاء على بعض التقاليد المتعلقة بعباداتها السابقة، من أساطير وخرافات وعادات وغير ذلك. وكانت عبادة يهوه في الأصل واحدة من عباداتٍ كثيرة منتشرة. وما إن تم توحيد بني إسرائيل، حتى بدأت عبادة يهوه تتحول على أيدي أنبيائهم من عبادة وتثنية تعترف بتعدد الآلهة، إلى ديانة توحيدية أصبح فيها يهوه هو الإله الأعلى، ثم الله الواحد، بالعبرية ءلهيم، وبالإضافة إلى العنصرين العبراني والآرامي، اللذين تشكل منهما شعب إسرائيل، كانت هناك على ما يظهر عناصر أخرى، أخذت تندمج على مراحل مع هذا الشعب. إن كلًّا من هذه العناصر كانت ينتسب إلى جدٍّ أعلى. وكان اختلاف التقاليد بين قبائل شعب إسرائيل، سواء من ناحية الانتساب العرقي، أو من ناحية تنوع المعتقدات والممارسات الطقسية، ما بقي يهدد وحدة الشعب، وهي الوحدة التي كان للكهنوت الإسرائيلي بعد قيام مملكة إسرائيل، اهتمام خاص في المحافظة عليها.»[٦]

وفي العمل الثاني يقول «الصليبي»: «كان بنو إسرائيل في زمانهم في هذه الأرض، يمثلون ائتلافًا قبليًّا بين مجموعة من الأسباط، اجتمعت حوله عبادة إله واحد اسمه يهوه، وهو بالنسبة إليهم الرب، بالعبرية: آدون. والأسباط هذه من أصولٍ مختلفة، ومنها سبط لاوي الذي كان منهم وحدهم الكهنة، وما لبث الكهنوت بين اللاويين أن انحصر في بيتٍ واحد منهم هو بيت هارون، من آل عمران. والاسم في شكله التوراتي: عمرم، أما بقية الأسباط فكانوا أحد عشر في العدد، ومن هذه عشرة كانت تُعرف أصلًا على ما يبدو باسم إسرائيل، وتنتسب إلى الشعب العبري أو العبراني، واسم اللغة العبرية أو

---

[٦] كمال الصليبي، خفايا ... سبق ذكره، ص١٢٠.

العبرانية مشتق من اسم هذا الشعب، الذي كان يتكلم بها، ويُلاحَظ هنا أن بني إسرائيل حسب العرف التوراتي، لم يكونوا وحدهم العبرانيين، بل من هؤلاء أجداد عرب الجوب وعرب الشمال في الجزيرة. وكان أبرز أسباط إسرائيل العشرة الناطقة أصلًا بالعبرية: بنيامين. والاسم بالعبرية: بن يمين، أي ابن الجنوب، أو ابن اليمن. وفي التوراة مقاطع تشير إلى بني بنيامين على أنهم: يمنيم، أي جنوبيون أو يمانيون، وفي ذلك ما يدل على أن قدومهم كان أصلًا من بلاد اليمن، أما السبط الحادي عشر فكان سبط يهوذا، بالعبرية: يهوده، والسبط هذا من أصلٍ آرامي. لكن بني يهوذا تحولوا من الإرمية إلى العبرية، بعد دخولهم في الائتلاف الإسرائيلي.»[٧]

وهكذا فإن «زينون كاسيدوفسكي» يعقب على انقسام مملكة سليمان بعد موته، إلى إسرائيل في الشمال، ويهوذا في الجنوب بالقول: «إن فكرة الوحدة العرقية التي فرضها موسى على الإسرائيليين، ثم تبناها يشوع بن نون بعده، لم تصمد أمام امتحان الزمن، فقد كان التنظيم القبلي القائم لدى الساميين القدماء، على أواصر قربى الدم، أقوى من أن يتراجع، ليخلي المكان لعلاقاتٍ أخرى، نشأت في ظل الظروف التي خلقتها حياة الاستقرار. لقد كان لكل قبيلة تقاليدها الخاصة بها، بل كانت تتكلم لهجة مختلفة، وبعد موت ابن نون سرعان ما استيقظت الجروحات والنزاعات والخرافات القديمة والتيارات الانفصالية. وقد ساعد على ذلك واقع مؤداه: أنه بعد انهيار التعاون البدائي وتعمق النزاعات الطبقية، تحول الشيوخ الذين كان قد جرى انتخابهم إلى أرستقراطية وراثية، فأطلق رئيس القبيلة على نفسه لقب أمير أو قائد، ووصف نفسه بصفاتٍ مثل: جبار، نبيل، وأخذت تلك الفئات المتميزة تتنازع فيما بينها، الأمر الذي أدى إلى تفسخ وحدة الإسرائيليين وانهيارها، بل ووصل الأمر إلى حد اندلاع الحروب الأهلية فيما بينهم، وهكذا بدأ عهد الفوضى السياسية. ومما زاد في خطر انقسام الإسرائيليين إلى اثنتي عشرة قبيلة متعادية، هو أن يشوع بن نون لم يغتصب كنعان كلها. وما كتاب القضاة من حيث الجوهر سوى مجموعة من الروايات والأساطير، التي تحكي معاناة القبائل الإسرائيلية، التي عانت من نِير العبودية سنوات طويلة، ثم قامت تقاتل في سبيل حريتها.»[٨]

---

[٧] كمال الصليبي، حروب داود، درا الشروق للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ط٢، ١٩٩١م، ص٢٠.

[٨] كاسيدوفسكي، الواقع والأسطورة ... سبق ذكره، ص١٦٠.

وعلى مثل تلك التقارير التي قدمها لنا الخبراء، ساغ لروجيه جارودي أن يقيم استنتاجاته التي يلخص فيها «دي فو» ما حدث ليقول: «يؤكد الأب دوفو أن شعب إسرائيل لم يتكون إلا بعد استقراره في كنعان أن كل قبيلة من الأسباط كان لها سابقة وجودها التاريخي الخاص، قبل أن تكون اتحادًا متينًا. فبعد أن استقروا في فلسطين، نمت لديهم فكرة أن لإسرائيل تاريخًا مشتركًا قبل استقرارها.»[٩]

ثم يتابع: «إن الرب يهوه الذي قادها، سوف يفرض نفسه على جميع الأسباط الأخرى، إن توقف التفسخ بهذا التدخل التاريخي باسم وحي الرب، سوف يصبح عقد الإيمان الأساسي لجميع الأسباط. وهذا هو بلا شك مغزى اجتماع شكيم الذي تحدث عنه (سفر يشوع، ٢٤: ١–٢٨)، حيث تحقق أول اتحاد بين الأسباط، فإن يشوع بعد أن ذكر لهم الإحسان العام، الذي صنعه يهوه لهم، وهو أنه أصعدهم من مصر بيت العبودية، يوجه إلى جميع الأسباط بما فيهم أولئك، الذين لم يعيشوا التجربة الحاسمة، تجربة الخروج، سؤالًا قاطعًا: اختاروا لأنفسكم اليوم من تعبدون؟ يهوه رب الخروج أو إله كنعان (٢٤: ١٥). ولقد اختارت الأسباط جميعًا الرب يهوه. إن البحث التاريخي — كما قال فون راد — قد بين أن إسرائيل هو اسم هذا الاتحاد الكونفودرالي المُقدس بين الأسباط.»[١٠]

وعلى مثل تلك المعطيات يقدم لنا «جارودي» مدعاةً للشك حتى في عدد تلك القبائل المتحالفة، والتي قيل إنها اثنا عشر سبطًا، فيقول: «إن انحصار الأسباط في اثنتي عشرة قبيلة، لم يكن له أي واقع تاريخي، فلقد استتبع العدد اثنا عشر حينئذٍ فكرةَ الكمال؛ إذ نجد في النصوص اثني عشر سبطًا لإسرائيل، كما نجد اثني عشر سبطًا إسماعيليًّا (التكوين، ٢٥: ١٣–١٦)، واثني عشر سبطًا آراميًّا (التكوين، ٢٢: ٢٠–٢٤)، واثني عشر سبطًا آدوميًّا (التكوين، ٣٦: ١٠–١٤)، وتتغير قائمة الاثني عشر سبطًا لإسرائيل، لكن الرقم اثني عشر يبقى. فعندما انقطع سبط ليفي، أكمل النقص بمضاعفة سبط يوسف في إفرايم ومنسى، على حين نجد أن سبط جاد يحل محل سبط ليفي (العدد: ٢٦).»[١١] ونحن نعلم من دراسة الأساطير أن الرقم ١٢ كان رقمًا مقدسًا، يدل في اعتقاد

[٩] جارودي، فلسطين ... سبق ذكره، ص١١٣، ١١١.
[١٠] نفسه، ص١١٧، ١١٦.
[١١] نفسه، ص١١٨.

شعوب المنطقة القديمة في اثني عشر إلاهًا، هي علامات الزودياك الاثني عشر السماوية المعروفة، مثله في التقديس مثل الرقم سبعة المتكرر في تلك العقائد، بحسبانه دالًّا على سبعة آلهة سماوية، هي الأجرام الكوكبية السيَّارة في المجموعة الشمسية، التي كانت معلومة بالرصد الفلكي الابتدائي آنذاك.»[١٢] (عطارد، الزهرة، المريخ، المشتري، زحل، النيران الكبيران: الشمس والقمر [المؤلف]).

ونتابع رصد ذلك التكوين الهجين فيما لاحظه «شفيق مقار»؛ إذ يقول: «في حكاية يوسف نلاحظ إصرار الرواة على تكرار لفظة العبراني:

- قد جاء إلينا برجلٍ عبراني يداعبنا.
- دخل إليَّ العبد العبراني الذي جئت به إلينا ليداعبنا.
- لأني قد سرقت من أرض العبرانيين.
- وكان هنا غلام عبراني عبدًا لرئيس الشرطة.

وهذا إلحاحٌ لافت للنظر، فلفظة العبراني لم ترد في العهد القديم كله إلا سبع عشرة مرة، ومن تلك المرات السبع عشرة، حشدت اللفظة أربع مرات متتالية، على مدى إصحاح واحد من إصحاحات سفر التكوين. وهذا يتفق تمامًا مع الغرض من إبراز حكاية يوسف مع فرعون، وهو جعل يوسف المعبر الأخير بين الحقيقة الآرامية لإبراهام وإسحاق ويعقوب ويوسف، وكل أبناء يعقوب وسلالته، وبين إسرائيل، التي دقت في حكايات التوراة دقًّا متواصلًا لتعني اليهود، والمشاهد في حكاية يوسف أنه بعد هذا التركيز على لفظة عبراني، بدأ التركيز على إسرائيل، ابتداءً من: فأتى بنو إسرائيل ليشتروا بين الذين أتوا؛ لأن الجوع كان شديدًا في أرض كنعان» (تكوين، ٤٢: ٥).[١٣]

وسواء كان «مقار» هنا يقصد مع بعض اللبس أو لم يقصد، فهو يضع إصبعه ضاغطًا على التكوين الإسرائيلي اللزج، ليتفسخ عائدًا لأصوله في ثلاثة أشكال، أولاها الآرامية جنس إبراهيم والبطاركة حتى يوسف، الذي دخل مصر زمن السيطرة الهكسوسية المكونة من أحلامو/أحلاف، أبرزها العنصر الآدومي الآرامي التأسيسي، ليبدأ تمييزًا جديدًا وملحاحًا للفصل العنصري، وتأكيد هوية خاصة هي العبرانية، التي يجب

[١٢] للمزيد انظر كتابينا: رب الزمان، والأسطورة والتراث.

[١٣] شفيق مقار، قراءة سياسية، سبق ذكره، ص٧٤، ٧٥.

أن ينتسب لها «يوسف»، وليس الآرامية، ثم مع موسى يبدأ تأكيدًا آخر جديدًا على توصيف عنصري جديد هو الإسرائيلية.

وفي قصة دخول بني إسرائيل إلى مصر، تقول التوراة: «فدخل يهوذا وإخوته إلى بيت يوسف (تكوين، ١٤٤: ١٤)، وهو ما يعني أن يهوذا قد دخل مصر مع أشقائه، لا بل والصيغة تشير إلى أنه كان قائد هذا الدخول، وحتى الآن والكلام مقبول، لكن غير المقبول أن يكون يهوذا قد دخل، ويوسف وزير لخزانة المصريين، وذلك لأسبابٍ من داخل المقدس التوراتي ذاته، حيث تم تخصيص الإصحاح (٣٨) لشرح أمر عجيب الشأن، يبين أن يهوذا كان منفصلًا عن إخوته، وتبدأ القصة هكذا: «يهوذا نزل من عند إخوته» (التكوين، ٣٨: ١)، وذلك قبل دخولهم مصر على يوسف، وأنه تحالف مع رجلٍ كنعاني من عدلام اسمه حيرة، وتزوج بنت كنعاني اسمه شوع، وأنجب منها عير وأونان وشيلة، وكبر أولاده فزوج عير من بنت اسمها تامارًا، لكن عير كان شريرًا فقتله يهوه، فطلب يهوذا من ابنه الثاني أونان أن يتزوج تمارًا، لتنجب أولادًا ينسبون إلى أخيه الميت عير، على العادة الكنعانية. لكن أونان بدوره ارتكب ما أغضب يهوه فقتله، وهنا طلب يهوذا من تامارًا، أن تذهب لأهلها وتنتظر الولد الأصغر شيلة، حتى يكبر ليتزوجها، لكنها تنكرت في زي عاهرة (لبست حجابًا)، ودخل بها يهوذا وحملت منه بولدين هما: فارص وزارح. وكل تلك الأحداث تجري، بينما بقية الأسباط قد نزلوا مصر على يوسف؛ لأنه من غير المقبول أن يفترق يهوذا عن إخوته، وتحدث له كل تلك الأحداث على مر زمنٍ طويل، ليدخل في الوقت ذاته برفقة إخوته إلى مصر! وهي النتيجة التي يصل إليها «كمال الصليبي» في قوله: «مما يعني أن افتراقه عن إخوته كان سابقًا لهذا النزوح.»[١٤]

لكن الصليبي يستمر في استنتاجه، ليقول إن ما حدث في الإصحاح ٣٨ من سفر التكوين يشير إلى أن «يهوذا» قد أخرته رحلته الكنعانية تلك عن نزول مصر مع إخوته، لكنه لحق بهم بعد ذلك. وإن لحوق يهوذا بإخوته جاء متأخرًا جدًّا، وحدث في آخر أيامهم بمصر زمن موسى (نلحظ أن صليبي له نظرية لا تعترف بدخولهم مصر الإمبراطورية، إنما هي أحداثٌ كانت تجري في بلاد عسير بجزيرة العرب، وهو ما لا يعني بحثنا هنا). ويستند الصليبي في ذلك إلى نصوصٍ توراتية فيقول: «إن موسى تمنى على

[١٤] كمال الصليبي، خفايا ... سبق ذكره، ص١٩٨.

الرب يهوه قُبيل وفاته، أن يأتي بقبيلة يهوذا المستقلة عن سائر قبائل إسرائيل، فيجمعها بهم، وذلك بالكلام الآتي: «اسمع يا يهوه صوت يهوذا وأتِ به إلى قومه، بيديه يقاتل لنفسه، فكن عونًا له على أضداده.» فلماذا هذه التناقضات في أسفار التوراة في حديثها عن يهوذا؟ السر طبعًا هو أن بني يهوذا، لم يكونوا في الواقع من بني إسرائيل العبرانيين، بل إن بني يهوذا كانوا من بني يعقوب الآراميين»، لكن لحوق «يهوذا» بإخوته عند «الصليبي» لم يتم في مصر، إنما بعد الخروج ووصول الخارجيين إلى المشارف الجنوبية لبلاد كنعان، حيث التقى هناك الخارجون «بنو إسرائيل مع بني يعقوب الآراميين من بني يهوذا ولفيفهم، فاتحدوا معهم تحت قيادة موسى قُبيل وفاته، وكانت هذه بداية الشعب التاريخي المعروف بشعب إسرائيل.»[١٥]

«وهكذا التقى بنو إسرائيل ولفيفهم من العبرانيين، لأول مرة في تاريخهم مع بني يعقوب الآراميين، الذين كانوا يتكلمون العبرية أي الكنعانية والآرامية في آن ... فتمت الوحدة بين الشعبين برعاية موسى وبركة يهوه، وعندما تمكن موسى لأول مرة في حياته، من مخاطبة جميع إسرائيل: كل يسرءل (سفر التثنية: ١٨)، وليس بني إسرائيل العبرانيين وحدهم.»[١٦]

وحتى يمكن ترتيب هذا الصخب المتنافر، يمكن إيجاز القول باتفاق الباحثين، على كون الشعب التوراتي أيًّا كان مسماه، لم يكن أبدًا شعبًا بالمعنى المفهوم، ينتمي إلى عنصرٍ إثني واضح بعينه، بقدر ما كان تجمعًا وتحالفًا قبليًّا، تشكل من مجموعة قبائل. وهنا يبدأ اختلاف الباحثين وتضاربهم، عندما تبدأ محاولة تحديد ألوان هذه القبائل وانتماءاتها الإثنية، فكاثلين كانيون ترى أنهم هجين من قبيلتين: الأولى هي قبيلة إبراهيم وإسحاق، وهم عندها من أعالي النهرين، والثانية هي قبيلة يعقوب، وتراها من شرقي الأردن. بينما لخص فرويد موقفه بالكشف عن شعبين اندمجا معها، لكن تشير معبوداتهما إلى أصولهما الأولى قبل الاندماج، فكان هناك شعبٌ يتبع إلهًا باسم إيل، وشعب آخر يتبع إلهًا باسم يهوه، وبمرور الزمن أدت الأحداث إلى سيطرة وسيادة اليهوية وانكماش وتلاشي الإيلية. أما كمال الصليبي فقد تحدث عن قبائل مختلفة في هذا الائتلاف، تعود إلى عناصر عدة: عنصر إسرائيلي ويراه هو المعروف أيضًا بالعبراني،

---

[١٥] نفسه، ص٢٠٣.

[١٦] نفسه، ص٢٣٩.

لكنه عنده ليسوا أبناء يعقوب، وأن نسبتهم إلى يعقوب، واحتساب أن يعقوب كان اسمه إسرائيل، هو محاولة مقحمة من المحرر التوراتي، لجعل الإسرائيليين أبناء ليعقوب في أسطورة صراعه مع الرب. ثم عنصر ثانٍ هو يهوذا، ويراه هو صاحب الأصل الآرامي، وهؤلاء هم بالفعل أبناء يعقوب، ثم عناصر أخرى مختلفة كقبيلة ليفي أولاي، التي امتهنت الكهانة، وقبيلة بنيامين التي يشير اسمها إلى أصولها اليمنية. هذا بينما ذهب «دوفو» إلى أن كل قبيلة من الأسباط الاثني عشر، كان لها سابق وجودها التاريخي الخاص. أما شفيق مقار فيرى أن إبراهيم وإسحاق ويعقوب كانوا آراميين، ومنهم يوسف الذي يبدأ عنده تأكيد وصف العبرانية، حيث سيصبح يوسف معبرًا نحو توصيف جديد هو الإسرائيلية.

وفي ظل تلك المعطيات يمكن أن نفهم كيف نجد في الآثار المصرية اسمًا ضمن نقوش الهكسوس، هو يعقوب هار وأيضًا يعقوب بعل.[17] والذي جاء كاسمٍ ثان للملك بنون، وهو الثاني في ترتيب ملوك الهكسوس بعد سالاتيس. وجاءنا في الصيغة «مرو سر رع، ياكب بعل أو يعقوب حر». ومعلومٌ أن بنون يعقوب هذا كان من حكام الهكسوس الكبار، إنه جلس على عرش مصر طبقًا لبردية تورين، أكثر من ثماني سنوات أو ثماني عشرة سنة.[18] كذلك أفادنا باهور لبيب بوجود أسماء أفراد هكسوس مثل «يعقوب إيل» و«نحامين».[19]

وقد ورد اسم ثالث لبنون هذا برسم «سكا»، ومن جانبنا رأيناه بالضبط الاسم «الضحاك» «إسحق»، الذي حيكت حوله وحول إمبراطوريته أساطير شتى، مما يشير إلى شهرة الرجل وقيمته في زمنه. والأمر بذلك يعني أن بنون كان يحمل اسم يعقوب واسم إسحاق معًا، كحقيقةٍ تاريخية تحولت إلى أسطورةٍ توراتية، وأصبح الشخص الواحد شخصين، وانتسب إليهما الإسرائيليون وعدوهما سلفين بعيدين، من جيل البطاركة الآباء الأوائل.

بينما إطلاقًا لم يصِلِ الظن بالتوراة رغم مبالغاتها إلى حد القول إن شعبها كان حاكمًا على مصر. وهو ما يعني أن المحرر التوراتي قد نسب بني إسرائيل الذين دخلوا

---

[17] سليم حسن، مصر القديمة ... سبق ذكره، ج٤، ص١٨٧.

[18] بيومي مهران: دراسات ... سبق ذكره، ص١٤٥.

[19] محمد حماد، كامس ... سبق ذكره، ص٤٢.

إلى مصر إلى شخصٍ قوي ملكي من ملوك الهكسوس، بسبيل ذلك تم اختيار يعقوب ليخترع المحرر التوراتي قصة صراع حدثت بينه وبين الإله، منحه بعدها الإله اسم إسرائيل، وذلك للقول إن سلف الإسرائيليين هو الملك الهكسوسي يعقوب، لهدفٍ أبعد هو التغطية على الأصول المتباعدة، وتأكيد الأصل الواحد لتلك القبائل.

وإذا كان اسم إسرائيل مركبًا من ملصقين «يسر – ءل»، الثاني فيهما هو «ءل» أو «إيل» ويعني الإله؛ فإن الملصق الأولى «يسر»، تفسره التوراة بأنه مشتق من الفعل «سره» أي يجاهد؛ لذلك تُرجمت كلمة إسرائيل بأنها «مجاهد الرب» أو «جندي الرب». ويلاحظ زياد منى أن هذه المفردة «يسر»، لم ترد في التوراة مرة أخرى إلا في (سفر هوشع، ١٣: ٣-٤)، وتؤكد المراجع المختصة أن معنى «يسر» غير واضح؛ لأنه من فعل ممات. وقد جاء الاسم في لوح مرنبتاح بالصيغة «ي. س. ر. ي. ر Y. si. r. r».[٢٠]

وبسبيل تفسير الكلمة وردت اجتهادات أخرى، فهناك من يرى أن «ءل» ليست مفعولًا به في الكلمة إنما فاعل، وبذلك يكون المعنى «إيل حارب» أو «إيل عارك» فهو صراع إيل. ويذهب آخرون إلى أن جذر الاسم في المفردة الإيجية الإغريقية، إسر ISER بمعنى مقدس؛ أي إيل المقدس. وهناك من ذهب إلى أن الاسم مختزل من الصيغة «ء يش راحيل» أي «رجل من قبيلة راحيل»، مع اجتهاد يستحق الوقوف معه. يقول إن اسم إسرائيل هو اختصار للعبارة «يه سعير هوءيل» و«يه» هي «يهوه». وعليه يصبح المعنى «إله سعير هو يهوه».[٢١] ولأن اسم إسرائيل لم يأتِ إطلاقًا مسبوقًا بأداة التعريف؛ فهو ما يعني لزياد منى أن الاسم اسم جغرافي «يسرءل هو السراة – ء ل سرءه». ولأن منى يذهب مع نظرية صليبي إلى جنوب غربي جزيرة العرب، كموطن لإسرائيل الشعب والدولة في جبال السراة، فقد قال: إن هذا المكان الجغرافي (إسرائيل) يقع في جبال السراة، ولكن في امتدادها الجنوبي نحو الحجاز واليمن. بينما من جانبنا قد اتجهنا شمالًا مع امتداد جبال السراة حتى البحر الميت الشرقي ووادي عربة، وقلنا إنها هي التي حملت في العبرية اسم «سعير»، وينتهي «منى» إلى أن المقصود من كلمة إسرائيل هو «الأرض المكرمة من الله».[٢٢] وهو ما يستدعي مباشرة وصف المصري القديم لبلاد بونت الآدومية

[٢٠] زياد منى، جغرافية ... سبق ذكره، ص١٢، ١١.

[٢١] نفسه، ص١١٢.

[٢٢] نفسه، ص١١٣.

«حسبما نظريتنا» بأنها «أرض الإله»، ثم يرى منى أن الأسباط اكتسبت اسم إسرائيل بعد أن خرجت واستقرت في منطقة السراة.[٢٣] وحملوا اسم بني إسرائيل نسبةً إلى جبال السراة، فهم أبناء السراة.[٢٤]

أما اسم يعقوب الذي نسبوا أنفسهم إليه، باعتبار أنه أبٌ لعنصرٍ بشري هو العنصر الإسرائيلي، فيبدو لزياد منى أنه كان اسم أحد آلهة المعبد الوثني للأسباط، بينما هذا يعني لدينا أن الإسرائيليين قد عبدوا الفرعون الهكسوسي بنون/يعقوب/سكا/إسحاق في إحدى مراحلهم كإله. ثم مع التطور والنضوج تم اعتباره سلف القبيلة، وهي عادة معلومة عند القبائل القديمة، حيث عادة ما يكون سلفها البعيد هو ربها، وكمال الصليبي يعيد اسم يعقوب إلى العقبة، وهو برأينا رأيٌ سديد تمامًا، لكن لأنه يريده جنوبًا عند سراة اليمن وعسير، يفسره تأويلًا حسب المعنى بأنه مسالك الجبال هناك، حيث لم يجد هناك مكانًا باسم العقبة.[٢٥] رغم وجود العقبة عند جبال سراة سعير على رأس خليج العقبة، باسمها دون حاجةٍ لأي تأويل.

وعليه فإن كلا الاسمين (إسرائيل ويعقوب)، يعودان عند مدرسة الصليبي باسم إسرائيل إلى الانتساب إلى إله العقبة أو إله السراة، التي تقع حسب مذهبنا في بلاد آدوم/بونت/أرض الإله أو الأرض المقدسة.

المهم في كل هذا أنه يمكن دون جهدٍ كبير، أن نلحظ وجود خطين رئيسيين مع خطوطٍ أخرى فرعية، في الروافد المكونة للكنفودرالية الإسرائيلية، فهناك جماعة محددة باسم يهوذا وجماعة باسم إسرائيل، وكلاهما ينتسب مرةً إلى العبريين وأخرى إلى الآراميين، وأن أحدهما دخل مصر والآخر لحق به، لكنه التقى بالطرف الآخر للحلف في بلاد مديان. لكن الخلاف البسيط لكنه الكبير العميق هنا، هو: أننا نرى ما حدث قد حدث بالعكس تمامًا، فقد دخل فريق يهوذا الآرامي مصر أولًا، ثم لحق به فريق إسرائيل في أرض مصر ذاتها، وذلك في آخر أيام الفريق اليهوذي بمصر. نحن نقصد بوضوحٍ وبدون مواربة أن «يهوذا» كان الاصطلاح التوراتي، الذي يشير إلى محتلي مصر باسم الهكسوس، وأن إسرائيل فريق نسيب وبطن حليف لحق بهم آخر أيامهم في

---

[٢٣] نفسه، ص١١٤.

[٢٤] نفسه، ص١١٦.

[٢٥] كمال الصليبي، خفايا ... سبق ذكره، ص١٨٣، ١٨٤.

مصر، أيام حكم «أسيس/العزيز/أبوفيس». أما تمني «موسى» أن يلحق بهم «يهوذا» في مصر، فتلك قصة أخرى، حيث بقي الإسرائيليون بعد طرد الهكسوس من مصر، تحت العبودية في ظل الحكم الوطني المصري، ما ينوف على قرنين من الزمان، ونحن نعلم من «يوسفيوس» نقلًا عن «مانيتو» أن قائد الهاربين «أوزرسيف»، أرسل يستدعي البدو الرعاة من أورشليم، المطرودين من مصر منذ قرنين، إبان ثورته للخروج من مصر، ووعدهم أنه سيعيدهم لحكم مصر، وهو ما يعني لنا تفسير استدعاء موسى ليهوذا، كان استدعاء للهكسوس كرة أخرى، لكن ما حدث هذه المرة هو هزيمتهم جميعًا، وطردهم من البلاد، وهو الأمر الذي سيأتي تفصيله في موضعه من هذا العمل، مدعومًا بشواهد وقرائن محترمة.

ولعلنا نذكر أن يهوذا كان فرعًا يقيم في جنوبي فلسطين والنقب، وهو موضع سكنى الهكسوس الذي حددناه، ثم إننا لم ننسَ بعدما أكده «يوسفيوس»، نقلًا عن «مانيتون»، أن الهكسوس عندما خرجوا من مصر، أسسوا مدينة أورشليم بفلسطين، ثم ظلت أورشليم مدينة يهوذية طوال عصورها بعد ذلك. وهنا نلمح المحرر التوراتي وهو يصر على التمسك بأن احتلال أورشليم، قد تم من جانب الحلف جميعه المسمى «كل إسرائيل»، تفلت منه الحقيقة التي تؤكد لنا نظريتنا: أن الهسكوس هم الفريق اليهوذي، هم من احتل أورشليم أولًا، وهذه الحقيقة المنفلتة يسجلها النص: «وحارب بنو يهوذا أورشليم وأخذوها وضربوها بحد السيف، وأشعلوا المدينة بالنار» (قضاة، ١: ٨). بنو يهوذا وحدهم دون بقية الأسباط من أخذ أورشليم إذن.

وبعد قيام دولة داود وسليمان، ثم انقسام المملكة قسمين، ظلت أورشليم عاصمة المملكة الجنوبية يهوذا، بينما أصبحت السامرة عاصمة المملكة الشمالية. لقد أجمع التاريخ الإسرائيلي على إخفاء علاقته بالبرابرة الهكسوس.

لكن المؤرخ اليهودي يوسفيوس سبق الجميع وأكد ذلك في تاريخه، قاصدًا الارتقاء ببني جلدته عن كونهم كانوا أنجاسًا ملاعين، عملوا في السخرة والعبودية ببلاد النيل، لكن ليعطينا أحد المفاتيح لنافذة تطل على ذلك الحلف الهكسوسي القديم، الذي كان الإسرائيليون أحد أطرافه. وهو الأمر الذي يفسر لنا استعباد هؤلاء في مصر بعد تحريرها من الغزاة. وبعد أن اندمج الشعبان الهكسوسي والإسرائيلي في اتحاد كونفودرالي، وبعد الخروج من مصر، كانت المحاولات الدائبة من المحرر التوراتي لنسيان الأصل الهكسوسي للعنصر الحليف والتغطية عليه، فقام يضعه في سلسلة أنساب إسرائيل باسم يهوذا، وابتدع قصة الإخوة الاثني عشر ترميزًا للأحلاف، ولكن يهوذا بمفرده قد شكل سبطًا

هائلًا، فكان هو في كفة وبقية الأسباط جميعًا في كفةٍ أخرى. ولا تعادله؛ لأنه ظل المسيطر دائمًا.

ومرة أخرى عاد الخارجون بعد الخروج للتحالف مع أخلامو مديان الآراميين، لكن الضربة المصرية ومطاردتها للفلول المطرودة من مصر، أدت إلى انفصال عُرى هذا الاتحاد إلى فصائله الأولى، وهو ما تعبر عنه حالة العداء الذي استحكم في السنوات التالية بين حلف إسرائيل مديان في جانب، وبين العماليق في جانبٍ آخر، وبعد مرحلة يزداد التفكك، لنجد صراعًا دمويًّا بين حلف إسرائيل وحلف مديان.

ويبدو أن الإسرائيليين قد باعوا في مصر رفاق الحلف الهكسوسي للثورة الوطنية، وأن ذلك وإن عافاهم من الإبادة؛ فإنه لم يُعفِهم من العبودية. وكانت مسألة اللعب على طرفي الصراع أمرًا متكررًا لدى الإسرائيليين، تلمسه بطول تاريخهم المدون بالكتاب المقدس، سبق وأفضنا شرحه في الجزء الأول من هذا العمل، وإن كان العداء بين أطراف الحلف خاصة إسرائيل والعماليق، بحاجةٍ إلى تبريرٍ معقول وقوي، وهو ما سنرصده تفصيلًا في الفصول المقبلة من هذا البحث.

ولأن التاريخ عادةً ما يُكتب على مقعد المنتصر والأقوى والمتسلط، فقد فاحت التوراة دومًا بانحياز محرريها الواضح للعنصر اليهوذي، إزاء بقية الأسباط، حتى لو كانوا مختاري يهوه وأحبابه، ولم يزلْ هناك مزمور محبب في التلاوات يسجل غلبة «يهوذا» في النهاية على الأحلامو أو الأحلاف، وكيف انحاز الرب يهوه إلى يهوذا وحده دون بقية الأسباط المتحالفين، حتى إنه استبعد من رعايته بيت يوسف نفسه وأخيه، الذين كانوا في البداية هم الأقرب إليه والأكثر اصطفاء.

يقول هذا المزمور التاريخي فصيحًا بليغًا، يدوِّن لنا ما وصلنا إليه وما أغفله التاريخ:

> فاستيقظ الرب كنائمٍ جبار مُعيط من الخمر، فضرب أعداءه إلى الوراء وجعلهم عارًا أبديًّا، ورفض خيمة يوسف، ولم يختَرْ سبط إفرايم، بل اختار سبط يهوذا في جبل صهيون الذي أحبه.
>
> (المزامير، ٧٨: ٦٥–٦٨)

ومن هنا طغت اليهوذية حتى أصبحت علمًا على بقية الفصائل المتحالفة ليحملوا جميعًا لقب «يهود»، وتصبح أيديولوجيتهم العقدية هي «اليهودية». أما الأمر الذي يجب

التركيز عليه، فأن يهوذا ويهود ويهودية تنتسب جميعًا إلى رب التجليات المتعددة في المشروم البركاني، وفي خنافس شجرة الأيكة وعناق، أطول الفصيلة الكلبية عنقًا، ضبع آدوم، وفي الطائر البوني، وفي القمر رب الهواء «هفا» أو «هوا» أو «يهوه».

لقد هرب موسى من مصر إلى مديان، ليدين هناك بعبادة «يهوه» ويعود ليخرج برجاله من مصر إلى مديان تحديدًا ليلتقي بحلفائه في سيناء، لكن لتسيطر اليهوذية الهكسوسية المديانية من بعد، ويسود بها ربها «الكائن» الذي لا يصح النطق باسمه، بل ينادي فقط بالكائن أو «يهوه».

والواضح تاريخيًّا ومن الآثار، ومن الكتاب المقدس ذاته: أن دخول «يهوذا» مرة أخرى إلى فلسطين، عند طرده من مصر هسكوسيًّا شريدًا، أو عند خروج الإسرائيليين من مصر لحوقًا بيهوذا، مما دعم هذا الحلف الشرس، فإن كليهما لم يستطِعْ أبدًا طوال قرون عديدة، أن يكون المسيطر الأول في فلسطين، بعد استعادة مصر قوتها، واشتداد قبضتها على أراضيها الآسيوية، ومن ثم تراوحت الأحوال بين السكون وبين الحرب الدموية، بين هؤلاء وبين سكان فلسطين من فروعٍ أخرى طوال الوقت، ولم تكتب لهم السيادة إلا مع قيام مملكة داود المتحدة هناك، وحتى بعد ذلك كان هناك شكٌّ كبير في أن سيطرة ذلك الجنس، كانت مطلقة كما تحب أن توعز التوراة.

ومن كتاب «اللآلئ» الذي عثر عليه في أوغاريت/تل شمرا الآن على الساحل السوري للمتوسط، مدونًا بقلم «إيلي ميلكو» كاهن أوغاريت الأكبر، ورئيس مقدمي القرابين والمطهرين، نجد حكايات عديدة، تشير إلى أنه في ذات الوقت الذي حكم فيه «آمنحتب الثالث» وولده «إخناتون» في مصر، وهو ذات الوقت الذي كانت تهاجم فيه قبائل العابيرو/الخابيرو بلاد فلسطين، هو ذات الوقت الذي سجل فيه «إيلي ميلكو» دمار أوغاريت، على يد فصائل أجناس همجية يشار إليها مرة باسم الخابيرو، ومرة باسم اليوديم (اليهود [المؤلف]).[٢٦] إننا الآن مع فك شفرة الخيط الأخير في طلسم الخابيرو، لقد كان الخابيرو فعلًا وصدقًا هم العابيرو العبريين، هم الفرع اليهوذي الهكسوسي، الذي طُرد من مصر على يد بطل التحرير أحمس حوالي عام ١٥٨٠ق.م. وبعد مرور حوالي قرنين من الزمان تقريبًا، كانوا يحاولون استعادة السيطرة على أملاك مصر في

---

[٢٦] إيلي ميلكو كبير كهنة أوغاريت، اللآلئ، ترجمها ديل ميديكو عن الأوغاريتية، ترجمها إلى العربية مفيد عرنوق، دار أمواج، بيروت، ط٢، ١٩٨٩م، ص١٨٧.

فلسطين، ليأتينا ذكرهم في وثائق المنطقة، ووثائق العمارنة ورسائلها التي تجأر بطلب المعونة ضد الخابيرو. في الوقت الذي كان فيه العنصر الإسرائيلي الأسير لا يزال بمصر، على استعدادٍ للخروج واللحوق ببقية فصائل الأحلامو، التي شتتها وفرقها فراعنة مصر الأشاوس. وبذلك نكون قد عثرنا على تفسير كيف كان الخابيرو ما زالوا عبيدًا بمصر، بينما كانوا في الوقت ذاته — زمن العمارنة — يهاجمون أراضيَ مصر في فلسطين. لقد كان الخابيرو في نصوص العمارنة هم اليهوذيين الهكسوس.

ويتأكد صدق فهمنا هنا بما ورد بالكتاب المقدس، من فلتاتٍ كانت تفرق بوضوح في أكثر من موضع من أسفاره، بين الإسرائيليين من جهة وبين العبريين من جهةٍ أخرى، رغم نظريته الشاملة في كونهما إثنية واحدة. فهو يقول في سفر صموئيل أول: «والعبرانيون الذين كانوا مع الفلسطينيين منذ أمس وما قبله، الذين صعدوا معهم إلى المحلة من حواليهم، صاروا هم أيضًا مع إسرائيل الذين مع شاول ويوناثان» (١٤: ٢١). وهو ما يعني أن المحرر كان يعلم أن العبرانيين غير الإسرائيليين.

ومن جانبٍ آخر تحرم شريعة التوراة استعباد الإسرائيليين، لكنها لا تحرم استعباد العبري (انظر سفر اللاويين، ٢٥: ٣٩؛ وسفر الخروج، ٢١: ١٢؛ وسفر التثنية، ١٥: ١٢؛ وسفر إرميا، ٣: ٩–٤)، كذلك تبين الإصحاحات ١٣: ٣، و٦: ٧ من سفر صموئيل أول تباينًا واضحًا لدى المحرر التوراتي، وتمييزًا بين بني إسرائيل وبين العبريين.

وهكذا نرى أنه مع تأخر الإسرائيليين في الخروج، ثم لحوقهم باليهوذيين الهكسوس في زمانٍ تال، قام محررو التوراة باحتساب اصطلاح العبري أي حلف البدو، دالًّا على إثنيةٍ بعينها، نسبوا إليه إثنية أخرى هي الإسرائيلية، رغم أنهم بدروهم كانوا قبائل وشراذم متحالفة. فأخذت التوراة تؤكد وتزيد وتردد، أن يوسف كان عبرانيًّا، أي بلغتنا أو حسب نظريتنا، أنه كان هكسوسيًّا خابيريًّا، كما كان الجد الذي انتسبوا إليه يعقوب/إسحاق الضحاك. ومن هنا أصبح الهكسوس أرومة أولى هي يهوذا العبري، الذي تم إدراجه ضمن الأسباط بالقول، أنه كان الأخ الأكبر بين أبناء إسرائيل، ليصبح اليهوذيون الهكسوس الخابيرو إسرائيليين، ويصبح الإسرائيليون خبيرو هكسوسيين. ومن ثم فإن هناك نتيجة أخرى تترتب على هذا، حيث سيكون هناك خروجان قد تمَّا من مصر: الخروج الأول هو خروج الهكسوس اليهوذيين، ثم تلاه الخروج الثاني وهو الخروج الإسرائيلي، وكلاهما بدوي، كان اليهوذي فيه يحمل النعت عبري أو خابيري، ثم تم تعميم صفة العبري بعد ذلك لتشمل إسرائيل.

ويبدو أن هذا المعنى كان يداعب الأركيولوجست «كاثلين كانيون» لكنها أبدًا لم تصل إلى كون الخبيرو في نصوص العمارنة، كانوا هم فصيل يهوذا الهكسوسي وأنهم غير الإسرائيليين، فهي تقول: «إن قصة الخروج في حد ذاتها قصة مركبة، ففي وجهها الأول يبدو الهروب، الذي ينظر إليه المصريون بمثابة اختفاء مزعج ومتعب، لمصدرٍ مفيد من مصادر عمل السخرة، وفي وجهها الثاني يبدو كأنه طرد لعبيدٍ متمردين أو أجانب متسللين. ومن هنا يمكن القول بأنه توجد قصَّتان على الأقل للخروج، مندمجتان في قصةٍ واحدة ... وبالنظر إلى وصف طريق الخروج، تقول مناقشات الأب دو فو De Vau إن هناك طريقين منفصلين لهذا الخروج، وهو أمرٌ أكثر إقناعًا. أحد هذه الطرق يمر بحافة الزاوية الجنوبية الشرقية للبحر المتوسط، ومن ثم تدخل الجزء الجنوبي من فلسطين. ومن هنا تكونت قبائل يهوذا الجنوبية (وهو ما نراه الخروج الهكسوسي اليهوذي، الذي اتخذ طريق ساحل المتوسط ودخل فلسطين من جنوبها، واحتل أورشليم [المؤلف]). أما الطريق الثاني الذي سار عليه موسى وهو شخصية تاريخية، فينحرف بدرجةٍ كبيرة نحو الجنوب، إلى أطراف شبه جزيرة سيناء (وهو ما نراه الخروج الإسرائيلي، الذي اتجه إلى بلاد مديان، في عمق سيناء الجنوبي والشرقي [المؤلف]) ... وهناك موقعٌ آخر محتمل للجبل المقدس هو خليج العقبة.»[٢٧]

وتتابع كانيون تصورها لخروجين احتسبتهما كليهما لبني إسرائيل بالذات، فتقول: «أكد معظم الباحثين المحدثين النظرية القائمة على دخولين منفصلين لفلسطين من الجنوب ومن الشرق، ففيما يتعلق بالدخول من الجهة الجنوبية، لا توجد شواهد أثرية مؤكدة، لكن في نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد (وهو زمن سقوط إخناتون [المؤلف]) تعرضت المدن الفلسطينية لتدميرٍ شامل.»[٢٨]

ويتأكد صدق تخريجنا هذا عندما نتذكر ما سبق وأوردناه حول حملة الفرعون سيتي الأول على فلسطين، والتي كان غرضها صد هجمات العابيرو القادمين عبر نهر الأردن من الشرق إلى فلسطين.[٢٩] وكان اسم العابيرو قد لحق الجميع يهوذيًّا وإسرائيليًّا، وبحسبةٍ بسيطة سنكتشف مدى وجاهة نظريتنا في تحديد زمن الخروج

[٢٧] كاثلين كينوني، الكتاب ... سبق ذكره، ص٤٠، ٤٣.

[٢٨] نفسه، ص٤٤.

[٢٩] السواح/الحدث ... سبق ذكره، ص٦٤.

الإسرائيلي من مصر ومدى دقتها، وهو ذات زمن الهجمة الهكسوسية الثانية على مصر زمن أمنوفيس/آمنحتب، الذي أشار إليه يوسفيوس نقلًا عن مانيتو، والذي احتملنا أن يكون هو زمن آمنحتب الرابع/إخناتون، من مجموع مواصفات قدمها يوسفيوس تطابق إخناتون. فقد انتهى حكم إخناتون/آمنحتب الرابع عام ١٣٥٠ق.م. وبعدها نؤكد مباشرة خروج الإسرائيليين من مصر، وبعدها مباشرة تأتينا أخبار حملة الملك سيتي لصد هجوم العابيرو، والقادمين من شرقي الأردن إلى غربه بفلسطين عام ١٣٠٩ق.م. وبالحساب السهل نكتشف أن فرق زمن الخروج الذي افترضناه مع آخر أيام إخناتون، من زمن حملة سيتي، هو زمن وصولهم شرقي الأردن لعبوره، هو بالضبط الزمن الذي قضاه الإسرائيليون في سيناء؛ لأن الفارق هو بالضبط أربعون عامًا، تلك المعروفة باسم سنوات التيه.

وفي كتاب اللآلئ الأثري الذي كتبه كاهن أوغاريت «ميلكو» — والذي أثار ضجة عالمية بعد أن تم العثور عليه كاملًا — حتى أسماه البعض: التوراة الكنعانية — يوضح في ثناياه أن سبطًا مثل أشير لم يدخل مصر إطلاقًا، فقط ربما كان حليفًا أصيلًا ضمن الأحلامو، الذين كانوا يحاولون استعادة قوتهم، بعد ضربة مصر القوية التي هشمت الحلف، فنجد إشاراتٍ عديدة في اللآلئ إلى «الأشيرتم»، وهي صيغة جمع لكلمة «أشير»، اسم أحد الأسباط.

ورغم ما لحق نصوص الكاهن «ميلكو» من تلفٍ، فإن فيها الكثير مما يمكن قراءته، مثل ذلك النص الذي جاء في اللوحة IIAB يقول:

> ولكنهم ضاعفوا الخلاف هؤلاء الأشيرتم، فخذ شباكًا وأنت تنحني ... انشقاق رؤساء اليوديم ... فيما قاسة إيل ... وأبناء إيليم سوف يدمرون أتباع أيل ....
>
> ها هي النار منذ يومين تلتهم، وكل شيء وقع في العار، والأشياء القبيحة في القصور ... يذبح الأبقار حتى المواشي الصغيرة، يرجم الثيران وتحت تأثير اللعنات تهلك العجول ... وأنا أوافق على أن نخبر بأني أنشر الدمار في الأردن، إلى أحزانك سوف لا تدير وجهها قرتوهة Qurst Uhe (قرية يهو؟ [المؤلف])، وكما أعلنت سينهار عرشها وستكون المغارة مسكنها، سوف أدمر ميراثها وستفنى ... ذل الليبنت YABNT.[٣٠]

[٣٠] نشرها فيللور تحت عنوان: نشيد عليان بعل وذلك في مجلة سوريا عام ١٩٣٢م، ص١١٣، ١٦٣.

وفي اللوحة IAB

كعلامة حداد ينثر على رأسه الرماد، الفلسطيني أمسك به حتى جعله يسقط، فاختبأ هربًا من حصارهم ... لا تعطِ وجهك إلى العدو القاسي، عندما يتقرر جر العدو رئيس اليوديم حتى حلبا، لاحتلال رهايتم وسحق بيت الأحرار، اقبل أن يحكموا الأردن.[٣١]

وفي اللوحة VAB

عندما يتقدم العبريون، حدد حدودًا للعبريين، لتكن قيلة Queilah للعبرانيين، وشمشيراي وأعالي الصحراء Shensheray لدغي Ladoghy وأشيرة Asherat من عاي.

Ai حتى قادش Quadesh، ونحو مصائبك سوف لا تدير وجهها مصر القاسية.

إنهم باللعنات دمروا كفتور Kaphtor، حجبوا مساكنها بقُوًى سماوية، وأرض ميراثها، بمساعدة ألف إبليس مقاتل كالجيش، أسقطوها تحت الأقدام، وبسرعةٍ جعلوها تنحني مثقلة بالشقاء.[٣٢]

ومثل كل النصوص القديمة، تبدو نصوص الكاهن ميلكو ملتبسة وصعبة الفهم، مع عدم اكتمال الجمل بسبب التلف والفقد، وميلكو الذي نعرفه كان يعمل في بلاط آمنحتب الرابع/إخناتون بالعمارنة بمصر على وجه التحديد، قبل أن يعود إلى بلاده أوغاريت. إلا أنه يمكن تكوين فكرة عامة من تلك النصوص تشير إلى حروب طاحنة، يقف سبط «أشير» كعنصرٍ واضح فيها، ويحالفه عنصرٌ آخر وهو «يوديم»، أي اليهود اليهوذيون، وليس في كل نصوص «ميلكو» إشارة واحدة إلى قبائل إسرائيل، مما يعني أنها لم تكن قد ظهرت بعدُ في المنطقة حتى زمن كتابة ذلك النص، ولم تشارك في تلك المعارك في البلاد الواقعة على الساحل الشرقي للمتوسط، وهو ما يعني أن القبائل الإسرائيلية كانت حتى ذلك الوقت لم تخرج بعدُ من مصر، وأن من خرجوا وأثاروا المعارك في المنطقة هم اليوديم/اليهوذيون/الهكسوس.

---

[٣١] نفسه تحت عنوان «موت» بنفس المجلة، ١٩٣٤م، ص٣٠٥، ٣٣١.

[٣٢] إيلي ميلكو، اللآلئ ... سبق ذكره، ص٧٠، ٨٢، ٨٣، ١٢٥، ٣٠.

ويؤيد تفسيرنا هذا أنه في تقسيم الأرض على الأسباط فيما بعد، كان سبط أشير أقرب الفروع مكانيًّا إلى أوغاريت، مما يشير إلى استقراره في المناطق التي استولى عليها قبل الخروج الإسرائيلي، حيث كان عنصرًا هكسوسيًّا أو حليفًا تابعًا، وكان يستقر هناك من زمن طويل.

ثم ملحوظة أخرى تشير إلى معارك خاضها رئيس اليهوذيين ضد الفلسطينيين، مما يشير إلى التواجد اليهوذي والتواجد الفلسطيني المستقر على الساحل زمن العمارنة، وهو المؤكد تاريخيًّا، حسبما أوردنا في فصل لغز البلست. ثم يحدثنا النص: «إنهم باللعنات دمروا كفتور» ولم يقل الكفتوريين حتى لا ينصرف ذهننا إلى الفلسطينيين البلست على الساحل الكنعاني. لقد خص الجزيرة «كفتور» بالذكر، وكانت تطلق عمومًا على جزر البحر المتوسط في نصوص العمارنة. إن النص يشير إلى تدمير اليهوذيين الهكسوس لبلاد كفتور بمساعدة ألف إبليس، وسبق وعلمنا من هم الأباليس أتباع ست تيفون. وبالطبع لا يمكن تصور أن تدمير كفتور كان عند احتلالها، فهذا زمن يبعد إلى الوراء حوالي قرنين من الزمان، لكنه حدث عند طردهم من مصر، حيث نجد في سجلات فراعنة التحرير نصوصًا، تشير إلى أن فراعنة التحرير كانوا على اتصالٍ واضح بقيادة الجزر، وأن الثورة التي حدثت في مصر ضد الهكسوس، قد واكبتها ثورة أخرى حدثت في كريت ضد الاحتلال الهكسوسي، حيث نجد لوحًا دونه أحمس بالكرنك، لتخليد أعماله وأعمال والدته الجليلة القدر «إياح حوتب»، التي قادت الجند بعد موت زوجها سقنن رع، حيث شب ولداها كامس وأحمس لمتابعة نضال الأب الشهيد. وفي ذلك اللوح نجد إشارات واضحة لاتصالاتٍ بين قادة التحرير في مصر وبقية الثوار في بقاع الإمبراطورية الهكسوسية، الذين ثاروا بتحريضٍ وبقيادة مصر، خاصة تلك المراسلات مع أهل بحر إيجة، الذين كانوا منذ زمنٍ مبكر أتباعًا وحلفاء مخلصين لمصر وملوكها.

وفي زمن التحرير سجل اللوح المذكور أن سكان بحر إيجة، قد أطلقوا على المرأة الحديدية «إياح حوتب»، لقب سيدة جزر البحر الأبيض «حايونبوت». ويوضح محمد حماد معنى هذا الاسم: حايونبوت بقوله إنه: «جزيرة كريت وما حولها من جزر؛ إذ إن هذه الجزر تعاونت مع المصريين في كسر شوكة الهكسوس في المنطقة كلها.» ثم يعقب على عباراتٍ أخرى باللوح بقوله: «ويمكن أن نرى كذلك في هذه الكلمات ما يشير إلى أن هذه الملكة، قد قامت كذلك بنشاطٍ ملموس خارج البلاد»، «ولا يستبعد أن يكون أهل الجزر أنفسهم هم الذين خلعوا على تلك البطلة ذلك اللقب مخلصين؛ لإعجابهم بها، فهم لا شك قد كرهوا حكم الهكسوس، وضاقوا به كما ضاق به المصريون. ثم إنهم وجدوا

في مصر أقوى معين لهم على الخلاص. ولا شك أن هذه العلاقة القوية، التي نشأت بين مصر وكريت كانت لها أهمية خاصة، ظهرت في الثقافة وفي الصناعة والصلات، التي تبُودلت بين أهل البلدين منذ أقدم العصور.»[٣٣]

أما التعبير «انشقاق رؤساء اليوديم»، فيوضح أن تلك الثورات التي اندلعت بتدبير حكام طيبة من فراعنة التحرير، في المناطق التي كانت تابعة لمصر من البدء، قد أدى إلى خلافاتٍ واضحة بين رؤساء الحلف الهكسوسي، أدت إلى انشقاقهم وتفسخ حلفهم. والإشارات مثل رجم الثيران وذبحها، تردد صدى ما نجده بعد ذلك في الشريعة التوراتية، التي كانت تأمر بإبادة المدن بشرًا وحيوانًا وعمرانًا، وهي ذات الفعال التي سجلها المصريون عن محتلي بلادهم الهكسوس.

ولا يفوت الفاحص هنا الأسماء التي وردت بتلك النصوص لمواضع جغرافية، فدمار الأردن يترافق مع أولئك الذين يسكنون المغارات، الذين أذلوا أوغاريت، وقد ترجمت «ذل الليبنت»، بينما قراءتها الصحيحة. كما وردت بالنص YABNT، والياء تستبدل بالهاء أداة التعريف السامية الشمالية، إنها «هـ - بونت» فهي ذل البونتيين أو المذلة لهم، أما قرتوهه QUARTUHA فهي «قيراتو». وقد جاءت بالنص واقعة في محيط الأردن وبلاد بونت، ونعتقد أنها الآن «قريات» إلى الشمال الشرقي من عاصمة آدوم (البتراء)، أو القرية قرب الحجر على ساحل البحر الأحمر الشرقي جنوبي آدوم، وتقع في محيط منطقة تحمل ذات التنغيم، فهي تقع في وادي القرى.

أما «مفيد عرنوق» فيلخص لنا رأيًا سائرًا، ألقاه المؤرخون إلقاء يقول: إنه «في فلسطين اختلطت شعوبٌ سامية، بشعوبٍ منحدرة من المناطق الجبلية الشمالية. وهذه الشعوب — وبنوعٍ خاص الأناضولية القديمة — غير سامية، ألفت فيما بعد الشعب الحثي HITTIES، الذي خلف في فلسطين طابعًا مميزًا بالنسبة لبقية الأعراف، وهو الأنف المعقوف، الذي كان من المعتقد أنه من المميزات السامية وبنوعٍ خاص اليهود، بينما هو كما نرى اليوم يعود إلى السلالة الأناضولية، فهو إذن غير سامي انتقل إلى الساميين عن طريق التمازج السلالي.»[٣٤]

[٣٣] محمد حماد، كامس ... سبق ذكره، ص٦١–٦٤.

[٣٤] مفيد عرنوق، تعقيباته على ترجمته لكتاب إيلي ميلكو (اللآلئ) ... سبق ذكره، ص١٣٥.

أما الأركيولوجي والعالم اللغوي في الأوغاريتيات البروفيسور «ميدكو»، فيقدم لنا التباساتٍ وخلطًا تاريخيًّا اعتدناه في متابعتنا لتاريخ المنطقة، وفي وسطها إضاءات برقية حقيقية، تبدو كحدسٍ سريع تأكد لنا يقينه بعد كل ما قلناه. ويقدم لنا هذا المزيج المتنافر في قوله: «من هم العبرانيون؟ ومن أين أتوا؟ جوابًا على هذه الأسئلة التي طالما اكتنفتها المتناقضات، يمكننا اليوم إعطاء جواب عنها، فكان دخولهم إلى فلسطين في زمن تل العمارنة، أي حوالي ١٤٠٠ق.م. ويصح أن يكونوا من قبائل الخبيرو، التي كانت تقاتل آنئذ الكنعانيين. أما تقاليد العبرانيين فقريبة في ذلك العهد، من تقاليد الحيثيين وشعوب بين النهرين. ومن المرجح أنهم كانوا يتكلمون لغةً قريبة من اللغة الحوية، Hevien، كتابتها هيروغليفية استخدمها الحيثيون الأوائل. ولما كان إلههم يُدعى يه أو يهوه، فثمة صلات لغوية وعرقية، كانت تربطهم بالحيثيين والحويين الساكنين في البلاد. إذن الافتراض هو أن العبرانيين يؤلفون بقايا الحيثيين، الذين اجتاحوا مملكة بابل بتاريخ ١٩٠٠، ونحن نلاحظ أن التوراة تعتبر دومًا الحيثيين والحويين على صلاتٍ طيبة.»[٣٥] وهكذا حل «ميدكو» المشكلة في تلك السطور ببساطةٍ ساذجة لم تحل شيئًا، بينما استغرقت منا نحن الصفحات السوالف وما سيليها، وأكلت من عمرنا أحلى سنواته!

ويصبح الخابيرو في زعمنا اسمًا عامًّا على الأحلاف الهكسوس اليهوذيين، بينما يشكل الإسرائيليون في تلك الأحلاف واحدًا فقط من عناصرها. وإذا كان الخابيرو أو العابيرو هم أحلاف آدوم وبوادي الشام، فهو الأمر الذي يفسر للباحثين ذلك التضارب الشديد في الآراء حول أصل العابيرو. وهو ما يفصح عنه قول فراس السواح: «نلاحظ كل من أسماء زعماء العابيرو في رسائل تل العمارنة أن بعضهم من أصلٍ سامي مثل ملكيلو (ملك – إيلو)، وبعضهم الآخر من أصلٍ هندوأوروبي مثل شواردراتا ولابايو، وهذا يدل على الأصول المختلفة لجماعات العابيرو، وعدم انتمائها إلى منشأ إثني عرقي واحد.»[٣٦] وملاحظات فراس السواح على أسماء زعماء العابيرو هي ذات ملاحظاته على الهكسوس، فهو يقول في موضعٍ آخر: «ورغم أن معظم أسماء الملوك الهكسوسية سامية، إلا أننا

---

[٣٥] نفسه، ص١٨٣، ١٨٥، ١٨٦.

[٣٦] السواح، أرام ... سبق ذكره، ص٨٢.

نعثر بينها على أسماء غير سامية أيضًا، الأمر الذي يدل على وجود عناصر مختلطة في التركيب الإثني العرقي لهذه الجماعات، وربما كانت هذه العناصر غير السامية قد جاءت من أصلٍ حوري، وأن الطبقة العسكرية الحاكمة للجماعات الحورية كانت من أصلٍ هندوأوربي.»[٣٧] وهو أمر انتهى المؤرخون إلى إقراره كما جاء عند «بيومي مهران» يقول: «إن الهكسوس أنفسهم كانوا خليطًا من أجناسٍ مختلفة ما بين آرية وسامية.»[٣٨] لذلك ينتهي السواح إلى القول: «إن هؤلاء الخابيرو لم يكونوا جماعةً عرقية متميزة، بل أخلاطًا من أجناسٍ شتى، ولا تساعدنا أسماء الأعلام الدالة على أفرادٍ منهم في نصوص ماري وغيرها من ممالك البرونز الوسيط، على تبين لغة واحدة تجمع بينهم. كما أن هذه النصوص لا تساعدنا على تحديد نمط حياة موحد لهذه الجماعات.»[٣٩]

ويذكر السواح تفصيلةً تشغلنا وتغنينا، وتؤكد نظريتنا في تحالف عنصر جنوب جزيري وزنجي، مع عنصر هندوآري قادم من الشمال، في المركز التجاري العالمي الوسيط؛ إذ يقول: «وتشير هذه النصوص إلى جماعتين رئيسيتين في الخابيرو هما: بنو يامينا أو أهل الجنوب، وبنو شمأل أي أهل الشمال.»[٤٠]

إن الخابيرو أو يهوذا أو الهكسوس كانوا يتشكلون من موجتين مهاجرتين، موجة مختلطة زنجية — جنوب جزيرية قادمة من جنوب الجزيرة، قبل أن تتكلم العربية المعروفة، ويمثلهم اصطلاح بنيامين/بنويمينا، التي تعني أبناء الجنوب؛ لأن الكلمة يمن في العبرية تعني الجنوب، كما تعني بلاد اليمن «ساكن الجزيرة كان يحدد الاتجاهات الأصلية، بالتوجه نحو شروق الشمس، فتصبح بلاد اليمن عن يمينه والشام عن شماله». أما الهجرة الثانية فهي هندوآرية قادمة من الشمال الأرميني، والتركي، هم بنو شمأل أو بنو الشمال أو بنو شمأعيل (إسماعيل).

وقد ذكرت بداية ملحمة قراتو الأوغاريتية، أن HBR العابيرو فئة عظيمة جبارة، وأن قادتهم كانوا يعرفون بلقب Try الجبابرة أو العمالقة.[٤١]

---

[٣٧] نفسه، ص٢٤، ٢٦.

[٣٨] بيومي مهران، دراسات ... سبق ذكره، ص١٣٩.

[٣٩] السواح، أرام ... سبق ذكره، ص٢٦.

[٤٠] نفسه، ص٢٧.

[٤١] شيفمان، أوغاريت ... سبق ذكره، ص٢٧.

وتتتالى الأحداث ويخرج الإسرائيليون من مصر بقيادة موسى، ولا يأخذون الطريق المباشر إلى فلسطين من شمالي سيناء، والمحاذي لساحل المتوسط لدخول فلسطين من حدودها الجنوبية المفتوحة على سيناء، فإنهم بدلًا من ذلك يدورون داخل سيناء دورانًا طويلًا مع ساحل ذراعي البحر الأحمر. وعللنا ذلك بأنهم اتجهوا قاصدين إلى حلفائهم التاريخيين في مديان، ودخلوا فلسطين من شرقها بعبور نهر الأردن إلى غربه، ليظلوا أربعة قرون يعيشون في هيئة ائتلافٍ قبلي (نظام القضاة)، حتى تمكن أحد أفراد الفصيل الإسرائيلي المعروف باسم «شاءُول» من قبيلة بنيامين، أن يقيم المملكة، لكن ليلتف عليها العنصر اليهوذي بقيادة «داود»، الذي كان من يهوذا حوالي ١٠١٢–٩٧٢ق.م. ويتم قتل «إيشبوشت» ابن شاول، ليستولي داود واليهوذيون على الحكم.

> وكان إيشبوشت بن شاول ابن أربعين سنة، حين ملك على إسرائيل، وملك سنتين، أما بيت يهوذا فاتبعوا داود.
>
> (صموئيل ثاني، ٢: ١٠)

وفي عهد سليمان بن داود حوالي ٩٧٢–٩٣٢ق.م. يدون المقدس عن الاتحاد بين العنصرين اليهوذي والإسرائيلي:

> وكان يهوذا وإسرائيل كثيرين كالرمل الذي على البحر في الكثرة.
>
> (ملوك أول، ٤: ٢٠)

> وسكن يهوذا وإسرائيل آمنين.
>
> (ملوك أول، ٤: ٢٥)

لكن مع موت سليمان يقرر الفرع الإسرائيلي الاستقلال، وفي حوالي عام ٩٣٢ق.م. تنفصل القبائل، ويؤكد لنا المقدس أن ذلك النزوع للانفصال، كان قائمًا من زمن داود، فيقول:

> فعصى إسرائيل على بيت داود إلى هذا اليوم، ولما سمع جميع إسرائيل بأن يربعام قد رجع، أرسلوا فدعوه إلى الجماعة، وملكوه على جميع إسرائيل، ولم

يتبع بيت داود إلا سبط يهوذا وحده، ولما جاء رحبعام (ابن سليمان [المؤلف]) إلى أورشليم، جمع كل بيت يهوذا وسبط بنيامين.

(ملوك أول، ١٢: ١٩–٢١)

وهكذا فإن «يربعام» الإسرائيلي، كان قد عصى على سليمان اليهوذي وثار عليه، ثم هرب إلى بلاد مصر لاجئًا سياسيًّا، وعاد بعد موت داود، ليملك على الإسرائيليين في مملكةٍ منفصلة باسم إسرائيل وعاصمتها السامرة، بينما حكم «رحبعام بن سليمان» المملكة الجنوبية، باسم مملكة يهوذا وعاصمتها أورشليم. وعلينا أن نتذكر هنا أن الفرعون «شيشنق»، قد هاجم مملكة رحبعام بن سليمان، بعد تولي رحبعام بخمس سنوات، مما يشير إلى أنه كان لا يزال يدعم يربعام الإسرائيلي في انفصاله عن يهوذا، حيث نجد مملكة إسرائيل تقوم في الشمال بعد غزوة شيشنق لفلسطين. أما ما يجب أن نلحظه هنا فهو أن النصوص التوراتية، عندما تتحدث عن الشعبين متحدين، تستخدم اصطلاح كل إسرائيل أو جميع إسرائيل ويهوذا، كما في قول المقدس التوراتي عن سنى حكم الملك داود:

وفي أورشليم ملك ثلاثًا وثلاثين سنة على جميع إسرائيل ويهوذا.

(صموئيل ثاني، ٥: ٥)

وعندما كانت نصوص التوراة تود الإشارة، إلى واحدةٍ من قبائل التحالف الإسرائيلي مثل بنيامين؛ فإنها كانت تستخدم اصطلاح سبط، أي فرع إسرائيلي، لكنها حين كانت تريد الحديث عن إسرائيل، بكل أسباطها وحدها دون يهوذا، فقد كانت تستخدم اصطلاح «بيت إسرائيل» لتميزه عن «بيت يهوذا»، مما يشير إلى انفصالٍ واضح بين قبائل يهوذا وبين قبائل إسرائيل، فأبناء إسرائيل أسباط، أما يهوذا فليس سبطًا، إنما هو بيتٌ مستقل عن بيت إسرائيل، ثم تجمع التوراة كل بيت إسرائيل في يعقوب، وكل فصائل الهكسوس في يهوذا، كما في قولها:

بل أخرج من يعقوب نسلًا، ومن يهوذا وارثًا لجبالي، فيرثها مختاري.

(إشعيا، ٦٥: ٩)

في تلك الأيام يذهب بيت يهوذا مع بيت إسرائيل ويأتيان معًا.
(إرميا، ٣: ١٨)

أما الإشارة الفصيحة البليغة، فهي في تقرير الرب نفسه، أنه حاول لصق البيتين معًا قدر استطاعته لكنه فشل، انظره يقول:

ألصقت بنفسي كل بيت إسرائيل وكل بيت يهوذا، يقول الرب، ليكونوا لي شعبًا واسمًا وفخرًا ومجدًا لكنهم لم يسمعوا.

(إرميا، ١٣: ١١)

وتنقسم المملكة وينفك الحلف، ويظل الأنبياء يحلمون بحلم الأحلامو مرةً أخرى، وأن المملكة ستقوم في أيامٍ مقبلة، يرددون الأماني قائلين:

ها أيام تأتي، يقول الرب، وأقيم لداود غصن بر فيملك ملك، وينجح ويجري حقًّا وعدلًا في الأرض، في أيامه يخلص يهوذا ويسكن إسرائيل آمنًا.

(إرميا، ٢٣: ٥، ٦)

أما زكريا فقد بح صوته وهو ينادي الشتات:

يا بيت يهوذا ويا بيت إسرائيل.

(زكريا، ٨: ١٣)

لكن الإشارة الهامة هنا للغاية، والتي تشير إلى أن لحظة خروج إسرائيل من مصر، كان يهوذا مستقرًّا في مقدسه أورشليم، تهرب منه مياه فلسطين وجبالها، في كنايةٍ عن خشيتها بأس يهوذا، في صيغةٍ توراتية تقول:

عند خروج إسرائيل من مصر، وبيت يعقوب من شعب أعجم.
كان يهوذا في مقدسه وإسرائيل في محل سلطانه (سيناء [المؤلف])، البحر رآه فهرب. الأردن رجع إلى الخلف، الجبال قفزت مثل الكباش، والآكام مثل حملان الغنم.

(مزامير، ١١٤: ١–٤)

وبينما يهوذا أو كما نزعم: الخابيري الهكسوسي قد استقر في جبل صهيون بأورشليم، وإسرائيل لم يخرج بعد من مصر، قال الرب عن يهوذا:

أساسه في الجبال المقدسة، الرب أحب أبواب صهيون (ومقرها مملكة يهوذا [المؤلف])، أكثر من جميع مساكن يعقوب.

(مزامير، ٨٧: ١، ٢)

لقد وضح أن الأقوى دومًا كان يهوذا، وهو من دونت أغلب أسفار التوراة في حجره، ومن على كرسي سلطته، فساد ربه يهوه بسيادته، بينما تراجع إيل رب إسرائيل، الذي كان يشغل كل سفر التكوين.

أما جبل «صهيون» الذي استبدلته المملكة بجبل سيناء المقدس، وجبل «صافون» الأقرع في الشمال السوري، حيث عبادة بعل حداد، وأطلقت اسمه على جبال أورشليم عاصمة يهوذا، فإنه لم يستطع إخفاء أصله؛ لأن «صهيون» لغةً ليست شيئًا آخر غير «صاهيون» أو «صافون»، باختلاط الياء، وكذلك الواو مع الفاء كما في «لاوي» و«ليفي».

هذا بينما ترد إشاراتٌ غامضة إلى عنصرٍ يسمى «الحوى»، كان في طريق الخارجين من مصر، وينطق أيضًا «الهوى» وهو واضح النسبة إلى يهوه، لكن تم إخفاءه بعنايةٍ في طوايا الأحداث، وهو ببساطةٍ اسم يدل على الجنس اليهوذي الهكسوسي، الذي انتشر شذرًا مدرًا في سيناء وبوادي الشام، بعد طرد الهكسوس من مصر بعد، واستعادة مصر لسلطانها على أملاكها الآسيوية.

وتلك الإشارات السريعة إلى «الحوى/الهوى»، تفصح عن نفسها وتصبح شديدة الوضوح، بعدما قلنا وشرحنا، وينجلي السر عن ذلك الشعب الغامض، الذي حير الكتاب والباحثين زمانًا، فهم الشعب الذي اتحد مع الإسرائيليين بقيادة يشوع بن نون، في نصٍّ شارد وسط أحداث، لا تعطي فرصة التأمل للكشف، ومن نماذج ذلك:

الحويون صالحوا يشوع.

(يشوع: ٩)

لم تكن مدينة صالحت بني إسرائيل إلا الحويين.

(يشوع، ١١: ١٩)

أما من هؤلاء الحويين/الهويين، فهو ما يفصح عنه نص يتحدث عن تاريخٍ قديم لعلاقة يعقوب بهم، عندما حل ضيفًا عليهم يعيش في حماهم، ويشير إلى اسم ملك على هؤلاء الهويين في قول التوراة:

حمور الحوي رئيس الأرض.

(تكوين، ٣٤: ١–٣)

لقد كان ذلك الملك الهوي الحوي يعتز ويفخر باسم إلهه، فيتسمى باسمه «حمور» مثل بقية الملوك الحميريين، ومثله كان حمورابي في بابل من قبل يعتز باسمه «الحمار أبي».

أما «زينون كاسيدوفسكي»؛ فيعقب على كل تلك الأحداث، بعد انفصال المملكة إلى عنصريها المتمايزين، بقوله: «وعلى ضوء هذه الحقائق يغدو الوضع في كنعان واضحًا، سكنت القسم الشمالي منه القبائل اليهودية القديمة، التي لم تكن في مصر في أي يومٍ من الأيام، ولم تغادره منذ زمنٍ غابر (لأنه لم يعرف ما عرفنا في بحثنا هنا [المؤلف])، وكانت قد تمثلت حضارة الكنعانيين وعبدت آلهتهم، بينما استوطن القسم الجنوبي من أرض كنعان الإسرائيليون الذين جاءوا من مصر.»[٤٢]

وهكذا خلط «كاسيدوفسكي» حابلها بنابلها، فالرجل مثله مثل كل من كتب في هذا الأمر، لمن يكن يعلم ما علمنا، وهو أن يهوذا ليس شيئًا آخر غير الحلف الهكسوسي الأخلامو قاطن الجنوب، ومن ثم رأى أن القبائل اليهودية لم تدخل مصر إطلاقًا، بل دخلها العنصر الإسرائيلي وحده؛ ولأن جنوبي فلسطين هو الملاصق لمصر، فقد استنتج كاسيوفسكي بسرعة البرق الاستنتاجية التي لحظناها عند الباحثين، خاصة الأركيولوجين، الذين نتمنى عليهم أن ينهمكوا في سبر أغوار الأرض وفك طلاسم الكتابات القديمة، ويتركوا لفلاسفة التاريخ مهمة التحليل والتركيب والربط والاستنتاج، استنتج «كاسيدوفسكي» أن سكان الجنوب هم من خرج من مصر، ليقلب بذلك التاريخ رأسًا على عقب، ويقلب الجغرافيا عقبًا على رأس. مستندًا إلى شاهدٍ آخر، هو أن قبائل المملكة

[٤٢] كاسيدوفسكي، الواقع والأسطورة ... سبق ذكره، ص١٢٣.

الشمالية عبدوا آلهة الخصب الكنعانية، بينما ظلت المملكة الجنوبية على عبادة يهوه، هذا بينما التفسير الواضح لدينا، هو أن اليهوذي الهكسوسي قد خرج من مصر مطرودًا بثورة تحرير، إلى مواضعه التاريخية جنوبي فلسطين. واستمر الفراعنة على التوالي في ضرب هذا الحلف في مواقعه التاريخية، بغرض تشتت الحلف، فوجوده خطر دائم على الحدود المصرية. وبعد ضرب الحلف وتمزقه، ذهب بعضه جنوبًا إلى جزيرة العرب، ومنه من ذهب إلى بوادي الشام الشمالية وأسس الممالك الآرامية، ومنه من تشتت في الجزر اليونانية، ومنه من استقر في مواضعه التاريخية في بلاد آدوم ومحيطها، ليخرج الإسرائيليون بعد ذلك من مصر، ويعيدوا التحالف مع الأحلاف، في محاولة استعادة صيغة الأحلامو. ويدخل الإسرائيليون إلى فلسطين من شرق الأردن إلى أريحا، ولا يهبطون جنوبها لأن جنوبها كان موطنًا لليهوذيين الهكسوس، إنما يستوطنون الجزء الشمالي الذي حمل تاريخيًّا اسم إسرائيل، مما يشير إلى أن هذا الجنوب كان مملكةً قائمة عصية، وظل الجنوب يحمل اسم يهوذا، وتتحد المملكة زمن «شاول» الإسرائيلي، لكن لتخرج سدة العرش من بيت إسرائيل الشمالي بعد ذلك إلى بيت يهوذا الجنوبي، فيستولي «داود» اليهوذي على المملكة، ويحكم بعده ولده «سليمان»، ثم يعود البيتان للانفصال زمن (رحبعام ابن سليمان/اليهوذي)، بدعمٍ عسكري مباشر من فرعون مصر ليربعام الإسرائيلي، إمعانًا في تقسيم الحلف الخطر.

وكان طبيعيًّا أن يتعبد الإسرائيليون الخارجون من مصر لآلهة الخصب والنماء، بينما يظل اليهوذيون كما كانوا في مواطنهم الأولى، وكما كانوا في مصر، وكما ظلوا بعد طردهم منها، يتعبدون لآلهة الصحارى دوشريت «سيت/عناق/هفا/يهوه» البونتي السيناوي.

وإذا كان فرع يهوذا هو الهكسوس كما نقول نحن، فذلك يفسر لنا نصًّا توراتيًّا ظل غير مفهوم زمنًا طويلًا، ورد في سفر ملوك ثاني، يتحدث عن زمن الملك يربعام بن يوآش، أحد ملوك إسرائيل الشمالية بعد انفصالها بزمن، ويحكي ذلك السفر أن يربعام هذا، دخل معارك مع جيرانه الشماليين وكانوا آراميين خلَّصًا، وأنه انتصر في تلك المعارك، وأنه «استرجع إلى إسرائيل دمشق وحماة التي ليهوذا (ملوك ثاني، ١٤: ٢٨).

وقد وقف الباحثون إزاء هذا النص يضربون الأخماس في الأسداس؛ لأن دمشق وحماة لم تكن يومًا تابعة لمملكة يهوذا، بل كانت تفصلها عن يهوذا دولة إسرائيل شقيقتها المنفصلة اللدود. فكيف استرجع ملك من دولة إسرائيل الشمالية إلى دولته

إسرائيل دمشق وحماة، اللتين كانتا تتبعان دولة يهوذا الجنوبية؟! كما لو كان بطلًا تاريخيًّا، أعاد الأمور إلى نصابها القديم الذي لم يكن حقيقة إطلاقًا.

إن المحرر التوراتي كان يعلم أن سبط يهوذا هو ذاته الهكسوس، وأنه ضمن مملكة الهكسوس الكبرى كانت دمشق وحماة، ورغم أن واقعة استرجاع يربعام للمدينتين لم تحدث إطلاقًا، فإن النص ينفتح على ذكرياتٍ كان مطلوبًا نسيانها، لكنها تقفز بين آنٍ وآخر لتعطينا مفاتيح الألغاز.

وهكذا نكتشف أن التوراة السبعونية كانت تسجل فقط زمن دخول أسباط إسرائيل وخروجهم، لتؤكد أنهم بقوا في مصر فقط ٢١٥ عامًا، بينما كانت التوراة المازورية العبرية اليهوذية الخابيرية الهكسوسية، تسجل زمنًا آخر للبقاء في مصر، بدأت به من لحظة دخول الأحلاف الكبار إلى مصر، فهذا هو تاريخها مع مصر، وهو التاريخ الذي أنهته ليس بطرد الهكسوس اليهوذيين من مصر، إنما ضمت إليه زمن بقاء حلفائها الإسرائيليين في مصر، وأنهته مع الخروج الإسرائيلي، فسجلت زمن بقاء الهكسوس في مصر، من لحظة دخولهم حتى طردهم على يد أحمس، وهو الزمن الذي يجب أن يبدأ حول عام ١٧٨٦ق.م. وينتهي بولاية أحمس فرعون التحرير حوالي ١٥٧٥ق.م. وهو الزمن الذي يساوي ٢١١ سنة، بفارق ٤ سنوات فقط، وهو ما يمكن تجاوزه في علم التاريخ، ثم أضافت التوراة المازورية الزمن الذي استغرقه بقاء الإسرائيليين في مصر، من لحظة دخولهم زمن أسيس، آخر فرعون هكسوسي، إلى زمن خروجهم بعد سقوط إخناتون، وهو الذي يساوي بدوره وعلى وجه الدقة ٢١٥ عامًا، وجمعت كليهما في زمنٍ واحد هو ٤٣٠ عامًا.

لكن يبقى أمام ما قدمناه هنا لحل مشكلة الخابيرو عقبة شديدة الوطأة، يمكنها نقض كل ما قلناه وتشتته أدراج الرياح. وهي التي تتمثل في النص الذي سلفت الإشارة إليه، في بداية الحديث عن الخابيرو والذي يعود إلى زمن رمسيس الثاني، وهو النص الذي يتحدث عن وجود الخابيرو في مصر، وأنهم كانوا يعملون في نقل الأحجار للمعبد، الذي يبنيه في رسالة الكاتب «كوسيرا» إلى رئيسه «بيكوبتاح»، التي يقول فيها:

> وقد أطعت الأمر الذي أصدره سيدي، فأعطيت قمحًا للعكسر والعابيرو، الذين ينقلون الأحجار إلى حصن رمسيس العظيم، تحت ملاحظة إفمان رئيس الضباط، وأعطيتهم القمح كل شهر، طبقًا للأمر الصادر إليَّ.

فهل ترانا قد ذهبنا في الطريق الخطأ مذهبًا بعيدًا؟ هنا كان لا بد من مراجعة الأمر كله، على الأحداث التوراتية التي يجب — وفق نظريتي — أن تتزامن مع أيام حكم أسرة العمارنة، إذا كان فرضنا لزمن الخروج صحيحًا، حيث قلنا إنه قد تم طرد الهكسوس العابيرو من مصر، على يد ملك التحرير أحمس عام ١٥٧٥ق.م. بعد أن بقوا بها مائتين وخمسة عشر عامًا، وتم أسر الإسرائيليين ليبقوا بعد هذا التاريخ مائتين وخمسة عشر عامًا أخرى، أي إنهم بذلك يكونون قد خرجوا زمن إخناتون، الذي حكم ما بين ١٣٦٧–١٣٥٠ق.م. والخروج يكون قد حدث بعد سقوطه عن العرش بعشر سنوات، أي يكونون قد خرجوا حوالي ١٣٤٠ق.م.

ويحكي الكتاب المقدس أن الخارجين قد استغرقوا في الرحلة من مصر إلى فلسطين أربعين سنة، ثم عاشوا تحت الحكم القبلي المعروف بحكم القضاة، وكانوا على الترتيب (أي القضاة):

عنثئيل بن قناز، وأهود بن حيرا، ثم القاضية المشهورة دبورة، ودبورة كلمة عبرية تعني النحل، وهي التي تعنينا هنا، حيث عثرنا معها على حل المشكلة المطروحة، كعقبة في طريق الحل الذي طرحناه.

هنا يحكي لنا الكتاب المقدس في الإصحاح الرابع في سفر القضاة، أن الملك «يابين» الكنعاني، أذل الإسرائيليين في فلسطين، وكان مقر ملكه في مدينة حاصور. أما قائد جيشه فكان اسمه «سيسرا»، وكان «سيسرا» يسكن في مدينة «حروشة الأمم».

ويشرح لنا قاموس الكتاب المقدس معنى اسم «حروشة الأمم»، تحت مادة «حروشة» بأنها تجمع سكني لأجناسٍ من أمم مختلفة، وأنها الآن هي عند أصحاب هذا القاموس، هي تل عمار على بعد ١٦ ميلًا إلى الشمال الغربي من مجدو بفلسطين.

والغريب أن الكتاب المقدس يقرر أمرًا شديد الغرابة، فيؤكد أن قائد الجيوش هذا المعروف باسم «سيسرا»، كان لديه قوة ضاربة هائلة، تتكون من تسعمائة مركبة سريعة من الحديد. وهو أمر لا يمكن على الإطلاق تصوره، مع ملك إقليمي لمدينة إقليمية بفلسطين، فهذا جيش يليق بإمبراطورية من إمبراطوريات ذلك الزمان.

ونتابع رواية الكتاب المقدس، فتقول إن القاضية النبية الإسرائيلية دبورة، كانت تعيش في مكانٍ يُدعى جبل «تابور»، أو «دبور»، وأنها دعت الإسرائيليين لمقاومة «سيسرا» وجنده عند قادش.

وبغض النظر عما لحق القصة من تهويلات أسطورية، فإن الحدث يمكن فهمه في ضوء قصة الحملة الثالثة للملك رمسيس الثاني على فلسطين، حوالي عام ١٢٩٥ق.م. ضمن حملات كانت موجهة دومًا نحو قادش الجليل ومحيطها، ويحكي لنا التاريخ:

> وفي السنة التالية، وصل رعمسيس شمالي فلسطين، حيث حاصر شاتونا، ثم دابور التي كانت تقع في النهاية الجنوبية لملكة عمورو، وبذلك يكون موقعها في غربي الجليل، وفي قلعة دابور هذه، سحب الحيثيون ملك العموريين السابق، الذي خلعوه ينبت شينا، ويبدو من النص أن الحيثيين قد استولوا على دابور السورية، وهي أقصى مدينة في الجنوب يصلها الحيثيون إلى حد الآن، وعندها دارت موقعة مهمة، الأمر الذي حدا برمسيس الثاني إلى التقدم واختراق بلاد نهرينا/دولة «ميتاني»، واستولى على رتنو السفلى/شمالي سورية، وأرواد وبلاد كفتيو. وفي هذا الوقت أو بعده بقليل قام رمسيس بغزو بلاد موآب، وآدوم.[٤٣]

هكذا تعلمنا نصوص معارك رمسيس الثاني بمعركة كبرى ضد فلسطين، وضد غزاتها الحيثيين القادمين من الشمال، وأن هناك موقعة قد حدثت عند منطقة باسم دابور تقع غربي الجليل، وهو الموقع الذي حدده قاموس الكتاب المقدس لحروشة الأمم وجبل دابور.

وبعد أن هزم رمسيس الثاني سكان تلك البلاد وقام بتأديبهم، ورد الحيثيين وأوقف خطرهم مؤقتًا، عاد إلى مدينته «بي/رعمسيس» بعددٍ غفير من الأسرى.

> تمت هزيمة الآسيويين، جميعًا أتوا صاغرين، ينحنون أمامه في قصره في بي رمسيس ميري آمون.[٤٤]

لقد كان هؤلاء الأسرى هم العبيرو، الذين جاء ذكرهم بعد ذلك، يحملون الأحجار لبناء الملك رمسيس الثاني. أما الحاسم في الأمر؛ فهو أن اسم ذلك المحارب، الذي كانت لديه تلك المدرعات الهائلة، والذي سجله المقدس التوراتي بحسبانه قائد جيوش كنعانيًّا،

---

[٤٣] سامي سعيد، الرعامسة، سبق ذكره، ص٥٠، ٤٩.

[٤٤] السواح، الحدث ... سبق ذكره، ص٦.

بخطأٍ فادح لا نعلم سره الآن، كان يحمل اسم «سيسرا»، وهو اللقب المتكرر المحبب للملك رمسيس الثاني. لقد كان ذلك اللقب هو «سي سي رع».[٤٥] وهكذا يمكن تفسير وجود عابيرو في مصر، يعملون في خدمة رمسيس الثاني، بعد طردهم من مصر بسنواتٍ طويلة. لقد جاء بهم رمسيس أسرى من حملته التي وصلت إلى «دابور».

[٤٥] سامي سعيد، الرعامسة، سبق ذكره، ص٢٤، ٢٥.

الفصل التاسع

قاطعو الرقاب

معلومٌ أن اصطلاح «سامي» أو «ساميين»، تسمية قد وضعها على أساسٍ توراتي «شلتوتزر» سنة ١٧٨١م، وانتشرت من بعده بعد أن قسم أجناس البشر حسب التوراة إلى: ساميين وحاميين ويافثيين؛ نسبةً إلى أبناء نوح: سام وحام ويافث. وأصحاب هذا التقسيم يذهبون إلى أن سام قد أنجب العبريين والعرب، الذين يسكنون بوادي الجزيرة والشام وسيناء، وأن حامًا قد أنجب المصريين والزنج الكوشيين الساكنين أفريقيا. وللعجب تمت إضافة الكنعانيين الشاميين، إلى بني حام في شجرة الأنساب التوراتية، رغم أنهم ليسوا أفارقة بل من سكان فلسطين الآسيوية، لكن يبدو أن التوراة كانت تدون ذلك بما لديها من ذكريات، زمن كانت فيه بلاد كنعان تتبع مصر سياسيًّا، فاحتسبت الكنعانيين مصريين. هذا بينما أنجب يافث الهندوآريين وضمنهم الترك والصقالبة واليونان وأوروبا. وقد عُني علماء الساميات باصطلاح اللغة السامية، مجموعة لغات شقيقة هي: العبرية والفينيقية والآرامية والبابلية والآشورية، والعربية والحبشية الجعزية والأمهرية.

وقد سبق وعرضنا للفريق الذي يعيد أصول الساميين إلى جزيرة العرب، عندما كانت جنات وارفة تزخر بالأنهار. وعلمنا أن مشكلة هذه النظرية التي تجعلها مستعصية القبول، هو أنها تعود بنا إلى أحداثٍ وقعت إبان نهاية العصر الجليدي الأخير، لتفسر لنا بها حضارات في أطراف شبه الجزيرة الشمالية في الألف الثالث والثاني قبل الميلاد.

بينما علمنا أن هناك فريقًا آخر يذهب إلى الاتجاه المعاكس تمامًا، فيأتي بالساميين مع الهندوآريين من بلاد أرمينيا القديمة، دون تبريرٍ واضح للخلاف اللغوي والجنسي، لشعبين ينطلقان من مكانٍ واحد في اتجاه هجرة واحد، ليستقروا في مكانٍ واحد، ويستمد

هذا الرأي رؤيته من سفر التكوين التوراتي، الذي ينسب الشعوب السامية إلى أرفكشاد Arpachsad، أو أربكسد بن سام بن نوح (تكوين، ١٠: ٢٢–٢٤ و١١: ١٢).

حيث لُوحظ أن هذا الاسم هو بالضبط الاسم التاريخي لمنطقة «أرابكست»، أو آرابا – خيتيس Arrapa Chitis التي تسمى الآن «البك»،[١] ولعله من الواضح أن الكلمة هي أيضًا عرابة خيتيس، ولو أخذنا بهذا الشكل اكتسب الاسم معنى واضحًا، هو العرب الحيثية أو الكاسية أو العرب الكاسيين أو القيسيين، ويكون هؤلاء حسب نظريتنا، هم من منحوا وادي Arrapa عند العقبة اسمه عندما جاءوه مهاجرين. والتوراة تشرح لنا أن هناك قومًا قد تعرضوا لكارثةٍ طبيعية، مرموزًا لها بأسطورة «طوفان نوح»، اضطروا معها إلى الهجرة على فلكٍ أسطوري من مكانٍ ما في الشرق، معبرةً بذلك الترميز عن وطنٍ أول بعيد، هو برأينا براري أواسط آسيا شمالي الهند، ثم تقول الأسطورة ترميزًا للهجرة الأولى: إن السفينة ألقت مراسيها عند المحطة الأولى لأولئك المهاجرين على جبال أرارات، الموجودة الآن بذات الاسم قرب بحيرة فان، في بلاد أرمينا إلى الشمال من العراق في محيط بحر قزوين، ومن هناك انطلقت أجيال جديدة من البشرية، تفرقت أجناسًا في أنحاء العالم الشرق أوسطي المعروف آنذاك، والتوراة تؤكد:

> واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم
> السابع عشر من الشهر على جبال أراراط.
>
> (تكوين، ٨: ٤)

وهنا يلفت «جودي» نظرنا إلى أن الساميين، ليس لديهم اسم مشترك للجبل، لكن لديهم اسم مشترك للنهر، ويستنتج من ذلك أنهم كانوا في الأصل أهل زرع، يعيشون معًا قرب الأنهار في مناطق ليست جبلية أو صحراوية،[٢] وهو يريد بذلك تأكيد الأصل التوراتي الأراراتي الأرميني للساميين، كما هو في الوقت ذاته أصل الهندوآريين.

---

[١] نولدكه، اللغات السامية ... سبق ذكره، ص٢٢.

[٢] انظر جويدي في Della sede primitive Memorie della Reale Accademie.
وهو منشور في Dieliccei, classe die scienze morali storiche e filologiche.
بالسلسلة الثالثة من المجلد الثالث، روما، ١٨٧٩م، ص٥٦٦ و٦١٥.

لكن الدكتور لويس عوض من جهته، لا يعير اهتمامًا لحديث جويدي، عن الأصول الزراعية للساميين القادمين من أرمينيا. ولأن الساميين عمومًا كانوا من البدو الرعاة، فقد قام يوجز أبحاثًا كثيرة لذوي التخصص، تدعم ذلك الرأي فيقول: «ظلت القوقاز وميديا (شمالي إيران [المؤلف])، وعامة منطقة بحر قزوين، حتى العصور التاريخية الحديثة نسبيًّا ١٠٠٠–٥٠٠ق.م. مجتمعات رعاة في المقام الأول، رغم معرفتها بالزراعة ورغم الاستقرار الزراعي في أحواض أنهار الهند، كما نستخلص في كتب إيران المقدسة، ولا سيما الأفستا Aveasta والجاثا والأوبانيشاد upanishads، حيث نشم رائحة أبقار الرعي وجيادها وأعشابها الغالبة في كل سفر من أسفارها.»[٣]

ولأننا نعتقد — كما وضح — بهجرةٍ قادمة من أرمينيا، هي الهجرة الآرامية، لكنا نراها محض هندوآرية؛ ولأننا نراها هجرة لقومٍ من البدو وليسوا زراعيين، فقد ذهبنا نبحث عن تفسيرٍ لقوم رعاة رُحَّل، عاشوا في مناطق زراعية خصبة، فعثرنا عند المؤرخين الكلاسيك على ذات المشكلة تواجههم وتؤرقهم، فقد لفتت نظرهم ظاهرة شعوب مرتحلة، تسلك مسلك النظام البدوي الرعوي، رغم معيشتها حول أنهار ومناطق خصيبة، فساقوا لتفسير ذلك ألوانًا طريفة من الافتراضات، مثلما جاء عند «يفستافي» محدثًا عن قبائل تعيش في مناطق الأنهار حول بحر قزوين، تحمل اسم سكيث أو سكاث أو سكيذ، فالاسم غير منضبط على لفظٍ ونطقٍ واحد صارم في الكتابات القديمة، لكنه يدور حول ذات التنغيم، فيقول «يفستافي»:

> يُروى أن سكيث كانوا في السابق يأكلون الخبز، ويزرعون الأرض ويعيشون في المنازل ويملكون المدن، إلا أنهم بعد الهزيمة التي ألحقها بهم الفراكيون، بدلوا نمط حياتهم، وأقسموا قسمًا لا رجعة فيه، ألا يقوموا أبدًا ببناء المنازل، ولا بزراعة الأرض ولا تشييد المدن، ولا امتلاك الأشياء الثمينة. إنما جعلوا من عرباتهم مأوًى لهم، ومن الحيوانات طعامًا لهم ومن اللبن مشربًا لهم، وألا يمتلكوا من القطيع سوى ذلك القدر، الذي يسمح لهم باصطحابه من بلد إلى آخر، منذ ذلك الحين تحولوا من مزارعين إلى رُحَّل.[٤]

---

[٣] لويس عوض، مقدمة ... سبق ذكره، ص١٠٧.

[٤] يفستافي، تعليق على جغرافية الأرض، يونيسي، الفصل ٦٦٩، ضمن كتابات د. ت. م. كوزينتسوفا «الإسكيثيون» وهو مجموعة نصوص المؤرخين الكلاسيك حول الإسكيث، موسكو، دار نشر المدارس،

ولكن مع متابعة البحث يمكننا العثور على تفسيرٍ علمي لهذا الأمر، ويتحدث عن تحول شعوب زراعية إلى بدوية مرتحلة، في أكثر من منطقة بالعالم القديم، خلال العصر البرونزي القديم الرابع، ثم بعد ذلك خلال العصر البرونزي الوسيط الأول، ويشرح ذلك «توماس طومسون» بقوله: «حوالي ٢٤٠٠–٢٣٥٠ق.م. انتهت فجأة المرحلة القليلة الأمطار، التي سادت العصر النحاسي البرونزي القديم، وتلتها فترة جفاف ارتفعت فيها درجات الحرارة تدريجيًّا، ودامت حتى ١٩٥٠ق.م. تقريبًا، فقصرت فصول الشتاء وطالت فصول الصيف الحارة، وانخفض منسوب المياه، وقلَّت الأمطار، وفي مصر أدت عدم كفاية فيضانات النيل إلى انهيارٍ زراعي بحجم كارثي، وهُجرت مواقع عديدة في العصر البرونزي القديم، مع وجود مؤشرات إلى عدم القدرة على زراعة الأشجار المثمرة، والتركيز على زراعة الحبوب والرعي.» ولأن طومسون ركز حديثه على منطقة شرقي المتوسط، فنحن نتخذها نموذجًا ومقياسًا، لما حدث في براري آسيا ثم محيط قزوين، فهو يقول: «على أطراف المناطق الزراعية، وخاصة في منطقة السهوب السورية، ظهر تزايد في الرعي مع زراعة بعض الحبوب. وتشير وثائق مسمارية عديدة من وادي الرافدين، إلى تحولٍ تدريجي في هذه المنطقة. ويبدو أن أطراف المناطق الزراعية في المرتفعات لا سيما في يهوذا، قد تخلت عن الزراعة المستقرة/كما يبدو أن مثل ذلك قد حصل أيضًا، على طول الساحل الجنوبي للمتوسط، وفي بئر سبع وحوض عراد. وتحولت معظم منحدرات النقب الأوسط/خلال العصر البرونزي القديم الرابع والبرونزي الوسيط الأول، إلى الرعي الموسمي مع بعض الزراعة المستقرة، مما يشير إلى انهيارٍ جزئي كبير، أرغم المستوطنين على هجر المنحدرات، والتركيز على زراعة الحبوب والرعي.»

ثم يشرح «طومسون» فترات الانتقال بين العصور في تقسيمها إلى ثلاث فتراتٍ، هي كالتالي: «(١) الفترة الواقعة بين العصر الحجري الحديث والغزوني أو النحاسي المتأخر ٥٠٠٠–٣٥٠٠ق.م. (٢) فترة العصر البرونزي القديم الرابع والبرونزي الوسيط الأول، من نهاية البرونزي القديم إلى بداية العصر البرونزي الوسيط حوالي ٢٤٠٠–١٩٥٠ق.م.

١٩٩٢م، ترجمها خصيصًا لهذا البحث الفنان الروسي ألكسندر مولستوف والدكتورة عزة الخميس، ص٨٧، ونظن أن التسمية «يفستافي» هي النطق الروسي للمؤرخ الفلسطيني «يوسابي» المعروف بالنطق اليوناني باسم «يوسابيوس».

(٣) الانتقال من العصر البرونزي الأخير الثاني، إلى العصر الحديدي في القرن الثالث عشر إلى القرن العاشر.»[٥]

وهكذا تفسر لنا هذه القراءة كيف تحولت مناطق كثيرة من المعمور على خطوط المدارين، مما دعى إلى مجيء بَدْو رعاة من مناطق خصيبة، والذين زعمناهم آراميين هندوآريين، وهم لا شك فصيلٌ من تلك القبائل المتبدية الهائلة، المعروفة باسم سكيث أو سكاث، ناهيك عن كون تزايد الرعي المفاجئ في محيط بادية الشام وفلسطين، يدعم قولنا في زيادة عدد الرعاة في المنطقة بمجيء المهاجرين والرعاة إليها.

ويعلن لويس عوض إيمانه بنظرية الكتاب المقدس، التي تأتي بالساميين مع الهندوآريين اليافتيين من محيط قزوين في قوله: «والمخزن البشري العظيم الذي خرج منه عديد من أقوام منطقة الشرق الأوسط القديم، منذ الألف الثالث ق.م. كان المنطقة المحيطة ببحر قزوين من ميديا عبر جبال القوقاز حتى البحر الأسود. وقد دلت الأبحاث التاريخية والأثرية على أن حضارة سومر Sumer في جنوب العراق — وهي أقدم حضارة معروفة في بلاد الرافدين — وأن اللغة السومرية هي لغة ميدية سيكيذية Medo-Scythis، وهذا يشير إلى موجاتٍ بشرية خرجت في أوائل الألف الثالث ق.م. من مراعي ميديا Medea في شمال إيران المتاخم لبحر قزوين، ومن مراعي سيكيذيا Scythia في القوقاز، ومن مراعي سيميريا Cimmeria حول البحر الأسود. واستقرت هذه الموجات في بلاد ما بين النهرين، وأعطتها لغتها الهندوأوروبية، وربما أعطتها اسم سومر من اسم سيمريا. وعند كونتو Conteneau أن النموذج البشري السومي، كان سائدًا أيضًا بين البروتوحيثيين Proto-Hittites في آسيا الصغرى (يفترض العلماء أن عنصر البروثوحيثيين قد سبق الحيثيين في الأناضول [المؤلف])، والحوريين Hurrians في شمال آشور وغربها، وبين عامة السكان من القوقاز حتى عيلام Elam شرقي الخليج الفارسي. وهو يصنفهم أنثروبولوجيًّا بأنهم لا هندوأوروبيون ولا ساميون، وإنما من النموذج الأرمنويد Armenoid»،[٦] أي النموذج الشبيه بالأرمني.» وهو النموذج الذي قررنا نحن من جهتنا أنه الآرامي الأرميني.

---

[٥] توماس ل. طوسون: التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ترجمة صالح علي سوداح، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٥م، ص١٢٦: ١٢٨.

[٦] لويس عوض، مقدمة ... سبق ذكره، ص٣١، انظر أيضًا: Georges conteneau, civilisation d'Assur et de Babylone, Paris, 1951, p. 19.

وهكذا يشرح لنا «لويس عوض» أن أقوام مراعي مناطق ميديا شمالي إيران وسكيذيا في القوقاز، قد هبطوا منطقتنا في هجراتٍ متتابعة، كان أولها هجرة السومريين الذين أسسوا الحضارة السومرية الهندوآرية في الرافدين القديم، قبل ظهور الساميين الذين تسللوا هناك وامتلكوا البلاد، وأسسوا الدولة الأكادية الواضحة السامية. وإن بين أعضاء هذه الهجرة المبكرة كان سكان الأناضول القبل حيثيين. وقد احتسب العلماء هؤلاء البروتوحيثيين كانوا سكان الأناضول بذات الاسم، لكن من حضارةٍ سابقة على الحيثيين في فرضيةٍ غير ذات معنًى، بعد أن ثبت لنا الآن أن الحيثيين كانوا فصيلًا من الإسكيثيين كذلك البروتوحيثيين كذلك الحوريين، الذين رأيناهم ينحدرون جنوبًا ليسكنوا وادي عربة في آدوم الحورية وفي محيطها ببوادي الشام وسيناء.

ويتابع «لويس عوض» شروحاته قائلًا: «من الثابت أن القبائل الآسية/الآسيانتك Asianiques المنحدرة إلى الهلال الخصيب من القوقاز، وما حول بحر قزوين والبحر الأسود، ومن منطقة الأناضول ومن هضبة إيران، أيًّا كان منبعها وأيًّا كان تكوينها الأنثروبولوجي، كانت تتكلم لغة ميدية سكيذية، وهي إحدى فروع المجموعة الهندوأوروبية، وربما تكون موجات منها قد نزلت في شبه الجزيرة، كما نزلت موجات منها في الهلال الخصيب. وفي هذه الحالة ليس هناك ما يمنع أن تكون الشعوب الملقبة بالسامية سواء في الهلال الخصيب أو في شبه الجزيرة، هي في حقيقتها موجات متعاقبة من عصورٍ متعاقبة، ومن مواقع متباينة من هذه المجموعة الآسية.»[٧]

ثم يلقي «عوض» بالأهم فيقول: «فبنو إسرائيل إذن منذ خروجهم من مهد إبراهيم في العراق نحو ١٨٠٠ق.م. حتى عودتهم من مصر إلى فلسطين، ينتمون لغويًّا وسلاليًّا إلى مجموعة الأقوام القوقازية، التي أخذت تتدفق على منطقة الشرق القديم منذ بداية الألف الثالث ق.م. على أقل تقدير، وعرفت بدايتها التاريخية بحضارة سومر.»[٨]

وهنا نعود إلى كتابنا «النبي إبراهيم والتاريخ المجهول»، نقتطع منه فقرات شديدة التواصل مع ما يقول عوض هنا؛ حيث كنا نبحث عن مدينة «أور الكلدانيين»، التي أشارت إليها التوراة كموطنٍ أول للقبيلة الإبراهيمية، التي هاجرت من هناك إلى حاران في داخل الحدود التركية الحالية، لتعود هابطةً لتستقر في أرض كنعان/فلسطين، أو كما

---

[٧] لويس عوض، مقدمة ... سبق ذكره، ص٣٣.

[٨] نفسه، ص٣٩.

تقول التوراة: إن إبرام/إبراهيم كان ابن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن شالح بن أرفكشاد بن سام بن نوح، وأن هجرة هذه القبيلة حدثت كالتالي:

> وأخذ تارح إبرام ابنه، ولوطًا بن هاران ابن ابنه، وساراي كنته امرأة إبرام ابنه، فخرجوا جميعًا من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان، فأتوا إلى حاران وأقاموا هناك، ومات تارح في حاران.
>
> (تكوين، ١١: ٣٢، ٣١)

وعلى الشاطئ الغربي للفرات في أقصى جنوب الوادي عند رأس الخليج العربي، تم الكشف عن مدينة باسم «أور»، لكن علم التاريخ لا يخصصها بأنها «أور الكلدانيين» الذين حكموا العراق ما بين ٦٢٥ و٥٣٨ق.م. فقط؛ لأن «أور» كانت مدينة شديدة العراقة قبل زمن الكلدانيين بأزمنةٍ طويلة؛ ولأنها كانت حاضرة ذات شأن، أسسها السومريون الهندو آريون، وكانت موجودة في موضعها هذا تتقلب عليها الدول منذ منتصف الألف الرابع قبل الميلاد.

وإذا كانت الهجرة من «أور» التاريخية هذه، إلى كنعان في الغرب منها عبر بادية الشام، لا تحتاج إلى أكثر من أسبوع سفر بدوابَّ كسولة. فإن رحلة القبيلة الإبراهيمية لم تتجه فورًا إلى كنعان، بل ضربت شمالًا من مدينة أور في أقصى جنوب الوادي، حتى وصلت حاران داخل الحدود التركية، لتقيم هناك زمانًا ترحل بعده إلى كنعان، لتصلها بعد مضي خمسة عشر عامًا من خروجها من أور.

ثم تظهر لنا حاران بعد ذلك في التوراة، كما لو كانت هي الموطن الأول للقبيلة الإبراهيمية وليس أور، وحول حاران تقول التوراة:

> فأتوا حاران وأقاموا هناك، ومات تارح في حاران. وقال الرب لإبرام: اذهب من أرضك وعشيرتك وبيت أبيك إلى الأرض التي أريك. فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة، فأخذ إبرام ساري امرأته ولوطًا ابن أخيه، وكل مقتنياتهما التي اقتنيا، والنفوس التي امتلكا في حاران، وخرجوا ليذهبوا إلى أرض كنعان.
>
> (تكوين، ١١: ٣١، ٣٢ و١٢: ١، ٥، ٢)

والملاحظة هنا أن التوراة باتت تشير إلى حاران باعتبارها أرض عشيرة إبراهيم، رغم قولها قبل ذلك بمدينة «أور»، كموطنٍ أول لتلك العشيرة. وهو ما دفعنا دفعًا إلى محاولةٍ للبحث عن الموطن الأول للعشيرة الإبراهيمية، ووضعها موضع البحث للتفسير والفهم، وتيسيرًا للأمر نجمل المشكلة في موجزٍ سريع يحدد سماتها بوضوح.

التوراة تقول إن الرَّكْب الإبراهيمي المهاجر، قد خرج من أور الكلدانيين على الشاطئ الجنوبي الأقصى لنهر الفرات، قاصدًا أرض كنعان الفلسطينية، وهو ما يعني أن الموطن الأصلي للعشيرة الإبراهيمية كان جنوبي العراق، وتقع مباشرة إلى الشرق من كنعان، تفصلهما بادية الشام، لكن الركب — دونما سبب واضح — يتحول شمالًا ويستمر يضرب مسافاتٍ وبلدانًا ومواطن، ويتجاوزها جميعًا حتى يصل إلى حاران داخل الحدود التركية الآن. وهنا لا مندوحة من التساؤل: لماذا التحول عن الطريق القصير المباشر إلى كنعان، وتجشم مصاعب مضاعفة للوصول إليها عن طريق حاران. والأهم أن حاران تبدو في رواية التوراة، كما لو كانت محطة ترانزيت، معروفة على الطريق من أور إلى كنعان، رغم وقوعها في أقصى الشمال بعيدًا عن الطريق بمسافاتٍ شاسعة. والغريب في أمر التوراة أنها بعد أن ذكرت «أور الكلدانيين» نسيتها تمامًا، واستمرت تضرب وتكرر وتزيد على الأصل الآرامي الحاراني، ولم تملَّ تأكيد أن إبراهيم كان «آراميًّا تائهًا (تثنية، ٢٦: ٥).»

وهنا افترضت من جانبي أن حاران التوراتية، لم يقصد بها مدينة محددة بعينها، قدر ما قصدت بها التوراة موطن الهجرات الأول للحوريين، ذلك الموطن الذي يضم عددًا من الدويلات الآرامية، كانت التوراة على صلةٍ بها طوال الوقت، وربطت التوراة إبرام وأسرته بها. وهو الأمر الذي يشير إلى المحطة الكبرى القديمة للحوريين القادمين من براري الهند وإيران، ليستقروا هونًا في محيط بحر قزوين وأرارات. وهنا كان لا بد أن نتساءل حول «أور» الجنوبية، ومدى صدق احتسابها موطنًا أول للقبيلة الإبراهيمية؟ وبعدها ذهبنا نبحث في مساحة بحر قزوين عن أورٍ أخرى، يمكن أن تكون هي ذلك الموطن؛ لأن «أور» الواقعة جنوبي العراق تختلف مكانيًّا مع معطيات التاريخ حول الهجرة الهندوآرية، كما أننا لو احتسبناها فقط «أور الكلدانيين» فإن ذلك سيضعها بعيدًا تمامًا عن زمن النبي إبراهيم، حيث لم تقم دولة الكلدانيين إلا بعد زمن النبي إبراهيم بحوالي ألف عام أو يزيد.

والمعلوم أن «أور» كلمة تدل على القرية أو المدينة بشكلٍ عام، وهي UR الجذر الثنائي للكلمة الثلاثية (كور KUR)، والكور والكورة الحي أو القرية أو المدينة، أو ما

نسميه في الدارجة المصرية «الكفر». فمدينة قرطاجة الفينيقية على الساحل الإفريقي — مثلًا — مركبة من ملصقين: الأول «كورة» أي قرية، والثاني «طاجه» أو بنطقها الأصلي «حداشه» أي الحديثة أو الجديدة، فهي كور حداشة. وبتبادل حروف «واو» مع حرف «في V»، تصبح كور هي كفر، والكفر هو القرية.

ولذلك نجد أكثر من «أور» إضافة إلى «أور – الكلدانيين»، فهناك «أور – شليم» أي مدينة السلام، و«أور – كومينوس» باليونان و«أور – أوك» بالعراق القديم، ثم مدينة الأرض أو «أور – آرتو» على جبال أرمينيا المعروفة الآن بجبال أرارات قرب بحيرة «فان».

والتوراة من جانبها ترمز للهجرات الكبرى من أواسط البراري الآسيوية إلى محطتهم الكبرى بأرمينيا بقصة الطوفان، التي قالت بانتقال قوم من موضعٍ أصابته كارثة بواسطة سفينة ضخمة، إلى جبال أرارات حيث ألقت السفينة مراسيها، وأنه مما يؤكد أن «أرارات» المذكورة بالتوراة، هي ذات أرارات الواقعة في أرمينيا، ما جاء عند المؤرخ «هروشيوش»؛ إذ يقول: إن السفينة النوحية قد ألقت مراسيها «على الجبل الذي بأرمانية».[9]

وفي الوقت ذاته تؤكد التوراة أن إبراهيم من نسل «أرفكشد أو أربكسد بن سام بن نوح». ووجدنا في اسم «أرفكشد» ما يضع أيدينا على وصلات الأمر المبعثر، حين تساءلنا: هل قصدت التوراة بمدينة «أور» مدينة أخرى غير أور الكلدانيين؟ ربما كانت تقع في موطن الحوريين القديم بأرمينيا المعروف باسم «أراب – خيتيس»، التي تلتقي بعد حذف التصريف الاسمي «الياء والسين» مع أرفكشد، وتصبح هي بالضبط «أربكسد» أو «أربخسد»؟ وهلا يعني ذلك إمكان أن تكون «أور» المذكورة في التوراة باسم «أور الكلدانيين»، هي ذاتها مدينة الأرض «أور – آرتو»؟ لا نعتقدنا مخطئين إن احتسبنا منطقة أربكسد الكاسية هي المعنية في التوراة بأور الكلدانيين، وأنها المقصودة بـ «أور كسديم»، وهو الاسم الوارد في التوراة المازورية العبرية، فهي تقول: «أوركسديم»[10] ولا تقول: «أور الكلدانيين» الواردة في الترجمة العربية. أما «أرابخيتيس» فهي مركبة بدورها من ملصقين «آرابه – خاسي» أو «أراب – كاسي» أو العرب الكاسيين أو العرب القيسية. وإذا كان هؤلاء من قبائل سكيث أو سكاس، فهو بدوره ما يذكرنا بالسكاسك ذلك

[9] أورسيوس، تاريخ ... سبق ذكره، ص٦٣، ٦٢.

[10] الصليبي، التوراة جاءت ... سبق ذكره، ص٣٩.

العنصر الواضح في فيالق الهكسوس بمصر. ولو قدرنا أن الكلمة كانت تُنطق مصريًّا «أراب – سا – كاس»، فهي ما تعني بالضبط العرب أبناء الكاسيين؛ لأن «سا» تعني «ابن» كما تعني الإضافة، فهم العرب الكاسيون، والكلمة عرب هنا تعني البدو فقط.

وهكذا لا يعود رحيل العشيرة الإبراهيمية من أور إلى كنعان عبر حاران، أمرًا مثيرًا للاستغراب والعجب؛ لأنها في هذه الحال لن تأتي من أور على الخليج العربي، إنما من أقصى الشمال حول قزوين، من مدينة الأرض، أو من أورارتو أو «أرارات» في جبال أرمينيا، متجهة غربًا نحو حاران القديمة، التي تصبح بذلك محطة منطقية تمامًا على الطريق، ثم تشد القبيلة رحالها مع التدفق الآرامي نحو بوادي الشام، خلال النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، ويبدو أنه خلال استقرارهم في محطتهم الأولى في محيط أرارات، أنشئُوا أول مديناتهم المستقرة متمثلة في الدولة الحيثية، ثم في مجموعة الدويلات الآرامية التي تناثرت على الحزام الحوري شمالي سوريا والعراق الغربي الشمالي.

وقد سبق وعلمنا أن الكلمة «أراب» و«عرابة»، تدل في إطلاقها على البداوة بشكلٍ عام، كما أن الحيثيين يلفظ اسمهم على مختلف التخريجات خيتي وحيتي وكاثي، مما يشير إلى أصولهم الجنسية السكوثية أو السكاثية، أو الكاسية أو القيسية القادمة من البراري الآسيوية. وضمن هجرة هؤلاء السكاث أو السكاس أو الكاسيين، جاءت العشيرة الإبراهيمية، لتوجز التوراة الألف الثالث قبل الميلاد أو قبل ذلك من براري آسيا إلى محيط أرارات، ثم رمزت للهجرة الثانية من أرارات ومحيط قزوين إلى بوادي الشام بقصة الرحلة الإبراهيمية. ومن جهته أكد التراث الإسلامي أن إبراهيم لم يكن عربيًّا بمفهوم اليوم، ولم يكن من الجنس العربي المقصود في جزيرته؛ لأن لسانه كان سريانيًّا من الفرع الآرامي، لكنه عندما عبر نهر الأردن فيما يروي ابن هشام في سيرته، حول الله لسانه إلى اللغة العبرية،[١١] بينما اكتسب فرع من نسله العروبية بعد ذلك ممثلًا في رمز إسماعيل أبي العرب المستعربة.

ولمزيدٍ من التأكد سعينا حتى سمعنا «ماكلستر»، يؤكد لنا بخبرته في اللغات القديمة والأجناس، أن لغة بلاد «ميتاني» التي يزعمها المؤرخون بين الخابور والفرات، كانت

[١١] السهيلي، الروض الأنف ... سبق ذكره، ج١، ص١٦.

فرعًا هندوآريًّا لا شك فيه إطلاقًا، كذلك بنفس اليقين كانت بلاد الحيثيين في الأناضول، تتكلم بدورها لغة هندوآرية، بل عبد كلاهما ذات الأرباب بذات الأسماء.[١٢]

وهكذا فإن «لويس عوض» ينهج مع ذات المدرسة، التي تأتي بالهندوآري ومعه السامي من تلك المواطن، يأتي بكليهما من موطنٍ واحد على اختلافهما الجذري دون مبررٍ واضح واحد. فأكد أن موجة الهجرة الهندوآرية أو كما يسميها بالهندوأوروبية، قد جاءت في غزوتين: الأولى هي غزوة الكاسيين Kassites التي احتلت الرافدين، وغزوة الحوريين الميتانيين التي أنشأت لها دولة، مزعومًا أنها بين الفرات والخابور. أما الموجة التي صاحبتها فهي موجة سامية قادمة من ذات المواطن، وتمثلت بدورها في فصيلين: العموريين أو الأموريين Amorites والآراميين Aramaeans، ويأتي على ذلك بشهاداتٍ يرى أوثقها آرثر كيت، الذي يصف العرب بأنهم أقوام قوقازية تتكلم لغةً سامية.[١٣]

ثم يعلن عوض نظريته بقوله: «وقد انتهيت من أبحاثي في فقه اللغة العربية، إلى أن اللغة العربية هي أحد فروع الشجرة، التي خرجت منها اللغات الهندوأوروبية»،[١٤] وكي يثبت «عوض» نظريته تلك، قدم لها بدراسةٍ تاريخية أنثروبولوجية لا تتناسب إطلاقًا في عجالتها وتبسُّطها، مع عمله الكبير وقيمة النظرية التي يطرحها. وهي النظرية التي يمكنها أن تجد في عملنا هذا تأسيسها التاريخي الأنثروبولوجي المناسب، رغم الاختلاف البيني بين ما يقول وبين ما نقول؛ لأننا لا نرى العنصر المعروف بالسامي الشمالي الذي ظهر في بوادي الشام، كان قادمًا من بلاد أرمينيا خالصًا، بل نراه عنصرًا مولدًا من عناصر تلاقت وتلاقحت فيها العنصر الحامي ممثلًا في الكوشيين العمالقة والجنوب جزيري أو العموري أو الأموري، وكذلك في المصريين الحاميين ولغتهم، وبين العنصر الآرامي الكاسي أو السكيثي الحيثي القادم من الشمال الهندوآري، وأن ذلك اللقاء قد بدأ مبكرًا قبل الألف الثالثة قبل الميلاد في بواكير التواصل الأولى، والتي تبعتها هجرات متعددة منوعة من بعدُ، وهو ما يمكن أن يكون قد حدث إبان قيام الدويلات السومرية الهندوآرية في العراق الجنوبي القديم، وهو أيضًا ما تثبته خبرة العراق حيث ظهر الساميون هناك بعد ذلك ممثلين في الدولة الأكادية، لكن ليتمثل الأكاديون الثقافة

[١٢] ماكسلتر، الأقوام الجدد ... سبق ذكره، ص١٠٠.

[١٣] لويس عوض، مقدمة، ص١١٠.

[١٤] نفسه، ص٢٦.

السومرية وعقائدها، وطريقة كتابتها ممزوجة بلغةٍ جديدة وثقافة جديدة سميت سامية، وهي تحوي في تراكيبها ومفرداتها وعقائدها تراثًا هندوآريًّا كاملًا.

نحن نعني أن السامية الشمالية المعروفة في لغاتها المتعددة، إنما كانت ناتج تلاقح الحامي والهندوآري أو اليافثي مع الجنوب جزيري القديم القادم من اليمن. أما التفاصيل الدقيقة والمقارنات اللغوية التي يمكن إقامتها على تأسيسنا هذا، فهي مهمة أخرى نتركها لمن يستطع بحثها من علماء متخصصين، قد تجد اجتهادتنا طريقها إلى قناعاتهم.

وكي يدعم «لويس عوض» نظريته في هندوأوربية اللغة العربية في أصولها، قام بجمع ما يؤيد رأيه، وضمن ذلك إثباته حداثة العرب قياسًا على الأمم القديمة، وهي برأينا حداثة ضرورية ناتجة عن حداثة العنصر السامي الشمالي جميعه كما زعمنا، ومن هنا يشير «عوض» إلى أن أبعد المصادر التي تشير للعرب كعنصرٍ متميز عن غيره من الأجناس، لا تبعد عن بداية الألف الأول قبل الميلاد: وهنا ينبه قائلًا: «إن العرب حين يتحدثون عن منشئهم، يقسمون أنفسهم إلى ولد عدنان وهم عرب الشمال، وولد قحطان وهم عرب الجنوب. وهناك فكرة متوارثة أن نسل يعرب بن قحطان أصفى عروبة من نسل عدنان؛ ولذا جاء تبويب العرب إلى عربٍ عاربة وهم أهل الجنوب، وعرب مستعربة وهم أهل الشمال. ومن العلماء من يؤيد هذه النظرية، بما تتضمنه من اعترافٍ بأن عرب الشمال من أجناس كانت غير عربية ثم استعربت، أو أنهم مولَّدون من العرب وغير العرب. وعلى كلٍّ فإن عرب الشمال المستعربة، ينسبون أنفسهم إلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل، عن طريق عدنان ومضر، وفي رواياتٍ أنهم من عدنان ومضر دون ذكر لإسماعيل بن إبراهيم. وانتساب عرب الشمال إلى إسماعيل يجعلهم أبناء عمومة بني إسرائيل، أو بتعبيرٍ أدق أنصاف إخوة، أي إخوة غير أشقاء، فالجد الأعلى للطرفين هو إبراهيم أبو إسحاق وجد يعقوب إسرائيل من جهة، وأبو إسماعيل وجد عدنان من جهةٍ أخرى. وربما كان براهما Brahma هو الإبيونيم Eponym[١٥] القومي لموجةٍ هندية إيرانية، استقرت في أور عبر لوريستان Luristan في إيران، ثم هاجرت إلى حران في عهد الكاسيين Kassites نحو ١٨٠٠ق.م. لتعيش في ظل الأرستقراطية العسكرية، التي

---

[١٥] الإيبونيم Eponym: شخص يطلق اسمه على قبيلةٍ أو أسرةٍ أو بلد أو سكان.

نزلت على حران من القوقاز Caucasus أو سيكذيا Scythia وخرج منها الإشكينازي Ashkinazi».[١٦]

ولا يفوت «عوض» اللماح الإشارة إلى كون «الوثائق الآشورية التي ترجع إلى أواخر القرن التاسع ق.م. أي قبيل ٨٢٤ق.م. تشير إلى ملكات العرب، وهم قبائل مؤتلفة من البدو الرحل من شمال شبه الجزيرة العربية، جعلت بعض العلماء يستدلون من هذه الإشارة إلى ملكات العرب، ومن شيوع أسماء القبائل المؤنثة مثل: أمية، ربيعة، كندة، مرة ... إلخ أن القبائل العربية عرفت في مرحلةٍ من تاريخها نظم المجتمع الأمومي Matriarchal society، حيث المرأة هي رأس القبيلة.»[١٧]

أما نحن فقد انتهينا إلى القول بمملكةٍ، تسمى مملكة عريبي أو عرابة أو سبأ، كانت تقطن محيط العقبة، وأن سكانها كانوا أصحاب تجارة وطيوب وعز أو عنز أو معز، وأن بينهم كانت الملكة سبأ أو الزباء، وأنهم كانوا رفاعيين أو رباتيين من أصحاب الثعابين، وأنهم كانوا عمالقة.

وقد عرج عوض بلمحةٍ مضيئة — لكنها أيضًا مثل الفلاش السريع — على الهكسوس وعلاقتهم ببني إسرائيل، فراجع ما قدمه يوسفيوس نقلًا عن مانيتو، ليخرج أجملها في قوله: «وواضح من كل هذا الكلام أن فرعون موسى، الذي ذهب مانيتون أو يوسفيوس على لسان مانيتون، إلى أن فتنة بني إسرائيل قد حدثت في عهده، هو آمنحتب الرابع الشهير بإخناتون نبي التوحيد والسلام في العالم القديم، فهو وحده الذي اشتهر باعتراض الضمير على الحروب، وقد ناصبته طبية العداء؛ لدعوته التوحيدية من ناحية، ولتفريطه في ردع أعداء مصر من ناحيةٍ أخرى.»[١٨] وقد استند «عوض» في تزمين الخروج بزمن إخناتون، تأسيسًا على ما ورد عند يوسفيوس: أنه رفض مشاركة رجاله في معركةٍ ضد الهكسوس؛ «فقد كان يعتقد أن الحرب عمل ضد الآلهة.»[١٩]

ولما كان معلومًا أن الهكسوس قد تم طردهم قبل زمن إخناتون، بما يزيد على قرنين من الزمان زمن الفرعون أحمس، فقد كان الرأي هو أن بني إسرائيل كانوا بقايا

[١٦] نفسه، ٢٦، ٢٥.
[١٧] نفسه، ٢٤.
[١٨] نفسه، ٣١.
[١٩] نفسه، ص٣٠.

أسيرة، بقيت حتى زمن إخناتون حيث تم حدث الخروج. وعليه يستنتج عوض «أنه إذا صحت رواية مانيتون فإن بني إسرائيل كانوا بمثابة طابور خامس لغزوةٍ هكسوسية ثانية متأخرة في الدولة الحديثة باءت بالفشل، وانتهت بكارثةٍ لهم ولبني إسرائيل. ومع ذلك؛ فكل هذا لا يتفق في التاريخ مع الرأي السائد، القائل بأن خروج بني إسرائيل كان في عهد مرنبتاح».

ومن هنا يضع «عوض» نظرية سريعة للتفسير، أخذها عن بيير مونتيه — فيقول: «ومعنى هذا أن دخول بني إسرائيل مصر كان نحو ١٦٥٠ق.م. كما يبدو أنهم أقاموا بها (إبان حكم الهكسوس [المؤلف])، كما تقيم الجاليات الأجنبية في ظل الحكم الأجنبي في أي بلدٍ مفتوح، وأنهم لم يرحلوا عن مصر مع الهكسوس المطرودين ١٥٧٥ق.م. بل ظلوا في البلاد نصف متمصرين ومتمركزين أساسًا في شرق الدلتا، حيث كانت أفاريس عاصمة الهكسوس القديمة، بحجة أنهم غرباء يزاولون شئون معاشهم، ولا صلة تربطهم بالغزاة الهكسوس، وفيها أقامو أكثر من قرنين ضيوفًا أراذل، حتى بعد أن أقام رمسيس الثاني مدينته بي رمسيس Pi-Ramses على أنقاض مدينة أفاريس، إلى أن طردهم مرنبتاح جملةً من أرض مصر ما بين ١٢٢٣ أو ١٢١٥ق.م. بحسب تقديرات بيير موانتييه.»[٢٠]

ثم بلمحاته العبقرية يتساءل «عوض»: «إن الحقائق التاريخية تقول إن الهكسوس بعد خروجهم من مصر، قد اختفوا جملةً من مسرح التاريخ، وهذا الاختفاء ممكن سياسيًّا لكنه غير ممكن بشريًّا، فمهما كان الهكسوس بعد خروجهم من مصر في حالةٍ من التمزق والإعياء، فلا بد أن نفترض أن هذه الحشود البشرية، التي أتيح لها أن تُخضع المصريين أكثر من قرنٍ ونصف، لا بد أن تكون قد استقرت في مكانٍ آخر خالٍ، تنشئ فيه محلاتها ومضاربها، أو مكانٍ آخر مأهول تختلط فيه مع السكان الأصليين.»[٢١]

وهكذا يبدأ عوض في العثور على أصولٍ عربية في الهندوأوربية، في قصة أنثروبولوجية تذهب إلى أن الهكسوس كانوا عنصرًا هندوآريًّا، خرج من مصر لكن ليحط رحله في مكان آخر، يعلن عنه في نصٍّ عبقري يقول: «نشتبه أن الحجاز جملة كان المنطقة التي لجأ إليها الحكا – خازو Heqa Khasou، أو الهكسوس بعد طردهم من مصر، وتعايشوا

---

[٢٠] نفسه، ٣١، ٣٣.

[٢١] نفسه، ص٣٤.

مع سكانها الأصليين، الذين عرفوا الهكسوس الوافدين باسمهم المصري القديم. وانتهى الأمر بأن جرى الاسم على المنطقة كلها، وفقد معناه الأصلي، وصار اسم علمٍ جغرافيًّا فحسب.»[٢٢]

ولا شك أن ما قلناه حتى الآن، يذهب إلى أن بعض عناصر الهكسوس، وبينهم السكان الآراميون الذين خرجوا من مصر، قد ذهبوا جنوبًا نحو شمالي جزيرة العرب ليمنحوها اسم السكاث، لكن بعد تحول حرف «س» في النطق المصري إلى «ح»، لتصبح الكلمة حسب القواعد التي وضعها عوض نفسه «حكاث» أو «حجاز»، قياسًا على «سآكل/حاكل المصرية، أو سأذهب/ها أذهب».

وفي لقطاتٍ مضيئة سريعة قافزة فلاشية، يعقد «عوض» المقارنات اللغوية كما في قوله: «إن ملك الهكسوس خمودي Khamoudi، الذي ورد في بردية تورين فيه جميع العناصر الفونيطيقية في اسم ثمود»،[٢٣] وهو القول الذي يعضد ما ذهبنا إليه، حول قدم ثمود في مناطقها الحضارية، وأنها كانت تقع ضمن دائرة حلف الأخلامو الكبير، الذي قوي شأنه ليتوسع على حساب دول المحيط، ويحتلها وضمنها مصر نفسها.

ونتابع لقطات عوض؛ إذ يقول: «نحن نقف أمام اسم مثل الصالحية في مصر بالقرب من السويس (في الحقيقة هي شمال شرق الدلتا، وتتبع محافظة الشرقية الآن، وينسبها البعض للملك الصالح أيوب [المؤلف])، واسم مداين صالح في شمال الحجاز، واسم صالح وشالح ومتوشالح (أسماء عربية وتوراتية [المؤلف]) وربما صلاح، لا يسعنا إلا أن نشتبه في أنه صيغة من اسم شيليك Shelek الهكسوسي، ومن حقنا أن نستنتج مبدئيًّا أن مداين صالح، كانت إحدى المحلات أو المدن التي أنشأها الهكسوس بعد طردهم من مصر.»[٢٤]

أما نحن فقد قلنا إن مداين صالح كانت قبل الخروج من مصر، بل قبل الدخول إليها، عضوًا في حلف الأخلامو ومدينة تابعة للعاصمة الأم سالع/البتراء/بونت في وادي عربة ببلاد آدوم.

ومن تلك النماذج الفلاشية نموذج آخر يقول فيه: «وفي تقديري أن اسم عمران ومشتقاته له علاقة باسم العمو Ammou أو العمرو Amrou، وهي القبائل التي احتلت

---

[٢٢] نفسه، ٣٤.

[٢٣] نفسه، ٣٣.

[٢٤] نفسه، ص٣٤.

دلتا مصر أو شرقيها مع الهكسوس وفي زمنهم، فنصوص مصر تحدثنا دائمًا عن كفاح مصر ضد الخازو والعمو بعد الفتح الهكسوسي، والصلة بين الخازو والعمو غير واضحة عند المؤرخين.»[٢٥]

ويصل من هذا كله إلى نتيجةٍ مفادها «إن الهكسوس إذن لم يأتوا إلى مصر من الحجاز ومن شبه جزيرة العرب، إنما استقروا فيها بعد طردهم من مصر. أما المنبع البشري الذي تدفقوا منه على الشرق القديم ثم عبروا إلى مصر، سواء على مراحل أو دفعة واحدة، فهو بحسب تقدير الكثير من علماء الآثار والتاريخ القديم، نفس المستودع البشري المعروف في عصر الهجرات العظيمة حول بحر قزوين. وربما كان هذا المنبع ذاته مجرد محطة وسطى استقروا فيها زمنًا منذ هجرتهم من أواسط آسيا، شأن كافة القبائل التي تسمى آرية طورانية وسامية، والهكسوس إذن ليسوا بني إسرائيل، وإنما بنو إسرائيل كانوا على الأرجح قبائل دخلت مصر تحت جناح الهكسوس وعاشت في كنفهم، ثم طردت من مصر بعد رحيل الهكسوس بقرون، أو ربما طردت معهم أيام أحمس، ثم استجدت العودة أيام تحتمس الثالث. ولعل بني إسرائيل هم قبائل العمو Ammou، التي كثيرًا ما يرد ذكرها مع الخازو khasou أو الهكسوس في النقوش المصرية القديمة، وكانت متمركزة معهم في شرق الدلتا بصفةٍ أساسية، مع جيوب هنا وهناك أكثرها في مصر الوسطى.»[٢٦]

وإعمالًا لكل هذه المعطيات، ينتهي عوض إلى أنه «مهما افترضنا للعرب وجودًا في المنطقة، فهو لن يتجاوز بضعة قرون، ترجع بهم إلى ١٠٠٠ق.م. أو ١٢٠٠ق.م. فلو كان لهم وجود معروف باسمهم المعروف، أيام الصراع العظيم بين المصريين الحيثيين ١٥٥٥–١٢٧٠ق.م. أو بين المصريين والميتانيين Mitanni ١٤٥٠–١٣٦٢ق.م. في العراق (يذهب عوض مذهب من يضعون الميتاني بين الفرات والخابور [المؤلف])، أو بين المصريين وبني إسرائيل ١٢٢٣–١٢١٥ق.م. أو بين المصريين والهكسوس أي بين ١٧٢٠ أو ١٥٦٧ق.م. لورود ذكرهم في النقوش القديمة في أية منطقة من مناطق الشرق القديم. وعلى هذا فإنه يتعين علينا أن نفترض أن وجودهم في شبه الجزيرة لاحق لعام ١٠٠٠ق.م. أو قبل ذلك بقليل. ولن نستطيع أن نفسر ظاهرة تكون اللغة العربية

---

[٢٥] نفسه، ٣٥.

[٢٦] نفسه، ٣٦، ٣٧.

من عناصر مشتركة مع اللغات الهندوآرية، إلا إذا افترضنا أن التكوين السكاني لشبه الجزيرة، لم يكن فيضانًا سكانيًّا من داخل شبه الجزيرة إلى خارجها أو حوافيها المحيطة بها، ولكن كان فيضانًا سكانيًّا من خارج شبه الجزيرة إلى داخلها.»[٢٧]

وهكذا أسس «لويس عوض» تاريخيًّا وأنثروبولوجيًّا لقوله: إن اللغة العربية من أصولٍ هندوآرية، من حيث هبطت جموع الهكسوس من محيط بحر قزوين إلى المنطقة، ثم خرجت مطرودة من مصر مطاردة من قبل المصريين، فهبطت الحجاز وأعطته اسمها ولغتها التي أصبحت العربية الشمالية، أم العربية الفصحى الآن. لكن ذلك كان وجهًا واحدًا للحقيقة، لا يفسر لنا تداخل آخر لأسماء أعلام ومفردات وتراكيب لغوية، ليست من الهندوآرية في شيء، وكانت من العلامات الهكسوسية البارزة الباقية. هنا نظن أن نظريتنا هي الأفق للتفسير، والتي قلنا فيها بمجيء هجرات تدريجية متتابعة من الكوشيين، من شرقي أفريقيا والجنوب اليمني على الخط التجاري البري الصحراوي، هي هجرة العمالقة والعموريين التي جاءت من جنوب الجزيرة، ويمكن تسميتها تجاوزًا «السامية الجنوبية»، وسبق وأطلقنا عليها الجنوب جزيرية لتلتقي هناك بالعناصر الهندوآرية القادمة من أرمينيا، استقرت في شمالي الجزيرة وآدوم وسيناء، لتهبط عليها عناصر هندوآرية، حورية وسكيثية حيثية، لتستقر معها في مديان، وتشكل لها قيادة عسكرية تتوسع على حساب دول المحيط، حتى تتمكن من إقامة إمبراطورية الهكسوس، وكان أهم إفرازات هذا اللقاء من فجره، ظهور جنس جديد ولغة جديدة هجينة، هي اللغة السامية الشمالية، متشكلة من عناصر جنوب جزيرية تأسيسية، وعناصر حامية زنجية ومصرية وعناصر هندوآرية.

على مستوى العربية والهندوآرية قدم لويس عوض جهدًا رائعًا وعظيمًا، لا تنكره المنكرات والمصادرات ضد كتابه لسقطةٍ هنا وزلةٍ هناك، حيث إن الرجل قد أثبت نظريته ببراعة، وهي أحد مؤيداتنا هنا، لا تغني الإشارة إليها عن قراءتها في كتابه الرائع. ومن جانبنا ثبت بطول كتابنا هذا بوضوح مدى الالتقاء والتداخل بين المصرية القديمة وبين العربية، أو ما بقي لنا من تطور العربية الشمالية، مُمثلةً في قمة نضجها في لغة قريش، التي أصبحت اللغة العربية الفصيحة الصحيحة. وعندما كنا نقدم قراءتنا عثرنا على أكثر من شهادةٍ من التاريخ العربي الإسلامي، على وجود عنصر عربي سامي ممثلًا في

[٢٧] نفسه، ٣٨، ٤٠.

شهادات ذلك التاريخ بحكم عماليق الجزيرة لمصر، لكنا أبدًا لم نجد مثل تلك الشهادات الفصيحة، على الجانب الآخر عند القائلين بهندوآرية الهكسوس، أو بعضًا منهم على الأقل، فهل بالإمكان العثور على مثل تلك الشهادات، التي تؤكد أن عناصر هندوآرية قد دخلت مصر واحتلتها وحكمتها؟ بل وحكمت أيضًا بقية مدينات الشرق الأوسط القديم كالرافدين والشام وجزر المتوسط الشرقية ضمن إمبراطورية كبرى؟ حيث وضح لنا وجود العنصر الآري، كعنصر قائد متقدم بين فيالق الهكسوس كما سبق شرحه.

نقف هنا مع القبائل التي جاء ذكرها باسم سكيث، لنعتبرها من وجهة نظرنا القبائل الأم للهجرات الهندوآرية، أو أنها الاسم الشامل الذي كان يطلق على تلك القبائل المهاجرة من براري آسيا، ومنها كان الحوريون والحيثيون الذين أصبحوا فيما بعد عنصرًا مؤسسيًّا في المملكة الآدومية التجارية، ومن ثم في الإمبراطورية الهكسوسية، حيث كان الإسكيث أو السكاث كما أسماهم اليونان، أو الكاسيون كما أسماهم الرافديون، أو الهكسوس كما أسماهم المصريون، قبائل متبدية هائلة العدد لا تعرف الاستقرار، تنتشر طول الوقت في براري آسيا الوسطى من شمالي الهند إلى أرمينيا.

وبحسبان حرفي «ح» و«ك» حلقيَّيْن يتبادلان، فإن الحيثيين هو لفظ آخر للسكيثيين حيث تتبادل «س» و«ح»، وهكذا يمكن أن نعتبر المصادر الحيثية مصادر سكيثية كنقطةٍ مفصلية، نبدأ بحثنا منها، فهل ورد أي نص تاريخي في المدونات الحيثية، يشير إلى أحداثٍ قديمة، احتل بموجبها الحيثيون مصر؟

هناك نص ضئيل القيمة تمامًا لدى المؤرخين والباحثين، لم يُعِرْه أحد التفاتًا، نتيجة عدم الربط إطلاقًا بين الحيثيين والسكيثيين والهكسوس، وهو ما نجد له ترجمة عند عالم الحيثيات «جرني»؛ إذ يقول أولًا مقررًا حقيقة واضحة هي أن: «الحيثيين من الأقوام الهندوأوروبية التي لعبت دورًا مهمًّا في تاريخ الشرق الأوسط القديم، لكنا مع ذلك نجهل الكثير عنهم.»[٢٨]

أما النص المقصود فهو ذلك الذي يقول:

> عندما حمل إله جو حاتي (يقصد إله الهواء الحيثي تيشوب [المؤلف]) رجال كوروستوما إلى بلاد مصر. وقيدهم إله جو حاتي بمعاهدةٍ إلى أهل

[٢٨] جرني، الحيثيون ... سبق ذكره، ص١٧.

حاتي، وجعلهم يقسمون على رعايتها (يقول جرني معقبًا: إن ذلك عائدٌ على المصريين، أي إن إله الجو الحيثي فرض عهده، على المصريين بقسم الولاء للحيثيين الذين من كوروستومار [المؤلف]).

وبذلك أصبح شعب حاتي وشعب مصر مقيدين بقسم لإله جو حاتي، ونكث شعب مصر بعد ذلك بالعهد، وباتوا يحنثون بقسمهم بالإله؛ لذلك أرسل أبي مشاةً وفرسانًا، وغزوا حدود مصر وبلاد أمكا، ثم أرسلهم مرةً ثانية فغزوا مرةً ثانية.

ويشرح هنا «جرني» أن كوروستوما هي القطاع الشمالي الشرقي من الأناضول، أي بالضبط في المساحة التي نتحدث عنها كمنطلق أخير للهجرة الهندوآرية، ما بين قزوين والبحر الأسود في أرمينيا وأرارات، لكن جرني يرى ذلك النص غير مفهوم لو أخذنا بظاهره، وأن هؤلاء قد احتلوا مصر، ويفسر بأن ذلك كان غير ممكنًا، ولم تتحدث عنه أية نصوص مصرية؛ لذلك لا تفسير له إلا وجود الحيثيين بفلسطين بعد ذلك في التاريخ التوراتي، وهو ما يعني أن النص لم يقصد مصر بلاد النيل، إنما قصد فلسطين التي كانت تابعة آنذاك لمصر سياسيًّا، وأنها هي حدود مصر.»[٢٩]

لكن قراءة النص تفيد أن الملك الحيثي، يتحدث عن غزوٍ تمَّ من جانب بلاده لبلاد مصر، وأن ذلك قد تم زمنَ أجداده، حيث أقسم المصريون وأقسم الحيثيون على الارتباط بعهدٍ نكث به المصريون، فعادوا زمن أبيه فغزوا مصر ثانيةً، وهو الأمر الذي يلتقي مع تاريخ مانيتون عبر يوسفيوس، وأكد عليه لويس عوض، حيث علمنا أن هناك غزوتين للهكسوس، غزوة أولى كبرى تم طردها على يد أحمس، ثم غزوة هكسوسية متأخرة حدثت زمن فتنة بني إسرائيل، وقائدهم أوزرسيف الذي أرسل يطلب مددًا هكسوسيًّا عند ثورته، فدخل الهكسوس مصر مرةً أخرى، لكن لتتم هزيمتهم هزيمةً نهائية وأخيرة على الحدود المصرية.

لكن ألا نكون بذلك كمن يصنع من مادةٍ قليلة ضئيلة، بناءً طويلًا عريضًا يقوم على أساسٍ هش، على إشارةٍ يتيمة وردت في نصٍّ ضمن نصوصٍ حيثية كثيرة أخرى؟

هنا كان لا بد من المثابرة والدأب والمشقة، سعيًا وراء ما يمكن العثور عليه من قرائن، وهي ما وجدناه في حديث المؤرخين الكلاسيك، عن شعوب اسكيث أو سكاث؛ لأن

---

[٢٩] نفسه، ص٨٥.

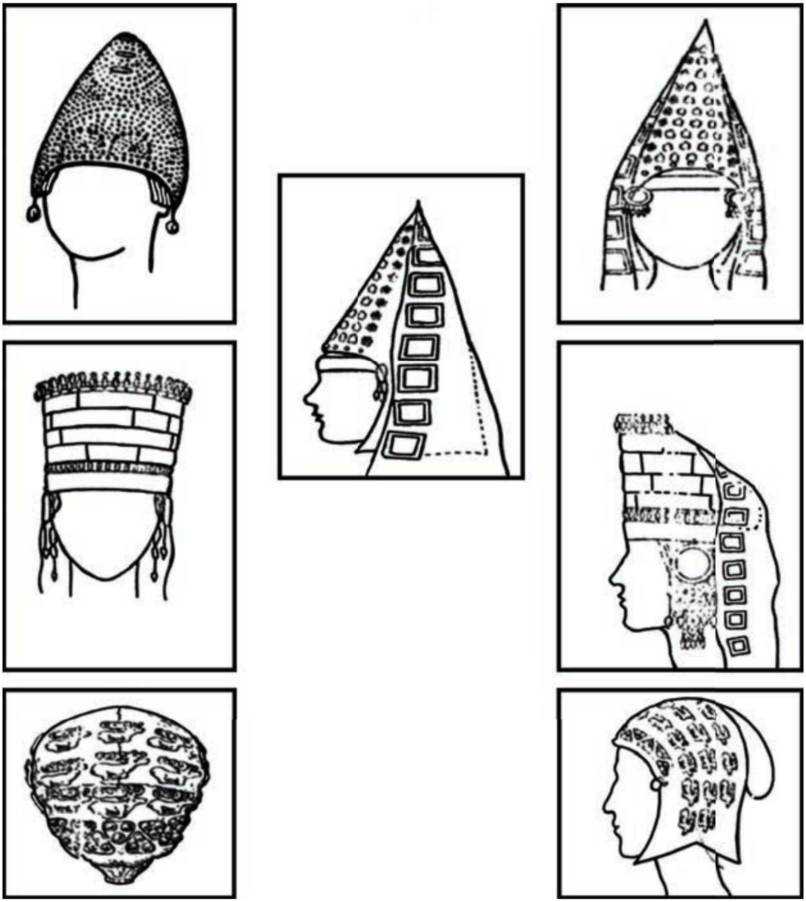

شكل رقم «١٥٠»: ألبسة الرأس عند الإسكيث، لاحظ الاستطالة.

«هيبوقراط» في كتابه: «حول الماء والهواء والأقاليم»، وهو كتاب في الطبيعيات، محدثًا عن الشعوب التي عاشت في المنطقة الفاصلة بين أوروبا وآسيا، أي عند أرارات وقزوين تحديدًا، يقول:

> أولًا سأتحدث عن طوال الرءوس؛ لأنه ليس هناك شعب آخر على الإطلاق له مثل تلك الجماجم. وقد ساهمت مجموعة من العادات إلى تلك الاستطالة في

الرءوس، ثم أسهمت الطبيعة بعد ذلك بدورها في دعم تلك العادات، وقد أتت تلك العادات من اعتقاد تلك الشعوب، أن طويل الرأس نوعٌ مميز من البشر، فعند ولادة الطفل، وطالما كانت عظام الرأس لينة لم تتصلب بعد، يجبرون الرأس على الاستطالةٍ بلفائف، الأمر الذي يشوه الشكل الطبيعي للرأس فتزداد استطالتها. وفي البداية كانوا يفعلون ذلك خضوعًا لعاداتٍ موروثة، لتأتي رءوسهم بهذا الشكل بفعلٍ قسري. لكن مع الوقت أصبحت الرأس تأتي طويلة بحكم الميلاد الوراثي، أما الآن فقد اختفى طول الرأس بسبب اختلاطهم بالزواج من شعوبٍ أخرى، وهذا رأيي فيما يتعلق بهذه الظاهرة.[٣٠]

ولأن الحيثيين فيما زعمنا قبائل إسكيثية، فقد كان طبيعيًّا وغير مفاجئ أن نقرأ عند «جرني» في كتابه «الحيثيون» قوله:

من الحفريات بفحص الجماجم التي وجدت في عدة مواضع بالأناضول، وُجد أن معظم السكان كانوا طوال الرءوس، وذلك خلال الألف الثالث قبل الميلاد، على مزيجٍ قليل بالأنواع القصيرة العريضة الرءوس.[٣١]

هذا وقد عثرنا عند مكسيلاك القرياندي على نصٍّ مؤيد يقول: «وقد عاش شعب من ذوي الرءوس الطويلة خلف البخاريين.»[٣٢]

ولعلنا لم نزَلْ نذكر ما قلناه في باب عادٍ وثمود، ونقلنا منه وصفًا عينيًّا لمقابر منطقة مقنا على الساحل الشرقي لخليج العقبة، وفي محيط بلاد الحجر وآدوم، حيث يقول الشاهد: عثر على كثيرٍ من الجماجم الغريبة الشكل في طولها. والجماجم أكبر بكثيرٍ من جماجم الناس العاديين.[٣٣]

---

[٣٠] د. ت. م. كوزنيتسوفا: الإسكيثيون ... سبق ذكره، ص٨٧، ولاحظ أن كلام أبو قراط في وراثة العادة يعود لزمنٍ بعيد لا يتفق مع ما يعرفه العلم الحديث.

[٣١] جرني، الحيثيون ... سبق ذكره، ص٢٧٧.

[٣٢] مكسيلاك القرياندي «كاريانديسكي»: جغرافية البحر المتاخم لأوروبا وآسيا وليبيا المأهولة، ترجمه إلى الروسية لاتيثيف، دار نشر المدرسة العليا، موسكو، ١٩٩٢م، ترجمه إلى العربية خصيصًا لهذا العمل الفنان ألكسندر مولستوف والدكتورة عزة الخميسي، الفصل ٨٥.

[٣٣] قثامي ... ص٣٨٨.

ثم نجد عند جرني إشارات لاسم منطقة عاش فيها الحيثيون وردت في الأساطير اليونانية، مرتبطة باسم ملك حقيقي من ملوك الحيثيين، إلا أن اليونان إطلاقًا لم يعرفوا الدولة الحيثية في كتاباتهم، فقط كانوا يشيرون إلى الاسكيث، مما يعني حسب نظريتنا أنهم قد عرفوا الحيثيين ولكن باسم سكيث، وتقول إشارة جرني:

> وأخيرًا فلدينا القصة الخرافية التي حفظها استفانوس البيزنطي، وهي أن مدينة ساميليا في كاريا قد أسسها شخصٌ يُدعى موتيلوس، الذي استقبل هيلين وباريس في رحلتهما، من إسبرطة إلى طروادة على ما يُظن، ويبدو أننا نجد هنا ما يذكرنا بالمعاهدة الإقطاعية التاريخية بين مووتاليس وألاكساندوس.[٣٤]

استفانوس هنا يحدثنا عن مدينةٍ أسسها ملك، يُدعى موتيلوس أو مووتاليس في كاريا، وأنه استقبل الأشخاص الأسطوريين هيلين وباريس، القادمين من إسبرطة إلى طروادة. وقد تم الكشف عن طروادة في أقصى غرب الأناضول، مما يعني أن مووتاليس كان ملكًا على الأناضول. ونحن نعلم بوجود ملك بهذا الاسم متكررًا في قوائم ملوك الحيثيين، وهو دليل آخر قوي على رأينا أن الحيثيين كانوا هم المعروفين باسم الإسكيث عند اليونان. كما نعلم من عالم الأجناس واللغات «ماكلستر»، أن بلاد كاريا هذه حيث حكم مووتاليس، على خريطةٍ رسمها لبلاد الحيثيين بالأناضول، كانت تقع على ساحل المتوسط المحاذي لبلاد اليونان في جنوب غربي شبه جزيرة الأناضول، مما يقطع بأن اليونان قد عرفوا الحيثيين، خاصة أن الحيثيين قد أقاموا دولتهم وعاصمتهم في بلاد الأناضول الملاصقة لبلاد اليونان، وكانت امتدادًا معلومًا لها. لذلك يكون غريبًا تمامًا ألا يعرف اليونان شيئًا عن الحيثيين، اللهم إلا إذا كانوا يعرفونهم كما نقول باسم الإسكيثيين. وكان عدم ذكرهم لديهم يكمن في كونهم أطلقوا عليهم اسمهم الأصلي «سكيث»، ذلك الاسم الذي تكرر كثيرًا في قصصٍ طويلة، كتبها اليونانيون عن شعب السكيث أو السكاث. وهو ما يؤكد ما قلناه بهذا الصدد، إن الحيثيين من قبائل السكيث أو هم قبائل سكيثية، ثم نتذكر كيف استبعد المؤرخون الإشارات القديمة إلى الآراميين زمن الملك الأكدي نرام سين، واحتسبوها مجرد تشابه في الأسماء؛ لأنهم رفضوا وجود الآراميين في المنطقة في ذلك الزمن المبكر، لكن لما كنا قد احتسبنا الآراميين والحيثيين

---

[٣٤] جرني، الحيثيون ... سبق ذكره، ص٨٠.

عناصر إسكيثية هندوآرية، فإن ذلك يفسر لنا قولًا آخر جاء عند العاهل البابلي نرام سين، يقول فيه أنه حارب حلفًا مكونًا من سبعة عشر ملكًا، بينهم الملك الحيثي بامبا، مما يقطع بوجود الحيثيين في ذات الزمن الذي ينكره المؤرخون، ويقولون إن الأناضول كان يسكنه شعب سابق للحيثيين، أعطوه اسم البروتوحيثيين. وقد ورد ما يشير إلى أن أعضاء هذا الحلف كانوا جميعًا يسمون «هوارواس»، الذي هو ببساطة بعد حذف التصريف «هوارو» أو الحوريين؛ لأنه من المستحيل أن يكون هوارواس اسمًا للملوك الأحلاف السبعة عشر، فهي صفة لا اسم. ومن النصوص نكتشف صفات مشتركة بين الهكسوس والحيثيين، وأهمها نقل الشعوب المهزومة من مواطنها، وتسخير الشعوب المفتوحة في جيش الإمبراطورية، وهو ما نجد له نموذجًا في قول الملك الحيثي المنتصر على بلاد أرازوا؛ إذ يقول:

> وهكذا قهرت بلاد أرازوا، ونقلت جزءًا من السكان إلى خاتوشاش (العاصمة الحيثية [المؤلف])، أما الجزء الأخير فقد أخضعته مكانه، وفرضت عليه المساهمة بفرقٍ من الجند.»[٣٥]

وإذا كنا قد اكتشفنا أن هناك عنصرًا حوريًّا، سكن مديان باسم القينيين أي الحدادين، فإن علم التاريخ يعلمنا أن الحيثيين كانوا هم مُفجري صناعة الحديد وتعدينه، حيث سبق وقرأنا رسالة الملك الحيثي خاتوشيليش، إلى ملكٍ صديق يعاصره، يقول له فيها:

> أما عن الحديد الجيد الذي كتبت لي عنه، فالحديد الجيد غير متوفر في بيت الختم في كيز وواتانا. وقد كتبت إليك أن هذا الوقت غير صالح لإنتاج الحديد. إنهم سينتجون حديدًا جيدًا لكنهم حتى الآن لم ينتهوا، وعندما ينتهون سأرسله إليك، أما اليوم فأنا مرسل إليك خنجرًا من حديد.[٣٦]

ما زلنا نحاول التأكيد على أن الحيثيين كالحوريين تمامًا، عنصرًا إسكيثيًّا هندوآريًّا، أو أنهم كانوا هم ذاتهم، كان العنصر الحيثي ضمن الفئات القائدة لجحافل الهكسوس

---

[٣٥] نفسه، ص١٥٥.

[٣٦] نفسه، ص١١٠.

الهائلة، التي تم تجنيدها من مختلف الشعوب المفتوحة، فنقف مع «إيفار لسنر» يصف الشعب الحيثي فيقول:

> ويعتبر الحيثيون شعبًا غريبًا، أما غرابته فمردها إلى أننا لا نعرف عنه حتى الآن سوى القليل، فضلًا عن الخلاف الكبير بينه وبين سائر الشعوب القديمة التي عرفناها. وتكشف نقوشهم البارزة عن أنهم أناس قصار القامة مكتنزون، عظامهم بارزة وجبهاتهم منحدرة. أما أنوفهم فطويلة ومقوسة قليلًا، أشبه بمنقار الببغاء وذقونهم قصيرة.[٣٧]

وهو الوصف الذي يلتقي مع وصف قديم أكثر تفصيلًا، قدمه اليوناني هيبوقراط لشعب سكيث؛ إذ يقول:

> نتيجة للمناخ تميز الإسكيث بأنهم ممتلئون ومكتنزون، إلى حد عدم إمكان تمييز الأعضاء عن بعضها، فالأعضاء رخوة بدون عضلات، والجزء الأسفل من البطن به قدر عالٍ من المائية والرطوبة. وبفضل هذا الامتلاء يختفي الشعر عن الجسد ويصبحون متشابهين.[٣٨]

ولا بأس هنا إن راجعنا لوحة بلاد بونت، نتفحص ملكة أرض الإله مرةً أخرى، التي تبدو لنا مولدة من عنصرٍ زنجي جنوبي أعطى جلدها لونه، وعنصر حيثي إسكيثي شمالي، تتداخل معه أعضاء الجسد المترهلة، حتى لا يمكن تمييزها فكانت تحمل صفات كليهما معًا، أما المؤكد والناصع الذي لا بد أنه كان، فهو ما نقرؤه عند هيبوقراط مؤكدًا:

> كانت القبيلة الإسكيثية تتميز بالشعر الأحمر الأمغر بسبب المناخ.[٣٩]

وهو اللون الذي رأيناه واضحًا في بلاد آدوم الحمراء، وصفة ذكرتها التوراة لعيسو/آدوم. ويبدو أن الإسكيث عندما هبطوا جنوبًا على مختلف قبائلهم، وتعدد عشائرهم ولغاتهم الهندوآرية، قد أعطوا لمواطنهم الجديدة في بلاد آدوم، أسماء مناطق

---

[٣٧] إيفارلسنر، الماضي الحي ... سبق ذكره، ص٨٨.

[٣٨] د. ت. م. كوزنيتسوفا: سبق ذكره، ص٨٩.

[٣٩] نفسه، ص٩٠.

قديمة عزيزة في مواطنهم الأصلية، فإذا كنا قد وصلنا إلى أن بلاد آدوم، كانت عند المصريين باسم بلاد بونت، فهو ما يؤكده، ويؤكد كل رحلتنا البحثية، أن نجد ذات الاسم هو الذي كان ولم يزل يطلق، على منطقة شرقي البحر الأسود الذي جاء منه السكيث، ممثلًا في مدينة بونت وإقليم بونت، حتى إن البحر الأسود يحمل في تلك المنطقة اسم بحر بونت. أما الجبال الفاصلة هناك مع الجنوب فهي جبال بنطس، أو بنط بحذف التصريف الاسمي «س». ثم إن الإسكيث قد عبدوا ربًّا، عُثر له على نموذج في أدغالٍ قريبة هناك، وأنه كان هناك على جبلٍ يحمل اسمًا شديد الدلالة، فقد كان ذلك الجبل في تلك البلاد البعيدة، دخل العمق التركي يحمل اسم الجبل الأقرع، الذي تكرر اسمه بعد ذلك في منطقة حوض المتوسط الشرقي، فنجد الجبل الأقرع في سوريا الآن كان مسكن الإله البعل، كذلك نجد الجبل الأقرع في بلاد آدوم، وكان دومًا يحمل اسم جبل كاسيوس أو الكاسي، وهو ما نجده في جبال قاسيون، كما نجده في منطقة الكسارون الآن شمالي سيناء الغربية على ساحل المتوسط، وظل يحمل اسم «كاسيوس» حتى زمن الغزو العربي، ويعني الكاسي أو السكيثي، دالًّا على أصله وأصل أصحابه، الذين تركوا اسمه أينما ذهبوا.

والآن نأتي إلى منطقةٍ مفصليةٍ في البحث، عن إشاراتٍ واضحة في كتاباتٍ هندوآرية، تشير إلى غزوٍ هندوآري حدث لبلاد مصر، يمكن أن يفسر لنا وجود العنصر الهندوآري، قائدًا لجموع الهكسوس، فنقرأ عند «ديودور الصقلي»، وهو يحدثنا عن قبائل شعب سكيث أو سكاث:

> بفضل جسارتهم وقواتهم المحاربة احتلوا مناطق واسعة، وأضفوا على قبائلهم مجدًا وسيطرة كبيرة. في البداية عاشوا على نهر الأراكس (نهر يصب في بحر قزوين [المؤلف]). وفي الماضي البعيد تحت قيادة ملك محارب، يتميز بقدراتٍ عظيمة، أقاموا لأنفسهم عرشًا على الجبال امتدَّ حتى القوقاز. وفي الأرض المنخفضة امتدت أراضيهم حتى البحر المحيط. وتميزوا بالشجاعة والمواهب الاستراتيجية، وأخضعوا بلادًا شاسعة بعد نهر تانيس، وحتى بلاد الفيريجيين (آسيا الصغرى [المؤلف])، وبعثوا بعثات عسكرية انتشرت في جميع الأراضي، وأخضعوها حتى وصلوا نهر النيل المصري، وسخروا العديد من القبائل التي تعيش بين هذه الحدود، ونشروا سيطرتهم حتى المحيط الشرقي.

شكل رقم «١٥١»: هجرة قاطعي الرقاب.

واستوطن هؤلاء الملوك ومعهم القبائل التي أخضعوها بلادًا كثيرة، وأهم هذه الحركات الاستيطانية حركتان: الأولى من آشور إلى بلاد بافلاجونيا وبونت، والثانية من ميديا إلى نهر تانيس.[٤٠]

إذن امتدت الأراضي التي استولى عليها الإسكيث، بل وسخروا أهلها في العسكريتاريا السكيثية، بل واستوطنوا تلك الأراضي، حتى البحر المحيط أو الكبير وهو التعبير الكلاسيكي، الدال على البحر الأبيض المتوسط، وكانت حركة الاستيطان الأولى في البلاد الممتدة شمالًا عند أرمينيا من بافلاجونيا إلى بونت على البحر الأسود، إلى بلاد آشور أي العراق الشمالي، ثم كانت الحركة الثانية من ميديا إلى نهر تانيس، ولا نظن المقصود بميديا هنا ميديا الأصلية بشمالي إيران، إنما ميديا (ميديان)، لسببين جوهريين،

[٤٠] ديودور الصقلي، ترجمه إلى الروسية لاتيشيف، دار النشر المدرسة العليا، موسكو ١٩٩٢م، ترجمه لهذا البحث ألكسندر مولستوف وعزة الخميسي، الكتاب الثاني، الفصل ٤٣.

الأول: ما جاء في تعقيب الباحث الروسي المتخصص، الذي ترجم نص ديودور إلى الروسية، حيث عقَّب بأن الإحداثيات المعطاة عند ديودور الصقلي لا تشير إلى ميديا فارس، لكنها تشير إلى موطنٍ آخر مجهول. وهذا المجهول برأينا هو بلاد مديان في سيناء ووادي عربة وشمالي الجزيرة. والسبب الثاني هو ذلك النهر الذي يرد احتلال مناطقه في الترتيب، بعد ميديا. وجاء ذكره باسم «تانيس»؛ لأن تانيس اسم الفرع النيلي قبل الأخير للدلتا شرقًا، فهو أول فروع الدلتا القديمة المتلاحمة مع البوادي السينائية، وكانت مدينة تنيس أول محطة عامرة كبرى بعد بلاد مديان، عند الاتجاه الشرقي إلى الغرب دخولًا إلى مصر في الغرب، وعلى رأسه عند المنزلة كانت تقع المدينة، التي منحته اسمه مدينة «تانيس»، هذا بالطبع مع عدم إغفال قول ديودور الأول، أنهم أخضعوا جميع البلدان، حتى وصلوا نهر النيل المصري.

ثم يوضح لنا «ديودور الصقلي» من أين جاءت فكرة النساء الأمازونيات في الأساطير اليونانية، وهن نساء محاربات يظهرن كثيرًا في الأساطير الملحمية المسرحية اليونانية، مصحوبات بجوقةٍ من النساء يسمين الفينيقيات، فيقول:

> ملكت على السكيث امرأة تتميز بالقوة، وعند هذا الشعب تتدرب المرأة على الحرب مثل الرجل، ولا تقل عنه شجاعة، وعديد من مآثرهن العظيمة صنعتها نساء عظيمات (لا بأس أن نتذكر هنا ملكات بلاد عريبي [المؤلف])، وعلى هذا النحو تأسست قبيلة الأمازونيات، التي تميزت بالشجاعة التي مكنتها من احتلال دول كثيرة، كانت تشكل جزءًا كبيرًا من آسيا وأيضًا من أوروبا. وأحرقوا الثدي الأيمن للأطفال الإناث، حتى لا يعيقهم عند الحرب عند وصولهن سن البلوغ. وهذه الملكة أخضعت كل جيرانها حتى وصلت إلى نهر تانيس، واستحوذت على الجزء الأكبر من آسيا، ونشرت سيطرتها في سوريا.[٤١]

ولو كان نهر تانيس كما ذهب بعض الباحثين، ربما كان نهر الدنيبر في عمق الشمال الآسيوي، لما ذكر معه في نص ديودور السابق، ولما قيل هنا مترافقًا مع سيطرة السكيث الأمازونيات على بلاد سوريا. وحتى الآن لم يتم تقديم تفسير مُرضٍ، لمعنى كلمة الأمازونيات رغم شهرتهن لدى اليونان. لكن وفق ما جمعناه حتى الآن لن نكون

[٤١] نفسه، الكتاب الثاني، فصل ٤٣، ٤٤، ٤٥.

مجازفين، إذا قرأناه على أصوله عمزونيات أو عنزيات ذوات العنز والماعز؛ حيث نعلم أن حرف «م» يتبادل مع حرف «ن» كما في عنَّ وعمَّ، ولو طالعنا ما أمكن جمعه من لوحات الفن السكيثي، لوجدناه جميعًا لا يكاد يخلو في لوحة واحدة منه من صورة العنز، حتى تلك الآثار التي وجدناها في محيط بحر قزوين.

ولمزيدٍ من التأكيد على أن العنصر الهندوآري، الذي تواجد مع الهكسوس في مصر، يعود بأصوله الجنسية إلى شعوب السكيت، نقرأ فليكوفسكي؛ إذ يؤمن أن الهكسوس العمالقة كانوا بالتحديد ساميين من جزيرة العرب، لكنه يعجب أشد العجب من بربرية وهمجية وقسوة الهكسوس في مصر فيقول:

> كان الغزاة العماليق قادمين من شبه الجزيرة ... ومثَّل العماليق بأجسام الجرحى والمساجين، وقطعوا أطرافهم، وكانوا على درجةٍ كبيرة من القسوة والفظاظة في نواحٍ كثيرة، بما يعجز عنه الوصف. وخطفوا الأطفال والنساء، وأحرقوا المدن ودمروا الآثار والأعمال الفنية، وجردوا مصر من ثرواتها وكنوزها. وكانوا يبترون أعضاء وأطراف الجرحى ويمثلون بهم، ويهرطقون ويجدفون بكُفرٍ صارخ بقذف الأعضاء المبتورة من الجرحى نحو السماء، ويسخرون من الرب.[٤٢]

كلا لم يرَ فليكوفسكي في هذه الفظاظة القاسية سوى هرطقة وكفر؛ لأنه لم يكن يعلم بعدُ ما علمنا وفق خطتنا الحميدة، حيث نجد تلك القسوة دليلًا آخر على وجود عنصر آري سكيثي في الهكسوس، وذلك عندما نقرأ عنها عند مؤرخي اليونان، فنكتشف أن تلك القسوة لم تكنْ مجرد قسوة، إنما إضافة لذلك كانت طقسًا دينيًّا تعبديًّا، لدى شعب سكيث بالذات وبالتحديد، ولم تكن غايةً في حد ذاتها، كانت قربانًا للملك وللإله، فيقول هيرودوت عن شعب السكيث:

> في كل عامٍ يضيفون إلى مرتفع ١٥٠ حمولة من حزم أعواد الخشب الجاف. وفوقه كانوا يغرسون العقناق Akunak (يقول المترجم إنه ربما كان سيفًا حديديًّا) يمثل الإله، ويقدمون لهذا العقناق كل عام كافة أنواع القرابين. في

[٤٢] فليكوفسكي، عصور ... سبق ذكره، ص١١٦، ١١٨.

> أسفل هذا المرتفع يقومون بالآتي: يقطعون الكتف الأيمن من موتى العدو بالذراع، ويقذفون بها في الهواء.[٤٣]

وفي نصوص مصر القديمة، نجد السجاز الهكسوس يوصفون بوصفٍ يأتي كما لو كان معنى لكلمة سجاز، فهم قاطعو الرءوس أو قاطعو الرقاب، ومن جانبنا؛ فقد عثرنا على تفسيرٍ للكلمة، وهو بذاته دليل آخر على مدى نجاح فروضنا، فنقرأ هيرودوت يحكي عن قبائل سكيث قائلًا:

> حين كان السكيثي يقتل لأول مرة، كان لا بد أن يشرب من دم عدوه، ويسلخ جلد الرأس بقطع دائرة حول الأذنين، ويسلخها عن الجمجمة، ويقدمها للملك. ثم كانوا ينشرون الجمجمة أسفل الحاجبين ثم ينظفونها، وإذا كان الشخص فقيرًا كساها بالجلد، وإن كان ثريًّا كساها بالذهب، ثم يستخدمونها في الشراب.[٤٤]

وقد سبق وعلمنا أن هناك تفسيرات تاريخية قديمة، سِيقت خلال القرن الرابع والثالث قبل الميلاد، لخروج بني إسرائيل من مصر، كان من بينها القول بأن الإسرائيليين لم يكونوا يأخذون بقواعد النظافة عند المصريين، ومع طول عشرتهم للحيوانات، أصيبوا بأوبئةٍ جلدية حادة، اضطر معها المصريون إلى طردهم من البلاد؛ خشية تفشِّي الداء في مصر، وربما وصلنا من جانبنا إلى تفسيرٍ لسر انتشار ذلك الوباء، بين الهكسوس في عادات شعب السكيث، وهو ما يمكن فهمه من نص هيرودوت القائل:

> يأخذ السكيث بذور نبات يشبه نبات التيل (نرى من جانبنا أنه أحد مواد البخور [المؤلف])، ويزحفون تحت غطاءٍ، ويلقون بالبذور على أحجارٍ سبق تسخينها إلى درجة الاحمرار، فتُحدث دخانًا كثيفًا، ويستمتع السكيث بهذا الحمام من البخار، فهو لديهم بديلٌ عن الاغتسال، فهم لا يغسلون أجسادهم بالمياه أبدًا.[٤٥]

---

[٤٣] هيرودوت، الطبعة الروسية في كتاب كوزنيتسوف الإسكيثيون، الكتاب ١٧ الفصل ٦٢ الفقرات ٤، ٢، ترجمه لهذا البحث ألكسندر مولستوف وعزة الخميسي.

[٤٤] نفسه، كتاب ١٧، فصل ٦٤، ٦٥.

[٤٥] نفسه، كتاب ١٧، فصل ٧٥، فقرة ٢.

لقد كان الإسكيث يعتقدون أن مواد التبخير كانت أطهر للجسد من الماء، وهو أمرٌ لا يعتقده إلا من كان إنتاج مواد التبخير لديه أمرًا أساسيًّا وتأسيسيًّا، ومصدرًا اقتصاديًّا عظيمًا يستحق هذا التقديس. ولمزيدٍ من التعضيد في كون إسكيث كانوا هم أصحاب الماعز بين الهكسوس، نستمع إلى المؤرخ الكلاسيكي يفستافي «يوسابيوس [المؤلف]»، يحكي لنا عن بعض قبائل سكيث في مواطنهم الأصلية، فيقول:

> والتيباريون الذين يسمون تيباريين، أي أصحاب الماعز، يعيشون في المناطق حتى أرمينيا الصغرى. وخلفهم يعيش الكاليبيون الذين استوطنوا أرضًا قفرًا وقاسية، وكانوا بارعين في معالجة الحديد الخام، وهم شعب بونتي.[٤٦]

ويبدو لنا أن اسم الكاليبيين ونسبته إلى كالب، قد ترك بصمته واضحة فيما بعد في اسم أحد تلامذة موسى (كالب بن يفنا)، وأصبح شخصًا لا يقل أهميةً عن يشوع بن نون بعد موت موسى. ثم تند ذكريات هنا وهناك في كتابات الكلاسيك، عن علاقاتٍ للمصريين بذلك الشعب المعروف باسم السكيث، تأتي في عباراتٍ سريعة غامضة، لكنها تفصح مع كل ما جمعنا وتصبح شديدة الوضوح، ومن نماذج ذلك ما جاء عند بومبي تروج يقول:

> وسيطرت السكاث على آسيا ثلاث مرات، أما هم فلم يمسسهم أحد ولم ينتصر عليهم أحد، وكان أول من أعلن الحرب ضد السكاث هو الملك المصري ثيزوسيس[٤٧] (يقصد الفرعون المشهور لدى اليونان باسم سيزوستريس [المؤلف]).

وفي رسالةٍ من السكيث أو السجاز قاطعي الرقاب إلى الإسكندر المقدوني، نقرأ القول بعد حكاياتٍ طويلة عن ماضٍ عريق.

---

[٤٦] يفستافي، تعليق على جغرافية الأراض لديونيسي، ترجمه إلى الروسية تشيفنكوف .E. B كتاب الإسكيثيون، دار نشر المدرسة العليا، موسكو، ١٩٩٢م، ترجمة مولستوف وعزة الخميسي، الفصل ٧٦٧.

[٤٧] بومباي تروج، تاريخ فيليب، اختصره مارك يونيان، ترجمه للروسية لاتيشيف المصدر السابق، كتاب ٢، فصل ٣، فقرات ٢، ١.

> وهكذا انتصرنا على الملك السوري وملك الفرس وميديا (يعقب المترجم الروسي المتخصص، بأن ميديا هذه ليست ميديا فارس، إنما هو بلد مجهول [المؤلف])، وأصبح الطريق مفتوحًا أمامنا حتى مصر نفسها.[٤٨]

نظننا الآن نقف على أرضٍ صلبة، بعد أن عثرنا على جميع أصول المحتل الهكسوسي، وبخاصة ذلك العنصر الغامض الهندوآري، الذي أثبت وجوده دون دلائل كافية، ولا قرائن تشير إلى أسماء قبائله ومواطنها، والذي ثبت أنه من قبائل سكيث، وهو الأمر الذي جهدنا عليه طويلًا لتأكيد نظريتنا في اتحاد العناصر المتلاقحة في بلاد آدوم ومديان في سيناء وآدوم وبوادي الشام، لينجبوا شعبًا هجينًا مولدًا، ويفرزوا لغته السامية الشمالية، وكان بين هؤلاء الشعب العبري الإسرائيلي، المرموز له دومًا بأورشليم، حيث يضيء أمامنا نص الكتاب المقدس، كاشفًا العنصرين العموري الأموري الجنوبي الحيثي الآرامي السكيثي الشمالي، فيقول:

> هكذا قال السيد الرب لأورشليم: مخرجك ومولدك من أرض كنعان، أبوك أموري، وأمك حيثية.
>
> (حزقيال، ١٦: ٣)

ليكرر مناديًا بلسان حزقيال النبي:

> أنت وأخت أخواتك اللواتي كرهن أزواجهن وأبناءهن، أمُّكن حيثية وأبوكن أموري.
>
> (حزقيال، ١٦: ٤٥)

أما النظرية التي كانت تتوارى في الظل طوال الوقت، حول أصل الأقوام السامية وموطنها الأول الجغرافي، فهي تلك التي تقول إن بوادي الشام كانت المهد الأول للأقوام

[٤٨] كيونت كورتسرووف، المصدر السابق، الكتاب السابع، فصل ٨، فقرة ٣٤.

السامية، وبالذات بلاد عرابة، وقد أكد كونتو أن بوادي الشام كانت محطة استراحة طويلة، في هجرة الأقوام السامية من موطنٍ أخرى أصلية.[٤٩]

هكذا انتهينا من سكيث، بينما ما زال علم التاريخ التقليدي، يبحث عن من هم السجاز، لينتهي من حل اللغز إلى ذات الحل، الذي لجأ إليه في مشكلة الخابيرو، وهو أنهم مجرد شذاذ آفاق، لا يرتبطون بعنصرٍ معلوم ارتباطًا واضحًا، وهو ما يعبر عنه قول المصرلوجست (آلدريد):

> وكانت هناك فئة تبدو لنا — أكثر غموضًا هي فئة الساجاز كما ذكرت على الألواح المسمارية، وهم مطابقون للخابيرو، الذين أطلقت عليهم النصوص المصرية اسم العابيرو. وكان يندرج تحت هذا الاسم كل العمال غير المدربين، وكل العبيد من أسرى الحروب، ويبدو أن هذه الفئة كانت من أصولٍ عرقية مختلفة، ولغاتهم أيضًا مختلفة، يتجولون في فلسطين وسوريا، يعيشون على السلب والنهب أو الخدمة كمرتزقة.[٥٠]

ساجاز أو سكيث أو الحيثيون هم إذن العنصر الهندوآري الآرامي، الذي هبط من الشمال ليسكن بلاد مديان بلاد الأيك وأشجار العطور، مع الزنوج الأفارقة ومع العموريين القادمين من جنوب الجزيرة، حتى إن كلمة شجرة العربية هي الأصل الذي تعود إليه كلمة SAGARIS اليونانية، وهو نوعٌ من السلاح كان يستخدمه الإسكيثيون، وتسميته سكيثية وليست يونانية، أما الرومان فيطلقون اسم سكاريا على السيف القصير العريض، ومن الشجرة في العربية الشواجر، والشواجر في لسان العرب هي سيوف الحديد.[٥١]

ويحيطنا «آرثر كيستلر» علمًا أن كلمة «سا – جاز» مركبة من شقين، يعني شقها الثاني «جاز»، فعل بمعنى يتجول في اللغة التركية،[٥٢] أي البدوي أو التائه أو الهائم

---

[٤٩] Conteneau, Ciuilisation d'Assur et de Babylone, Paris, Payot, 1951, p. 6.

[٥٠] سيرل آلدريد، إخناتون، ترجمة د. أحمد زهير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م، ص٤٣، ٤٤.

[٥١] علي الشوك، جولة ... سبق ذكره، ص٦٧، ٦٦.

[٥٢] آرثر كيستلر، القبيلة الثالثة عشر ويهود اليوم، ترجمة أحمد نجيب هاشم، الهيئة المصرية للكتاب، ص٢٩، ٢٨.

على وجهه. وفي العربية «اجتاز» انتقل من موضعٍ لآخر، وعرب اليوم بجزيرة العرب والخليج، ما زالوا يطلقون على العابر المتنقل أو المسافر اسمه: العبري ... و... التركي. إنها بقايا التاريخ في اللسان حتى اليوم.

هنـــداوي